بلاغة القرآن في مقامات الاعتراف بالزلل

رسالة ماجستير

رغدة أبو بكر عبد اللطيف كردي

تقديم

الأستاذ الدكتور
محمد بن علي الصامل

الأستاذ الدكتور
إبراهيم بن عبد الله السماعيل



بلاغة القرآن
في مقامات الاعتراف بالزلل
رغدة أبوبكر عبداللطيف كردي
الطبعة الأولى ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٩ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٦٧٦ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٨/٢١٨٧٤
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
978-977-225-489-7

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأى المؤلف وهو المسئول عنها وحده



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كردى ، رغدة بنت أبوبكر بن عبداللطيف .
بلاغة القرآن في مقامات الاعتراف بالزلل /
رغدة بنت أبوبكر بن عبد اللطيف كردى
. - ط١ ، القاهرة :
مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٨
٦٧٦ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٢٢٥ ٤٨٩ ٧

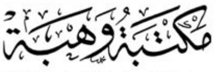
١ - القرآن ، بلاغة .

أ- العنوان

٢٢٥







١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الأستاذ الدكتور محمد بن علي الصامل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وإمام المتقين نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإنه يسعدني المشاركة في تقديم هذا العمل العلمي الذي كان رسالة علمية عنوانها : بلاغة القرآن في مقامات الاعتراف بالزلل ؛ للباحثة الفاضلة « رغدة بنت أبو بكر بن عبد اللطيف كردي » .

وهذا الموضوع طريف نفيس تتبعت الباحثة الفاضلة فيه المقامات التي ورد فيها الاعتراف بالزل ، واجتهدت مستعينة بالله أولاً ، ثم بمصادر التفسير وأسباب النزول وعلوم القرآن لتحديد أطراف الاعتراف ، ورصد أساليبه وتنوعها وعلاقاتها بموضوع الزلل وأطرافه ، وما في هذه الأساليب من دلائل إعجاز القرآن المجيد ، ويعد مثل هذا الموضوع من الموضوعات الثرية التي تحتاج من الباحثة تنويعًا في المصادر ووفرة في المعلومات ذات العلاقة بالموضوع ؛ ليكون تحليل الباحثة لتلك المواضع ملائمًا لمكانة الإعجاز البلاغي للقرآن .



ذلك عن البحث ، فأما الباحثة فقد أدركتُ حرصها ورغبتها في التميز العلمي منذ بدأت باستشارتي عن الموضوع والتخطيط له ؛ فقد اتضح لي أنها تسعى لإتقان العمل قبل أي شيء آخر ، ثم تأكدتْ لى هذه الصفة فيها بعد أن أُسنِدَ إليَّ الإشراف على هذا العمل العلمي ، وبدأتُ في تدوين ملحوظاتي على ما ترسله إليَّ مما تنجزه أولاً بأول ، فلم أرَ منها تبرمًا ، بل كانت تتقبل الملحوظات بصدر رحب وبنفس راضية ، أو تناقش المشرف بأدب جمٍّ وعلمية واضحة .

ولقد بذلت الطالبة وسعَها في إعداد البحث والحرص على إتقانه ، ومما ساعدها على إنجازه وإتقانه أن الله أنعم عليها بحفظ القرآن ، والحصول على إجازة في القراءات ، مما يَسَّر لها كثيرًا من الأمور التي أعانها حفظها على تذكرها واستحضارها، والإلمام بها ، إضافة إلى ما كنت أرقبه في كتابة الباحثة من مهابة عظيمة لكتاب الله في نفسها ، مما يدعوها إلى التدقيق والتمحيص والتورع قبل أن تكتب رأيها .

ولا أنسى الإشادة بما قدمته لها زميلتنا الفاضلة الدكتورة زينب الكردي من رعاية علمية ، ومتابعة شخصية ، فقد كانت تُعِيرُها كثيرًا من المصادر والمراجع التي كانت تحتاج إليها ، فهنيئًا للباحثة بعمتها الدكتورة زينب ، وهنيئًا للزميلة الدكتورة زينب بابنة أخيها الجادة ، ولعل الله أكرم الباحثة حين اتخذت من عمتها قدوة لها في الجد والإنجاز والإتقان .

ومع أن الباحثة كغيرها من الباحثين والباحثات تمر بها ظروف قد تعوق استمرار العمل وإنجازه على وتيرة واحدة لا يقل الحد الأدنى منها عن درجات التميز ، إلا أن هذا لم يؤثر على الباحثة سوى في وقت الإنجاز .

ولهذا آمل أن تكمل الباحثة المسددة مسيرتها العلمية على المنهج نفسه ، وأن يوفقها الله لتحقيق طموحاتها العلمية بما يرضي ربها الكريم الذي تسعى جاهدة لخدمة كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وقد يَسَّرَ الله مناقشة هذه الرسالة صباح يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر صفر عام سبعة وثلاثين وأربعمائة وألف للهجرة ، في مدينة الملك عبد الله للطالبات بالرياض في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وسرَّني مشاركة زميلين كريمين في المناقشة هما : الأستاذ الدكتور عيد محمد شبايك الأستاذ في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ، والدكتور إبراهيم بن عبد الله السماعيل الأستاذ المشارك في القسم كذلك ، وقد أبديا مشكورين ملحوظات مهمة أفادت منها الباحثة ، وأخذت بمعظم ما تفضلا بذكره ، فلهما عنها وعني الشكر والدعاء .

الرياض العامرة في ١٥ من رجب المعظم ١٤٣٨هـ
الموافق : ١٢ إبريل ٢٠١٧م

الأستاذ الدكتور
محمد بن علي الصامل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الأستاذ الدكتور إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين ، وبعد :

فقد تشرفت بقراءة كتاب الأخت الفاضلة الباحثة الكريمة الأستاذة رغدة بنت أبو بكر عبد اللطيف كردي سلمها الله تعالى المعنونة بـ(بلاغة القرآن في مقامات الاعتراف بالزلل) ، وكنت في قراءتها متفيئًا ظلال مائدة من موائد القرآن الكريم فيما كتبته الباحثة المباركة الأخت الفاضلة المتقنة الأستاذة رغدة بنت أبو بكر بن عبد اللطيف كردي سلمها الله تعالى ووفقها ، وبارك في بيت علمٍ مبارك نشأت فيه ، وترقَّت فيه مدارج الكمال ناهلة من أهله رجالاً مباركين ونساء مباركات ، حفظ الله الجميع ، ورحم من سبق منهم إلى ربٍّ كريم غفور ، ووالدينا والمسلمين .

وقد لفت نظري أثناء تشرفي بقراءة هذا السِفر المبارك اشتماله على الخلاصات المفيدة الموجودة في نهايات المباحث والفصول ؛ وهي خلاصات صالحة لإفرادها في كتيب مستقل ، ونشرها في تغريدات مركزة مفيدة ؛ ليفيد منها أهل التخصص وغيرهم .

كما أنني منذ قراءتي هذا الكتاب (يوم كان رسالة علمية قبل مناقشتها) منذ ذلك اليوم كنت أوصي طلابي وطالباتي في الدراسات العليا أن يحذوا حذو



الباحثة الكريمة في هذا المنهج المفيد الجميل ، المتمثل في تناول آيات الذكر الحكيم بالدراسة من حيث التركيز على السياق ، وموضع الشاهد ، ومحل الدراسة الذي هو (الاعتراف بالزلل) هنا ، وما شابهه من مواضيع أخرى ...، حتى يحذو حذوها الدارسون والدراسات في المستقبل . وهنا أكرر توصيتي بأن تقوم الباحثة منفردة ، أو بالتنسيق مع قسم علمي في إحدى الجامعات للتدريب على هذا المنهج المتميز المبارك ؛ لتتحقق المخرجات اللائقة بدراسة كتاب الله تعالى بلاغيًّا .

وكنت في جلسة المناقشة المباركة للرسالة قد رجوت رجاء ، وها هو اليوم تحقق بفضل الله تعالى ثم بفضل همة أختنا الأستاذة رغدة ، ذلك الرجاء الذي أعلنته ساعتئذٍ هو : أن هذه الرسالة من الرسائل التي كنت أرجو لو خصصنا وقتًا للاستماع إليها ، أو توزيع نسخ منها على الحاضرين والحاضرات ، للإفادة من الجواهر التي وفَّق الله تعالى الباحثة الكريمة إليها ، واليوم بحمد الله تعالى قد تحقق هذا الرجاء ، حققه عظيم المنّ والعطاء .

أخي القارئ الكريم ، أختي القارئة الكريمة ، أضمن لكما أنكما ستسعدان وتفيدان من قراءة هذا الكتاب الذي بين أيديكما الآن ؛ لما اشتمل عليه من لغة علمية قوية رصينة ، بقلم أدبي زان بجماله رسوخ العلم وإتقانه ، مع ما اشتملت عليه الدراسة من نتائج آخر المباحث كلها بوجه عالٍ من الدقة يدل على استحضار الباحثة ـ سلمها الله تعالى ـ على مفردات بحثها كلها ، نتائج تطلّ علينا بعدد مباحث الرسالة المباركة ؛ مع بروز شخصية الباحثة في صفحات الكتاب عامّة ، وما وفق الله تعالى من التحليلات الموفّقة ، والفهم السديد للآيات قيد الدراسة ، مع اشتمالها على الجداول التوضيحية والجهد المبارك

المشكور المبذول فيها ، مع حسن التأمُّل ، واستدعاء الثقافة العامة ، والمخزون العلمي للأستاذة الكريمة .

وكل ذلك جاء في حسن سبك رائق بين مقول المؤلفة ومنقولها ؛ فمن الممكن أن نقرأ نصًّا باسترسال ، ليستشعر القارئ والمستمع أنه أمام نص مترابط ، دون ملاحظة التفريق بين المقول والمنقول ؛ لحسن سبكهما .

والمطلع على هذا الكتاب النافع يقف بجلاء على إلمام المؤلفة الكريمة بمفردات بحثها ، والوقوف على المتشابه ، والإجابة عن الأسئلة المحتمل ورودها ، كل ذلك مما يدل على وعيها الكبير ، وفقها الله تعالى .

ومما يميز هذا الكتاب ما منّ الله تعالى به على أختنا المؤلفة الموفقة من حفظ كتاب الله تعالى ، واستظهار القرآن الكريم بجمع هذه المواضع المتفرقة في عدد من سور القرآن الكريم التي بلغت (تسعًا وستين) سورة مُسْتَشْهَدًا بها ، في عدد آيات قارب دون تكرار (ثلاثَمائةٍ وأربعين) آية ، مع عناية متميزة بتخريج حديث رسول الله ﷺ ، والإفادة البيّنة الجليّة من علماء النفس في كتبهم ، ومشافهتهم .

ومن الواضح الجليّ في سمات هذا الكتاب المبارك التجديد والابتكار ؛ حتى إنّ قارئه لا يكاد يتنبأ بما سيطالعه في الصفحات القادمة ، وقد أجادت الأستاذة رغدة في توظيف الإحصاءات المفيدة في الآيات قيد الدراسة ؛ من حيث عدد الورود ، وما يتبعه من تصنيف ، في تنوع في المصادر والمراجع ، وعدم اقتصار على المصادر المألوفة في مثل هذه الدراسات .

كل هذا مما خوّل الباحثة الكريمة أن تكون في قائمة الرائدات في هذا المجال البحثي المتميز منهاجًا وأداء .

حمدًا لله تعالى وشكرًا أن أكرمني بالاطلاع على حروف هذا السِفْر المبارك حرفًا حرفًا ، وشكرًا لأختي الباحثة الموفقة الأستاذة أن تفضلت عليّ بشرف التقديم للكتاب المقدَّم برصانته ورسوخه .

حقَّق الله المنى ، وأنال المبتغى ، وصلى الله وسلم على النبي المجتبى ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الرياض العامرة في ٨ من جمادى الأولى ١٤٣٨هـ
الموافق : ٥ فبراير ٢٠١٧م

الأستاذ الدكتور
إبراهيم بن عبد الله السماعيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أعلى مقامَه ، وتنزّه عن الزلل بكبريائه وأعزّ كلامَه ، وقصّ علينا في كتابه هلاك الأمم وأبقى في الأرض منه علامة ، وجلّ إذ قال : ﴿ **بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ** ﴾ (القيامة:٥) ، ففتح باب التوبة لعباده المذنبين إلى يوم القيامة ،وعلى من كان خُلقُه القرآن صلاةُ الله العلي وسلامُه عليه وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فالكلام الرباني في رقي النظم وآفاق المعاني الرحبة التي حيرت البُلغاء وصف حالة الاعتراف بالزلل من المقصرين بتصوير مميزٍ يمثل الصراع بين العقل والعاطفة ، ويُعبّر عن أحاسيس الانهزام المستعصية أمام النفس ؛ بما تحمل من سماتٍ تبدو جليةً على ملامح المقصّر وطريقة كلامه واختيار ألفاظه ، ولا يخفى ما لأسلوب القرآن الكريم وخصائصه الجمالية من تأثير في النفوس ، وما فيه من ذكرى لأولي الألباب تدعو إلى طول التأمل وإنعام النظر .

وعند الوقوف على جواهر النظم القرآني الفريد يجد المتأمل روعة الترابط بين سبب الاعتراف والمعترَف له ، لتتشكّل مقامات المخاطب ، فالحديث للخالق جل جلاله ليس كالحديث للبشر ، أو لتأنيب النفس ، وتجلّت العلاقات بين المعترِف وطريقة تعبيره عن اعترافه ، تلميحًا أو تصريحًا ، وإيجازًا أو إطنابًا ، ونُطقًا أو إشارةً ، ومدى مطابقة ذلك كله لحالته النفسية التي غالبًا



ما تمتزج بالأسى والانكسار ، وبين موضوع زللــه الـذي اعـترف بـه ، والزمـان والمكان اللذين اعترف فيهما .

ولمّا كان هذا الاعتراف بديعًا في القرآن ، مندرجًا في مقامات تكشِفُ كنوزها للمُتأمل ؛ رأيتُ أن أبحث وفقًا لهذه المقامات ، فنبت هذا العنوان بعد توفيق الله عز وجل : (بلاغة القرآن في مقامات الاعتراف بالزلل) في أرض قسم البلاغة من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وكانت الدراسة لشواهد من القرآن الكريم بلغت ما يربو عن مائة آية .

وبَدءًا فلِقِسْم البلاغة والنقد في مرحلة الماجستير أسبابٌ دفعتني لاختياره ، وتغيير القسم الذي فيه تخرّجتُ في مرحلة البكالوريوس وهو : (قسم القرآن وعلومه) ، كان منها أن أنال شرف البحث في بلاغة القرآن تحديدًا ، ثم أُخبرتُ أن البحث في بلاغة القرآن يتطلّب النجاح في المرحلة التمهيدية بتقدير(ممتاز)، فمنّ الله به وبدأت رحلتي ، **فاخترتُ هذا الموضوع لأسبابٍ تكشفُ عن أهميته** في طياتها ، وهي :

١- الحرص على التزود من منهل القرآن الكريم الذي ربى المسلم ــ في أبلـغ قول ـ علـى التبصـر بـأحوال نفسـه ، والوقـوف عنـد خطئهـا ، ومحاسـبتها لتجنب التقصير في جنب الله جل جلاله ، ومجانبة الإضرار بحقوق العبـاد ؛ أملاً في حسن العاقبة في الدنيا والآخرة .

٢- الحاجة المُلِحّة إلى هـذه القيمـة العاليـة وهـي : (الاعـتراف بالزلـل) ، مـع التأصيل لها بما جـاء في القـرآن لرفـع مسـتوى النضـج والرقـي للفـرد في تعاملاتـه ، وللمجتمـع عامـة وجعلـها سمـة في ثقافتـه مـن منطلـق ديـني وأخلاقي ، لاسيما مـع تفشّـي الاعتـداد بـالنفس ، والاستمسـاك بـالرأي في مختلف طبقات المجتمـع ، وتزايـد أعـداد حفظـة القـرآن الكـريم مـع قلـة العمل به .

٣- إعمال الفكر في الدوافع النفسية التي ارتبطت بأقوال المقصرين التي قصّ الله تعالى كثيرًا منها ؛ ومنها تنبثق روعة البلاغة التي تربط بين حال المتكلم والمتلقي .

٤- تسليط الضوء على قِيَم عالية وقعت في تجارِب أممية سابقة ؛ تتمثل في الاعتراف بالخطأ ؛ صَوَّرَهُ وحي القرآن الكريم ؛ إذ يجد المتدبر في أعماق تلك القِيم رسائل توقظ القلب ، وتنبه الفكر ، وتستثمر التجارب السابقة لتستفيد منها الأمم اللاحقة من خلال التأمل في دلالات بليغ القول المصور لأحوال خطاياهم ـ أفرادًا أو جماعاتٍ ـ ومواقع زللهم ؛ وذلك كله يثري اجتهادات البشر في سبيل إصلاح النفوس وتقويمها .

٥- قيام مفهوم المقامات على حد البلاغة وضابطها ؛ إذ هي : مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال؛ ومما لا شك فيه أن الحديث من خلال الحوارات، وكشف الأسباب التي في ظلالها وُلد الاعتراف ونتج ؛ يبين العلاقة القوية بين المقام وما يقتضيه من كلام وسلوك عام وبين الحال ، ومن هنا يأتي اختيار هذا الموضوع سعيًا للتجديد في موضوعات البلاغة القرآنية بما يحقق الهدف من تدبر كلام الله عز وجل ، والغوص في بحر لطائفه ، والتأمل في دلالات مقاصده .

ولن يتمّ المُراد دون تحديد **أهدافٍ للدراسة** ، فكانت هي :

١- خدمة كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من خلال التأمل في أحوال المقصرين ، والوقوف على صور اعترافهم بخطئهم ، والغوص في أساليب تعبيرهم عن ذلك ؛ لاستجلاء العظات والوقوف على العِبر من ورود هذه الاعترافات في الذكر الكريم ، قال الله تعالى : **﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾** (يوسف:١١١) .

٢- الكشف عن جماليات الاعتراف بالتقصير حين ينبعث تارة من الأرواح المؤمنة التقية التي تلوم نفسها على التقصير ، وتارة أخرى من غيرهم من المفرطين في جنب الله تعالى .

٣- دراسة الشخصية المُعترفة ومدى تأثير أبعادها وجوانبها الشخصية على القول الصادر أو الحركة المعبّرة عن الاعتراف .

٤- رصد نتائج الاعترافات في الدنيا والآخرة ، وما تضمنته من بلاغة استمالة المخاطب ، والمبالغة في تقديم الأعذار عن التقصير ، وطلب المغفرة ؛ وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

٥- معرفة المؤثّرات على سلوكيات الإنسان التي لا يُمكن دراسة قولٍ متحرِّرٍ عن تبعاتها ، كالسياق والموضوع والزمان والمكان ، والمخاطب .

وبعد تحديدي للأهداف إليكم مقدمة خططتُ فيها معالم الكتاب منذ كان بحثًا مع **خطته** ، ثم تمهيدٍ ، وبابين ، يحوي كل باب منهما ثلاثة فصول ، ثم خاتمة ، وثبت المصادر والمراجع ، وفهارس .

● **أما التمهيد فحوى عنصرين هما :**

١- معنى المقام .

٢- ومفهوم الاعتراف بالزلل .

ثم جاء البحث في بابين رئيسين ، أما الأول منهما : فقد شكّل الجزء التحليلي للآيات ، ورسم الصورة التفصيلية للاعتراف في أساليبه وصيغه ، بينما ملامح الباب الثاني : هي دراسة متعلّقات هذا الاعتراف ومؤثراته .

فعنونتُ الأول بـ : صيغ الاعتراف ، واحتضن بين جنبيه ثلاثة فصول هي :

- **الفصل الأول : التعبير بالقول ،** وفيه مبحثان : هما التعبير بالتصريح ، والتعبير بالتلميح .
- **الفصل الثاني : التعبير بالإشارة التي تفهِم حركةً ذات دلالة ، وفيه ثلاثة مباحث ،** التفكير ، والصوت ، والبصر .

- **الفصل الثالث : التعبير بالقول والإشارة معًا ،** فيه اشترك التعبير بين القول والإشارة ، وأخذت المباحث أسماء الأعضاء التي كانت الحركة بها عدا الصوت لاشتراك الأعضاء في حركته ، فكانت المباحث ستة ، هي : الرأس ، والعين ، والفم ، والصوت ، واليد ، وكامل الجسد .

وأمّا الباب الثاني فعنونته بـ : مؤثرات الاعتراف ، ودرست فيه كل ما يمكن أن يكون مؤثّرًا في الاعتراف ، ثم يكون الاعتراف أيضًا به متأثّرًا ، وله ثلاثة فصول :

- **الفصل الأول : سياقات الاعتراف ،** حيث صنفتها إلى قسمين كانا هما المبحثين : سياقاتٌ في الدنيا ، وفي الآخرة .
- **الفصل الثاني : عناصر أساليب الاعتراف :** حيث إن الأسلوب تشكّل حسب تصوّري من ثلاثة عناصر هي المباحث : الشخصية ، والباعث ، والنتيجة .
- **الفصل الثالث : خصائص أساليب الاعتراف :** وهي أمور ارتبطت بالاعتراف وجعلت له خصوصية غير أنها ليست من صلبه ، وهي ثلاثة مباحث : الموضوع ، والزمان والمكان ، والمخاطَب .

ثم انتهيتُ **بخاتمة ،** حصرتُ فيها أهم النتائج المستخلصة ، ثم أتبعتُ النتائج بمقترحاتٍ وتوصيات ، وبعد ذلك أثبتُّ **المصادر والمراجع ،** وبعدها أخذتِ الفهارسَ مكانها ومهمَّتها في تنظيم الكتاب للقارئ وتيسير النظر فيه .

هذا وقد أخذ الموضوع طريقًا ماتِعًا صعبًا في آن ؛ حيث تعددت العلوم التي وُجد في مظانّ كتبها بين البلاغة وعلوم القرآن وتفسيره ، ومتون الحديث الشريف وشروحاته ، وعلم النفس .

وإنّ من الأدب وعدم نسيان الفضل والاعتراف بالجميل أن أذكر شيئًا من **لذائذ البحث** قبل صعوباته ، منها :

- تواضع الطويلب الذي كلّما أدرك علمًا أيقن أنه لم يصل إلى شيء من أسرار كلام الله ، ولم يبلغ حق المعرفة والتدبّر ، ولن يفعل إلا أن يشاء الله .

اليقين بأن العلم فتحٌ من الله فمتى اتّكل المؤلف على نفسه وُكل إليها فيتفاجأ بضعفٍ وخور ، ومتى اتّكل على بارئه وجد من إنعامه وفضله ما لا يخطر له على بال ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (فاطر:٢) .

- صحبة كلام الله والاستئناس ببديع صوَره وإعجاز كلامه كان يقطعني عن الناس كثيراً فلا أحبّ أن لي بخلوتي تلك الدنيا .
- دراسة شخصيات المعترفين دعت إلى مراجعة فاحصة مع النفس وتعاملها مع تقصيرها .
- مصاحبة أهل التخصص ، ومشورة العلماء ، وطول التأمّل ، ومرور الأسابيع مكثًا في تدبّر آية ، أو مجموعة آيات اشتركت في خصائص معيّنة للاستنباط والفائدة .
- تعلّم التأنّي والمراجعة الدائمة قبل الكتابة ، وفي أثنائها ، وبعدها ، وهذا ما نفتقده الآن مع سرعة انتشار الكلمة ، وإنما تقوّمه هذه الأبحاث التي تربّي وتؤدب .
- الإدراك لواجب الاستزادة من اللغة العربية ، واستخراج أسرارها من كلام الله تعالى .
- تدوين فوائد متنوّعة جُمعت على هامش البحث خارجة عن موضوعه نتيجة لقراءة الكُتب .
- إشراف الأستاذ الوالد الفاضل : الأستاذ الدكتور محمد بن علي الصامل حفظه الله وأقرّ عينه بنتاج علمه ، وانتفاع طلابه .

وأمّا **صعوبات البحث** فكان منها :

- الخشية في الحديث عن كلام الله بما قد يخدش في تلك المهابة الفريدة ، والكتاب السماوي المحفوظ في أيدي الملائكة ، فأسأل الله أن يكون البحث نفعًا وزيادة إيمانٍ وتقوى وقربة ورضا لله عز وجل وهو العالم أن المراد خدمة كتابه ، فأسأله كما يسّر البحث في بلاغته أن يتقبّله ويرضاه ، ويكتب لهذه الأوراق القبول في الأرض .
- سعة الموضوع وعمقه ، والحرص على تحليل آياته وفقًا لمنهج الاستقراء ليظهر الموضوع مكتمل الجوانب قدر المستطاع ، ومهما بلغ فهو عمل بشري يعتريه النقص .
- البحث في كتب علم النفس بما يخدم موضوعات الرسالة ـ قبل أن تُرى كتاباً ـ ، حيث لم أجد فيها ما يشبع الموضوع باللغة العربية .
- قلة الكتب التي تتحدّث عن التعبيرات الصامتة وحركات الجوارح وربطها بين البلاغة وعلم النفس .

وبعد أن انتهت صفحاتُ البحث لم أرهُ مكتمِلاً ، ولو نظرتُ فيه مائة مرة لخرج لي في كل مرّة بحثٌ جديد ، وهذه الطبيعة البشرية التي لا يستثنى منها أحد ، وحسبي أن أكون قد حققتُ بهذه الرسالة بعض مهارات البحث ، وبلغتُ به علمًا نافِعًا لنفسي ومجتمعي ، ولجامعتي ولجامعات العالم ، وأن يحقق البحث أهدافه ، ويكون شاهِدًا في المحيا والممات ، وأثَرًا طيّبًا مما يبقى للإنسان بعد الرحيل .

ولا ينضُج العمل البحثي بعد معونة الله وفتحه وتسديده بقلم الباحث وجهده الذاتي ، فهناك أيادٍ لم تألُ جهدًا في إتمام عملي ليخرج إلى النور في أدق تفاصيله ، فأحمد الله وأشكره أولاً وآخرًا على تيسيره وتوفيقه وإعانته ، ثم أشكرُ من كان مشرفي ، راقي التعامل ، معلّم الأخلاق قبل العلم ولا أزكي على الله أحدًا لكنها حقيقة لمستها في أدق ملحوظاته وتشجيعاته وعباراته الأستاذ الدكتور **محمد بن علي الصامل** حفظه الله ، وقد أسعدني إذ تكّرم بالتقديم

للكتاب وسعادة مناقشي الفاضل الدكتور إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل الذي تفضّل عليَّ بتوجيهاته الحصيفة وتقديمه للكتاب أيضا فجزاه الله عني خيرا ، ثم أتوجّه بالدعاء والوفاء إلى من ربياني صغيرةً فأحسنا إلي وظلاَّ يتعاهداني كبيرة أبويّ حفظهما الله أبوبكر كردي ونهلة أندرقيري ، ثم أبعث بوافر الشكر إلى زوجي المتفاني في تسخير كل الإمكانات لراحتي البحثية المهندس : ثامر سعيد باسماعيل ، وابنتيّ الصغيرتين راوية وتالية أقرّ الله عينيّ بهما ، وأسرة زوجي الكريمة ومن هما في مقام والديّ : الدكتور سعيد محمد باسماعيل والدكتورة أسماء سعيد باداود ، ثم إلى التي علّمتني وربتني وأعانتني على حفظ كتاب الله عز وجل في المرحلة الثانوية وظلّت تتعاهدُني وأنا طالبة في الدراسات العليا معلمتي نوف العنقري حفظها الله وفاء الطالبة والابنة المقصرة بدعوات لا أوفي بها حقها ، وعماتي الحبيبات اللاتي كُنّ لي القدوة في المهارات البحثية والعلمية ، وأخص منهنّ عضو هيئة التدريس في قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بهذه الجامعة العريقة عمتي الدكتورة زينب كردي أسعدها الله ؛ فقد جعلت مكتبتها في يديّ ، ونصحها بين عينيّ ، وعمتي الحبيبة رشا كردي فكم وجهتني وأعانتني وسددتني ولن أنسى وافر الدعوات لجدّتى الفاضلة القديرة : فريدة ، أقرّ الله عينيها بأحفادها ، وإلى من ودعانى بجسديهما ، وأسكنانى فى عينيهما ، وظللتُ عندهما الحفيدة الأثيرة جدتى نوال كردي وجدي ياسين أندرقيري اللذين ظلاَّ يرقبان مثل هذا النتاج منذ كنت صغيرة وقد توفيا قبل بزوغه رحمهما الله وجعل الفردوس الأعلى نزلهما وإلى كل من دعا لي ووقف بجانبي شكرًا خجولاً ودعوات تترًا .

والحمد لله الذي بنعمته يتم للمؤمن مبتغاه ، فيُحسِن بفضل الله في دنياه وأخراه ، حمدًا يليق بجلاله وعلاه ، وأتم الصلاة والسلام على الرحمة المهداة .

الرياض في : ٨ من ذي الحجة ١٤٣٩هـ

الموافق : ١٩ أغسطس ٢٠١٨م



التمهيد

١- معنى المقام .

٢- مفهوم الاعتراف بالزلل .

اقتضت حكمة الله في الطبيعة البشرية أن يكون الزلل من سماتها ، ولكن المؤمن الذي يسعى لزكاة قلبه وتطهير روحه يحرص على تنقية نفسه من الأخطاء التي وقع فيها .

وقد يصدر الزلل من نفوسٍ لم تؤمن بالله ، ولكنها نفوسٌ قريبةٌ من الفطرة السوية التي ما تلبث أن تصحح الخطأ ، وتأبى أن تعيش في أسر الزلة ، فتسارع إلى الاعتراف بما فعلت أملاً في طهارة القلب ، ورقي النفس .

وربما نبع الاعتراف بالزلل من شخصياتٍ عُرفت بالشر والكيد ـ كالشيطان لعنه الله ـ فكان اعترافها خوفًا من عقاب ، أو بيانًا للأسباب التي أدتْ إلى زللٍ افتُضِحَ أمره ، وسيأتي الكلام بالتفصيل وشواهده في حينه بإذن الله .

ولقد استقرأتُ مواضع الاعتراف بالزلل في القرآن الكريم ؛ فوجدتُ فيها ما يُصلِح القلوب ، ويعطي المتدبر نماذج من الحالات التي وردت في كتابنا العزيز تقوّم سلوك المقصرين ، وتداوي المكابرين من المؤمنين وغيرهم .

ويحسن بي قبل البدء أن أبين معاني مفردات العنوان الذي اخترته وهو : **(بلاغة القرآن في مقامات الاعتراف بالزلل)** مستشهدةً على ورود كل مفردةٍ من القرآن الكريم ، مجتهدةً في الختام لبيان حدّ العنوان متكاملاً ومعناه .

وقد جعلتُ التمهيد في عنصرين اثنين :

١- معنى المقام .

٢- مفهوم الاعتراف بالزلل .

معنى المقام

لغة :

أصل المقام موضع القدمين ، والمَقام والمَقامة : الموضع الذي تقيم فيه ، والمُقامة (بالضم) : الإقامة ، والمَقامة (بالفتح) : المجلس والجماعة من الناس ، والمُقام والمَقام قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ، وقوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ** ﴾ (الأحزاب:١٣) (لا مَقام) : أي : لا موضع ، وقرئ[1] (لا مُقام) (بالضم) : أي لا إقامة لكم[2] .

والمقام بفتح الميم : هو من الألقاب الخاصة بالملوك وأصل المَقام في اللغة : اسم لموضع القيام أُخذ من قام يقوم مقامًا[3] ، وقد ورد في التنزيل بمعنى موضع القيام في قوله تعالى : ﴿ **فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ** ﴾ (آل عمران:٩٧) ، يريد موضع قدميه في الصخرة التي كان يقوم عليها لبناء

---

(١) اختلفوا في الضم والفتح للميم في قراءة كلمة (مقام) في ورودها في السّوَر : [مريم] ، وفي [الدخان] و[الأحزاب] فقرأ ابن كثير ﴿ **خَيْرٌ مَّقَامًا** ﴾ (مريم:٧٣) بضم الميم ، و ﴿ **فِى مَقَامٍ أَمِينٍ** ﴾ (الدخان:٥١) بفتح الميم ، و ﴿ **لَا مُقَامَ لَكُمْ** ﴾ (الأحزاب:١٣) بالفتح أيضًا ، وقرأ نافع وابن عامر ﴿ **فِى مَقَامٍ أَمِينٍ** ﴾ بضم الميم ، و ﴿ **خَيْرٌ مَّقَامًا** ﴾ بفتح الميم ، و ﴿ **لَا مُقَامَ لَكُمْ** ﴾ بفتح الميم أيضًا ، وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ **خَيْرٌ مَّقَامًا** ﴾ و ﴿ **فِى مَقَامٍ أَمِينٍ** ﴾ و ﴿ **لَا مُقَامَ لَكُمْ** ﴾ بالفتح فيهن جميعًا ، وروى حفص عن عاصم في [الأحزاب] ﴿ **لَا مُقَامَ لَكُمْ** ﴾ بضم الميم ، و ﴿ **خَيْرٌ مَّقَامًا** ﴾ و ﴿ **فِى مَقَامٍ أَمِينٍ** ﴾ بفتح الميم فيهما ، ينظر : الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه : ١/٤١١ .

(٢) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٤٩٦/١٢ ، مادة (قَ وْ مَ) .

(٣) ينظر : المحيط في اللغة ، ابن عباد : ٢/٧ ، مادة (قَ وْ مَ) .

البيت ، ثم تُوُسّع فيه فأُطلق على ما هو أعم من موضع القيام ، من محلة الرجل أو مدينته ونحو ذلك ، ومن ثَمَّ قال الزمخشري[1] في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (الدخان:٥١) : إنه خاص استعمل في معنى العموم ، يعني أنه يستعمل في موضع الإقامة في الجملة ، أما المُقام بالضم : فاسم لموضع الإقامة أخذ من : أقام يقيم ، كقولهم في المكان الذي يدحرج فيه (مُدحرج) ، وقد يكون المقام بالفتح : بمعنى الإقامة ، والمُقام بالضم : بمعنى موضع القيام ، وجُعل من الثاني قوله تعالى : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان:٧٦) ، أي موضعًا ، وبالجملة فالذي يستعمله الكُتّاب في المقام هو الفتح خاصة ، ويُكنّون بذلك عن السلطان تعظيمًا له عن التفوه باسمه ، ويقال فيه المقام الأشرف والمقام الشريف العالي .[2]

وروده في القرآن :

ورد لفظ المَقام في كتاب الله عز وجل في ثمانية عشر موضعًا ، أصنفها حسب ما أضيفَ له المقام إلى أربعة أقسام :

١- ما أضيف إلى اسم ظاهر ، وما أضيف إليه اسم ظاهر ، ومنه :

- ما أضيف لله جل جلاله ، ووردت شواهده بصيغة (رب) وهي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٤٦) .

٢- وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ (النازعات:٤٠) .

مقام ربه : الوقوف بين يدي الله جل وعلا بما يحويه هذا الموقف من معاني الجلال والمهابة ، كما نقل الطبري عن ابن زيد قوله : «مقامه حين يقوم العباد يوم القيامة ، وقرأ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (المطففين:٦) وقال : ذاك

(١) ينظر : الكشاف : ٤/٢٨٥ .

(٢) ينظر : صبح الأعشى ، القلقشندي : ٥/٤٦٣ .

مقام ربك»[1]، وأصل المقام مكان القيام ، فكان أصله مكانَ ما يضاف هو إليه، ويطلق (مقام) على ما يضاف إليه لتعظيم المكان كتعظيم صاحبه مثل ألفاظ : جناب ، وكنف ، وذرى ، قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٤٦)، وقال ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ (إبراهيم:١٤)[2] وجاء التعبير بـ(المقام) ليقرأ المتدبّر في اللفظ الإعجاز الذي يكسب عظمة الموقف الذي لا يمكن تخيله ، مع ذلك يدلّك على ما ينبغي للمؤمن من تصوّر واستشعار لهذا الوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى ، فيعيش المؤمن بهذا دنياه ليفوز في أخراه .

ويلحظ المتتبع للآيات أن لفظ (الخوف) يرتبط بـ (مقام الله) مثل الآيات السابقة ، بينما لفظ (الخشية) يرتبط بـ(الله) ، كقوله تعالى : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (النساء:٧٧) ، ولم يأت التعبير بالخوف مع اسم الجلالة (الله) إلا في ثلاث آيات :

- حكايةً عن الملائكة في قوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل: ٥٠) .
- حكايةً عن البشر في قوله تعالى على لسان قابيل : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة:٢٨) .
- حكايةً عن الشيطان ، في قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الحشر:١٦) .

والفرق بين (الخوف) و(الخشية) يجعل من (المقام) لفظًا شاملاً عامًّا يشمل هيبة الله جل جلاله ،وعظمة المواقف التي يوقن المؤمنون أنهم ملاقو ربهم فيها ،

---

(١) جامع البيان : ٢٣/٥٨ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٤٧٢٠/١ ، وقد ذكر فيها الكناية أيضا ؛ وهذا مما لا ينبغي في أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته. والكلمة (مقام) كما قال التفتازاني: « إثبات أمر لآخر أو نفيه عنه» ، مختصر المعاني : ٢٤٥/١ .

ومقبلون عليها ، ويشمل كلام ربهم ، وما يحدث من أحوال الناس في ذلك الحين ، كالحساب مثلاً ، بينما اسم الجلالة (الله) يدل على ذاته العليّة ، فناسب أن يرتبط بلفظ (الخشية) ، وقد ورد في الدعاء المأثور : اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة(١) ، و« الخشية أَخصّ من الخوف ؛ فإِنَّ الخشية للعلماءِ بالله تعالى كما تقدّم . فهي خوف مقرون بمعرفة » (٢) ، والخوف تألم النفس من العقاب المتوقع بسبب ارتكاب المنهيات ، والتقصير في الطاعات ، وهو يحصل لأكثر الخلق وإن كانت مراتبه متفاوتة جـدًّا ، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلا للقليل ، والخشية : حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته وخوف الحجب عنه ، وهذه حالة لا تحصل إلا لمن اطلع على حال الكبرياء وذاق لذة القرب ، ولذا قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ (فاطر:٢٨) ، فالخشية : خوف خاص ، وقد يطلقون عليها الخوف ، هذا وقد يراد بالخشية : الإكرام والإعظام(٣) .

وقال الله تعالى يصف المؤمنين: ﴿ **وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ** ﴾ (الرعد:٢١)، حيث ذكر الخشية في جانبه سبحانه ، والخوف في جانب الحساب(٤)، فإن الخوف من الله لعظمته يخشاه كل أحد كيف كانت حاله ، وسوء الحساب ربما لا يخافه من كان عالمًا بالحساب وحاسب نفسه قبل أن يحاسب(٥) ، فأحوال الناس تشهد أنهم يعرفون ربهم ويجهلون مقامه .

---

(١) ورد في حديث رسول الله ﷺ ، رواه النسائي في سننه ، كتاب : المساجد ، باب : نوع آخر من الدعاء ، (رقم الحديث :١٢٢٨) ، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي : ٤٤٩/٣ .

(٢) بصائر ذووي التمييز ، الفيروزآبادي : ٧٢٤/١ .

(٣،٤) الفروق اللغوية ، العسكري : ٢١٩/١ .

(٥) ينظر : البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ٧٨/٤ .

وأما ﴿ تَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل:٥٠) ففيه نكتةٌ لطيفةٌ فإنه في وصف الملائكة ، لما ذكر قوتهم وشدة خلقهم ، عبر عنهم بالخوف ؛ لبيان أنهم وإن كانوا غلاظًا شدادًا فهُم بين يديه تعالى ضعفاء ، ثم أردف بالفوقية الدالة على العظمة فجُمع بين الأمرين ، ولما كان ضعف البشر معلومًا لم يحتج إلى التنبيه عليه [(١)] .

- ما أضيف إلى إبراهيم عليه السلام :

٣- قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة:١٢٥) .

٤- وقوله : ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ (آل عمران:٩٧) .

والمراد بالمَقام إنّما هو : الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة ، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل ـ عليه السلام ـ به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة ، فيضعها بيده لرفع الجدار ، كلما كَمُلَتْ ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة ، وهو واقف عليه ، وكلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة [(٢)] .

وإضافة المقام إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ تخلّد ذكرى تعبده لله ببناء الكعبة ؛ حيث اكتسب هذا المقام ميزة العبودية والإتقان في ما أمر الله به والإحسان فيه ، إذ كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقف متأملاً بناء الكعبة هل اتزن؟ وهل ينقصه شيء؟ ، فكان هذا النبي الكريم محسنًا يرجو ما عند الله ، فأثابه الله ذكرًا مخلدًا يرسم للمسلمين أبهى صور العبودية .

---

(١) ينظر : الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٥٦٩/١ .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤١٧،٤١٦/١ .

وقد طبع الله على ذلك الحجر قدمي إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكان من خوارق العادات ، وقيل إن الآية في هذا المقام هي ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه [1] .

- ما جاء معرفة مضافًا إليه [2] :

٥- وقوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** ﴾ (فاطر:٣٥) .

أهل الجنة جعلنا الله منهم لمّا أقاموا شعائر الله ، والتزموا صراطه المستقيم ، كافأهم الله من جنس عملهم إقامة دائمة لا تحوّل عنها ، و« لا يريد النازل بها ـ على كثرة النازلين بها ـ ارتحالاً منها ، ولا يراد به ذلك ، ولا شيء فيها يزول فيُؤسف عليه » [3] .

٢- ما أضيف إلى ضمير :

- ما أضيف إلى ياء المتكلم :

٦- قوله تعالى : ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ** ﴾ (يونس:٧١) .

ويُلحظ في قول نوح ـ عليه السلام ـ ﴿ **إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى** ﴾ أن الأشخاص يلبسون شرف العلم الذي يحملونه ، فلمّا تحمّل نوح عليه السلام تبليغ رسالة ربه عظُم قدره وتضاعفت مسؤوليته وكُبر مقامه ، فكان تشريفه بقدر تكلفيه ، فما عادت مقامات قومه المتهافتة بحسب أودية دنياهم التي غرقوا فيها تبلغهم علوّ مقامه لعلو مكانة الدعوة إلى الله والإيمان به التي دعا إليها .

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ١٣٨/١ .
(٢) ورد في موضع واحد لذلك أدرجته هنا .
(٣) نظم الدرر ، البقاعي : ٤٦/٧ .

٧- قوله تعالى : ﴿ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ (إبراهيم:١٤) .

« (مَقامِي) : أي : موقفي وهو موقف الحساب ؛ لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة . وقيل : خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله »[١] ، وقيل : « أي المكان الذي يقوم فيه مَن أحاسبه : ماذا تكون عاقبته فيه؟ وهو أبلغ من : خافني »[٢] ، « بحيث إن الخوف يتعلق بمكان المخوف منه كما يقال : قصّر في جانبي . ومنه قوله تعالى ﴿ **عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ** ﴾ (الزمر:٥٦) ، وكل ذلك كنايةً عن المضاف إليه »[٣] .

أضيف المقام لله تبارك وتعالى ، بينما لم تأت الإضافة مع الوعيد وجاءت نكرة ، ولعل هذا يناسب سياق الآيات حيث إن الخطاب موجه فيها للذين آمنوا بالرسل ، فكانت البشارة بالاستخلاف في الأرض لمن اتقى الله وراقبه وخاف الوقوف بين يديه ، ومع هذه البشارة لم ينسب الوعيد لله جل وعلا لمناسبة التبشير ، وقد نُسبت في آيات أخرى كلمة (العذاب) لله حيث كان السياق تهديدًا لمن كَذّب ، أو نكالاً بمن عُذّب .

والجدير بالذكر أن معنى المقام حين نُسب لله جلَّ جلاله بصيغة (رب) كما سبق[٤] ، لم يختلف عن إضافته لضمير المتكلم ﴿ **ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ (إبراهيم:١٤) إلا من حيث أن الاسم الظاهر كان في مقام الترغيب ، وضمير المتكلم كان في مقام الترهيب وهذا يجعل المتدبر يتأمل جلال الله وهيبته وعظمته حين ينسب المقام لنفسه ، ويتفكّر في موقف الحساب الذي يستحق أن يخافه العبد بين يدي مولاه ، يوم لا ينفع فيه مال

---

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٢/٥٤٥ .
(٢) نظم الدرر ، البقاعي : ١٠/٣٩٨ .
(٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١/٢٢٧١ .
(٤) ينظر : ص ٢٢ .

ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم ، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « . . . من نوقش الحساب يهلك »[1] .

- ما أضيف إلى هاء الغيبة :

٨- قوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ** ﴾ (المائدة:١٠٧) .

والمعنى أن شاهديْ الميت إن اكتسبا إثمًا ، أو حنثًا ، أو بدّلا بطلت شهادتهما ، وعُوِّض عنهما باثنين آخرين يقومان مقامهما في إثبات الوصية ، ومعنى يقومان مقامهما : أي يعوضان تلك الشهادة ؛ فإن المقام هو محل القيام.

ثم يراد به : محل عمل ما ، ولو لم يكن فيه قيام .

ثم يراد به : العمل الذي من شأنه أن يقع في محل يقوم فيه العامل ، وذلك في العمل المهم[2] ، كقوله تعالى : ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ** ﴾ (يونس:٧١) ، والمَقام مصدر ميمي مرادف للقيام ، وقد استعمل هنا في معنى شأن المرء وحاله كما في قوله تعالى : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ** ﴾ (الرحمن:٤٦) ، وقوله : ﴿ **قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا** ﴾ (مريم:٧٣) ، أي خيرٌ حالةً وشأنًا ، وهو استعمال من قبيل الكناية ؛ لأن مكان المرء ومقامه من لوازم ذاته وفيهما مظاهر أحواله عليه الصلاة والسلام معهم[3] .

---

(١) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : العلم ، باب : من سمع شيئاً لم يفهمه فراجع فيه ، (رقم الحديث : ١٠٣) ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب : صفة القيامة والجنة والنار ، باب : إثبات الحساب ، (رقم الحديث : ٢٨٧٦) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١/١٢٢٥ .

(٣) المرجع السابق ١/٢٠٦٧ .

- ما أضيف إلى كاف الخطاب :

٩- قوله تعالى : ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ** ﴾ (النمل:٣٩) .

« قال ابن عباس : يعني : قبل أن تقوم من مجلسك ، وقال مجاهد : مقعدك ، وقال السدي ، وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات ، وللطعام من أول النهار إلى أن تَزول الشمس »[١] .

إن استعمالَ المقعدِ والمقامِ بمعنى المكان اتساعاً شائعٌ ذائعٌ ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾ (القمر:٥٥) ، وقوله تعالى : ﴿ **قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** ﴾ (النمل:٣٩) [٢]

٣- ما جاء فيه اللفظ نكرة مجرداً من الوصف والإضافة :

١٠- قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا** ﴾ (مريم:٧٣) .

قرأ الجمهور : « وقرأ ابن كثير (مُقاماً) بضم الميم وهو ظرف من (أقام) وكذلك يجيء المصدر منه »[٣] ، قال الماوردي : « فيه وجهان ، أحدهما : منزل إقامة في الجنة أو النار ، والثاني : يعني كلام قائم بجدل واحتجاج أي : أمّن فلجت حجته بالطاعة خير أم من دحضت حجته بالمعصية ، ... ويحتمل ثالثاً : أيهما خير مقاماً في موقف العرض ، من قضى له بالثواب أو العقاب؟ »[٤] .

١١- وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ (الفرقان:٦٦) .

١٢- وقوله : ﴿ **خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ (الفرقان:٧٦) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٦/١٩٢ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٧٨/٢

(٣) المحرر الوجيز ، ابن عطية ٣٨١/٤، الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه ص٤١١.

(٤) النكت والعيون : ٣٣/٣ .



يعني بالمستقرّ : القرار ، وبالمقام : الإقامة : كأنّ معنى الكلام : ساءتْ جهنم منزلاً ، وحسنتْ في المقابل الجنة منزلاً[1] ، وجرت عادة البشر أن يبحثوا عن الاستقرار النفسي أينَما كان مَقامه ، فقد يكون في منزلٍ متواضعٍ وبيئة حارة ، وقد يكون في عكس ذلك بحسب طبيعة البشر وتكيفهم ، كما أن المقام لا يشترط أن يكون مُستقراً فربما كان متحولاً فهان حينها على المرء ما يلاقيه من ضنك العيش ، ومن هنا تظهر لنا البلاغة في الجمع بين المستقر والمقام لتزيد على المحسنين نعيمهم ، وعلى المقصرين جحيمهم ..

١٣- وقوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا** ﴾ (الأحزاب:١٣).

قرأ حفص عن عاصم بضم الميم ، والباقون بالفتح [2] ، وفي الفرق بينهما وجهان : « أحدهما : أن المَقام بالفتح الثبات على الأمر ، وبالضم الثبات في المكان . الثاني : أنّ المقام بالفتح المنزل وبالضم الإقامة . وفي تأويل ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها : أي : لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى دين مشركي العرب .

الثاني : لا مقام لكم على القتال فارجعوا إلى طلب الأمان .

الثالث : لا مقام في مكانكم فارجعوا إلى مساكنكم » [3] .

٤- ما جاء موصوفًا :

١٤- قوله تعالى ﴿ **وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ (الإسراء:٧٩) .

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٢٩٧/١٩ .

(٢) ينظر : الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه :٤١١ .

(٣) النكت والعيون ، البغدادي : ٣٦٢/٣ .

« المقام : محل القيام ، والمراد به المكان المعدود لأمر عظيم ؛ لأنه من شأنه أن يقوم الناس فيه ولا يجلسوا ، وإلا فهو المجلس ، وانتصب (مقامًا) على الظرفية لـ (يبعثك) ، ووصف المقام بالمحمود وصف مجازي ، والمحمود من يقوم فيه ، أي يحمد أثره فيه ؛ وذلك لغنائه عن أصحاب ذلك المقام ؛ ولذلك فسر المقام المحمود بالشفاعة العظمى »[1] ، فقد ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذى يتدافعه الأنبياء عليهم السلام ، حتى ينتهى الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجل حسابهم ، ويرتاحوا من هول موقفهم ، وهي الخاصة به ﷺ[2] ، وتنكير (مقامًا) أكسب الكلمة عظمة ومهابة تناسب خصوصيته ﷺ ذلك اليوم ، نسأل الله أن لا يحرمنا شفاعته .

١٥- وقوله تعالى : ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (الشعراء:٥٨) .

١٦- وقوله : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (الصافات:١٦٤) .

« والتقدير : ما أحد منا إلا كائنٌ له مقام معلوم . والمقام : أصله مكان القيام . ولمّا كان القيام يكون في الغالب لأجل العمل كثر إطلاق المقام على العمل الذي يقوم به المرء كما حكي في قول نوح عليه السلام : ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (يونس:٧١) أي عملي ، والمعلوم : المعين المضبوط ، وأطلق عليه وصف (معلوم) ؛ لأن الشيء المعين المضبوط لا يشتبه على المتبصر فيه ، فمن تأمله علمه . والمعنى : ما من أحد منا معشر المؤمنين إلا له صفة وعمل نحو خالقه لا يستنزله عنه شيء ولا تروج عليه العبودية لله »[3] .

١٧- وقوله : ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (الدخان:٢٦) .

١٨- وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (الدخان:٥١) .

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٥/١٨٥ .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٠/٣١٠ .

(٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١/٣٥٩٩ .

أقام بمكان فطاب له المُقام ، إذ أريد به الإقامة ، وقام في موضعه فهو في مَقام واسع ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (الدخان: ٥١) ، من قام يقوم ، ولو أريد به (الإقامة) قرئ : (في مُقام) ،كما قرئ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠) ، بمعنى (الإدخال) و(الإخراج) ،وقرئ[1] : في مَقام ، بالفتح : وهو موضع القيام ، والمراد المكان ، وهو من الخاص الذي وقع مستعملاً في معنى العموم . وبالضم : وهو موضع الإقامة[2] .

المقام في تعريف البلاغة :

لفظ (المقَام) وثيق الارتباط بالبلاغة ؛ فقد جاء في تفسير بلاغة الكلام عند الخطيب القزويني : « مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف ؛ فإن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباينُ مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام إلى غير ذلك ، وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب ، وانحطاطه بعدم مطابقته له ... وهو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم حيث يقول النظم تآخي معاني النحو فيما بين الكلام ، على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام »[3] .

ومن هنا يقال : (لِكُلِّ مقام مقال) يقصد بها : الدعوة إلى الملاءمة بين القول والموقف ، وقولنا : في هذا المقام : أي في هذه المناسبة [4] .

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٢٥٩/٨ .

(٢) الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه : ص٤١١ .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة : ٧٣/١ .

(٤) ينظر : معجم اللغة العربية المعاصرة ، أحمد مختار : ١٨٧٩/٣ .

وتتلخص **معاني (المقام)** في القرآن الكريم تبعًا لما سبق إيراده من الشواهد ، وكلام المفسرين في المعاني الآتية :

١- ما أضيف إلى اسم ظاهر ، وما أضيف إليه اسم ظاهر ، جاءت معاني شواهده كالآتي :

- الموقف ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ (إبراهيم:١٤) .
- كناية عن السلطان للتعظيم، مثل أعظم مقام وهو مقام الله تبارك وتعالى، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ** ﴾ (الرحمن:٤٦) ، وهذا المعنى مع المعنى السابق هما في معنى المقام المضاف لله جل جلاله .
- موضع القدمين ، وشاهده قوله تعالى : ﴿ **وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى** ﴾ (البقرة:١٢٥) .

٢- ما أضيف إلى ضمير ، ومعانيه كالآتي :

- محل عمل ما ، ولو لم يكن معه قيام ، مثل : مقام الشهادة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا** ﴾ (المائدة:١٠٧) .
- المكان المحدد أو البقعة من الأرض ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** ﴾ (النمل:٣٩) .
- كناية عن شأن المرء وحاله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي** ﴾ (يونس:٧١) .

٣- ما جاء فيه اللفظ نكرة مجرداً من الوصف والإضافة ، شواهده بمعنى :

المنزل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ (الفرقان:٧٦) .

٤– ما جاء موصوفاً ، شواهده بمعنى :

– المكان المعدود لأمر عظيم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا** ﴾ (الإسراء:٧٩) .

وقد رأيت أن هذه المعاني قد تتداخل لتشكّل بلاغة الكلمة المُعجزة (مقام) في القرآن الكريم ، والتعبير عنها دون غيرها من المرادفات يميّزها عن المعنى الذي تدل عليه باجتهاد المفسّرين ، وهذا من بديع نظم الآي ؛ إذ لا يمكن أن يغني إحداهما عن معنى (مقام) في إحدى هذه الآيات مثل قوله تعالى في وصف الجنة : ﴿ **حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا** ﴾ (الفرقان:٧٦) : فـ(مقام) هنا وإن أفادت معنى (منزل) [1] ، لكن (منزل) لا تُغني عنها أبداً ، بل ولا تفي بالمعنى ؛ لأنها كما بيّنت قد تتضافر المعاني لتُعطي الجو المناسب للكلمة (مقام) ، والذي لا يمكن أن تحل كلمة أخرى محلّها .

وأما معنى المقام في دراستي فأقرب إلى : (الموقف والمناسبة) ، ويتشكل من عناصر لا غنى عن إحداها ، أدرسها في بحثي مقسمة إلى فصول ، ليكون بالصورة التالية :

(مقام الاعتراف) ، يتشكّل من مجموعة من الركائز ، هي :

– شخص المُعترف .

– الأقوال والأفعال والسلوكيات الصادرة عنه .

– السياق والمكان والزمان الذي تضمنت تلك السلوكيات ، وما يحمله الموقف من النتائج .

– المخاطَب الذي يوجَّه له الاعتراف يشكّل أحد أهم الركائز في مقام الاعتراف .

* * *

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٢٩٧/١٩ .

مفهوم الاعتراف بالزلل

أقف هاهنا معترفةً بالتقارب والتداخل بين بعض المرادفات في اللغة العربية ، لكن ثقتي أن لكل مفردةٍ تفردًا في المعنى الذي تدل عليه يجعل من البحث عن دلالةِ الكلمة بدقةٍ أمرًا في غاية الأهمية والروعة ؛ للكشف عن أسرار بلاغة الكلمة ؛ لهذا كانت ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى مستعصيةً على ذوي الأفهام ، ناهيك عن حكم هذا الفعل ؛ لأن الله ببديع كلامه المعجز ألهم هذا التميز لكل كلمةٍ لتكون في الموضع الذي لا تنافسها فيه مثيلاتها من الكلمات .

وحتى أصل إلى المفهوم المراد من (الاعتراف بالزلل)، سأعرض المرادفات، وأسأل الله الفتح والصواب .

الاعتراف :

ورد لفظ الاعتراف في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي :

١- قول الله تعالى: ﴿ **وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (التوبة:١٠٢) .

٢- وقوله جل شأنه : ﴿ **قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ** ﴾ (غافر:١١) .

٣- وقوله عز وجل : ﴿ **فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقًا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾

(الملك:١١) .

قال ابن كثير : «اعترفوا بذنوبِهِم أَي أقروا بِها وَاعترفوا فِيمَا بَينَهُم وبين ربهم» [(١)] ، وقال أبوحيان : «والاعتراف : الإقرار بالذنب عملاً صالحاً ، توبةً

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤/١٨٠ .

وندماً»[1]، وقال صاحب الكشاف : «أي لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا متذممين نادمين»[2] .

والتعبير بالاعتراف يلفت النظر إلى الجهل الذي حجب الإنسان عن الاستبصار بالحقيقة وتجلّي سبل الخطأ ، بما يحمله اللفظ من زيادةٍ في المبنى عن (عَرَف) ، فالمخطئ يقول : اعترفت بخطئي أو بذنبي ، ولا يقول (عرفت) ، «فهو يعرِّفُ بذنبه فيعترف»[3] ، فـ(اعترفت) تفتح للسامع خطواتٍ تمّت حتى تمكن المخطئ من اكتشاف خطئه ، فتعصر العين الساكنة قلب المفرّط التائب ، ويغص بها ذاك المكابر الذي يرفض الرضوخ لانفضاح أمره .

الإقرار :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (البقرة:٨٤) .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران:٨١) .

فالمعنى في ﴿ أَقْرَرْتُمْ ﴾ : أي «اعترفتم بأن هذا أُخذ عليكم في العهد وأُخذ على آبائكم ، وأنتم أيها الباقون المخاطبون تشهدون أن هذا حق»[4] .

وقيل : ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ : أي بالميثاق ، واعترفتم بلزومه ، أو اعترفتم بقبوله ، أو رضيتم به»[5] .

فالإقرار : هو التكلم بالحق ، اللازم على النفس ، مع توطين النفس على الانقياد والإذعان .

---

(١) البحر المحيط : ٥/٤٩٨ .

(٢) الزمخشري : ٢/٢٦٣ .

(٣) المخصص في اللغة ، ابن سيده : ٤/٥٣ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج : ١/١٦٥ .

(٥) البحر المحيط ، أبو حيان : ١/٤٦٦ .

والاعتراف : هو التكلم بذلك وإن لم يكن معه توطين ، أو أن الاعتراف هو ما كان باللسان ، والإقرار قد يكون به ، وبغيره ، بل بالقرائن ، كما في حق الأخرس ، وينطبق على الوجهين تسمية الشهادة بالتوحيد : إقرارًا ، لا اعترافًا ، كما لا يخفى . [١] ، وقال بعضهم : « الإقرار : إِثْبَاتُ الشَّـيْءِ إِمَّا باللّسَان وإِمّا بالقَلْبِ أَو بِهِمَا جميعاً »[٢] .

وقال بعضهم : الاعتراف مثل الإقرار إلا أنه يقتضي أن يعرّف صاحب الإقرار غيره أنه قد التزم ما اعترف به ، وأصله من المعرفة ، وأصل الإقرار من التقرير ، وهو تحصيل ما لم يصرح به القول ؛ ولهذا اختار أصحاب الشروط[٣] (أقرَّ به) ولم يختاروا (اعترف به) ، ويجوز أن يقر بالشيء وهو لا يعرف أنه أقر به ، ويجوز أن يقر بالباطل الذي لا أصل له ، ولا يقال لذلك اعتراف إنما الاعتراف هو الإقرار الذي صحبته المعرفة بما أقر به مع الالتزام له،ولهذا يقال: الشكر اعتراف بالنعمة ولا يقال إقرارٌ بها ؛ لأنه لا يجوز أن يكون شكرًا إلا إذا قارنت المعرفة موقع المشكور ، وبالمشكور له في أكثر الحال فكل اعترافٍ إقرارٌ وليس كل إقرارٍ اعترافًا ، ولهذا اختار أصحاب الشروط ذكر الإقرار لأنه أعم ، ونقيض الاعتراف الجحد ونقيض الإقرار الإنكار[٤] .

وتعقيبًا على ما نقله صاحب (الفروق اللغوية) فقد ظهر لي أن ليس كل اعتراف إقرارًا ، ولكن قد يحويه ، فمثلا قد يقول فاعل الخطأ : أنا فعلت كذا لكنه لم يقر أن فعلته هذه تُعدُّ خطأً ، كقول امرأة العزيز مثلاً : ﴿ **قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ**

(١) ينظر : الفروق اللغوية ، العسكري : ١/٦٤ .

(٢) تاج العروس ، الزبيدي :١/٣٣٨٥ ، مادة (ق ر ر) .

(٣) وردت هذه الشروط في آية الدَّين من سورة البقرة ، وتسموا بها ـ أصحاب الشروط ـ لأنهم يكتبونها .

(٤) ينظر : الفروق اللغوية ، العسكري : ١/٦٤،٦٥ .

﴿ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (يوسف:٣٢)، فقد عرفت فعلها واعترفت به ، لكنها لم تقر أنه ـ ما طلبته من يوسف عليه السلام ـ كان خطأ إلا في موقف آخر بعد زمن ، فتكون ـ حينئذ ـ جملتها هذه اعترافًا لا إقراراً ، وجملتها بعد زمن اعترافٌ يحوي إقرارًا ، عند قول الله تبارك وتعالى حكايةً عنها : ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (يوسف:٥١).

الاعتذار :

« العُذْر : مَا أدليت بِهِ من حجّة تذْهب بهَا إِلَى إِسْقَاط المَلامة وَهِي الأعذار »[١] ، ومنه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ ﴾ (التوبة:٩٤) ، وقوله : ﴿ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴾ (المرسلات:٣٦) .

وهو تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه ، ويقال : عَذر وعُذر ، وذلك على ثلاثة أضرب : إما أن يقول : لم أفعل ، أو يقول : فعلت لأجل كذا ، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنبًا ، أو يقول : فعلت ولا أعود ، ونحو ذلك من المقال .

وهذا الثالث هو التوبة ، فكل توبة عذر وليس كل عذر توبةً ، واعتذرت إليه أتيت بعذر ، وعذرته : قبلت عذره . قال تعالى : ﴿ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ ﴾ (التوبة:٩٤) ، والمعذِّر : من يرى أن له عذرًا ولا عذر له . قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ ﴾ (التوبة:٩٠) ، وقال بعضهم : أصل العذر من العَذِرة ، وهو الشيء النجس ، ومنه سمي القُلْفة العذرة ، فقيل : عذرت الصبي : إذا طهرته وأزلت عذرته ، وكذا عذرت فلانًا : أزلت نجاسة ذنبه بالعفو عنه ، كقولك : غفرت له ، أي : سترت ذنبه ، وقيل للعارض في حلق الصبي عُذْرة ، فقيل : عذر الصبي إذا أصابه ذلك[٢] .

---

(١) المخصص في اللغة ، ابن سيده : ٥٣/٤ .

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٧٨/٢ .



الندم :

حالةٌ انفعاليةٌ تنشأ عن شعور الإنسان بالذنب ، وأسفه على ارتكابه ، ولومه لنفسه على ما فعل ، وتمنيه لو أنه لم يفعل ذلك .

ولوم الإنسان لنفسه ، وندمه على ما فعل من العوامل المهمة في تقويم شخصية الإنسان ، ودفعه إلى تجنب الأفعال المشينة وارتكاب الذنوب التي تسبب له الندم ولوم النفس ؛ ولذلك أقسم الله بالنفس اللوامة تقديرا لأهميتها في توجيه سلوك الإنسان إلى الابتعاد عن المعاصي التي تسبب له اللوم والندم[1] .

وقد وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع منها قول الله تعالى : ﴿ **فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ** ﴾ (المائدة: ٣١) .

و« الندم وضع للزوم ومنه النديم لملازمته المجلس »[2] .

الندم والندامة : التحسر من تغير رأي في أمر فائت ، قال تعالى : ﴿ **فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ** ﴾ (المائدة:٣١) ، وقال : ﴿ **قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ** ﴾ (المؤمنون:٤٠)، وأصله من منادمة الحزن له . والنديم والندمان والمنادم يتقارب ، وقال بعضهم : الندامة والمداومة يتقاربان ، وقال بعضهم : الشريبان سُمّيا نديمين لما يتعقب أحوالهما من الندامة على فعليهما .[3]

* * *

(١) ينظر : القرآن وعلم النفس ، محمد نجاتي : ١٠٣، ١٠٤ .
(٢) غرائب القرآن ، النيسابوري : ١٥٥/٣ .
(٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٤١٤/٢ .

وقد اخترتُ لفظ (**الاعتراف**) لأنه كما تبين ـ مما استعرضته من معاني المرادفات ـ أن الاعتراف لا يستلزم الإقرار لكنه قد يحويه بينما الإقرار يستلزمه؛ وبهذا الاختيار يكون العنوان شاملا الشخصيات التي اعترفت بالخطأ دون إقرار منها أنها كانت على خطأ ، كما سيمر بنا أمثال إبليس ـ عليه لعنة الله ـ ، وأمثال ضعفاء المشركين عند مجادلتهم كبرائهم في النار ، وامرأة العزيز في أول اعتراف لها أمام نسوة المدينة متلبسةً بالكبرياء والإصرار على المضي في فعلها مما ينافي الإقرار .

وأما المفردات الأخرى من الندم والاعتذار فقد تجلى الفرق بينها وبين المقصود من مادة الدراسة ، ويتلخص في أن المعترف لا يشترط أن يكون نادمًا كقول امرأة العزيز : ﴿ **قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ** ﴾ (يوسف: ٣٢).

أما **الزلل** فقد ورد بتصريفات عديدة في كتاب الله عز وجل ، منها قوله تعالى :

﴿ **فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (البقرة: ٢٠٩) « ﴿ **فَإِن زَلَلْتُم** ﴾ أَيْ : عَصَيْتُمْ أَوْ كَفَرْتُمْ ، أَوْ أَخْطَأْتُمْ ، أَوْ ضَلَلْتُمْ ، أَقْوَالٌ ثَانِيهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ الظَّاهِرُ لِقَوْلِهِ : ادخُلوا فِي السِّلمِ ، أَيِ الإِسلامِ ، فَإِنْ زَلَلْتُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِيهِ »[1] ، وقيل : « تنحيتم عن طريق الاستقامة ، وأصل الزلل في القدم ، ثم استعمل في الاعتقادات والآراء وغير ذلك ، يقال : زل يزل زلا وزللا وزلولا ، أي دحضت قدمه ، وأصل الحرف ، من الزلق ، والمعنى ضللتم وعجتم عن الحق »[2] .

---

(١) البحر المحيط ، أبو حيان : ٢/٣٤١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٣/٢٤ .

وعن ابن عباس : « قال : الزلل : الشرك »[1] . وقيل : « عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحُجَجُ »[2] ، وقيل : مِلْتم عن الدخول في جميع السِّلم [3] وتنحيتم وأصله السقوط وأريد به ما ذكر مجازًا [4] ، وقوله ﴿ **فَإِن زَلَلۡتُم** ﴾ مشيراً بأداة الشك (إن) إلى أنهم صاروا إلى حالة من وضوح الطريق الواسع الأمكن الأمين المستقيم الأسلم يبعد معها كل البعد أن يزلوا عنه ، وأورد البقاعي قول الحرالي : « إن التعبير بـ(إن) يُشعر بأنهم يُستزلّون ، والتعبير بالماضي إشعار بالرجوع عنه رحمة من الله لهم كرحمته قبل لأبويهم حين أزلهما الشيطان فكما أزل أبويهم في الجنة عن محرم الشجرة أزلهم في الدنيا عن شجرة المحرمات من الدماء والأموال والأعراض » [5] .

– قوله تعالى : ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ** ﴾ (البقرة:٣٦).

﴿ **فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا** ﴾ « قرأ الجماعة ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا** ﴾ بغير ألف ، من الزلة وهي الخطيئة ، أي استزلهما وأوقعهما فيها ، وقرأ حمزة (فأزالهما) بألف[6] ، من التنحية ، أي نحاهما . يقال : أزلته فزال ، وقال ابن كيسان : فأزالهما من الزوال ، أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى واحد ، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى .

---

(١) جامع البيان ، الطبري : ٢٦٠/٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٥٦٦/١ .
(٣) ينظر : تفسير السراج المنير ، محمد الخطيب : ٣٠٢/١ .
(٤) ينظر : روح المعاني ، الآلوسي : ٩٨/٢ .
(٥) نظم الدرر ، البقاعي : ١٨٢/٣ .
(٦) ينظر : الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه : ص ١٤٥ .

ويقال منه : أزللته فزلّ ، ودل على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ (آل عمران:١٥٥) ، وقوله ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ (الأعراف:٢٠) ، والوسوسة إنما هي إدخالهما في الزلل بالمعصية ، وليس للشيطان قدرةٌ على زوال أحد من مكان إلى مكان إنما قدرته على إدخاله في الزلل ، فيكون ذلك سببًا في زواله من مكان إلى مكان يذنب فيه . وقد قيل : إن معنى أزلهما من زل عن المكان إذا تنحى ، فيكون في المعنى كقراءة حمزة من الزوال .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (البقرة:٣٦) ، جعل أزال من زال عن المكان فقوله : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا ﴾ تأكيد وبيان للزوال ، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة ، وليس كذلك ، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض ، لأنهما خلقا منها ، وليكون آدم خليفة في الأرض»[1] .

ويُلحظ من القراءتين الثابتتين عن رسول الله ﷺ بلاغة الكتاب العزيز ، حيث إن من زلّت قدمه عن الصواب فقد زال عن أفضلية كان يحوزها إلى درجة أقل حتى يتوب ويعود ، وللزلة ذِلة يشعر بها الإنسان وقد لا تبدو لغيره ، فالزلة إذن زوال خيرٍ كانت خطوات المرء موفقةً إليه ، ومن زلّ فقد تأخر عن ركب السابقين فإما أَلهمه الله التوبة ولحق بهم ، وإلا تأخرّ ، ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ (المدثر:٣٧) ، فإذا أتبع الزلة الزلة طُبع على قلبه فصارتْ هواناً وذلاً لا ينفك عنه .

- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

(آل عمران:١٥٥) .

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١/٣١٠، ٣١١ .

«استزلهم : أي : أزلهم بمعنى جعلهم زالين ، والزلل : إن كان معناه انزلاق القدم وسقوط صاحبها ، فإن معناها هنا : الوقوع في الذلة التي هي الخطيئة ، والسين والتاء في ﴿ ٱسْتَزَلَّهُمُ ﴾ للتأكيد ، مثل : استفاد كذا واستنشق الماء أو الهواء ، ﴿ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ﴾ (التغابن:٦)» [١] . والزلة في الأصل : استرسال الرِّجْل من غير قصد ، يقال : زلت رِجْل تزل ، والمزلة : المكان الزلق ، وقيل للذنب من غير قصد : زلة ، تشبيها بزلة الرِّجْل . قال تعالى : ﴿ فَإِن زَلَلْتُم ﴾ (البقرة:٢٠٩) ، قال تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ ﴾ (البقرة:٣٦) ، واستزله : إذا تحرى زلته ، وقوله : ﴿ ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ (آل عمران:١٥٥) ، أي : استجرهم الشيطان حتى زلوا ، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلةً لسبيل الشيطان على نفسه ، والتزلزل : الاضطراب ، وتكرير حروف لفظه تنبيه على تكرير معنى الزلل فيه ، قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (الزلزلة:١) ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج:١).

وقال تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب:١١) ، أي : زعزعوا من الرعب[٢] .

ومن المهم أن أقف على الفروقات بين لفظ : الزلل ، ومرادفاته مثل : الخطأ ، والذنب ، والسيئة ، والإثم ، والجرم ، مستعرضةً الآيات التي وردت فيها المفردة ، مقدِّمةً الآية التي تأتي بصيغة المصدر على غيرها مثل تقديم قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا ﴾(النساء:٩٢)ـ في مفردة الخطأ ـ على غيرها من الآيات كقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (يوسف:٩١)، وقد أذكر كل الآيات الواردة إن كان ورودها ثلاث مرات أو أقل .

---

(١) أيسر التفاسير ، أبوبكر الجزائري : ٣٨٩/١ .

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٤٣٧/١ .

الخطأ :

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا** ﴾

(النساء:٩٢) .

«الخطأ : نقيض الصواب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا** ﴾ (النساء:٩٢)، تقول منه : أخطأت ، وتخطَّأت ، بمعنى واحد . والخِطْءُ : الذنْبُ ، في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا** ﴾ (الإسراء:٣١) ، أي إثْماً ، تقول منه : خَطِئَ يَخْطَأُ خطأ وخِطْأَةً ؛ على فِعْلَةً ، والاسم : الخَطيئَةُ . . .» [1] .

و« قرأ ابن عامر ﴿ **إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا** ﴾ (الإسراء:٣١)، بفتح الخاء والطاء ، قال الزجاج (خَطَأً) له تأويلات :

أحدها : معناه إن قتلهم كان غير صواب ، يقال أخطأ يخطئ إخطاءً وخطأً ، والخطأ : الاسم من هذا لا المصدر .

وثانيها : قد يكون الخطأ من : خطئ يخطأ خطأً ، إذا لم يصب مثل فزع يفزع فزعًا . وقرأ ابن كثير (خِطَاءً) بكسر الخاء وفتح الطاء . وقرأ الباقون خطأ بكسر الخاء وإسكان الطاء معناه : إثمًا كبيرًا وهو مصدر لـ (خطئ) الرجل يخطأ خِطئًا مثل أثم يأثم إثمًا فهو آثم [2] ، والحجة لمن كسر وأسكن وقصر أنه جعله مصدرا لقولهم : خطئت خطأً ، ومعناه أثمت إثمًا ، والحجة لمن فتحهما وقصر أنه أراد الخطأ الذي هو ضد العمد ودليله قوله تعالى ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا** ﴾ (النساء:٩٢) .

وقال بعض أهل اللغة هما لغتان بمعنى واحد ، كما قالوا قَتْب وقَتَب وبَدْل وبَدَل .

---

(١) تاج اللغة ، الجوهري : ١/١٧٧ ، مادة (خ ط أ) .

(٢) ينظر : حجة القراءات ، ابن زنجلة : ٤٠٠ .

والحجة لمن كسر الخاء وفتح الطاء ومد على وزن فعال (خطاء) من الخطيئة : وهو مصدر كالصيام والقيام ، والعرب تقول هذا مكان مخطوء فيه من : خطئت ، ومخطًا فيه من أخطأت هذان بالهمز ومكان مخطو فيه من المشي بتشديد الواو من غير همز » .[1]

والخطأ : هو العدول عن الجهة ، وذلك أضرب :

أحدها : أن تريد غير ما تحسن إرادته فتفعله ، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان ، يُقال : خطئ يخطأ ، خطأ ، وخطأ ، قال تعالى : ﴿ **وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ** ﴾ (يوسف:٩١) ، والثاني : أن يريد ما يحسن فعله ، ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال : أخطأ إخطاءً فهو مخطئ ، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل ، وهذا المعنى بقوله ﷺ : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر »[2].

والثالث : أن يريد ما لا يحسن فعله ويتفق معه خلافه ، فهذا مخطئ في الإرادة ومصيب في الفعل ، فهو مذموم بقصده وغير محمود على فعله[3] .

الفرق بين الخطيئة والسيئة :

الخطيئة والسيئة يتقاربان ، لكن الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصودًا إليه في نفسه ، بل يكون القصد سببًا لتولُّد ذلك الفعل منه ، كمن يرمي صيدًا فأصاب إنسانًا ، أو شرب مسكرًا فجنى جنايةً في سكره ، والسبب سببان :

(١) الحجة في القراءات السبع ، لابن خالويه : ٢١٧ .

(٢) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، (رقم الحديث : ٦٩١٩) ، ورواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : الأقضية ، باب : بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، (رقم الحديث : ١٧١٦) .

(٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٣٠٤/١ .

سبب محظور فعله، كشرب المسكر وما يتولد عنه من الخطإ غير متجاف عنه، وسبب غير محظور، كرمي الصيد، قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (الأحزاب:٥)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾ (النساء:١١٢)، فالخطيئة ههنا هي التي لا تكون عن قصد إلى فعله، والجمع الخطيئات والخطايا، وقوله تعالى: ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ (البقرة:٥٨)، فهي المقصود إليها، والمخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره، والخاطئ من تعمد لما لا ينبغي، وهو القاصد للذنب، وعلى ذلك قوله: ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ (الحاقة:٣٦،٣٧)، وقد يسمى الذنب خاطئةً كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ (الحاقة:٩)، أي: الذنب العظيم، وذلك نحو قولهم: شعر شاعر، فأما ما لم يكن مقصوداً فقد ذكر عليه الصلاة والسلام أنه متجافى عنه[1].

الذنب:

قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ (الشعراء:١٤).

جاء في لسان العرب كذلك: (الذَّنْبُ الإِثْمُ والجُرْمُ والمعصية)[2].

الفرق بين الخطأ والذنب:

قال العسكري: «الذنب يطلق على ما يقصد بالذات، وكذا السيئة والخطيئة تغلب على ما يقصد بالعرض، لأنها من الخطأ... وقيل: الخطيئة: السيئة الكبيرة، لأن الخطأ بالصغيرة أنسب والسوء بالكبيرة ألصق. وقيل الخطيئة ما كان بين الإنسان وبين الله تعالى، والسيئة ما كان بينه وبين العباد»[3].

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني: ٣٠٥/١.

(٢) ابن منظور: ٣٨٩/١، مادة (ذ ن ب).

(٣) ينظر: الفروق اللغوية: ٢٢١/١.

السيئة :

قال تعالى ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ (البقرة:٨١) .

« السيئة الفاحشة الموجبة للنار ، قاله السدي ، وعليه تفسير من فسرها بالكبيرة ؛ لأنها التي توجب النار أي يستحق فاعلها النار إن لم يغفر له وذهب كثير من السلف إلى أنها هنا الكفر »[١] .

وقيل : « الفرق بين السيئة والخطيئة أنّ السيئة قد تقال فيما يقصد بالذات ، والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض ؛ لأنها من الخطأ »[٢] .

الإثم :

قال تعالى : ﴿ **فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (البقرة:١٨٢) .

الفرق بين الخطيئة والإثم :

« الخطيئة قد تكون من غير تعمد ولا يكون الإثم إلا تعمدًا ، ثم كثر ذلك حتى سميت الذنوب كلها خطايا كما سميت إسرافًا ، وأصل الإسراف مجاوزة الحد في الشيء »[٣] .

الجرم :

« الجرم : الذنب ، وفِعله الإجرام »[٤] ، و« الجريمةُ مثله » [٥] ، يقال : « أجرَم الشَّخْصُ : أذنب واكتسب الإثم »[٦] .

---

(١) روح المعاني ، الآلوسي : ٣٨٥/١ .
(٢) تفسير السراج المنير ، محمد الخطيب : ١٦١/١ .
(٣) الفروق اللغوية ، العسكري : ٢٢٢/١ .
(٤) جمهرة اللغة ، ابن دريد : ٤٦٥/١ ، مادة (ج ر م) .
(٥) تاج اللغة ، الجوهري : ١٨٨٥/٥ ، ماة (ج ر م) .
(٦) معجم اللغة العربية المعاصرة ، أحمد مختار : ١ أ/٣٦٥ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ** ﴾ (الأنعام:١٢٤) .

الذين أجرموا : أي قطعوا ما أمر الله به أن يوصل[١] وأصله من الجَرْم القَطْع[٢] ، فالجرم أعلى درجات الذنب ، إذ هو يطلق على كبار الذنوب التي يكون فيها قطع ما ينبغي وصله من أوامر الله .

وبعد هذا العرض يتلخص أن اختيار (الزلل) نابعٌ من كونه يطلق على أيسر الأخطاء ، فيكون شاملاً آيات الدراسة ؛ فهو دون مرادفاته ؛ لأنه يطلق على من أخطأ كنايةً ؛ إذ هو في الأصل على زلل القدم فيقصد به المعنى الحسي ولعله كُنّي به عن الزلل المعنوي ، فيدخل فيه كل أنواع الخطأ وإن صغرت كالنسيان ، وقد يُلحظ عليَّ أنني أدخلت النسيان في باب الزلل ـ كقصة موسى عليه السلام مع الخضر ـ وقد رُفِع عن أمة محمد ﷺ!

وقد فعلتُ ذلك لأن قصص القرآن شاملة جميع الأمم ، كما أن النسيان زلة وإن لم يحاسب عليه المرء كرما من الله عز وجل .

* * *

بيان الحد لعنوان : (مقامات الاعتراف بالزلل) :

هي : المراتب أو المنازل التي يظهر فيها المقصر متأثرًا بزلله ، مقرًّا بفعله ، مراعيًا من يخاطبه ، سواء شعر بذلك أم لم يشعر .

وإيضاح التعريف كالتالي :

- **(المراتب أو المنازل التي يظهر فيها المقصر متأثرًا بزلله)** :

(المراتب أو المنازل) : تشمل المواقف والمناسبات التي تحدد المنزلة التي يقف عندها المعترف ، وتميز الاعتراف عند الشخصيات ، وتحدد طريقته ،

---

(١) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ٣٧٢/٩ .

(٢) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٩٠/١٢ ، مادة (ج رَ م) .

فمن يعترف عند ربه ليس كمن يعترف عند البشر ، كما أن مقامات البشر كذلك تختلف .

(يظهر فيها المقصر) : ظهور المقصر قد لا يكون بإرادته ، فقد يكون مجبرًا ، كحال المشركين يوم يعرضون على ربهم .

(متأثرًا بزلله) : التأثر يُلحظ من الملامح باشتراك الكلمات ، وقد تكون الكلمات وحدها دون الملامح ، وربما العكس ، مما يضفي على دراسة هذا الموضوع إبداعًا بليغًا .

كما أن التأثر ليس معناه أن يكون المعترف باكيًا مثلاً أو نادمًا ، فهذه من أشكال التأثر وليست حصرًا له ، إنما القصد أن يكون متفاعلاً مع اعترافه ، إما بحماسٍ بادٍ على شكله وحركاته ، أو اختيار ألفاظه ، وقد يكون التأثر مكابرةً وعنادًا رغم وقوع الاعتراف ، فهذه أحوال نفسية مرتبطة به .

- **(مقرًّا بفعله)** : الإقرار بالفعل ليس هو الإقرار بالخطأ ؛ كأن يقول المجرم مثلاً : أنا سرقت كذا لكنني لم أخطئ ؛ إذ إن ما سرقته كان مالي ، فهنا اعترف بالسرقة وهذه هي زلته لكنه لم يقر بالخطأ ؛ لأنه لم ير أن ما فعله كان خطأً ، وهذا ما سعيت لإيضاحه بهذا القيد .

(سواء شعر بذلك أم لم يشعر) : ستأتينا الأمثلة في الفصول اللاحقة لتبين أن المعترف قد يتفاجأ أنه اعترف ، لذا كان هذا القيد موضحًا أن الشعور ليس شرطًا في الاعتراف .

* * *

الباب الأول

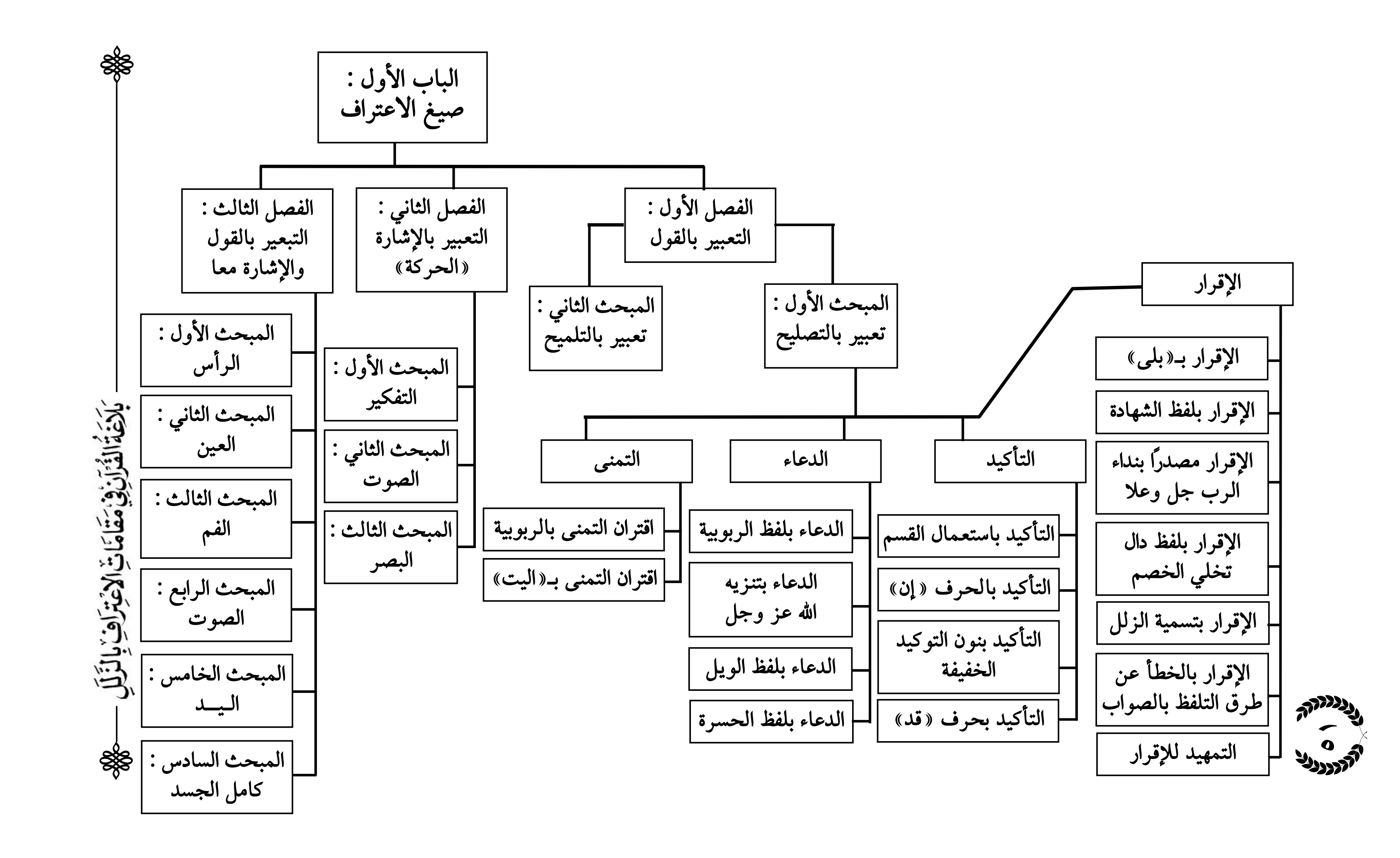
صيغ الاعتراف

وفيه ثلاثة فصول

الأول : التعبير بالقول .

الثاني : التعبير بالإشارة (الحركة) .

الثالث : التعبير بالقول والإشارة معاً .



الباب الأول : صيغ الاعتراف
الفصل الأول : التعبير بالقول
الفصل الثاني : التعبير بالإشارة «الحركة»
الفصل الثالث : التبعير بالقول والإشارة معا
المبحث الأول : تعبير بالتصليح
المبحث الثاني : تعبير بالتلميح
الإقرار
الإقرار بـ« بلى»
الإقرار بلفظ الشهادة
الإقرار مصدراً بنداء الرب جل وعلا
الإقرار بلفظ دال تخلي الخصم
الإقرار بتسمية الزلل
الإقرار بالخطأ عن طرق التلفظ بالصواب
التمهيد للإقرار
التأكيد
التأكيد باستعمال القسم
التأكيد بالحرف « إن»
التأكيد بنون التوكيد الخفيفة
التأكيد بحرف « قد»
الدعاء
الدعاء بلفظ الربوبية
الدعاء بتنزيه الله عز وجل
الدعاء بلفظ الويل
الدعاء بلفظ الحسرة
التمنى
اقتران التمنى بالربوبية
اقتران التمنى بـ« اليت»
المبحث الأول : التفكير
المبحث الثاني : الصوت
المبحث الثالث : البصر
المبحث الأول : الرأس
المبحث الثاني : العين
المبحث الثالث : الفم
المبحث الرابع : الصوت
المبحث الخامس : اليـــد
المبحث السادس : كامل الجسد

الفصل الأول

التعبير بالقول

وفيه مبحثان :

الأول : تعبير بالتصريح

الثاني : تعبير بالتلميح

الفصل الأول

التعبير بالقول

تجتمعُ الكلمات لتُشكّل صِيغاً للاعتراف بالزلل حكايةً عن الشخصيات ، فتكون في كلام رب العزة جل وعلا معجِزة ، فتأتي الصِيغ لتحكي قولاً ، أو لتنقل إشارةً ، أو لتجمع بينهما في بعض الأحيان ، فيكون لكلّ طريقةٍ وَقعُها ، وتعبيرها المميز عن المقام ، فتجد الصياغة بديعةً في وصف الموقف ، وما صدر عن الشخصيات فيه .

و(الصيغة) التي هي عنوان الباب ، أصلٌ في العربية يدل على تهيئة شيء على مثال مستقيم [1] ، وفلان من صيغة كريمة ، أي : من أصل كريم [2] ، وصيغة الأمر كذا ، أي : هيئته التي بني عليها [3].

وتعريفها هو : « الهيئة العارضة للفظ باعتبار الحركات والسكنات ، وتقديم بعض الحروف على بعض ، وهي صورة الكلمة ، والحروف مادتها » [4].

فدراسة صيغ الاعتراف بالزلل تعني دراسة شاهد الاعتراف بالزلل في الآية الكريمة ، وتحليله وما يتطلّبه الاعتراف بالزلل من لوازم دخل في التحليل للآية القرآنية ، من أجواء الاعتراف ، وبُيّن في حينه .

---

(١) ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس :٣/٩٢١ ، مادة (ص و غ) .
(٢) ينظر : جمهرة اللغة ، ابن دريد : ٢/٨٩٠ ، مادة (ص غ ي) .
(٣) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٨/٤٤٣ ، مادة (ص و غ) .
(٤) الكليات ، الكفوي : ١/٨٨٤ .

وسبحان من علّم البارئ جل في علاه الإنسان طرائق التعبير ، وكان من أدلّها لإيصال مراده والتواصل مع البشر حتى يتم له حياةً كريمة فترة مكثه في دنياه هو التواصل اللفظي المبني على الحروف ، وقد طلب موسى عليه السلام من ربه أن يعتضد بأخيه هارون عليه السلام في دعوة فرعون لأنه أفصح منه لسانًا في قوله الله تعالى : ﴿ **وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ** ﴾ (القصص:٣٤) ، وهذا يعطينا دلالة على اختيار الفصيح من القول عند مخاطبة الأقوام والتعبير لهم عن المراد ، والفصيح يكون فيه دلالات بها تتضّح فصاحته ، فقد اختصّ كل قوم بلغتهم ، لذلك لابد عند مخاطبة الأقوام من الحرص على الفصاحة في اللسان بما يتناسب مع لغتهم ، وقد شرّف الله جل في علاه اللسان العربي بإنزال القرآن به ، فكان فخرًا لكل من يتعلّم العربية ويدرس فنونها أن يكون الكلام المحفوظ عند رب العزة سبحانه والمنزل من عنده بهذه اللغة المصطفاة الخالدة .

وكان من بديع النظم القرآني وتفرّده أن تكون الأقوال المحكيّة على لسان الأمم غير الناطقة بالعربية عبر العصور هي كلامًا بليغًا يحكي أدق معنى في نفوسهم بلسانٍ عربي مبين مصوّر للحالة التي يمرون بها في دقائقه وحروفه ، وفيه من البلاغة أن هذا المحكي على لسانهم ليس بلغتهم لكنه مع ذلك يصف المعنى المُراد أبدع ما يكون الوصف ، وفيه من فنون البلاغة ما عجز عن الإتيان به العرب .

ولأنه كلام الله جل في علاه الذي لا يعتريه نقصٌ فكان المحكي من الأقوال يراعي ما في النفوس من مشاعر ، ومدى أهمية الأمور وتقديرها عند الأشخاص فتكون تقديمًا وتأخيرًا ، أو تأكيدًا أو جُملاً موصولة أو مفصولة ، أو مستفهمة أو مخبرة ، إلى غير ذلك من فنون البلاغة .

والباحثةُ إذ تدرسُ أقوال المعترفين في هذا الفصل بالتفصيل تصريحًا وتلميحًا إنما تهتمّ بآي القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى ، وتحاول فهم



أجزائه ، وتحلل شيئًا من نظمه مستعينةً بكلام المفسّرين والعلماء ، لتجلّي بعض جماله ومعانيه وبلاغته ، مستصحبَةً قول الله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴾ (النساء: ٨٢) ، وهذا الانسجام والتوافق في كلام الحق جل وعلا يزيد بتدبّره اليقين ، مستلهمةً من الله العون والتسديد .

* * *

المبحث الأول

تعبير بالتصريح

من كمال نضج المرء أن يستطيع الإفصاح عن زلله لمن أخطأ في حقه ؛ فهو بهذا يرفع قدره ، ويحترم قدر الآخرين ، وحين يحسنُ النطق صراحةً يكون قد وصل إلى مقصوده من الاعتراف دون حاجته إلى مزيد إيضاح فيختصر بذلك جملاً كثيرة ، لكنّ المقام قد يحول دون التصريح إمّا حياءً من التلفظ بالزلل ، أو لشدة العذاب الذي يتعرض له ، أو غير ذلك من الأسباب الداعية لتحويل الأسلوب تلميحاً .

في هذا المبحث أدرس الصيغ القولية التي بها يظهر الاعتراف صريحًا .

تعريف (التصريح) :

جاء في مقاييس اللغة :« (صرّح) الصاد والراء والحاء أصلٌ منقاسٌ يدلُّ على ظهور الشَّيء وبُروزه ، ومن ذلك : الشَّيء الصريح ، وصرَّحَ بما في نفسه : أَظهَرَه . ويقال : كأس صُراحٌ ، إذا لم تُشَبْ بِمزَاج . . . »[1] .

وصَرَحَ الشيءَ وصَرَّحه وأَصْرَحه إِذا بَيَّنه وأَظهره ، ويقال صَرَّحَ فلانٌ ما في نَفْسِه تصريحاً إِذا أَبداه ، والصُّرَاح : هو المحض الخالص من كل شيء ، والتصريحُ خلافُ التعريض ، ومن أَمثال العرب : (صَرَّحَتْ بِجِدَّان وجِلْدانَ) إِذا أَبدى الرجلُ أَقْصَى ما يريده [2] .

---

(١) ابن فارس : ٢٧٣/٣ ، مادة (ص ر ح) .

(٢) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٥٠٩/٢ ، مادر (ص ر ح) .

و« الصراحة في الخبر : الوضوح فيه ، والخلوص من الالتواء »[1] .

ومعنى أن تكون صيغ الاعتراف صريحةً : أي أن تكون دالةً على الاعتراف بوضوح في العبارة .

وقد استقرأتُ الآيات التي ورد فيها التعبير جليًّا صريحًا ، فرأيتُ أن تصنَّف وفقاً للأساليب التي غلبت على صيغ الاعتراف بالقول فيها إلى أربعة مطالب هي :

١- الإقرار .   ٢- التأكيد .

٣- الدعاء .   ٤- التمني .

ورتبتها حسب أهميتها في بيان الاعتراف ، وكلٌّ مطلبٍ منها له طرقه ؛ تبعًا للفظ المستعمل لكل صيغة اعترافٍ قولية .

* * *

(١) المعجم الوسيط ، أحمد مصطفى وآخرون : ١/١٠٦١ ، مادة (ص ر ح) .

المطلب الأول

الإقرار

أولُ صيغ الاعتراف بالقول ، هو :

١- الإقرار :

وهو التكلم بالحق ، اللازم على النفس ، مع توطين النفس على الانقياد والإذعان ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ** ﴾ (البقرة:٨٤) [(١)].

وورد الإقرار في آيات الاعتراف بسبع طرقٍ اجتهدتُ في حصرها استقراءً لمواضعها في القرآن الكريم ، مبيّنةً ما يتميز به كل طريق عن الآخر ، وهي :

١- الإقرار بـ(بلى) .

٢- الإقرار بلفظ الشهادة .

٣- الإقرار مصدّراً بنداء الرب جل وعلا .

٤- الإقرار بلفظ دال على تخلي الخصم .

٥- الإقرار بتسمية الزلل .

٦- الإقرار بالخطأ عن طريق التلفظ بالصواب .

٧- التمهيد للإقرار .

وقد اعتمدتُ هذا الترتيب استناداً على وضوح طريق الإقرار في الآيات .

* * *

---

(١) الفروق اللغوية ، العسكري : ٦٤/١ .

١- الإقرار بـ(بلى) :

وفيه خمسة شواهد[1] ، هي :

١- قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٠) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الزمر: ٧١) .

٣- وقوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (غافر: ٥٠) .

٤- وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأحقاف: ٣٤) .

٥- وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الملك:٨-١٠).

وقفة مع المعنى :

معنى الحرف (بلى) :

(بلى) حرف جواب يجاب به عن النفي بخاصة ، ويفيد إبطاله سواء أكان هذا النفي مع استفهامٍ أم دونه ، مثل قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن

(١) سيكون تحليل آيات الإقرار بـ(بلى) مجتمعةً بعد الانتهاء من سردها للتشابه بينها .

يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ﴾ (التغابن:٧) ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ ﴾ (الملك:٨،٩) ، وقوله : ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ (الأعراف:١٧٢) [١] .

و(بلى) كلمةٌ تدل على تقرير يفهم من إضرابٍ عن فهم ، ونقل المناوي عن الراغب قوله : (بلى) رد للنفي كما أن (نعم) تقرير ، فلو قيل في جواب ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ : نعم ، كان كفرًا ، وإذا قيل : ما قام زيد؟ فأجيب بـ (بلى) فمعناه : إثبات القيام ، وإذا قيل : أليس كان كذا؟ فقيل (بلى) فمعناه : التقرير والإثبات ، ولا يكون إلا بعد نفي في أول الكلام أو أثنائه [٢] .

والفرق بين (بلى) و(نعم) أن الأولى وُضِعتْ لكل إقرارٍ فِي أوله جحد ، ووُضعت الثانية للاستفهام الذي لا جحد فيه ، فـ (بَلى) بمنزلةً (نعم) إلا أنها لا تكون إلا لما فِي أوله جحد ، قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ ﴾ (الأعراف:٤٤) فـ(بَلى) لا تصلح في هذا الموضع. وأما الجحد فقوله : ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ ﴾ (الملك:٨،٩) ولا تصلح هاهنا (نعم) أداة ؛ وذلك أن الاستفهام يحتاج إلى جواب بـ (نعم) و(لا) ما لم يكن فِيهِ جحدٌ ، فإذا دخل الجحد فِي الاستفهام لم يستقم أن تقول فِيهِ « نعم » ؛ فتكون كأنك مقرٌّ بالجحد وبالفعل الذِي بعده ، ألا ترى لو قال لك قائل : أما لك مالٌ؟ ، فقلت : (نعم) ،كنت مقرًّا بالكلمة ، بطرح الاستفهام وحده ، كأنك قلت : نعم مالي مالٌ ، ففي الآية أراد الكفار أن يرجعوا عن الجحد ، ويقرّوا بما بعده فاختاروا (بَلى) ؛ لأن أصلها كان رجوعًا مَحْضًا عن الجحد ؛ إذ إن (بل) كلمة عطف ورُجوع لا يصلح الوقوف عليها ، فزادوا فيها ألفًا يصلح فيها الوقوف عليه ، ويكون رجوعًا عن الجحد فقط ، وإقرارًا بالفعل الَذِي بعد الجحد ، ودلَّ لفظ « بل » على الرجوع عن الجحد فقط [٣] .

---

(١) ينظر : المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون : ١٤٧/١ ، مادة (ب ل ى) .
(٢) ينظر : التوقيف على مهمات التعاريف ، المناوي : ١٤٢/١ .
(٣) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ٥٢/١ .

من بلاغة الاعتراف في آيات الإقرار بـ(بلى) :

في عرصات القيامة ، تشتد الملامة ، ويقف المذنب حائراً ، ويرتعد اللسان عاثراً ، ويتجلى شتات الكفار في ذلك اليوم ، فالجامع بين اعترافهم بـ(بلى) أن الآيات جميعاً كانت في سياق العذاب ، وكان الاعتراف إقراراً لا كِبر فيه ، ولا تخلي عن الذنب ، بل هو إقرارٌ لبس الذل والانقياد لرب العباد ، وليس ينفع الانكسار ـ مَن اعتاد الاستكبار ـ يوم العرض على الجبار .

- في قوله تعالى ﴿ **قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا** ﴾ في سورتي الأنعام والأحقاف إقرارٌ مؤكدٌ باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء [1]، فقد اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف ، وأكدوا هذا الاعتراف بالقسم ؛ لأن المشاهدة هي حق اليقين الذي لا يمكن جحده ولا إنكاره [2] .
- وفي اعتراف الكافرين : ﴿ **بَلَىٰ وَرَبِّنَا** ﴾ في الآيتين المتشابهتين في سورة الأنعام والأحقاف ، جوابٌ عن سؤال الله والملائكة : ﴿ **أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ** ﴾ وهو وصفُ حالهم حين يحشرون إلى الله ، وهو حال البعث الذي أنكروه [3]، فتأكيد اعترافهم بالحلف ، واستعمال صيغة الربوبية مع الضمير (نا) الدال على جماعة المتكلمين عوضًا عن (الله) ؛ فيه مزيد تحنُّنٍ منهم ، كما قال ابن عاشور : « وإنما أقسموا على كلامهم بقسم ﴿ **وَرَبِّنَا** ﴾ قسماً مستعملاً في الندامة والتغليط لأنفسهم ، وجعلوا المقسم به بعنوان الرب تحننًا وتخضُّعًا » [4].

---

(١) ينظر : أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٤٠٢/١ .

(٢) ينظر : فتح القدير ، الشوكاني : ٣٩/٥ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٢٧٢/١ .

(٤) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٤٠٢١/١ .

- جاء الخبر مؤكدًا بالقسم مقترناً بـ(بلى) جوابًا عن الإنشاء الطلبي في الاستفهام الإنكاري في سؤال الله والملائكة : ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وهي صياغةٌ لم يذكّروا فيها برُسُلهم ، بينما كان جوابهم بـ(بلى) دون التأكيد بالقسم في الصيغ التي ذكّروا فيها برسلهم ، بعد مجيء الاستفهام للتوبيخ والإنكار ، وهي في سورة الزمر : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ (الزمر:٧١) ، وفي سورة غافر : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ (غافر:٥٠) ، وفي سورة الملك : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك:٨) ، ولعل من الحِكَم في هذا أن الذين استكبروا عن الإيمان برُسُلهم إذا ذُكّروا بهم كأنما دخل نفوسهم شيءٌ من الغيرة والحسد ؛ لاختصاص هؤلاء البشر بالرسالة دونهم ، وقد أفصحوا عنها في الدنيا ، وجاء ذلك عنهم في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (التغابن:٦) ، لذا لم يؤكدوا اعترافهم عند ذكر الرسل بمؤكدات ، وإنما ألقوه دون تأكيد في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الزمر:٧١) ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (غافر:٥٠) ، وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الملك:٨-١٠).

- قولهم في سورة غافر : ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ للاستئناف البياني جواباً على سؤال الملائكة : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ، و﴿ بَلَىٰ ﴾ للإيجاب بعد النفي : أي بلى جاءتنا رسلنا بالبينات فكذبنا .

وسؤال خزنة النار لهم لم يقف عند حد التقرير ، والإلزام ، والتبكيت ، والتيئيس ، بل تضمن معنى مجازيًّا آخر هو الاستدراج ، أي استدراجهم إلى الاعتراف ، مع ما رتبه عليه الملائكة من المبالغة في التيئيس (١) .

- وقولهم في سورة الملك : ﴿ **قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ يتجلى فيه الإقرار الصريح بعد أن استقر بهم الحال في نار جهنم نلحظ بسط القول والتفصيل في الاعتراف ، مع لوم النفس ، بعكس ما كان في الآيات السابقة حين وقفوا على النار ،وعرضوا على ربهم، كان لهم من الرجاء الأمل في العودة ما يغنيهم عن بسط القول ، ويجعلهم يكتفون بالاختصار ، ولما استقر بهم الحال في قاع جهنم ، وانقطع الرجاء في العودة ، كان منهم تفصيل القول .
- قالوا : ﴿ **بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ** ﴾ ، أقروا أن الرسل قد جاءتهم وأن دورهم كان التكذيب والإعراض ، ولم يكتفوا بالإجمال في قولهم : ﴿ **فَكَذَّبْنَا** ﴾ بل أخذوا يفصّلون ما قالوا ويخصّصونه : ﴿ **وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ** ﴾ وهذا من ذكر الخاص بعد العام ، وذلك تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات (٢) ، فيشعر المتأمل وكأن الجملة المعطوفة المُبينة لقولهم رداً على الرسل جرمٌ مختلفٌ عن الجرم السابق وهو التكذيب .
- وفي قولهم : ﴿ **وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ** ﴾ زادوا على نفيهم صفة العموم : ﴿ **مِن شَىْءٍ** ﴾ ، ويُفهم من هذه الصياغة عدم اهتمامهم بما جاء به النذير ،

---

(١) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٤٦٩/٣ .

(٢) ينظر : الإيضاح ، القزويني : ٢٠٠/٣ .

فكلمة ﴿ شَيۡءٍ ﴾ تحملُ استخفافاً بما نُزّل ، وهذا الاستخفاف مقصودٌ منهم لإتمام تكذيبهم ، والله أعلم .

- وقولهم : ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴾ استعمال أسلوب الاستثناء يلفت النظر إلى عمق الغواية التي كانوا فيها حين رأوا أن هؤلاء الرسل ضالون ؛ حيث إنهم لم يقولوا لهم : أنتم ضالون ، وإنما جاء القرآن يحكي عنهم بمنتهى البلاغة ما جاء في نفوسهم : ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴾ ، وفيها تشبيه الضلال بالمكان الذي يقاس بالصغر والكبر ، وهؤلاء الرسل متوغلون فيه ، كما رآهم الكفار نسأل الله السلامة ، وهذا الاعتراف الصادر منهم فيه دقة في تذكّر ما كانوا يجيبون به من دعاهم إلى الله ، وهم يتجرعون الحسرات ، وكأنهم يقولون : كيف كنا نجيبهم بهذا؟

- قالوا ـ وهيهات ينفعهم اعترافهم ـ : ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، و« إنما جمع بين السمع والعقل ، لأنّ مدار التكليف على أدلة السمع والعقل »[1] فتيقنوا حينما رأوا العذاب أن ذلك السمع الذي كانوا يملكونه في الدنيا لم ينفعهم ، ولا العقل الذي عطّلوا استعماله ، فلم يهتدوا لربهم رغم توالي الآيات ، فصاروا كالأنعام بل هم أضل .

- قالوا : ﴿ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ المتوقع في مثل حالهم هو قول : ما صرنا ، وإنما استعملت « كنا » بدلاً منها ؛ لاستطالة مدة العذاب الواقعة بهم ، وكأن لهم زمناً طويلاً في عذابهم ، فأخذ المكان حكم الزمن الماضي .

- قولهم : ﴿ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ظهور لشدة العذاب الواقع بهم المؤثر على اختيار صيغ اعترافهم حيث إن (في) تُشعر بضيق المكان وكأنهم محشورون مع بعضهم البعض في نار جهنم ، بعكس « مع » التي تدل على المصاحبة دون المعنى الذي أفادته (في)، و﴿ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ تجعل من الكفار

---

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٥٧٧/٤ .

والمعذبين في جهنم من شدة ملازمتهم لها ، وعدم انفكاكهم عنها ، كأنهم أصحابها نسأل الله السلامة ، والعفو ، والعافية .

* * *

٢- الإقرار بلفظ الشهادة :

شاهده قوله تعالى : ﴿ **يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ** ﴾ (الأنعام: ١٣٠) .

وقفة مع المعنى :

هذا موقف توبيخ لمعشرٍ من الثقلين يوم القيامة على تكذيبهم وعدم اتباعهم الرسل ، فما يكون منهم إلا الجواب : ﴿ **شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا** ﴾ بالجرم والعصيان ، وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب ، ثم أخبر الله بسوء نظرهم وخطأ رأيهم فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة ، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية ، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد ، تحذيراً للسامعين من حالهم[١] .

معنى الشهادة :

أَصل الشهادة : إخبار المرء بما شاهَدَته عينه [٢] ، والشين والهاء والدال أصلٌ يدلُّ على حضور وعلم وإعلام ، لا يخرُج شيءٌ من فروعه عن الذي ذكرناه ، من ذلك الشَّهادة وهي من الحضور ، والعلم ، والإعلام [٣] ، وعبارات السلف بـ (شهد) تدور على الحكم والقضاء ، والإعلام ، والبيان ، والإخبار ، قال

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ١٨٦/٣ .
(٢) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٢٣٨/٣ ، مادة (ش هـ د) .
(٣) ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس : ١٧٢/٣ ، مادة (ش هـ د) .

مجاهد : حكم وقضى ، وقال الزجاج : بيّن ، وقالت طائفة : أعلم وأخبر ، وهذه الأقوال[1] كلها حقٌّ لا تنافي بينها ؛ فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله ، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علمٌ ومعرفةٌ واعتقادٌ لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلُّمه بذلك ونطقه به ، وإن لم يعلم به غيره بل يتكلم به مع نفسه ، ويذكرها وينطق بها ، أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بما شهد به ، ويخبره به ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به ، فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية ، والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع ، علم الله سبحانه بذلك ، وتكلمه به ، وإعلامه وإخباره لخلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به ، ومرتبة التكلم والخبر فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به ، وإن لم يتلفظ بالشهادة ، قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ** ﴾ (الزخرف:١٩) [الزخرف] ، فجعل ذلك منهم شهادة ، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

قوله تعالى : ﴿ **يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ** ﴾

(الأنعام:١٣٠) .

هذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول مشركي الجن والإنس عند تقريعه إياهم

(١،٢) ينظر : التفسير القيم ، ابن القيم : ١/٢٨٨ .

بقوله لهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [١] ، سنقف على بعضٍ من جماليات هذا الاعتراف :

- قولهم : ﴿ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ هذا إقرارٌ منهم أن الرسل قد أتتهم بالآيات والنذر وقابلوا ذلك بالكذب والجحود والإعراض ، ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين في الدنيا بالرسل المرسلين إليهم ، والآيات التي جاءوا بها [٢] .

والشهادة يقترن معناها برؤية العين ، ويؤخذ هذا من معناها اللغوي وهو : إخبار المرء بما شاهَدَته عينه[٣] ، فمن شدة اليقين ذلك اليوم بما كانوا عليه من الحال في الدنيا اختير لفظ (الشهادة) دون غيره هنا ، وهذا يناسب التعبير بالقص الذي هو تتبع الأثر الذي يتطلّب قوة بصر لتمام صدق الإخبار ، فنجده أليق ببداية الآية عند قوله تعالى : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾ أي : « يتابعون ذكرها لكم على وجه مقطوع به ، ويتبع بعضهم بها أثر بعض لا يتخالفون في أصل واحد من الأصول »[٤] .

- حذف متعلّق الفعل ﴿ شَهِدْنَا ﴾ وهو(بالكفر) دلالة على شدة الحياء من الله المانع من ذكر الفعل الذي كانوا يفعلونه من الشرك به سبحانه ، وعبادة غيره ، ويفسر هذا الملمح أيضاً قولهم : ﴿ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ فلم يقولوا مباشرة : على كفرنا ، لاسيما أن الشهادة كانت ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ وأصدق شهادة هي شهادة المرء على نفسه ؛ إذ هو لايُعلي من شأنها ولا يبخسها .

قال الرازي : « حُمل قوله : ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ بأن تشهد عليهم الجوارح بالشرك والكفر ، ومقصودهم دفع التكرار عن الآية ،

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٢٣/١٢ .

(٢) ينظر : السابق : ٥٢٦/٩ .

(٣) ينظر : ص ٦٨ .

(٤) نظم الدرر ، البقاعي : ٢٠١/٣ .

وكيفما كان فالمقصود من شرح أحوالهم في القيامة زجرهم في الدنيا عن الكفر والمعصية»[1] .

وتعقيباً على ما ذكره الرازي بشأن دفع التكرار عن الآية ، فليس التكرار ـ إن وُجد في الآيات ـ مما يؤخذ على كلام الله جل وعلا ، بل إن فيه معاني ودلالات ، وأقلُّ ما نقول فيه ـ إن خفي علينا المعنى مع اجتهادنا ـ إن التكرار للتأكيد ، إذ لا يكون التكرار حشواً أو عبثًا في كلام الله تعالى وحاشاه سبحانه .

وإن كان المعنى على التكرار ، فتكون الزيادة في قوله تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾ تبيينٌ أو تأكيد ، فشهادتهم على أنفسهم بالكفر ، وإن لم يتلفظوا به ، فبينت هذه الزيادة أن نطق الإنسان ليس وحده ما يُفهَم عنه ، بل إن بعض الصمت يُفهِم معاني أُخر .

* * *

٣- الإقرار مصدَّرًا بنداء الرب جل وعلا :

وفيه أربعة شواهد مرتّبة حسب النظائر لا حسب ترتبها في المصحف ، وهي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ (النحل:٨٦) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (القصص:٦٣) .

---

(١) مفاتيح الغيب : ٦/٤٨٥ .

٣- وقوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤) .

٤- وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (غافر: ١٠، ١١) .

معنى الرَّبُّ :

هو اللّه عزّ وجل هو ربُّ كلِّ شيءٍ أَي مالكُه ، وله الرُّبوبيَّة على جميع الخَلق لا شريك له وهورب الأَربابِ ومالِكُ الملوكِ والأَملاكِ ولا يقال الربُّ في غَير اللّهِ إِلاّ بالإِضافةِ [(١)] .

جمالية النداء :

يجد الإنسان راحة في المناداة ، فـ« النداء بمعنى رفع الصوت بحرف (أ) أو (يا) أو (وا) أو نحوها ، عند تحرّك النفس بأيّ شعورٍ داخليٍّ هو من مظاهر الفطرة التلقائيّة الموجودة لدى الناس عند مطالبهم وأوجاعهم وأحزانهم وفرحهم وسرورهم وتعجُّبهم ، وغير ذلك من مشاعر على اختلاف هذه المشاعر التي تتحرّك في نفوسهم ، وعلى تناقضها ، فهم بالدافع الفطريّ يريدون التعبير عنها بأصواتهم ، وقد يُسْتَدَلُّ على اختلاف المعاني باختلاف نغمات الأصوات، وما يقترن بها من بكاء أو ضحك أو مظاهر دهشة، أو تلَهُّفٍ لمطلوبٍ يريدونه ، أو انزعاجٍ من أمرٍ يكرهونه ، أو حركةٍ تدلُّ على أَلَمٍ يعانون منه .

(١) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ١/٣٩٩ ، مادة (ر ب ب) .

وبقي لهذا المظهر من مظاهر التعبيرات الفطريّة التلقائيّة أثَرٌ في اللّغة ، وبدأ المفكّر المعبّر بالكلمة يتصرّف باستخدام أدوات النداء في غير طلب الإجابة لأمْرٍ ما ، كحالِ الطفْلِ ، إلاَّ أَنَّـهُ خَصَّصَ بعض الأدوات لبعض المعاني ، وجعلَ القرائن القولية والحالية تدلُّ على مشاعره النفسيَّةِ التي يريد التعبير عنها .

ونظر علماء اللّغة العربيّة ، ثُمَّ علماءُ البلاغةِ إلى خروج أدوات النداء عن غرض طلب الإجابة لأمْرٍ ما ، إلى معانٍ أخرى ، فرأوا أنّـه من الأساليب البلاغيّة التي يَحْسُن التَّنْبِيه عليها في علم المعاني ، وعرضُ طائفة من أمثلتها ، وهي ـ فيما يرى ـ بمثابة الزُّجاج الشفاف الذي يتلَوّن بلون الأشعةِ المسلَّطة عليه أو المقارنة له ، لا أنّ أدوات النداء تستعمل للدّلالة على هذه المعاني التي نفهمها من القرائن ، ولسْتُ أقول : إنّها مُطْلَقُ أصواتٍ لا معنى لها ، بل هي أصواتٌ تَظْهَرُ لَها مَعَانٍ بدلالاتِ القرائن القوليّة والحاليّة»[١] ، وتعقيبًا على كلام الميداني الجليل فإن المعاني التي نفهمها من القرائن ليست إلا الأصوات التي تنعكس من ذات الحروف فليس هناك فصل بين الصوت والمعنى .

و«الأصل في الخلق أن يدعوا دعاء افتقار إلى المدعو ، لا أن ينادوا ، فإن نادوا كان نداؤهم دعاءً»[٢] .

خصوصية نداء الرب في القرآن :

لطالما كانت لمناجاة الله لذة مختلفة يشعرها العبد في كل لحظاته ، في السراء والضراء ، وكذلك الأسلوب الذي يُستعمل في نداء الله يناسب هذا الاختلاف ، «فكثيراً ما تُحذَفُ أداة النداء في نداء الرّبّ ودُعائه ، فتكون مقدَّرة ذِهناً ، والأداةُ التي تُقدَّرُ عند الحذف هي : (يا) فيما ذكر النحاة[٣] . حذف أداة

---

(١) البلاغة العربية ، الميداني : ١/١٨٨ .

(٢) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٢٩ .

(٣) ينظر : النحو الوافي ، عباس حسن : ٤/٤ .

النداء لَهُ دلالةٌ في نفس البليغ ، وهي أنّ المنَادى هو في أقرب منازل القرب من المنادِي ، حتّى لَمْ يحتج إلى ذكر أداة نداءٍ لَهُ لشدّةِ قُربِهِ ، وهذا يليق بمقام دُعاءِ الرّبّ جلّ وعلا ، فإذا قال الداعي : (يَارب) فهو يعبِّر بذكر أداة النداء عن شِدَّةِ حاجة نفسه لما يدعو به ، أو يعبّر عن ألمه أو استغاثته أو ضيقِ صدره ، أو نحو ذلك من المعاني ؛ لذلك كلّ نداءٍ فيه دعاءٌ للربّ في القرآن قد حُذِفَتْ منه أداة النداء ، باستثناء نِدَاءَيْنِ نَادَاهُما الرسُول محمّد ﷺ ، فقد ذكر فيهما أداةَ النداء (يا) تعبيراً عن حالة نفسه الحزينة من أجل قومه الذين اتّخَذوا القرْآن مهجوراً بعد أن بلّغهم ما أُنْزِل عليه منه ، وأسْمَعَهُمْ آياتِهِ ، وأعادَهَا عليهم مَرَاتٍ ليفهموا دلالاتها فأصرُّوا على كُفْرهم وعنَادهم حتَّى رأى أنـَّهُمْ لا يُؤْمِنُون مَهْمَا ذكَّرَهُمْ وأقنعهم وحذَّرَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ .

فالأول : قول الله عزَّ وجل : ﴿ **وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا** ﴾ (الفرقان:٣٠) فذكَر الرسول حرف النداء (يا) مع أنه يُنَادِي ربَّهُ الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد ، ليعبّر بمدّ صوته بأداة النداء عن حزنه منْ أجل قومه ، وتلَهُّفِهِ لاستجابتهم ، وحِرْصِه على نجاتِهِمْ من عذاب ربّهم في جهنم دار عذاب الكافرين يوم الدين . والثاني : قوله تعالى : ﴿ **وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الزخرف:٨٨). أي : تَصَلَّبُوا على العناد والكفر ، فَهُمْ لاَ يتحرَّكونَ حركة جديدةً يُشْعِرُون فيها باقترابهم من الإيمان ، فعبّر بأداة النداء عن تلهُّفِهِ لإيمانهِم ونجاتهم ، وتوجُّعِ قلبه من أجلهم» [(١)] .

تحليل آيات الإقرار مصدّراً بنداء الرب جل وعلا :

قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ** ﴾ (النحل:٨٦) .

(١) البلاغة العربية ، الميداني : ١٨٤ .

وقفة مع المعنى :

يخبرنا الله جل وعلا عن اعترافات المشركين في نار جهنم في أكثر من موضع في كتابه العزيز ، ومنه هذه الآيات ، حيث « كان قولهم : ﴿ **رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ** ﴾ إمّا من قبيل الاعتراف عن غير إرادة فضحاً لهم ، كقوله تعالى : ﴿ **يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ** ﴾ (النور:٢٤) ، وإما من قبيل التنصل وإلقاء التبعة على المعبودات ، كأنهم يقولون هؤلاء أغرونا بعبادتهم من قبيل قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا** ﴾ (البقرة:١٦٧) »[(١)] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- في قولهم : ﴿ **رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ** ﴾ تصريح بالذنب الذي ارتكبوه على خلاف قولهم في موقف آخر : ﴿ **شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا** ﴾ (الأنعام:١٣٠) دون تصريح[(٢)] ؛ لأنهم هنا أمام من تحوّلوا من شركاء إلى أعداء ، وانقطع منهم الرجاء ، فكان الاعتراف تصريحاً منهم رجاءَ أن يخفف عنهم ؛ لأنهم كانوا مجرد أتباع ، وقد وقعوا في العذاب مع مَن ظنوا أنهم سينجّونهم ، فقالوا ذلك ظنًّا منهم أن هذا سببٌ يُعفيهم من عذاب السعير .
- في قولهم : ﴿ **كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ** ﴾ تأكيدٌ لشركهم ، وفيه إيضاحٌ بعد إبهام قولهم : ﴿ **شُرَكَآؤُنَا** ﴾ ، فأوضحوا أنهم الشركاء الذين دعوا من دون الله ، وفيه أيضاً احتقارٌ لأنفسهم ، فهم يتعجبون : كيف كنا ندعوهم من دونك!! .
- في قولهم : ﴿ **مِن دُونِكَۖ** ﴾ اعترافٌ منهم أنه الأعلى سبحانه ، وأن ما سواه من المعبودات لم تكن شيئاً ، وكلها دونه سبحانه .

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٣٨٣/١ .

(٢) ينظر : ص ٦٨ .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾ (القصص:٦٣) .

وقفة مع المعنى :

المعترفون هنا هم الشياطين الذين كانوا يغوون بني آدم[١] ، اعترفوا أنهم غووا وأنهم أغووا ، والغي جهل من اعتقاد فاسد ، وذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً [٢] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- قولهم : ﴿ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا ﴾ هو شاهد الاعتراف ، يحملُ اعتذارًا لأنفسهم أن إغواءهم لهؤلاء إنما هو بسبب غوايتهم ، وكأنه لاحول لهم ولا قوة ولا إرادة في هذه الغواية ، وقالوا ذلك « إعلاماً منهم أنّا قد فعلنا بهم غاية ما كان في وسع الإنسان أن يفعل بصديقه ، فإن حق الإنسان أن يريد بصديقه ما يريد بنفسه ، فيقول قد أفدناهم ما كان لنا ، وجعلناهم أسوةَ أنفسنا » [٣] .
- من تكرار لفظ الغواية في الآية يظهر تجذّر الغواية في نفوسهم ، وتمكّنها منهم غاية التمكن ، إذ إن الغي كما سبق يكون عن اعتقاد ، وهو غاية الضلال ، فوصول المتبوعين إلى درجة الغواية نفسها ليكونوا سواءً يدل على استمرارية الوسوسة والمجالسة والتعاهد ، نسأل الله السلامة والهداية .
- المتأملُ في آية النحل : ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ ﴾ (النحل:٨٦) ، وآية القصص : ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾ (القصص:٦٣) يدرك الحاجة الشديدة إلى اللجوء لله سبحانه وتعالى ، وهذه

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٩/٦٠٦ .

(٢،٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني :١/٣٦٩ .



الحاجة جعلت المشركين والشركاء على حد سواء ينطقون بوصف الربوبية في بدء اعترافهم ؛ ليُظهروا فقرهم الروحي حين لم يبق لهم من علّقوا عليهم الآمال في الدنيا لاكتساب المصالح ، فأول شيء يقولونه : ﴿ رَبَّنَا ﴾ استجلاباً للرحمة ، وتحنُّناً لبارئهم ، وقد تذكّروا إنكارهم لأولئك الرسل الذين أفنوا حياتهم ليقرروا في النفوس : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة:٧٢) .

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤) .

وقفة مع المعنى :

هنا ورد الاعتراف إقراراً مصدّرًا بوصف الرب حكايةً عن (بلقيس) ملكة سبأ : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فقد « بهرها ما رأت من آيات ، علمت منها أن سليمان ـ عليه السلام ـ صادق فيما دعاها إليه ، وأنه مؤيد من الله تعالى ، وعلمت أن دينها ودين قومها باطل ؛ فاعترفت بأنها ظلمت نفسها في اتباع الضلال بعبادة الشمس ، وهذه الدرجة الأولى في الاعتقاد وهي درجة التخلية ، ثم صعدت إلى الدرجة التي فوقها وهي درجة التحلية بالإيمان الحق فقالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فاعترفت بأن الله هو رب جميع الموجودات ، وهذا مقام التوحيد »[١] .

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٧٦/١٩ .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ وَأَسْلَمْتُ ﴾ لم تقل : آمنت ، أو خضعت لسليمان ، وهنا يظهر معنى الاستسلام التام لما ستتلقاه من أوامر دينها الجديد ، والإسلام يأتي معه الخضوع ، ويأتي بعده الإيمان ، أما الخضوع فلا يستلزم معناه الإسلام ، فتأمل كيف تحكي الكلمة ما في أنفسهم بدقة !
- ﴿ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ « إيمان بالدين الذي تقلده سليمان ، وهو دين اليهودية ، وقد أرادت جمع معاني الدين في هذه الكلمة ؛ ليكون تفصيلها فيما تتلقاه من سليمان من الشرائع والأحكام » (١) .
- لما عرفت بلقيس عظيم الشرك الذي ارتكبته في جناب الله عز وجل كررت النداء بـ (رب) مرتين ، فمرة ابتدأت به اعترافها ، وفي ذلك صورة جميلة لخضوع الذات أمام مولاها ، ثم في ختام اعترافها أعادت (رب) لتؤكد حداثة اقتناعها بعد التخلي عن عبادة الشمس وهي : أن الله ربها و ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، وفي هذا معنى عميق وهو تعجب : كيف لا يُعبد وهو رب العالمين؟
- ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ جناس اشتقاق ، فلم تقل : أسلمت لله ولرسوله ، وآثرت ذكر اسم سليمان عليه السلام ؛ لرغبتها أن يكون إسلامها كإسلام سليمان ، وتقديم (مع) إشعارٌ منها بأنها كانت تظن أنها على دينٍ قبل ، وأنها مسلمة لله تعالى فيما كانت تعبد من الشمس ، فكان قولها هذا دالاًّ على أنها الآن أرادت التحول إلى إسلامٍ صحيحٍ يعتدُّ به من أثر متابعة نبيه ، لا إسلام كالأول فاسد (٢) .

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٣٠٨١/١ .

(٢) ينظر : روح المعاني ، الآلوسي : ١٢٨/٢٣ .



قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (غافر:١٠-١١) .

وقفة مع المعنى :

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ «أطلق (كفر) ليشمل أنواعه كلها ، من الكفر بالله ، أو بكتبه ، أو برسله ، أو باليوم الآخر ، فهؤلاء حين يدخلون النار ، ويقرّون أنهم مستحقوها ، لما فعلوه من الذنوب والأوزار ، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت ، ويغضبون عليها غاية الغضب»[(١)] ، حينها يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ وكلمة ﴿ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ في الموضعين نعت لمصدر محذوف : أي أمَّتنا إماتتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، وذهب جمهور السلف[(٢)] إلى أن المراد بالإماتتين : أنهم كانوا نُطَفًا لا حياة لهم في أصلاب آبائهم ، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياءً في الدنيا ، والمراد بالإحياءتين : أنه أحياهم الحياة الأولى في الدنيا ، ثم أحياهم عند البعث ، ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا في النار بما كذّبوا به في الدنيا ؛ فقال حاكياً عنهم ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ (غافر:١١) التي أسلفناها في الدنيا من تكذيب الرسل ، والإشراك بالله وترك توحيده .

فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف ، وندموا حيث لا ينفعهم الندم ، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدمة لقولهم : ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ، أي : هل إلى خروج لنا من النار ، ورجوع إلى الدنيا من سبيل[(٣)] ، و ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾ : سؤال من يئس من الخروج ، ولكنه تعلل وتحير[(٤)] .

(١) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٧٣٣ .
(٢،٣) ينظر : فتح القدير ، الشوكاني : ٦٨٨/٤ .
(٤) ينظر : البحر المحيط ، أبوحيان : ٤٠٤/٩ .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

تلتهب مشاعر الكافرين من الندم الشديد في ذلك اليوم ، وتوحي الكلمات بعمق الأسى الذي يكتنفهم في قولهم : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (غافر:١١) ، أحاول تجليتها في التأملات التالية :

- نداء الربوبية ﴿ رَبَّنَآ ﴾ كما سبقت الإشارة[١] يحمل تحنُّناً ورجاءً لينعموا به فيخرجوا من الحال الذي هم فيه .
- الطباق بين الموت والحياة ﴿ أَمَتَّنَا ﴾، ﴿ وَأَحۡيَيۡتَنَا ﴾ يجلي الهوة العظيمة بين هاتين الحالتين ، وهي آيات عظيمة من آيات الله الكونية تشير إلى الكِبْر الذي كانوا عليه ، وأدركوه في مرحلةٍ متأخرةٍ حيث إنهم في جهنم لا يغني عنهم اعترافهم شيئاً ، وذكرهم لهاتين الآيتين في الاعتراف يشير إلى الحال التي أبصروها في أحداث القيامة من حياة أولئك المؤمنين الناجين الذين يتقلبون في مباهج الحياة الآخرة ، ومن موتهم المعنوي الذي هو عذاب أبدي ، ليس فيه أدنى لذة أفنوها في حياة فانية ، كانت أشبه بساعةٍ عاشوها وانتهت ، فشعروا بمعنى الحياة الأبدية الخالدة ، والموت المعنوي الذي يعيشونه فعلاً .
- تكرار لفظ ﴿ ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ بليغ جدًّا ، فلم يقولوا : أمتنا وأحييتنا اثنتين ، مما يدلُّ على وعيهم التام رغم شدة العذاب ومرارته ، فهو لا يُذهِبُ عقولهم وتركيزهم ، بل هم في أشد مراحل الإدراك ؛ ليزدادوا ألماً ، وتذكّرهم نعم الله عليهم وتمام قدرته وجبروته وحلمه وهذا التذكر كفيلٌ بأن يزيد عذابهم عذاباً .

---

(١) ينظر : ص ٧٢ .

- تصريح المشركين أن هذا الشعور الذي ينتابهم من الندم هو اعتراف بالذنب، في قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا ﴾، دون ذكر الذنب الذي فعلوه وهو «الكفر» اكتفاءً بما ذكرته الملائكة: ﴿ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴾ (غافر:١٠)، لعظيم النطق بهذه الكلمة حياءً من الله، وعظيم عقابها الذي يشهدونه، كما أنهم في موقف استجداء؛ فآثروا عدم ذكرها لئلا يُذّكروا بها؛ أملاً أن تكون قد نُسيت ـ وحاشا علام الغيوب ـ فيلطف الله بهم ويخرجهم مما هم فيه.
- التعبير بأداة الاستفهام (هل) عن التمني في قوله تعالى: ﴿ فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ (غافر:١١)، والعدول عن التعبير بـ(ليت) أثر بالغ في عمق الدلالة على الندم حال الاعتراف، وذلك أن مجيء التمني بالاستفهام يبرز المتمنى في صورة الممكن، الذي يسأل عنه، ويمكن وقوعه، وهو خروجهم من جهنم، ورجوعهم إلى الدنيا أمر محال لا يمكن وقوعه، ولكنهم لشدة حيرتهم وتخبطهم ظنوا أن هذا المحال ممكن، فاستفهموا عنه: ﴿ فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ وهم يتمنون وقوعه، وأن يخرجوا من جهنم، ويرجعوا إلى الدنيا فيؤمنوا، ويستقيموا على الطريقة، ولات حين رجوع[1].
- بتدبر سياق الاعتراف تتجلّى البلاغة في استعمال كلمتي (خروج، سبيل) في سؤالهم: ﴿ فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾؟، وقولهم: ﴿ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ (غافر:١١)، فقد اعترفوا لله بنعمه وأفضاله عليهم وعلى بني آدم جميعاً؛ ومن بينها أنه سبحانه أخرجهم من بطون أمهاتهم وهذا أول إحياء لهم، وفيه آية عظيمة على قدرته سبحانه، إذ إن طريق الخروج من الرحم هو أول طريق سلكه بنو آدم ـ عليه السلام ـ، كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ (عبس:٢٠)، «قال ابن عباس وقتادة والسدي: هي

---

(١) ينظر: من بلاغة النظم القرآني، دكتور بسيوني فيود: ١٨٢.



سبيل الخروج من بطن المرأة ورحمها»[(١)] ، فاختيار كلمة (سبيل) في سؤالهم توحي بالرغبة في عودة المرء طاهراً كأول خروج له من ذلك السبيل ، ليس عليه تبعةٌ يُحاسب عليها ، كما أن في ذات الكلمة ملمحٌ إلى الهداية التي عُمّيت عليهم ، فقد ذكرها الله جل وعلا في أكثر من آية بـ(السبيل) كما قال سبحانه : ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ (الزخرف:٣٧) ، وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى** ﴾ (يوسف:١٠٨) .

* * *

٤- الإقرار بلفظٍ دالٍّ على تخلي الخصم :

وردت هذه الطريقة بلفظين :

١- بلفظ ﴿ **ضَلُّوا۟ عَنَّا** ﴾ .

٢- بلفظ ﴿ **ءَاذَنَّٰكَ** ﴾ .

ولكل تعبير أسراره ومزاياه،وعلى هذا التقسيم سأحلل الشواهد إن شاء الله .

- أولاً : لفظ ﴿ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾ :

ورد مرتين :

١- في قوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٣٧) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ (غافر:٧٣،٧٤) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٢١٨/١٩ .

وقفة مع المعنى :

لحظة قبض الأرواح وفناء اللذائذ الدنوية وإقبال مراحل الأخروية هي لحظة مخيفة ، يفرح فيها المؤمن الذي عمل لداره الباقية ، ويحزن الكافر الذي لم يجمع زاده ، وأقبل على مصيره صفر اليدين ، وهذا كان حال المشركين حين وردوا على هذا اليوم ، وسألتهم الملائكة عن معبوداتهم فكانت إجابتهم اليأس الممتزج بالتيه ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ** ﴾ (الأعراف:٣٧) .

معنى الضلال :

ضل : خفي وغاب ، وأضله : جعله يضل وأخفاه وغيبه ودفنه وأهلكه وضيعه . . .[١] .

« قولهم : ﴿ **ضَلُّواْ عَنَّا** ﴾ : عدلوا عنا ، فأخذوا غير طريقنا ، وتركونا في هذا البلاء ، بل ما ضلوا عنا ، ولكنا لم نكن ندعو من قبل في الدنيا شيئًا : أي لم نكن نعبد شيئاً » [٢] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- هنا يظهر شتات أرواحهم باديًا صريحاً ، فهم من شدة صدمتهم في شركائهم وهم معهم في العذاب دون أن يغنوا عنهم شيئاً ينسبون التيه والضياع لِآلهتهم وليس لهم فلم يعبّر بـ : ضللنا عنهم ، وكأن تلك الآلهة تاهت عنهم فلم تستطع نفعهم كما ظنوا .
- التعبير بصيغة الماضي ﴿ **ضَلُّواْ** ﴾ بدلاً عن المضارع ؛ « للدلالة على التحقق ، ومعنى ضلوا عنا : غابوا عنا ، وذلك قبل أن يقرن بهم آلهتهم ، أو ضاعوا عنا ، فلم نجد ما كنا نتوقع منهم »[٣] .

---

(١) ينظر : المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون : ١١٢٥/١ ، مادة (ض ل ل) .
(٢) جامع البيان ، الطبري : ٤١٦/٢١، ٤١٧ .
(٣) إرشاد العقل السليم ، أبوالسعود : ٢٨٥/٧ .

- في سورة غافر : ﴿ **بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا** ﴾ (غافر:٧٤) : إنكار لعبادة الأصنام بعد الاعتراف بها لاضطرابهم من الرعب[١]، أو هو استدراك ، أي : بل تبين لنا أنّـا لم نكن نعبد شيئاً بعبادتهم ؛ لمّا ظهر لنا اليوم أنهم لم يكونوا شيئًا يعتد به ، كقولك : حسبته شيئًا فلم يكن[٢] .
- ﴿ **شَيْـًٔا** ﴾ : لم يقولوا : أحداً ، لتيقنهم يوم القيامة أن تلك المعبودات كانت جمادات لا نفع منها ، فاستحقرتها أعينهم بعد عظمة ! وهنا تظهر بلاغة اختيار ﴿ **ضَلُّواْ عَنَّا** ﴾ حكاية عن المعنى الذي دار في أنفسهم أن تلك الآلهة التي عبدنا هي مخلوقات ضعيفة تتيه وبحاجة إلى إرشاد وهداية فكيف عبدناها ؟ ﴿ **بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا** ﴾ فيا لخيبتهم إذ ذاك!

- **ثانيًا : لفظ ﴿ ءَاذَنَّـٰكَ ﴾ :**

ورد مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ** ﴾ (فصلت:٤٧) .

وقفة مع المعنى :

يوم القيامة ينادي الله المشركين على رءوس الخلائق : أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟[٣] فلا يجد المشركون مفرًّا من الإجابة والإقرار بالعظمة والكبرياء والتفرد لله سبحانه ، وأن ما سواه لم يكونوا شيئاً .

معنى الإيذان :

العِلْم والإعلام ، تقول العرب : قد أَذِنْتُ بهذا الأمر أي عَلِمْت . وآذَنَني فُلانٌ أعلَمَني . والمصدر : الأُذْن والإيذان . وفَعَلَه بإذْني أي بِعِلمي ، ويجوز أن يكون

(١) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٠٤/٢٤ .
(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبوالسعود : ٢٨٥/٧ .
(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ١٨٥/٧ .

المعنى : بأمري ، وهو قريبٌ من ذلك[1] ، قال الخليل : «ومن ذلك أذِن لي في كذا» [2] .

وقوله تعالى : ﴿ ءَاذَنَّكَ ﴾ أي «أعلمناك ، والمراد بالإعلام هنا الإخبار ؛ لأنه تعالى عالمٌ فلا يصح إعلامه بما هو سبحانه عالمٌ به ، بخلاف الإخبار فيكون للعالِم ، فكأنه قيل : أخبرناك ما منا من شهيد ، أي : بأنه ليس منا شهيد يشهد لهم بالشركة ، ونفي الشهادة كناية عن التبرؤ منهم ؛ لأن الكفرة يوم القيامة ينكرون عبادة غيره تعالى مرة ، ويقرون بها ويتبرؤون منها مرة أخرى»[3] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- التعبير بـ ﴿ ءَاذَنَّكَ ﴾ أبلغ من أعلمناك ، أو أخبرناك وأقوى من حيث الدلالة الصوتية في مد الألف ثم حرف الذال والنون المشددة بعده ، «وهو فعل ماض في معنى المستقبل على عادة القرآن أو إنشاء للإيذان أو إخبار عما قيل لهم قبل ذلك فإنه يمكن أن يعاد عليهم هذا الاستفهام مرات لمزيد التوبيخ» [4] .
- ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ «أبلغ في النفي من قول : ليس منا شهيد ، لتمام نفي شراكة أحد مع الله جل جلاله ، والمعنى : ما منا أحد اليوم يشهد بأنهم شركاؤك ، أي : ما منا إلا من هو موحدٌ لك : أو ما منا من أحد يشاهدهم ، لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم ، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ[5] ، و﴿ مِن ﴾ زائدة للتوكيد ، أي : ما منا شاهد يشهد أن معك إلهًا»[6] .

* * *

(١) ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس : ٩٣/١ ، مادة (أَ ذِ ن) .
(٢) العين : ١٩٩/٨ ، مادة (أَ ذِ ن) .
(٣) روح المعاني ، الآلوسي : ٢٥/٣ .
(٤) غرائب القرآن ، النيسابوري : ٦٢/٦ .
(٥) الكشاف ، الزمخشري : ١٦٩/٦ .
(٦) ينظر : إعراب القرآن ، النحاس : ٤٦/٤ .

٥- الإقرار بتسمية الزلل :

وفيه سبعة شواهد ، هي :

١- قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (يوسف:٣٢) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (يوسف:٥١-٥٣) .

٣- وقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ (الكهف:٧٣) .

٤- وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ (الشعراء:١٤) .

٥- وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء:٢٠-٢١) .

٦- وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝٢٨ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۝٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ (الصافات:٢٧-٣٢).

٧- وقوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ (المدثر:٤٢-٤٧) .

تحليل الآيات :

قول الله تعالى : ﴿ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (يوسف: ٣٢) .

وقفة مع المعنى :

من مكر امرأة العزيز أنها أرادت أن تشفع لنفسها بعد حديث النسوة عن فعل المراودة الذي قامت به عن طريق إيقاعهن في شِراك الافتتان بيوسف عليه السلام ، ولمّا حصلت على النتيجة المرجوّة من إدخال يوسف عليه السلام على النسوة اعترفت بالمراودة ، لأنهنّ حينئذ لم يعدن يرين ما صنعتْهُ جُرماً بل كلهنّ تمنين لو كُنّ مكانها ليسهل الوصول ليوسف عليه السلام والعياذ بالله .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

جاء الاعتراف حكايةً عن امرأة العزيز بأسلوبٍ قرآنيٍّ له إعجازه ، وبلاغته ، مبيّناً الغرض الذي في نفسها ، ويظهر معه دقة الكلام الرباني لله الذي يعلم السر وأخفى ، وكيف وصف هذه الحادثة بلسان عربي مبين ، ومن هذه الجوانب البلاغية :

- ﴿ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ ﴾ : برز التعقيب بالفاء على قطع النساء لأيديهنّ مما يؤكّد مكرها ، مجازيةً من يتكلّم في عرضها بالوقوع في فخّها ، ثم بالمعاقبة .
- وقد أشارت ليوسف عليه السلام بقولها : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ﴾ رغم حضوره في المجلس وقت حديثها ، و(ذلك) تستعمل للبعد وتشير لعلو المنزلة وشرف المكانة التي نالها يوسف عليه السلام «ولم تقل : فهذا ـ وهو حاضر ـ ؛ رفعاً لمنزلته في الحسن وتمهيداً للعذر في الافتتان به»[1] ، إذ هي تراه

---

(١) الإيضاح ، الخطيب القزويني : ١/٤٤ .

مخلوقًا مبهراً ليس كالبشر تمامًا كما جاء على لسان النسوة : ﴿ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف:٣١) .

والتأكيد بنون التوكيد الثقيلة ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ﴾ (يوسف:٣٢) يعمّق الدلالة على إكثارهن اللوم عليها ، فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هكذا ، فكيف ألام أنا؟ فقلن : ﴿ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف:٣١) ، فكأنهنّ بالقول المحكي عنهنّ يقلن : لا لوم عليك بعد الذي رأينا من حسنه ، لأنهن لم يرين في البشر شبهه ولا قريباً منه ، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء : أن رسول الله ﷺ مر بيوسف ، عليه السلام ، في السماء الثالثة ، قال : « فإذا هو قد أعطي شطر الحسن »[١] .

وأشار الخطيب القزويني إلى بلاغة الحذف في الآية ، والتأويلات المحتملة في الاعتراف بقوله : « في قول الله تعالى حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ دل العقل على الحذف فيه ؛ لأن الإنسان إنما يلام على كسبه ، فيحتمل أن يكون التقدير : في حبه ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (يوسف:٣٠)، أو أن يكون : في مراودته ؛ لقوله تعالى : ﴿ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ،أو أن يكون : في شأنه وأمره ، فيشملهما والعادة دلت على تعيين المراودة ؛ لأن الحب المفرط لا يلام الإنسان عليه في العادة ؛ لقهره صاحبه وغلبته إياه ، وإنما يلام على المراودة الداخلة تحت كسبه التي يقدر أن يدفعها عن نفسه »[٢] .

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٣٨٥/٤ ، والحديث رواه مسلم بلفظه في صحيحه ،كتاب : الإيمان ، باب : الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات ، (رقم الحديث : ١٦٢) .

(٢) الإيضاح : ١٨٥/١ .

وتعقيبا على ما ذكره الخطيب ، فقد يكون هناك حذف وقد لا يكون ، ويتضح المعنى إن كان قصدها : لمتتني فيه أي : تحديداً عن غيره ، لأنه خادمٌ لها ، وهي سيدة المكان ، لذا امتنع في الغالب أن تكون المراودة من السيدة للخادم ؛ فجاء اللوم انتقاداً ليس للفعل فقط ، بل لذات الشخص أيضاً ؛ ويدل عليه قولهن في الحديث الذي تناقلته عنها : ﴿ **ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ** ﴾ (يوسف:٣٠) ، فمما أثار تعجبهن وذكرنه ابتداءً أنه (لفتى) ـ تحقيراً ـ فكيف يُرغب فيه؟ ، والله أعلم .

- ﴿ **وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ** ﴾ (يوسف:٣٢) : (لقد) حرف تحقيق يُظهر مدى ثقتها أثناء الاعتراف مع الشعور بالفخر لذلك وعدم الذلة من الذنب ، ولعل هذا بعد أن صارت هي والنسوة في حال الشغف بيوسف عليه السلام في حال سواء ، فأكّدت لهن ما تحدثن به عنها من المراودة بل واستحسنّ ذلك ، فلم يعد ما رأوه منكراً قبل ساعات منكراً الآن بعد افتتانهن .
- ﴿ **رَٰوَدتُّهُۥ** ﴾ : المراودة : «المطالبة برفق ، من رَاد يرُود : إذا ذهب وجاء ، وهي مفاعلة من واحد نحو : داويت المريض ، وكنى به عن طلب النكاح والمخادعة لأجله . والمعنى وخادعته عن نفسه ، ولذلك عدّاه بـ(عن)»[1].

وقد «راجعته الخطاب ودارت عليه بالحيل ، فهو كناية عن المخادعة التي هي لازم معنى رَاد يَرُود ، إذا جاء وذهب ، و ﴿ **عَن نَّفۡسِهِۦ** ﴾ أي : مراودة لم تكن لها سبب إلا نفسه ، لأن المراودة لا يمكن أن تتجاوز نفسه إلاّ بعد مخالطتها ، كما تقول : كان هذا عن أمره ، وذلك بأن دارت عليه بكل حيلةٍ ونصبت له أشراك الخداع ، وأقامت حيناً تفتل له في الذروة والغارب»[2].

---

(١) البحر المحيط ، أبوحيان : ٦/٥٠٠ .

(٢) نظم الدرر ، البقاعي : ٤/٢٤٠ .

- ﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أي : فامتنع ، وقد قالت ذلك ؛ لأن النسوة لما رأين جماله الظاهر ، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن ، وهي العفة مع هذا الجمال [1] ، وهذا مما زادها فيه رغبة لنُبله وكرم خُلقه ، إذ ما الذي جعلها تنقل لهنّ رد فعله تجاه مراودتها؟ ، غير أن هذا مما يزيده في عيونهنّ جمالاً .

- ﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ : التعبير بهذه الصياغة دون (امتنع) ، أو(اعتصم) ؛ لدلالة شدة حرصه على الابتعاد منها ، وحماية نفسه من القرب منها ، وقوة المنعة التي حصلت منه مع قوة التأييد التي كانت معه من ربه جل وعلا ، وفي هذا رد على من نسب لنبي الله يوسف عليه السلام قصصاً لا تنبغي في مقام النبوة[2]، ولهذا التمنع قالت تتوعده :

- ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ ﴾ : لمّا ازدادت الرغبة في يوسف عليه السلام من امرأة العزيز بعدما رأت إعجاب النسوة أيضاً به ، وانتقلت المراودة والمحاولات السالفة إلى أمرٍ وتهديدٍ معلنيْن صريحيْن أمام جميع النسوة ، أصبحت امرأة العزيز ـ من قِبل النساء ـ ليست متهمةً بل محسودةً على قرب يوسف عليه السلام في منزلها ، ونلحظ أن اعترافها هنا يصحبه الإقرار والكبر دون الشعور أن ما تفعله يعدُّ جريمة واعترافاً مزرٍ في حقها ، بل هي تفخر بفعلها ، وتجاهر به ، وهذا يدل على عمى الحب الذي يقلب الفطرة ويسيطر على تصرفات الإنسان ، فيحجب عنه الحق في لحظات عتو المعصية .

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٣٨٦/٤ .
(٢) ينظر : السابق : ٣٨١/٤ ، تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ (يوسف:٢٤) .

- ﴿ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ : في قوله تعالى: ﴿ وَلَيَكُونٗا ﴾ هي نون التوكيد الخفيفة ، وليست تنويناً وإذا وُقف عليها يوقف عليها بالألف [1] ، ويجوز أن تُرسم بالتنوين . وفي كلمة ﴿ لَيُسۡجَنَنَّ ﴾ هذه نون التوكيد الثقيلة وهي مؤكّدة أكثر من الخفيفة ، وقد دلّت في المعنى أن دخوله السجن آكد من كونه من الصاغرين [2] ، ويؤيد هذا ابتداؤها باقتراح السجن قبل الصّغار بأي نوعٍ آخرٍ من العقاب ، وقولها لزوجها : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (يوسف:٢٥)، « حبها الشديد ليوسف عليه السلام حملها على رعاية دقيقة في هذا الموضع ؛ وذلك لأنها بدأت بذكر السجن ، وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب ، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين ، بل ذكرت ذلك ذكراً كليًّا صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم ، وأيضاً قالت : ﴿ إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ ﴾ والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف . فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين ، ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ (الشعراء:٢٩) » [3] .

- اختارت امرأة العزيز (السجن) في اعترافها ؛ لأنها ترغب في عودة يوسف سريعاً لها أملاً في أن تكون المدة التي يقضيها هناك رادعةً له عن فعل الامتناع عنها ، وأن يعود مؤيداً لها ، لكنها لم تعلم أن السجن كان رادعاً لها

---

(١) ينظر : إتحاف فضلاء البشر ، الدمياطي : ١٩٥ .

(٢) ينظر : لمسات بيانية ، فاضل السامرائي : ٤١٧ .

(٣) مفاتيح الغيب ، الرازي : ١٨/٩٨ .

هي ؛ ففي البعد علاجٌ للعشق المحرم الذي وصل بها إلى ما وصل ، فكانت هي من راجعت نفسها ، ويظهر ذلك في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (يوسف:٥١-٥٣) .

يلحظ المتدبر فرقاً بين اعترافها في هذه الآية وبين اعترافها المغلف بالكبر في الآية قبلها ، ويُظهر هذا أثر تتابع السنوات ، وامتداد العمر ، وما يطرأ عليه من تغير الأهواء وانطفاء الشهوات .

- ظهر النضج والوعي على اعتراف امرأة العزيز بكل تفاصيله ، فالفرق جلي بين نوعي الاعتراف من الشخصية ذاتها في الآيتين الآتيتين حكاية عنها : ﴿ **فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ** ﴾ (يوسف:٣٢) ، وبين اعترافها في قوله تعالى : ﴿ **ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (يوسف:٥١-٥٣) ، ففي الأولى اعتراف مع استكبار وإصرار على الاستمرار في طريق الخطيئة ، بينما في الآية الثانية اعتراف لنفسها بالجرم مع ندم وتوبة واعتراف ليوسف عليه السلام بالنزاهة والبراءة .

- ﴿ **ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ** ﴾ ، «أسلوب قصر طريقه تقديم الظرف (الآن) على

عامله (حصحص) أي : في هذه اللحظة لافي غيرها من الزمن الماضي ظهر الحق وقوي واستقر»[1] ، ومن بديع اختيار هذا اللفظ أن معناه كما جاء في العين «الحصحصة : الحركة في الشيء حتى يستقر فيه ويتمكّن منه»[2] فتشعر وكأن زلزالاً أعقب تبيّن هذا الحق ، وحصحص الحق : أي «حصل على أمكن وجوهه ، وانقطع عن الباطل بظهوره ، من : حص شعره إذا استأصل قطعه بحيث ظهر ما تحته ، ومنه الحصة : القطعة من الشيء»[3]، وما أقوى التعبير عن البيان بهذه الكلمة ﴿ حَصْحَصَ ﴾ فوَقْع الكلمة من مخارج حروفها نرى عجيب الدلالة على انبثاق الحقيقة من قاع سحيق ، إذ الحاء تخرج من وسط الحلق ، ثم يعود الصوت إلى الفم لتخرج الصاد وهي من الحروف القوية ؛ لأن فيها إطباقاً وصفيراً واستعلاءً [4] ، فالقارئ لها يتصوّر كيف انكشفت الحقيقة بعد خفاء .

- ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ : «قصر تعيين ؛ لأن المراودة كانت ـ حسب اتهامها ليوسف عليه السلام من قبل ، وإعلان يوسف أنها هي التي راودته ـ كانت عند الناس شركة بين الاثنين بلا تعيين»[5] ، وهنا يظهر اعترافها بجلاء ، بعد إنكارها من قبل حيث ابتدأت بالضمير (أنا) ولم تقل : قد راودته ، لتشير بالتهمة مباشرة إلى نفسها ، وتلفت النظر إلى خطئها دون غيرها من النسوة ، و«المراودة المقتضية تكرير المحاولة بصيغة المفاعلة والمفاعلة مستعملة في التكرير ، وقيل : المفاعلة تقديرية بأن اعتبر العمل

---

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ١٣٢/٢ .

(٢) الخليل : ١٣/٣ ، مادة (ح صّ) .

(٣) نظم الدرر ، البقاعي : ٢٦٥/٤ .

(٤) ينظر : التمهيد في علم التجويد ، ابن الجزري : ٥٧-١١٥ .

(٥) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني ١٣٢/٢

من جانب والممانعة من الجانب الآخر مـن العمل بمنزلة مقابلة العمل بمثله . والمراودة : مشتقة من راد يرود إذا جاء وذهب ، شبه حال المحاول أحدًا على فعل شيء ، مكرِّرًا ذلك ، بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه ، فأطلق (راود) بمعنى (حاول) و(عن) للمجاوزة أي راودته مباعدة له عن نفسه أي بأن يجعل نفسه لها ، والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة ، أي فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه عليه السلام وأما تعديته بـ(على) فذلك إلى الشيء المطلوب حصوله»[1] .

- ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾زيادة تأكيد لبراءته ، فقد حوت الجملة مؤكدين : (إن) و(اللام) ، إضافة إلى كون الجملة بكاملها تأكيداً ؛ إذ كان يكفي أن تقول : ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ لكنها آثرت هذا القول تذييلاً لكلامها السابق ومبالغة في صدق الاعتراف ، حتى يُعلم تمام العلم أمام الملك أن يوسف عليه السلام لم يقترب منها وأنه لم يتجاوب معها ليس هذا فحسب بل شهدت ليوسف بالصدق ؛ ليكون ذلك قربة له عند الملك وكأنها بهذا تحاول التكفير عن فعلها .

- ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ : اختلف فيها المفسرون[2] هل هي من قول يوسف عليه السلام أم من قول امرأة العزيز ، ويرجح السعدي رحمه الله أنها من قول امرأة العزيز موضّحاً التأويلين اللذين يرِدان على قولها بكلامه إذ قال : «يُحتمل أن مرادها بذلك زوجها ، أي : ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف ، أني لم أخنه بالغيب ، أي : لم يجر منِّي إلا

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢١٧٧/١ .

(٢) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٤٢/١٦ .

مجرد المراودة ، ولم أفسد عليه فراشه ، ويحتمل أن المراد بذلك : ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته ، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني »[1] .

- تخصيص كلمة (الغيب) وذكرها فيه مزية ـ وإن كانت الخيانة مذمومة في الحضور والغيبة ـ هي أن ألم الخيانة في الغيب أشد ، ومظنة أن تقوى حجة أحد الطرفين دون وجود الطرف الثاني إذ خلا له المكان ، وخلت الأذهان إلا من كلامه ، فتبرئة يوسف عليه السلام في هذه الظروف غياباً أكثر صدقاً من حضوره ، وهذا الملمح وافرٌ في كتاب الله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ (الأنبياء:٤٩) .
- ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٢) هو « علةٌ ثانيةٌ لصدعها بالحق أي : ولأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، والخبر مستعمل في لازم الفائدة وهو كون المتكلم عالماً بمضمون الكلام ؛ لأن علة إقرارها هو علمها بأن الله لا يهدي كيد الخائنين »[2] .
- اختيار لفظ ﴿ كَيْدَ ﴾ وليس غيره ؛ اعتذارٌ منها أن ما حدث لها قبلُ كان هوى نفسٍ وخطأً لكنه دون الكيد ودون الخيانة ، ردّاً على ما قاله زوجها في ذلك الحين : ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (يوسف:٢٨).
- ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٣) هنا تتجلى غاية الصدق حيث أعلنت أنها ضعفت أمام نفسها واستسلمت لهواها بقولها : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ واستدركت بذلك خشية أن يُفهم أنها تزكي نفسها من الآية السابقة ، فنَفت البراءة عن نفسها ، ولم تصرّح في تبرئة نفسها عن ماذا؟ ، وإطلاق الفعل يدخل فيه : حبها

---

(١) تيسير الكريم الرحمن : ٤٠٠ .

(٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢١٩٣/١ .

ليوسف ابتداءً ، ثم ما خططت له من المراودة ، ومن الكذب حين قالت لزوجها : ﴿ **مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا** ﴾ (يوسف:٢٥) ، ومن المُتّكأ الذي كادته لنسوة المدينة ، ومن كل ما فعلته من الخطأ في قصة العفيف الطاهر يوسف عليه السلام ، في الوقت ذاته اعتذرت لنفسها أن هذا حال كل الناس وليست نفسها فقط ؛إذ جاء القول المحكي عنها كقاعدة لكل نفس : ﴿ **إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ** ﴾ (يوسف:٥٣) .

- ﴿ **وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ** ﴾ «احتراسٌ مما يقتضيه قولها : ﴿ **ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ**﴾ (يوسف:٥٢) من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب العظيم ادعاء بأن نفسها بريئة براءة عامة فقالت : ﴿ **وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ** ﴾ أي ما أبرئ نفسي من محاولة هذا الإثم ؛ لأن النفس أمارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء ولكنه لم يقع »[(١)] .
- ﴿ **إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ** ﴾ تأكيدٌ لقولها : ﴿ **وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ** ﴾ ويقول السكاكي في هذا الباب : «والعرب قد يقيمون من لا يكون سائلاً مقام من يسأل ، فلا يميزون في صياغة التركيب للكلام بينهما ، وإنما يصبون لهما في قالب واحد إذا كانوا قدموا إليه ما يلوح مثله للنفس اليقظى بحكم ذلك الخبر ، فيتركها مستشرفةً له استشراف الطالب المتحير ، يتميّل بين إقدام للتلويح وإحجام لعدم التصريح ، فيخرجون الجملة إليه مصدرةً بـ(إن) ، ويرَون سلوك هذا الأسلوب في أمثال هذه المقامات من كمال البلاغة ، وإصابة المحز ، أو ما ترى بشاراً كيف سلكه في رائيته :

بكـــرا صـــاحبيّ قبـــل الهجـــيرِ إن ذاك النجـــاح في التـــبكيرِ »[(٢)] .

(١) التحرير والتنوير : ٥/١٣ .

(٢) مفتاح العلوم : ٧٥ ، وينظر : ديوان بشار بن برد : ٧٥٢ .

- استعمال الاسم المعرف بأل : ﴿ ٱلنَّفۡسَ ﴾ في قول الله تعالى حكاية عنها : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ، فلم تقل : إن نفسي لأمارة بالسوء ؛ حتى لا تفوّت على نفسها فرصة الاحتماء بالطبيعة البشرية الناقصة ، فهي تؤكد اتهام النفس على إطلاقها لتعم نفوس البشر جميعاً ومنها نفسها هي ، في موقف تسعى فيه إلى استخلاص بقية من حسن الظن بها بواسطة وقوفها موقف التائب المعترف بالخطأ(١) .
- ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ أي : وقت أن رحم ربي بكفها عن الأمر به ، أو بستره بكفها عن فعله بعد إطلاقها على الأمر به ، أو إلا ما رحمه ربي من النفوس فلا يأمر بسوء(٢) فيكون هذا الاستثناء منها احتراساً ، وذلك لما رأت من نزاهة يوسف عليه السلام ، وقد اجتمعت له دواعي الفتنة والمعصية ، وفي المقابل حالها وهي المحصنة بعزيز مصر ، فعلمت حينها أن رحمة الله تحف المرء فتنجيه وتختصه بفضائل لا تُحصى .
- تخصيص الرحمة في قولها:﴿ رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ دون لفظ : التفضل أو الكرم مثلاً؛ لأنها لمست رحمة الله بيوسف عليه السلام إذ صرف عنه الشر في غرة شبابه ، ولأن ارتباط الرحمة بأحوال يوسف عليه السلام مشاهدة لم تخف عليها وعلى زوجها منذ أن كان في بيتها حتى خرج إلى السجن ثم تسخير الله له الملك يبرّؤه وهو لا يدري .
- بلاغة التكرار ووضع المظهر موضع المضمر في ﴿ رَبِّيٓ ﴾ في قولها : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ، كان يمكن على مقتضى الظاهر أن يذكر الضمير (إنه) ، لكن عدل عنه بالاسم الظاهر وأوثر تكرير وصف

---

(١) ينظر : أسلوب الاحتراس في القرآن الكريم صوره وبلاغته ، جواهر الرشود : ٢٨٧.
(٢) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ٤/٢٦٦ .



الربوبية ﴿ رَبِّ ﴾ فلم يعبّر بلفظ الجلالة : الله ، لأنها هنا في حالة توبة وأحوج ما تكون لرجاء عميق لعلّ الله أن يتوب عليها فقد جمعتْ من الأخطاء ما لا يكفيه اعتذار ، ولا ينفعه اعتراف ، فهي بهذا تستلطف من حولها أولاً ثم تطلب من الغفور الرحيم أن يغفر لها ويرحمها جزاء إسرافها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ (الكهف:٧٣) [١] .

وقفةٌ مع المعنى :

رأى موسى عليه السلام في رحلته مع الخضر ما دعاه للعجب ، بل والاعتراض على تلك المشاهد التي لم يستطع معها صبراً ، ومنها حين انطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى عليه السلام : « قوم حملونا بغير نولٍ فعمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها »[٢] ، فأنكر عليه موسى عليه السلام فعله ، فذكّره الخضر بعهده ، فما كان من موسى إلا أن اعترف بنسيانه للعهد

(١) عفوالله تبارك وتعالى عن أمة محمد ﷺ المحاسبة على النسيان لا تنفي كونه زللاً ، إنما هذا من كريم عفوالله وغفرانه ، لذا كان هذا الشاهد موضع دراسة في موضوعي ، ويظهر من الآيات اعتراف النفس البشرية بتقصيرها على النسيان كحال موسى عليه السلام ، واعتذارها منه .

(٢) في معنى الحديث كما أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه عن النبي ﷺ ، كتاب : العلم ، باب : ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله ، رقم الحديث : (١٢٢) ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب : الفضائل ، باب : من فضائل الخضر عليه السلام ، رقم الحديث : (٢٣٨٠) .

الذي كان بينهما ، وقدّم اعتذاره ، وكانت هذه المرة الأولى التي يستنكر عليه موسى عليه السلام أمراً .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي ﴾ : التعبير بالمؤاخذة دون المعاتبة أو المجازاة أو المعاقبة ، فيه أدب الطالب مع معلمه وهو النبي عليه السلام لكنه استنزل لمعلمه ، وأظهر له حاجته في هذا العلم ورغبته في الاستزادة بدليل اعترافه هذا ، وبدليل معنى المؤاخذة التي اختيرت بعناية في النظم الحكيم ، فمعنى أُخذ فلان بفعله ، أي : حُبس وجوزي عليه ، وعوقب به [1] ، و« المؤاخذة : مفاعَلة من الأخذ ، وهي هنا للمبالغة ؛ لأنها من جانب واحد كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ (النحل: ٦١) »[2] ، واختيارها يدل على إقرار موسى على مجازاته على زلله ، غير أنه طلب المسامحة ، وهذه أخلاق الأنبياء وتواضعهم ، فموسى عليه السلام عرف أنه نسي ، وكان لابد أن يصبر كما وعد الخضر .

و« اعتذر موسى عليه السلام بالنسيان وكان قد نسي التزامه بما غشي ذهنه من مشاهدة ما ينكره ، والنهي مستعمل في التعطف والتماس عدم المؤاخذة ، لأنه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر . فمن الحزم الاحتراز من صحبة من يطرأ عليه النسيان ، ولذلك بُني كلام موسى عليه السلام على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان ، ولم يبن على الاعتذار بالنسيان ، كأنه رأى نفسه محقوقا بالمؤاخذة ، فكان كلاما بديع النسيج في الاعتذار » [3].

---

(١) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٤٧٠/٣ ، مادة (أَ خَ ذَ) .

(٢،٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٣٧٦/١٥ .

- ﴿ بِمَا نَسِيتُ ﴾ : الظاهر حمل النسيان على وضعه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « كانت الأولى من موسى نسيانًا »[1]، والمعنى أنه نسي العهد الذي كان بينهما من عدم سؤاله حتى يكون هو المخبر له أولاً وهذا قول الجمهور ، وعن أبي بن كعب أنه ما نسي ولكن قوله هذا من معاريض الكلام[2] .

- ذكر الزمخشري في النسيان الصادر عن موسى عليه السلام أقوال :

١- إما أراد أنه نسي وصيته ، ولا مؤاخذة على الناسي .

٢- أو أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أن قد نسي ليبسط عذره في الإنكار ، وهومن معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب ، مع التوصل إلى الغرض ، كقول إبراهيم : هذه أختي ، وإني سقيم .

٣- أو أراد بالنسيان : الترك ، أي : لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرّة[3] .

وكلام الزمخشري في الاحتمال الثاني يرد عليه قول النبي ﷺ فيما اتفق عليه الشيخان ، وسبق ذكره[4] ، أنها كانت من موسى نسياناً .

- عدم التصريح بالأمر المنسي : الذي هو العهد الذي بين موسى عليه السلام وبين الخضر ، من أسلوب الإيجاز الذي امتاز به القرآن الكريم ، وموسى عليه السلام في موقف المتعلّم ، والاكتفاء بما يوصل مراده للمعلم من الأدب ، لاسيما وأن الموقف موقف اعتراف بالزلل فليس من الحكمة الإطالة والمعلم في حال انشغال بما هو أهم .

---

(١) ينظر : ص ٩٨ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ، أبوحيان : ١٤١/٦ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٦٨٧/٢ .

(٤) ينظر : ص ٩٨ .

- استعمال ما الموصولة وصِلتها ﴿ **بِمَا نَسِيتُ** ﴾ دون الاسم : نسياني ، هو من البلاغة ؛ لأن فيه لفت نظر المعلم إلى الأمر المنسي لا إلى الزلل نفسه وهو النسيان ، وفيه التخفيف عن أثر التقصير على النفس .
- ﴿ **وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا** ﴾ يقال : رهقه إذا غشيه ، وأرهقه إياه . أي : ولا تغشني عُسْراً من أمري ، وهو اتباعه إياه ، يعني : ولا تعسر عليَّ متابعتك ، ويسرها عليّ بالإغضاء وترك المناقشة [(١)]. و« الإرهاق هنا مجاز في المعاملة بالشدة ، والإرهاق : مستعار للمعاملة والمقابلة ، والعسر : الشدة وهو ضد اليسر ، والمراد هنا : عسر المعاملة ، أي عدم التسامح معه فيما فعله فهو يسأله الإغضاء والصفح »[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ** ﴾ (الشعراء:١٤).

وقفة مع المعنى :

موسى عليه السلام هنا في مقام نداء العبد لمولاه وبوحه الخاص لخالقه ، يستلهم فيه طمأنينة قلبه وسكون روحه قبل أن يحمل رسالة الله والدعوة بالتوحيد إلى قوم طال بهم الكفر حتى ظنوا أنهم ملكوا الأرض ، متذكّراً موسى عليه السلام « ما كان من قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر »[(٣)]، وخاف أن يقف ذلك القتل حائلاً دون قبول دعوته .

من بلاغة الاعتراف الآية :

- نلحظ هنا أن موسى عليه السلام كان يخاف إعراض قومه عن رسالة ربه ، فكرر الخوف وهو يخاطب ربه عز وجل ، فقال المرة الأولى : ﴿ **قَالَ رَبِّ**

---

(١) ينظر : الكشاف : ٦٨٧/٢ .

(٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٣٧٦/١٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير :١٣٦/٦ .

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ (الشعراء:١٢) ، فخاف عدم قبول دعوته ، ثم هو يكرر الخوف الآن لكن من القتل ﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾ .

- ﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ ﴾ لمّا اعترف أنه فعل ذنباً حين ذكر النفس التي قتلها منهم خطأً ، لذا جاءت الصياغة بتقديم ﴿ وَلَهُمۡ ﴾ ؛لأن الحق في الأخذ بالقصاص متوقعًا منهم ؛ لذلك كان الخوف متحققًا .

- لم يذكر موسى عليه السلام في سورة الشعراء وهو يخاطب ربه نوع الذنب الذي فعله ، وهو(القتل) بينما ذكره في سورة القصص في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾ (القصص:٣٣) ، ولعل هذا لمناسبة البسط الذي ورد في القصص بينما ورد الإيجاز في الشعراء .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ (الشعراء:٢٠،٢١) .

وقفة مع المعنى :

هنا يعيد موسى عليه السلام اعترافه بذنبه ـ وهو القتل ـ أمام الطاغية فرعون ، لكنه يتحدث أمامه بلغة الواثق بنصر ربه ، لا بالخوف والخضوع الذي كان يُسِر به إلى مولاه عز وجل ، وهذا يظهر الفرق بين مقامات الاعتراف ومراعاة المخاطب[1] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

قال الله تبارك وتعالى حكايةً عن فرعون : ﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (الشعراء:١٨،١٩)[2] ، حيث بدأ فرعون بتذكيره بأنهم أحسنوا إليه

---

(١) وهذا موضوع دراسة في المبحث الثالث من الفصل الثالث من الباب الثاني ، ينظر : ص٥٩٣ .

(٢) قد يستلزم الوقوف على بلاغة بعض الاعترافات مثل : اعتراف موسى عليه السلام ، يستلزم الوقوف على بداية الحوار وحكاية قول فرعون فأقف معه .

بتربيته في القصر كأبناء الملوك ، فحوى حوار موسى عليه السلام مع ذلك الطاغية جملةً من الوقفات التي قصها الله لنا في أبلغ كلام ، منها :

١- بلاغة الاتهام المحكي على لسان فرعون :

- قال له فرعون : ﴿ **فِينَا** ﴾ وليس (بيننا) ؛ ليدل على القرب ، وشدة الملازمة والحفاوة التي وجدها عندما كان وليداً .
- ﴿ **فَعْلَتَكَ** ﴾ ذكّر فرعون موسى بجريمته التي لم يسمّها فرعون ؛ ليعظم شأنها عند موسى عليه السلام ، وعند من يحضر في مجلس فرعون ، و« الفعلة : المرة الواحدة من الفعل ، وأراد بها الحاصل بالمصدر كما اقتضته إضافتها إلى ضمير المخاطب ، وأراد بها قتله القبطي قيل : هو خباز فرعون »[1].
- « التعبير بالموصول : ﴿ **ٱلَّتِى فَعَلْتَ** ﴾ ؛ لعلم موسى بها وفي ذلك تهويل للفعلة ، فيكنى به عن تذكيره بما يوجب توبيخه »[2] ، وفي العدول عن ذكر فعلة معينة إلى ذكرها مبهمة مضافة إلى ضميره ثم وصفها بما لا يزيد على معنى الموصوف تهويل مراد به التفظيع وأنها مشتهرة معلومة مع تحقيق إلصاق تبعتها به حتى لا يجد تنصلا منها ، وكأنه يقول له : فقابلت الإحسان بالإساءة !

٢- بلاغة اعتراف موسى عليه السلام :

- رد موسى عليه السلام مباشرة بكلام يشعّ ثقة وطمأنينة بقوله : ﴿ **قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ (الشعراء:٢٠، ٢١) ، فكان اعترافاً كلّه رباطة جأش من موسى عليه السلام ، يدل على توكله على ربه ، وصدقه الباعث له على الاعتراف بالفعلة ، وذكر ما نشأ عنها من خير له ليدل على أنه حمد أثرها ،

(١، ٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١١٢/١٩ .

وإن كان قد اقترفها غير مقدّر ما جرّته إليه من خير ؛ فابتدأ بالإقرار بفعلته ليعلم فرعون أنه لم يجد لكلامه مدخل تأثير في نفس موسى عليه السلام .

- أخّر موسى الجواب عن قول فرعون : ﴿ **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** ﴾ (الشعراء:١٨) ؛ « لأنه علم أن القصد منه الإقصار من مواجهته ، بأن ربًّا أعلى من فرعون أرسل موسى عليه السلام إليه »[١] .
- ابتدأ بالجواب عن الأهم من كلام فرعون وهو : ﴿ **وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ** ﴾ (الشعراء:١٩) ؛ « لأنه علم أنه أُدخل في قصد الإفحام ، وليُظهر لفرعون أنه لا يوجل من أن يطالبوه بذحل[٢] ذلك القتيل ثقةً بأن الله ينجيه من عدوانهم »[٣] .
- تقديم ﴿ **فَعَلْتُهَآ** ﴾ على ﴿ **إِذًا** ﴾ مبادرة بالإقرار ؛ ليكون كنايةً عن عدم خشيته من هذا الإقرار [٤].
- معنى الجزاء في قوله : ﴿ **فَعَلْتُهَآ إِذًا** ﴾ أن قوله عز وجل : ﴿ **وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ** ﴾ قصد بها فرعون إفحام موسى عليه السلام ، وتهديده فجعل موسى عليه السلام الاعتراف بالفعلة جزاء لذلك التهديد ، أي لا أتهيّب ما أردت ، على طريقة القول بالموجب[٥].

وهذا الفن ضربان : أحدهما : أن تقع صفة في كلام الغير كنايةً عن شيء أثبت له حكم ، فثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه كقوله تعالى : ﴿ **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (المنافقون:٨) فإنهم كنّوا بالأعز عن فريقهم

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢١٣/١٩ .

(٢) الذحْل : طلب مكافأة بجناية جنيت عليك أو عداوة أُتيت إليك . ينظر : العين : ٢٠٠/٣ .

(٣-٥) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢١٣/١٩ .

وبالأذل عن فريق المؤمنين ، وأثبتوا للأعز الإخراج ، فأثبت الله تعالى في الرد عليهم صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرض لثبوت حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ولا لنفيه عنهم ، وهي الطريقة التي استعملها موسى عليه السلام مع فرعون .

والضرب الثاني : حملُ لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ، كقول الشاعر :

قلت : **ثَقَّلتُ إذ أتيتُ مرارًا** قال : **ثقَّلتَ كاهلي بالأيادي**

قلت : **طَوَّلْتُ قال : لا بل تَطَوَّلْتَ** وأبرمتُ **قال : حبل ودادي**

والاستشهاد بقوله : ثقلت وأبرمت ، دون قوله : طولت . . . [1] .

- « جعل موسى نفسه من ﴿ **ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ ، فإن كان مراد كلامه الذي حكت الآية معناه إلى العربية المعنى المشهور للضلال في العربية وهو ضلال الفساد فيكون مراده : أن سَورة الغضب أغفلته عن مراعاة حرمة النفس ، وإن كان المعنى : ضلال الطريق أي : كنت يومئذ على غير معرفة بالحق ؛ لعدم وجود شريعة وهو معنى الجهالة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ** ﴾ (الضحى:٧)، فالأمر ظاهر »[2]، « ودفع الوصف بالكفر عن نفسه ، وبرّأ ساحته ، بأن وضع ﴿ **ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ موضع (الكافرين) رَبْأً بمحل من رشح للنبوّة عن تلك الصفة »[3] ، فَلَفَت موسى عليه السلام النظر من تغيير لفظ ﴿ **ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ في مقالة فرعون إلى ﴿ **ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ في اعترافه ، ليبين له ولقومه أن خلق الأنبياء المصطفين من الله لا يتناسب مع كفر النعمة ، ولا ينبغي لهم ذلك ، بل هم أولى الناس بمجازاة الإحسان إحساناً ، ولفظ

(١) ينظر : الإيضاح ، القزويني : ٣٥٢ ، الأبيات لمحمد بن إبراهيم الأسدي ، ينظر : خريدة القصر ، الأصبهاني : ٩٥/٢ .

(٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢١٣/١٩ .

(٣) الكشاف ، الزمخشري : ٣١١/٣ .

﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فيه تواضع الأنبياء ، واعترافهم لمن أخطؤوا في حقهم ، ووقوع الزلل منهم عن غير عمد ، وحاجتهم وافتقارهم إلى رحمة الله وتوفيقه كسائر المؤمنين .

- أضاف موسى عليه السلام لمسةً إنسانيةً تكون أدعى لقبول دعوته ، وتحمل شفافيةً ومصارحةً تُلجم فرعون الذي يظن أنه باتهامه لموسى عليه السلام قد أنقص قدره وألجمه ، وهذا في قول موسى عليه السلام : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ (الشعراء: ٢١) ، مؤكدًا بذلك لفرعون أنه لم يكتف بالاعتراف بفعل القتل الخطأ ، بل إنه اعترف بخوفه وفراره هارباً منهم ، والمتأمل في هذه العبارة يظن أن موسى عليه السلام سهّل منفذاً لتسلط فرعون الذي عُرف بجبروته ؛ إذ أمامه نفسٌ معترفةٌ مذنبةٌ ، فسيُسرُّ إن علم أنه وجنوده مصدر قلق وخوف ، وهذا ما يريده ، غير أن موسى عليه السلام ختم اعترافه بما يجعله واثقاً من دخول القصر من جديد بقوله : ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، فكل ما كان سابقاً من الخطأ صار مع هبة الله له ممحواً .

- الفاء في ﴿ فَوَهَبَ ﴾ تشير إلى أن الحكم كان قريباً جدًّا من ذلك الفرار ، «فالفاء تأتي للتعقيب ، وقد يصحبها معنى السبب»[(١)] .

- تقديم ﴿ لِى ﴾ على ﴿ رَبِّى ﴾ جاء مشعراً بافتقار وتعاظم النعمة المسداة إليه من رب العالمين بعد خروجه من مصر خائفاً ، فأمّنه الله وعوّضه عن خوفه بأمان الرسالة ومعية الله ، كما أن تنكير ﴿ حُكْمًا ﴾ وهبة الحكم مؤشر على أن مكث فرعون في مكانه لن يطول ، لأن الحكم البشري سيكون بيد موسى عليه السلام وأتباعه في مصر .

- لما انتهى من الرسالة التي أراد موسى عليه السلام إيصالها لفرعون ـ من مسألة القتل الخطأ ـ بدءًا بتفنيد قوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ

---

(١) التحفة الوفية ، السفاقسي :١/٢٤ .

مِنَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴾ ، فقال له : ﴿ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء:٢٢) ، ويعني بقوله : وتلك تربية فرعون إياه ، يقول : وتربيتك إياي ، وتركك استعبادي ، كما استعبدت بني إسرائيل نعمةٌ منك تمنها عليّ بحقّ ، وفي الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذكر عليه عنه ، وهو : وتلك نعمةٌ تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل وتركتني ، فلم تستعبدني ، فترك ذكر : وتركتني ؛ لدلالة قوله : ﴿ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ عليه ، والعرب تفعل ذلك اختصارا للكلام [1] .

- جملة موسى عليه السلام تلميحٌ لفرعون أن الفعلة الشنيعة التي تستحق الذكر ليست القتل خطأً ، بل هي استعباد قومٍ بأسرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ (الصافات:٢٧-٣٢) .

وقفة مع المعنى :

تصف لنا الآيات الخصام الذي يقع بين المشركين في نار جهنم « لما جُمِعوا هم وأزواجهم وآلهتهم ، وهدوا إلى صراط الجحيم ، ووقفوا ، فسئلوا ، فلم يجيبوا ، وأقبلوا فيما بينهم ، يلوم بعضهم بعضا على إضلالهم وضلالهم » [2] ، ومرارة الملامة التي لا تنفعهم شيئاً ، والشاهد من الآيات هنا اعتراف المتكبرين الذين كانوا هم أصحاب السلطة في الدنيا باستحقاقهم للعذاب بعد الجدل الذي جرى بينهم بقولهم : ﴿ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ .

---

(١) جامع البيان ، الطبري : ٣٤٢/١٩ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٧٠٢ .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- «عبّروا بما يدل على ندمهم فقالوا : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ﴾ أي الذي قابلنا إحسانه إلينا وتربيته لنا بالكفران ، وقوله : هو الحكم بالضلال لما في قلوبنا من القابلية له والإباء للإيمان ، فالحكم هو بالعذاب .

ولما تصوّروا ما صاروا إليه من الخطأ الفاحش عن الطريق الواضح ، وعلموا أن مثل ذلك لا يتركه أحد إلا بقهر قاهر ، فتصوروا أنه ما قسرهم عليه إلا حقوق الكلمة العليا ، علموا أنهم مثل ما صاروا إلى حكمها في الكفر يصيرون إلى حكمها في العذاب ، فقالوا لما دهمهم من التحسر مريدين بالتأكيد قطع أطماع الأتباع عما أفهمه كلامهم من أن الرؤساء يغنون عنهم شيئاً : ﴿ إِنَّا ﴾ أي جميعاً ﴿ لَذَآئِقُونَ ﴾ : أي ما وقع لنا به الوعيد من سوء العذاب»[١] .

- بعد التحسر والتأسف والتضجر ، رجعوا إلى إتمام ذلك الكلام فقالوا : ﴿ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ ﴾ أي أضللناكم وأوقعناكم في الغي وكنا من أهله ، ثم عللوا ذلك بقولهم مؤكدين أيضاً لرد ما ادعاه الأتباع من أنه ما كان سبب إغوائهم إلا الرؤساء : ﴿ إِنَّا ﴾ أي جميعاً ﴿ كُنَّا غَـٰوِينَ ﴾ أي في طبعنا الغواية ، وهي العدول عن الطريق المثلى إلى المهالك[٢] .

- عبّر الأتباع بقولهم : ﴿ لَذَآئِقُونَ ﴾ ، والتذوق إنما يكون بالفم ، واستعير لكامل الجسد ليدل على شدة إدراك الحواس يومئذ للعذاب ، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله : «ضرس الكافر ـ أو ناب الكافر ـ مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث»[٣] ؛ وذاك حتى تزداد مساحة شعوره بالعذاب والعياذ بالله ،

(١، ٢) نظم الدرر ، البقاعي : ١١٩/٧ .

(٣) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : صفة القيامة والجنة والنار ، باب : النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ، (رقم الحديث : ٢٨٥٢) .

فكأن جميع الأعضاء تتذوق العذاب ، كما أن في التعبير بالتذوق نكتة أخرى وهي أن التذوق أقوى من الأكل والشرب من حيث الشعور ؛ فحاسة التذوق هي التي يستطيع الإنسان بها التمييز بين المر والحلو ، والحامض وغيره ، بينما لو تجاوز الطعام اللسان إلى الجوف مباشرة لانتفت ذائقته به ، ولَهَان عليه طعمه ، نسأل الله أن يذيقنا برد عفوه ويسكننا جنات النعيم .

وقد تكلم الخطيب القزويني عن استعارة الذوق في قوله تعالى : ﴿ **فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ** ﴾ (النحل:١١٢) حيث عبّر بقوله : « أذاقها ولم يُعبّر بـ : كساها ؛ فإن المراد بالإذاقة إصابتهم بما استعير له اللباس كأنه قال : فأصابها الله بلباس الجوع والخوف »[(١)] ، وقال الزمخشري : « الإذاقة جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد ، وما يمس الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضر ، والألم بما يدرك من طعم المر والبشع ، فإن قيل الترشيح أبلغ من التجريد فهلاً قيل : فكساها الله لباس الجوع والخوف ، قلنا : لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس ، فكان في الإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف الكسوة ، فإن قيل : لِمَ لَمْ يقل فأذاقها الله طعم الجوع والخوف؟ قلنا لأن الطعم وإن لاءم الإذاقة فهو مفوت لما يفيده لفظ اللباس من بيان أن الجوع والخوف عم أثرهما جميع البدن عموم الملابس »[(٢)] .

- حذف معمول الفعل ﴿ **لَذَآئِقُونَ** ﴾ وهو العذاب ، ليشمل كل ما يمكن أن يتذوقوه يومئذ من العذاب ، والتوبيخ ، والإيلام النفسي .
- قولهم : ﴿ **فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ** ﴾ فدعوناكم إلى الغي دعوة محصّلة للبغية ، لقبولكم لها واستحبابكم الغيّ على الرشد ﴿ **فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ** ﴾ فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا[(٣)] .

---

(١) الإيضاح : ٢٨١/١ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٤٠٥/٤ .

(٣) ينظر : الكشاف ، الزمخشري : ٤٦١/٥ .

والمزية في إيثار لفظ الغواية على الضلال أن «الضلال : عدم الاهتداء إلى الطريق الموصول إلى المقصود ، وهو مجاز في سلوك ما ينافي الحق . والغواية : فساد الرأي وتعلقه بالباطل»[1] ، والضلال قد يكون عن قصد أوعن غير قصد مثل قوله تعالى : ﴿ **وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ** ﴾ (الجاثية:٢٣)، وقوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا** ﴾ (الكهف:١٠٤) ، أما الغواية فهي عن قصد وهو الإمعان في الضلال ، والضلال عام نقول ضلّت الدابة ولا نقول غوت الدابّة والغواية هي للمكلّف . والضلال نقيض الهدى والغواية نقيض الرشد[2] .

وهنا تتجلى بلاغة القرآن في اختيار الألفاظ التي تدل على ما كانوا عليه في الدنيا ، وعليه استحقوا جزاءهم في الآخرة .

- قدم الكفار اعترافهم بغواية المتبوعين ثم أخّروا غوايتهم ، ولعل في هذا إشارة إلى حسرتهم ؛ فتأخير ذكرهم لأنفسهم وعدم اهتمامهم بشأنها ، واحتقارهم لها ولضلالها بعدما كانوا مستكبرين متجبرين مبجلين لأنفسهم في الدنيا ، عاصين لله ، وهذا من العقوبة في الآخرة ، وفيها أيضاً : أنهم كانوا يحرصون على غواية غيرهم ويتعاهدونهم بالتسويل والوسوسة فقدموا غواية غيرهم على أنفسهم ، نسأل الله أن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .
- موقع جملة ﴿ **إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ** ﴾ موقع العلة ، و(إن) مغنية غناء لام التعليل وفاء التفريع ، وزيادة (كنّا) للدلالة على تمكين الغواية من نفوسهم ، وقد استبان لهم أن ما كانوا عليه هو(غواية) فأقروا بها [3].

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٤١٨٥/١ .

(٢) ينظر : لمسات بيانية ، فاضل السامرائي : ٤٩ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٣٥٦٠/١ .

وقال النيسابوري : «أقدمنا على إغوائكم ؛ لأنّا كنّا موصوفين في أنفسنا بالغواية ، كأنهم قالوا : إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاو آخر لزم التسلسل ، فعلمنا أن غوايتنا أيضاً من الله ، كما مر في قوله : ﴿ **فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ** ﴾»[1] .

– تقديم الجار والمجرور ﴿ **عَلَيْنَا** ﴾ على الفاعل ﴿ **قَوْلُ** ﴾ في قوله تعالى : ﴿ **فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ** ﴾ للاهتمام بالاعتراف والندم الحاصلين في ذلك الوقت ، والخوف على أنفسهم من القادم ، فكلمة الله واقعة لا محالة ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً** ﴾ (النساء:١٢٢) ، لكن أين مكان كل امرئٍ ذلك الحين ؟ هذا هو السؤال .

قوله تعالى : ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ** ﴾ (المدثر:٤٢-٤٧) .

وقفة مع المعنى :

«لمّا كان يوم القيامة في غاية الصعوبة وكان كل أحد مشغولاً بنفسه ، فكان لا علم له بتفاصيل ما يتفق لغيره ، وكان أولياء الله إذا دخلوا دار كرامته أرادوا العلم بما فُعل بأعدائهم ، فتساءلوا عن حالهم فقال بعضهم لبعض : لا علم لنا ، فكشف الله لهم عنهم حتى رأوهم في النار وهي تُسعّر بهم ليقر الله أعينهم بعذابهم ، زيادةً في نعيمهم وثوابهم ، كما تقدم في الصافات عند قوله تعالى : ﴿ **قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ** ﴾ (الصافات:٥١) ، وكان بساط الكلام دالاًّ على هذا كله ، وذكر ربنا جل وعلا حكايةً عما يقول لهم أولياؤهم توبيخاً وتعنيفاً وشماتةً وتقريعاً ، تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ **فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ**

---

(١) غرائب القرآن : ٦/٣٤٣ .

ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴾ (المطففين:٣٤) ، ولتكون حكاية ذلك موعظة للسامعين وذكرى للذاكرين» [١] .

وقد توجه سؤال أصحاب الجنة إلى أصحاب النار بالفن البديعي (سوق المعلوم مساق غيره لنكتة) كما سماه السكاكي حيث قال : «ولا أحب تسميته بالتجاهل» [٢] ؛ ويتجلى هذا الفن في «أن أصحاب اليمين يعرفون الأسباب التي سلكت المجرمين في سقر ، وإنما سألوهم ليقرروهم بذنوبهم التي اقترفوها في الحياة الدنيا ، توبيخاً لهم عليها وتحسيراً وتبكيتاً لهم» [٣].

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- في قولهم : ﴿ **لَمۡ نَكُ** ﴾ حُذفت النون دلالة على ما هم فيه من الضيق عن النطق حتى بحرف يمكن الاستغناء عنه ، و«دلالة على أنه لم يكن لهم نوع طبعٍ جيدٍ يحثهم على الكون في عداد الصالحين ، وكان ذلك مشيراً إلى عظيم ما هم فيه من الدواهي الشاغلة بضد ما فيه أهل الجنة من الفراغ الحامل لهم على السؤال عن أحوال غيرهم ، وكان ذلك منبهاً على فضيلة العلم» [٤] .
- في كلام أهل النار نلحظ المباشرة في الجواب ، والاختصار فيه مما يفصح عن كآبة الحال في ذاك المقام ، ومن الكدر والعذاب الذي يمنع تحسين الأسلوب وبسط الحديث إلى أهل الجنة ، ومما يبرز هذا اعترافهم بـ(لم) مباشرة في الرد .

---

(١) نظم الدرر ، البقاعي : ٢٥٢/٩ .
(٢) مفتاح العلوم : ١٨٥ .
(٣) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٣١٩/٤ .
(٤) نظم الدرر ، البقاعي : ٢٥٢/٩ .

- «الأفعال المضارعة في قوله : ﴿ لَمۡ نَكُ ﴾ و﴿ نَخُوضُ ﴾ و﴿ نُكَذِّبُ ﴾ يؤذنُ بأن ذلك ديدنهم ومتجدد منهم طول حياتهم» [(١)] .
- قولهم : ﴿ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ : أثبتوا بـ﴿ مِنَ ﴾ نفي كونهم من أهل الإيمان الذين تجب عليهم الصلاة ؛ فنلحظ أن (مع) التي استعملت في قوله تعالى : ﴿ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴾ لم تأت هنا ، بل جاءت ﴿ مِنَ ﴾ ، فلعل(مع المصلين) تشير إلى اشتراك في المكان لا تعني بالضرورة اشتراكاً في الفعل وهو الصلاة ، بينما (من) دلت على معنى أبلغ من قول : لم نك نصلي ، كما يؤيد المعنى ويزيده قوة الجمع في كلمة ﴿ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ التي توحي بشرف اجتماعهم للصلاة وبحسرة حالهم يوم اعترفوا أن لم يكونوا منهم ، ففي الآيات يكون اجتماع أهل الخير قوة لهم وفخر وشرف ، واجتماع أهل الباطل ذلٌّ ومهانة وزيادة ضعف على ضعفهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ (الزمر:٧١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ (الزمر:٧٣) .
- قولهم : ﴿ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴾ : الإفراد في ﴿ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴾ يوحي بشدة بخلهم ؛ إذ إنهم لم يشتركوا لإطعام مسكين واحد فكانوا يمنعون أموالهم عن مستحقيها ، والإطعام كناية عن الإنفاق على المسكين وإنما خُصص في هذه الآية وغيرها كثير للدلالة على أن الطعام هو ما تقوم به الحياة ؛ فهو أكثر ما يحتاجه الفقراء ، كما أن الحاجة إليه متكررة في كل يوم ، بعكس الكسوة والمسكن فتوفرهما مرة يؤمّن عدم سؤالهما مرة أخرى .
- قولهم : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴾ : تدل ﴿ مَعَ ﴾ على مشاركة في الفعل ، ثم اختير لفظ الخوض وأصله المَشْيُ في الماء[(٢)] ، واستُعير للكلام

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٤٦٣٢/١ .

(٢) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ١٤٧/٧ ، مادة (خ ض ض) .



فدلّ على الاستكثار منه والدخول فيه ، ومن كان هذا حاله لابد أن يتعلق قلبه بما يقول حتى يصبح اعتقاداً كما يبتلُّ من يمشي في الماء .

- عدم إضافة الخوض إلى اسم أو صفة يدل على عموم حصول فعل الخوض في كل ما هو قبيح من القول والفعل ، يؤكده أن الإنسان في حالة الندم يخصص ذكر ما يندم عليه ، فكان العموم في الآية دالاً على ذلك .

* * *

٦- الإقرار بالخطأ عن طريق التلفظ بالصواب :

وشواهده ثلاثة ، هي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٩٠) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾(سبأ: ٥١-٥٢).

٣- وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ (غافر: ٨٤) .

وقفة مع المعنى :

يشترك المستكبرون في عدم التسليم ، وإن ظهرت لهم معالم الحق جلية ناطقة ، ويُفيقون من كِبرهم حال وقوع العذاب بهم ، ولا يملكون حينها إلا أن ينطقوا بالحق الذي طالما تكبّروا عنه ، « فتضمنت هذه الآيات ، وأمثالها في القرآن : أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند حضور الموت ، ويوم النشور ووقت عرضهم على الله تعالى ، ووقت عرضهم على النار » [1] .

---

(١) أضواء البيان ، الشنقيطي : ٢٦/١٠٠ .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

- قال الله تعالى حكايةً عن فرعون : ﴿ **أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ** ﴾ ، وعلق الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ بقوله : « تأمل أنه لم يقل : آمنت بالله ، بل قال : آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ، لماذا ؟ إذلالاً لنفسه ، حيث كان ينكر على بني إسرائيل ويهاجمهم ، فأصبح عند الموت يقر بأنه تبعٌ لهم ، وأنه يمشي خلفهم . . . »[(1)].

وفرعون لم يوفّق للنطق باسم الجلالة تنزيهاً لاسم الله جل وعلا ، إذ طالما ادعى هذا الطاغية أنه الرب ، فكان جزاؤه الحرمان من الهداية والحرمان من النطق باسم الهادي سبحانه .

- زاد فرعون بقوله : ﴿ **وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ** ﴾ محاولة أخيرة منه أن ينضم لركب المهتدين ، وإن لم يفلح في الجملة الأولى : ﴿ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ** ﴾ .

- أولئك المشركون في سورة سبأ قالوا : ﴿ **ءَامَنَّا بِهِۦ** ﴾ (سبأ:٥٢) عطفاً على جملة : ﴿ **وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ** ﴾ (سبأ:٥١) في الآية التي قبلها ، وقد عُبّر بالماضي ﴿ **ءَامَنَّا بِهِۦ** ﴾ بدلاً من المضارع المراد به الحال : نؤمن ؛ طمعاً منهم في قبول إيمانهم بالحق الحادث منهم قسراً لمّا رأوا صدق ما كفروا به من قبل ، حتى لكأنهم آمنوا به في الحياة الدنيا[(2)] ، وهكذا حين يقع العذاب لا يملك من يراه طويل جدل وخصام ، إنما ينطق بالحق مباشرة ظنًّا منه أنه سيتخلص من الهلاك المحتم .

- ﴿ **ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ** ﴾ (غافر:٨٤) يُلحظ هنا

(١) الكنز الثمين : ٨/١١ .

(٢) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٩٩/٣ .

التكرير فقولهم ﴿ وَحۡدَهُۥ ﴾ تكفي لإيصال المراد وهو الإيمان بالله دون سواه وتبرؤهم تلك اللحظة من شركاءهم ، إلا أنهم زيادة في التأكيد قالوا : ﴿ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴾ دفعًا لتوهّم الإيمان بالله مع وجود جذور الشرك والضلال ؛ فدلت الآية تمام الدلالة على كشف الغطاء عن أبصارهم ، في حين لا ينفع ذلك الإخلاص ، وليس لهم من العذاب مناص .

* * *

٧- التمهيد للإقرار :

وفيه شاهدان ، هما :

١- قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف:٩٧) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴾ (الكهف:٦٣) .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾

وقفة مع المعنى :

بعد أن طال كيد إخوة يوسف عليه السلام بأخيهم ، ولم يألوا جهداً بتفكيرٍ ومحاولات جادة لإبعاده عليه السلام من وجه أبيهم ، كانت النهاية بأن أظهره الله وآثره عليهم فافتُضح أمرهم وبانت دعواهم الكاذبة بموته ، وظهر زور القميص والدم الكذب الذي جاؤوا به ، فما كان منهم بعد أن توالت الكذبات وصدقت أحاسيس يعقوب عليه السلام إلا أن يمهدوا قبل أن يقروا أن ما فعلوه كان (ذنباً) ، في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾ ، وقد روي أن يوسف عليه السلام لما غفر لإخوته ، وتحققوا أيضاً أن يعقوب يغفر لهم ، قال

بعضهم لبعض : ما يغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا؟! فطلبوا ـ حينئذ ـ من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى ، واعترفوا بالخطأ[1] .

التمهيد للإقرار وتحليله :

جاء التمهيد استعطافاً ابتدأوا به الخطاب متوجهين ليعقوب عليه السلام بالندم : ﴿ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾ ، وهنا شاهد التمهيد ولنا فيه بعض الوقفات :

- جاء إخوة يوسف مخاطبين روح الأبوة التي تغلب السلوك ، منادين تلك العاطفة الفطرية التي تتجاوز عن الخطأ دون قياس حجمه بقولهم : ﴿ يَٰٓأَبَانَا ﴾ ، نداء كله استعطافٌ وتحنن ، ورحمة الأب تسود الموقف عند استماع نداء أبنائه له ؛ لاسيما وأن قدومهم قدوم المعترف بخطئه المعتذر عما بدر منه ، فهذا النداء كان كباقات ورد تُلطِّف أجواء الاعتراف وتمهّد له .
- قولهم : ﴿ يَٰٓأَبَانَا ﴾ دون : يا والدنا ، هي من منهجية القرآن الدقيقة التي تحكي عظم البلاغة القرآنية ، « فالقرآن العظيم يخص كلمة (أب) بالرجل ، ويخص كلمة (والد) مع تاء التأنيث بالأنثى ، ولم يرد في لغة القرآن كلمة (والد) للدلالة على الأب الذكر ، ولا كلمة (أب) للدلالة على الأم الأنثى مادام الحديث جارياً على الأب والأم الحقيقيين ، بل الذي في القرآن إطلاق كلمة (أبوين) في حالة التثنية على كل من الأب والأم مجتمعين لا مفترقين ، وإطلاق كلمة (والدين) مثنى على كل منهما مقترنين ، فإذا جاء الحديث عن جنس الآباء والأمهات جمعاً غير مفرد ولا مثنى ، آثر القرآن جمع الأب على جمع (الوالد) في كل موضع أريد فيه الجمع »[2].

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٤/٤٤ .

(٢) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، دكتور عبد العظيم المطعني : ١٥ .

- في لحظة الندم على الكيد لم يذكروا اسم الجلالة مرتبطاً بالاستغفار بل قالوا: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾ دون ذكره جل جلاله ؛ وهذه الحال تنتاب المذنب في أول لحظات التوبة ، إذ يقوم المذنب من شدة خوفه من الله بتنزيهه عن الذكر بلسان طالما أخطأ وكذب ، ثم سرعان ما يسترجع بعد هدوء حالته ليدعو الله بصدق بالعفو والمغفرة .
- قولهم : ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾ ذكر الجار والمجرور ﴿ لَنَا ﴾ أفادت الحرص على تبرئة أنفسهم مما وقعوا فيه من سوابق الخطأ كلها ، وعبّرت ﴿ لَنَا ﴾ عن حاجتهم الشديدة للمغفرة بعد ماضٍ مليءٍ بالتقصير ، بما عملوه لأخيهم ، وما أخفوه عن أبيهم .

نص الإقرار وتحليله :

- قولهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴾ اعترافٌ مؤكَّد بالعزم على عدم الرجوع للذنب يظهر ذلك من قولهم : ﴿ كُنَّا ﴾ أي أن تعمُّدنا الخطأ كان زمناً ماضياً لن يعود .
- التعبير بـ ﴿ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ وليس : مخطِئين ، يكشف دقة اختيار الكلمة القرآنية الدالة على المعنى الذي أرادوا إيصاله لأبيهم ، فقد أرادوا إيصال معنى الإثم الذي ارتكبوه بإلقاء يوسف عليه السلام في البئر والافتراءات التي ضموها لقصته .

والفرق بين (خَطِأ) و(أَخْطَأ) « قيل هو : أن يقال للمرء (خَطِأ) في الدين ، و(أَخْطَأ) في كل شيءٍ ، عامداً كان أو غير عامد .

وقيل : خَطِأ : إذا تعمد ما نُهي عنه ، فهو خاطئ . وأَخْطَأ : إذا أراد الصواب فصار إلى غيره . ومنه قوله تعالى حكاية عن المؤمنين : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا ﴾ (آل عمران:١٤٧) ، فإن المراد : المعاصي الواقعة عن عمد ؛ لأن الصادر عن غير عمد لا مؤاخذة عليه ، فلا يناسبه استدعاء المغفرة

مع أنه قد سبق سؤال عدم المؤاخذة عليه في قولهم : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (البقرة:٢٨٦)»[1] .

ويرجح الدكتور عبد العظيم المطعني ـ بعد ما أجرى استقراءً على آيات القرآن ـ أن (أخطأ) معناها : جانبه الصواب سواء كان الخطأ مقصوداً أو غير مقصود ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥) ، أما (خطئ) وجميع صورها فمعناها : أثم ، أو ارتكب إثماً ، وهذا ظاهر جدًّا ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ (الحاقة:٣٦،٣٧) .

ويرى اختصاص (أخطأ) بمقام التشريع مدنيًّا وجنائيًّا في الأيمان والقتل الخطأ ، أما (خطئ) فمختصة بمقام السلوك الإنساني عقيدة ، وأخلاقاً ، وسيرةً[2] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ (الكهف:٦٣) .

وقفة مع المعنى :

هنا صورة من صور الحوار الراقي الذي دار بين السيد وخادمه في لحظة نتوقع فيها المؤاخذة والعتب ، بين موسى عليه السلام وبين فتاه ، إذ كانا مبحرين لمقابلة الخضر ، فطلب من فتاه تجهيز الغداء ، فرد عليه أن الحوت الذي حملاه للغداء قفز إلى الماء حين أويا إلى الصخرة ، فاتخذ الحوت طريقاً

(١) الفروق اللغوية ، العسكري : ١/٢٢٠،٢٢١ ، وينظر : تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ١/١٢٠ .

(٢) ينظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن : ١٢٧-١٢٩ .

في البحر واختفى ، فحكى الله ذلك عنه بقوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ هنالك ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [1]، ولعل هذا الفتى قد خشي من غضب موسى عليه السلام فبدأ اعترافه ممهداً بطريقة جاذبة ، وكأنه يحكي أمراً أو يسترجع شيئاً ثم ذكر نسيانه عرضاً .

التمهيد للإقرار وتحليله :

نجد الصياغة المعجزة : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ تتحدث عن نفسية الفتى المضطربة لما رأته عيناه من الغرائب ، وتمثل هذه الجملة صياغة التمهيد التي حكت ما أراده الفتى ، وتحليلها الآتي يظهر شيئاً من عمق البلاغة القرآنية الفريدة :

- قوله : ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ : أسلوب معتاد فيما بين الناس أن يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خطب : أرأيت ما نابني! يريد بذلك تهويله ، وتعجيب صاحبه منه ، وأنه مما لا يُعهد وقوعه ، لا استخباره عن ذلك كما قيل ، ومراده بالاستفهام : تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى ، وقد جعل فقدانه علامةً لوجدان المطلوب ، والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة [2].

وهذه الآية دليل على امتناع إلزام (أرأيت) معنى : أخبرني ، والمعنى المناسب لهذه الصيغ أن يكون المراد من الاستفهام فيها : هو إثارة الذهن ، وتحريك المشاعر نحو المستفهم عنه ، واستحضار صورته في الذهن ليساق عليه الحديث وهو حاضر ماثل في الوجدان ، وهذا المعنى جائز اطراده في جميع المواضع التي وردت فيها هذه الصيغ في القرآن الحكيم .

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٨/٦٠ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٥/٢٣٣ .

وفي هذه الآية أراد فتى موسى عليه السلام أن يستحضر موسى عليه السلام لحظة لجوئهما إلى الصخرة ونومهما عندها ؛ لأنها مكان وزمان نسيانهما حوتهما ، وعودته إلى البحر [1] .

- وفي قوله : ﴿ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ اختيار لفظ (الإيواء) بقصد الإقامة عندها والالتجاء إليها مع أن المذكور فيما سبق من الآية بلوغ مجمع البحرين ؛ لزيادة تعيين محل الحادثة ، فإن المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة إليه ، ولتأكيد العذر ؛ فإن الإيواء إليه ، والنوم عندها مما يؤدي إلى النسيان عادة[2] .

نص الإقرار وتحليله :

بعد أن أعطى الفتى مساحة في ذهن موسى عليه السلام لقبول عذره ، اعترف بتقصيره بقوله : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ ، والإبحار في نظم الاعتراف يكشف بعض أسرار بلاغة الآية :

- قوله : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ تأكيد للتعجيب ، واستعظام المنسي ، وإيقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور بإتيانه ؛ للتنبيه من أول الأمر على أنه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده في المنزل ، وأن ما شاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام!، بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان غير أن حاله أعجب .

فيكون قوله : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ : أي نسيت أن أذكر لك أمره ، وما شاهدت منه من الأمور العجيبة وما أنسانيه إلا الشيطان بوسوسته الشاغلة

---

(١) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٥٤/٢ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٢٣٣/٥ .

عن ذلك[1] ، وأكد الخبر هنا بـ (إن) مع اسمية الجملة ؛ لأن المخاطب قد يسارع بالإنكار لاستبعاد صدور النسيان من المتكلم يوشع ؛ ولأن الواقعة نفسها (نسيان الحوت) تتأبى على النسيان ؛ لأن الحوت كان غداءهما الوحيد في ذلك السفر[2] .

- في قوله : ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ تكرار لمعنى النسيان الذي ذكره الفتى أولاً في قوله : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ غير أنه في تكراره نسب نسيانه للشيطان بأسلوب القصر بطريقة النفي والاستثناء ، وفيه حصر المتسبب بالنسيان ، حتى لا يظن موسى أن الفتى تغافل عن ذكر الحادثة قصدًا .
- وتقديم لفظ الشيطان على قوله : ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ وتقدير الكلام في غير القرآن : أنساني الشيطان أن أذكره لك ؛ أفاد الحصر والاستدراك ، لدفع الملامة المتوقع حصولها .
- وقوله : ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ : بدل اشتمال من الضمير ، أي : أنساني أن أذكره لك ، وفي تعليق النسيان بضمير الحوت أولاً وبذكره له ثانيًا على طريق الإبدال المنبئ عن تنحية المبدل منه ، إشارةً ثانيةً [3] إلى أن متعلق النسيان ليس نفس الحوت بل ذكر أمره ، وتقديم ﴿ ٱلْحُوتَ ﴾ كان للفت النظر إليه ، وإلى العجب الذي حدث في أمره .
- إيثار ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ على المصدر (ذِكره) للمبالغة ؛ فإن مدلوله نفس الحدث عند وقوعه ، فالحال وإن كانت غريبة لا يُعهد نسيانها ؛ لكنه لما تعوّد مشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وألفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها[4] .

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٢٣٣/٥ .
(٢) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٥٤/٢.
(٣) الإشارة الأولى عند قوله : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ .
(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبوالسعود : ٢٣٣/٥ .

وتعقيباً على ما علّله أبو السعود بأن يوشع بن نون قلّ اهتمامه بالمحافظة على تذكر حال الحوت ، فالظاهر أن النسيان خلاف ذلك! ولو قلّ اهتمامه بالمحافظة على هذه الحال ، ولم يذكر ذلك لسيّده لما كان هذا نسياناً بل كان تفريطاً لأن الأمر عظيم ، ولاختلف اعتراف الفتى بخطئه حينها ولم يسمه نسياناً ! بل العجيب فعلاً مع هول ما وقع أن يُنسى ، وهنا تتجلى الحكمة الإلهية إذ شاءت نسيان الفتى لهذا الحدث المعجز ؛ ليحصل لقاء موسى عليه السلام بالخضر ، ولهذا جاءت صيغة اعترافه بالاستفهام التعجبي ﴿ **أَرَءَيْتَ** ﴾ .

- وقوله : ﴿ **وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ** ﴾ أسلوب قصر ، طريقه النفي والاستثناء قُصرت فيه صفة النسيان على عمل الشيطان ، قصر صفة على موصوف ، كان ذلك لإبداء العذر لموسى عليه السلام ، وإسناد النسيان إلى الشيطان مجاز عقلي من الإسناد إلى السبب .

وقيل : إن النسيان كان منهما لقوله تعالى : ﴿ **نَسِيَا حُوتَهُمَا** ﴾ ، فنسب النسيان إليهما ، وذلك أن بدء حمل الحوت كان من موسى ؛ لأنه الذي أمر به ، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة فنزلا ، ﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَا** ﴾ ، يعني الحوت هناك منسيًّا ـ أي متروكاً ـ سأل موسى الغداء فنسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة[1] ، وذلك أدبٌ منه .

- وقوله : ﴿ **وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا** ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله ، وفي وضع المصدر ﴿ **عَجَبًا** ﴾ موضع الاسم الفاعل (عاجب) تفخيم للمعنى ، ومبالغة في إثباته ، وبلوغه المدى ، كرجل عدل ، مكان : رجل عادل [2] .

* * *

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٣/١١ .

(٢) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٥٥/٢.



المطلب الثاني

التأكيد

ومن صيَغ الاعتراف بالقول :

٢- التأكيد :

توطئة :

النفس الإِنسانية تنفعل بأحاسيس مختلفة يُرِيدُ الإِنسان التعبير عنها بالكلام ، فيظهر فيه ما يدلّ على بعض هذه الأحاسيس الأصول ، مثل : التَّوَجُّع ، والتَّفَجُّع ، والتَّعَجُب ، والمَدْح ، والذَّمّ ، والتَّحْذِير ، والإِغْراء ، والاستفهام ، والإِثبات ، والنفي ، والتأكيد ، وعلى كل إحساس من هذه الأحاسيس تنسجم الكلمات لتظهر المقصود ، وعند من يريد التأكيد مثلاً تحتشد المؤكدات في كلامه بحسب حاجته ؛ لتدل على مراده .

والأصل في الكلام لتأدية المعنى المراد أن لا تزيد كلماته عما يؤدّي أصل المعنى ، فإذا زادت عما يؤدي أصل المعنى المقصود بالبيان لغرض يقصد لدى البلغاء ، كان ذلك إطناباً مفيدًا ، كلما دعت الحاجة إليه ، كأن تكون الزيادة معه يقتضيها حال المتلقي للكلام ، أوحال المعبر عما في نفسه ، كعاشق ، أو فرح أو حزين .

ومن الزيادات في الكلام عن أصل المعنى المقصود بالبيان إضافة المؤكدات إليه مراعاة لحال من يوجه له(١) .

---

(١) ينظر : البلاغة العربية ، الميداني : ٥٤٧/١ .

و« التأكيد وتركه من الاعتبارات الراجعة إلى نفس الجملة »[1] .

حَدُّه :

حدّ عبد القاهر للتأكيد حدّاً فقال : « هو أن تُحقق باللفظ معنى قد فُهم من لفظ آخر قد سبق منك »[2] ، وعرفه القزويني بقوله : « لفظ يفيد تقوية ما يفيده لفظ آخر »[3] وعرّفه الكفوي : « هو أن يكون اللفظ لتقرير المعنى الحاصل قبله وتقويته »[4].

ولعل ما عرفه القزويني يمكن أن ينطبق على معنى التأكيد الذي قصدته ، فليس كل تأكيد يكون قد سبقه ما يقويه ، فقد يكون التأكيد ابتداءً لاسيما في صيغ الاعتراف إذ يسيطر عليها الموقف ونفسية المتكلّم فلا ترتبط بالتفكير ، والتعقّل ، وإمكانية قياس المخاطب ، ومدى إنكاره أو تقبُّله إلا فيما ندر .

و« الأصل أنك توجه كلامك إلى المخاطب ؛ لتبين له ما في نفسك خبرًا كان أو طلبًا وقد تعرض لك حال تستدعى أن تبرز ما يتلجلج في صدرك على صورة التأكيد ؛ لتفيد الكلام قوةً لا تكون له إذا ذكرته على غير صورة التوكيد »[5].

ارتباط التأكيد بأضرب الخبر :

والمشهور والبليغ في كلام العرب ألاَّ يستعمل التأكيد إلا بقدر الحاجة إليه ، لذا كان « ينبغي إذا كان قصد المخبر بخبره إفادة المخاطب أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة حذرًا عن اللغو .

---

(١) مختصر المعاني ، التفتازاني : ٢٢/١ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٧٩ .

(٣) الإيضاح : ٦٧/١ .

(٤) كتاب الكليات : ٤١٠ .

(٥) شرح ابن عقيل : ٣١٦/٤ .

١- فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم والتردد فيه ، أي لا يكون عالمًا بوقوع النسبة أو لا وقوعها ولا مترددًا في أن النسبة هل هي واقعة أم لا! وبهذا تبين فساد ما قيل إن الخلو عن الحكم يستلزم الخلو عن التردد فيه ، فلا حاجة إلى ذكره ، بل التحقيق أن الحكم والتردد فيه متنافيان ، فاستغنى على لفظ المبنى للمفعول عن مؤكدات الحكم ؛ لتمكن الحكم في الذهن حيث وجده خالياً .

٢- وإن كان المخاطب مترددًا في الحكم ، طالبًا له بأن حضر في ذهنه طرف الحكم ، وتحير في أن الحكم بينهما وقوع النسبة ، أو لا وقوعها حسن تقوية الحكم بمؤكد ؛ ليزيل ذلك المؤكد تردده ويمكن فيه الحكم .

٣- وإن كان المخاطب منكرًا للحكم وجب توكيده أي توكيد الحكم بحسب الإنكار قوةً وضعفًا ، فيجب زيادة التأكيد بحسب ازدياد الإنكار إزالةً له . ويسمى الضرب الأول : **ابتدائيًّا** ، والثاني : **طلبيًّا** ، والثالث : **إنكاريًّا** »[1].

من أساليب التأكيد :

- تقديم المسند إليه على المسند ، وتقديم متعلقات الفعل عليه [2] .
- القصر ، بطرقه .
- التخصيص بالذكر ، « فتخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد في أمر علق بهما ، كقوله تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ (لقمان:١٤) »[3].

---

(١) مختصر المعاني ، التفتازاني : ٢٨/١ .
(٢) ينظر : الإيضاح ، القزويني : ٥٩/١ .
(٣) السابق : ١٩٥/١ .

- ورود «الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية ، . . . فيُعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب التأكيد والمبالغة»[1].
- «كمال الاتصال بين الجملتين ، يكون لأمور ثلاثة :

الأول : أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى ، والمقتضى للتأكيد ، دفع توهم التجوز والغلط ، وهو قسمان **أحدهما** : أن تنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة التأكيد المعنوي من متبوعه في إفادة التقرير مع الاختلاف في المعنى .

وثانيهما : أن تنزل الثانية من الأولى منزلة التأكيد اللفظي من متبوعه في اتحاد المعنى .

الثاني : أن تكون الثانية بدلاً من الأولى ، والمقتضى للإبدال كون الأولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية ، والمقام يقتضي اعتناء بشأنه لنكتة ، ككونه مطلوبًا في نفسه ، أو فظيعًا ، أو عجيبًا ، أو لطيفًا»[2].

- بعض الفنون في الإطناب ، كالتكرير ، وغيره وفيه قال ابن الأثير : «أنعمت نظري في الإطناب ، وفي التكرير ، وفي التطويل ، فملكتني حيرة الشبه بينها طويلاً . . . ، وبعد أن أنعمت نظري في هذا النوع الذي هو الإطناب وجدت ضربًا من ضروب التأكيد التي يؤتى بها في الكلام قصدًا للمبالغة ، ألا ترى أنه ضرب مفرد من بينها برأسه لا يشاركه فيه غيره ؛ لأن من التأكيد ما يتعلق بالتقديم والتأخير ، تقديم المفعول وبالاعتراض ، كالاعتراض بين القسم وجوابه ، وبين المعطوف والمعطوف عليه وأشباه ذلك»[3].
- الفواصل القرآنية تكون في بعض الأحيان على هيئتها التي جاءت بها للتأكيد[4].

---

(١) المثل السائر ، ابن الأثير : ٢/٥١ .

(٢) الإيضاح ، القزويني : ١/١٤٨ .

(٣) المثل السائر : ٢/١١٩ .

(٤) ينظر : السابق : ٢/١٢٤ .

ولمّا كانت أساليب التأكيد واسعة الانتشار في الآيات ؛ صار من الصعب تقسيم الآيات وفقاً للأساليب في مطلب التأكيد ؛ لتكون الدراسة مقسّمة ، والتحليل أكثر انتظاماً ؛ لذلك كان المعتمد هو أدوات التأكيد .

أدواته [(١)] **:**

التأكيد يقع بالحرف وبالاسم :

ومن وقوعه بالحرف :

- نونا التوكيد الخفيفة والثقيلة [(٢)] .
- لام التأكيد [(٣)] ، ومنه القسم [(٤)] .
- (إنّ) و(أنّ) [(٥)] .
- (قد) [(٦)] .
- (إنما) [(٧)] .

ومن وقوعه بالاسم :

- « تأكيد المضمر بالمضمر .
- تأكيد المضمر بالمظهر .
- التأكيد بـ(نفس) و(عين) .
- التأكيد بـ(كل) و(أجمع) » [(٨)] .

---

(١) هي المعتدة في إدراج الآيات في هذا المطلب .

(٢، ٣) ينظر : حروف المعاني ، الزجاجي : ١/ ٣٠ .

(٤) ينظر : صبح الأعشى ، القلقشندي : ١٣/ ٢٠٢ .

(٥) ينظر : حروف المعاني ، الزجاجي : ١/ ٣٠ .

(٦) ينظر : السابق :١/ ١٣ .

(٧) ينظر : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، الفيومي : ١/ ٢٧ .

(٨) المفصّل في صنعة الإعراب ، الزمخشري : ١/ ١٤٥ .

دواعي التأكيد :

من جمال اللغة العربية وفاء الكلام بحاجة المتكلّم وبثقافة السامع والمخاطب ، فمن يفهم الكلام دون سابق إنكار لم يكن بحاجة لِيُضيف المتحدِّثُ إليه ما يؤكّد به كلامه ، ولكن المُنكر ، يُلجِئ المتكلّم لإثباتات ومؤكدات ، من دواعيها ما يأتي :

- « حالة الإنكار لدى من يوجه له الكلام ، وتزداد المؤكدات بحسب قوة الإنكار .
- حالة الشك والتردد لدى من يوجه له الكلام ، وتزداد المؤكدات بحسب قوة الشك والتردد .
- تنزيل غير المنكر وغير الشاك منزلة أحدهما ، إذا ظهرت عليه علامات الإنكار أو الشك ، أولم يعمل بمقتضى علمه بحسب ما لديه من ذلك .
- دفع توهم المجاز .
- تقرير الكلام وتمكينه وتثبيته ، مراعاة لمضمون الكلام الذي تتطلب طبيعته تقريراً وتمكينا ، أو مراعاة لحال من يوجه له الكلام .

إلى غير ذلك من دواعٍ بلاغية ، كالترغيب ، والترهيب ، والإطماع .

وقد يترك التأكيد مع إنكار من يوجه له الكلام لداع بلاغي آخر أقوى ، كأن يكون الكلام مقترناً بأدلة قوية ظاهرة لو تأملها لرجع عن إنكاره »(١) .

وجاء التأكيد في آيات الاعتراف بأربع طرق :

١- باستعمال القسم .

٢- بالحرف (إنّ) .

٣- بنون التوكيد الثقيلة .

٤- بالحرف (قد) .

---

(١) البلاغة العربية ، الميداني : ٥٥٢ .

وسأدرس شواهد كل طريق وأثره في الاعتراف ، أسأل الله التوفيق .

١- التأكيد باستعمال القسم :

ممّا يضيف إلى التأكيد قوة ارتباطه باسم الحق جل جلاله ، و« يختصر العرب عباراتِ القَسَم فَيَحْذِفون منها فعل القَسَمِ ، ويشيرون إليه بأداةٍ كحرف القَسَم ، مثل : (واللهِ ـ باللهِ ـ تَاللهِ) . . . ،والغرضُ من إنشاء الْقَسَمِ تأكيد الجملة الخبريَّة »(١).

وقد ورد الاعتراف مبتدءاً بالقسم في موضعين :

١- قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف: ٩١) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٩٦-١٠٢) .

يميّز الاعتراف الذي ورد مؤكدًا بالقسم أن صياغته كانت بـ(تالله) ، وحرف التاء إحدى حروف القسم غير أن تميّزًا طبع أثره على الاعتراف ، فنقف معها لعلنا نكشف شيئاً من أسرارها .

القسم بصيغة (تالله) :

جاء التعبير بـ « تالله » قسمًا في القرآن الكريم تسع مرات (٢) ، ستةٌ من هذه المواضع كان على لسان المفرطين ، تُرى ما مزية هذه الصياغة من الحلف؟!

---

(١) البلاغة العربية ، الميداني : ١٧٢ .

(٢) أربعة منها في سورة [يوسف :٧٣-٨٥-٩١-٩٥] ،وآيتان في [النحل:٥٦-٦٣] ، وآية واحدة في [الأنبياء :٥٧] ، وواحدة في [الشعراء:٩٧]، وواحدة في [الصافات:٥٦] .

يتفرّد حرف التاء أنه لا يتصل إلا باسم الجلالة[1] ، وأن هذا الاتصال يتولّد عنه إفادة معنى التعجب ، إذ «لا يجوز حذف التّاء من (تالله) ؛لأنه لما دخله معنى التّعجب بإدخال التّاء كرهوا إسقاط حرف المعنى ، وربما استعمل ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ في غير معنى التّعجب إلاّ أنك إذا أردت التّعجب لم يجز إسقاط التّاء»[2] ، ومن هنا يبرز أثر هذه الصياغة على الاعتراف حيث أكسبت كلمات المقصّر تعجّباً ؛ ففي كلا الموضعين ظهرت الدهشة في الاعترافات جليّة ، فعند إخوة يوسف عليه السلام كان العجب من مآل يوسف عليه السلام وتأييد الله له حتى صار إلى ما صار إليه يسود الموقف ، وهو ما دفعهم للاعتراف .

وفي نار جهنم عندما رأى المشركون أهوال القيامة ، ثم استقر بهم الحال في سوء المصير في نارٍ تلظى ، وتلاحقت أنفاسهم مع أحداث عصيبة ، كانوا يظنون أن شركاءهم سيدفعونها عنهم فتفاجؤوا أنهم جميعاً في نفس المأوى ، أخذ الندم بهم كل مأخذ ، ورأوا عظمة الجبار سبحانه ، فكان الحلف بـ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ يحكي عنهم ذلك العجب الذي اعتراهم من عقولهم القاصرة ، التي ساوت من هذه قدرته وملكوته سبحانه بعبيد ضعفاء لا يملكون حولاً ولا قوة!

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف: ٩١) .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- في سورة يوسف عليه السلام نلحظ مفاجأة الإخوة بنجاة أخيهم ترجمتها ألفاظهم ندماً على ما كان منهم بقولهم : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ بدءاً باستعمالهم لصيغة القسم ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ بما تحمله من معنى التعجب ، وبما يحمل القسم من الثقة والتأكيد لكلامهم .

---

(١) ينظر : الكتاب ، سيبويه : ٢٩٣/١ .

(٢) المخصص ، ابن سيده : ١٧٨/٣ .



- وزيادة في تأكيدهم لهذا لإيثار الله له دخلت « لقد » على اعترافهم فأفادت الجزم والصدق لمقالتهم .
- الإطناب باستعمال المؤكدات في لحظة صدمة ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ ، و﴿ لَقَدْ ﴾ يجعل من الاعتراف مصدر تأمل ، وهي لحظة في الغالب تسكنها الدهشة ، فلا يكاد المرء يستجمع أنفاسه لينظم حروفه! ، لكنّ غلبة الندم على النفس مع عهدٍ طويل من الكيد ، وحضورٍ لموقفٍ يُرقق القلوب المتحجرة ، ويُنطق الألسنة المتجبّرة ، فكأن هذه الإطالة تلذّذٌ بخطاب يوسف عليه السلام ، وتأكيد لحقه عليهم بوصفه أخًا طالما بخسوه حقه .

و« في أسلوب القسم بـ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ وما تبعها من مؤكدات تعجبٌ واستغرابٌ من الفرق الكبير بين ما كان متوقعاً في مثله ، وما صار إليه حاله ؛ وإنه لأمر عجيب وبعيد كل البعد أن ينجو من كان في عداد الهالكين ، ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى أن يكون عزيز مصر ، ثم ماذا؟ ثم يكونون فيمن يسألونه ويتذللون بين يديه ، ثم ماذا؟ ثم يهيمن عليهم بكيده المحكم ليأخذ عونه وعطيته ، أليس ذلك عجيباً في مثل قصتهم مع أخيهم يوسف!! »[1] .

- وقولهم : ﴿ ءَاثَرَكَ ﴾ تخفي في مد ألفها طول الحسرة والألم الذي أصابهم ، والتعبير بها دون غيرها مثل : رفعك ، أو نجّاك بليغ ، حيث إنها « لفظ يعم جميع التفضيل وأنواع العطايا »[2] ، « ويستعار الأثر للفضل والإيثار للتفضل ومنه آثرته .. »[3] ، و ﴿ ءَاثَرَكَ ﴾ أخف من فضّلك[4] فكان استعمالها حكايةً عنهم بعد التعب النفسي باتهامهم بالسرقة وما حدث جرّاء ذلك أبلغ .

---

(١) أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية ، علي الحارثي : ٣٠٢ .
(٢) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٤/٤١ .
(٣) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ١/٩ .
(٤) ينظر : الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٢/٣٨٢ .

- قوله تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾ الآية ، هذا استنزال منهم ليوسف عليه السلام ، وإقرار بالذنب في ضمنه استغفار منه [١] .
- عرفوا أن الله مدبر الأمر فاعترفوا له بالفضل والمنة بقولهم : ﴿ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ ﴾ ، وعرفوا أنه من يشأ الله يرفعه ومن يشأ يخفضه ، فانخفاض يوسف في البئر كان سلّماً لارتفاعه على العرش ، فسبحان الرافع الخافض .
- قولهم : ﴿ عَلَيۡنَا ﴾ تأكيد لمعنى الرفعة التي نالها يوسف عليه السلام ، واعترافهم أنهم صاروا في الأسفل ، وهذا عاجل عقوبتهم من جنس عملهم حيث أرادوا أن يخلُ لهم وجه أبيهم بالمعصية فانقلب الحال عليهم .
- وقولهم : ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ : جملة مؤكِّدة لذات المعنى الذي أثبته الموقف أولاً ونطقت به ألسنتهم ثانياً في قولهم : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾ ، و ﴿ لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ «من خَطِئ يَخْطَأُ ، وهو المتعمد للخطأ ، والمخطئ من أَخْطَأ ، وهو الذي قصد الصواب فلم يوفق إليه» [٢] .

والقضية التي يراد إثباتها هنا ليست مما يحتاج إلى تأكيده عند المخاطب ؛ لأن يوسف عليه السلام أعلم بما آتاه الله من فضل ، ثم هو أكثرُ علماً بالحكم بكونهم خاطئين ، فهو الذي تحمل تبعات ما صنعوا ، فالمؤكدات في هذا المقام لم ترد لتأكيد المقسم عليه في ذهن المخاطب ، بل لتأكيد ما تضمنه المقسم عليه من الاعتراف بالذنب ، والندم عليه ، والتوبة منه ، والاعتذار عنه ، والاستغفار وطلب الصفح والإحسان .

وقد أثّرت هذه المؤكدات ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ على الصياغة بكونها أعطت قيمةً في إيجاز الانفعالات النفسية ، والمشاعر المتوارية في صدور المتكلمين ، فهذه العناصر المؤكدة : (القسم ، واللام ، وقد ، والتقديم والتأخير) قائمةٌ مقام التصريح بجملٍ متعددةٍ ، تعبر كلٌّ منها عن واحدٍ من تلك المعاني المضمرة في نفوسهم ، كما أن لهذه المؤكدات

(١ ، ٢) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٤/٤٠ .

قيمةً في تصوير تلك المعاني كما هي في نفوس المتكلمين ؛ وذلك أنهم في هذا المقام قد أدركوا من إيثار الله تعالى ليوسف عليه السلام مالم يدركوه من قبل ، واستيقنته أنفسهم ؛ فجرى في كلامهم الإفصاح عنه في أقوى صور التأكيد، كما أيقنته نفوسهم ثم أقروا بكونهم مذنبين في صورة مؤكدة أيضاً ، لأنهم لم يشعروا ببشاعة جرمهم من قبل كما شعروا بها في تلك اللحظة ، ولم يستيقنوا خطأهم كما استيقنوه في ذلك الموقف ، فجاء الإفصاح عنه مصرحاً به في أقوى مظاهر التأكيد[١] .

وقول إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ **تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ يشير التعبير بالقسم ﴿ **تَٱللَّهِ** ﴾ وما بعدها ـ مع كونه اعترافاً ليوسف بالفضل ـ إلى قدرٍ غير يسيرٍ من التعجب ، والاستغراب ، والاستبعاد في آن ؛ ففيه تعجبٌ واستغرابٌ من نجاته من ذلك الكيد الذي لا يكاد ينجو منه أحد ، وقد كانوا يستبعدون ذلك كل البعد[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الشعراء:٩٦-١٠٢) .

وقفة مع المعنى :

اعتراف المشركين :

وأما اعتراف المشركين في نار جهنم في قوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾**

---

(١) ينظر : أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية ، علي الحارثي : ٣٠٠ .
(٢) ينظر : السابق : ٣٠٢ .

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٩٦-١٠٢) ، فحسرة عظيمة ، واعتراف أليم بعد العذاب الذي نالهم في قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ ، إذ معنى ﴿ فَكُبْكِبُواْ ﴾ : رُمي ببعضهم في الجحيم على بعض ، وطُرح بعضهم على بعض ...، وأصل كبكبوا : كببوا ، ولكن الكاف كُرِّرتّ [١] ، و « كَبَبْتُ القَصْعَةَ قَلَبْتُها على وجْهِها » [٢] ، وهذا التكرار البديع فـي الحروف ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ مع الضم في الكاف ثم سكون الباء ، وكسر الكاف الثانية ، يلهم المتأمل تصوّراً بالانقلاب ، ويشعر بمراحل السقوط ، وهذه الصورة البديعة تجعل اعترافهم بعد العذاب الذي نالوه أكثر صدقاً وانكساراً .

وكانت طبيعة الاعتراف خصومةً بينهم وبين من اتبعوهم من الشركاء ، من قوله تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ ، والخصومة الجَدَلُ [٣] ، و « الجدَل : مُقابَلة الحُجَّة بالحجَّة . والمُجَادَلَةُ : المُناظَرةُ والمخاصَمة » [٤] ، وما أشد وجع الخصومة والنار تأكل جلودهم ، وحرارة اللهب تزيد الخصام حدةً ، نسأل الله السلامة ، وسيجري الحديث عن هذا المقام مفصّلاً في سياقات الاعتراف في الفصل الأول من الباب الثاني إن شاء الله [٥] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- أقسموا بالله أنهم كانوا في ضلالٍ حين رأوا ما وصلوا إليه من سوء الحال في نار جهنم ، « وجيء في القسم بالتاء ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ دون الواو ؛ لأن التاء

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٣٦٧/١٩ .
(٢) لسان العرب ، ابن منظور : ٦٩٥/١ ، مادة (كَ بَ بَ) .
(٣) السابق : ١٨٠/١٢ ، مادة (خَ صَ مَ) .
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير : ٧٠٧/١ ، مادة (جَ دَ لَ) .
(٥) ينظر : ص ٣٧١ .

تختص بالقسم في شيءٍ متعجَّبٍ منه»[1] كما سبقت الإشارة لذلك[2] ، وبدأ الاعتراف مع الخصوم حين التقوا في ذلك المصير إذ عرفوا عظمة الخالق سبحانه ، وأيقنوا أن الله لا يغفر أن يشرك به ، ورأوا جمع المشركين من الخلائق أجمعين من مبدأ الخلق حتى قيام الساعة ، فأدركوا حينها أنه الله رب العالمين لا شريك له ، وبدأ اللوم وأخذت أماني النجاة تتصاعد منهم شعوراً وقولاً .

- قولهم : ﴿ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ : «التسوية : المعادلة والمماثلة ، أي : إذ نجعلكم مثل رب العالمين ، فالظاهر أنهم جعلوهم مثله مع الاعتراف بالإلهية ، وهو ظاهر حال إشراكهم ، . . .وضمير الخطاب في ﴿ نُسَوِّيكُم ﴾ موجهٌ إلى الأصنام ، وهو من توجيه المتندمِ خطابه إلى الشيءِ الذي لا يعقل ، وكان سبباً في الأمر الذي جر إليه الندامة ، بتنزيله منزلة من يعقل ويسمع ، والمقصود من ذلك المبالغة في توبيخ نفسه ، وصيغ ﴿ نُسَوِّيكُم ﴾ في صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة حين يتوجهون إلى الأصنام بالدعاء والنعوت الإلهية» [3] .
- وقولهم : ﴿ بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ تُشعر بمدى حسرتهم على التفريط في صرف عبادتهم القلبية والجسدية لمن هو رب العالمين ، ومستحق العبادة وحده سبحانه .
- وقولهم : ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ «خطاب بعض العامة لبعض ، وعنوا بالمجرمين أئمة الكفر الذين ابتدعوا لهم الشرك واختلقوا لهم ديناً ، والمناسب أن يكون التعريف في ﴿ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ مستعملاً في كمال الإجرام فإن من معاني اللام أن تدل على معنى الكمال» [4] ، ويشعرنا

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١/٣٠٢٤ .

(٢) ينظر : ص ١٣٠ .

(٣، ٤) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١/٣٠٢٤ .

هذا المعنى مع الاستثناء ﴿ إِلَّا ﴾ بكمال التبرؤ الحاصل منهم يومئذ بعد أن كانوا لهم أتباعاً ، انقلب الولاء إلى براء ، وخاب ظنهم بمن علّقوا عليهم الآمال ليكونوا لهم شفعاء ، فقالوا متوجعين على حالهم : ﴿ **فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** ﴾ [1] .

- الجمع في ﴿ **شَافِعِينَ** ﴾ والإفراد في ﴿ **صَدِيقٍ** ﴾ :

و« المراد نفي جنس الشفيع وجنس الصديق ؛ لوقوع الاسمين في سياق النفي المؤكد بـ ﴿ **مِن** ﴾ الزائدة ، وفي ذلك السياق يستوي المفرد والجمع في الدلالة على الجنس ، وإنما خولف بين اسمي هذين الجنسين في حكايةِ كلامهم إذ جيء بـ ﴿ **شَافِعِينَ** ﴾ جمعاً ، وبـ ﴿ **صَدِيقٍ** ﴾ مفردًا ؛ لأنهم أرادوا بالشافعين الآلهة الباطلة ، وكانوا يعهدونهم عديدين فجرى على كلامهم ما هو مرتسمٌ في تصورهم .

وأما الصديق فإنه مفروضٌ جنسه دون عدد أفراده ، إذ لم يعنوا عددًا معيناً ، فبقي على أصل نفي الجنس ، وعلى الأصل في الألفاظ ، إذ لم يكن داعٍ لغير الإفراد .

والذي يبدو أنه أوثر جمع ﴿ **شَافِعِينَ** ﴾ ؛ لأنه أنسب بصورة ما في أذهانهم كما تقدم ، وأما إفراد ﴿ **صَدِيقٍ** ﴾ ؛ فلأنه أريد أن يجرى عليه وصف ﴿ **حَمِيمٍ** ﴾ فلو جيء بالموصوف جمعاً لاقتضى جمع وصفه ، وجمع ﴿ **حَمِيمٍ** ﴾ فيه ثقلٌ لا يناسب منتهى الفصاحة ، ولا يليق بصورة الفاصلة ؛ مع ما حصل في ذلك من التفنن الذي هومن مقاصد البلغاء ثم فرعوا على هذا التحسر والندامة تمني أن يعادوا إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم في الإيمان بالله وحده » [2].

كما أن من حِكم الإفراد والجمع هنا ما ذكره السيوطي : كثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق [3] ، وقال الزمخشري : « وأما الصديق ، وهو الصادق في

(١، ٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١/٣٠٢٤ .

(٣) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٥٦٥ .

ودادك الذي يهمه ما أهمّك فأعز من بيض الأنْوَق ، وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : اسم لا معنى له»[1] ، وإفراد (الصديق) كان مشيراً لذلك أيضًا في قوله تعالى : ﴿ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ (النور:٦١) ، «ولم يرد لفظ الصديق في آيات الذكر الحكيم إلا في هذين الموضعين ، ولعل في هذا ما يشعر بندرة الصديق الحميم ، وقلة وجوده» [2].

ولحظة الاعتراف تجتمع فيها مشاعر الضعف والانكسار مع الرغبة في الاحتماء بمأوى آمن يطمئن القلب، ويهدئ الروح، ولذلك يأتي تذكّر الشافعين والصديق ، وتكون البلاغة بالجمع في الأولى والإفراد في الثانية جلية ، إذ يحكي موقفهم تلك الحاجة التي تجعلهم يبحثون عن هؤلاء الصنفين اللذين وردا في الآية تحديداً .

- التعبير بـ ﴿ حَمِيمٍ ﴾ صفة للصديق دون : (رفيق) أو (حنون) بليغ ، فمعنى الاحتمام بالليل من الهمّ ، وأحَمَّني الأمر : أهمَّني [3] ، قولنا : احتم فلان لفلان ، أبلغ من اهتم لما فيه من معنى الاحتمام[4]، وتُشعر ﴿ حَمِيمٍ ﴾ في آخر حسرتهم بقدر التعب والغم والهم الذي يلقونه في نار جهنم ، والتعذيب المضني الذي لا طاقة لهم به فيتمنون لو يحمل أحدٌ الهمّ عنهم .
- اختيار صفة ﴿ حَمِيمٍ ﴾ للصديق تذكّر بمقامهم ذلك اليوم حيث قال الله تعالى في عذابهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ (الصافات:٦٧)، وقال تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ (الرحمن:٤٤) ، وغيرها من الآيات

---

(١) الكشاف : ٥/٢٢ .
(٢) من بلاغة النظم القرآني ، دكتور بسيوني فيود : ٢٤، ٢٥ .
(٣) ينظر : المخصص ، ابن سيده : ٨٧ .
(٤) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ١/١٣٠ .

كثير ، و« الحميم : الماء الشديد الحرارة »[1] ، فكأنهم مع شدة حرارة الماء ، وشدة حرارة الظل[2] الذي وصف الله في قوله : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ (الواقعة:٤٣) ، تذكروا حلاوة قرب الصديق ، وبردَ مواساته ، فالصديق في الدنيا كالماء والظل لصديقه .

ومن اللافت للنظر أنهم وصفوا (الصديق) في هذه الحسرات ، ولم يصفوا (الشافعين) ولعلّ هذا يرجع لسبب الإفراد والجمع ، إذ إن الواحد يصدق عليه الوصف لتفرُّده وقربه من القلب وشدة المعرفة به ، بينما يندر أن تتصف الجماعة كلها بوصف يصدق عليهم جميعاً بالدرجة نفسها .

- قولهم : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ : هنا تتحدث (لو) عن مدى معاناتهم ، فهي لتمني[3] الرجعة ليؤمنوا بالله ، ولا تنفع الأمنيات عند حصول الندامات ، وقد يأتي التمني بغير الأداة الموضوعة له وهي (ليت) لداعٍ بلاغي يقتضيه المقام ، فقد يأتي بـ (لو) ، فعدل عن التمني بـ (ليت) إلى التمني بـ(لو) في الآية الكريمة إشعاراً بزيادة المتمني بعداً واستحالة ، فإن (لو) في الأصل حرف امتناع لامتناع ، ولذا فإن التمني بها يجعل المتمني أكثر بعداً ، وأشد امتناعاً وإباءً[4] .
- لعل قولهم : ﴿ فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دون التعبير بـ: (لنؤمن) أو ما سواها ؛ يظهر فيه الحنين للصحبة التي تمنوها في تعبيرهم السابق ، فقد اشتاقوا للجماعة التي يُفخر بها ، وتنفع المقصر في ذلك اليوم العصيب ، ولعل حسرتهم تزداد عندما يرون زمرة المؤمنين قد حُشروا سويًّا ، وسيقوا إلى الجنة معًا ، حينها يتمنون لو كانوا منهم ، نسأل الله أن يحشرنا في ركب المتقين الأخيار .

* * *

(١، ٢) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ١/١٣٠ .

(٣) ينظر : الكنز الثمين : ٤/١٨٨ .

(٤) ينظر : من بلاغة النظم القرآني ، دكتور بسيوني فيود : ١٨١ .

٢- التأكيد بالحرف (إنّ) :

(إنّ) و(أنّ) معناهما التأكيد[١] ، و« إفادة التأكيد مما يهم البلاغيين التنبيه عليه ، ولا يخفى على الأديب ذي الحس المرهف تصيد الأغراض البلاغية والأدبية التي يرمي إليها البلغاء،مما يختارون في استعمالاتهم من هذه النواسخ، فمع تربية الفائدة بما تشتمل عليه من دلالات تفهم من أوضاعها اللغوية نلاحظ أنه قد يشار بها إلى معان بلاغية ، ويمكن القياس عليها ، فقد يؤكد بـ« إن » أو « أن » لتنزيل المخاطب منزلة المنكر أو الشاك »[٢].

وقد تكلم عبد القاهر في التأكيد بـ(إن) بكلام سديد بقوله : « هل شيء أبين في الفائدة ، وأدل على أن ليس سواء دخولها ، وأن لا تدخل من أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها ، وتأتلف معه ، وتتحد به ، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغًا واحدًا ، وكأنّ أحدهما قد سبك في الآخر ، . . . حتى إذا جئت إلى (إن) فأسقطتها رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول ، وتجافى معناه عن معناه ، ورأيته لا يتصل به »[٣].

« ومن تأثير (إن) في الجملة أنها تغني إذا كانت فيها عن الخبر في بعض الكلام ، لإضمارك ما يكون مستقرًّا لها ، وموضعًا لو أضمرته وليس هذا المضمر بنفس المظهر ، وذلك (إن مالاً وإن ولدًا وإن عددًا) أي : إن لهم مالاً ، فالذي أضمرت هو (لهم) ، ويقول الرجل للرجل : هل لكم أحد إن الناس ألْبٌ[٤] عليكم؟ فيقول : إن زيدًا وإن عمرًا أي لنا . . . ، فقد أراك في هذا أن الخبر محذوف ، وقد ترى حسن الكلام وصحته مع حذفه ، وترك النطق به ،

---

(١) ينظر : التحفة الوفية ، السفاقسي : ٢٢ .

(٢) البلاغة العربية ، الميداني :٣٥٩/١ .

(٣) دلائل الإعجاز ، الجرجاني : ٢٤٢ .

(٤) تُقال إذا اجتمعوا على عداوته ، وتألّبوا عليه ، واستنجدوا عليه غيرهم . ينظر : أساس البلاغة ، الزمخشري : ٢٠/١ .

ثم إنك إن عمدت إلى (إن) فأسقطتها وجدت الذي كان حسن من حذف ، . . . وذلك أن (إن) كانت السبب في أن حسن حذف الذي حذف من الخبر ، وأنها حاضنته والمترجم عنه والمتكفل بشأنه . . . »[1].

« ومن لطيف مواقعها أن يدعى على المخاطب ظن لم يظنه ، ولكن يراد التهكم به ، وأن يقال : إنّ حالك والذي صنعت ، يقتضي أن تكون قد ظننت ذلك .

وأما جعلها إذا جمع بينها وبين (اللام) نحو : (إن عبد الله لقائم) للكلام مع المنكر فجيد ؛ لأنه إذا كان الكلام مع المنكر كانت الحاجة إلى التأكيد أشد ، وذلك أنك أحوج ما تكون إلى الزيادة في تثبيت خبرك إذا كان هناك من يدفعه وينكر صحته ، إلا أنه ينبغي أن يعلم أنه كما يكون لإنكار قد كان من السامع ، فإنه يكون للإنكار أو يُرى أن يكون من السامعين ، وجملة الأمر أنك لا تقول : إنه لكذلك حتى تريد أن تضع كلامك وضع من يزغ فيه عن الإنكار »[2].

وشواهد التأكيد بـ(إنّ) ثلاثة ، وهي :

١- قوله تعالى : ﴿ **قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ** ﴾ (الأعراف:٧٦) .

٢- قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ۝٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا** ﴾ (الجن:٤-٩).

(١، ٢) دلائل الإعجاز ، الجرجاني : ٢٤٢ .

٣- قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ (القلم:٢٦-٣٢).

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (الأعراف:٧٥،٧٦) .

وقفة مع المعنى :

المكذبون من قوم صالح عليه السلام قالوا مقولتهم تلك وعقروا الناقة ، و« التّعقيب في كلّ شيء بحسبه ، وذلك أنّهم حينَ قالوا ذلك كانوا قد صدعوا بالتّكذيب ، وصمّموا عليه ، وعجزوا عن المحاجة والاستدلال ، فعزموا على المصير إلى النّكاية والإغاظة لصالح عليه السّلام ومن آمنَ به ، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على النّاقة »[1].

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ « تدلّ على تصلّبهم في كفرهم وثباتهم فيه ، إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسميّة المؤكّدة ، والموصول في قولهم : ﴿ بِٱلَّذِىٓ ﴾ هو ما أرسل به صالح عليه السّلام ، وهذا كلام جامع لرد ما جَمعه كلام المستضعفين : ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ فهو من بلاغة القرآن في حكاية كلامهم ، وليس من بلاغة كلامهم .

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٢٣/٨ .

ثمّ إنّ تقديم المجرورين في قوله : ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ ﴾ و ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ على عامليهما يجوز أن يكون من نظم حكاية كلامهم ، وليس له معادل في كلامهم المحكي ، وإنّما هو لتتقوّم الفاصلتان ، ويجوز أن يكون من المحكي : بأن يكون في كلامهم ما دلّ على الاهتمام بمدلول الموصولين ، فجاء في نظم الآية مدلولاً عليه بتقديم المعمولين »[1].

- وفي التعبير بالاسم الموصول : ﴿ بِٱلَّذِىٓ ﴾ بلاغة فريدة ، إذ المستكبرون لمّا حجبهم الكِبر عن الإيمان بصالح عليه السلام ودعوته ، استمرّت معهم الغطرسة عن احترام مقام الأنبياء وتقديرهم ، فلم يذكروا اسم صالح عليه السلام ودعوته التي جاء بها من ربه عز وجل ، فلعل الاكتفاء بالاسم الموصول يشير إلى هذا ، وفي التعبير به أسرار عظيمة كما قال عبد القاهر : « اعلم أن لك في (الذي) علماً كثيراً ، وأسراراً جمة ، وخفايا إذا بحثت عنها ، وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس ، وتثلج الصدر ، بما يفضي بك إليه من اليقين ، ويؤديه إليك المعنى من حسن التبيين »[2].

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾

(الجن: ٤-٩) .

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٨/٢٢٣ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٩٩ .

وقفة مع المعنى :

اعترف الجن في هذه الآيات بما كانوا يقترفونه من الذنوب قبل لحظة إيمانهم ، وهذه الآيات من سورة الجن فيها « يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يخبر قومه : أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به ، وصدقوه ، وانقادوا له »[١] ، فكان من اعترافاتهم علمهم أن إبليس كان يقول « قولاً جائراً عن الصواب ، متعديًا للحد ، وما حمله على ذلك إلا سفهه ، وضعف عقله ، وإلا فلوكان رزينًا مطمئنًا لعرف كيف يقول! »[٢].

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

- تكرار (أن) مع ضمير الشأن تارة (ـه) ، ومع ضمير المتكلمين (نا) تارة ، في اعتراف الجن له دلالة على تأكيد قولهم ، و« تأكيد الخبر بـ (إن) سواء كانت مكسورة ، أو مفتوحة ؛ لأنه مسوق إلى فريق يعتقدون خلاف ذلك من الجن »[٣].
- نلحظ في قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا** ﴾ (الجن:٣) « بعدما وصفوه تعالى بالتعالي عن الشريك والولد والصاحبة وصفوا من قال بضد ذلك صيانةً لدينهم ، وبراءة منهم ﴿ **وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا** ﴾ (الجن:٤) وفي هذه الآية تقدم الجار والمجرور ﴿ **عَلَى ٱللَّهِ** ﴾ (الجن:٤) على المفعول به ، وهذا التقديم أفاد التعجب أن يقال على الله شططًا ، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال ، وأن هذا الأمر قد يجوز على غيره ، أما هو فهذا عين الاستغراب ، ولذا قُدّم اسم الجلالة »[٤]، والهاء في (أنه) غرضها « الأمر أو الحديث ، . . . والشطط

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٢٣٧/٨ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٨٨٠ .

(٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٢٢/٢٩ .

(٤) دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، منير المسيري : ٦٧٦ .

والاشتطاط : الغلو في الكفر ، . . . وأصله : البعد ، فيعبر به عن الجور ؛ لبعده عن العدل ، وعن الكذب ؛ لبعده عن الصدق»[1].

- تخيّر اللفظ في كلمة (الرّهَق) ومعناها :«جهلٌ في الإنسان وخفةٌ في عقله ، والرهق غشيان المحارم . . .»[2]، وأضيفت الزيادة إلى الجن «لأنهم كانوا سببًا لها ، فازداد الإنس بهذا فرقًا وخوفًا من الجن ، وقال مجاهد أيضًا : ﴿ فَزَادُوهُمْ ﴾ أي : إن الإنس زادوا الجن طغيانًا بهذا التعوذ»[3].

- ﴿ لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ ﴾ «اللمس : المس ، فاستعير للطلب ؛ لأن الماس طالب متعرف»[4]، وإنما كان التعبير بها سلوكًا للجن مع السماء «استعارةً لتجربتهم أمرها ، وتعرضهم لها ، فسمي ذلك لمساً إذ كان اللمس غاية غرضهم»[5]، ومقصودهم : «طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿ فَوَجَدْنَـٰهَا ﴾ قد ﴿ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ أي حفظة ، يعني الملائكة ، والحرس : جمع حارس ﴿ وَشُهُبًا ﴾ جمع شهاب ، وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السمع ، ووُحِّد الشديد على لفظ (الحرس)؛ وهو كما يقال : السلف الصالح بمعنى الصالحين ، وجمع السلف(أسلاف) ، وجمع الحرس (أحراس)، ويجوز أن يكون ﴿ حَرَسًا ﴾ مصدرا على معنى : حرست حراسة شديدة»[6]، وعبّر بعد ذلك بالشهب ؛ لأنها الكواكب التي رُموا بها ، ويحتمل أنها الملائكة وإنما تكرر المعنى مرة بالحرس ومرة بالشهب للتنوّع [7].

---

(١) جامع البيان ، الطبري : ٩/١٩ .

(٢) ومعاني الرهق تزيد عن ذلك في المصدر نفسه ، لسان العرب ، ابن منظور : ١٢٨/١٠ ، مادة (رَ هـَ ق) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٢/١٩ .

(٤) الكشاف ، الزمخشري : ٦٢٥/٤ .

(٥) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٣٥١/٥ .

(٦) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٤٤/٩ .

(٧) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٣٥١/٥ .

-﴿ **وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا** ﴾

اعترفت الجن بذنبهم من استراق السمع للغيب ، فمردة الجن كانوا يقعدون مقاعدَ لاستماع الأخبار من السماء ؛ فيستمعون لها من الملائكة في السماء حتى يلقوها إلى الكهنة ، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله ﷺ بالشهب المحرقة ، فقالت الجن حينئذ : ﴿ **فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا** ﴾ يعني بالشهاب : الكوكب المحرق[1] .

- ويظهر في الآيات دقة اختيار الكلمة القرآنية التي تدل على اختلاف الحال بين وقت التقصير ، وبين التوبة والاعتراف ، فالحال بعد التوبة هو استشعار الخطأ من الجن والخوف من الاقتراب من السماء بعد حراستها فجاء التعبير ﴿ **لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ** ﴾ ، واعترفوا أن حالهم قبل حراستها ﴿ **وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ** ﴾ فـ(القعود) كان وقت الخطأ وفعل الذنب ، وبعد أن تغيّر الحال إلى حراسة السماء بالشهب عُبّر بـ(اللمس) ؛ لأنهم لم يتمكنوا من القعود المعتاد ، فباقتراب يسير ﴿ **لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ** ﴾ وجدوا السماء مُلِئَتْ بالحراسة .
- لعل في تقديم الجار والمجرور ﴿ **مِنْهَا مَقَـٰعِدَ** ﴾ : الاهتمام بالسماء ، ففي الآية تقديم مكان القعود ﴿ **مِنْهَا** ﴾ على المفعول به ﴿ **مَقَـٰعِدَ** ﴾ .
- طول عهدهم بالذنب ، وصدق توبتهم بعده إذ كان استماعهم بهيئة تمكّنهم من القعود ، لا بمجرد الوقوف ، فلم يكن قبل البعثة ملائكة ترميهم بالشهب حال استماعهم ، فتمكن هذا الفعل منهم (نقعد مقاعد) ، وهنا يكون الاعتراف من المقصّر صريحاً دالاًّ على التغيير الجاد الظاهر في الآيات بعد إيمان هؤلاء النفر من الجن .

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٢/١٩ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ (القلم:٢٦-٣٢) .

وقفة مع المعنى :

فتنة الدنيا وزينتها تعمي القلوب ، وتجعل منها مأوى للأهواء ، إذا ما استسلم لها الإنسان رمت بشباكها على روحه وأسرتها ، وهذا ما حصل لأصحاب الجنة ، حيث اغتروا بالنعيم الذي أهداه الله لهم فتعاهدوا وهم في الطريق إلى مزرعتهم ذات صباح ألا يُدخلوا مسكيناً عليهم تأكيداً لما تعاهدوا عليه ليلاً ألا يستثنوا من ثمر المزرعة شيئاً للمساكين [١]، فسبقهم إلى مزرعتهم غضب الله واستأصل زرعهم فانقلبت بهجة دنياهم إلى كآبة ليلٍ حالك ، وغدت سعادتهم بجنتهم تعاسة ، فما كان منهم حين رأوا ما حدث لها إلا أن يتذكروا ما قالوه من حرمان المساكين من الاستمتاع بمال الله الذي جعله تحت أيديهم فقالوا : ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ وهنا يُشعر ابتداء اعترافهم بشتات النفس وتيهها ، فمرة جاءت كلمة (الضلال) بما يعنيه من مجانبة الهدى والرشاد[٢]، ومرة كلمة (الحرمان) كأنما فشعروا أنها الأكثر مناسبة لحالهم حيث قالوا معها : ﴿ بَلْ نَحْنُ ﴾ ، وأخيراً لفظ (الطغيان) حيث كان الأقوى معنىً ، فناسب ما كانوا عليه !

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ إِنَّا ﴾ : أضاف التأكيد بـ(إنّ) لاعتراف أصحاب الجنة في القصة ، معنى تأنيب الفطرة السوية لهم ، والروح الخيّرة التي تستيقظ داخل كل إنسان في لحظات انكساره واسترجاعه لنعم الله عليه ، فهي ستتكرر معهم في

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٨/٢٤١ .

(٢) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ١١/٣٩٠ .

الاعتراف أربع مرات :

١- في قولهم : ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ .

٢- وقولهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

٣- وقولهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ .

٤- وقولهم : ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ .

أقف على بعض الجماليات في التعبير القرآني :

- نلحظ من مد الكلمة ﴿ لَضَآلُّونَ ﴾ ـ وحقها المد اللازم الكلمي المثقل[١] ـ تُخرج نفثات الندم والآهات أقوى من أي كلمة أخرى ، وفي هذا بلاغة في الابتداء بها .

- جاء في كلام الله عز وجل حكاية عنهم اللفظ الأكثر دقة لوصف حالهم بعد انقضاء الصدمة الأولى ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ، والحرمان لاشك أعم فهو حرمان الخير بعدم إطعام المساكين وحرمان البركة وحرمان النعمة بزوال المزرعة التي كانت تطعمهم وأبناءهم ، وفائدة مجيء (بل) « ثبوت ضد حكم ما قبلها لما بعدها مع تقرير النفي لما قبلها ، . . . أو لنقل الحكم لما بعدها ، ويصير ما قبلها في حكم المسكوت عنه حتى بعد النفي فلا تفيد قصرًا »[٢].

- ذكّرهم أخوهم بما قاله لهم قبل : ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم:٢٨) وأصل التسبيح التنزيه لله عز وجل ، فجعل مجاهد التسبيح في موضع إن شاء الله ؛ لأن المعنى تنزيه الله عز وجل أن يكون شيء إلا بمشيئته . وقيل : هلا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خبث نيتكم[٣].

---

(١) وهو أن يأتي بعد حرف المد حرف مشدد . ينظر : فتح البرية ، صفوت سالم : ٣٤.

(٢) مواهب الفتاح ، ابن يعقوب : ١٩٠/٢ .

(٣) يُنظر : إرشاد العقل السليم ، أبوالسعود : ١٦/٩ .

و«إيثار ذكر الجار والمجرور ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ لتشديد التذكير والتوبيخ ، وإيثار المضارع في ﴿ تُسَبِّحُونَ ﴾ إشارة إلى الحث على التسبيح في كل الأوقات»[1] .

- قالوا : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ فاعترفوا بالمعصية ونزهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل ، واسترجعوا حين لا ينفع الاسترجاع[2] ، وأعلوا صيحات الندم بظلمهم بإعادة المؤكد (إنّ) الذي ابتدأ به اعترافهم ، ثم لم يكتفوا به حتى جاء الفعل ﴿ كُنَّا ﴾ مع ضمير جماعة المتكلمين مؤكداً آخراً ، وحشد هذه المؤكدات في الجملة يدل على نفس نادمة معترفة بتقصيرها .
- في قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴾ صورة بديعة لحيرة المفرّط وتيه تساؤلاته ، فأصبحوا يقبلون على بعضهم البعض وكأن القارئ يرى أجسامهم وهي ترتطم ببعضها مجيئاً وذهاباً وكلٌّ واحدٍ منهم يلوم الآخر ، ليستقروا على أنهم جاوزا الحد في ذنبهم حتى طغوا ، فاعترفوا معًا :
- ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ نداء الويل والدعاء على أنفسهم بالهلاك مع إضافة المؤكدات للمرة الثالثة ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴾ يُظهر عمق الألم ويضاعف من وقع الحسْرة ، ولم يهدأ اعترافهم عند هذا الحد حتى يُختم بالالتجاء إلى مولاهم ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ ﴾ ، ولم يطلبوا العِوض فقط وإنما طلبوا العوض الذي يُنسيهم مُصابهم بقولهم : ﴿ خَيْرًا مِّنْهَآ ﴾ أي : يعطينا ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة خيراً منها .
- ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ راجون العفو ، طالبون الخير ، و ﴿ إِلَىٰ ﴾ لانتهاء الرغبة ، أو لتضمنها معنى الرجوع[3] .

* * *

---

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، دكتور عبد العظيم المطعني: ٣/٢٨٧.
(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٨/٢٤٤ .
(٣) يُنظر : إرشاد العقل السليم ، أبوالسعود : ٩/١٦ .

٣- التأكيد بنون التوكيد الثقيلة [١] :

«نون التوكيد نوعان : خفيفة وثقيلة ، والتأكيد بها أي : الثقيلة أشد من التأكيد بالخفيفة»[٢]، وأما الثقيلة فلها مزيد فائدة فهي «بمنزلة تكرير الفعل ثلاثًا ، والخفيفة بمنزلة تكريره مرتين»[٣]، وقد دخلت على الفعل المضارع في اعترافات الشيطان فـي الشواهد الآتـيـة ، فأكسبتها مكابرةً وعناداً منه ـ لعنه الله ـ ، وقد أضيفت النون في الأفعال مع لام القسم فأفادت تأكيداً مضاعفاً ، قال ابن الأثير : «وأكثر ما تستعمل هذه اللام في جواب القسم ؛ لتحقيق الأمر المقسم عليهِ ، وذلك في الإيجابِ دون النفي ؛ لأنها لا تستعمل في النفي . . . لكن في الإيجاب تستعمل ويكون استعمالها حسناً ، كقولك : (والله لأقوم) ، فإن أضيف إليها النونان الخفيفة والثقيلة ، كان ذلك أبلغ في التأكيد ، كقولك : (والله لأقومن) ، . . . وإن لم يكن جواباً لقسم ، فالنون الواردة بعد اللام زيادة في التأكيد ، وهما تأكيدان أحدهما مردفٌ للآخر ، وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب فإذا استُعملت في موضع فإنما يقصد بها التأكيد»[٤]، وقال : «إذا قال القائل : والله لأقومن وأكّده ، كان ذلك لغواً ؛ لأنه ليس في قيامه من الأمر العزيز ، ولا من الأمر العسير ، ما يحتاج معه إلى التأكيدِ ، بل لو قال : والله لأقومن إليك مهدداً له ، لكان ذلك واقعاً في موقعه ، فافهم هذا ، وقس عليه»[٥].

---

(١) تحليل الشواهد مجملة للتشابه بينها .

(٢) همع الهوامع ، السيوطي : ٦١١/٢ .

(٣) الكليات ، الكفوي :٤١٠/١ .

(٤) المثل السائر : ٥٤/٢ .

(٥) السابق : ٥٥/٢ .

وشواهد هذا النوع من التوكيد في آيات الاعتراف خمسة ، وهي :

١- قال تعالى : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١١٩) .

٢- قال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧) .

٣- قال تعالى : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٦٢) .

٤- قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر:٣٩) .

٥- قال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص:٨٢،٨٣) .

وقفة مع المعنى :

« هذه الجمل المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالاً أوحالاً ، وما فيها من اللامات كلها للقسم ، والمأمور به في الموضعين محذوف ثقةً بدلالة النظم عليه »[(١)] ، ففي سورة النساء : « خمسة أقسم إبليس عليها : أحدها : اتخاذ نصيب من عباد الله ، وهو اختياره إياهم . والثاني : إضلالهم وهو صرفهم عن الهداية وأسبابها . والثالث : تمنيته لهم وهو التسويل ، ولا ينحصر في نوع واحد ؛ لأنه يمني كل إنسان بما يناسب حاله من طول عمر ، وبلوغ وطر ، وغير ذلك ، وهي كلها أماني كواذب باطلة . وقيل : الأماني تأخير التوبة .

(١) إرشاد العقل السليم ، أبوالسعود :٢/٢٣٤ .

وقيل : هي اعتقاد أن لا جنة ولا نار ، ولا بعث ولا حساب ، . . .والرابع : أمره إياهم الناشئ عنه تبتيك آذان الأنعام ، وهو فعلهم بالبحائر كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرًا ، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها ، وقيل : فيه إشارة إلى كل ما جعله الله كاملا بفطرته ، فجعل الإنسان ناقصًا بسوء تدبيره ، والخامس : أمره إياهم الناشيء عنه تغيير خلق الله تعالى»[1]، وفي آيات اعتراف الشيطان في كل السور دلالة على الإضلال[2] مع التفنن في الطرق ، وبلاغة في وصف طريقة الإضلال في كل سورة كما سيأتي ، «وإنما نبهنا اللّه على ما قال وعزم على فعله ، لنأخذ منه حذرنا ، ونستعد لعدونا ، ونحترز منه بعلمنا ، بالطريق التي يأتي منها ، ومداخله التي ينفذ منها ، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة»[3].

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

- اشتركت الاعترافات الشيطانية في الآيات الكريمة باقترانها بلام القسم[4]، ونون التوكيد الثقيلة ، من المؤكدات على فعلته التي يترصد الشيطان في كل زمان ومكان ليفعلها ، ويلحظ أن كل الاعترافات متلبسة بالكبر والتوعّد ، وكأنّ هذا الضعيف يملك أن يفعل شيئاً دون إرادة الله جل وعلا! ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ** ﴾ (الصف:٥) ، و «ما قاله إبليس قبل أن يقع ظناً منه أنه يتمكن من إضلال أكثر بني آدم،وقد بين تعالى أنه صدق ظنه هذا بقوله: ﴿ **وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ (سبأ: ٢٠)»[5].

---

(١) البحر المحيط ، أبوحيان :٣/٣٦٨ .

(٢) ينظر : أضواء البيان ، الشنقيطي : ٤٩/١٦ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٢٤٨ .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ١٣٤/٢ .

(٥) أضواء البيان ، الشنقيطي : ٤٩/١٦ .

في سورة النساء :

- ابتدأ بالإضلال وهو الإجمال ثم بعدها انتقل للتفصيل في سبل الإضلال ، وهذا التفصيل بعد الإجمال هومن تعنّت وتكبّر إبليس الذي طُرد من الجنة وعلم بخطئه وغوايته وهو في الآية يعترف بما سيفعله مع بني آدم : « ﴿ **وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ** ﴾ لأعدنَّهم مواعيد كاذبة ، ألقيها في نفوسهم ، تجعلهم يتمنّون ، أي يقدّرون غير الواقع واقعاً ، إغراقاً في الخيال ؛ ليستعين بذلك على تهوين انتشار الضلالات بينهم ، يقال : منَّاه ، إذا وعده المواعيد الباطلة ، وأطمعه في وقوع ما يحبّه ممّا لا يقع ، ومِنه سمّي بالتمنّي طلبُ ما لا طمع فيه أو ما فيه عسر . . . »[1].
- ﴿ **وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ** ﴾ حذف مفعول « أمَرَ » ؛ استغناء عنه بما رُتّب عليه ... وقوله : ﴿ **وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ** ﴾ تعريض بما كانت تفعله أهل الجاهلية من تغيير خلق الله لدواع سخيفة ، فمن ذلك ما يرجع إلى شرائع الأصنام مثل فقوء عين الحامي ، وهو البعير الذي حمَى ظهرَه من الركوب لكثرة ما أنْسَل ، وغيرها ، وهذا من خصائص حال العرب . . . »[2].
- تأمل في التقديم والتأخير في الآية مع معاني الأفعال المحكية عن اعتراف الشيطان وتوعده ، فيها خطوات الشيطان التي حذر الله منها في أكثر من موضع ، كما قال جل وعلا : ﴿ **وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (البقرة:١٦٨) ، ففي الآية جاء (الضلال) أولاً ، وهو أولى الخطوات التي يسعى الشيطان ـ لعنه الله ـ أن يسقط فيها العبد فمتى زلّ وضل ، بدأت الخطوة الثانية (الأماني) ، فيعد العبد بالوعود الكاذبة وطول الأمل ، فيستمرؤ الضال ضلالته ، ويبعد به العهد عن التوبة ، ثم يكون الإنسان بعدها

(١، ٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٠٥/٥ .

عبداً للشيطان يأمره فيفعل كما جاء في الآية في الاعتراف ثالثاً (الأمر) وكُرر في المرة الرابعة ، وقد جاء في الآيات الكريمة ما يجعل المؤمن الفطن يتنبه لطرق هذا الخبيث ، في قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (يس: ٦٠) .

- لعل تكرير لفظ (الأمر) وعدم الاكتفاء بالعطف في قوله تعالى : ﴿ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ ، يدل على تجديد الأمر في كل تسويل من الشيطان ، وقال أبوحيان في تكرار الكلمة : « وقد تضمنت هذه الآيات أنواعًا من الفصاحة ، والبلاغة ، والبيان ، والبديع ، منها التكرار في : ﴿ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ ﴾ »[(١)] .

في سورة الأعراف :

- ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ « الباء هاهنا قسمية ، كأنه يقول : فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم »[(٢)]، « ويحتمل أنه أراد : بسبب ما أغويتني وأضللتني »[(٣)]، قال القرطبي : « كأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه ؛ لما فيه من التسليط على العباد ، فأقسم به إعظامًا لقدره عنده ، وقيل : الباء بمعنى اللام ، كأنه قال : فلإغوائك إياي ، وقيل : هي بمعنى مع ، والمعنى فمع إغوائك إياي ، وقيل : هو استفهام ، كأنه سأل بأي شيء أغواه ؟ . . . والإغواء : الإضلال والإبعاد ؛ قال ابن عباس ، وقيل : خيبتني من رحمتك »[(٤)]، « وعبر بالقعود عن الثبوت في المكان »[(٥)]، فكان التعبير بـ(القعود) فمجاز يتّضح به الترصّد لبني الإنسان حتى كأنه يقعد في طريقهم

---

(١) البحر المحيط : ٣/٣٧٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٣/٣٩٤ .

(٣) السابق : ٥/٥٣٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٧/١٤٧ .

(٥) البحر المحيط ، أبوحيان : ٤/٢٧٦ .

إلى الله ، والمراد : «لأعترضن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة»[1] ، وقال ابن عاشور : «مستعمل كناية عن لازمه وهو الملازمة والاستقرار»[2].

- ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ «يدلّ على أنّ إبليس عَلِم أنّ الله خلق البشر للصّلاح والنّفعِ ، وأنّـه أودع فيهم معرفة الكمال ، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد ، فلذلك سُمِّيت أعمال الخير في حكاية كلام إبليس ، صراطاً مستقيماً ، وإضافته إلى ضمير الجلالة ؛ لأنّ الله دعا إليه وأراد من النّاس سلوكه»[3].
- ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَـٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ قال الطبري : «ولم يقل : (من فوقهم) ؛ لأن رحمة الله تنزل على عباده من فوقهم»[4]، وإنما ذكر «الجهات الأربع التي يعتاد هجوم العدو منها مثل قصده إياهم للتسويل والإضلال ، من أي وجه يتيسر ؛ ولذلك لم يذكر الفوق والتحت ، . . .وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء ؛ لأنه منهما متوجه إليهم ، وإلى الآخرين بحرف المجاوزة ؛ فإن الآتي منهما كالمنحرف المتجافي عنهم ، المار على عرضهم ، ونظيره : جلست عن يمينه»[5] ، وفسّر الزمخشري ذلك بقوله : «كيف قيل : ﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ بحرف الابتداء ، ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَـٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ بحرف المجاوزة ؟ قلت : المفعول فيه عدي إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به ، فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا ، وكانت لغة تؤخذ

---

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٨٨/٢ ، والسابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حوائجهم ، لسان العرب ، ابن منظور : ٣٢٠/١١ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٦٤/٨ .

(٣) التحرير والتنوير : ٤٨/٨ .

(٤) جامع البيان : ٣٤١/١٢ .

(٥) إرشاد العقل السليم ، أبوالسعود : ٢١٩/٣ .

ولا تقاس ، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط ، فلما سمعناهم يقولون : جلس عن يمينه وعلى يمينه ، وعن شماله وعلى شماله ، قلنا : معنى(على يمينه) أنه تمكن من جهة اليمين تمكُّن المستعلي من المستعلى عليه ، ومعنى (عن يمينه) أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له ، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره ، . . . و﴿ **مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ** ﴾ ؛ لأن الفعل يقع في بعض الجهتين ، كما تقول : جئته من الليل ، تريد بعض الليل»[١].

وفي سورة الإسراء :

- «إن كلام إبليس ليس طلباً ، وإنما هو شرط دخل عليه القسم ، فقال : ﴿ **لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ** ﴾ فهو من باب الطلب الضمني ، وليس من باب الطلب الصريح»[٢]، ثم تأمل اللفظ الدقيق المعبّر عن المعنى : ﴿ **لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ** ﴾ «يجوز أن يكون من قولهم : حنّكتُ الدابة ، أي : أصبت حنكها باللجام والرسن ، فيكون نحو قولك : لألجمن فلانًا ولأرسننه ، ويجوز أن يكون من قولهم : احتنك الجراد الأرض ، أي : استولى بحنكه عليها ، فأكلها ، واستأصلها ، فيكون معناه : لأستولين عليهم استيلاءه على ذلك ، وفلان حنكه الدهر ، كقولهم : نجّذه وقرع سنّه ، وافترّه ، ونحو ذلك من الاستعارات في التجربة»[٣] ، واستثنى الشيطان القليل من العباد ؛ «لأنه علم أنه يكون في ذرية آدم من لا يتسلط عليه ، كما قال : ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ** ﴾ (ص:٨٢-٨٣)»[٤] نسأل الله أن يجعلنا منهم .

---

(١) الكشاف :٨٩/٢ ، ينظر : ص ٤٥٤ .

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، فاضل السامرائي : ٣٠ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٢٢٦/١ .

(٤) البحر المحيط ، أبوحيان : ٥٥/٦ .

في سورة الحجر و ص :

- جاء الاعتراف مصدرًا بالربوبية في سورة الحجر ، وقسماً بعزة الله جل جلاله في سورة (ص) في سياق الحوار مع الله ، وكان طلب الإنظار إلى يوم القيامة مصدراً أيضاً بالربوبية في كلتا السورتين ، بينما لم يكن ذلك في اعتراف سورة الأعراف ، يُرجع الدكتور فاضل السامرائي الفرق إلى أن «مقام السخط في قصة الأعراف أكبر ، فلم يكن هناك تبسط مع إبليس في الكلام بخلاف ما ورد في (ص) ، وعدم التبسط يدل على السخط الكبير»[1] وأورد دلالات على ما ذهب إليه من الفروقات بين الألفاظ منذ بدء المحاورة في السور تدل على اختلاف المقامين مما أدى لاختلاف التعبير[2] .
- اختلاف القسم بين (الحجر) و(ص) : اعتراف الشيطان في سورة الحجر ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ ، وفي سورة (ص) : ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ ، فأقسم في الحجر بإغوائه ، وأقسم في (ص) بعزة الله ، وذلك أن اسم الله (العزيز) ورد في (ص) أكثر من مرة ، ففي أولها : ﴿ **بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ** ﴾ (ص:٢) ، وفاصلة آية : ﴿ **ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ** ﴾ (ص:٩) ، وفاصلة آية أخرى : ﴿ **ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ** ﴾ (ص:٦٦) ، فناسب لفظ (العزة) والقسم بها ، وتردد في (الحجر) ذكر الغواية ﴿ **وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ (الحجر:٣٩) و ﴿ **إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ** ﴾ (الحجر:٤٢) فناسب القسم بالإغواء ، فتأمل كيف وضع كل تعبير في مكانه الذي هو الأنسب له![3] .
- الدقة في اختيار اللفظ : فاختيار لفظ (تزيين) له دلالته الفريدة ، فهو حريصٌ على تزيين ما ليس بزين في أصله ، «فقد حدد الشيطان عدته في ساحة

---

(١) التعبير القرآني ، دكتور فاضل السامرائي : ٣٠١ .
(٢) المرجع السابق : ٣١٢ .
(٣) المرجع السابق : ٣١٦ .

المعركة وهي الأرض ، إنها (التزيين) : تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه ، وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمله ، وتظهره في غير حقيقته وردائه ، فليفطن الناس إلى عُدّة الشيطان ، وليحذروا كلما وجدوا في أمر تزييناً ، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاء ، ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك ، إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ، فليس للشيطان ـ بشرطه هو ـ على عباد الله المخلصين من سبيل»[(١)] .

* * *

٤- التأكيد بالحرف (قد) :

«من مؤكدات الإسناد في الجملة الخبرية : كلمة (قَدْ) الحرفية ، وتختصُّ بالدّخول على الفعل المتصرّف الخبريّ المثبَتِ المجرّدِ من ناصِبٍ وجازم»[(٢)] .

والشاهد للتأكيد بالحرف (قد) قوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ** ﴾ (الأعراف:٥٣) .

وقفة مع المعنى :

يوم يجيء ما يؤول إليه أمر المشركين من عقاب الله يقول الذين ضيَّعوا وتركوا ما أمروا به من العمل الذي ينجيهم مما آل إليه أمرهم يومئذ من العذاب ، من قبل ذلك في الدنيا ﴿ **قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ** ﴾ ، أقسم المساكين حين عاينوا البلاءَ وحلّ بهم العقاب : أنّ رسل الله التي أتتهم بالنِّذارة

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٢١٤١/٤ .

(٢) البلاغة العربية ، الميداني : ١٤١/١ .

وبلغتهم عن الله الرسالة ، قد كانت نصحت لهم وصَدَقتهم عن الله ، وذلك حين لا ينفعهم التصديق ، ولا ينجيهم من سَخَط الله وأليم عقابه كثرة القال والقيل[1].

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- المفرطون الذين تركوا ما أمر الله يوم القيامة يقولون : ﴿ **قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ** ﴾ اعترافاً بأن الذي تركوا العمل به هو الحق مع تأكيد الحرف ﴿ **قَدۡ** ﴾ لاعترافهم ، فقد أضاف معنى التحقيق والتأكيد في آن ، وظهر أثره في الاعتراف بإثباته لخضوعهم وإذعانهم بالتسليم بالحقيقة التي كانوا ينكرونها ويحاربونها في الدنيا وهي الحق الذي جاء به الرسل ، وهذا كان افتتاح الاعتراف في قولهم فكان يحكي عن التغيّر الذي طرأ يوم القيامة على التكذيب الذي عمى أبصارهم في الدنيا .
- قولهم : ﴿ **رُسُلُ رَبِّنَا** ﴾ جمع رسل دلّ على شدة التكذيب والإنكار وكذلك إضافتهم تشريفاً إلى الله جل وعلا ، حيث لم يقروا يوماً أنهم مرسلون من الله بل كانوا يسخرون من هذا ، والآن في لحظة الاعتراف قد نسبوهم إلى الله كأول اعتراف بالكفر أرادوا تصحيحه يومئذ .
- قولهم : ﴿ **فَهَل لَّنَا** ﴾ خرج الاستفهام هنا إلى معنى النفي ، أي : ما لنا من شفعاء[2] ، فكان أسلوب النفي أبلغ في الدلالة على النفي ؛ لأن فيه زيادة في معنى يأسهم وبؤسهم من النجاة بعد انطماس بصائرهم ، نسأل الله الهداية والبصيرة .
- قولهم : ﴿ **فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ** ﴾ تدل على أنهم قد خاب ظنهم بمن اعتقدوا من قبل أنهم شفعاء ، وأن التسمية التي سموا بها آلهتهم لم تغن

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٢/٤٨٠ .

(٢) ينظر : بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي : ١/١٦٤٥ .

عنهم شيئاً ؛ بدليل أنهم أكّدوا بقولهم : ﴿ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ ﴾ وهنا بلاغة التكرير حيث إن قولهم : ﴿ شُفَعَآءَ ﴾ كافٍ في الدلالة على طلب الشفاعة ، إلا أنهم أكدوا الطلب بمن يستحق أن يكون شفيعاً ، ومعه الإذن بأن يشفع لنا ، وليس شفيعاً وهميًّا من أوثاننا كما أخطأت تسميتنا فيتخلى عنا! .

- قالوا : ﴿ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ قدموا طلب الشفيع ؛ لأنهم على يقين أن طلب الرجعة أمنيات لن تتحقق ، وستظل تتردد على ألسنتهم دون نتيجة ؛ ولأنهم يرون يوم القيامة من تنفع شفاعتهم ممن حكى لنا ربنا في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ فتزداد بها حسراتهم .
- في قولهم : ﴿ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ إشارةٌ إلى قبح فعلهم ، واستخفاف عقولهم يوم اتخذوا مع الله شركاء ظنوا نفعهم فاستحيوا أن يسموا العمل واكتفوا بإبهامه لكن ﴿ ٱلَّذِى ﴾ تشير إليه ، وتُفهِم عنهم مالم ينطِقوا .

* * *

المطلب الثالث

الدعاء

ومن صيغ الاعتراف بالقول :

٣- الدعاء :

الدعاء من أضرب الإنشاء وهو : طلب الفعل على سبيل التضرع [(١)] ، والدعاء والنداء من الكلمات القرآنية ، وهما تشتركان في طلب الإقبال من المدعو والمنادى ، وكان هذا الاشتراك حريًّا بأن يجعل الكلمتين في لغة القرآن متساويتين لا تفرقة بينهما ، لكن استقراء مواضع ورودهما في القرآن الحكيم يكشف عن فروق دقيقة بينهما ، فهذه فيه غير تلك ، فالدعاء لابد فيه من افتقار الداعي إلى المدعو ، وهذا في دعاء الناس لله ظاهر لا يحتاج إلى بيان .

والنداء الأصل فيه أن يكون برفع الصوت ، فهو أخص من الدعاء ، والنداء هو الدعاء[(٢)] ؛ لأن المطلوب بكل منهما الإقبال نحو المنادي أو الداعي ، سواء كان الإقبال بالانتقال الجسدي أو بالانتباه الذهني .

ومن أقسام النداء في القرآن : نداء من الناس لله ، وهو كثير مثاله نداء الرسل ربهم ، كنداء نوح عليه السلام وهو غير جارٍ على أصل النداء بل هو دعاء ؛ لأن النداء يكون للبعيد والله أقرب إلى المرء من حبل الوريد ؛ ولأن الله أمر عباده

---

(١) ينظر : الإيضاح ، القزويني : ١٤١ .

(٢) ينظر : جمهرة اللغة ، ابن دريد : ٩٧/٢ ، مادة (د ن و ا ي) .

أن يدعوه لا أن ينادوه ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:٦٠) [١] .

وعلّق ابن عاشور على مناداة نوح عليه السلام ربه بقوله : « والنداء هنا نداء دعاء فكأنه قيل : ودعا نوح ربه ؛ لأن الدعاء يصدر بالنداء غالبًا ، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافًا إلى نوح عليه السلام تشريفٌ لنوحٍ ، وإيماءٌ إلى رأفة الله به ، وأن نهيه الوارد بعده نهي عتاب » [٢] .

وورد الدعاء في آيات الاعتراف بأربع طرق ، هي :

١- الدعاء بلفظ الربوبية .

٢- الدعاء مصدّراً تنزيه الله جل وعلا .

٣- الدعاء بلفظ الويل .

٤- الدعاء بلفظ الحسرة .

وسأدرس الاعتراف في شواهد هذه الطرق في الآتي .

* * *

١- الدعاء بلفظ الربوبية :

وفيه شاهدان ، هما :

١- قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (هود:٤٧) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (ص:٣٤،٣٥) .

---

(١) ينظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٢٩ .

(٢) التحرير والتنوير : ٨٣/١٢ .

الالتجاء إلى الله بالدعاء عند وقوع الزلل خلقٌ كريمٌ تحلّى به الأنبياء ، وقد جاء الاعتراف بالقول بأسلوب الدعاء صريحاً حال الاعتراف حكايةً عن نوح عليه السلام في سورة هود ، وحكايةً عن سليمان عليه السلام في سورة (ص) وعن غيرهم ، وفي الدعاء تنفيسٌ والتجاء وافتقارٌ لقيوم السماوات والأرض ؛ ليكشف كرباً ، ويجيب مضطرًّا ، ويغفر ذنباً .

التعبير بنداء الرب في الاعتراف :

كلمة (رب) في الشواهد السابقة جاءت منادى ، والمعنى الذي استعملت فيه هو الدعاء ، وحذفت أداة النداء منها للتيسير في الأداء ؛ ولأن توجيه الدعاء إلى (رب) كثير على ألسنة العباد ، فناسب ذلك التيسير عليهم وهم يتضرعون إلى ربهم القريب منهم ، والياء لمناداة البعيد ، وفوق هذا الذي يسوغ الحذف ، هو أن المقام يدل على المحذوف بكل وضوح ويسر[1] .

ونجد كلمة(رب) استأثرت بمواضع الدعاء في القرآن الكريم دون غيرها من أسماء الله وصفاته الحسنى ؛ لأن في (رب) من الدقائق التي تناسب المقام ما ليس في غيرها من الأسماء والصفات ، فمن كلمة (رب) تشع معاني التربية والإنعام والتدبير والرعاية[2] .

وكلمة (رب) توحي بعمق الصلة بين العبد وربه ، والقرب الذي يطمح أن يصل له العبد ، ويكون ممن قال الله فيهم : ﴿ **وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ** ﴾ (الواقعة: ١٠،١١) .

وقفةٌ مع المعنى :

ظهرت لوعة الأب وحسرته على ضلال ابنه في قصة نوح عليه السلام وهو ينادي ابنه : ﴿ **يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ** ﴾ (هود:٤٢) ، ثم لم

---

(١) ينظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٣٨ .

(٢) ينظر : السابق : ٢٤٣ .

تزل عاطفة الأبوة بنوح عليه السلام رغم ضلال الابن حتى سأل ربه سبب هلاك ابنه وقد وُعد بنجاة أهله[1] في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (هود:٤٥) ، فلما عاتبه ربه بأن ابنه ليس من أهله الذين وعد بنجاتهم بقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (هود:٤٦)، ما كان منه عليه السلام إلا أن سارع بالاعتراف بالزلل والتوبة لمولاه بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (هود:٤٧) إذ عرف أن النجاة بيد الله ، وأن الله إذ يوحي له ببناء السفينة والركوب فيها ، قد تولى أمرها ونجاة من فيها ، وهو أعلم سبحانه بمن يستحق أن يكون في جملة المصطفين فيها ، ولذا نجد نوحًا عليه السلام قال : ﴿ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي : أستجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم ، مما قد استأثرت بعلمه ، وطويت علمه عن خلقك ، فاغفر لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني ، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك ﴿ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (هود:٤٧) ، يقول : من الذين غبنوا أنفسهم حظوظَها وهلكوا [2] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ : صدق اللجوء لله

---

(١) اختلف فيها المفسرون ، فذهب إلى هذا القول الجمهور منهم : ابن كثير ، والطبري ، والقرطبي ، والشنقيطي ، وابن سعدي ، وغيرهم (ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ٣٢٥/٤ ، وجامع البيان : ٣٣٩/١٥ ، وأضواء البيان : ٤٨٢/١ ، وتيسير الكريم الرحمن : ٣٨٢ ، والجامع لأحكام القرآن : ٤٥/٩) ، وذهب ابن عاشور إلى أنه سأل ربه المغفرة لابنه بعد هلاكه ، (ينظر : التحرير والتنوير : ٨٨/١٢)

(٢) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٣٥٢/١٥ .

واضحٌ في مناجاته لخالقه تبارك وتعالى يوم رأى هلاك ابنه فسبقت عاطفته الأبويّة بسؤال ربه عنه ، فجاء منكسِراً مستغفراً ربه ، راجياً عفوه ، تأمل قوله : ﴿ إِنِّيٓ ﴾ بعد ﴿ رَبِّ ﴾ كيف أضافت للاعتراف معنى أن نوحاً عليه السلام لم يكن يظن قط أن يسأل ربه ما ليس له به علم ! فكان اعترافه مفاجأة لنفسه وانكساراً لمولاه ، وهذا ما بيّنه الجرجاني بقوله في أغراض (إنّ) : « واعلم أنها قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلّم في الذي كان أنه لا يكون . . .فتجعلك كأنك ترد على نفسك ظنك الذي ظننت وتبين الخطأ الذي توهّمت» [1] .

- من أدب نوح عليه السلام مع ربه أنه قال : ﴿ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ، فتقديم النفي على العلم فيه اعتراف بضعف العبد لمولاه ، وجهله بحكمة الله في تسيير الأمور ، وتأكيداً لاعترافه ختم قوله بطلب المغفرة والرحمة .
- ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (هود:٤٧) : طلب المغفرة ابتداء ؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية ، ثم أعقبها بطلب الرحمة ؛ لأنه إذا كان بمحل الرضى من الله كان أهلا للرحمة [2] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (ص:٣٤،٣٥) .

وقفة مع المعنى :

ابتلى اللهُ سليمانَ عليه السلام ، واختبره بذهاب ملكه وانفصاله عنه ، بسبب خللٍ اقتضته الطبيعة البشرية ، ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ أي : شيطاناً

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني : ٣٢٧ .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٢/٨٨ .

قضى اللّه وقدر أن يجلس على كرسي ملكه ، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان ، ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ سليمان إلى اللّه تعالى وتاب ، فـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ فاستجاب اللّه له وغفر له ، ورد عليه ملكه ، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده ، وهو تسخير الشياطين له ، يبنون ما يريد ، ويغوصون له في البحر ، يستخرجون الدر والحلي ، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد وأوثقه (١) .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ تقديم الاستغفار على طلب الملك : قَدَّم سليمان عليه السلام الاستغفار في اعترافه على استيهاب الملك ؛ جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم (٢) ؛ ولأن العبد إذا شعر بتقصيره استحيا أن يسأل ربه عطاءً وفضلاً قبل أن يستغفره ، ويطلب التجاوز عن زللـه .
- اختار نبي الله مع الدعاء بالمغفرة أن يهبه الله ملكاً لا يكون لأحد ؛ ليكون ذلك معجزاً ، يعلم به رضا مولاه ، ويستدل به على قبول التوبة ، وليقوى به على من عصاه من الجن ، فسخرت له الريح حينئذٍ (٣) .
- قوله : ﴿ لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ فيها تظهر ثقة المؤمن وطمعه بكرم الله ، لاسيما بعد توبةٍ وإنابة ، والمقصّر حينها أحوج ما يكون لرضا الله عنه ، ويطمح أن يفرح بعلامة تبشّره بقبول الله لتوبته .

ويذكرنا دعاء سليمان عليه السلام ، وهذا الطموح في الدعاء ، بقول النبي ﷺ : « . . . إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٧١٢ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٢٢/٦ .
(٣) ينظر : النكت والعيون ، الماوردي : ٤٩٣/٣ .

الجنة . . . »[1]، فلا يكون دخول الجنة غاية منى المؤمن بل سكنى أعلاها ، وهذه تربية للمؤمن أن يكون كذلك في حياته كلها .

- قوله ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ** ﴾ فحريٌّ أن يستجاب لعبد صالح أناب إلى ربه ، وعرف أسماءه وصفاته ، واختيار اسم الله المناسب للدعاء من أسباب الإجابة ، ويلحظ هذا من تتبع الآيات في القرآن الكريم .
- وقد اختار نبي الله سليمان عليه السلام اسم الله ﴿ **ٱلْوَهَّابُ** ﴾ لمناسبة طلبه ﴿ **وَهَبْ لِى** ﴾ مع صدق الإنابة ، فتحققت الإجابة ، وهذا هو جناس الاشتقاق ، وهو « توافق الكلمتين في الحروف الأصول مع الاتفاق في أصل المعنى »[2]، ويحمل روعة دقة الألفاظ ، مع انسجام المعاني تمام الانسجام ، وحُسن الختام لهذا الاعتراف .
- ذكر الضمير ﴿ **أَنتَ** ﴾ بعد ﴿ **إِنَّكَ** ﴾ مع وضوح التوجه لله عز وجل ، فيه تأكيد وحدانية الله والاعتراف بالفضل والإنعام لله وحده ، وبراءة النفس من حظوظها ، وكل هذه الأسباب كفيلة بإعلان صدق التوجه لله واعتراف النفس بتقصيرها .

ويبرُز في اعتراف الرسل لربهم ، الانكسار لله لأجل ما اعترى النفس البشرية من التقصير ، لكن مع ذلك الثقة برحمة الله وفضله جليٌّ في ختام اعترافاتهم ، وهكذا تكون النفس المؤمنة بالله ، تعيش مع الخوف والرجاء في حياتها كلها .

* * *

---

(١) رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الجهاد والسير ، باب : درجات المجاهدين في سبيل الله ، يقال : هذا سبيلي وهذه سبيلي ، (رقم الحديث : ٢٧٩٠) .

(٢) مختصر المعاني ، التفتازاني : ١/٢٧٥ .

٢- الدعاء مصدّراً بتنزيه الله جل وعلا :

وفيه شاهدان ، هما :

١- قوله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٧) .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ (القصص:١٥-١٧) .

قوله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(الأنبياء:٨٧) .

وقفة مع المعنى :

اجتمعت على ذلك العبد الصالح بعد أن صار في اليم ظلمات عصيبة ، ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت وظلمة البحر ، فقد ذهب عليه الصلاة والسلام مغاضبًا ، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب ، التي لم يذكرها الله لنا في كتابه ، ولا حاجة لنا إلى تعيينها ، والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك ، ظن أن الله لا يقدر عليه ، أي : يضيق عليه في بطن الحوت أو ظن أنه سيفوت الله تعالى ، ولا مانع من عروض هذا الظن للكُمَّل من الخَلْق على وجه لا يستقر ، ولا يستمر عليه ، فركب في

السفينة مع أناس ، فاقترعوا ، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم ، فأصابت القرعة يونس عليه السلام ، فالتقمه الحوت ، وذهب به إلى ظلمات البحار ، فنادى في تلك الظلمات ربه ، وأقر لله تعالى بكمال الألوهية ، ونزهه عن كل نقص ، وعيب وآفة ، واعترف بظلم نفسه وجنايته[١] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- قال يونس عليه السلام : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ في ظلمة البحر وظلمة الحوت ، استشعاراً أن الله سبحانه الواحد الفرد الصمد الذي يعلم حاله دون سواه ، ونزهه عن النقائص في قوله : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ، ولاشك أن مقام يونس عليه السلام وماحلّ به من الظلام ، ووحدته كان لها أثر في هذا الاعتراف إذ أخذ صبغته على الألفاظ الربانية المحكية عن يونس عليه السلام في تلك الظروف ، فاستشعار وحدانية الله لعبدٍ قصّر وضاقت به الحِيل وصار يبيت في بطن الحوت سيكون أشد وأقوى من عبدٍ بين أُنس أهله وإن قصّر .
- مخاطبة الله عز وجل بضمير الخطاب ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ولم يعبر باسم الجلالة : لا إله إلا الله ، فيه معنى استحضار نظر الله وقربه من العبد ومعيته سبحانه وولايته لعباده الصالحين ، وإن ضاقت بهم السّبل ، ويونس عليه السلام نبي من أنبياء الله وهو أولى بهذا التأييد ، من ربٍّ رحيم ودود .
- قوله : ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ تأكيدٌ بـ(إن) على ظلم النفس الذي وقع منه عليه السلام ، وإظهار ضعفه وانكساره لله ، واعترافه بالزلة وهي الهجرة من قومه إلى ربه دون إذن إلهي له بالخروج منهم[٢] ، وتضيف (إن) معنى الظن الذي لم يكن يتوقعه يونس عليه السلام من نفسه ، كما حدث مع نوح عليه السلام[٣] .

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، ابن سعدي ، ٥٢٩ .
(٢) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ١٥/٣٢١ .
(٣) ينظر : ص ١٦٥ .

- وتتجلّى روعة الإرصاد ، أو ورد العجز على الصدر[1] في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ إذ دلّت على الفاصلة : ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، وفيها جناس الاشتقاق كذلك بين ﴿ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، ﴿ ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ ، فتأمّل التآلف والترابط والتآخي بين أجزاء الكلام ، فمن البلاغة أن يكون الكلام متشابكاً ، يدلّ أوله على آخره ، ويرتبط آخره بأوله ، وما من ريب في أن الكلام إذا كان على هذا النحو تأكّدت معانيه وتقررت في الأذهان ، وهذا من شأنه أن يقبل المخاطب على تلبية وإجابة ما تقرر وتُؤكد ما لديه[2] .
- قال : ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ولم يقل : إني كنت ظالماً ، بل قال : ﴿ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ كأن أصناف الظلم متعددة،والمنتمون له أيضًا درجات، وقد شعر أنه كان واحداً منهم حين ظلم نفسه ، بخلاف الكافرين حين اعترفوا بظلمهم ﴿ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٤) دون ﴿ مِنَ ﴾ لتنطبق عليهم كل معاني الظلم .

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القصص:١٥-١٧) .

---

(١) وهو أن يُجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل عليه ، (مختصر المعاني ، التفتازاني :١/٢٥٢) .

(٢) ينظر : من بلاغة النظم القرآني ، دكتور بسيوني فيود : ٣٤٥ .

وقفةٌ مع المعنى :

عندما يقع العبد المؤمن في الزلل يعلم أنه اتبع الشيطان وبدأ ينساق مع خطواته فيتنبّه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

وهكذا موسى عليه السلام يربأ بنفسه أن يكون ممن اتبع خطوات الشيطان ، وهو كليم الله جل وعلا ، فعندما دخل المدينة وجد رجلين يقتتلان ، أحدهما من شيعته ، والآخر من عدوه قبطي ، فاستغاثه الذي من شيعته ، وكان موسى عليه السلام قوي البنية فمذ أن وكز[١] موسى عليه السلام عدوه مات الرّجل ، فاسترجع موسى عليه السلام فعلته مباشرة ، وتنبّه ، واستغفر .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- قوله : ﴿ **مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ** ﴾ ولم يقل : من وسوسته أو إضلاله ونحوها ، فـ ﴿ **عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ** ﴾ أقوى أثراً على النفس لاجتناب هذا الفعل ، ثم الإقرار للتأكيد على ضرورة الابتعاد عن العمل أنه عمل ﴿ **عَدُوٌّ** ﴾ ، وليس ذلك فحسب بل هو ﴿ **مُّضِلٌّ مُّبِينٌ** ﴾ وهذا « تعليلٌ لكون شدة غضبه من عمل الشيطان ، إذ لولا الخاطر الشيطاني لاقتصر على القبطي أو كفّه عن الذي من شيعته ، فلما كان الشيطان عدواًّ للإنسان وكانت له مسالك إلى النفوس ؛ استدل موسى بفعله المؤدي إلى قتل نفس أنه فعلٌ ناشئٌ عن وسوسة الشيطان ، ولولاها لكان عمله جارياً على الأحوال المأذونة ، وفي هذا دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير ، وأنه الفطرة ، وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سببٍ غير فطري ، وهو تخلل نزع الشيطان في النفس »[٢] .

---

(١) أي طعَنَه ، أو ضَربه بجُمْع كفِّه ، أو دَفَعه ، ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس : ١٠٦/٦، مادة (وَكَ زَ) .

(٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٣١٢٥/١ .

- صدق موسى عليه السلام الالتجاء لمولاه ، فكانت المغفرة من الغفور الرحيم سبحانه ، وكرر الاستسلام لله ، وإظهار الضعف بقوله : ﴿ رَبِّ ﴾ في الآيتين المتتاليتين في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ .
- أن نبي الله موسى عليه السلام أكد خطأه بقوله : ﴿ إِنِّي ﴾ وفيها المعنى الذي جاء في اعتراف نوح ويونس عليهما السلام من توقّع خلاف الظن من النفس[1] .
- لم يكتف بقوله : ﴿ ظَلَمْتُ ﴾ حتى أضاف إليها ﴿ نَفْسِي ﴾ وفيها تأكيدٌ أنه حين وقع منه الظلم لم يكن على غيره ، بل على نفسه ، أما على غيره فلم يكن ظلماً بل كان زللاً وخطأً إذ لم يكن مقصوداً ، بينما الغضب الذي صدر عن النفس فأدى بها إلى الذي فعلته كان بمقدور الإنسان التحكم به لكنه ترك العنان لنفسه ، فجاوز الحد في عقاب القبطي ، ولم يتثبت أيهما الظالم وأيهما المظلوم ، ومعلوم أن موسى عليه السلام لم يقصد قتل الرجل وإنما ضربه فمات من قوة الضربة[2] .
- قوله : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ : الظهير العون[3] ، واختيار لفظ ﴿ ظَهِيرًا ﴾ أبلغ من (معيناً) من حيث إن الرجل قد يعين الرجل بيده ، أو بماله ، أو بغير ذلك ، فلفظ (معين) لا يدل على درجة المعونة ، بينما لفظ (ظهير) تشير إلى شدة المعونة من مكان الظهر في جسم الإنسان ، وما يتصف به من الصلابة والقوة ، فكانت حينئذ أبلغ ،

---

(١) ينظر : ص١٦٥، ١٧٠ .

(٢) وعصمة الأنبياء سأوجز القول فيها في المبحث الأول : (الشخصية) من الفصل الثاني : (عناصر أساليب الاعتراف) من الباب الثاني ، ينظر : ص٣٩٧ .

(٣) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٤/٥٢٠ ، مادة (ظَ هـ رَ) .

فحال موسى عليه السلام المستغفر ربه من ذنبه فجاء التعبير قويًّا يتناسب وصدق الالتجاء لله تعالى «ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى وتوصُّل إلى إنعامه بإنعامه»[1]، وترى الباحثة أن جملة (استعطافٌ لله) تجوز في الأسلوب ، لكنّ الأولى التعبير فيما يُنسب إلى الله جل وعلا بما نسبه لنفسه ، أو أخبر به نبيه ﷺ من باب التورع فيما يُنسب إلى الله سبحانه .

* * *

٣- الدعاء بلفظ الويل[2] :

وشاهده قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (المائدة: ٣١) .

معنى الويل :

«وَيْلٌ : كلمة مثل وَيْحٍ إلاَّ أَنها كلمة عَذاب يقال : وَيْلَهُ ، ووَيْلَكَ ، ووَيْلي ، وفي النُّدْبةِ : وَيْلاهُ»[3]، وقال الأصمعي : ويل : قبح ، وما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ويل واد في جهنم . . .»[4]، فإنه لم يرد أن ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا ، وإنما أراد من قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحق مقرًّا من النار ، وثبت ذلك له في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم

---

(١) فتح القدير ، الشوكاني : ٢٣٤/٤ .

(٢) يُقصَد الدعاء على النفس بلفظ الويل .

(٣) لسان العرب ، ابن منظور : ٧٣٧/١١ ، مادة (وَ يَ لَ) .

(٤) «ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره والصعود جبل في النار يتصعد فيه سبعين خريفًا يهوي منه كذلك أبداً» رواه الحاكم في مستدركه على الصحيحين ، (رقم الحديث : ٨٧٦٤) ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، (رقم الحديث : ٧٤٦٧) ، ورواه أحمد في مسنده ، (رقم الحديث : ١١٧١٢) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير : ٨٨٧/١ .

﴿مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ (البقرة:٧٩) ، وقوله : ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ (إبراهيم:٢) ، وغيرها [١] .

وقفة مع المعنى :

في قصة قابيل وهابيل ابني آدم عليه السلام حفظٌ لكرامة الإنسان والسعي لإنقاذ كل نفس ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ﴾ (المائدة:٣٢) ، وفي القصة ملمحٌ جميل ، هو تأمُّل الإنسان في الحيوانات ويتعلم منها ، فعندما قتل قابيل هابيل لم يعرف كيف يواري جثته حتى رأى هذا الغراب يواري جثة صاحبه ، فاهتدى بإرادة الله إلى دفنه .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

- نلحظ أن قابيل ابتدأ اعترافه بقوله ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ دوناً عن (حسرتى) أو غيرها ؛ لأنها أبلغ في التعبير عن حاله ، فهو يتحسر وفي الوقت ذاته يدعو على نفسه بالهلاك من شدة الندم حال الاعتراف .
- لم يُعبّر بـ (ويلي) بل استعمل أسلوب النداء ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ ، والمد في الألف المقصورة يُشعرنا بالندم المتأصّل في نفس قابيل تلك اللحظة ، كما أن المد يلفت النظر إلى تطلع النفس لمدد من رب السماء ينسي الروح حسرتها .

و« ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ استعارة بالكناية ، شبه فيها ما لا يعقل ، وهو (الويل أو الهلاك) بمن يعقل ، ثم حذف المشبه به ودل عليه بشيء من لوازمه وهو النداء» [٢] .

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ١/٥٣٥ .

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ١/٢٥٠.

- الانتقال في حواره مع نفسه لائماً لها ، فيقول : ﴿ أَعَجَزْتُ ﴾ ؟! مستفهماً متعجباً كيف لم يفكر ويفعل بجثة أخيه كما فعل الغراب ، معبّراً عن عدم اهتدائه للدفن مع رؤية الحيوان يفعل ذلك بـ(العجز) ولم يعبّر بخلافها ؛ لأن الكلمة تظهر درجة القصور الذي أصابه ، فقد استقصر إدراكه وعقله في جهله ما يصنع بأخيه حتى يعلم ، وهو ذو العقل المركب فيه الفكر والرؤية والتدبير من طائر لا يعقل .

ومعنى هذا الاستفهام ﴿ أَعَجَزْتُ ﴾ : الإنكار على نفسه والنعي ، فالاستفهام إنكاري تعجبي[1] ، أي : لا أعجز عن كوني مثل هذا الغراب ، وفي ذلك هضم لنفسه .

- استصغار نفسه بقوله:﴿ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ أي وهو الحيوان الذي لا يعقل، إذ أصل النداء أن يكون لمن يعقل ، ثم قد ينادي ما لا يعقل على سبيل المجاز كقولهم : يا عجباً ويا حسرة ، والمراد بذلك التعجب ، كأنه قال : انظروا لهذا العجب ولهذه الحسرة ، فالمعنى : تنبهوا لهذه الهلكة[2] .
- لم يقل : أعجزت أن أكون مثله ، وهو يلوم نفسه بل ذكر اسم الإشارة ﴿ هَـٰذَا ﴾ مما يدل على استغراقه في التأمل والتفكّر والغراب أمامه ، فأضاف لاعترافه بزلله قوة ؛ فمن يرقب من هو أفضل منه ويعترف بخطئه ليس كمن يعترف دون أن يرى أمامه نموذجاً للصواب .
- لم يُكتف بذكر اسم الإشارة بل ذُكر تأكيداً لتعجبه واستغرابه اسم الحيوان ، وهو : ﴿ ٱلْغُرَابِ ﴾ فيزيد بذلك لومه لنفسه على تقصيرها ؛ كأنه يقول : كيف يكون هذا الغراب ـ الذي لا يعقل ـ أعقل مني ، وأنا صاحب العقل؟

---

(١) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٤٩/١ .

(٢) ينظر : تفسير البحر المحيط ، أبوحيان : ٤٠٧/٤ .

ثم يزيد أسفاً بقوله : ﴿ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي ﴾ و(موارات السوءة) فعل يحرص عليه ابن آدم فطرةً ، فكيف يسبق هذا الغراب عن غير عقل ولافهم إلى فعلٍ هومن خصائص البشرية؟ لهذا لم يقل : الغراب الذي وارى صاحبه ، بل من اللوم لنفسه ذكر الفعل الذي ينبغي أن يفعله ﴿ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي ﴾ إضافة إلى هذا فضعف المشاعر وطغيان العاطفة في لحظة انكسار النفس حال الاعتراف جعلته يذكر ﴿ أَخِي ﴾ ؛ استشعاراً لصلته وحبه .

- قوله : ﴿ سَوۡءَةَ ﴾ إشعار بأن سوءة أخيه باتت تسوؤه ، تماماً مثل سيئة القتل التي أقدم عليها في حال الغضب .
- « إطلاق ﴿ سَوۡءَةَ ﴾ على الجثة استعارة تصريحية أصلية شبهت فيها الجثة بالسوأة «أي العورة» بجامع ما يجب في كل من (الإخفاء) ، فالسوأة بالثوب ، والجثة بالثرى »[1] .

* * *

٤- الدعاء بالحسرة[2] :

وشاهداه هما :

١- قوله تعالى : ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام:٣١) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (الزمر:٥٦-٥٨) .

---

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٤٩/١.

(٢) يُقصَد الدعاء على النفس بطول الحسرة ، ومعاني الآيات توضحه .

معنى الحسرة :

الحسرة في اللغة هي : «أَشدَّ الندم حتى يبقى النادم كالحَسِيرِ من الدواب الذي لا منفعة فيه»[1]، وهي أشد التلهف على الشيء الفائت تقول حَسِرَ على الشيء من باب طرب[2] .

نداء الحسرة :

لماذا يتوجّع الإنسان فينادي ما لا معنًى ولا حِسّ فيه؟ ، فيكون بندائه مجسّدًا للإحساس في معانيَ مجرّدة ، الجواب في روح النداء في العربية وأسراره إذ «قد يخرج النداء عن المعنى الأصليّ الموضوع له ، فيُسْتَعْمَلُ لدى البلغاء وغيرهم في أغراضٍ أخْرى غير النداء ، وهذه الأغراضُ تُفْهَمُ من قرائن الحال أو قرائن المقال ، فكلُّ حركةٍ نفسيةٍ ذات مشاعِرَ تَدْفَعُ الإنسان إلى التعبير عنها بنداء ما بطريقةٍ تلقائية ، ولولم يشعر بأنّ هذا النداء يحقق له مرجواً ، أو مؤمولاً ، أو يدفع عنه مكروهًا ، كأن يستعمل النداء في الزّجْر واللّوم ، أو التحسّر والتأسّف والتَفجع والندم أو النُّدْبة ، أو الإِغراء ، أو الاستغاثة ، أو اليأس وانقطاع الرجاء ، أو التمني ، أو التذكر وبث الأحزان ، أو التضجر ، أو الاختصاص ، أو التعجب ، إلى غير ذلك .

وفي التحسُّر يُسْتَعْمَل النداء بمدّ الصوت تعبيراً عن تأوُّهٍ داخِليّ في النفس ، فيقول المتحسّر مثلاً : (يَا حَسْرَتي ـ يَا حَسْرتا ـ يا حَسْرَتاه) ويرافق التحسُّرَ الندمُ والتمني غالباً إذا كان المتحسِّر يتحسَّر من أجل نفسه ، وجاء هذا الاستعمال في القرآن تعبيراً عن حالة المتحسّرين ، جرْياً على طريقة أهل اللّسان العربي في ذلك»[3]، وذكر صاحب لسان العرب كلامًا بديعًا في نداء

---

(١) لسان العرب ، ابن منظور : ٤/١٨٧ ، مادة (حَ سَ رَ) .
(٢) ينظر : مختار الصحاح ، الرازي : ١/١٦٧ ، مادة (حَ سَ رَ) .
(٣) البلاغة العربية ، الميداني : ١/١٨٨ .

الحسرة فقال : «هذا أصعب مسألة في القرآن إذا قال القائل : ما الفائدة في مناداة الحسرة ، والحسرة مما لا يجيب؟ قال : والفائدة في مناداتها كالفائدة في مناداة ما يعقل لأن النداء باب تنبيه ، إذا قلت يا زيد فإن لم تكن دعوته لتخاطبه بغير النداء فلا معنى للكلام ، وإنما تقول يا زيد لتنبهه بالنداء ، ثم تقول : فعلت كذا ، ألا ترى أنك إذا قلت لمن هو مقبل عليك : يا زيد ، ما أحسن ما صنعت ؛ فهو أوكد من أن تقول له : ما أحسن ما صنعت ، بغير نداء ؛ وكذلك إذا قلت للمخاطب : أنا أعجب مما فعلت ، فقد أفدته أنك متعجب ، ولو قلت : واعجباه مما فعلت ، ويا عجباه أن تفعل كذا كان دعاؤك العجب أبلغ في الفائدة ، والمعنى يا عجبا أقبل فإنه من أوقاتك ، وإنما النداء تنبيه للمتعجب منه لا للعجب»[(١)] .

وقفة مع المعنى :

في سورة الأنعام وُكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم منازلهم من الجنة بمنازل من اشتروا منازلهم من أهل الجنة من النار ، فإذا جاءتهم الساعة بغتةً قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا ، وتبيَّنوا خسارة صفقة بَيْعهم التي سلفت منهم في الدنيا ، تندُّمًا وتلهُّفًا على عظيم الغَبْن الذي غبنوه أنفسهم ، وجليلِ الخسران الذي لا خسرانَ أجلَّ منه .

وفي سورة الزّمر تحثنا الآيات على المبادرة لاتباع أمره وانتهاز فرصة العمل في هذه الحياة الدنيا قبل أن يأتي وقت الندم والحسرة حين قوع العذاب بالإنسان فيندم ويحزن أشد الحزن على تفريطه زمن القدرة في الحياة الدنيا .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

- ﴿ يَـٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ ، يقول : يا ندامتنا على ما ضيّعنا فيها ، يعني : صفقتهم تلك ، و(الهاء والألف) في قوله : ﴿ فِيهَا ﴾،من ذكر الصفقة،

---

(١) لسان العرب ، ابن منظور : ١٨٧/٤ ، مادة (حَ سَ رَ) .

ولكن اكتفى بدلالة قوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ عليها من ذكرها ، إذ كان معلومًا أن (الخسران) لا يكون إلا في صفقة بيع قد جرت[1] وهذا إيجاز حذف ، وترى الباحثة أنه من الأنسب تغيير لفظ(صفقة) إلى (تجارة) ؛ لأنه المصطلح الوارد شرعاً كناية عن الطاعات ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر:٢٩) ؛ ولأن سبب تسمية التجارة بالصفقة هو ما يحدث بين المتبايعين من صفق اليد باليد[2] وينزه الله عز وجل عن هذا الوصف .

- التعبير بالحسرة ، في هاتين الآيتين الوحيدتين في القرآن ، ومناداتها كأنما تجسّدت وصارت إنساناً ، ناسب فُجاءة العذاب فهما الاعترافان الوحيدان المرتبطان بكلمة ﴿ بَغْتَةً ﴾ ؛ وهذا يدلنا على أن فجاءة العذاب تناسب معنى الحسرة ، فما أشد تلهّف المقصّر الذي كان يعلم أن أمامه امتحانًا صعبًا سيُسأل فيه عن كل صغيرة وكبيرة وتجده يتغافل ويلهو ويضيع وقته! ، وهكذا حرف الغين الساكن في وسط الكلمة ﴿ بَغْتَةً ﴾ يُشعر بانحباس الصوت مما يذكّر بانحباس أنفاس ذلك المتحسّر وبلوغ قلبه حنجرته فيناسب مناداة الحسرة والدعاء على نفسه بطول الندامة ، عندها يكون حُزن ذلك اليوم لا يشبه ما سواه من الأيام ، فالمرء في الدنيا إذا شكَت يده العسر يوماً وكان قد أسرف زمن اليسر تحسّر! فكيف بانتقال الحال من الأمن إلى الخوف! ومن الدنيا إلى الآخرة ! وشهود هولٍ لم يُسبق! نسأل الله النجاة .
- قولهم : ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ « فرطنا : أضعنا ، ويقال : فرط في الأمر إذا تهاون بشيءٍ ولم يحفظه ، أوفي اكتسابه حتى فاته ، وأفلت منه»[3] ، وقد

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٣٢٥/١١ .
(٢) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٢٠٠/١٠ ، مادة (صَ فَ قَ) .
(٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٢٧٤/١ .

جاء التعبير بها دون (أضعنا) أو (تركنا) ؛ لأن الترك قد لا يطلق للذم فقط بل قد يكون للمدح مثل : ترك المعصية ، ولا يُشترط أن يكون عن إهمال ، والضياع أيضاً قد لا يكون عن إهمال فلا يلام عليه المرء بينما التفريط هي الكلمة المعبرة عن الإهمال بدقة والمُشعرة بعظم الحسرة .

- قولهم : ﴿ **فَرَّطْنَا فِيهَا** ﴾ بليغة في دلالة المعنى ، وكأن عمل الآخرة كان مشاهداً في الدنيا ، ميسراً لمن أراده ثم هم أهملوا العمل به فوقفوا ذلك الموقف أمام ربهم بتحسر لا يغنيهم لاسيما أنهم ﴿ **يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ** ﴾ وهو أشد الحمل غير الرأس والمنكب ، نسأل الله السلامة .

وتأمل ذلك القول المنبعث عن المقصر المفرط في آية الزمر ابتداءً باختيار لفظ : ﴿ **نَفْسٌ** ﴾ وما فيه من ملامح بلاغية جديرة بإنعام النظر ، مما يُكسب اعتراف هذه النفس أسراره ، ومن هذه الملامح لاختيار الكلمة ما يلي :

- دلالة اللفظ المُشعرة بفقر الإنسان لبارئه ، وشدة احتياجه لخالقه ، وأنه بجسده وقلبه وروحه ما هو إلا ﴿ **نَفْسٌ** ﴾ ضعيفة بين يدي مولاه ، فإذا شاء الله توقُّفَ النَّفَس فقد توقّف كل شيء في الإنسان ، عمله ، وحياته ، وفنيت أعضاؤه ، وانتقلت روحه عن جسده إلى برزخ لا يدري ما حاله ، فليُحسن المرء إلى نفْسه وليُكرمها مادامت بين جنبيه فإذا خرجت فقد انتهى الإحسان إليها من قِبل ذاته إلا أن يرحمه الله بعمل صالح أو ولد بـار أو علم يُنتفع به ، ويقول تعالى : ﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** ﴾ (الإسراء:٧) .

- إفراد كلمة ﴿ **نَفْسٌ** ﴾ : فلم يُعبّر بـ (أن تقولوا يا حسرتنا) ، فيكون الحديث عن الجماعة الذين هم عباد الله الذين أسرفوا على أنفسهم ، والذي قال لهم سبحانه في الآيات قبلها : ﴿ **وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن**

رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (الزمر:٥٤،٥٥) ، فقد « جاءت الآية على ما جاءت عليه من الإفراد للإشارة إلى أن هذا الفيض من سعة العطاء والرحمة ، وهذا القرب من الحق إلى الخلق من شأنه أن يستجيب له عباده الذين أسرفوا على أنفسهم ، وتبقى نفسٌ من هذه الأنفس ولا يتوقف إلا الأقل المعبر عنه بالإفراد »[(١)] .

- تنكير ﴿ نَفْسٌ ﴾ : قال الزمخشري : « يجوز أن تكون نفس متميزة من الأنفس : إما بلجاج في الكفر شديد ، أو بعذاب عظيم ، ويجوز أن يراد التكثير »[(٢)] ، وقد يكون التنكير لهوان هذه النفس على الله ، ومن فوائد التنكير التي تحدّث عنها البلاغيون وقد تتداخل معاً كمثل كلمة ﴿ نَفْسٌ ﴾ في الآية هنا ، وقد أجملها الدكتور بسيوني فيود في دلالات هي :

١- للنوعية ، ومنه تنكير ﴿ أُمَمٌ ﴾ (الأنعام:٣٨) في قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام:٣٨) .

٢- دلالة أنه فردٌ غير معيّن من أفراد جنسه ، ومنه تنكير (رجل) في قولنا : هذا رجل من الرجال .

٣- دلالة على نوع خاص غريب غير معهود أو معروف،ومنه تنكير﴿ غِشَٰوَةٌ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ (البقرة:٧) .

٤- للتكثير ، ومنه تنكير (أجرًا) في قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ (الأعراف:١١٣) .

٥- للتعظيم ، ومنه تنكير ﴿ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة:١٧٩) في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة:١٧٩) .

٦- للتقليل ، ومنه تنكير ﴿ وَسَلَٰمٌ ﴾ (مريم:١٥) في قوله تعالى : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ (مريم:١٥) .

---

(١) (الزمر ـ محمد ، دراسة في أسرار البيان) ، دكتور محمد أبوموسى : ٣٦٠ .

(٢) الكشاف : ٧٧/٦ .



٧- للتحقير ، ومنه تنكير ﴿ نُّطْفَةٍ ﴾ (عبس:١٩) في قوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ (عبس:١٩) [١] .

- في قوله تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ : ما أشد ألم الاستغاثة حين لا مجيب ولا قريب ولا حبيب ! ، فالألف التي في ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ ﴾ بدل من ياء الإضافة ، وذلك في الاستغاثة لمُدة الصوت بها [٢] وهذا الأسلوب من أنواع الإنشاء غير الطلبي ، وهو إنشاء التوجّعِ أو التَّفَجُّعِ ، أو التَّرَحُّمِ ، أو التَّثْرِيب ، أَو تَقْبيحِ الحال .

وتَدُلُّ على هذه المعاني عبارات هي في الحقيقة اختصارٌ لجمل أو رَمْزٌ لها من جهة المعنى ، ففي التقبيح والتثريب ، مثل : (وَيْلَه ـ وَيْبَه) قالوا : وهما كلمتا عذاب ، أي هما كلمتان لإِنْشَاءِ التقبيح والتثريب بسبب استحقاق العذاب . . [٣]

- ﴿ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ : أي : « أمره ، وحدّه الذى حده لنا » [٤] ، ولاشك أن طاعة الله والتزام أمره توجب قربه كما قال ﷺ في الحديث القدسي : « قال الله تعالى : من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . . » [٥] ، والتعبير بالجنب يلفت النظر إلى معنى القرب من الله الذي يسعى له التقي المؤمن ، ويفزع عندما يقرأ مثل هذه الآيات فيربأ بنفسه أن يفرّط في قرب الله وحقه .

---

(١) ينظر : من بلاغة النظم القرآني : ٤١-٤٣ .

(٢) ينظر : النكت والعيون ، البغدادي : ٢١/٤ .

(٣) ينظر : البلاغة العربية ، الميداني : ١٧٢ .

(٤) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٦٦/١ .

(٥) رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الرقاق ، باب : التواضع ، (رقم الحديث : ٦٥٠٢) .

- ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴾ لم يعبّر بالمفرد : كنت ساخراً ، رغم أنه تحسر فردي وليس جماعيًّا ، ونفس الملمح نجده عند قوله : ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وقد سبقت الإشارة له في آيات أخرى ، وفيه دليل على أهمية الانتماء للجماعة والفخر بها إن كانت مؤمنة ، أو التبرؤ منها إن كانت كافرة .
- يُلحظ من كلام هذا المفرّط أن المرتبة التي توقعها لنفسه لو سلك طريق الهداية هي التقوى في قوله : ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، بينما المرتبة التي تمناها لو عاد قوله : ﴿ فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، والإحسان هو كما عرفه النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام ، حينما قال : يا رسول الله ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[(١)] ، وهو مرتبة أعظم من الإيمان ، فتتمنى هذه النفس يوم التغابن لو كانت ممن أحسنوا فجزاهم الله الحسنى وزيادة .
- والمتأمل في حال هذه النفس المتحسرة كما وصف الله عز وجل قولها : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر:٥٦-٥٨) ، يجد أن النظم القرآني المعجز جاء أولاً بالتحسر على التفريط في الطاعة ، ثم التعلل بفقد الهداية ، ثم تمني الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه ، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها[(٢)].

---

(١) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (لقمان:٣٤) ، (رقم الحديث : ٤٧٧٧) ، ورواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : معرفة الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، (رقم الحديث :٨) .

(٢) ينظر : الكشاف ، الزمخشري : ٦/٧٨ .



وهنا يشرّع لنا الله طريقاً آخراً في الدعوة إليه ، وهو أن يقترب الداعي ممن يدعوهم ويغريهم بما يقول ؛ ليس لأن المخالفة تنتهي بهم إلى الجحيم ، وإنما لأن الموافقة تنتهي بهم إلى السعادة ، فالعدل الذي يدعو إليه فيه السعادة للمدعوين ، وهكذا نرى الحق سبحانه يقترب من عباده في هذه الآيات فكأن الله يقول لهم : احذروا أن تخالفوا حتى لا تكونوا في مواجهة صعبة مع أنفسكم ، وفرق بين أن تقول لولدك : لا تفعل كذا لأنك إن فعلت عاقبتك ، وأن تقول له : لا تفعل كذا لأنك إن فعلته ستجد موقفاً حرجاً مع نفسك ، فأنت في الثاني تُحيل عقابه إلى نفسه ، وأنها هي التي ستعاقبه ، وهذا طريق جيد [١] .

* * *

---

(١) ينظر : (الزمر ـ محمد ، دراسة في أسرار البيان)، دكتور محمد أبوموسى : ٣٥٩.



المطلب الرابع

التمنى

ومن صيغ الاعتراف بالقول :

٤- التمني :

التمني من أنواع الإنشاء الطلبي،وهو طلب حصول شيء على سبيل المحبة، واللفظ الموضوع له (ليت) ولا يشترط إمكان حدوث المتمَنَّى ، وقد يتمنى بـ(هل) نحو : هل لي من شفيع ، حيث يعلم أن لا شفيع له ؛ لأنه حينئذ يمتنع حمله على حقيقة الاستفهام لحصول الجزم بانتفائه ، وقد يتمنى بـ(لو) نحو : لو تأتيني فتحدثني ، وحروف التنديم والتحضيض وهى : (هلاَّ) و(إلاّ) بقلب الهاء همزة ، و(لولا) و(لوما) [1] .

وقد ورد التمني في آيات الاعتراف بطريقين ، هما :

١- التمني بالنداء وفعل الأمر .

٢- التمني بـ(ليت) .

وقدّمت التمني بنداء الرب احتراماً لاسم الله جل جلاله ، وإن كانت «ليت» هي أم الباب .

* * *

١- اقتران التمني بـالربوبية :

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ (المؤمنون:٩٩،١٠٠) .

---

(١) ينظر : مختصر المعاني ، التفتازاني : ١٢١/١ .



وقفة مع المعنى :

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت ، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ، وقيلهم عند ذلك ، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته [1] ، وهيهات أن يتحقق له ما تمنّى ، فستظل أمنيات ممتزجةً بالندامات ، نسأل الله النجاة .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

- ﴿ **رَبِّ ٱرۡجِعُونِ** ﴾ : يعبر المقصر ذلك اليوم بلفظ ﴿ **رَبِّ** ﴾ يرجو بها رحمة الرحيم سبحانه ، ويطلب بها ما يستحيل فيستعملها تحنّناً وطلباً لعفو ربه .
- ﴿ **ٱرۡجِعُونِ** ﴾ « إنما قال بلفظ الجماعة ، لأن العرب تخاطب جليل الشأن بلفظ الجماعة »[2]، « فالواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله : ارجعني »[3] ، واستبعد الشيخ الشنقيطي هذا الوجه وأجمل القول في الآية حيث قال : « وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف : وهو أن يقال : ما وجه صيغة الجمع في قوله : ﴿ **رَبِّ ٱرۡجِعُونِ** ﴾ ولم يقل : رب ارجعني بالإفراد؟ وقد أوضحنا الجواب عن هذا في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، ويجاب عنه من ثلاثة أوجه : الأول : وهو أظهرها : أن صيغة الجمع في قوله : ﴿ **ٱرۡجِعُونِ** ﴾ ؛ لتعظيم المخاطب ، وذلك النادم السائل الرجعة يظهر في ذلك الوقت تعظيمه ربه . . . ، والوجه الثاني : قوله : ﴿ **رَبِّ** ﴾ استغاثة به تعالى ، وقوله : ﴿ **ٱرۡجِعُونِ** ﴾ خطاب للملائكة . . . ، والوجه الثالث : إنه جمع الضمير ليدل على التكرار ، فكأنه قال : رب ارجعني ارجعني ، ولا يخفى بُعد هذا القول كما ترى . والعلم عند الله تعالى »[4] .

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤٩٣/٥ .

(٢) بحر العلوم ، السمرقندي : ١٩٣/٣ .

(٣) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ١٥٠/٦ .

(٤) أضواء البيان : ١٠١/٢٦ .

- ﴿ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ : فيه إيجاز حذف ، أي : في الإيمان الذي تركته ،ولم ينظمه في سلك الرجاء كسائر الأعمال الصالحة بأن يقول: لعلى ، أو : فأعمل . . . إلخ ؛ للإشعار بأنه أمر مقرر الوقوع غني عن الإخبار بوقوعه قطعاً فضلاً عن كونه مرجو الوقوع أي لعلي أعمل في الإيمان الذي آتى به البتة عملاً صالحًا وقيل : فيما تركته من المال أومن الدنيا [١] ، وقد يتمنى بـ (لعل) في البعيد[٢] كما جاء في الآية هنا .
- إيثار لفظ ﴿ ٱرۡجِعُونِ ﴾ على (أعيدون) أو (رُدّون) ؛ لأن الردة : الرجوع عن الشيء ، ومنه الردة عن الإسلام[٣] ، وأما الرجوع : فعل الشيء ثانية ، ومصيره إلى حال كان عليها .

والعَوْد: يستعمل في هذا المعنى على الحقيقة ، ويستعمل في الابتداء مجازًا، قال الزجاج : يقال قد عاد إلي من فلان مكروه ، وإن لم يكن قد سبقه مكروه قبل ذلك . وتأويله أنه لحقني منه مكروه . ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ (الأعراف:٨٨) ، والمعنى : أو لتدخلن في ديننا . فإنه عليه السلام لم يكن على دينهم قط [٤] ، فكان لفظ ﴿ ٱرۡجِعُونِ ﴾ هو الأدق في الدلالة على المعنى .

* * *

٢- التمني بـ(ليت) :

معنى (ليت) :

(ليت) تشابه الأَفعال بقوَّة أَلفاظها واتصال أَكثر المضمرات بها وبمعانيها[٥]، وتستعمل للتمني كما قد تستعمل بلاغيًّا في الأمر غير البعيد ولا المتعذر ، للإشعار مثلاً برفعة منزلة الشخص الذي يوجه له المطلوب بها ، كأن يقول

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ١٥٠/٦ .
(٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٢٢١/٢ .
(٣) ينظر : جمهرة اللغة ، ابن دريد : ٣٢/١ ، مادة (رَ دَ دَ) .
(٤) ينظر : الفروق اللغوية ، العسكري : ٢٥٠/١ .
(٥) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٨٦/٢ ، مادة (لَ يْ تَ) .



التلميذ الذي يحب شيخه ويعظمه : (ليتك تزورني في داري) مع أن الشيخ من عادته أن يزور أصغر تلاميذه[1] .

شواهده ثلاثة ، هي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام:٢٧) .

٢- قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب:٦٦-٦٨) .

٣- قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ (الفجر:٢٤) .

وقفةٌ مع المعنى في الآيات المتضمنة التمنّي بـ(ليت) :

ذكر الله تعالى حال الكفار والمفرطين ، إذا قدموا على الله صفر اليدين من الزاد ، وإذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، ثم إذا تقلبوا فيها ، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ، حينها يعترف كلُّ امرئ بما ارتكب من زلل ، أو ذنب ، أو جرمٍ في حق نفسه وفي حق ربه ، فلا يكون للاعتراف حرقة توازيه ، إلا العذاب الذي يتقلّبون فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام:٢٧) .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- تأمل دخول حرف النداء (يا) على أداة التمني (ليت) وعلى كلمة (ويلتى) في : (ياليتنا ، ياليتني) نجده ينبئ بالأسى ، ويشعر بالحزن والألم ، والندم والتحسر ، وكأن الكافر والظالم يخرجان ما بداخلهما من آلام وأحزان ، ويجدان في امتداد النطق بحرف النداء (يا) متنفّساً من خلاله أحزانهما وآلامهما ...[2] ،

---

(١) ينظر : البلاغة العربية ، الميداني : ١/٣٥٩ .

(٢) ينظر : من بلاغة النظم القرآني ، دكتور بسيوني فيود : ١٨٠ .



فهنا حرف (يا) في قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ يَٰلَيۡتَنَا ﴾ للتمني والتنبيه بما يحمله من نداء ؛ لقصد إسماع من يرثى لحالهم مثل : (يا حسرتنا) .

- ﴿ نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ : هنا اعتراف صريحٌ مع تصريح بالذنب الذي كانوا يرتكبونه في الدنيا بخلاف قولهم : ﴿ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ ﴾ (الأعراف:٥٣) [1] ، فهو اعترافٌ صريح لكن إخفاء الذنب واضحٌ فيه ، وهذا يدل على أن مقامات القيامة متعددة يومئذ ، ومعها تتعدد الاعترافات ، ففي الآية هنا برز الموقف : أنه الوقوف على النار : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ فبرز معه ذنبهم ، بينما الآية في سورة الأعراف كان صدرها : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ ﴾ (الأعراف:٥٣) لم يذكر لنا المقام في الآية محدداً إنما جاءت الإشارة إلى أنه سيأتي ما يؤول إليه حالهم ، فناسب عدم ذكر المقام ، عدم ذكر الذنب الذي عملوه .

- ﴿ نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ : يتمنى الكفار حينها الرجعة وعدم التكذيب بآيات الله وتصديق رسله ، والانضمام في ركب المؤمنين ، فجاء تقديم عدم التكذيب على تغيير البيئة التي كانوا فيها والعمل بعمل المؤمنين ومصاحبتهم ، وهذا مناسبٌ لطبيعة النفس والتدرج معها لتصحيح الخطأ ، ومناسبٌ للتخلية قبل التحلية ، فسبحان من هذا كلامه ، نظمٌ بديع ولفظ جزل ، وأبلغ صورة .

قوله تعالى : ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ (الأحزاب:٦٦-٦٨) .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- صورة العذاب الذي ينالونه ذلك اليوم ، تجعل اعترافهم وهم في هذه الحال معبّراً مختلِفاً عن أي اعتراف لا تتوفّر فيه هذه الظروف ، فيصف الله العذاب

---

(١) ينظر : ص ١٦٠ .

بقوله : ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ ﴾ عُبِّر «بالتقليب» عن احتراق الوجه في أبلغ عبارة تصوّر هول المنظر ، فقد أضاف تشديد اللام ﴿ تُقَلَّبُ ﴾ المعنى تضعيفاً ومبالغةً في مس العذاب كل الوجه ، والتقليب : شدة القلب ، والقلب : تغيير وضع الشيء على غير الجهة التي كان عليها ، والمعنى : يوم تقلب ملائكة العذاب وجوههم في النار بغير اختيار منهم ، أو يجعل الله ذلك التقلب في وجوههم لتنال النار جميع الوجه ، كما يقلب الشواء على المشوي لينضج على سواء ، ولوكان لفح النار مقتصراً على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة ، وتخصيص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء ؛ يحتمل أسباباً عدة منها :

- أن حر النار يؤذي الوجوه أشد مما يؤذي بقية الجلد .
- أنه مقر الحواس الرقيقة : العيون ، والأفواه ، والآذان ، وجاء التعبير بالوجه في أكثر من آية ، ليتعظ من يخاف مقام ربه بهذه العظات ، كقول الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ ﴾ (الزمر:٢٤) .
- والتعبير بالوجوه دون غيرها ـ مع اليقين أن أجسادهم تأخذ النصيب نفسه من العذاب ـ يكسب المتدبر معنى آخراً ، وهو أن كل أعضائهم تصبح بحساسية الوجه من جسم الإنسان .
- أن أكرم بقعة في الإنسان هي الوجه ، وتعرّضها للإهانة يعني الهوان بعينه .
- أن الموقف في غاية الألم الجسدي والنفسي مما يجعل الكافر يرفع صوته بالويلات والحسرات ويمد كلماته ، ويطيل عباراته الشاكية الباكية ، لعلّها أن تنفعه وهيهات ! وقد جاءت فواصل الآيات دالة على هذا الملمح : ﴿ ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ و﴿ ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ فذكر المد (الألف) في فواصل الآي يقتضيه المقام ، مع أن القياس لا يحتّم المد ، ولم يكن المد في أول السورة في لفظ (السبيل) في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ (الأحزاب:٤)، فالفرق بينهما أن آيتي المد هما من قول أهل النار ، وهم يصطرخون فيها ، ويمدون أصواتهم بالبكاء ، كما أخبر عنهم ربنا جل وعلا بقوله : ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ (فاطر:٣٧) ، فالمقام هنا مقام صراخ ومد صوت فناسب المد[1] .

---

(١) ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، فاضل السامرائي : ٤٠ .

- بلاغة ذكر كلمة ﴿ أَطَعْنَا ﴾ مرتين في قول المتحسر : ﴿ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾ تؤكد حسرة العصيان وتمنّي إمكان الطاعة حينها ، إذ يستحسن النادم تكرار الألفاظ التي توحي بتقصيره ؛ لعله أن يجد من يخلصه من هذا العذاب وينقله لما يتمنى .
- قولهم : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾ بعد موجة الندم الجارف كأنهم يخففون عن أنفسهم ـ ظنًّا منهم ـ عن طريق إلقاء التهمة على آلهتهم ، والابتداء بالنداء ووصف الربوبية إظهارًا للتضرع والابتهال .
- التعبير بالسادة والكبراء دون الآلهة ، كما ورد في آيات أخرى يجعل خصيصة لهؤلاء الصنفين من الناس ، وانتفاء الترادف بينهما ، فالسادة : جمع سيد ، وهم عظماء القوم والقبائل مثل الملوك ، وأما الكبراء : جمع كبير وهو عظيم العشيرة وهم دون السادة فإن كبيرًا يطلق على رأس العائلة فيقول المرء لأبيه : كبيري ، ولذلك قوبل قولهم : ﴿ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾ بقولهم : ﴿ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ والجملة خبر مستعمل في الشكاية والتذمر ، وهو تمهيدٌ لطلب الانتصاف من سادتهم وكبرائهم ، فالمقصود الإفضاء إلى جملة ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ومقصود من هذا الخبر أيضًا الاعتذار ، والتنصل من تبعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون ، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به من الحقيقة إذ قالوا : ﴿ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ [1] .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ (الفجر:٢٤) .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- حرف النداء في قوله : ﴿ يَٰلَيْتَنِى ﴾ للتنبيه اهتمامًا بهذا التمني في يوم وقوع العذاب[2]، وسبقت الإشارة إلى البلاغة من دخول يا النداء على (ليت) [3] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١/٣٤٠٠ .
(٢) ينظر : السابق : ١/٤٨٢٢ .
(٣) ينظر : ص ١٨٧ .

- ذاك المغبون على فوات الدنيا دون عمل صالح في سورة الفجر يقول : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ ، ويعنى بها الحياة الأخروية الدائمة [1] وكم تحمل هذه الجملة من العبرة للمعتبرين لو صدقنا معها التأمل ، فالندم العميق يتبين من اختيار الكلمات :
- فلعل التعبير بلفظ ﴿ قَدَّمۡتُ ﴾ دون (عملت) يُشعر بضرورة جعل أعمال الآخرة في المقدمة دون غيرها ، كما أن التقديم ينبّؤ عن جودة الفعل ، أما لفظ «عملت» فلا يشترط منه ذلك ، وقد يكون عملاً شريفًا صالحًا وقد يكون غير ذلك .
- التعبير باللام في قوله : ﴿ لِحَيَاتِي ﴾ تحتمل معنى التوقيت ، أي : قدمت عند أزمان حياتي ، فيكون المراد الحياة الأولى التي قبل الموت ، وتحتمل أن يكون اللام للعلة[2] ، أي : قدمت الأعمال الصالحة لأجل أن أحيا في هذه الدار ، فيكون المراد : الحياة الكاملة السالمة من العذاب ؛ لأن حياتهم في العذاب حياة غشاوة وغياب ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾ (الأعلى:١٣)[3]، وهنا يتبيّن الفرق بين التعبير بـ(في) و (اللام) في قوله تعالى : ﴿ لِحَيَاتِي ﴾ ، فالفاء تنقل المعنى إلى الحياة الدنيا ، بينما اللام تجعل معنى التقديم للحياة الآخرة وهو الوارد في الآية .
- نلحظ في الاعتراف ألم المفرط واستعمال ضمير المتكلم عند قوله:﴿لِحَيَاتِي﴾ أن الحياة الآخرة هي الحياة التي تستحق أن ينسبها المرء لنفسه لا الحياة الدنيا ؛ لأنها المقام الدائم ، والمقر الذي يجد الإنسان فيه صنيعه الذي صنع في الدنيا إن كان ذلك العبد الكيّس الذي يعمل لما بعد الموت ، أما الحياة الدنيوية فهو كساكن مستأجر لا يصدق إن سماها (حياتي) وهو سيتركها

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ١/١٣٩ .
(٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٤٩٨ .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١/٤٨٢٢ .

في أي لحظة لا يدري متى تحين ، وقد ورد عن قتادة في قوله : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر:٢٤) : هُناكُم والله الحياة الطويلة[1] .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

خصائص أسلوب (التصريح) :

١- المطلب الأول : الإقرار :

جاء بسبع طرق في آيات الاعتراف بالزلل ، لكل طريقٍ خصائصه وهي :

- الإقرار بالحرف (بلى) :

وقد ارتبط هذا الإقرار الذي كان في خمسة شواهد بما يأتي :

- اعترافات الكفار : إذ لم يتصف به المؤمنون ؛ لأنهم لم يتعرضوا لهذا التوبيخ ، فلم يكونوا بحاجة استدراك ، لذا لم يأت هذا النوع من الاعتراف في الدنيا ، فقد ارتبط بسياقات الآخرة المحكية في نار جهنم ، ومنها قوله تعالى : ﴿ **وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ** ﴾ (الأنعام:٣٠) .

- رؤية نار جهنم : فكانت الاعترافات إما من داخل نار جهنم عندما ذاقوا عذابها ، أو عندما عُرضت عليهم النار ، فكان في غاية الإيجاز ، وهكذا الاعتراف عندما يكون في لحظة عذابٍ ، وهول ، وصدمة ، ومنها قوله تعالى : ﴿ **وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ** ﴾ (الأحقاف:٣٤).

- استفهام التوبيخ والتقريع : فكلُّ ما كان من اعترافات أهل النار كان بعيْد استفهامٍ من هذا النوع ، مما يدلّ على أن الحال التي ألزمت الكفار

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٤٢١/٢٤ .

باعترافاتهم القولية هي الشدة والغلظة معهم ، وتشديد النكال بهم وهو جزءٌ من عذابهم النفسي في الآخرة ، ومنه مع ما ذُكر من الآيات قبلُ قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ (الملك:٨،٩).

- الإقرار بلفظ الشهادة :

جاء في شاهدٍ واحدٍ ظهر فيه من بين كل شواهد الاعتراف شدة الحياء من الله ، فتوجه الإقرار إلى الشهادة على النفس لاسيما والموقف عرض ومناقشة على الجبار سبحانه ، بحضور ملأ الثقلين منذ أن خلق الله الأرض وما عليها ، فكان ذكر نداء الثقلين في مطلع الآية والله أعلم من مسبّبات اعترافهم بلفظ (الشهادة) ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام: ١٣٠) .

- الإقرار مصدراً بنداء الرب جل وعلا :

ظهر في هذا الطريق ما يأتي :

- انكسار النفس ، وتقديم الخضوع تذللاً وتحنناً للباري سبحانه .
- التبرؤ الصريح الواضح من كل ماضٍ من المعصية ، أو الشرك ، فجاء مناسباً لمقتضيات الإيمان بالربوبية التي لا تنبغي إلا له سبحانه وتعالى .

- الإقرار بلفظ دالٍ على تخلي الخصم :

اجتمع في شواهده ما يأتي :

- غياب الأنس بالمعبودات وبالأهل والأحباب ، ووحشة الروح .

- ورود الاعترافات عند سؤال الملائكة:﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (الأعراف:٣٧) ، ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (غافر:٧٣،٧٤) ، فجاء التعبير بتخلي الخصم نتيجة حتمية لهذا الفراغ الروحي الذي عاشوه ، فقد وكلوا إلى أنفسهم ، فوُكلوا إلى ضعفٍ وخور ، فضلّوا وخابوا .

- الإقرار بتسمية الزلل :

جاء الإقرار بتسمية الزلل متميّزًا بالتالي :

- ثبات النفس عند استقرار المصير ، وتمكّن من الموقف ، والثقة بما هو آت من الوعد أو الوعيد ، لا دهشةً ولا صدمةً في مواقف هذه الاعترافات ، فتسنّى حينها تسمية الزلل .
- وردت ألفاظه بصيغة الماضي ، لتؤكد تعدي مرحلة الاضطراب النفسي التي قد يصيب المعترف فيصورها الفعل المضارع بالتجدد والحدوث .

- الإقرار عن طريق التلفظ بالصواب :

جاء الإقرار عن طريق التلفظ بالصواب متميّزًا بالتالي :

- وردت الاعترافات به في لحظات رؤية الهلاك يقترب من الكافرين ، فكان التلفظ بالصواب في تلك الحال رجاء النجاة ، وصد ما يمكن صده من العذاب .
- كانت الصيغة المستعملة في هذه الآيات من قبل الكافرين كانت محددة ، هي : (آمنت) ، (آمنا) ، وهي صيغة فيها مباشَرة في الجواب ، وإيجاز شديد ، دون أي مقدمات استعطاف أو تحنّن ، كما في صِيغ (ربنا) .

- التمهيد للإقرار :

تميّزت آياته بالتالي :

- مجيئها في السياقات الدنيوية ، في الاعترافات المقدمة للبشر ، حيث يتاح فيها التمهيد والتفكير قبل الإقرار ؛ فمقامات الدنيا وإن صعبت لا تقارن ألبتة بالمقامات العصيبة بين يدي الله جل وعلا في أرض المحشر ، وما يتبعه من العرصات .
- حدوثها في مواقف انكشاف أمر لم يكن متوقّعاً في أحداث قصة .
- انبعاثها من الشخصيات الأدنى والتي هي في مقام الضعف تجاه الشخصيات القوية صاحبة الحق .
- سبب مجيئها بطريق التمهيد والله أعلم هو خوف الضعيف من غضب القوي .

* * *

٢- المطلب الثاني : التأكيد :

- التأكيد باستعمال القسم :

- ارتبطت الاعترافات فيه بـ(تالله) فأفادت معنى التعجب الذي لا ينفك عن هذه الصيغة من الحلف ، فظهر في تلك الاعترافات الانكسار والتعجب في آن من سير الأحداث على خلاف توقعات المذنبين ، فكان التأكيد بالقسم والتعبير بهذه الصيغة تحديداً حكاية عنهم في البيان المعجز دالةً على شدة الدهشة مع اللهفة التي أصابت المعترفين فلجؤوا لتأكيد اعترافهم .

- التأكيد بـ(إن) :

- اجتمعت في التأكيد بـ(إن) أمام المقصرين حقيقة غابت عنهم ، في لحظة انكشاف أمام أنفسهم ، فكانت المصيبة مضاعفة في حقهم ، فأفاد التأكيد وصف شدة الانفعال الذي اعتراهم،وصدق أنفسهم في الوقوف على خطئها .

- اشتركت الأوصاف التي وصفوا أنفسهم بها بصياغتها المصدرية ، دلالةً على دوام الاتصاف بها ، مما يزيد فائدة التأكيد في الاعتراف بالزلل .

- التأكيد بـ(نون التوكيد الثقيلة) :

- ارتبطت الاعترافات المؤكدة بنون التوكيد الثقيلة بالشيطان ـ أعاذنا الله منه ـ ، حيث اشتركت الاعترافات الشيطانية في الآيات الكريمة باقترانها بلام القسم(١) ، ونون التوكيد الثقيلة ، من المؤكدات على فعلته التي يترصد الشيطان في كل زمان ومكان ليفعلها ، ويلحظ أن كل الاعترافات متلبسة بالكبر والتوعّد ، ورغم اختلاف الأفعال المقترنة بنون التوكيد إلا أنها كلها في معنى الضلال والتسويل .

- التأكيد بـ(قد) :

- أظهر حالة تيه وتخبّط أصابت الكفار من سؤال الملائكة ، فارتبط الاعتراف المحكي عنهم بهذا الحرف مؤكداً حجم الجرم الذي عاشوا عليه في دنياهم من تكذيب الرسل ، فلم يكتفوا بالاعتراف بل بتأكيد يقينهم بإرسال الرسل الذي طال إنكارهم له .

* * *

٣- المطلب الثالث : الدعاء :

- الدعاء بلفظ الربوبية ، والدعاء بتنزيه الرب جل في علاه :

- تميز الأسلوب فيه بظهور اعتراف النفس المؤمنة ، حيث ظهر فيه صدق الالتجاء إلى الله عند اقتراف الذنب بطلب المغفرة ، وكان صدوره عن الأنبياء عليهم السلام .

---

(١) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ١٣٤/٢ .

- الدعاء بالويل :

- ارتبط الدعاء على النفس بالويل بفوات فرصة إصلاح الخطأ ، واللوم الشديد لها ، وانقطاع الرجاء ، وهذه الأمور تناسب لفظ الويل .

- الدعاء بالحسرة :

- امتازت آياته بورود صفتين : إحداهما للعذاب ، والثانية للمقصّر ، فالأولى هي المباغتة ، والثانية التفريط ، واجتماع هاتين الصفتين جعل التعبير بنداء الحسرة والدعاء على النفس بليغاً في شواهده ، فنفسٌ بالغت في الغفلة ، وترك الاستزادة حتى كانت مفرطة ، مع مجيء العذاب بغتة يناسب التعبير بالحسرة إذ هي الانفعال الصادق الذي يقطّع القلب أسىً ، فيدل على تأنيب ضمير مستمر لا ينقطع ، فيزداد به العذاب .

* * *

٤- المطلب الرابع : التمني :

- التمني بالنداء والأمر :

- ارتبطت الآيات فيه بمحال ، وهو : الرجعة إلى الدنيا ، فناسب أن يرد الاعتراف بأسلوب التمني .
- وارتبط هذا الأسلوب بالفعل (ارجعون) تعظيماً لله بالنون ، رجاء نيل هذه الأمنية المستحيلة ، وجاءت في لحظة الموت فكان التعبير بالربوبية يحمل ذلاًّ واستجداءً وتحنناً لله عز وجل .

- التمني بـ (ليت) :

- كشفت الاعترافات فيه عن فقد الظالمين في قاع جهنم للأمل في النجاة والخروج ، فصُدرت اعترافاتهم بهذا النداء (ياليت) بما يحمل من متنفس للمحزون المتألم ، ولن يهوّن عنهم من العذاب شيء .

* * *

المبحث الثاني

التعبير بالتلميح

بعدما أنهينا المبحث الأول من صيغ الاعتراف بالقول : وهو : التعبير بالتصريح ، نَفِد الآن على المطلب الثاني : وهو التعبير بالتلميح ، لنتعرّف على صيَغه وأسراره وإعجازه .

من طبيعة الإنسان إذا لم يُرِد التصريح بالمعنى الذي يَقْصِده ، فإنّه يتّخذ للإشعار به أسلوباً غيرَ مباشر ، وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام احترام فكر المخاطب ، وتقديره بترك استخدام الأسلوب المباشر ، اعتماداً على أنه لماحٌ تكفيه الإشارة الخفيفة والخفية ، أو بترك الإطناب والشرح ، واللجوء إلى الإشارة والرمز .

ويدخل في هذا الكنايات ، ورموز الأقوال ، والتلميحات ، والمعاريض ، ونحو ذلك .

ولا ريب أن من احترام فكر المخاطب ، وتقديره بمخاطبته تلميحاً في الأشياء التي يمكن أن يفهمها بنفسه ، إذا كان أهلا لذلك ، ويحسن هذا التلميح جدًّا إلى حد الرمز في مواقف خاصة ، منها أن يتطلب الموقف إعلام المخاطب وحده ، مع إخفاء الأمر عن حاضري مجلسه (١) .

وقد ورد الاعتراف في بعض الآيات مغلفاً يُفهم من اللفظ الوارد حكايةً عن الشخصيات المذكورة في القصة ، دون التصريح به ، وقد يرد الاعتراف عن ذات الشخص صريحاً تارةً ، وتلميحاً تارةً ، كحال الظالمين والكافرين يوم القيامة ،

(١) ينظر : البلاغة العربية ، الميداني : ٧٧-٢٠٨ .

وهذا يختلف باختلاف مقامات القيامة ، ووقوفهم بين يدي الله عز وجل ، وقد يكون ذلك عند اختلاف المخاطب ودرجة علمه بالشيء ، فيُصرح لفلان مالا يصرّح لآخر ، وجاء هذا في المواقف الدنيوية [(١)] ، ويرجع الاعتراف بالزلل تلميحاً لأسباب اجتهدتُ في حصرها حسب ما استقرأته من الآيات التي ورد فيها الاعتراف تلميحاً ، ترد في نتائج المبحث إن شاء الله .

تعريف (التلميح) :

في البلاغة :

قال عنه الخطيب القزويني : هو أن يشار إلى قصة أو شعر ، من غير ذكره[(٢)] .

وزاد الجرجاني : هو أن يشار في **فحوى الكلام** إلى قصة أو شعر ، من غير أن تذكر صريحاً[(٣)]، وإضافة (فحوى الكلام) في تعريف الجرجاني مهمة ، إذ تدل على أن الإشارة المقصودة قولية ، وعلى هذا ضُمّ مطلب التلميح ضمن الصيغ القولية للاعتراف بالزلل .

في اللغة :

اللمحة : النظرة . ولمحه ببصره وألمحه ، والألمحي : الذي يلمح كثيرًا ، وكذلك اللمَّاح [(٤)] .

يتضح مما سبق بيانه أن التلميح هو معنى يُفهم من الكلام ضمناً ، لا أن يتكلم بمفرداته الإنسان فيعرّف بذنبه في حال استعماله أسلوباً للاعتراف .

---

(١) وسيكون هذا في الفصل الأول من الباب الثاني إن شاء الله ، ينظر : ص٣٤٣ .

(٢) الإيضاح :٣٨٨/١ .

(٣) التعريفات ، علي الجرجاني : ٩١/١ .

(٤) المحيط في اللغة ، ابن عباد : ٢٣٠/١ ، مادة (لَ مَ حَ) .

علاقة (التلميح) بغيره من المصطلحات البلاغية المشابهة :

– علاقته بـ(الكناية) ، وما يتفرع عنها من : (التعريض) ، و(التلويح) ، و(الرمز) :

ذكر السكاكي في حديثه عن الكناية قوله : « الكناية هي : ترك التصريح بذكر الشيء على ما ذُكِر ما يلزمه ؛ لينتقل من المذكور على المتروك ، كما نقول : (فلان طويل النجاد) لينتقل منه على ما هو ملزوم ، وهو :(طول القامة) » [1] .

وقال في تفرعاتها : « متى كانت الكناية عرضية كان إطلاق اسم **(التعريض)** عليها مناسبًا ، وإذا لم تكن كذلك نُظِر : فإن كانت ذات مسافةٍ بينها وبين المكنى عنه ، متباعدةٍ لتوسط لوازم ، كما في : (كثير الرماد) وأشباهه ، كان إطلاق اسم **(التلويح)** عليها مناسبًا ، لأن التلويح هو أن تشير على غيرك عن بعد ، وإن كانت ذات مسافةٍ قريبةٍ مع نوع من الخفاء ، كنحو : (عريض القفا) ، و(عريض الوسادة) ، كان إطلاق اسم **(الرمز)** عليها مناسبًا ؛ لأن الرمز هو أن تشير على قريب منك على سبيل الخفية » [2] .

وهذه المصطلحات : (التعريض ، التلويح ، الرمز) متعلّقةٌ بإيصال المعنى عن طريق لازم اللفظ ، أما الاعتراف بالتلميح هو إيصال المعنى عن طريق لفظ يحمل تلميحًا ، لذا آثرت البعد عن هذه المصطلحات كي لا تتداخل المفاهيم ، وأوردتها لتقارب التعريفات النظرية في الدلالة على المعنى ، والفرق أن تلك المصطلحات توصل المعنى عن طريق التشبيه أو المثل ، بينما التلميح في بحثنا لا يشترط هذا .

---

(١) مفتاح العلوم : ١٧٥ .

(٢) مفتاح العلوم : ١٧٩ .

علاقة (التلميح) بـ (التورية) ، و(الإيهام) :

مصطلح (التورية) و « تسمى (الإيهام) أيضًا ، وهو أن يُطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد به البعيد اعتمادًا على قرينةٍ خفيةٍ ، وهي ضربان : الأولى مجردة وهي : التورية التي لا تجامع شيئًا مما يلائم المعنى ، والثانية : مرشحة ، التي تجامع شيئًا مما يلائم المعنى القريب »[1] .

لكن التورية تختلف عن التلميح المراد في المطلب الحالي من حيث إن التورية يكون اللفظ فيها له معنيان في الأصل ، لكن التلميح لا يكون للفظ معنيان ، بل قد لا يشير إلى المعنى المفهوم تلميحاً إلا مع اجتماع الكلمات ، واتحاد النظم ، حينها تتشكّل جملة الاعتراف فيكون حينها بادٍ للمتدبّر ، فالقيد في تعريف التلميح هو « أن يشار له في فحوى الكلام دون أن يذكر صريحاً »[2] .

وقد ذكر السكاكي بقوله : « اعلم أن أرباب البلاغة وأصحاب الصياغة للمعاني مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه ، وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر »[3] ، ذكر ما يكسب التلميح قيمته ، قياساً على الكناية ـ من حيث التشابه في عدم التصريح ـ فتجد فيه إمتاعاً للعقل بالتفكير ؛ فما كان من الأقوال بحاجة إلى طول التدبّر والتأمّل للتوصل إلى الزلل المراد ، والاعتراف المخفي ، كان ألذّ للمتدبّر ، وأمتع للعقل ، وأبلغ في وصول المعنى ، والآيات الكريمات تؤثّر في النفس تأثيراً بالغاً ، فمتى كان التلميح مطلباً للمعنى جاءت الكلمات على أبلغ نسق ، وأحسن صياغة .

---

(١) مختصر المعاني ، التفتازاني : ٢٥٤ .
(٢) ينظر : ص ٢٠٥ .
(٣) مفتاح العلوم : ١٨٠ .

ولأن كتاب الله أفصح كلامٍ ، وهو المعجز من لدن حكيمٍ خبير سبحانه ، فكل أسلوبٍ جاء متناسباً مع السياق الذي ورد فيه ، والمقام الذي حكى عنه بدقةٍ وإحكام ، فالإيجاز في مواضعه يكون بليغاً ، والإطناب في مواضعه يكون كذلك ، قال ابن عاشور في مقدمته : « وسلك القرآن مسلك الإطناب لأغراضٍ من البلاغة ، ومن أهم مقامات الإطناب : مقام توصيف الأحوال ، التي يراد بتفصيل وصفها إدخال الروع في قلب السامع ، وهذه طريقةٌ عربيةٌ في مثل هذا ، . . . ومن آيات القرآن في مثله قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ (القيامة:٢٦-٣٠) . . .وقوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ (إبراهيم:٤٣) »[(١)] .

ويرى الدكتور محمد دراز في كتابه (النبأ العظيم) أن القرآن إيجازٌ كله بقوله : « إن القرآن الكريم يستثمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني ، أجل تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس (مقام الإيجاز) ، ومواضع تفصيله التي يسمونها (مقام الإطناب) ، ولذلك نسميه : إيجازٌ كله ؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما ، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ، ولا بما يساويها ، فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرفٌ إلا جاء لمعنى »[(٢)] .

و(التصريح) و(التلميح) يكتسب كلّ فنٍّ بلاغته بحسب مقامه كذلك ، وإن كان هذا في كتاب الله جل وعلا ، وهو المثل الأعلى للبلاغة والفصاحة ، فما

---

(١) مقدمة التحرير والتنوير : ٢/١٨٠ .

(٢) النبأ العظيم : ١١٥ .

دونه من سائر كلام الناس تكون البلاغة فيه بحسب الحال والمقام ، فكلام السكاكي لا يطّرد .

علاقة (التلميح) بـ(المفهوم) :

(المفهوم) و(المنطوق) :

تشبه دلالةُ التلميح المقصود مصطلح (المفهوم) في علوم القرآن وأصول الفقه ، حيث يقابل (المنطوق) الذي يشبه (التصريح) في بحثنا ، فالمفهوم هو : « ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق ، وهو قسمان : مفهوم موافقة ، ومفهوم مخالفة »[1] ، والذي يناسب معنى التلميح هنا مفهوم الموافقة .

شواهد التلميح :

سنلحظ في الشواهد ما يصدق عليه لفظ التلميح في التعبير عن الاعتراف دون ورود ألفاظه صراحة ، وقد اجتهدت في استقراءِ ما بدا لي واضحاً منها ، وجاءت في خمسة عشر موضِعاً ، سأدرسها حسب ورودها مرتبة في المصحف ، وأرجو أن أكون قد وُفقت للصواب .

* * *

١- قال تعالى : ﴿ **قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾ (هود:٧٩) .

---

(١) مفهوم الموافقة : هو ما يوافق حكمه المنطوق فإن كان أولى سُمي فحوى الخطاب ، وإن كان مساويًا سُمي لحن الخطاب .
وأما مفهوم المخالفة : فهو ما يخالف حكمه المنطوق وهو أنواع مشروحة بتفصيلاتها في مظانها . . . ، (ينظر : الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٢/٨٤) .

وقفة مع المعنى :

ذكر الله تعالى قصة قوم لوط عليه السلام ومجيء قومه مسرعين إلى بيته لمّا علموا بأضيافه ، فعرض عليهم بناته فأجابوه بهذا القول [(١)] ، « أي : إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ، وليس لنا غرض إلا في الذكور ، وأنت تعلم ذلك ، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ » [(٢)] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ** ﴾ « تأكيدٌ لكونه يعلم ، فأُكّد بتنزيله منزلةَ من ينكر أنه يعلم ؛ لأن حالة في عرضه بناته عليهم كحال من لا يعلم خُلقهم ، وكذلك التوكيد في ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾ ، وكلا الخبرين مستعمل في لازم فائدة الخبر ، أي : نحن نعلم أنك قد علمت ما لنا رغبة في بناتك ، وإنك تعلم مرادنا ، . . . و(ما) الأولى نافية معلّقة لفعل العلم عن العمل ، و(ما) الثانية موصولة ، والحق : ما يحقّ ، أي يجب لأحد أو عليه ، فيقال : له حق في كذا ، إذا كان مستحقًّا له ، ويقال : ما له حق في كذا ، بمعنى لا يستحقه ، فالظاهر أنه أطلق هنا كنايةً عن عدم التعلّق بالشيء ، وعن التجافي عنه ، وهو إطلاق لم أر مثله ، وقد تحيّر المفسرون في تقريره ، والمعنى : ما لنا في بناتك رغبة » [(٣)] .
- دقة التعبير بـ(حق) فمعناه : « من شهوة ولا حاجة ؛ لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق » [(٤)] .

المعنى المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

اعتراف قوم لوط عليه السلام بإتيانهم للذكور ، ورغبتهم في ضيف نبيهم عليه السلام ، دلت عليه جملة الاعتراف مع دلالة التفسير ومعنى الآيات .

* * *

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٥/٤٧٠ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤/٣٣٨ .
(٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٢/١٢٩ .
(٤) غرائب القرآن ، النيسابوري : ٤/٤٠ .

٢- قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ (البقرة:١٦٧).

وقفة مع المعنى :

الكرة هي الرجوع إلى الشيء ؛ والمراد هنا : الرجوع إلى الدنيا ؛ فنتبرأ منهم في الدنيا إذا رجعنا كما تبرؤوا منا هنا في الآخرة ؛ فنجازيهم بما جازونا به ؛ لكن أنى ذلك!!! فهذا التمني لا ينفعهم ؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧) [(١)] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- (لو) في قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ مستعملة في التمني ، وهو استعمال كثير لحرف (لو) ، وأصلها الشرطية غير جازمة[(٢)]، حذف شرطها وجوابها ، واستعيرت للتمني بعلاقة اللزوم ؛ لأن الشيء العسير المنال يكثر تمنيه ، وسد المصدر مسد الشرط ، والجواب وتقدير الكلام : لو ثبتت لنا كرة لتبرأنا منهم ، وانتصب ما كان جوابًا على أنه جواب التمني ، وشاع هذا الاستعمال حتى صار من معاني (لو) وهو استعمال شائع ، وأصله مجاز مرسل مركب ، والكرة : الرجعة إلى محل كان فيه الراجع ، وهي مرة من الكر ، ولذلك تطلق في القرآن على الرجوع إلى الدنيا ؛ لأنه رجوع لمكان سابق . . . [(٣)]

ونلحظ من اعترافهم مشاعر القهر التي تسيطر على الأتباع من الضعفاء في ذلك الحين ، فصيغة (لو) تظهر لنا عمق التمني يومئذ ، حين يرون تخلي من اتبعوهم ، وظهرت لهم خسارتهم وخيبتهم .

---

(١) ينظر : الكنز الثمين ، ابن عثيمين : ١٨٨/٤ .

(٢) ينظر : إعراب القرآن وبيانه ، محيي الدين درويش : ٢٣١/١ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٤٨٢/١ .

- ﴿ فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ : تكرير لفظ التبرؤ في قوله تعالى : ﴿ فَنَتَبَرَّأَ ﴾ و﴿ تَبَرَّءُواْ ﴾ ينبئ عن نفوسهم المشحونة غلاًّ وحقداً على هذا التيه ؛ بسبب خيبة أملهم في أتباعهم التي يعيشونها في نار جهنم يوم القيامة ، حيث ظنوا منهم النفع ، لكنهم تفاجئوا أن هؤلاء الأتباع ضعفاء مثلهم لا ينفعونهم بشيء .
- ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ ﴾ : «ليت لنا رجعة الى الدنيا فنتبرأ منهم هناك ، كما تبرءوا منا اليوم»[1] يلحظ هنا أن تمني الرجعة لم يعبّر عنه لأجل الاستزادة من العمل الصالح كما ورد في كثير من الآيات ، إنما جاء كي يفرغوا ما في أنفسهم من الغيظ والغل ، ويكونوا هم في موقف القوة ويتبرؤوا من متبوعيهم ، والفرق بين الأمنيات ظاهر في أن سياق الآية هنا كان خصومة بينهم وبين متبوعيهم في نار جهنم ، لذلك تمنوا أن يذيقوهم من نفس كأس مرارة الخذلان التي أذاقوهم منها ، ولم يكن السياق استرجاع حالهم في الدنيا وندمهم ، فيكون تمنيهم للعمل الصالح حينئذ ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون:٩٩-١٠٠) ، ويا للحسرة في كلا الموقفين !

الاعتراف المفهوم من منطوق الآية :

يفهم من المتبوعين قولهم : إن تبرأهم منا هو نتيجة لاتباعنا لهم وغيّنا ، وضلالنا ، وجهلنا ، «وذلك أن الرؤساء لما تبرؤوا منهم ولا ينفعونهم شيئًا ، ندمت السفلة على اتباعهم في الدنيا ، ويقولون في أنفسهم ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ ﴾ من القادة ﴿ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾»[2] .

* * *

(١) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ١/١٨٧ .

(٢) بحر العلوم ، السمرقندي : ١/١٣٧ .



٣- قوله تعالى حكايةٌ عن نسوة المدينة بعد سؤال العزيز لهن : ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ** ﴾ (يوسف:٥١) .

وقفة مع المعنى :

دخل يوسف عليه السلام السجن ، ومكث فيه ما شاء الله ، ولمّا جاء منام الملك مخرجاً ليوسف عليه السلام ، وأراد الملك أن يستخلصه لنفسه ، « فرد يوسف عليه السلام أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره ، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، بهذا القيد تذكيراً بالواقعة وملابساتها ، وكيد بعضهن لبعض فيها ، وكيدهن له بعدها ، وحتى يكون هذا التحقق في غيبته ؛ لتظهر الحقيقة خالصة ، دون أن يتدخل هو في مناقشتها ، كل ذلك لأنه واثق من نفسه ، واثق من براءته ، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً ، ولا يخذل طويلاً »[١]. وهذا من عقله ورويته ، وحكمته ، وصبره ، فأرسل الملك إلى النسوة وأحضرهن وسألهن ، فأجَبن بما أجَبن به ، ثم أفصحت امرأة العزيز عن تبرئته في اعترافٍ صريح تمّ تحليله في المطلب الأول[٢] ، فانجلى صدق يوسف عليه السلام غاية الجلاء ، فأمّن قبل خروجه الأجواء ، لتنتفي عنه أدنى تهمة في العرض والشرف .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ **حَٰشَ لِلَّهِ** ﴾ : هي نفسها الكلمة التي استعملتها النسوة حين رأينه لأول مرة ، بقولهن : ﴿ **حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ ، تنزيه الله تعالى من صفات العجز ، فكما كان منهن التعجب من قدرته على خلق جميل مثله ، صار التعجب هنا من قدرته على خلق عفيف مثله[٣] ، فكأن

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٣١٥/٤ .
(٢) ينظر : ص ٩٢ .
(٣) ينظر : الكشاف ، الزمخشري : ٤٣٩/٢ .

من صفاته الداخلية من حيث الطهر والنزاهة كالملائكة التي خُلقت بلا شهوة ، فحاز « الجمال الرائق ، والكمال الفائق ، والعصمة البالغة ، التي هي من الخواص الملكية »[1] على الرغم من كونه هو الرجل الذي يكون من طبيعته الطلب ، فتكون المرأة هي المتمنّعة في الغالب ، غير أنه كان على خلاف الصفات البشرية في الرجال ، فصار ظاهراً وباطناً مميّزاً .

- وفي ﴿ حَـٰشَ لِلَّهِ ﴾ إيماء إلى براءته ، وبراءتهن مما نسب إليه وإليهن من المراودة في كلام الملك ، وقد أكدن هذا بقولهن : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ وعبرن عن نفي السوء عنه على طريق الكناية ؛ لأن نفي العلم بالشيء نفي لذلك الشيء أصلاً [2] .
- تنكير ﴿ سُوٓءٍ ﴾ مع دخول ﴿ مِن ﴾ عليه ، مبالغة في نزاهته وعفته ، أي : ما علمن عنه أدنى شيء من أدنى سوء [3] ، فتأكدت براءته التامة من أي ميل أو خاطر للفاحشة .
- ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ التعبير بـ ﴿ عَلَيْهِ ﴾ دون (منه سوءا) ، فيه دلالة على السمت الصالح ، وحسن السلوك الذي يظهر على العبد التقيّ فينفي عنه الزيغ ، وقد كان سمت يوسف عليه السلام باديًا عليه ، وحكاه عنه صاحباه في السجن بقولهم : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٣٦)، قال ابن كثير : « كان يوسف عليه السلام ، قد اشتهر في السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السّمت ، وكثرة العبادة ، صلوات الله عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم »[4] .

---

(١) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٢٧٢/٤ .

(٢،٣) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ١٣٣/٢ .

(٤) تفسير القرآن العظيم : ٣٦٨/٤ .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

تحويل الجواب إلى عفة يوسف عليه السلام بدل الإجابة ، فلم يقولوا : علمنا عفته بل : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ ؛ لأن مراودتهن أمر مخجل ذكره ، فصرفن الانتباه ليوسف عليه السلام بدل الإجابة الصريحة ، «ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به ، لأنهنّ خصومه ، وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال» [١] .

* * *

٤- قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (يوسف: ٨٠).

وقفةٌ مع المعنى :

لمّا نجحت حيلة يوسف (البريئة) واستبقى أخاه بنيامين بعد استخراج (السقاية) من رحله حسب الخطة المرسومة ، ضاقت الأرض بما رحبت في أعين إخوته ، وتجمعت على صدورهم هموم مضاعفة ، فقد بُعثت مأساة يوسف عليه السلام القديمة بعد رقاد ، وزاد عليهم بحبس أخيهم بنيامين ، وميثاق والدهم الذي أخذه عليهم بإعادة أخيهم بنيامين ، فتنحوا جانباً بعد يأسهم ليتدارسوا الأمر بالمناجاة ، وهي رفع المعنى من كل واحد إلى صاحبه في خفاء[٢] ، وفجأة إذا بكبيرهم يتشبث بالأرض ويذكّر إخوته بميثاق أبيهم ، وبإلقاء يوسف من قبل في البئر ، وكذبهم على والدهم .

---

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٤٥١/٢ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ٢٩١/٤ .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ** ﴾ الاستفهام الذي تدخل فيه الهمزة على النفي يكون استفهام تقرير ، فكبير إخوة يوسف أخذ يقررهم ويذكرهم بميثاق أبيهم قبيل قدومهم مصر في هذه الرحلة ، وما فعلوه من قبل بأخيهم يوسف عليه السلام أراد الأخ الأكبر من هذا التقرير والتذكير تهويل الأمر الذي هم فيه ، فجاء استفهامه هنا : للتقرير والتذكير والتهويل[1] .
- أوثر المضارع في ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ** ﴾ على أن يقال : أما علمتم مثلاً ؛ استحضاراً لصورة الفعل مع توكيد وقوعه بالمضي في المعنى ؛ لأن (لم) تقلب المضارع إلى المضي في المعنى[2] .
- ﴿ **وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ** ﴾ : هنا شاهد الاعتراف بالخطأ ، وهي جملة اعتراضية ، جيء بها لقصد التذكير بما وقع منهم ليوسف وهو صغير ، وفيها إيجاز حذف ، أي : تعلمون ما حدث منكم مع يوسف عليه السلام قبل ما حدث الآن في شأن بنيامين[3] .
- ﴿ **وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ** ﴾ : «أي قبل هذا ما قصرتم بترك التقدم بما يحق لكم في ظن أبيكم أو فيما ادعيتم لأبيكم تفريطاً عظيماً ، فإن زيادة (ما) تدل على إرادته لذلك في ضياع يوسف عليه السلام فلا يصدقكم أبوكم أصلاً ، بل يضم هذه إلى تلك فيعلم بها خيانتكم قطعاً ، وأصل معنى التفريط : التقدم . ولما كان الموضع موضع التأسف والتفجع والتلهف ، أكده بـ (ما) النافية لنقيض المثبت . . . ، أي أن فعلكم في يوسف ما كان إلا تفريطاً لا شك فيه»[4] .

(١-٣) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ١٣٨/٢، ١٣٩ .

(٤) نظم الدرر ، البقاعي : ٢٩١/٤ .



الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

ما جاء حكاية عن الأخ الأكبر لإخوة يوسف عليه السلام وقت التناجي : ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ يؤكد دلالة ذنبهم بإخفائهم ليوسف عليه السلام في البئر قبل سنوات من حوارهم هذا .

* * *

٥- قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم: ٢١) .

وقفة مع المعنى :

عندما يلتقي المشركون مع من عبدوهم من دون الله في نار جهنم ، تبدأ صراعات النفس واللوم ، وتحتدُّ الخصومة بينهم فيزدادون بذلك حسرة .

فقد ظهر الذين كفروا يوم القيامة من قبورهم ، فصاروا بالبَراز من الأرض الأتباع والتّباع على حد سواء ، وهم الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة لله واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم ، فيتساءل الأتباع : فهل أنتم دافعون عنَّا اليوم من عذاب الله من شيء؟[١]

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ تقديم الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ على ﴿ تَبَعًا ﴾ ؛ لأنه الأنسب في مقام التبكيت ، والتوبيخ ، والتقريع ، وفيه معنى القصر : أي تبعاً لكم لا لغيركم[٢] .

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٥٥٧/١٦ .

(٢) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ١٧٥/٢، ١٧٦ .



- ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ الاستفهام هنا من الضعفاء «توبيخًا للكبراء، وعتاباً على استتباعهم واستغوائهم»[1].
- ﴿ مُّغْنُونَ ﴾ «استعارة تبعية؛ لأن المراد: هل أنتم تدفعون أو تتحملون عنا شيئاً من العذاب؟، فاستعير الإغناء للدفع أو التحمل؛ لأن من حمل عن غيره مشقة، فقد أغناه عن معاناتها»[2].
- دخول ﴿ مِنْ ﴾ على ﴿ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾، ثم ورودها ثانية مع ﴿ شَيْءٍ ﴾ أفاد معنى، وهو أن تكون «الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء؟، الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعيض معاً، بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، أي: بعض بعض عذاب الله»[3].
- ﴿ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾ «أجابوا بذلك على سبيل الاعتذار، والخجل، ورد الهداية لله تعالى، وهو كلام حق في نفسه»[4].
- ويذكرنا هذا القول من المتبوعين، وتكرير لفظ الهداية هنا بقولهم في موقف آخر: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ (القصص:٦٣)[5]، ففي ذلك الموقف هم تمنوا لو لم يكونوا من الغاوين، ولكنّ هذا اللفظ أصدق ما يمكن أن يطلق عليهم ويطابق حالهم، «وجواب المستكبرين اعتذار عن تغريرهم، بأنهم ما قصدوا به توريط أتباعهم، كيف وقد ورطوا أنفسهم أيضًا! أي: لوكنا نافعين لنفعنا أنفسنا، وهذا الجواب جار على معنى الاستفهام التوبيخي العتابي إذ لم يجيبوهم بـ: أنّا لا نملك لكم غناء،

---

(١) الكشاف، الزمخشري: ٢/٥١٤.
(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، دكتور عبد العظيم المطعني: ٢/١٧٦.
(٣) الكشاف، الزمخشري: ٢/٥١٤.
(٤) البحر المحيط، أبوحيان: ٥/٤٠٦.
(٥) ينظر: ص ٧٦.

ولكن ابتدؤوا بالاعتذار عما صدر منهم نحوهم في الدنيا ، علمًا بأن الضعفاء عالمون بأنهم لا يملكون لهم غناءً من العذاب»[(١)] .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

- اعتراف المتبوعين : ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ** ﴾ فاعترفوا باستحقاقهم للعذاب ، ومن يستحق العذاب إلا من ضل! ففيه اعترافٌ بغيّهم وكفرهم .
- اعتراف الأتباع : أنهم إنما دعوهم إلى الضلال ؛ لأن الله أضلهم ، ولو هداهم لدعوهم إلى الهدى ﴿ **قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ** ﴾، فاعترفوا بضلالهم ، وضعفهم عن صرف العذاب عن أنفسهم فكيف بغيرهم !

* * *

٦- قوله تعالى : ﴿ **وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ** ﴾ (إبراهيم: ٤٤) .

وقفة مع المعنى :

خطاب لرسول الله ﷺ ، وأمر له بإنذارهم ، وتخويفهم من يوم الحسرة ، والمراد بالناس : (الكفار) المعبّر عنهم بـ ﴿ **ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ** ﴾ ، كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب ، أي أنذرهم وخوفهم يوم يأتيهم العذاب المعهود ، وهو اليوم الذي وصف بما لا يوصف من الأوصاف الهائلة ، وهو يوم القيامة ، وقيل : هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ، ولقاء الملائكة بلا بشرى ، فيتمنون الرجوع إلى الدنيا إلى أمد ، ليجيبوا الله بتوحيده ، ودعوته على ألسنة الرسل ، ويتداركوا ما فرطوا فيه ، فيُرد عليهم توبيخًا ، وتبكيتًا باستفهامٍ من كلامهم في دنياهم : أنكم سبق وأقسمتم بعدم زوال داركم التي ارتحلتم منها ، واليوم تطلبون العودة [(٢)] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢١٥/١٣ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٥٦/٥ .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ **فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ** ﴾ إيجاز قصر في ﴿ **ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ** ﴾ أي : فيقولون ، فالعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم ؛ للتسجيل عليهم بالظلم ، وللإشعار بأن ما لقوه من الشدة إنما هو لظلمهم[1] .
- إيثار ﴿ **ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ** ﴾ على صيغة الفاعل (الظالمين) ؛ أولاً للإيذان بأن الظلم في الجملة كافٍ في الإفضاء إلى ما ذكر من الأهوال ، من غير حاجة إلى الاستمرار عليه ، كما تنبئ عنه صيغة الفاعل ، وعلى تقدير كون المراد بالناس : من يعم المسلمين أيضًا فالمعنى : الذين ظلموا من الكفار ، أوكل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذَرين ، وغيرهم من الأمم الخالية ، فإن إتيان العذاب يعمهم ، كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل[2] .
- ﴿ **رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ** ﴾ نداء تحنن وتودد ، وفي الآية طلب تأخير دون طلب رجعة كما سبق في غيرها من الآيات مثل : ﴿ **رَبِّ ٱرۡجِعُونِ** ﴾ (المؤمنون:٩٩) ، ﴿ **فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ (السجدة:١٢) ، قال ابن عاشور : «وطلب تأخير العذاب إن كان مرادًا به عذاب الآخرة ؛ فالتأخير بمعنى تأخير الحساب ، . . . فيكون مستعملاً في الإعادة إلى الحياة الدنيا مجازًا مرسلاً ، والرسل جميع الرسل الذين جاؤوهم بدعوة الله ، وإن حمل على عذاب الدنيا فالمعنى : أن المشركين يقولون ذلك حين يرون ابتداء العذاب فيهم ، فالتأخير على هذا حقيقة ، والرسل على هذا المحمل مستعمل في الواحد مجازًا ، والمراد به محمد ﷺ»[3] ، فيكون طلب التأخير على هذا المعنى مناسباً لرؤيتهم العذاب قبل موتهم ، فيظنون إمكانية العمل قبل قبض أرواحهم ، ويكون طلب الرجعة مختص إما في لحظة الموت ، أو في تقلبهم في عذاب النار وعرصات القيامة ، حين يعلمون أن التأخير

(١،٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٥/٥٦ .

(٣) التحرير والتنوير : ١٣/٢٤٧ .

لا يمكن لانتقالهم لبدء مراحل الدار الآخرة ، فيتمنون حينها الرجعة للدار الأولى ، قال ابن كثير : « ذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة ، فلا يجابون ، عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار ، وهم في غمرات عذاب الجحيم » [1] ، نسأل الله أن نكون ممن أعد العدة للقاء الله ، فلقي الحسنى وزيادة .

- لعل في وصف ﴿ أَجَلٍ ﴾ بـ ﴿ قَرِيبٍ ﴾ في مقام الاعتراف ، وفي حال خوف مما حلّ بهم من العذاب زيادة في طلب الرحمة ، فتحديدهم لمدة الأجل ؛ أملاً ألاَّ يردوا ، بعكس لو تركوا الطلب بلا مدة بظنهم ، ولن تنفعهم الأماني .
- ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ قدموا وعدهم بإجابة دعوة الله ، وأخروا طاعة الرسل ؛ لأن المقدم هو الأصل : إجابة دعوة الله ، والمؤخر فرع عنه ، وهو : اتباع الرسل ، وهذا من عطف الخاص على العام ، والنكتة في ذكر الخاص لاستدراك ما بدر منهم من تكذيب الرسل والسخرية منهم [2] ، وفيه إيماء إلى أنهم صدقوا الرسل في أنهم مرسلون من عند الله تعالى [3] .
- ﴿ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ : كان الطلب في هذه الآية بصيغة الجمع ، « إما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد ، وكون عصيانهم للرسول ﷺ عصياناً لهم جميعًا ، وإما باعتبار أن المحكي كلام ظالمي الأمم جميعاً ، والمقصود بيان وعد كل أمة باتباع رسولها » [4] ، بينما جاء في آيات أخرى مفرداً : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (المنافقون: ١٠)، وسياق الآية يناسب هذا العموم ، فلم يحدد العذاب ما هو : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤٩٣/٥ .

(٢) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني : ١٧٨/٢، ١٧٩ .

(٣، ٤) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٥٦/٥ .

﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ ، لكن في آية سورة المنافقين كان سياق إنفاق وحُددت أن انتهاء الحياة كان بالموت فناسب هذا التحديد تحديد العمل الصالح .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

أن هؤلاء الظالمين ما طلبوا التأخير إلا اعترافاً بزللهم ، ويقيناً بتقصيرهم في جنب الله ، فلم يسعهم الوقت لبسط الزلل ، والاعتذار لأنفسهم حيث إن فجاءة العذاب : ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ (إبراهيم:٤٤) تذهلهم عن التفكير إلا في النجاة ، فيطلبونها عن طريق سؤال ربهم تأخير العذاب حتى يعملوا .

* * *

٧- قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (إبراهيم:٢٢) .

وقفة مع المعنى :

بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله ـ حينئذ خطيبًا ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم وغَبنًا إلى غبْنهم ، وحسرةً إلى حسرتهم[1] معترفاً لهم بإغوائه ، لكنه لم يعترف من حيث إن الإغواء كان خطأً يندم عليه ، إنما هو يعترف بكونه أخطأ لكنه متلبسٌ بالكبرياء ، مشهرٌ التخلي عمّن اتبعوه ، وفي هذا تلميح بالاعتراف .

« إن الشيطان حقاً لشيطان! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار ، إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصدهم عن استماع

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤/٤٨٩ .

الـدعـوة ، هـو هـو الـذي يقـول لهـم طاعناً إيـاهـم طعنةً أليمـةً نافذةً ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه ، وقد قُضي الأمر هو الذي يقول الآن بعد فوات الأوان»[1] : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ ﴾ على ألسنة رسله فلم تطيعوه ، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم ، ﴿ وَوَعَدتُّكُمۡ ﴾ الخير ﴿ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ ﴾ أي : لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة[2] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ : تعريف الشيطان بأل العلمية فيه دلالة على حقارته ، وامتهانه ، وذمه[3] .
- تأمل تقديم وعد الله على وعد الشيطان ، مع عصيانه لله عز وجل إلا أنه بدأ بوعد الجبار القهار سبحانه ، ثم ثنى بوعده هو ، وفي هذا تعظيم لله تعالى ، وتنازل عن استكباره يوم لا ينفع مال ولابنون .
- ﴿ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ لعل تكرير كلمة (وعد) في جناب الله ، بينما في وعده هو لم تكرر قال : ﴿ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ ﴾ ، ليدل تأكيدًا أن وعد الله متحقق فمن أصدق من الله قيلاً سبحانه .
- ﴿ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ (إبراهيم:٢٢) لم يعبّر بنتيجة هذا الوعد ، إنما اكتُفي بصفته دالاً على الوعد الإلهي الذي لا يخلف وعده سبحانه ، ففي الآية (احتباك)[4]، إذ لم يُعبّر بـ : أنجز وعده ، «فإضافة (وعد) إلى (الحق) ، من إضافة

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٣٩٩/٤ .

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٤٢٤ .

(٣) ينظر : الخلاصة في علوم البلاغة ، علي الشحوذ : ١٧ .

(٤) الاحتباك هو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، ويحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله :
علفتها تبنًا وماءً باردًا ، أي علفتها تبنًا ، وسقيتها ماءً بارداً . (التعريفات ، الجرجاني : ٢٥/١) .

الموصوف إلى الصفة ؛ مبالغة في الاتصاف ، أي الوعد الحق الذي لا نقض له .

والحق : هنا بمعنى الصدق والوفاء بالموعود به ، وضده : الإخلاف ، ولذلك قال : ووعدتكم فأخلفتكم » [(١)] .

وفي هذه الجملة دلالة واضحة على أن كل ما تم من مشاهد يوم القيامة ، والمصير المحتم الذي صار له هؤلاء هومن إنجاز الله وعده سبحانه ، بينما في الحديث عن خيبة الشيطان ، وهذيانه ووسوته في الدنيا لهؤلاء المساكين المفلسين ، ذلك اليوم المهيب ـ نسأل الله فيه النجاة ـ لم يقل : وعدتكم وعد الزور ، بل قال : ﴿ **وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ** ﴾ لبشاعة نتيجة الوعد الذي وعدهم ، كان من الصعب النطق به ، ومن الصعب تسميته ، فهو كذب وزور وبهتان ، وأقبح من أن يُسمى ، فلا تفيه الألفاظ حقه من التسمية ، وقد اشتركوا في ذاك المصير في جهنم ، فكان الاكتفاء بـ ﴿ **فَأَخْلَفْتُكُمْ** ﴾ مع العذاب والمصير الذي صاروا إليه دالاً دلالةً أكيدةً على صفة وعده ، عليه لعنة الله .

- ﴿ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي** ﴾ : اختيار كلمة ﴿ **سُلْطَانٍ** ﴾ تناسب الكِبر الَّذي اتصف به الشيطان ، فتمنى أن يكون له هذا السلطان إلَّا أنه امتُهن من الباب الذي فتحه على نفسه ، ونال مصيره في نار جهنم ، فأصبح منبره في جهنم يزيد الآلام النفسية للمعذّبين ، كما كان يزيدها في الدنيا بوسوسته وتسويله ، فلم يكن له في الدنيا سوى أردى الأفعال وهي الوسوسة ﴿ **إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ** ﴾ (إبراهيم:٢٢) و« الدعاء لا يخلو من افتقار الداعي إلى المدعو ، . . . وإذا دعا الشيطان الناس فلأنه مفتقرٌ إلى تضليلهم وتزيين الباطل لهم ، وإغوائهم ، ليكونوا رفقاءه في النار ، كما قال عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ (فاطر:٦) » [(٢)] .

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢١٨/١٣ .

(٢) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، دكتور عبد العظيم المطعني : ٢٢١ .

سلطان الشيطان :

يقول السعدي رحمه الله : « اعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى ﴿ **إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ** ﴾ (النحل:١٠٠) ، فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل ، فليس له حجة أصلاً على ما يدعو إليه ، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي .

وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤُزّهم إلى المعاصي أزّاً ، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه ، ولهـذا قال الله تبارك وتعالـى : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (النحل:٩٨،٩٩) »[١] .

- ﴿ **فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم** ﴾ : مجموع الجملتين يفيد معنى القصر ، كأنه قال : فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وهو في معنى قَصْر قلب بالنسبة إلى إفراده باللوم ، وحقهم التشريك فقلب اعتقادهم إفراده دون اعتبار الشركة ، وهذا من نادر معاني القصر الإضافي ، وهو مبني على اعتبار أجدر الطرفين بالرد ، وهو طرف اعتقاد العكس بحيث صار التشريك كالملغي ؛ لأن الحظ الأوفر لأحد الشريكين[٢] .
- لعل تكرير فعل اللوم ﴿ **تَلُومُونِى** ﴾ ﴿ **وَلُومُوٓا۟** ﴾ دون التعبير بالجملة المفهومة من الكلام وهي : لا تلوموا إلا أنفسكم ، لتعميق صفة اللوم والتحسّر وتمكينه في النفس ، وتذكيرهم المستمر به ، حيث إن الشيطان قال ما قال

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن : ٤٢٤ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢١٨/١٣ .

زيادة في تيئيس المشركين ، وزيادة في عذابهم النفسي مع الجسدي ، فتجتمع عليهم ألوان الألم والندامة .

- ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ «المصرخ هو المُغيث»[1] ، صَرَخ يَصْرُخ صراخًا وصريخًا ، وهو صارخٌ وصريخ ، والصُّراخ : صوت المستغيث ، وصوت المُغيث إذا صرخ بقومه للإغاثة[2] ، لم يُعبّر بـ : لا يُصرِخ بعضنا بعضًا ، فيكون فيها إيجاز هنا ، فالحال يقتضي الإطناب هنا ، والبلاغة فيه ، ولعله جاء على هيئة التكرير ﴿ بِمُصۡرِخِكُمۡ ﴾ و ﴿ بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ لإفادة الانقطاع التام لأي نوع من الإغاثة ، والنفع والشفاعة ، وانشغال كل فردٍ بنفسه ، ودل التقديم لنفسه قبلهم على «التوكيد ، إذ لا أحد يغيثهم يومئذ ، لا الشيطان ولا غيره ، ولا أحد يغيث الشيطان ، لا هم ولا غيرهم» [3] .

ما السر وراء تسمية المغيث بـ(الصريخ) ، و(المصرخ) ، و(الصارخ)؟

تكرير اللفظ في اعتراف الشيطان ، ومجيؤه في انفعالات المعترفين في المبحث الرابع من الفصل الثالث من الباب الأول إن شاء الله[4] ، أسباب تجعلني أقف مع هذا اللفظ وما أضافه على الصيغة ، فتسمية المغيث بالصريخ هي تسميةٌ قرآنيةٌ ، وردت في قوله تعالى : ﴿ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴾ (يس:٤٣) ، وارتباط الصراخ بالفزع الذي يحتاج لإغاثة طبيعي في الفطرة الإنسانية ، يصاب به الخائف ، والمتألم ، والمريض ، والفاقد ، والمقهور المتحسّر وغيرهم ممن اشتدّ بهم الوجع ، وبلغ بهم المصاب مبلغه ،

---

(١) غريب القرآن ، السجستاني :١/٤٤٢ .

(٢) ينظر : أساس البلاغة ، الزمخشري : ٣٢٥ ، مادة (صَ رَ خَ) .

(٣) من بلاغة النظم القرآني ، دكتور بسيوني فيود : ٨٠ .

(٤) ينظر : ص ٣٠٣ .

وهي فطرة لاشك في ذلك لكنّ الإسلام قد هذّبها فلا ينبغي للمؤمن أن يصرخ في ألم أو مصيبة ، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك حتى في الدعاء[1] ، ولا ترى المؤمنين حال فرحهم الدنيوي والأخروي يصرخون ، إنما ارتبط الصراخ بمن لم تهذّب فطَرُهم ، كالصّغار الذين هم بحاجة تأديب وتهذيب من آبائهم فمتى كبروا عقلوا أن من اتزان المرء حال الفرح وحال الحزن عدم الاستسلام للأصوات التي من الممكن أن تخرج منه كالصراخ وغيره ، وأما الكفار لم يستجيبوا لما يحييهم من القرآن وسنة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، فهم يطلقون لانفعالاتهم العنان ، متى شاؤوا صرخوا في فرحٍ ، وفي ألم ، وقد ورد في كتاب الله العزيز وصف المشركين والكافرين بالصراخ في أكثر من موضع في الدنيا والآخرة ، فمثال ما جاء في الدنيا آية سورة يس قوله تعالى : ﴿ **وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ** ﴾ ، وفي الآخرة في نار جهنم قوله تعالى : ﴿ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ ، ولابد أن يكون لهذه الآيات أثرٌ تربوي على الجيل المؤمن ، كي لا يأخذ من الثقافة الغربية ـ للأسف ـ أيسر ما يُمكن اجتنابه مثل هذه الانفعالات ، حال الفرح أوحال الحزن ، بل ينبغي للمؤمن أن يكون له سمته ووقاره في الحالين ، وسيظهر لنا أثر الصوت في الاعتراف في المبحث الثاني إن شاء الله[2] .

---

(١) حديث : «أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا . . .» ، أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الدعوات ، باب : قول لاحول ولا قوة إلا بالله ، (رقم الحديث :٦٤٠٩) ، ورواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب خفض الصوت عند الذكر ، (رقم الحديث : ٢٧٠٤) .

(٢) ينظر : ص ٢٦٥ .



- ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ : « فيه تقديم وتأخير ، يقول : إني كفرت من قبل ما عبدتموني به ، وكنت كافرًا قبل ذلك ، فليس لكم عندي صراخ ولا إجابة »(1) .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

تشترك في دلالة التلميح بالذنب أكثر من جملة في الآية :

- ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ إخلاف الوعد بحد ذاته ليس ذنباً يعترف به الشيطان عليه لعنة الله ؛ لأنه لم يره ذنباً ، هو يخبرهم فقط أنه كذب موعده ، وأنه لم يجبرهم على اتباعه فيما أمر (2) ، لكن الذنب المفهوم تلميحاً ، أنه غير قادر على الإيفاء بالوعد لضعفه وحقارته ، وهذا ما لا يمكن أن يعترف به تصريحاً وهو المعروف بكِبره .
- ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ : والأمر هنا مع تصريحه بدعوتهم مثلما هو مع إخلاف الوعد ، فليس هو الذنب الذي يجعل إبليس يعترف ، إنما الذنب الذي فُهم تلميحاً أن سلطانه الذي ظنه جهلة المشركين والعاصين إنما هو سلطان زائف ، صنعه هو لأوليائه ، وليس بسلطان حقيقة إلا بالأزّ والإملاء (3) ، فاتبعه من اتبعه ، وعُصم من عُصم بفضل الله وتوفيقه ، ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء:٧٦) ، نسأل الله أن يجنبنا مزالق الشيطان .
- ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ : يفهم أنه تخلى عنهم ، ولا غنى لهم به ، وهو أعظم اعتراف حرص الشيطان على إيصاله لأتباعه ، أن « الذنب لكم ، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ، فلست بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه » (4) .

---

(١) بحر العلوم ، السمرقندي : ٢/٢٤٠ .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٣/٢١٨ .
(٣) ينظر : ص ٢٢٠ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤/٤٩٠ .



- ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : أراد الشيطان تأكيد وإثبات أنه تبرأ من جعلهم إياه شريكًا مع الله ، فأراد قول : « لستُ شريكًا لله ولا تجب طاعتي »[1] هذا هو الظن الذي ظنوه في الدنيا ، إنما هو ذليل ، ظالم ، مستحق للعذاب مثلهم ، فهو « يقول : عصيت الله قبلكم »[2] .

* * *

٨- قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ (الكهف:٧٦) .

وقفة مع المعنى :

قالها موسى عليه السلام للخضر في زمن صحبته له ، وكان ذلك في المرة الثانية من تعجب موسى عليه السلام من أفعال الخضر التي لم تكن مقنعةً لمن لم يعرف سرّها ، وكانت هذه المرة حين قتل الخضرُ الغلام ، فقالها موسى عليه السلام ؛ لأنه علم من نفسه قلة الصبر عن أفعال الخضر ، وأن الخضر سيكون معذوراً في المرة الثالثة إن فارقه لقلة صبره عمّا يراه[3] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ : طلب موسى عليه السلام فرصةً ثالثةً ، لعله يصبر على ما يشاهده من الخضر ، وعلّق المفارقة بينه وبين الخضر بأسلوب الشرط[4] .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٤٢٤ .

(٢) جامع البيان ، الطبري : ٥٦٤/١٦ .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٢٣/١١ .

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٢٢/١١ .

- جعل موسى عليه السلام أقل شيءٍ يسأل عنه يعد كافياً للمفارقة ، يفيده تنكير ﴿ شَيۡءٍ ﴾ في قوله : ﴿ عَن شَيۡءِۭ ﴾، و« كأنه استحيا من تكرار مخالفته ، ومما صدر عنه من تغليظ الإنكار »[1] .
- لعل كلمة ﴿ بَعۡدَهَا ﴾ أكدت رغبة موسى عليه السلام في المواصلة ولو مرة أخيرة لرؤية العلم الذي آتاه الله للخضر والاستزادة ، رغم أنه لم يعترف بخطئه لكنه يُشعر معلمه أنه يود الاستمرار ، وعلى هذا الطريق ينبغي أن يخطو كل طالب علم .
- في قوله : ﴿ فَلَا تُصَٰحِبۡنِي ﴾ : اختار لفظ (الصحبة) ، ولم يختر لفظ (الرفقة) أو(المتابعة) كما جاء في قوله : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ ، لدلالة طول المُدة التي قضاها موسى معه ، « فصاحبُك يعني : عشيرك »[2] ، ورَفِيقُك : « الذي يُرافِقُك في السفر ، تَجْمَعُك وإِيّاه رفقةٌ واحدة » [3]، فصار الرفيق هو المُلازم لمدة زمنية معينة ، بينما الصاحب هو المُلازم لمدة طويلة .
- قوله : ﴿ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ : قد وصلت من جهتي إلى العذر في قطع الصحبة بمكان ينتهي إليه السائر ، على طريقة الكناية ، وأثبت له البلوغ تخييلاً ، أو استعار البلوغ لتعين حصول الشيء بعد المماطلة .[4]
- وضعت ﴿ لَّدُنِّي ﴾ موضع (عندي)[5]، وهي ظرف مكان بمعنى (عند) إلا أَنه أَقرب مكاناً من (عند) ، وأَخصُّ منه ؛ فإِن (عند) تقع على المكان وغيره ، تقول : لي عند فلانٍ مال أَي في ذمته ، ولا يقال ذلك في (لَدُنْ) [6].

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٢٣/١١ .
(٢) لسان العرب ، ابن منظور : ٥١٩/١ ، مادة (صَ حِ بَ) .
(٣) السابق : ١١٨/١٠ ، مادة (رَ فِ قَ) .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٨٦٦/١ .
(٥) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٧٣٩/١ .
(٦) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٣٨٣/١٣ ، مادة (لَ دْ نُ) .

- يظهر مدى أدب واعتذار نبي الله موسى عليه السلام للخضر بقول : ﴿ **قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا** ﴾ ، فهي أبلغ من لو قيل : عُذِرتَ بترك صحبتي ، فإن اللفظ المعجز يصوّر الحال أبلغ صورة ، فموسى عليه السلام في رحلة مع الخضر ، وهذه الرحلة كان لها غايات سعيًا لبلوغها ، فلم يبلغ موسى الغاية منها لاستنكاره ما رأى وبلغ معه الصبر منتهاه ، وبلغ الخضر العذر بترك صحبة موسى عليه السلام ، فكان لاشتقاق (البلوغ) دلالته مع القصة .
- العدول عن استعمال الفعل : عُذِرْت ، إلى استعمال المصدر ﴿ **عُذْرًا** ﴾ يدل على تحقق العذر غاية التحقق ، وهذا لا يفيده الفعل .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

نلحظ هنا التلميح من موسى عليه السلام في الاعتراف بالزلل من قلة الصبر والاستعجال بالسؤال ، وقد تعاهد مع الخضر مسبقاً أن يكون صبوراً ، ويُفهم من قوله : ﴿ **فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا** ﴾ ، فاعتذر للخضر بترك الصحبة ؛ لأنه معذور في ذلك دون ذكر سبب العذر ، غير أن الخضر لمّا ترك صحبته ذكر له السبب بقوله : ﴿ **قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ ، وبلاغة التلميح هنا تتضح في أن الأهم في مقام موسى عليه السلام هو ليس لوم النفس وتفصيل الخطأ في ذلك الوقت ؛ فهم في رحلة احتشدت فيها مجموعة من الأحداث العجيبة ، فالمهم هنا هو الخضر وتطييب نفسه ، إذ هو في مقام المعلم ، وحثه على إكمال الرحلة ، ويقول ابن عاشور في هذا : «لم يعتذر موسى بالنسيان : إما لأنه لم يكن نسي ، ولكنه رجّح تغيير المنكر العظيم ، وهو قتل النفس بدون موجب على واجب الوفاء بالالتزام ، وإمّا لأنه نسي وأعرض عن الاعتذار بالنسيان لسماجة تكرر الاعتذار به ، وعلى الاحتماليين فقد عدل إلى المبادرة باشتراط ما تطمئن إليه نفس صاحبه ، بأنه إن عاد للسؤال الذي لا يبتغيه صاحبه فقد جعل له أن لا يصاحبه بعده ، وأنصف موسى إذ جعل لصاحبه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة ؛

تجنباً لإحراجه»[1] ، لذلك جاء الاعتراف ضمنًا ، لاسيما أن الزلل الواقع هنا قد نبه الخضر عليه موسى عليه السلام أوّل الأمر بقوله : ﴿ **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا** ﴾ .

* * *

٩- قوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ** ﴾ (طه:٨٧) .

وقفة مع المعنى :

عندما رجع موسى عليه السلام إلى قومه ووجدهم قد عبدوا العجل ، فغضب وعاتبهم في قوله : ﴿ **فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى** ﴾ (طه:٨٦) ، تشوّف السامع إلى جوابهم ، فاستأنف ذكره عز وجل ، فقال : ﴿ **قَالُواْ** ﴾ : لم يكن شيء من ذلك . ولما كان المقصود من هذا السياق كله إظهار عظيم القدرة ، عُبر عن ذلك بقوله حكايةً عنهم للاعتراف بما قررهم موسى عليه السلام به من العناد ، معتذرين عنه بعدم القدرة[2] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ **مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا** ﴾ ابتداء الاعتراف بالنفي يهدّأ من غضب المخاطب في مثل هذا الحوار ؛ لأنه سيتوقع النفي عموماً ، لكن جاء اعترافهم تلميحاً أنهم قد أخلفوا إخلاف من لا يملك القدرة على الإيفاء ، أي : لقد صدقت فيما قلت ، ولكنّا لم نفعل ذلك ونحن بمُلك أمرنا ، هذا على قراءة الجماعة بالكسر ، وعلى قراءة نافع وعاصم بالفتح (بمَلكنا) ، يكون المعنى : ولنا ملَكَة نتصرف بها في أنفسنا ، وعلى قراءة حمزة

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٥٦/١ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ٢٦٢/٥ .

والكسائي بالضم (بمُلكِنا) ، كأنهم قالوا : ولنا سلطان قاهر لأمورنا [1] ، وقيل : إن القراءات الثلاث لغات لمعنى واحد ، قال في القاموس : « ملكه يملكه ملكاً مثلثة : احتواه قادراً على الاستبداد به » [2] .

- استشهدوا لعجزهم بقولهم : ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ ﴾ (طه:٨٧) والمعنى أن السامري زيّن لهم ذلك ، ووسوس به الشيطان فما دُوراً إلا وقد تبعوه ، حتى كانوا كأنهم يقادون إليه بالسلاسل ، وقيل : هذا كلام من لم يعبده ، اعتذروا بأنهم كانوا قليلاً ، لا قدرةَ لهم على مقاومة من عبده [3] ، وصيغة المبني لما لم يسمَّ فاعله ﴿ حُمِّلۡنَآ ﴾ تدل على عدم إرادتهم لهذا الحمل ، وإنما جاء عنوة ، وهي بتشديد الميم على قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وحفص ﴿ حُمِّلۡنَآ ﴾ ، أي أُمرنا بحملها ، وحمّلنا السامري ، تقول : حمّلني فلان كذا : أي كلّفك حمله ، وقرأ أبو عمرو وحمزة وشعبة والكسائي ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ ﴾ بالتخفيف (حملْنا) ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بالتشديد [4] ، وذلك أن القوم حملوا ما كان معهم من حلي آل فرعون ، وحجتهم قوله : ﴿ فَقَذَفۡنَٰهَا ﴾ وكذلك ﴿ حُمِّلۡنَآ ﴾ ، فيكون الفعل مسنداً إليهم ، كما أن ﴿ فَقَذَفۡنَٰهَا ﴾ مسند إليهم .

- ﴿ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ ﴾ : « قيل : معناها الأثقال ، وقيل : معناها الآثام ، ووجه القول الأول : أنها أحمال من حلي القبط الذي استعاروه منهم .

ووجه الثاني : أنها آثام وتبعات ، لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب ، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي ، ولأن الغنائم لم تكن تحل لهم . والتعليل الأخير أقوى » [5] .

---

(١) ينظر : حجة القراءات ، ابن زنجلة : ٤٦١/١ .

(٢) القاموس المحيط ، الفيروزآبادي : ١٢٣٢/١ .

(٣) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ٢٦٢/٥ .

(٤) ينظر : حجة القراءات ، ابن زنجلة : ٤٦٢/١ .

(٥) أضواء البيان ، الشنقيطي : ١٦٣/٢١ .

- ﴿ فَقَذَفۡنَـٰهَا ﴾ يقول : «فألقينا تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة ، ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ يقول : فكما قذفنا نحن تلك الأثقال ، فكذلك ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل عليه السلام»[1] ، والتعبير بـ(القذف) لاشك أقوى من (الإلقاء) ، وإن دلّت كلتاهما على الرمي[2] ، فالقذف من وقع حروفها وورودها في القرآن والسنة تدل على الرمي بالأمر العظيم ، والأثر الحاصل بعد الرمي ، منها قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ ﴾ (الأحزاب:٢٦) و(الحشر:٢) ، فقد ورد القذف مرتبطاً بالرعب مرتين في كلام الله لقوة أثره ووقعه ، ولعِظم الرعب وهو انقطاعٌ من امتلاء الخوف ، ويقع من الجبار جلّ جلاله لقلوب مستحقي العذاب ، لا يقع بفعلٍ بشري ، كما جاءت شواهده في القرآن الكريم[3] .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

اعترف قوم موسى عليه السلام له بذنبهم بطريقة ذكية ﴿ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا ﴾ ، كان فيها كسبٌ لقلبه وتحنينٌ له ، وطلبٌ منه أن يسامحهم ، فقد أثبتوا فيما فُهم عنهم أنهم قد أخلفوا ، لكنهم أُرغموا على ذنبٍ لو كانت لهم قدرةٌ على منعه لفعلوا ، وتشهد لهذا المعنى قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بتشديد الميم : ﴿ حُمِّلۡنَآ ﴾[4] ، فقد أمرنا السامريّ بحملها دون طواعية منّا .

* * *

١٠- قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةً مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾ (طه:٩٦) .

---

(١) جامع البيان ، الطبري : ٣٥٣/١٨ .
(٢) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٢٦٧/٩ ، مادة (قَ ذَ فَ) .
(٣) ينظر : التصوير البياني في آيات الأمن والخوف ، دكتورة زينب كردي : ٤١ .
(٤) ينظر : ص ٢٢٨ .



وقفةٌ مع المعنى :

غاب موسى عليه السلام عن قومه ليلقى ربه جل وعلا ويكلمه ، فلما رجع ووجد قومه قد ضلوا بعده ، وأضلهم السامري ، فاشتد غضب موسى عليه السلام وسأل السامري عن سبب إضلاله لقومه فكان جوابه أنه أبصر جبريل عليه السلام على فرس رآه وقت خروج قوم موسى من البحر ، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون ، فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه ، فنبذتها على العِجل ، وقد زيّنت لي نفسي أن أقبضها ، ثم أنبذها ، فكان ما كان[1] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ** ﴾ الابتداء بالفعل ﴿ **بَصُرْتُ** ﴾ وتميّز هذا المُبصر حيث لم يره غيره ، فيه لفت نظر موسى عليه السلام إلى أن ما جرى من السامري كان نتيجة إبصار متميّز رجاء أن ينخفض الغضب عند موسى إلى أدنى مستوياته .
- « (بصرت) و(أبصرت) كلاهما من أفعال النظر بالعين ، إلا أن : بصُر بالشيء حقيقته صار بصيراً به ، أو بصيراً بسببه : أي شديد الإبصار ، فهو أقوى من أبصرت ؛ لأنه صِيغ من فعُل بضم العين الذي تشتق منه الصفات المشبهة الدالة على كون الوصف سجيّةً قال تعالى : ﴿ **فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ** ﴾ »[2] ، ولما كان المعنى هنا جليًّا عن أمر مرئي ، تعيّن حمل اللفظ على المجاز باستعارة (بصر) الدال على قوة الإبصار إلى معنى العلم القوي بعلاقة الإطلاق عن التقييد ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ (ق:٢٢) ، وكما سُميت المعرفة الراسخة بصيرة في قوله : ﴿ **أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** ﴾ (يوسف:١٠٨) ، فالمعنى : علمت ما لم يعلموه ،

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، ابن السعدي : ٥١٢ .

(٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٥٩/١٦ .

وفطنت لما لم يفطنوا له . وقرأ الجمهور ﴿ يَبْصُرُواْ ﴾ بتحتية على أنه رافعٌ لضمير الغائب ، وقرأه حمزة والكسائي وخلف (بفوقية) على أنه خطاب لموسى ومن معه [(١)] .

- ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾ القَبضة : من القبض وهو غلق الراحة على شيء ، والنبذ : طرح ما في اليد [(٢)] ، وبين القبض والنبذ طباق إيجاب ، تكتمل بلاغة الاعتراف به ، حيث إن هذا الوصف زائدٌ عن حاجة موسى عليه السلام وطلبه إجابة سؤاله ، وإنما زاد السامري فيه حتى يكون في الوصف تسلية لموسى عليه السلام عن عتبه أو خصامه .
- التشبيه في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ « تشبيه الشيء بنفسه ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣) ، أي : كذلك التسويل سولت لي نفسي ، أي تسويلاً لا يقبل التعريف بأكثر من ذلك » [(٣)] ، والتسويل : التزيين [(٤)] ، ومع ذلك جاء التعبير بالتسويل لأنه مختصٌّ بما يُزيّن وليس بزيْن ، أمّا التزيين فعلى معناه .

- الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

فُهم من جواب السامري قوله : « إني بعملي العجل للعبادة نقضت اتباع شريعة موسى ، . . .فاعترف أمام موسى بصنعه العجل ، واعترف بأنه جَهِل فَضَلّ ، واعتذر بأن ذلك سولته له نفسه » [(٥)] .

* * *

---

(١) ينظر : حجة القراءات ، ابن زنجلة : ٤٦٢/١ .

(٢) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٢١٣/٧ ، مادة (قَ بَ ضَ) ، و : ٥١١/٣ ، مادة (نَ بَ ذَ) .

(٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٩٤/١٦ .

(٤) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٣٥٠/١١ ، مادة (سَ وَ لَ) .

(٥) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٩٦/١٦ .

١١- قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (القصص:٨٢) .

وقفةٌ مع المعنى :

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر ، وازَّيَّنَت الدنيا عنده ، وكثر بها إعجابه ، باغته العذاب ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ (القصص:٨١) جزاء من جنس عمله ، فكما رفع نفسه على عباد اللّه ، أنزله اللّه أسفل سافلين ، هو وما اغتر به ، من داره وأثاثه ، ومتاعه ، وصار الذين رأوه وتمنوا مكانه وكنوزه ، الذين قالوا : ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ (القصص:٧٩) ينظرون لما حلّ به متوجعين ومعتبرين ، وخائفين من وقوع العذاب بهم : ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون ، ليس دليلا على خير فيه ، وأننا غالطون في قولنا : ﴿ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (القصص:٧٩) ، فلولا فضله ومنته لصرنا معه ، فكان هلاك قارون عقوبة له ، وعبرة وموعظة لغيره ، حتى إن الذين غبطوه ، سمعت كيف ندموا ، وتغير فكرهم الأول[١] ، فصاروا يقولون لما عاينوا ما أحلّ الله به من نقمته : ألم تر يا هذا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، فيوسع عليه ، لا لفضل منزلته عنده ، ولا لكرامته عليه ، كما كان بسط من ذلك لقارون ، لا لفضله ولا لكرامته عليه ، ويضيق على من يشاء من خلقه ذلك ، ويقتر عليه ، لا لهوانه ، ولا لسخط عمله[٢] .

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، ابن السعدي : ٦٢٣ .

(٢) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٦٣٦/١٦ .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ (القصص:٨٢) هي حرف معناه التعجب [١] ، ويُكْنَى به عن الوَيْل : وَيْك إنّك لا تسمع موعظتي .

وهي مفصولة (وي) ثم تبتدئ فتقول : (كأنّ)[٢] ، وقد اختلف أهل العلم فيها ، و« يجوز أن يكون كثر بها الكلام فوُصِلت بما ليس منه ، كما اجتمعت العربُ على كتابة (يا بْنَؤُمَّ) فوصلوها لكثرتها » [٣] ، وفي ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ تنبيهٌ على الخطأ وتندُّم ، ومعناه : أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم [٤] ، ورودها في اعترافهم وتكرارها مرتين أبلغ في وصف حالهم ، وحالة التعجّب التي أصابتهم ، وتصوّر الدهشة التي اعتلت وجوههم وهم ينظرون إليه متبختراً ثم يهوي أمام أعينهم نكالاً لعمله ، وهذه بلاغة النظم الرباني الحكيم التي تحكي بدقة ما في نفوسهم .

- تقديم اسم الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ على الفعل ﴿ يَبْسُطُ ﴾ يفيد تقوية ارتباط الأفعال (البسط) و(القدر) بالله جل جلاله ، وكمال قدرته ، يقول السكاكي : « حق المعرف حمله على وجه تقوي الحكم » [٥] كما يفيد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إفادة الاختصاص [٦] والقصر[٧] ، ثم تقديم فعل البسط على القَدْر ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ ، بلاغة بديعة تدلّ على المعنى الذي تعمّق في نفوسهم وهو : عظمة الله سبحانه وتعالى ، فقد عاينوا البلاء في فتنة السراء

---

(١) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٤١٨/١٥ ، مادة (وَ يْ) .
(٢) ينظر : العين ، الخليل : ٤٤٢/٨-٤٤٣ ، مادة (وَ يْ) .
(٣) الصاحبي ، ابن فارس : ٤٣/١ .
(٤) ينظر : الكشاف ، الزمخشري : ٤٣٨/٣ .
(٥) مفتاح العلوم : ٩٦ .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٧/٢١ .
(٧) ينظر : دراسات بلاغية ، بسيوني فيود :٧٣ .

﴿ يَبْسُطُ ﴾ ، خلافاً لما ظنوه من قبل أن فتنة الضراء ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ المتمثلة في (فقرهم) هي البلاء ، فلم يستشعروا قيمة شكر الله وحمده على كل عطاياه صغيرها وكبيرها حتى رأوا نموذج الغنى يُخسف به لكِبره وغطرسته .

- «التعبير بالمضارع في ﴿ يَبْسُطُ ﴾ و ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ لإفادة تجدد البسط والقدر»[1] .

- ﴿ ٱلرِّزْقَ ﴾ : كلمة عامة تشمل المال ، والبنون ، والطعام ، والمساكن وغيرها من أنواع الأرزاق [2] ، قُصد بها هنا غنى قارون [3] ، واختيارها وهم في حالة شكر لله ، يحمل معنًى يناسب حالهم ، وهو ما نالوه من الرزق باستشعار عظمة منة الله عليهم ، حيث رزقهم الله رزقاً حُرمه قارون من شكر الله وحمده على فضله وإحسانه ، وإن ضاق عليهم الرزق الظاهري للبدن فقد بسط الله لهم الرزق الباطني في قلوبهم ، وقُدِر على قارون .

- ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ : وهذه الآية من المتشابه الذي تكرر في القرآن الكريم ، ففي الآية هنا لم يأت ذكر الجار والمجرور (له) بعد ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ بينما جاء في غيرها من السور ، والسر أن التقدير : يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لمن يشاء ، وكل واحد منهما غير الآخر ، بخلاف مثلاً قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ (العنكبوت:٦٢) ففيه عموم ، وتقدير الآية يبسط الرزق لمن يشاء من عباده أحيانًا ، ويقدر له أحيانًا ؛ لأن الضمير يعود إلى (مَن)[4] .

- بين ﴿ يَبْسُطُ ﴾ و ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ قال ابن كثير في معناها : « إن الله يعطي ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع »[5] فبين الفعلين طباق معنوي ، تتجلّى

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٧/٢١ .

(٢) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٤١٠/٢٠ .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٢٧/٧ .

(٤) ينظر : البرهان في توجيه متشابه القرآن ، الكرماني : ٢٠٠ .

(٥) تفسير القرآن العظيم : ٢٥٧/٦ .

فيه قدرة الله سبحانه وتعالى ، وحكمته التي تخفى علينا ، وكان موقف قارون يوحي بهذا الفارق بين الأمرين بمشيئة العلي القدير .

- قولهم : ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ في سياق اعترافهم يحمل دلالة التعظيم لله ، فليس كقول : منّ الله علينا فلم يخسف بنا ، وشتان بين الأسلوبين! فاستعمال (لولا) قصر المعنى على منة الله وأنها سبب النجاة ، والفرصة التي وهبهم الله إياها بتأمّل حال غيرهم والاتعاظ به ، ولا يفيده إطلاق الصفة دون تقييدها بـ(لولا) ، وتلفت النظر إلى أنهم خافوا لمجرد أمنيتهم أن يكون مصيرهم مثل قارون .
- التعبير بـ ﴿ أَن مَّنَّ ﴾ دون المصدر (مِنّة) يدل على استمرارية المنة ، وتحقق معناها في قلوبهم وتجدده ، « وهذا الاستعمال من الكناية ، إذ دلّ اللفظ على لازم معناه ، فإن صيغة المضي الواقعة في مثل هذا التركيب وإن دلت على المضي حقيقة فإنه يلزم من مضيها استمرار الزمانين الآخرين فيكون كناية ، وقد يكون من المجاز المرسل بعلاقة الجزئية ، إذ عبر عن الكل بجزئه »[(١)] .
- التعبير بلفظ ﴿ مَّنَّ ﴾ من (المنة) دون (الرحمة) أو (التوبة) ، أو (الفضل) يجعل المعنى شاملاً لكل هذه الألفاظ ، وأكثر منها ، فكأنهم يقولون : هو سبحانه رحمنا ، وتاب علينا ، وتفضّل علينا فله المنة والحمد أن لم يخسف بنا كما فعل بهذا المتكبّر .
- ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ ﴾ : يرى الكرماني أنها تختلف عن ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ في اعترافهم أولاً ، فليس هو بتكرار عنده ، معللاً ذلك بقوله : « لأن كل واحد منهما اتصل بغير ما اتصل به الآخر »[(٢)].

---

(١) بلاغة القرآن الكريم (دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل) ، ظافر العمري : ٢٩٣ .

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن : ١٩٧ .

الاعتراف المفهوم من منطوق الآية :

في قولهم : ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ اعترافُ استحقاقهم للخسف وخوفهم منه لمقالتهم لمّا رأوا قارون في زينته : ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (القصص:٧٩) ، يُفهم خطأهم في تمني ما له ، وندمهم على ذلك ، وإيثار التلميح دون التصريح لانشغالهم بالتعجب لما أصاب قارون وداره ، ولأن الموقف أعظم من أن يكون فيه ذكر الزلل ووصفه ، ولأنهم حديثو عهد بزللهم فلم تكن مدة طويلة بين تمنيهم وبين هلاك قارون ، فكان أول كلام يقولونه هو الاعتراف لله بكمال القدرة والحكمة في تصريف الأمور ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ ، ثم استشعار عظيم منته سبحانه حيث صرف عنهم المصير المفزع الذي رأوه في قارون .

* * *

١٢- قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ:٣١-٣٣) .

وقفة مع المعنى :

موقفٌ من مواقف الندامة والخزي يوم القيامة ، هو موقف الكفار في نار جهنم حين يزيدون على أنفسهم العذاب بمراجعة القول بين بعضهم البعض ،

فيلوم المستضعفون المستكبرين ، ويرجع المستكبرون اللوم على أولئك ، ويتبرؤون منهم ، ولا مفر من عذاب الله إذ وقع [١] .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

اعتراف المستضعفين في الآيات هو شاهد الاعتراف تلميحاً ، وفيه :

- ﴿ **لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** ﴾ ادّعى المستضعفون أن وجود المستكبرين مانعٌ لهم أن يكونوا مؤمنين ، فاقتضى أن جميع أحوال المستكبرين كانت تدندن حول منعهم من الإيمان ، فكان وجودُهم لا أثر له إلا ما في ذلك من انقطاعهم للسعي في ذلك المنع ، وهوما دل عليه قولهم فيما بعد ﴿ **بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ** ﴾ [٢]، ومن اللافت التعبير بـ ﴿ **أَنتُمْ** ﴾ دون إضلالكم أو تسويلكم أو غيرها ، وإن كانت هذه الأفعال تحصل ، لكن ﴿ **أَنتُمْ** ﴾ تدل على أن كبراء القوم إن كانوا على ضلال فهو كافٍ لإشاعة الضلال ، لأن كل ما يجري تحت أيديهم يترجم اعتقادهم ، وفكرهم ، منابرهم ، وتصرفاتهم ، وهذا كافٍ لجعل العباد في ضلالة إلا من رحم الله ، فكيف إن اجتمع مع وجاهة مكانتهم صدٌّ صريحٌ عن الحق ودعوة لغيره من سبل الشيطان؟
- ﴿ **بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ** ﴾ قال ابن عاشور : «أصل الكلام في غير القرآن : يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين ، إذ تأمروننا بالليل والنهار أن نكفر بالله . . . ، فلما قاطعه المستكبرون بكلامهم ، أُقحِم في كلام المستضعفين حرف (بل) ؛ إبطالاً لقول المستكبرين ﴿ **بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ** ﴾،وبذلك أفاد تكملة الكلام السابق،والجواب عن تبرؤ المستكبرين، ولو لم يُعطف بالواو لما أفاد إلا أنه جواب عن كلام المستكبرين فقط ، وهذا من أبدع الإيجاز ، بل من فرط إلحاحهم عليهم بذلك ، وتكريره في

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٦٦٠ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٢/٢٠٦ .

معظم الأوقات ، فكأنه استغرق وجودهم ؛ لأن الوجود كان في أزمنة ، فكان قولهم هنا : ﴿ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴾ مبالغة في شدة حرصهم على كفرهم ، وهذا وجه وجيه في الاعتبار البلاغي فمقتضى الحال من هذه الآية هو حذف المشبه »[1].

وتعقيباً على ما سبق فإنه من غير المناسب أن يُقال : (أُقحِم) في كلام الله تبارك وتعالى ، فالكلام نظمٌ محكم ، ونسجٌ بديع ، وكل حرف فيه له جماله ، ومعنى (قحم) في اللغة : « رمى بنفسه فيه من غير روية ، أو رمى في أمر من غير دُربة » [2] ، وينزّه كلام الله عن أن يكون فيه شيءٌ من هذا .

- في الآية ﴿ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ مجاز عقلي ، ألمح إليه سيبويه قبل أن يطول الحديث في المجاز من بعده ، بقوله : « ومثلُ ما أُجْرِيَ مُجرى سَعة الكلام ، والاستخفافِ ، قوله عزّ وجلّ : ﴿ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ، فالليلُ والنهار لا يَمكُرانِ ولكنّ المكرَ فيهما »[3]، وقد تحدث التفتازاني في (مختصر المعاني) عن (المجاز العقلي) قائلاً : « ويسمى مجازًا حكميًّا ، ومجازًا في الإثبات ، وإسنادًا مجازيًّا ، وهو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابسٍ له ، ... وذكر الآية »[4]، إذ أضيف (المكر) إلى (الليل والنهار)، وهما زمان وقوع المكر ، والإضافة الحقيقة أن يقال : بل مكركم بالليل والنهار ، وترجع بلاغة المجاز في الآية الكريمة إلى دلالته على المبالغة في المكر والإغواء ، فالإضافة في الآية تصوّر المكر واقعاً من الليل والنهار ، وكأن الزمن لشدة مكرهم وتناهيهم في الإغواء صار يشاركهم فيما يصنعون ، بل

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٠٦/٢٢ .

(٢) لسان العرب ، ابن منظور : ٤٦٢/١٢ ، مادة (قَ حَ مَ) .

(٣) الكتاب : ١٦٠/١ .

(٤) مختصر المعانى ، التفتازاني ٣٣/١ .



صار هو الماكر ، ومما يدل على ذلك عطف (النهار) على (الليل) فهو يدل على أنهم يواصلون المكر ليلاً ونهاراً ، لا يكفون عنه ولا يهنون[1] .

- ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ : قال الضعفاء : هذا ما دهانا منكم ، ووصل إلينا من إضلالكم ، ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار ، إذ تُحَسِّنون لنا الكفر ، فما زال مكركم بنا ، وكيدكم إيانا ، حتى أغويتمونا وفتنتمونا [2] ، ففي الآية تقديم الكفر بالله على اتخاذ الأنداد ، وهذا من عطف الخاص على العام ، فمن كفر بالله جل وعلا ، فعل ما بقي من الذنوب دون نفسٍ متحسرة ، إذ ليس بعد الكفر ذنب .

- التعبير بالمضارع ﴿ تَأْمُرُونَنَآ ﴾ مع دلالة ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ تدل دلالة صريحة على تجدد واستمرارية الأمر بالكفر بالله ، والإشراك به .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآيات :

﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، يُفهم من الجملة أنهم كفروا بالله ويؤكد هذا قولهم : ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ فوجّهوا اللوم إلى المستكبرين لأنهم أكثروا عليهم الأمر بالكفر واتخاذ الأنداد مع الله ، وكثرة الطَّرْق تفتح الأبواب .

* * *

١٣- قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (الشورى:٤٤) .

---

(١) ينظر : من بلاغة النظم القرآني ، دكتور بسيوني فيود : ١١٨ .

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، ابن السعدي : ٦٨١ .



وقفة مع المعنى :

وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ مرأىً ومنظرًا فظيعًا ، صعبًا شنيعًا ، يظهرون الندم العظيم ، والحزن على ما سلف منهم ، ويقولون : هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا ، لنعمل غير الذي كنا نعمل ، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن [1] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ **هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ** ﴾ «أسلوب الاستفهام من الأساليب الذكيّة غير المباشرة التي يحاول المتكلّم فيها جعل المخاطَب هو الذي يدرك بنفسه المعنى الذي يريده ، فيطرح على المخاطب جملةً استفهاميَّةً موجّهةً توجيهاً خاصّاً ، إذ يحيطها بقرائن تجعله يدرك المعنى بنفسه ، سواء عبّر عنه بالجواب أولم يُعَبِّر ، والمحققون من علماء البلاغة يَرَوْنَ أَنَّ معنى الاستفهام يبقَى ولكن ينضم إليه ما يُستفاد منه من المعاني التي يُدَلُّ بِه عليها»[2] ، فالتعبير بأداة الاستفهام (هل) أفاد التمني [3] ، فكان أبلغ في سياقه هنا من صيغ التمني الأخرى ؛ لأن في الاستفهام تحننًا وطلبًا إجابة للحصول على الراحة التي لا تكون حينئذ ، و«السر في العدول عن (ليت) التي هي في الأصل في التمني إلى (هل) ؛ لإبراز المتمنَّى في صورة المستفهم عنه الذي لا جزم بانتفائه ؛ لإظهار كمال العناية به ، حتى لا يستطاع الإتيان به إلا في صورة الممكن الذي يطمع في وقوعه» [4] .
- التعبير بـ : (مرد) وليس بـ (خروج) كما يعبّر في مقام آخر في قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن**

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٧٦١ .

(٢) البلاغة العربية ، الميداني : ٢٠٨ .

(٣) ينظر : ص ٨٠-٨١ .

(٤) دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، دكتور محمد أبوموسى : ٢٠٥ .

سَبِيلٍ ﴾ (غافر:١١) [١] ، لأن نداءهم في آية غافر كان من أعماق نار جهنم فلا ريب أن يطلبوا الخروج ؛ لأنهم ذاقوه واحترقت أجسادهم بلهيبه ، فالطلب حينها يكون للتخلّص من ذلك الوجع بأي حال ، لم يوجّهوا طلبهم للرجعة إلى الدنيا ، لكن سياق الآية في موضع الشاهد هنا في سورة الشورى يتمنوّن أن يُردّوا لأنهم رأوا العذاب لتوّهم قبل أن يدخلوا النار ﴿ **وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ** ﴾ فظنوا أن صوتهم سيُسمع ، وطلبهم سيُلبى ، وهيهات !

- وفي توجيه الفرق بين الفاصلة في آية سورة الشورى ﴿ **هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ** ﴾ والفاصلة في سورة غافر : ﴿ **فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ** ﴾ تقول الدكتورة سارة البديع رحمها الله : « أما آية الشورى ، فقد كانت فاتحتها حديثاً عن الله ـ سبحانه ـ في جانب الإضلال والهداية ، وكانت واسطتها عن الظالمين ، وحالهم حين يرون العذاب يوم القيامة ، ثم ترد الفاصلة لتحكي قولهم الذي أبان عن تلك الحال : ﴿ **فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ** ﴾ ، فكانت هذه الجملة فقط هي كل القول الذي حُكي عنهم في هذه الفاصلة ؛ ولذا لم ترد معطوفةً بالفاء السببية ، إذ لم يرد قبلها ما يجعلها نتيجةً أو سبباً ، . . . والكلام في سورة غافر كان جواباً لابتداء كلام ، . . . فيتأثر نظمه بما ورد فيه ، وبما ورد في سياقه » [٢] .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

تمني الرجعة حين رؤية العذاب كافيةٌ في تحقق الاعتراف بالزلل ، ورؤية العذاب وتخيّل ما يمكن أن ينتظرهم معه من الألم النفسي والجسدي تجعل التصريح بالزلل ليس هيّناً ، إذ الموقف أفظع من بسط الحديث .

* * *

---

(١) ينظر : ص٨١ .

(٢) متشابه الفواصل القرآنية : ١٤٨ .

١٤- قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (المنافقون: ١٠).

وقفة مع المعنى :

أمر الله عباده المؤمنين بكثرة ذكره ، ونهاهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ، مخبراً لهم بأنه من لَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الإنفاق في طاعته ، قبل أن يندموا ، فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا ، يستعتب ويستدرك ما فاته ، وهيهات! كان ما كان ، وأتى ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه [١].

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ ﴾ : سبق في شواهد عدة تبيين ما لنداء (رب) من تحنن وخضوع وانكسار ، و(لولا) حرف تنديم وتحضيض ، ويفيد التمني إذ يتضمن معنى (ليتك) [٢] كما جاء في الآية هنا ، وهو حال المقصّر المعترف بتفريطه .

و«لم يقل : (لو أخرتني) لأن (لولا) أشد في الطلب من (لو) ، وقائلها أكثر إلحاحاً من قائل (لو) ، فإن (لو) تكون للطلب برفق ، وأما (لولا) فتكون للطلب بشدة وحث ، معنى ذلك أن يستدعي الإلحاح في الطلب وأن يجأر به ، وأن يأتي بما هو أشد أدوات الطلب قوة» [٣].

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ١٣٢/٨ .
(٢) ينظر : مفتاح العلوم ، السكاكي : ١٣٨ .
(٣) ينظر : لمسات بيانية ، فاضل السامرائي : ١٧٤ .

- التعبير بـ ﴿ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ﴾ (المنافقون:١٠) دون (أعدتني) ، أو (رددتني) ، أو (أرجعتني) ، كما جاءت هذه المرادفات في آيات أخرى[(١)]، لأن لحظة الموت حانت فتمنّى لو تتأخر شيئاً يسيراً حتى يتمكن من استدراك ما فات ، « ثم انظر كيف طلب مهلة قصيرة لإصلاح حاله ، مع أنه كان يتقلب في الأرض من دون أدنى تفكير ، أو اهتمام بمآله في الآخرة ، أو بالأوقات التي يضيعها هدراً من دون اكتراث ، فقال: ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ﴾، ولم يقل : (إلى أجل) فيحتمل القريب والبعيد ، فطلب مهلةً قصيرةً لتدارك ما فات » [(٢)] .
- ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ قال ابن عاشور : « كان الفعل الأول هو المؤثر في الفعلين الواقع أحدهما بعد فاء السببية ، والآخر بعد الواو العاطفة عليه ؛ فقد أفاد الكلام التسبب والتعليق في كلا الفعلين ، وذلك يرجع إلى مُحسّن (الاحتباك) [(٣)] ، ومن لطائف هذا الاستعمال أن هذا السائل بعد أن حث سؤاله أعقبه بأن الأمر ممكن فقال : إن تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين . وهومن بدائع الاستعمال القرآني لقصد الإيجاز وتوفير المعاني»[(٤)] .
- ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ عطف بالجزم على النصب ، وهذا ما يسميه النحاة (العطف على المعنى)[(٥)]، وقد يسمى في غير القرآن (العطف على التوهم)، ذلك أن (أصدق) منصوب بعد فاء السببية ، و(أكن) مجزوم على أنه جواب للطلب ، والمعنى إن أخرتني أكن من الصالحين ، فلم يسو بينهما ، فيجعلهما على نسقٍ واحد لأنهما ليستا بمرتبة واحدة ، فالصلاح أهم من

---

(١) ينظر : ص ١٥٩-١٨٥.
(٢) لمسات بيانية ، فاضل السامرائي : ١٧٥ .
(٣) ينظر : ص ٢١٨ .
(٤) التحرير والتنوير : ٢٥٤/٢٨ .
(٥) ينظر : معاني النحو ، فاضل السامرائي : ٢٥٩/٣ .

الصدقة ، ذلك أن الذي ينجي من العذاب هو كونه صالحاً لا كونه متصدقاً ، فإن المؤمن قد لا يتصدق بصدقة أصلاً ومع ذلك ينجيه الله من العذاب ويدخله الجنة إن كان صالحاً [1] .

- ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ جاء الترغيب في الإنفاق في مطلع الآية ، ثم جاء هذا الندم ليؤكد على أفضلية الإنفاق في سبيل الله ، حيث إن الفعل جاء مشدداً ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ ، وكل زيادة في المبنى زيادة في المعنى ، وعلى هذا فإن هذا المفرّط تمنى المبالغة في الصدقة ، لا الاكتفاء بالقليل ، ليتقي بنفقته أهوال يوم القيامة ، وقد ورد أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرًا ؟ قال : « أن تصدّق وأنت صحيحٌ شحيحٌ ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » [2] .

وأفاد هذا البناء أيضاً بما فيه من تشديد أنتج قِصَراً في الكلمة ، قصر المدة التي طلب التأخير إليها [3] .

- تخصيص الصدقة من بين الأعمال الصالحة كالصلاة والصوم وغيرها بالذكر في الآية ، لأن السياق هو الترغيب في الإنفاق ، وربّما لتفريط المقصّر فيها تحديداً ، وأيضاً لأن نفعها متعدٍّ من بين الأعمال الصالحة .

---

(١) ينظر : لمسات بيانية ، فاضل السامرائي : ١٧٦، ١٧٧ .

(٢) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الزكاة ، باب : أي الصدقة أفضل؟ ، وصدقة الشحيح الصحيح ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ (المنافقون:١٠) الآية ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٤) الآية ، (رقم الحديث : ١٤١٩)، ورواه مسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : الزكاة ، باب : بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ، (رقم الحديث : ١٠٣٢) .

(٣) ينظر : لمسات بيانية ، فاضل السامرائي : ١٧٩ .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أمنية التأخير ، ولوزمناً يسيراً لأجل الإنفاق وأن يكون من الصالحين ، تُفهم تفريطه في الإنفاق في سبيل الله ، وأنه لم يسلك صراط الله القويم ، واتبع وساوس الشيطان فهلك ، ولحظة الموت وسكرته أفظع من أن تكون استرجاعاً للذنوب والبوح بها ، فما أعظم الندامة على تفريط في الكثير من الأعمال التي تقرب لله ، وكانت يسيرة على من يسّره الله عليه .

* * *

١٥- قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ (الحاقة:٢٥-٢٩) .

وقفة مع المعنى :

سلسلةٌ من الأمنيات ، في موقف تطاير الصحف [(١)] ، يميّز أهل الشقاء بالخزي والعار بأن يُعطَوا كتب أعمالهم بشمائلهم ، فتخيل الحال التي وصف الله لنا في الآيات لهذا الذي أعطي كتابه بشماله ، فكانت اعترافاته وأمنياته على شدة حسرته ولومه لنفسه معبّرةً عن تقصيرَه ، ومدى الخطأ الذي ارتكبه في حق ربه ، وحق نفسه ، وهذه الحسرات كافية لتبوح عنه دون تصريحه بذنبه العظيم .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- ﴿ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾ ، التمني في مثل هذا الموقف يدل على ضعف وانكسار وتفريط شديد ، فمن أوتي كتابه بيمينه لا يملك نفسه من الفرح

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٨/٢٦٨ .

حتى يود أن يشاركه الجميع فرحته ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ (الحاقة:١٩) ، لكن هذا المسكين ، يأخذ كتابه ويلوذ بالأمنيات ؛ لعلها أن تخفف شيئاً من لوعته! والتمني سبق الحديث عنه [(١)] .

- ﴿ لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ التعبير بـ(أوت) دون (آخذ) أو (أتناول) أو (أُعط) أو غيرها من المرادفات له دلالته ، بتتبع للآيات في القرآن الكريم وجدت أن (الأخذ) جاء لما يوصف بالشدة ، كالمواثيق والعذاب ، وما لا ينبغي أن يكون كأخذ مال الزوجة ، والنوم في حق الله جل وعلا ، فكلها أمور مستنكرة ومتصفة بعِظمها حين وقوعها ، كما «أن التناول أخذ الشيء للنفس خاصة ؛ ألا ترى أنك لا تقول : تناولت الشيء لزيد ، كما تقول : أخذته لزيد ، فالأخذ أعم ، ويجوز أن يقال : إن التناول يقتضي أخذ شيء يستعمل في أمر من الأمور ، ولهذا لا يستعمل في حق الله تعالى ، فيقال : تناول زيدًا ، كما تقول : أخذ زيدًا ، وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ (الأحزاب:٧) ولم يقل : تناولنا ، وقيل : التناول أخذ القليل المقصود إليه ، ولهذا لا يقال : تناولت كذا من غير قصد إليه ، ويقال : أخذته من غير قصد» [(٢)]. بينما الإتيان هو «مجيءٌ بسهولة ، فهو أخص من المجيء ، إذ الإتيان قد يقال باعتبار القصد ، وإن لم يكن منه حصول ، والمجيء يقال اعتباراً بالحصول ، والإتيان يقال للمجيء بالذات ، وبالأمر ، وبالتدبير ، وفي الخير ، والشر ، والأعيان ، والأعراض» [(٣)] فهو مناسبٌ للمقام ، من حيث إنه جاء لهذا المقصر بسهولة ، ودون طلب منه على ملأ من الثقلين ، وجاء التعبير بالإتيان بصيغة المبني لما لم يسم فاعله ؛ لأنه

---

(١) ينظر : ص ١٨٤ .

(٢) الفروق اللغوية ، العسكري : ١/١٤٥ .

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ، المناوي : ١/٣٢ .

سيمسك كتابه بشماله عنوةً ، لا اختيار له في ذلك ، ولا مجال لرده ؛ إذلالاً له وعقاباً ، فلا يمكنه أن يُمسك أو يتناول بمحض إرادته .

- ﴿ لَمْ أُوتَ ﴾ ، ﴿ وَلَمْ أَدْرِ ﴾ الجزم للأفعال وقع موقعه ، وحذف حرف العلة منها مناسبٌ لحال هـذا الظـالـم ، فلـم يـكـن التعبيـر بـ :(ما أوتيتُ) ، ولا (ما دريْتُ) ، فقِصر حروف الفعل بعد مناداة التمني ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ﴾ كأنها التقاط أنفاس ، ثم العودة للآهات من جديد في الفاصلة البديعة متمثلة في المد والهاء ، فتركيب هذا النظم المعجز بكل ما فيه يصوّر الموقف ، ويبرز دقائقه ، فكيف بمن يعيشه؟ نسأل الله السلامة .
- لم ترد صياغة التمني مع الياء في الآية الثانية ، بل عُطفت على الأولى ، وهذا يشير إلى أن لا أعظم من الذلة الأولى وهي أخذ الكتاب بالشمال ، أما عدم الدراية بالحساب فمترتبة عليها : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ ، ثم الانتقال لصيغة التمني من جديد في تمني الموت ؛ لعدم ملاقاة هذا اليوم العصيب ، فيتمنى لو كانت الدنيا قضت عليه فلم يذل هذه الذلة .
- عدم ذكر الدنيا ﴿ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ يتناسب مع ذكر التلميح الذي جاء في اعترافه ، فهو يتمنى لو لم يعش بعد حياته الدنيا ، قال قتادة : تمنى الموت ، ولم يكن شيءٌ في الدنيا أكره إليه منه[(١)] ، ويُلحظ اختيار لفظ قوي في مخارج حروفه ، وصياغته ، للدلالة على هذا التمني ﴿ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ فناسب هذا التعبير شدة الحال التي هو فيها ، « فتمنى لو كانت الموتة التي قضت عليه ؛ لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته ؛ فتمناه عندها »[(٢)] .

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٨/٢١٥ .

(٢) الكشاف ، الزمخشري : ٤/٦٠٧ .

- و« جملة ﴿ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ من الكلام الصالح لأن يكون مثلاً ؛ لإيجازه ووفرة دلالته ، ورشاقة معناه ، عبر به عما يقوله من أوتي كتابه بشماله من التحسر بالعبارة التي يقولها المتحسر في الدنيا بكلام عربي يؤدي المعنى المقصود » [1] .

- ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ لعل تكرار ﴿ عَنِّي ﴾ في آخر آيتين ، أثرت في المعنى وجعلت الوجد والحزن الذي يشعره الإنسان على نفسه في تلك الحال لا يفارقه ، فهو متحسّر على نفسه ، وتفريطه في حق ربه ، يؤكد هذا تذكره لماله وجاهه ، وكيف خَلُص به الأمر إلى أن يكون وحده؟

- ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ قال أبو حيان : « يجوز أن يكون نفيًا محضاً ، أخبر بذلك متأسفًا على ماله حيث لم ينفعه ؛ ويجوز أن يكون استفهامًا وبّخ به نفسه ، وقررها عليه » [2] ، فهومن شدة الحسرة وعمق اللهفة يوبخ نفسه يظنّ أن كل ما كان يملكه فيه روح ومن الممكن أن يساعده ، لكنّ هذا لم يحصل ، فيتساءل عن سبب تخليهم عنه! وهذا من المجاز ، فـ ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ ﴾ و ﴿ هَلَكَ عَنِّي ﴾ ، تعابير تناسب العاقل ، فهو الذي يغني وينفع أو يفنى ويهلك !

فلمّا رأى نفسه وحيداً تساءل عن تلك الجمادات التي كانت له مصدر قوة وتفاخر في الدنيا ، فإذ بها ترجع في عينيه إلى أصلها ، مجرد أشياء لا تقوّي ولا تنفع ، ولا تشفع ، وقد يكون هذا بسبب ما رآه من شهادة الأعضاء على العاصين ، وشهادة الأرض يوم تحدّث أخبارها ، فانتظر من كل شيءٍ أن يكون ذا روح .

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٣٦/٢٩ .

(٢) البحر المحيط :٣١٨/٨ .



وقد يكون هذا التحسّر عندما رأى من زادت أمواله في حسناته من المؤمنين في مراحل حسابهم ، وغُفر لهم بسبب إنفاقهم في سبيل الله ، وكان كل ما يملكون في الدنيا مُثقّلاً لموازينهم .

- مناسبة ﴿ مَآ أَغْنَىٰ ﴾ للمال ، و ﴿ هَلَكَ ﴾ للسلطان ؛ فلم يكن العكس ، بأن يكون الهلاك للمال ، وطلب النفع للسلطان ، وهذا ما يمكن أن يتبادر للذهن أنه الأظهر : بأن يُرجى النفع من السلطان فيناسبه التعبير بالغنى ، والمال فيناسبه التعبير بالهلاك ! ، لكن البلاغة والكلام الرباني المعجز يبيّن العكس ، فالغنى وإن اتسّع معناه فشمل قصد النفع في الآية ، لكن استعماله في المال أشهر فناسب أن يأتي مع المال ، وجاءت في « معنى النفي أو الاستفهام على وجه الإنكار ، أيْ : أيُّ شيء أغنى عني ما كان لي من اليسر والسعة؟ » [1]
- يلحظ أن هذا المتحسّر لم يتذكر الأهل ، وإنما انشغل بنفسه ، وشأنه الخاص ، وما يدور فيه من المال والجاه ، وهذا مصداق ما جاء في الآيات الكريمة : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس: ٣٤-٣٧).
- الهاء في فواصل هذه الآيات لها ميزة ، من حيث الصوت والدلالة ، فنلحظ أن هذه الحسرات تُقال في يوم الحشر ، وهو يوم ثقيل كما أخبرنا سبحانه وتعالى ، ووصفه بيوم عسير ، وأنه عبوس قمطرير ، والناس في ذلك اليوم يبقون خمسين ألف سنة في هذه الشدة حتى يفزعون إلى الأنبياء ، والهاء أشبه بنهاية المتعبين ، تصور المشهد الذي هم فيه جميعاً من تعب وعناء ، فجاءت لمراعاة الموقف الذي هم فيه ، كما اختار الألف في البكاء سابقاً ، إذن استخدام حرف الهاء في فواصل هذه السورة يدل على التعب والعناء والألم والهاء مأخوذة من الآه [2] .

---

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٤/٦٠٧ .

(٢) ينظر : أسرار البيان في التعبير القرآني ، فاضل السامرائي : ٨٨ .

ولأن فواصل الآي بهاء سكت ؛ فإنك في غير القرآن تثبت هذه الهاء إذا وقفت ، وتحذفها إذا وصلت ، وهي مكتوبة في المصحف بـ (الهاء) ، فلا يوصل ، لأنه يلزم في حكم العربية إسقاط (الهاء) في الوصل ، فإثباتها إذا وصلت مخالفة للعربية ، وحذفها مخالفة للمصحف ، وفي الوقف عليها اتباع للمصحف والعربية معًا ، وجواز الوصل بـ(الهاء) إنما يكون على نية الوقف(١) .

- تمني هذه الأمور بهذا التدرّج هومن أسلوب التدلّي والترقي ، فبدأ بالأمر الأعظم وهو حاله التي هو فيها في الآخرة ثم نزل إلى حياته ثم عاد لآخرته من جديد ، فابتدأ بأمنية لو لم يتسلم كتابه ، ثم لو لم يدر ما حسابه ، ثم لو انتهت حياته من الأصل فلم ير هذا اليوم ، ثم استرجع أن الأمر قد وقع فبدأ يتساءل عن تخلّي كل ما يملك عنه ، وهذا كذلك من فوائد التقديم والتأخير ، بحسب الأهم في مثل حاله .

الاعتراف المفهوم تلميحاً من منطوق الآية :

من هذه الأماني يُفهم أن هذا المفرّط كان مكذبًا بلقاء يومه هذا ، فلم يتزود بما يقربه إلى الله ، ولم تُغنِ عنه أمواله ، ولا أهله وسلطانه ، وكان التلميح في صياغة الآيات الكريمة ، لشدة الموقف وذهول المرء عن تذكّر ذنوبه لكثرتها ، فيشتغل بالحسرة والتوجّع ، يقول ابن عاشور : « تمني كل من أوتي كتابه بشماله أنه لم يؤت كتابه ؛ لأنه علم من الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب ، فيتمنى ألا يكون علم بذلك ؛ إبقاء على نفسه من حزنها زمنًا ، فإن ترقب السوء عذاب ، . . . والمعنى : أنه كان مكذبًا بالحساب »(٢) .

(١) ينظر : مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان : ١٨٧ .
(٢) التحرير والتنوير : ١٣٥/٢٩ .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

امتياز أسلوب (التلميح) بمجيئه مخرجاً للمقصرين في أحوال ، هي :

١- الحياء من التصريح بالاعتراف ، لكون الزلل مخجلاً ، ولكون الاعتراف على ملأ .

٢- ضيق المقام حيث إن المعترف يختصر في تلميحه ، لكن التصريح يتطلب جهداً وشجاعة وإطناباً ، وربما تقديم أعذارٍ لا يسعها المقام .

٣- علم المخاطب المسبق بتفاصيل الزلل ، فتكون الإعادة تلميحاً ؛ لعدم كسر النفس مرات عدة ، وتذكيرها بتفاصيل الزلل .

٤- التعجب من الموقف الصارف عن التصريح ، حيث قد يستعمل المقصر حال التعجب ما يلمّح لزلله دون شعور منه أن ما فعله كان زللاً .

٥- الاشتغال بالحسرة والندم والتوجع والآهات عن ذكر الذنب تصريحاً .

٦- كبرياء المعترف ، وعزوفه عن الاعتراف الصريح لآخر لحظة ، والعذاب متحقق عليه .

٧- تعدد الذنوب ، مما يجعل استحضارها في موقف الاعتراف متعذّراً إما لنسيان ، أو لحياء ، فيُكتفى بالتلميح .

* * *



الفصل الثاني

التعبير بالإشارة (الحركة) .

وفيه ثلاثة مباحث :

الأول : التفكير .

الثاني : الصوت .

الثالث : البصر .

الفصل الثاني

التعبير بالإشارة (الحركة)

تعبير (الإشارات) الحركات :

إذا انفعل الإنسان حدثت تغيرات (فسيولوجية) كثيرة في بدنه ، كما حدثت تغيرات في هيئة بدنه الخارجية ، وفي ملامح وجهه ، ومن بين هذه التغيرات (الفسيولوجية) التي تحدث أثناء الانفعال شدة دقات القلب ، وتقلص الأوعية الدموية في الأمعاء والأحشاء ، واتساع الأوعية الدموية على سطح البدن والأطراف مما يؤدي إلى تدفق كميات كبيرة من الدم إلى القلب ، وامتلاء القلب بالدم بسبب ازدياد حجمه مما يجعله يقترب من القصبة الهوائية حيث يوجد القلب من الجهة التشريحية تحت الشعب الهوائية بما يقرب من سنتيمتر ونصف .

ومن التغيرات البدنية التي تصاحب الانفعال أيضًا تغيّر ملامح الوجه ، بحيث يستطيع الإنسان أن يلاحظ حالة الانفعال من التغيرات التي تحدث في ملامح وجه المنفعل ، وقد أشار القرآن إلى هذه الظاهرة في كثير من الآيات ، ومن أمثلة ذلك ، قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا** ﴾ (الحج:٧٢) [١] .

---

(١) ينظر : القرآن وعلم النفس ، محمد نجاتي : ١٠٨-١٠٩ .

ومن نعمة الله على الإنسان أن علّمه هذا التواصل الفطري عبر تعدد الطرق لإيصال مشاعره ، و «تُعدّ الإشارات أول وسيلة من الوسائل التي طوَّرها الإنسان في اتصاله بالآخرين ، وتنطوي كل ثقافة من الثقافات المختلفة على نسقٍ من الإشارات ذات معانٍ ودلالات معينة ، وهذه الإشارات إما أن تصاحب لغةً الكلام ، وإما أن تكون قادرة على أداء الرسالة بمفردها .

وبصورة عامة فإنه يندر أن يكون الشخص المتحدث جامداً غير متحرك ، بل غالباً ما يصحب كلامه حركات للرأس واليدين والقدمين والعينين ، والتي تقوم بدورٍ مهم في الاتصال البشري . لأن هذه الحركات إنما تُعبر تعبيراً بليغاً عن المشاعر والانفعالات والعواطف وردود الفعل ، سواء كانت حركات مقصودة أو غير مقصودة» [1] .

ويحتلّ الوجه المركز الأكثر قدرة على إيصال رسائل الفكر ، إذ «يستطيع الإنسان أنْ يُعبر بعينيه عما يريد ، ويستطيع أن يستكشف ما في نفوس الآخرين من خلال التأمل في نظرات عيونهم ، فإنه يستطيع أيضاً أن يفعل ذلك من خلال تأمّل قسمات الوجه ، فالوجه في مجموعه يُكوِّن نظاماً متكاملاً ، فالجبهة والعينان والأنف والأذنان والشفتان والذقن والفم ، توجد فيما بينها علاقة متبادلة ، بحيث تؤدي جميعاً أعمالاً وظيفية ، لا يمكن لأيٍّ منها أن يؤديها وحده أبداً . بالإضافة إلى ما يُسهم به كل منها في تكوين المظهر الكلي للوجه ، والذي تؤدي تعابيره دوراً مهمًّا بوصفها مصدراً للبيانات المتعلقة بالحالات الانفعالية للإنسان ، كحالات الفرح والخوف والدهشة والحزن والغضب والاشمئزاز والازدراء ، فغالباً ما تكون المشاعر الإنسانية مقروءة في صفحة الوجه» [2] .

---

(١) الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث (النظرية والتطبيق) ، سامية جابر : ٦٣، ٦٤ .

(٢) الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين ، دكتور عودة عبد الله : ٢٣ .

ويُروى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال : « ما أسرَّ أحدٌ سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه »[1] .

وتتغير أثناء الانفعال هيئة البدن كله بوجه عام ، ففي حالة السرور ، والفرح مثلاً يبدو الإنسان نشيطًا منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، متسع الصدر ، وفي حالة الخزي والشعور بالذنب والندم يبدو الإنسان ذليلاً ، مطأطئ الرأس ، منكمش الجسم كأنما يريد أن يتوارى عن الأنظار ، ونجد في القرآن وصفًا لهذه التغيرات في هيئة البدن التي تصاحب الانفعال ، ومثال ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ ﴾ (الشورى:٤٥)[2] .

اعتراف الجوارح وحده هو المقصود من هذا المبحث ، حيث يتبيّن معه دقة النظم الحكيم في وصف حالة الاعتراف التي قد لا يصاحبها قول ، لكن الجوارح هي التي تترجم أحوالهم حين تتحرك بانفعالات تدل على اعترافهم .

ونجد في هذا المبحث ألواناً من الكناية والاستعارة ، فتتجلّى بهما البلاغة ، ويحلو معهما التدبر ، ويطيب عليهما التحليق .

وحركات الجوارح قد يختلف فهمها لدى الأشخاص ، وقد لا يُتّفق معي على فهم بعضها بأنه اعترافٌ بالزلل ، أو قد يرى القارئ أن ثمة آيات أخرى مهمة لهذا المبحث لم تكن فيه ، ولأن السياق يحكمنا ، والمقام يفسّر كل ما تترجمه الأوصاف والحركات ، سأعود إلى المعنى كما سبق وفعلت في المبحث الأول قبل كل تحليل ليتضح ما ذهبتُ إليه في أن الحركات اعترافٌ بالزلل أو الذنب أو الجرم ، بحسب المعترف .

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٧/٣٢١ .

(٢) ينظر : القرآن وعلم النفس ، محمد نجاتي : ١١٢ .

وسأذكر على سبيل المثال لا الحصر من الآيات الواضحة الانفعال التي لم أدرجها في مبحثي هنا ، قوله تبارك وتعالى في أهوال الساعة : ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ (الحج:٢)؛ لأنها تعبيرٌ عن الخوف لا تعبيرٌ عن الاعتراف بالزلل ، لاسيما وأن الحديث عن الناس أجمعين حال قيام الساعة ، لم يحدد الظالمين أو أي وصف دال على فعل زلل يعترفون به ، وهناك فارقٌ كبير بين تعبير الخوف وتعبير الزلل ، استصحبته زمن حصر الآيات وتحديدها ، فالاعتراف بالزلل لاشك أن الخوف يخالطه إلا فيما ندر من الآيات ، بينما تعبير الخوف لا يُشترط أن يصاحبه اعترافٌ بالزلل ، وأرجو السداد والنفع .

وورد الاعتراف بالزلل محكيّاً عن المقصّرين بحركات أو إشارات **مجرّدة من القول** [1] في موقفين :

١- موقف توبة . ٢- موقف وقوع عذاب .

تدلّ تلك الإشارات دلالةً واضحةً على الاعتراف بالزلل ، وقوّتها ودرجتها بحسب حال المُعترف ، فساداً وصلاحاً ، وبحسب المقام ، والمخاطَب .

وقد وردت حسب ما استقرأتها في أحد عشر موضعاً ، قسّمتها بحسب الحركة أو التأثير الذي وقع من المعترف وعليه إلى ثلاثة مباحث :

١- التفكير[2] **:** متمثلاً في تأنيب الضمير وضيق النفس ، وشاهداه اثنان .

٢- الصوت : متمثلاً في المناداة أو الصمت ، وشواهده ثلاثة .

٣- البصر : متمثلاً في الشخوص ، والخشوع ، وشواهده خمسة .

* * *

(١) الفصل الثالث سيدرس التعبير بالقول والإشارة معاً .

(٢) التفكير وتأنيب الضمير وضيق النفس كذلك هي عبارة عن تفاعلات داخلية في الجسم وعمليات عقلية ، فالحركة داخلية في الأساس ، وقد ينتج عنها حركات خارجية في الغالب ، لكن هذه الحركات الخارجية مالم تكن مذكورة في الآية فلن تكون محل دراسة .

المبحث الأول

التفكير

تحدّث القرآن عن الأثر النفسي للمعصية ، وهذا الأثر وإن كان حارقًا يلتهبُ في جوف الإنسان فله انفعالات ترتبط به ، مهما حاول الإنسان أن يكتم فلا يتعرّض لسانه لأية شكاية ، غير أن الإشارات التي تنتقل عبر منافذ الحس تكشف للمتأمّل حاله ، و« إذا كان الصمت توقُّفاً عن الكلام اللفظي ، فإنه ليس توقفاً عن الكلام النفسي وبالتالي عن الاتصال ، ففي الصمت الكثير من المعاني التي يمكن أن تُعدُّ أساساً في عملية التواصل والتفاهم بين الناس . . . ، فالمعاني والمشاعر المنتقلة بين الناس قد تكون صريحةً ينطق بها اللسان وتسمعها الآذان ، وقد تكون دفينةً في النفس ، ولكنها تظهر في علامات الوجه ، وحركات الجوارح ، . . . فما عبوس الوجه من جهة ، وبشاشته وانبساطه من جهة أخرى ، إلا دليلٌ واضحٌ على ما يدور في نفس صاحبه من مشاعر وأحاسيس » [(١)] .

ولا يخفى أن شعور الضيق قد يكون نتيجة لعدد من السلوكيات التي فعلها الإنسان ثم يخلص الضيق إلى جملة من المشاعر ذات العلاقة منها عتاب نفس ، والحُرقة لفوات خير ، أو الاعتراف الوجداني على ارتكاب زلل ، وهو الحاصل في الشواهد قيد الدراسة ، « ويقال فلان ضيق الصدر كنايةً عن الغضب والتوتر ، والنفور من سلوك الآخرين ، واختصاص الصدر مرتبط بمدى التفاعلات العصبية و(الفسيولوجية) التي تطرأ على الرئتين والقلب في حالتي

---

(١) الاتصال الغير كلامي وعمقه التأثيري على الآخرين ، دكتور عودة عبد الله : ٤.

التسامح والتوتر»[1] فكيف حين يكون التعبير أشمل وأعم من ذلك فلا يختص الضيق بالصدر وحده ، هذا ما سأقف معه في تحليل الآيات إن شاء الله .

وقد أطلقتُ على مشاعر الضيق في الآيات بـ (التفكير) وأسميتُ على أساسه المبحث ؛ لأن الضيق المحكي عن الصحابة وُصف في السيرة بما حدث معه عند الصحابة ليؤكّد أنه تزامن وامتزج بعمليات عقلية ووجدانية مختلفة اختصرتها في (التفكير) لتكون أيضًا أقرب إلى عنوان الفصل : التعبير بالإشارة أو (الحركة) ، فربما لا نرى التفاعلات العصبية الذهنية التي تحدث مع المشاعر المختلفة لكننا لا نشك لحظة في حدوثها .

بدا التفكير في الشواهد بتأنيب الضمير المتمثّل في ضيق النفس كنتيجة له ، وشاهداه هما :

قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** ﴾ (التوبة:٢٥) .

قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (التوبة:١١٨) .

وقفة مع المعنى :

في الآية الأولى امتن تعالى على عباده المؤمنين ، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء ، ومواضع الحروب والهيجاء ، حتى في يوم (حنين) ، حيث أصيبوا بالعجب لما رأوا كثرتهم ، فاغتروا بذلك ، فاشتدت عليهم فيه

(١) لغة الجسد في القرآن الكريم ، عمر عتيق : ١٩ .

الأزمة ، ورأوا من التخاذل والفرار ، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها[1] .

والآية الثانية نزلت في : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية رضي الله عنهم ، فضلاء من صحابة رسول الله ﷺ قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد ، فلما عاد رسول الله ﷺ من الغزوة قدموا إليه صادقين يكشفون أمرهم ، وبدت معالم الغضب على رسول الله ﷺ ، فلم يكلمهم ، وأمر الناس بهجرهم ، حتى هجرتهم نساؤهم ، فاشتد عليهم الضيق ، كما جاء الوصف في هذه الآيات الكريمة [2] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- عندما يعلم المؤمن الكيّس أنه أخطأ ، يأخذ وخز الضمير منه كل مأخذ ، وهكذا الصحابة ، ونفس المؤمن اللوامة ، فالعجب الذي دخلهم حتى اغتروا في موضع ، والتخلف عن رسول الله ﷺ في موضع آخر ليس بالأمر الهين ، فكيف إن كان التخلف دون عذر!

وهؤلاء الثلاثة عندما هجرهم الناس واشتدت فتنتهم ، وعاشوا آلاماً نفسيةً ومعنويةً شديدةً ، صورها القرآن في أبلغ صورة : ﴿ **إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ** ﴾ قال أبو حيان : « جاءت هذه الجمل في كنف (إذا) في غاية الحسن والترتيب ، فذكر أولاً : ضيق الأرض عليهم ، وهو كنايةٌ عن استيحاشهم ونبوة الناس عن كلامهم .

وثانياً : ﴿ **وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ** ﴾ وهو كنايةٌ عن تواتر الهم والغم على قلوبهم حتى لم يكن فيها شيءٌ من الانشراح والاتساع .

فذكر أولاً : ضيق المحل ، ثم ثانياً : ضيق الحال فيه ؛ لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرحة : سم الخياط مع المحبوب ميدانٌ .

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤/١٢٥ .

(٢) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٤/٥٤٦ .

ثم ثالثاً : لما يئسوا من الخلق ، علقوا أمورهم بالله ، وانقطعوا إليه ، وعلموا أنه لا يخلص من الشدة إلا هو تعالى» [١] ، ويبرز أثر هذه العقوبة الربانية على نفوس الصحابة لأنها عُزلة ليست اختيارية ليتعبد التقي ، وإنما هي عقوبة فكانت أشد وأقسى عقاب ، حيث إن «الاتصال يُعدُّ من الأساسيات الحياتية للأفراد والمجتمعات ، فلا يستطيع أيُّ إنسانٍ أنْ يعيش بمعزل عن الآخرين دون أن يتصل بهم ، . . . والإنسان مدنيّ بطبعه ، يجنح إلى تكوين العلاقات ، وبناء الروابط مع بني جنسه ، فلا يستطيع أن يعيش بمعزلٍ عن غيره ؛ لأن العزلة حين تكون طوعية ، نوعٌ من الانتحار الذاتي ، وحين تكون بالقوة والقسر ، عقوبة صارمة تُتخذ ضد نوعٍ معين من المجرمين ، أو عملية قتلٍ بطيء حين تُطبّق على إنسانٍ بريء» [٢].

- التقديم للجار والمجرور الوارد في الآيات : ﴿ ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ ، ﴿ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ ، ﴿ وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ يلفت النظر إلى الضيق الذي حل بهم أولاً ، ثم ثانياً ذكر الشيء الذي ضاق عليهم ، والترتيب في غير القرآن :ضاقت الأرض عليهم ، وضاقت أنفسهم عليهم ، فانظر إلى حجم تأنيب الضمير والوحشة كيف تصوّر مجازاً مرونة هذه المخلوقات : الجسد والأرض ، وكأنها أشياء بإمكانها التحكم بحجمها ، تتسع أحياناً وتضيق أخرى؟
- تكرار فعل ﴿ ضَاقَتۡ ﴾ في حق الثلاثة ،يضاعف معنى الضيق الذي يمكن أن يتصوره العقل .
- تقديم ﴿ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ وتأخير ﴿ أَنفُسُهُمۡ ﴾ ، هو تقديم وتأخير معنوي بحسب الحجم الذي يدلل على المعنى ، فالأرض هي الأكبر حجماً وجاءت زيادة

(١) البحر المحيط : ١١٣/٥ .

(٢)الاتصال الغير كلامي وعمقه التأثيري على الآخرين ، دكتور عودة عبد الله : ٥ .



﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ لها لتبيّن أنها رحبة فسيحة لغيرهم ، لكن رحابتها اختفت بالنسبة إليهم ، ثم النفس بعدها هي الأصغر حجماً وهي خاصة كل فرد ، فهذا الترتيب يذكّرنا بمراحل الهجر الذي مر بها الثلاثة ، بدايةً كان الناس يردّون عليهم السلام ، وكانت نساؤهم معهم ، لكن مع الأيام لما أُمر جميع الناس بترك التحدث معهم ، وأُمروا بهجر نسائهم ، لـم تبق لهم سوى أنفسهم ، فأنكروها ، وكأن هذه النفس وهذه الأرض قد عتبت عليهم كما عتب عليهم رسول الله ﷺ ، في تصوير بديع لخضوع كل المخلوقات لأمر الكريم سبحانه ، وحالة تأنيب الضمير وتألم النفس علامات على عصيان الله عز وجل ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه:١٢٤)، حيث أسكن في النفس هذا الضيق ليعود المقصر لربه تائباً مستغفراً ، فكان هذا الوصف القرآني البليغ حكايةً عـن اعترافهم بزللهم لربهم ورجوعهم إليه .

- تعدية الفعل ﴿ ضَاقَتْ ﴾ (التوبة:١١٨) بـ (على) وليس بحرف الباء : ضاقت بهم الأرض ، كما ورد في آيات أخرى مثل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ (هود:٧٧) ، ليصوّر معنًى أعمق يتلاءم مع الحدث الذي أبدع في تصويره النظم القرآني الفذ![1]

وفي تأمل تعدية الفعل بـ(على) يستخرج لنا الدكتور محمد الأمين الخضري درراً من هذا التعبير في الآيتين فالأولى تصوّر ما لحق بالمسلمين نتيجة غرورهم بكثرتهم ، فأطبق العدو وشتت جمعهم ، فلم يقووا على الخروج لولا تدارك الله لهم بلطفه ، فجاء قوله : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ تصويراً لشدة ما لاقوه ، فلا يستطيعون منه فكاكاً ، وحسبك بياناً لشدة وقع هذه المفاجأة على نفوس المسلمين من إحساسهم بأن الأرض تحارب مع عدوهم ، وتجثم على صدورهم .

---

(١) ينظر : التصوير البياني في آيات الأمن والخوف ، دكتورة زينب كردي : ٢٧٩ .

وآية المخلفين الثلاثة تصوّر حالهم وكأنّ الأرض نفسها تؤدي دورها في محاصرتهم ، والتضييق عليهم وكتم أنفاسهم ، وتصل المبالغة إلى ذروتها حين تُشنّ عليهم حربٌ من داخلهم ، فإذا بأنفسهم تشارك الأرض والناس تضييقاً عليهم ، وهكذا تكون حرب الضمير وحساب النفس ، فما أقسى الحساب حين يجيء للإنسان من داخله فلا يستطيع عنه تفلتاً .

فهل يمكن أن ينهض بهذه المعاني ويشي بهذه الأغراض حرفٌ غير حرف الاستعلاء؟[1]

- تدل هذه الآيات على أن أنس الإنسان بانشراح خاطره ، وأمنه في أرضه ، واجتماع الأحباب حوله ، نعمة تستحق الشكر ، قال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم معافى في جسده ، آمنًا في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا »[2] .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

- التعبير بسجن النفس المؤمنة اللوامة عن الاعتراف بالزلل ، وكيف تعاتب المقصّر أشد العتب على تقصيره في طاعة الله ، وتشترك معها الأرض ليتشكل للمؤمن سم الخياط من فضاءين رحبين ، إن رضي الله عن العبد فليس أرحب على المؤمن منهما ، وإن غضب الله عليه فلا شيء أضيق منهما .
- ارتباط الضيق في الآيات بالاعتراف بالزلل لنفوس الصحابة المؤمنة يوجهنا إلى أن المؤمن لابد أن يشعر بالضيق إن أذنب ، ويبادر إلى الاعتراف لربه ويتأكد أن لا ملجأ له إلا هو سبحانه .

* * *

---

(١) ينظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) رواه ابن ماجه بلفظه في سننه ، كتاب : الزهد ، باب : القناعة ، (رقم الحديث : ٤١٤١) ، ورواه الترمذي بنحوه في سننه ، أبواب الزهد ، باب : ٣٤ ، (رقم الحديث : ٢٣٤٦) ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير بزيادة (بحذافيرها): ٢/١٠٤٤.

المبحث الثاني

الصوت

أودع الله في الإنسان والحيوان القدرة على التعبير بالصوت ، ذاك الشيء المسموع دون حروف ، وإنما هو أشبه بأحاسيس تخرج مسموعة لتعبّر في لحظة ما عن فرح أو وجع ، حسرةٍ أو غيرها من المشاعر ، وربما كان يُظن أن الجمادات لا حسّ لها ولا صوت ، لكنّ في السنّة النبوية ما يثبت أن جبل أحد تحرّك واهتزّ والنبي ﷺ وصحابته فوقه فسكّنه[1] ، وأن الجذع حنّ للنبي ﷺ حتى سُمِع أنينه في المسجد عندما اتّخذ النبي ﷺ منبرًا فوصف الصحابة رضي الله عنهم صوته بقولهم : « فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ »[2] ، فهذا يدل أن الأحاسيس موجودة في كل شيء حولنا وأداة التعبير تكون بالصوت في الغالب ، حتى لمن فقد النطق بالحروف كالبُكْم تجده يعبّر بالصوت صُراخًا أو بكاءً أو تأوُّهًا ، إلا إذا منع من هذا التعبير مانع فيكون الصمت أو تحويل التعبير إلى أحد جوارح الجسد هو الأداة ، ولعل هذا من رحمة الله ليكون لكل إحساسٍ مخرجه وطريقة التنفيس عنه .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب : أصحاب النبي ﷺ ، باب : مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ، (رقم الحديث :٣٦٩٩) .

(٢) رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : المناقب ، باب : مناقب النبوة في الإسلام ، (رقم الحديث :٣٥٨٥) .

ويعتبر «الصوت في حد ذاته يعتبر نوعًا من أنواع الاتصال غير الكلامي ، ويستخدم علماء الاجتماع مصطلح (شبه اللغة) لشرح الألفاظ غير الكلامية .

وهناك أيضًا طرق أخرى لاتصال الصوت من خلال : نغمته ، سرعته ، مستواه ، عدد وطول السكتات ، معوقات الطلاقة (همم ، آآه ، آآآ) ، كل هذه العوامل يمكنها أن تقوي أو تضعف من تأثير الرسائل التي تنقلها الكلمات .

ويعتبر التهكم أو السخرية أوضح مثال على أن نغمة الصوت والتركيز على بعض الكلمات بالصوت يمكن أن تغير من معنى الجملة كليًّا إلى عكس المعنى الذي تعنيه الكلمات .

وتأثير إشارات شبه اللغة قوي للغاية ، وفي الحقيقة ، الأبحاث تظهر أن المستمعين يهتمون بشبه اللغة أكثر من اهتمامهم بالكلمات عندما يطلب منهم الحكم على المتحدث»[1] .

ويتمثل الوقوف على إشارة الصوت في شواهد الآيات بالمناداة ، والصمت وشواهده هي :

١٦- قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٤) .

١٧- قوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (القصص:٦٥،٦٦).

١٨- قوله تعالى: ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴾ (ص:٣).

---

(١) الاتصال غير الكلامي ، أنمار مطوع : ١٢٠ .

وقفةٌ مع المعنى :

يصف لنا رب العزة والجلال ، الانفعال الحاصل من المكذبين لحظة وقوع العذاب ، والهلاك بهم ، فمرةً يضجّون ، «ويصرخون ، ويتوجعون ؛ لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه ، ويستغيثون» [1]، ومرةً يصمتون فلا يستطيعون الكلام ، «ولا يسأل بعضهم بعضًا عن الجواب ؛ لفرط الدهشة ، والعلم بأنه مثله يُعجز» [2]ولا يتمكنون من «إبداء الآراء ، وذلك من شدة البهت والبغت على الجميع ، فلا متنصل لهم من هذا السؤال فوُجِموا» [3] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

التعبير برفع الصوت :

- ﴿ يَجْـَٔرُونَ ﴾ ، ﴿ فَنَادَواْ ﴾ ، أصوات تخرج لتترجم تأثّراً شعروا به ، وجأر : بمعنى : ضج ورفع صوته[4] ، فـ ﴿ يَجْـَٔرُونَ ﴾ «يستغيثون بصياح كصياح البقر ، وكثر استعمال الجؤار في البشر» [5] ، ونادى دعا بأرفع الصوت [6] ، وكلها أصوات طبيعية وقت الاستغاثة ، والجأر ـ كما تبيّن ـ هو أشد من النداء ، لكن ما الذي جعلهم يستغيثون برفع الصوت والصراخ سوى إدراكهم أن العذاب الذي كذبوا وقوعه قد حان ، وأن أمامهم يوم عصيب ، فاعترفوا أن ذنوبهم ستكون وبالاً عليهم ، وأن حياتهم كانت على خطأ ، «فهم يصرخون بالتوبة فلا تقبل منهم» [7] ، ويطلبون النصير والمنجد ، فتكون الإجابة : ﴿ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ (المؤمنون:٦٥) .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ، ابن السعدي : ٥٥٤ .
(٢) أنوار التنزيل ، البيضاوي :٣٠١/١ .
(٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٣٦/٢٠ .
(٤) ينظر : أساس البلاغة ، الزمخشري : ٨٠ ، مادة (جَ أَ رَ) .
(٥) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ١٨١/٤ .
(٦) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور :٣١٣/١٥ ، مادة (نَ دِ يْ) .
(٧) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي :١٣٥/١٢ .

- الفرق بين الصوتين بحسب الفرق بين الموقفين ، وبحسب الفرق بين المذنبين ، والشخصيات التي صدر عنها الصوت ، فالجأْر الذي هو أشد من النداء صدر عن أولئك الذين عُرِفوا بالنعيم ، وقد وصفهم القرآن بـ ﴿ مُتْرَفِيهِم ﴾ ، وهم متنعمو القوم الذين ما اعتادوا إلا الترف ، والرفاهية ، والنعيم ، ولم تحصل لهم المكاره[١] ، فكانت صدمة العذاب عليهم أقوى وإدراكهم لظلمهم وبغيهم أشد ، وطغيانهم أظهر ، فناسب أن يكون لهم الصوت الأكثر حدةً ، وضجيجاً ، في التعبير عن حالة الخوف والاعتراف بالذنب الذي طالما ألهاهم عن هذا المصير ، كما أن ﴿ إِذَآ ﴾ (المؤمنون:٦٤) في الآية وتكريرها مرتين في الآية : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾ (المؤمنون:٦٤) تدل على أن العذاب حين جاءهم مباشرةً ضجّوا بأصواتهم يستغيثون ، يطلبون صرفه .

والنداء ورد في القرآن من الله جل وعلا ، ومن الملائكة ، ومن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن غيرهم ، فيميّز برفع الصوت ، هذا يدلنا على عدم اختصاصه بالعذاب ، أو بحالة انفعالية نتيجة تحسّر ، أو اعتراف أو غيره ، بعكس الصراخ أو الجأر ، وأصل النداء في اللغة : « من الندى ، أي الرطوبة ، يقال : صوت ندي رفيع ، واستعارة النداء للصوت من حيث إن من تكثر رطوبة فمه حسن كلامه ، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق »[٢] .

وإنما يكون النداء لإرادة مد الصوات للشيء المتراخي عنه ، أو للإِنسان المعروض ، أو النائم المستثقل[٣] .

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، ابن السعدي : ٥٥٤ .
(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٤٨٧ .
(٣) ينظر : الأصول في النحو ، ابن السراج : ٣٢٩ .



والمراد بنداء القرن في الآية هو : «نداؤهم الله تعالى تضرعًا ، وهو الدعاء كما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ (الدخان:١٢)»[١]، هذا حال من هو مقدمٌ على عذاب أليم ، وأما المؤمن المطمئن بوعد الله له وجزائه على إيمانه فيكون في سلامة ونعيم .

التعبير بالصمت :

قد يكون من الصعب تمييزُ الانفعال الذي ينتقلُ عبر الصمت ، لكن يكون له قرائن تدل عليه في الغالب ، وقد حدثنا نبيّنا ﷺ أن السكوت يكون انفعالاً دالاً على إجابة ، بل وفي أكثر الأمور أهميةً لتعلّقها بمجريات المستقبل واختيار الزوج عند صنفٍ من النساء، وأمّا الصنفُ الآخر فيُسمع رأيها صراحةً، فقد قال ﷺ : «الثيّبُ أحق بنفسها من وليّها ، والبكر تستأمر ، وإذنها سكوتها»[٢] ، وهذا يدل أن المواقف تبعًا لحال الأشخاص قد تتطلّب ألوانًا مختلفة من التعبير يتفاوت بين النطق والصمت .

وجاء التعبير بالصمتِ في شواهد الاعتراف بالزلل في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (القصص:٦٦) ، بعد سؤال الله تبارك وتعالى : ﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص:٦٥)؟ فبأي شيءٍ يجيبون! وهم الذين كذبوا رسل ربهم ، واستحبوا الكفر على الإيمان!

فكان توقفهم عن المساءلة ذلك الوقت ، هو نتيجة اعترافهم بالذنب ، فلم يجدوا لهذا السؤال جوابًا ، ولم يهتدوا إلى الصواب .

ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح ، المطابق لأحوالهم ، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد ، ولكن لما علموا

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٠٧/٢٩ .

(٢) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : النكاح ، باب : استئذان الثيب بالنكاح بالنطق ، والبكر بالصمت ، (رقم الحديث :١٤٢١) .

تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم ، لم ينطقوا بشيء ، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا يجيبون به ، ولو كان كذبًا[1] .

- ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ العماء : الجهالة[2] ، والمراد : « خفيت عليهم الأخبار ، من قولهم : قد عمي عني خبر القوم : إذا خفي . وإنما عُنِي بذلك أنهم عميت عليهم الحجة ، فلم يدروا ما يحتجون ؛ لأن الله تعالى قد كان أبلغ إليهم في المعذرة ، وتابع عليهم الحجة ، فلم تكن لهم حجة يحتجون بها ، ولا خبر يخبرون به ، مما تكون لهم به نجاة ومخلص »[3] ، المقصود بالأنباء : الحجج [4]، وفيها « استعارة تصريحية تبعية حيث استعير العمى لعدم الاهتداء » [5]، كأنّ الأنباء هي التي عميت عليهم ، والأصل أنهم هم من عَمُوا عنها ، وفي تذوقها جماليات لا تُحصى ، منها : أن هذه الحجج من هولها وعِظم أمرها الذي تركوا التسلّح به في الدنيا ، من وحدانية الله وإثبات ماله من الجلال والقدرة وحق العبادة ، عموا عنها في الدنيا ، فعميت عنهم في الآخرة ، فكأنها اكتسبت صفة البشرية وقوة العقل ، لتكافِئهم على عماهم المسبق عنها ، « فصارت الأنباء كالعُمي عنهم ، لا تهتدي إليهم ، وأصله : فعموا عن الأنباء ، وقد عكس للمبالغة والتنبيه على أن ما يحضر الذهن يفيض عليه ، ويصل إليه من الخارج ، فإذا أخطأ لم يكن له حيلة إلى استحضاره »[6] .

- سوق الفعل في صيغة المضي ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ﴾ لتحقق وقوعه ، وتعديته بـ ﴿ عَلَيْهِمُ ﴾ « لتضمنه معنى الخفاء ، والاشتباه »[7].

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٦٢٢ .

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٣٤٩ .

(٣، ٤) جامع البيان ، الطبري : ١٩/٦٠٦ .

(٥) روح المعاني ، الآلوسي : ٢٠/١٠٢ .

(٦، ٧) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٧/٢٢ .

- واختيار ﴿ ٱلْأَنۢبَآءُ ﴾ وإطلاقها دون قيد ، دلالة على عظم مضامينها ، فالنبأ أخص من الخبر ، « فالنبأ هو : الخبر الذي له شأن عظيم ، ومنه اشتقاق النبوة »[1] ، فدلّت على خطب مريعٍ أذهلهم عن كل شيءٍ لا عن معرفة الإجابة فقط![2]
- ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ التعبير بالتساؤل ، دون :لا يتكلمون ، وما أشبهها ، لأنهم في الدنيا إذا اشتبهت على أحدهم الحجة ، ربما يسأل عنها غيره ، فيلقّنه إياها ، وفي الآخرة آيس من ذلك[3].
- وذكر الضمير(هم) في الآية : ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ يؤثر في المعنى أكثر من عدم ذكره ، فهو مما لا يستقيم المعنى فيه إلا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم ؛ قال عبد القاهر : « لا يخفى على من له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غير مبني على الاسم . . . لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها ، واعلم أن هذا الصنيع يقتضي في الفعل المنفي ما اقتضاه في المثبت فإذا قلت : أنت لا تحسن هذا ، كان أشد لنفي إحسان ذلك عنه من أن تقول : لا تحسن هذا . ويكون الكلام في الأول مع من هو أشد إعجابًا بنفسه ، وأعرض دعوى في أنه يحسن ، حتى إنك لو أتيت بـ(أنت) فيما بعد (تُحسن) فقلت : لا تحسن أنت ، لم يكن له تلك القوة ، وكذلك قول الله تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ »[4] فيه تأكيد نفي التساؤل عنهم .

---

(١) الفروق اللغوية ، العسكري : ٥٢٩/١ .

(٢) ينظر : التصوير البياني في آيات الأمن والخوف ، دكتورة زينب كردي : ٣٦١ .

(٣) ينظر : بحر العلوم ، السمرقندي : ٦١٦/٢ .

(٤) دلائل الإعجاز : ١١٦ .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

- تتفاعل الحنجرة مع الإنسان لتصف شعوره من خلال الصوت ، وتترجم اعترافه ، وهكذا جاءت الآيات معبّرة عن الحال التي وصل إليها المهلَكون ، فتجد التعبير بالصمت ﴿ **فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ** ﴾ في لحظات العذاب المفاجئ المعبّر عنه بـ(الأخذ) ، بينما تجدهم بعد الهلاك ينادون ويجأرون ، فالقدرة على الكلام تُشل كما تشل الأركان الحراك .

ارتباط اعتراف المهلكين برفع الصوت والصمت ، في موقفين مختلفين من مواقف القيامة ، يدلنا على أن اعترافهم عند الخوف لا يتمالكون فيه حتى أيسر الانفعالات التي كانوا يتحكمون بها في الدنيا وهي حناجرهم ، فيكون ذلك ذلة وصَغاراً لهم .

* * *

المبحث الثالث

البصر

يتحدّث الناس بكلماتٍ يَعُونَها ، ويعرفون مدلولاتها ، ولكنّ حديثًا آخرَ ذا دلالةٍ يكون مشاركًا للأحرف غير أنه حديثٌ صامتٌ لغته العيون ، وأوصافه تتوجّه لوظيفة العين وهي النظر والبصر ؛ لتعطي للكلمات المنطوقة قوة أو إحساسًا مختلفًا ، ومنها الحِدّة والشخوص ، أو الخشوع والانكسار ، والهدوء والتأمّل ، وغير ذلك مما تتميّز به المشاعرُ فتلتحِمُ مع الأحرف لتظهر المعنى الذي يريده الشخص ، فـ« الوجه ، وخصوصًا العينان ، هما الجزء الأكثر جذبًا للنظر في الجسد كله ، وتأثيرهما في غاية القوة . . . ، وهناك ستة أحاسيس أساسية تعكسها تعبيرات الوجه : الدهشة ، الخوف ، الغضب ، التقزز ، الفرح ، والحزن ، والتعبيرات التي تعكس هذه الأحاسيس قد تكون مشتركة بين كل أفراد شعوب العالم المختلفة »(١).

وأمّا تسمية المبحث بـ(البصر) وليس العين التي هي الجارحة ؛ لأن المقصود منه والموصوف في الآيات هو (البصر) ؛ ويتجلّى الفرق في التسمية من حيث الإدراك والوظيفة المناطة بالعين ؛ إذ البصر مرتبط بالبصيرة أمّا العين فقد تكون حركتها مجردة عن الإدراك ، وقد ألمح إلى ذلك مع ذكر الفرق بين (العين) و(البصر) أبو هلال العسكري حيث قال : « العين آلة البَصَر وَهِي الحدقة ، وَالبَصَر اسم للرؤية ؛ وَلِهَذَا يُقَال : إحْدى عَيْنيْة عمياء ، وَلاَ يُقَال : أحد بصرية أعمى ، وَرُبمَا يجرِي الْبَصَر على الْعين الصَّحِيحَة مجَازًا ،

(١) الاتصال غير الكلامي ، أنمار مطوع : ١١٦ .

وَلاَ يَجري على الْعين العمياء ، فيدلك هَذَا على أَنه اسْم للرؤية على مَا ذكرنَا ، وَيُسمى الْعلم بالشَّيْء إِذا كَانَ جليًّا بصرًا ، يُقَال : لَك فِيهِ بصر ، يُرَاد أَنَّك تعلمه كَمَا يرَاهُ غَيْرك » (1) .

وتتمثل حركة البصر في الشواهد بالشخوص ، والخشوع ، وشواهده خمسة ، هي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ (إبراهيم:٤٢،٤٣) .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ (الشورى:٤٥).

٣- قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ (القلم:٤٢،٤٣) .

٤- قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج:٤٣،٤٤) .

٥- قوله تعالى : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر:٧) .

---

(١) الفروق اللغوية : ١/٨٢ .

وقفة مع المعنى :

تعددت الآيات التي تحكي عن شخوص البصر ، كأثر من آثار الخوف ، الناتج عن اعترافهم بالذنب ، فإن من يعرف أنه على الصواب يكون مطمئناً مرتاحاً ، لا يكون بصره شاخصاً ، ولا خاشِعاً ، إنما تكون له النظرة الطبيعية المعتدلة دون هذا الوصف ، فالذي جعلهم في هذه الحال الجسدية الظاهرة للرائي هو اعترافهم بالذنب الذي باحت به جوارحهم وإن بُكمت عنه ألسنتهم .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

التعبير بشخوص البصر :

- ﴿ **تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ** ﴾ (إبراهيم:٤٢،٤٣) ، شخوص البصر معناه : أنها نافذة ، فلا تطرف لهم أجفان[١] ، تعبيراً عن عدم الراحة والقلق المستمر ، والخوف من المصير المرتقب ، مع مواقف يوم التغابن العظيم الذي يعيشونه ، فيشعرون بقدر غبنهم لأنفسهم ، يفسّرها قوله تعالى : ﴿ **شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٩٧) [٢] ، وتدل هذه العلامة في البصر على اعتراف بالذنب ، فلم يكن هذا اليوم في حسبانهم .

دلالة الفعل المضارع ﴿ **تَشْخَصُ** ﴾ على تجدد واستمرارية في الفزع ، وهول الموقف الذي ترتفع لعظمه الأبصار ، يؤكده قوله تعالى : ﴿ **لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ** ﴾ [٣] .

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٢٦٥ .

(٢) تُدرس هذه الآية إن شاء الله في الفصل الثالث : التعبير بالقول والإشارة معًا ، ينظر : ص٢٩٢ .

(٣) ينظر : التصوير البياني في آيات الأمن والخوف ، دكتورة زينب كردي : ٢٩٨ .

- ﴿ **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ** ﴾ : مهطعين : أهل التأويل اختلفوا في معناه ، فقال بعضهم : معناه : مسرعين . وقال بعضهم : الإهطاع : التحميج [1] ، والمهطع الدائم الذي لا يطرف ، وقيل المهطع : الذي لا يرفع رأسه . والإهطاع في كلام العرب بمعنى الإسراع أشهر منه : بمعنى إدامة النظر[2] ، وفي لسان العرب : أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه ، وكان مسرعًا خائفًا ، والإهطاع لا يكون إلا مع خوف ، وقيل : نظر بخضوع ، وقيل : مد عنقه وصوب رأسه[3] ، فتأمل بلاغة اللفظ! ، ودقة اختيار الكلمة التي هذا مدلولها ، فأي كلمة تصف الموقف مثل هذا الوصف! ، وأي عبارة تحشد هذا المعنى مثل ﴿ **مُهْطِعِينَ** ﴾ ، فتبارك وتعالى من هذا كلامه .
- ﴿ **مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ** ﴾ معناها وجوه الناس يومئذ إلى السماء ، لا ينظر أحد إلى أحد[4] ، والمقنع الذي يرفع رأسه ينظر في ذل[5] ، فتأمل كيف تدل كلمةٌ واحدة على انفعالاتٍ عدة ، واجتماع حركة الرأس ، والعنق ، والعين معاً ، فما أعظم اللغة العربية! لغة القرآن التي تصف موقفاً كهذا في إيجازٍ بديع يجعلك تنظر إلى هيئة أولئك الظالمين لأنفسهم بتأمل بضع كلمات!
- إفراد الطرف ﴿ **طَرْفُهُمْ** ﴾ مع دلالته على الجمع ، بينما جمعت ﴿ **الْأَبْصَارُ** ﴾، و « الطَرْف : تحرك جفن العين »[6] ، ولم ترد في القرآن كله جمعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ** ﴾ (الصافات:٤٨)، فقد يشترك

---

(١) التدقيق في العين بملء الحدقة ، ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ١١٦/٦ ، مادة (شَ وَ سَ) .

(٢) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٢٩/١٧، ٣٠ .

(٣) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٣٧٢/٨ ، مادة (هـ طَ عَ) .

(٤) ينظر : البحر المحيط ، أبو حيان :٤٢٣/٥ .

(٥) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٣٧٢/٨ ، مادة (قَ نَ عَ) .

(٦) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٤٧/١٣ .

الناس في هيئة النظر ، أسلوبه وطريقته ، لكن يبقى لكل فردٍ بصره الخاص الذي هو الحاسة نفسها ، قوةً وضعفاً ، وعلةً وسلامةً .

- ﴿ **وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ** ﴾ : انتقالٌ بديع من وصف أجسادهم ظاهراً ، إلى وصفها باطناً ، وهنا حيث تكون الروح ، وأفئدة جمع فؤاد ، وهو العضو الذي من شأنه أن يحمى بالغضب ؛ والتفؤد : التحرق والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب مذكر ، جمعه أفئدة .[(١)] والهواء : الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ، فوصف به فقيل : قلب فلان هواء إذا كان جبانًا لا قوّة في قلبه ولا جرأة ،[(٢)] هو تشبيه محض ؛ لأنها ليست بهواء حقيقة ، وجه التشبيه يحتمل أن تكون في فراغ الأفئدة من الخير والرجاء ، والطمع في الرحمة ، فهي منخرقة مشبهة الهواء في تفرغه من الأشياء ، ويحتمل أن يكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في صدورهم وأنها تجيء وتذهب ، وتبلغ حناجرهم فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبدًا في اضطراب ،[(٣)] يتحرّك في خفة ، كالريشة في مهب الريح ، لا ثقل للإيمان يجعله متزناً مطمئناً في مكانه من الصدور كما أودعه الله ، وشاء له أن يثبت .

- وقد جرت العادة أن من شخص بصره ودام شخوصه ، من شدة الهول يظل واقفاً لا يتحرك ، وقد يصرخ مستغيثاً ، ولكن الظالمين في ذلك اليوم لا يمضون على تلك العادة ، ولا يخضعون للمألوف ، فهم مع شخوص أبصارهم ، يكونون مسرعين نحو ما ينتظرهم من بلاء ، في ذل وخشوع ، مادين أعناقهم ، رافعين أنظارهم إلى السماء في انكسار وترقّب ، ولا يلتفتون ولا يتكلمون في هذا الموقف ، والعادة والمألوف لمن يشاهد البلاء أن يطرق رأسه عنه كي لا يراه ، ولكن هؤلاء لا يمضون على النهج معتاد ،

---

(١) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ١٩٤/٤ .

(٢) ينظر : الكشاف : الزمخشري : ٥٢٧/٢ .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٣٤٤/٣ .

فقد اختلفت أحوالهم من شدة ما يلقاهم ، فهم رافعو رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً[(١)] .

ورأى ابن عاشور إطناباً في هذا الوصف حيث قال : «وقد سلك القرآن مسلك الإطناب لأغراض من البلاغة ، ومن أهم مقامات الإطناب مقام توصيف الأحوال التي يراد بتفصيل وصفها إدخال الروع في قلب السامع وهذه طريقة عربية في مثل هذا»[(٢)] .

وتعقيباً على ما ذكره العالم الفاضل فإن مشهداً متحركاً مثيراً مفزعاً كهذا يصوّر في كلماتٍ معجزة يسيرة لهو من الإيجاز .

فسبحان الله! كيف ينكر تنزيله من أنكر ، فبأيّ حديث بعده يؤمنون؟

التعبير بخشوع البصر :

الخشوع : «الخضوع ، وقيل : قريب من الخضوع ، وقيل : الخضوع في البدن والخشوع في الصوت والبصر ، والخشوع : السّكون والتذلُّل والضراعة والسّكوت . وقيل : أَكثر ما يستعمل فيما يوجد في الجوارح ، والضَّراعة أَكثر ما يُستعمل فيما يوجد في القلب»[(٣)] ، وخشوع البصر : هي هيئة النظر بالعين بذلة وخَوف ، استعير لها وصف ﴿ **خَٰشِعَةً** ﴾ ؛ لأن الخاشع يكون مطأطئًا مختفياً[(٤)]، في قوله تعالى: ﴿ **خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّ** ﴾ (الشورى:٤٥) ، وقوله : ﴿ **خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌ** ﴾ (القلم:٤٣) ، (المعارج) ، وقوله : ﴿ **خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ** ﴾ (القمر:٧) ، «وخشوع الأبصار كناية

(١) ينظر : روافد من نهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، دكتور بسيوني فيود : ٦٠،٦١.

(٢) التحرير والتنوير : ١/١٢٣ .

(٣) بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي : ١/٧٢٢ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٩/٩٩ .



عن الذلة ، وهي في العيون أظهر منها في سائر الجوارح ؛ وكذلك أفعال النفس من ذلة وعزة وحياء وصلف وخوف وغير ذلك»[1] ، وهكذا يكون المتكبرون يوم القيامة ، أبصارهم خاضعة ذليلة في صورةٍ مقابلة لما كانوا عليه في الدنيا من الاستكبار عن الطاعة [2] ، يذلهم الله على رؤوس الخلائق ، فإضافة «الخشوع إلى الأبصار ؛ لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان»[3].

- وتأمل الوصفَ الأنيقَ الذي يبرز في اختيار لفظ (الخشوع) وما فيه من ضعف يتجلّى عادةً في مظهر العابد الخاشع لربه المنكسر طلباً لرضا مولاه ، استعير لهذه الأبصار التي طالما تكبّرت واحتقرت عباد الله الطائعين ، وتمردت عن الحق ، فعميت ، فتأثرت البصيرة ، ومُسخت الفطرة السوية ، فلما جاء يوم يكون فيه البصر حديداً ، من حيث القوة في النظر لما يحدث ، وأزال الله الغطاء الذي طالما حجب عنها نور الحق ، صارت أبصاراً ذليلةً ، واستحضرت النفوس ذنوبها ، فترجمت ذلك الجوارح ، وكما أنه من العينين يكون الحكم على مدى استجابة الإنسان ظاهريًّا ، فكذلك الحال يوم القيامة ، تستجيب العينان لهذه الأحداث المريعة ، بأسلوبها الخاص ، ليس كما يريدون لها ـ هؤلاء الطغاة ـ أن تخضع ، فقد انتفت إرادتهم ، وصارت أفعالهم لا يملكون منها شيئاً ، تبرّأ منهم كل شيء حتى أجسادهم ، ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (فصلت:٢٢) .

- اختيار لفظ (الأبصار) دون الأعين التي هي العضو ، فيه لفت الانتباه إلى الوظيفة التي خُلقت لأجلها هذه الأعين ، أن تبصر بها الطريق فتُنبّه الماشي إلى أي أخطار من حُفرة أو شوك فيتجنبها ، وهذه الأخطار الحسية تنبؤ عن

---

(١) البحر المحيط ، أبو حيان : ١٧٤/٨ .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٢٩٠/٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٢٩/١٧ .



أخطار معنوية أيضاً ، فمن عميت عينه ، سيسلك طريقاً مظلماً دون أن يشعر ، وهكذا لابد أن يتأمل المرء أن بصره مؤثرٌ على بصيرته .

- ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ حالٌ أخرى عُدل فيها الكلام من الاسمية ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ إلى الفعلية ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ ؛ لأن صورة النظر من طرف خفي من أحفل صور هذا المشهد ، ومن أدقها ، والآية الكريمة تصور الملامح الخفية الخاطفة ، فهم ينظرون نظر من يسارق الطرف ، فيكون النظر بطرف العين وحده فيه دلالة على الخفاء والخوف والحياء من الله لعظم الذنوب المرتكبة في حقه ، وجاءت الصفة ﴿ خَفِيٍّ ﴾ لتؤكد هذا المعنى وتدل عليه ، فتجد أن الآيات ترصد خفايا أحوالهم[1] ، وقال الزمخشري : « يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة ، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره : لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها ، كما يفعل في نظره إلى المحاب» [2] وقال الباقلاني في الآية : « نهايةٌ في الوعيد»[3]، ومن اللافت في هذا التعبير موافقته لردة الفعل التي تحدث للأشخاص في الدنيا عند استقبالهم أمرًا مروّعًا أو وصفهم لخيبة أمل أو خوف يقومون بإغلاق أعينهم بشكل عابر وقوي ، أو يقومون بهز رؤوسهم كي لا يروا ما هم مقبلون عليه أو ليعدوا أعينهم عن التقاط هذا المشهد[4] .

- ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تدل على القدر الذي لا يمكن أن يتحمله الإنسان من الذلة على أنها تزعج نفوسهم وتظهر عليهم ظهورًا يخزيهم[5] ، والذل ما كان عن

---

(١) ينظر : آل حم (الشورى ـ الزخرف ـ الدخان) دراسة في أسرار البيان ، دكتور محمد أبوموسى : ٢١٢ .

(٢) الكشاف : ٢٩٥/٤ .

(٣) إعجاز القرآن : ٢٨٣/١ .

(٤) ينظر : التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوانات ، تشارلز داروين : ٩٧ .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٣٢٦/٥ .

قهر ، وما كان بعد تصعّب[1] ، وجاء التعبير بها بعد ﴿ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ ﴾ ، لتأكيد الدلالة على عِظم الذل الذي يتذوقونه ذلك اليوم ، «بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه»[2]، والفعل ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ بصيغة المضارع ليدل على تجدد الإرهاق دون فترات انقطاع ليرتاحوا فيها ، نسأل الله السلامة .

- ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ ﴾ ، اختيار لفظ ﴿ خُشَّعًا ﴾ دون ﴿ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ ﴾ كما في غيرها من الآيات ، للتضعيف والمبالغة ، كما فيه مناسبة لسورة القمر وقصر آياتها .
- جاء تعبير الخشوع بالمصدر دون الفعل في كل الآيات المرتبطة بالبصر ، وكأنها صفة إن تمكنت من العين لازمتها ، فأصبحت صفةً دائمة لا تفارقها .
- يلحظ في كل الآيات التي تحدثت عن حال البصر عند المفرطين تقديم الوصف : (الشخوص) و(الخشوع) على الموصوف (البصر) ، ولعل من أسرار ذلك الاهتمام بالوصف والحال التي يكون فيها المفرط يومئذ .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

صعوبة لحظة الاعتراف بالزلل على المقصر ، فقد لا يتمكن اللسان من النطق ، لكن البصر يصور الاعتراف تصويراً أبلغ من الكلام ، فليس للإنسان حينها إرادة في فعله لاسيما في عرصات القيامة ، فهو ذاهل مستسلم ، مصدوم حتى من جوارحه التي تتكلم ، وتتحرّك ، وتنفعل .

ارتباط البصر بخشوعه وشخوصه ، بأولئك الذين تكبّروا عن سماع الحق ، وحجبوا أبصارهم في الدنيا عن هدي رُسلهم ، فاعترفت أبصارهم بتلك الصور البليغة عن الذنوب التي فعلوها .

* * *

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ١٨٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير :٨/٢٠٠ .



الفصل الثالث

التعبير بالقول والإشارة معًا

وفيه ستة مباحث :

الأول : الرأس .

الثاني : العين .

الثالث : الفم .

الرابع : الصوت .

الخامس : اليد .

السادس : كامل الجسد .

التعبير بالقول والإشارة معاً

تكون بعض المواقف الصعبة مُطاقةً إلى حـدٍّ يتيح للمرء التعبير بالألفاظ ، أو تكون مستلزِمةً أن يفصح الإنسان عمّا في نفسه عبر إيصال مدلوله كلاماً ، إلى جانب تعبيرات الجوارح التي تحدثت عنها في المبحث الثاني ، فتشترك الجوارح مع الكلمات في بيان الاعتراف . وتعبيرات أجسامنا لا تكاد تختفي في حياتنا كلها ، وقد لا يظن المرء فينا أن حركاته تبدي كثيراً مما يشعر به إلا حينما يسمع من ينبهه إليها من الناس ، (ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الاتصال الناطق ، لا يتم بمعزل عن وسائل التواصل والتفاهم الأخرى ، كالحركة والإشارة ، فكثيراً ما تكون هذه مصاحبة للكلام المنطوق وغير منفصلة عنه ، بَيْدَ أن استخدام الكلام المنطوق في الاتصال يبقى أكثر دلالةً على المعنى ، فإن التعبير عن كلماتٍ مثل : الحرية ، والخير ، والحق ، والعدل ، والحقيقة ، والحب ، والجمال ـ وغيرها من الكلمات التي تشير إلى أفكار معينة ـ لا يمكن أن يتم إلا من خلال استخدام الكلمات ذاتها ، إذ كيف يمكننا أن نشير إلى الحرية دون كلمة الحرية ذاتها؟ وكيف يمكننا أن نصف الشيء بأنه جميل دون استخدام الكلمات الدالة على معنى الجمال؟ فكأن مثل هذه المعاني قد تجسَّدت في مثل هذه الكلمات) [1] .

ومواقف الدنيا ليست بشيءٍ أمام مواقف الآخرة ، وأهوالها العِظام حين يكون المرء غير مستعدٍّ لذلك ، ولم يتهيأ في دنياه ، ولم يحمل معه من الزاد ما يبلغه الوصول مرتاحاً متنعماً ، وقد حُكي لنا من أحوال الكافرين والمنافقين في العرصات ما يشهد بأن الانفعالات الصادرة عنهم تشاركهم كل لحظاتهم ، وكثيراً ما تصدرُ دون أدنى إرادةٍ منهم .

---

(١) الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين : عودة عبد الله : ٩ .

وعند الوقوف على بلاغة الإشارات التعبيرية الموصوفة في القرآن تتضّح لنا الدقة العجيبة في وصف الجوارح في لحظات الشعور المختلفة التي ينبغي أن لا تغفل ، « حيث إن الجسم والنفس كليهما يؤثر على الآخر وانفعالات الإنسان تظهرها ملامح الوجه ، وحركات العضلات المختلفة ، وسيما الفرح غير سيما الحزن ، غير سيما التعجب غير سيما التبلّد ، غير سيما عدم الاهتمام وهكذا . . » (١) ، بل إن درجات الانفعال هدوءًا وحِدّة ، ومدى اشتراك أكثر من إحساس في آنٍ واحدٍ له التعبير الملائم في اللغة العربية ، وموصوف في المواقف في آياتِ كتاب الله عز وجل ، مثلاً : « إذا زوى الإنسان ما بين عينيه فهو (قاطب) و(عابس) ، فإذا كشّر عن أنيابه مع العبوس فهو (كالح) ، فإذا زاد عبوسه فهو (باسر) و(مكفهر) ، فإذا كان عبوسه في الهم فهو (ساهم) ، فإذا كان عبوسه من الغيظ وكان مع ذلك منتفخًا فهو (مبرطم) » (٢) ، فسبحان من أنزل كتابه بأسمى لغةٍ وأبدع صورة .

وفي هذا المبحث ننعم النظر في الآيات التي تشاركت فيها ألفاظ الاعتراف بالزلل قولاً مع حركات الاعتراف بالزلل إشارةً ، ليتشكّل أمامنا منظر المعترف كاملاً .

وقد قسمتُ هذه الحركات وِفقاً لبروزها مع اقترانها بالأقوال في الآيات إلى ستة مباحث :

١- الرأس . ٢- العين . ٣- الفم .

٤- رفع الصوت . ٥- اليد . ٦- كامل الجسد .

أدرسها ، وأحلل آياتها ، بهذا الترتيب تبعاً لترتيب هذه الأعضاء في الجسد .

* * *

---

(١) القرآن والصحة النفسية ، جمال أبو ماضي : ٢٧ .

(٢) فقه اللغة ، الثعالبي : ١١ .



المبحث الأول

الرأس

تتفاوت حركات الرأس ودلالاتها غير أنها أكثر وضوحًا وتحديدًا على المراد إذا ما قورنت بغيرها من حركات الأعضاء ؛ ولعلّ هذا لعدم تنوعها كما في غير الرأس من الحركات ، وقد ورد في القرآن للرأس حركات ، منها الطأطأة ، والتنكيس ، والإنغاض ، واللّيْ ، ولكل حركة معناها ومشاعرها المتدفقة معها ، وكان ورود حركة الرأس في شاهدين من شواهد الاعتراف ، وهما :

١٩- قال الله تعالى ﴿ **فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ** ﴾

(الأنبياء: ٦٤، ٦٥).

٢٠- قال الله تعالى ﴿ **وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾

(السجدة: ١٢) .

وقفة مع المعنى :

في الآية الأولى يظهر لنا جانب من حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه ، حينما أحضروه ليعاقبوه على تحطيم أصنامهم ، فواجههم في محاورة عقلية يستحث فيها تفكيرهم لسؤالها هي عن الفاعل ، فاعترفوا بذنبهم لكن بينهم وبين أنفسهم استكباراً وإعراضاً ، فظهر تنكيس رؤوسهم علامة على هذا

الاعتراف[1] إضافة لما قالوه له : إن هذه مجرد حجارة لا تنطق ، وقد أشار ابن عاشور إلى أن المراد هو تغير رأيهم على سبيل التمثيل [2] .

وفي الآية الثانية في يوم العرض على الجبار سبحانه وتعالى ، ينكّسون رؤوسهم « من الحياء ، والخزي » [3] ، و « من الندم ، والحزن ، والذل ، والغم عند محاسبة ربهم ، وجزاء أعمالهم »[4]، بعدما كان حالهم الاستكبار في الدنيا ، وهكذا من لبس ثوب الكبرياء الذي لا ينبغي إلا لله كان يوم القيامة ذليلاً .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

- الحركة : تنكيس الرأس :

النكس : « قلب الشيء على رأسه » [5] .

- ﴿ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ : أي « ارتبكوا في ضلالهم ، وعلموا أن الأصنام لا تنطق ، فساءهم ذلك حين نبه على قيام الحجة عليهم ، وهي استعارة للذي يرتطم في غيه ، كأنه منكوس على رأسه ، وهي أقبح هيئة للإنسان ، فكأن عقله منكوس ، أي مقلوب ؛ لانقلاب شكله ، وجعل أعلاه أسفله ، فرجوعهم إلى أنفسهم كناية عن استقامة فكرهم ، ونكسهم كنايةً عن مجادلتهم ومكابرتهم ، ويحتمل أن يكون كنايةً عن تطأطئ رؤوسهم وتنكيسها إلى الأرض على سبيل الخجل والانكسار ، مما بهتهم به إبراهيم من قول الحق ، ودمغهم به فلم يطيقوا جوابًا »[6].

---

(١) ينظر : البحر المحيط ، أبوحيان : ٣٠٣/٦ .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ١٠٤/١٧ .
(٣) أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٣٥٦/١ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٩٤/١٤ .
(٥) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٥٠٥/١ .
(٦) البحر المحيط ، أبو حيان : ٣٠٣/٦ .



- ﴿ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ : فقد نكّسوا رؤوسهم حياءً من الله لاعترافهم بذنوبهم ، وقد وردت بصيغة اسم الفاعل دون الفعل : ينكسون ؛ لثباتها في ذلك الموقف هواناً ، وذلاً ، وانكساراً ، الناكس : الذي يجعل أعلى شيء إلى أسفل ، يقال : نكس رأسه ، إذا طأطأه ؛ لأنه كمن جعل أعلى الشيء إلى أسفل ، ونكس الرؤوس علامة الذل والندامة ، وذلك مما يلاقون من التقريع والإهانة [1] .

القول المصاحب لحركة الرأس :

- آية الأنبياء : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ : قال أبو السعود : « قد علمت أن ليس من شأنهم النطق فيكف تأمرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفي النطق لا نفي استمراره كما توهمه صيغة المضارع »[2] ، وذكر اسم الإشارة ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ تأكيداً واعترافاً منهم أن الأصنام التي قصدها إبراهيم هي التي لا تنطق .
- آية السجدة ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ يقولون ذلك ندامة وإقرارًا بأن ما توعدهم القرآن به حق ، وحذف مفعول ﴿ أَبْصَرْنَا ﴾ ومفعول ﴿ وَسَمِعْنَا ﴾ ؛ لدلالة المقام ، أي أبصرنا من الدلائل المبصرة ما يصدق ما أخبرنا به ـ فقد رأوا البعث من القبور ورأوا ما يعامل به المكذبون ـ ، وسمعنا من أقوال الملائكة ما فيه تصديق الوعيد الذي توعدنا[3] .

وأفاد الدكتور فاضل السامرائي أن الأكثر في القرآن تقديم السمع على البصر ؛ لأن السمع أهم من البصر في التكليف والتبليغ ؛ لأن فاقد البصر الذي يسمع يمكن تبليغه ، أما فاقد السمع ، فيصعب تبليغه ، ثم إن مدى السمع أقل

---

(١)ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٢١/٢١ .
(٢) إرشاد العقل السليم : ٧٥/٦ .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٢١/٢١ .

من مدى البصر فمن نسمعه يكون عادة أقرب ممن نراه ، بالإضافة إلى أن السمع ينشأ في الإنسان قبل البصر في التكوين .

أما لماذا قدّم البصر على السمع في آية سورة السجدة؟ فلأن الكلام عن المجرمين الذين كانوا في الدنيا يسمعون عن القيامة وأحوالها ، ولا يبصرون لكن ما يسمعونه كان يدخل في مجال الشك والظنّ ، ولو تيقنوا لآمنوا أما في الآخرة فقد أبصروا ما كانوا يسمعون عنه ؛ لأنهم أصبحوا في مجال اليقين ، وهو ميدان البصر(عين اليقين) والآخرة ميدان الرؤية ، وليس ميدان السمع ، وكما يقال ليس الخبر كالمعاينة ، فعندما رأوا في الآخرة ما كانوا يسمعونه ، ويشكون فيه تغير الحال ، ولذا اقتضى تقديم البصر على السمع(١) ، وأثر ذلك على الاعتراف هو أن قولهم ارتبط بتنكيس الرأس ، وبهذه الحركة يتأثر الإبصار فقُدّم البصر ، ولا تكون الرؤية واضحة مع خفض الرأس ، فهم يعترفون بزللهم عند الندم وخفض الرؤوس ، بينما في دنياهم طُمست بصائرهم فعاشوا رافعي الرأس دون تمكين لحاسة البصر باستكبارهم عن الهدي الرباني ، فعوقبوا بجنس عملهم .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

ارتباط حركة تنكيس الرأس مع الاعتراف بالزلل في أقصى حالات الذل والمهانة التي يصل إليها الكافر ، وشاركها النطق بالحق ، فكانت حركة دالة على الانكسار والخضوع ، أما المؤمن فرافع الرأس مُهاب الجناب .

* * *

---

(١) ينظر : لمسات بيانية : ٥٢٢ .

المبحث الثاني

العين

كثيرًا ما نسمع عبارة (لغة العيون) ، ونجد أن عددًا ليس باليسير من الناس يفخرون بإجادتهم لقراءة هذه اللغة بمجرد الجلوس مع الناس لمدة قصيرة ، ويُلحظ في الآونة الأخيرة أن المقابلات الشخصية في القطاعات المختلفة المعتمدة على اختيار القدوات في مجالات التعليم أخذت تركّز على هذه المهارة في لغة الجسد لقياس مدى ثقة الأشخاص وعدمها ، متّبعين دلائل تنطق بها العين ، فيكون هناك محكّم من اللجنة المُقابلة يقيس هذا الجانب إضافة إلى حركات الجسد الأخرى ، «ويتباهى كثيرٌ من الناس بمهارتهم في قراءة أو تفسير لغة العيون ، فنجد أننا نعمد إلى إبعاد نظراتنا عن الآخرين خشية معرفة ما نُكِنُّه في أعماقنا ، وما نشعر به في وجداننا ، إذ إن العين مرآة القلب والوجدان»[1] .

ولوحظ اهتمام البشريّة بحركات العين والإشارات التي تبثها منذ القدم ، فهذا شاعرٌ يقول :

والعين تعلمُ من عينيْ محدّثها ... من كان من حزبها أو من أعاديها

عيناك قد دلتا عينيّ منك على ... أشياء لولاهما ما كنتَ تُبديها[2]

وقد اتّسعت دلالات العين في القرآن الكريم ، وتعددت الأوصاف المنسوبة إليها بين البكاء ، والازدراء ، والدوران خوفًا ، والخيانة وغيرها ، وفي الاعتراف

---

(١) لغة الجسد في القرآن الكريم ، عمر عتيق : ٦ .

(٢) ينظر : أدب الدنيا والدين ، الماوردي : ٢٦/١ ، والأبيات منسوبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

بالزلل قولاً وإشارةً جاء استعمال وظيفة العين وهي : البصر مع القول ، وإنما سمّيتُ المبحث (العين) وليس (البصر) لتقسيم المباحث على أعضاء الجسد[1] .

وشاهد حركتها في آيات الاعتراف قوله تعالى : ﴿ **وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٩٧) .

وقفة مع المعنى :

« يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه ، ووعده حق وصدق ، فيه ترى أبصار الكفار شاخصة ، من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة ، والقلاقل المفظعة ، وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور ، والندم والحسرة »[2]، وهو مظهر خارجي من مظاهر الهلع ، والذلة اعترافاً أن ما كانوا عليه في الدنيا من التيه والضياع يستحق ما يلقونه ذلك اليوم .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- **الحركة** : **شخوص البصر** : ﴿ **فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟** ﴾ شخوص البصر ، وهو : تعبيرٌ عن نفاذ البصر فلا تطرف لهم أجفان [3] ، وكم هو مطمئنٌ للمؤمن العابد لربه حين يقرأ ﴿ **ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟** ﴾ فيكون اختصاص هذا الشخوص بأولئك الذين كفروا أما أولئك المؤمنون فهم في نعيمٍ وتلذذ ، ويفيده التقديم الوارد في الآية ففيه « تخصيص الشخوص بأبصار الذين كفروا يوم القيامة ، دون غيرهم وهم أهل الإيمان »[4]،

---

(١) ينظر : ص ٢٧٣ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٥٣١ .

(٣) ينظر : ص ٢٧٥ .

(٤) البلاغة العربية ، الميداني : ٢٩١/١ .

فينتظرهم النظر لوجه الله الكريم فحينئذ تنضر وجوههم ، ولا يكون شيءٌ أحب إليهم مما هم فيه .

- ﴿ هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ﴾ « تقديم ضمير الشأن والقصة فائدته الدلالة على تعظيم المخبر عنه ، وتفخيمه بأن يذكر أولاً مبهمًا ثم يفسّر » [1] ، وتقديم الخبر ﴿ شَٰخِصَةٌ ﴾ على المبتدأ ﴿ أَبْصَٰرُ ﴾ يفيد الحصر ، فلم يُعبّر بـ : فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة ، ويُستغنى عن الضمير ؛ لأن هذا لا يفيد اختصاص الذين كفروا بالشخوص[2] .

- **القول :** ﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ : اعترفوا ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ ﴾ : أن حياتهم كلها كانت في غفلة ، ولم يقولوا : غافلين ، بل ﴿ فِي غَفْلَةٍ ﴾ وهذا التعبير أبلغ ، فتنكير ﴿ غَفْلَةٍ ﴾ ، مع تأثير الحرف « في » عليها جعلها كالمساحة الواسعة المجوّفة وحياتهم كانت داخلها ، فعاشوا في غشاوة عن الحق ، وعن حياتهم الحقيقية في يومهم هذا ، باعتبار أن (في) « تفيد معنى دخول شيء في شيء آخـر »[3] ، فـ« يقولون لـ : ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ اليوم العظيم ، فلم نزل في الغفلة مستغرقين ، وفي لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين » [4] .

- ﴿ مِّنْ هَٰذَا ﴾ : « والمشار إليه بـ(هذا) هو مجموع تلك الأحوال من الحشر والحساب والجزاء » [5] ، واسم الإشارة الدال على ما يرونه من الوعد الحق والمصير المحتم ، وما فيه من هول حيث تقرّب الجحيم للغاوين ، ويرون الملائكة الغلاظ الشداد ، وما في ذلك اليوم من الشدة ، لا يملكون تسمية

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٥٥٢ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ٢٧٦/٣ .

(٣) البلاغة العربية ، الميداني : ٦٣٤/١ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٥٣١ .

(٥) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٥١/١٧ .

لما يشاهدونه ، ويكتفون باسم الإشارة مع هاء التنبيه ، وكأنه شيءٌ بعيد من عِظمه الذي لم يتخيلوه .

- ﴿ **بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ** ﴾ : كأنما عادوا إلى أنفسهم معترفين ، فوجدوا أن الحقيقة هي أنهم لم يكونوا كذلك ـ في غفلة ـ بل أكثر منها ، كما يفيد الحرف (بل) ، فقالوا : « لقد كانت بنا غفلة عما وجدنا الآن ، وتبيّنا الآن من الحقائق ، ثم تركوا الكلام الأول ، ورجعوا إلى نقد ما كان يداخلهم من تعهد الكفر ، وقصد الإعراض فقالوا : ﴿ **بَلۡ كُنَّا** ﴾ »[1] ، فـ(بل) فائدته « إضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة ، أي لم نكن غافلين عنه حيث نُبِّهْنا عليه بالآيات والنذر ، ﴿ **بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ** ﴾ بتلك الآيات والنذر ، مكذبين بها ، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب »[2] .

وهذا « تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ؛ فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان! »[3] .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

ارتبط وصف البصر بالشخوص في الآيات برؤية أحداث يوم القيامة ، وأهوالها ، وما يتبعه من إطلاق زفرات الويل ، والاعتراف بطول الغفلة واللهو ، فكان مناسباً للموقف أن يكون أول انفعال هو اعترافٌ صادر عن البصر ؛ لأن البصر في ذهول مما يحدث ، ثم تحدث اللسان بعدها معترفاً ، ويظل الكافر حينها في توقّع للأسوأ كلما تتابعت الأحداث .

* * *

---

(١) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ١٢٣/٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم ، أبوالسعود : ٨٥/٦ .

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ١٧٣/٥ .

المبحث الثالث

الفم

يكون المرء قادِرًا على تحريك شفتيه والنطق بالكلمات تعبيرًا عن مشاعر في موقف معيّن في غالب الأحوال ، لكن قد يتجاوز عِظم الموقف وحزمة الأحاسيس التي يثيرها في لحظة من اللحظات اقتصار التعبير على الكلمات وحدها ، فحينئذ تشترك حركة مع قول لتشكّل التعبير الأنسب فيه ، فكما أن التعبير اللغوي هو عبارة عن تفاعل مع حدث ما ، تعدّ أي إضافة تعبيرية عليه تفاعلاً أيضًا ، ومن هذه التعبيرات الحركات التي يصدرها الفم وما يحويه من الأسنان أو اللسان .

وقد ظهر التعبير بحركة الفم في شاهدين هما :

١- قوله تعالى : ﴿ **تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ** ﴾ (المؤمنون:١٠٤-١٠٧) .

٢- قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً** ﴾

(الفرقان:٢٧-٢٩).

وقفة مع المعنى :

بينما يتنعّم المؤمنون في روضات الجنات ، فيما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، « ذكر تعالى ، سوء مصير الكافرين في جهنم ، حيث تغشاهم نارها من جميع جوانبهم ، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة ، ويتقطع لهبها عن وجوههم »(١) فيتعذب أولئك الكفار أشد العذاب ، فيكتوون بسمومها ، وقيظها ، ويتندمون أشد الندم ، ومالهم من نصير ، ولا معين ، ولا شافع إلا بإذن الله ، فتشترك هنا الشفتان ، والأسنان لتعبر كبقية الأعضاء عن حرارة الذنب الذي يلسعهم بنتائجه ، وويلاته .

والآية الثانية « يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذي لا مرْية فيه ، وسلك طريقًا أخرى . . . ، فإذا كان يوم القيامة نَدمَ حيثُ لا ينفعه النَدَمُ ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفًا ، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيط ، أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم » (٢) .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

آية سورة المؤمنون :

- **الحركة : الكلوح :** ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ وهي : « اللفح كالنفح إلا أنه أشد تأثيرًا » (٣) ، وورد عن عبد الله بن مسعود : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ قوله : « ألم تر إلى الرأس المُشَيَّط الذي قد بدا أسنانه ، وقَلَصت شفتاه » (٤) ، فهم « متقلصو الشفاه عن الأسنان ، كما ترى الرؤوس المشويّة ، ويجتمع هذا مع عبوسة الوجوه وتجعدها وتقطبها ،

(١) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٥٥٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ١٠٨/٦ .

(٣) أنوار التنزيل ، البيضاوي :١٦٣/١ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤٩٧/٥ .

وهذا شغل من هو ممتلئ الباطن كراهيةً لما دهمه من شدة المعاناة ، وعظيم المقاساة في دار التجهم »[1] ، نسأل الله السلامة .

- لعل تقديم المفعول به ﴿ وُجُوهَهُمُ ﴾ على الفاعل ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ ؛ لأهمية المتقدّم ، إذ السياق هو الحديث عن العذاب ، وأما ما الذي يلحظ فقد تأخّر ؛ لأنه ليس هو المهم ، بل الأهم والذي لابد أن يكون عظة وعبرة للمعتبرين في وصف عذاب أهل النار هو ما الذي يحدث لهم ، « وخص الوجه باللفح ؛ لأنه أشرف ما في الإنسان ، والإنسان أحفظ له من الآفات من غيره من الأعضاء ، فإذا لفح الأشرف فما دونه ملفوح ، ولما ذكر إصابة النار للوجه ذكر الكلوح المختص ببعض أعضاء الوجه »[2] .

- ﴿ وَهُمۡ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ : ذكر الجار والمجرور ﴿ فِيهَا ﴾ ، يذكّر بأنها دار خلود ، فلا يكون هناك أي انقطاع عنها أو راحة ، أو فترة ، وإنما ﴿ وَهُمۡ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ عذاب يتبعه عذاب ، اللهم إنا نعوذ بك من النار .

القول المصاحب للكلوح : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمًا ضَآلِّينَ ﴾ قد يصعب تخيّل أناس هذه أشكالهم وهذا عذابهم يستطيعون التحدث! ، والشفاه متقلصة ! والوجوه مستعرة ، لكن الذي سينطق أجسادهم قادرٌ على أن ينطقهم في هذه الحال ، فينادون ربهم نداء التحنن ﴿ رَبَّنَا ﴾ ويكررونه في اعترافهم مرتين لتأكيد هذا المعنى ، ثم يتبعونه بتعذرهم ميل نفوسهم إلى الشهوة ، وكأنهم يطلبون رحمة الله الذي خلق النفس ـ ويعلم الغريزة التي أودعها في كل جسد ـ أن يرحمهم فقد غلبتهم وغلبت على أفعالهم حتى كانوا قوماً ضالين .

قال أبو السعود : « وهذا كما ترى اعتراف منهم بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم ، وأما ما قيل من أنه : اعتذار منهم بغلبة ما كُتِب عليهم من

(١) نظم الدرر ، البقاعي : ٥/٢٢٣ .

(٢) البحر المحيط ، أبو حيان : ٦/٣٨٧ .

الشقاوة الأزلية ، فمع أنه باطل في نفسه لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم . . . » [١] .

- لعل تقديم النظم الحكيم للجار والمجرور ﴿ **عَلَيْنَا** ﴾ على الفاعل ﴿ **شِقْوَتُنَا** ﴾ يدل على انكسار نفوسهم ؛ لتقديمهم لها ، واهتمامهم بما حلّ بها ، وأن حالهم في غاية الذلة ، وبحاجة إلى لطف بارئهم ، ورحمته بهم ، قبل أن يكون الاهتمام بالشيء الذي غلب عليهم .
- تفرّد لفظ ﴿ **شِقْوَتُنَا** ﴾ وقرأ حمزة والكسائي (شقاوتنا) بالألف وفتح الشين ، وقرأ الباقون ﴿ **شِقْوَتُنَا** ﴾ بكسر الشين من غير ألف ، وهما مصدران تقول : شقي من الشقاوة والشقوة [٢] ، وهي « الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق ، والإقبال على ما يضر ، وترك ما ينفع » [٣] ، قد يتفق المعنى لكن يدل كل تصريف للكلمة على وقْع مختلف ، فالمد في « شقاوتنا » يُكسب الاعتراف زيادة في الأسى ، وسكون القاف والقلقة فيها (شقوتنا) تجعل المعترف كأنما يشرق ويغص باعترافه ، فكل قراءة لها إعجازها البياني .
- « إضافة الشقوة إلى ضميرهم ؛ لاختصاصها بهم حين صارت غالبة عليهم » [٤] .
- ﴿ **وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ** ﴾ الاعتراف بالضلال بعد هذا العذاب الذي يمرون به هو نتيجة حتمية ، لكن تأمل ما أضافته كلمة ﴿ **قَوْمًا** ﴾ على هذا الاعتراف! أضافت أنهم كانوا جماعة يؤيد بعضهم بعضاً ، متواصين متماسكين ، يصبرون بعضهم على غيهم وضلالهم ، وقد جاء هذا المعنى

---

(١) إرشاد العقل السليم : ١٥١/٦ .
(٢) ينظر : حجة القراءات ، ابن زنجلة : ٤٩١ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن ، ابن السعدي : ٥٦٠ .
(٤) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٢٥/١٨ .



في كتابٍ الله الحكيم بقوله : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾ (ص:٦) ، وللتنكير فوائد بلاغية عديدة ، ومنها إفادته للتكثير والتعظيم[1] ، كما أضفى تنكير ﴿ قَوۡمًا ﴾ في الآية هنا كثرة عددهم ، وعظم شأنهم في الدنيا ، قال ابن عاشور : « وزيادة قوله : ﴿ قَوۡمًا ﴾ على أن الضلالة من شيمتهم ، وبها قوام قوميتهم »[2] .

- ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ : طلبوا الخروج ولم يطلبوا العودة إلى الدنيا كما ورد في آيات أخرى : ﴿ فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ (السجدة:١٢)؛ لأن هدفهم الأول وأملهم الآن هو الخروج من نارٍ تلظى ، ومجرد الخروج يعني لهم فرصة أخرى لتحسين مصيرهم ، لكن هيهات ، ووقت الرخاء فات!

آية سورة الفرقان :

- **الحركة : العض :** ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ ﴾ : العض : « العض أزمٌ بالأسنان »[3] وقد يكون باللسان[4] ، « وهو تعبيرٌ عن شدة الندم والحسرة ؛ لأن النادم ندماً شديداً ، يعض على يديه »[5] ، قال الزمخشري : « عضّ اليدين والأنامل ، والسقوط في اليد ، وأكل البنان ، وحرق الأسنان والأرم ، وقرعها : كنايات عن الغيظ والحسرة ، لأنها من روادفها ، فيذكر الرادفة ويدلّ بها على المردوف ، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ، ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه »[6] ، وتأمل كيف يمكن للظالم أن يعض على يديه كلتيهما؟

---

(١) ينظر : الإيضاح ، القزويني : ٥٠ .

(٢) التحرير والتنوير : ١٢٥/١٨ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٣٣٧/١ .

(٤) ينظر : القاموس المحيط ، الفيروزآبادي : ٨٣٥/١ ، مادة (ع ض ض) .

(٥) أضواء البيان ، الشنقيطي : ٨٠/٢٨ .

(٦) الكشاف : ٢٨٠/٣ .

وإلى أي درجة من الندم والاعتراف بالذنب قد وصل ، فتصوّر الآية الحرقة الشديدة والألم الذي لا يوازيه ألم ، فكأنه يعاقب نفسه بالعض على يديه الاثنتين ، لم يكتف بواحدة فهي لا تخرج ما في صدره من اللوعة ، ولن يخرج العض لو فعله طويلاً ما سيكون من إحساس الحسرة والندم .

- **القول المصاحب للعضّ : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾** : التمني أسلوب عظيم السلطان ، شديد السيطرة ، وإحساسٌ عميق باللهفة المكروبة ، كيف تتعلق نفسه بما فات؟ وكيف تكون هذه الصرخة الملتهبة بهذا الصوت المنبه واللافت بقوله (يا) في ﴿ **يَٰلَيۡتَنِي** ﴾ ؟ وهي ليست للنداء إنما هي صوت يراد به التنبيه ، وحالها كحال (ألا ليت) ، ثم قوله : ﴿ **يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي** ﴾ تجد الصرخة هنا أكثر حدة ؛ لأن الندم هناك على أنه لم يتخذ سبيل الذين آمنوا ، والندم هنا على أنه اتخذ سبيل المضلين ، وهو ليس رفضاً لسبيل الذين آمنوا فحسب ، وإنما هو فوق ذلك معاندة له ، وذهاب في الوجه المقابل(١) .

- نداء الويل والدعاء على نفسه بالهلاك ، لم يكن مع رغبته أن يكون قد سلك طريق الحق ، إنما جاء مع حسرة صحبة السوء ، لشعوره أن فلانًا هذا هو سببٌ للأمرين : عدم سلوك طريق الرسول ، ولزوم الضلال ، والصد عن الحق ، فالقهر والحسرة فيه أشد ، لاسيما وأن التعبير جاء بـ ﴿ **خَلِيلٗا** ﴾ والخلة درجة متقدمة من الصداقة « ففي الخلة الاختصاص بالتكريم » (٢) ، فيعترف أن الذكر قد وصله ، وأن هذا الخليل هو سبب رده عن الذكر والحق .

---

(١) ينظر : دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، دكتور محمد أبو موسى : ٢٠٨ .
(٢) الفروق اللغوية ، العسكري : ١/٣١١ .



ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

- مجيء الكلوح دالاًّ على شدة العذاب يوم القيامة ، وورد وصفاً للمشركين عند تذوق العذاب في نار جهنم مع الندم الشديد ، والتحنن والتذلل لله الذي صدر منهم .

وجاء وصف العض لليدين أثرًا من آثار الحسرة والندامة وشدة القهر على التفريط ، فكانت هذه الحركة من أكثر الحركات دلالة على الندم ، فكيف إن أتبع بنداءات التمني ؟ حينها تكون لحظة الاعتراف معبرة عن الندم والتوبة والصدق مع النفس في لحظة لا ينفع فيها كل هذا الانفعال ، ولا يعدو أثره صاحبه ليزيد في عذابه .

* * *

المبحث الرابع

الصوت

هذا المبحث قد يتشابه من حيث الاسم مع المبحث الثاني من الفصل الثاني (التعبير بالإشارة (الحركة) [1] ، غير أن الاختلاف يكمن في مشاركة القول للحركة في هذا المبحث .

وجاء التعبير فيه برفع الصوت في شاهدين ، هما :

١- قوله تعالى : ﴿ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ (فاطر:٣٧).

٢- قوله تعالى : ﴿ **وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ** ﴾ (الزخرف:٧٧) .

وقفة مع المعنى :

يدخل الكفار مأواهم الذي أعده الله لهم نتيجة كفرهم وطغيانهم ، فتراهم في تلك الحال ، وكل بقعة منهم تعذب ، حتى طبقات جلدهم تتبدل ليحسوا بالعذاب أكثر [2] ، فإذ بهم وهم في تلك الحال يتخاصمون ويتراجعون القول ، ويبدؤون بالاستغاثة رجاء أن يرحم الله حالهم ، وهيهات وقد خلقت النار لأمثالهم ، وهم وقودها مع الحجارة ، وتقول : هل من مزيد ؟

---

(١) ينظر : ص ٢٦٥ .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٣٥٢/١٤ .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

الحركة : **النداء** / **الصراخ : ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ ﴾** و **﴿ وَنَادَوۡاْ ﴾** : الصوت وسيلة من وسائل تعبيرهم عن ضعفهم ، واعترافهم بكل ما سبق منهم في حياتهم الدنيا ، فانظر إليهم في سورة فاطر كيف يرفعون أصواتهم بالصراخ ؟ حتى وصف المبنى **﴿ يَصۡطَرِخُونَ ﴾** بزيادة حرف الطاء وقوته من حيث المخارج الصوتية الصوت المزعج لهذا الصراخ ، فكلمة : يصرخون ، تدل على الصراخ ، بينما **﴿ يَصۡطَرِخُونَ ﴾** تدل على صراخٍ مضاعف ، فهي « أبلغ من (يصرخون) للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخًا منكرًا ، خارجًا عن الحد المعتاد »[1] ، فـ« (الاصطراخ) افتعال من (الصراخ) استعمل في الاستغاثة ؛ لجهد المستغيث صوته »[2] ، و« يتصارخون : يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدّة »[3]، فهنا الزيادة في بنية الكلمة أفادت معنى ، كما قال الزركشي : « اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ، ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً ؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة »[4].

- النداء كيف يمكن أن يكون من أعماق جهنم ، وهو موجه لخازن النار ؟

وبناء العبارة على هذا الوجه فيه لفت وإثارة ، وذلك لبيان الأهوال التي يعانونها ، وأول شيء في ذلك : **﴿ وَنَادَوۡاْ ﴾** وهي كلمة مبهمة ومثيرة ؛لأن من شأن الإخبار عن هؤلاء المحبوسين في سراديب العذاب والأهوال بندائهم أن يثير العقول ، ويحرّك القلوب[5].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٢٧٣/٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ١٥٤/٧ .

(٣) الكشاف ، الزمخشري : ٦٢٤/٣ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ٣٤/٣ .

(٥) ينظر : آل حم (الشورى ـ الزخرف ـ الدخان) دراسة في أسرار البيان ، دكتور محمد أبوموسى : ٥٠٠ .

وتنوع هذه الأصوات الصادرة عن أهل النار ، يدل على أن لهم فيها أحوالاً ، وأن نفوسهم تختلف فيها الأحاسيس ، فمرة يصطرخون ، ومرة يتجادلون ، ومرة يتخافتون ، ومرة ينادون ، وهكذا ، وقد أورد الشنقيطي أوجهاً في الجمع بين الآيات التي تتحدث عن تساؤل الكفار ، والآيات التي تنفي ذلك في مقامات القيامة فذكر منها : « نفي السؤال عند اشتغالهم بالصعق ، والمحاسبة ، والجواز على الصراط ، وإثباته فيما عدا ذلك »(١) ، وتحدث السيوطي عن اختلاف ألوان وجوههم باختلاف حالاتهم يومئذ قائلاً : « يوم القيامة فيه حالات : يكونون في حال زرقًا ، وفي حال عميًا »(٢)، واختلاف أصواتهم المستغيثة يشير إلى أن الرجاء يكون عندهم أول الأمر ، ثم يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى يكونوا كما وصفهم الله ﴿ **مُبْلِسُونَ** ﴾ ، وفي هذه الحالة يتمنون الموت .

القول المصاحب لحركة الصراخ : تأمل الفرق في الطلب الذي يتمنونه ـ على التوالي ـ : ﴿ **رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ و﴿ **لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** ﴾ ، في أول الأمر عندما صرخوا في آية فاطر كان عندهم من الأمل ما يجعلهم يتحننون ، ويطلبون من ربهم الإخراج بندائه ﴿ **رَبَّنَآ** ﴾ ويظنون أن الاستدراك ممكن ، فيطلبون العودة للدنيا ، ويعدون أنهم سيعملون صالحاً غير ما كانوا عليه دون تسمية رجاءَ أن يُنسى ، وحياءً من نطقه ، و« تقييد العمل الصالح بالوصف المذكور ؛ للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به ، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه ، وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح ، والآن تحقق لهم خلافه » (٣) ، فيكون الجواب توبيخاً ﴿ **نُعَمِّرْكُم** ﴾ الآية .

- وفي آية سورة المؤمنون ، تمكّن اليأس من قلوبهم فما كان منهم إلا أن تمنّوا الموت ، عبارةٌ فيها إيجازٌ شديد ، وحذف ، وذلك لأن المطلوب هو

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب : ١/١٦٥ .
(٢) الدر المنثور : ١٠/٢٢٣ .
(٣) أنوار التنزيل ، البيضاوي : ١/٤٢١ .

أن يقضي عليهم رب مالك ، لكنهم لم يقولوا : يا مالك ادع ربك ليقضي علينا ، فعبارتهم ألغت وساطة مالك ، فقالوا : ﴿ **يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** ﴾ وكأنهم دعوا ربهم ليقضي عليهم ، وليس مالكاً ، ويفيد هذا اقتصارهم من الكلام على قدر الحاجة ؛ لشدة ما هم فيه ، وأن نفوسهم لا تساعدهم إلا على ذلك ، واللام في ﴿ **لِيَقْضِ** ﴾ لام أمر مستعملة في الدعاء، فقدوا الأدب، والتودد ، والتحنن ، والأمل في نداء ربهم مباشرة ، واستشفعوا بمالك ، وبما لله عليه من النعم ، وهو كالاستشفاع بالنعمة القديمة من أجل النعمة الجديدة ، مما جعله الله لعباده مناًّ وفضلاً ، فكما تقول : اللهم بحق سترك لي في الدنيا استرني في الآخرة ، فقالوا : ﴿ **رَبُّكَ** ﴾ يعني الذي أنعم عليك بنعمة التربية ، وجعل لك حقًّا عنده ، وهكذا النداء حين يخرج من سراديب العذاب واليأس[1] ، ويجاب عليهم بنفس الإيجاز وبعبارة تسكتهم : ﴿ **إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ** ﴾ .

يتأمل المتدبر كيف أن الحوار يستمر معهم في دار خلودهم ، إن استغاثوا أجيبوا في بعض المواضع ، كالحال هنا ، وفي أحوال لا يجابون ، والله أعلم متى يكون الجواب أشد عذاباً لهم فيجاب عليهم ، ومتى يكون تركهم دون جواب أشد في عذابهم فيتركون، ومنه قوله تعالى: ﴿ **كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا** ﴾ أي : لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه[2] .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

الصراخ والنداء وسيلتان من وسائل إظهار ضعف الوجدان الذي لا يجد معه الإنسان إلا هذه الطريقة ، للإفصاح عن الحالة الشعورية من اليأس ، والخوف والاعتراف مجتمعة ، لذا تجدها الأولى التي تلجأ القرى لها حال الهلاك .

* * *

---

(١) ينظر : آل حم (الشورى ـ الزخرف ـ الدخان) دراسة في أسرار البيان ، دكتور محمد أبوموسى : ٥٠٢ .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤٩٣/٥ .

المبحث الخامس

اليد

سبحان من جعل في اليد حياةً وتعبيراً بليغًا يفوق لغة الكلام ، ففي أوّل أيام المولود حين يخرج إلى دنياه يكون متفاجئًا من حركة يديه ويفزع منها ، حتى يتكيّف معها ويعتادها ثم بحكمة الله يطوّعها لتكون أداةً مناسِبةً لتأييد مشاعره ، ونقل أحاسيسه وانفعالاته ، و« تختزل الكفان عناقيد دلالية تتوزع على مساحة وجدانية ، ومن الصعب ربط الحركة الواحدة للكفين أو الأصابع بدلالة واحدة ، فقد تؤدي الحركة الواحدة للكفين من حيث القبض والبسط ، وعض الأنامل وغيرها دلالات شتى يحددها السياق أو المقام ، ولعل الاتساع الدلالي للغة الكفين يرتبط بالعلائق العصبية بين الكفين والدماغ ، وذلك أن اليد هي أداة امتداد الدماغ ، والجزء الوحيد في الجسم البشري الذي هو دائمًا تحت العينين ، والرابطة المميزة مع العالم الخارجي »[(١)] .

وحركات اليد التي تعبّر عن المشاعر تخضع لانفعالات عدة ولا تقتصر على التقليب للكفين ، فقد تكون بالقبض لتشير إلى القوة ، وقد تكون بالارتعاش للأصابع لتدل على التوتر ، وقد تكون بالهز كالتصفيق لتدل على السعادة والتشجيع وغير ذلك ، وفي كل حركة يمكن استنتاج دلالة ، « والتعبير الحركي اليدوي في هذا السياق يحوي كثافة دلالية لا تتوافر في التعبير القولي »[(٢)] وحده ، وهكذا نشاهد عجبًا في انفعالات الجوارح ، فتصبح الحركة

---

(١) لغة الجسد في القرآن الكريم ، عمر العتيق : ١٥ .

(٢) السابق : ١٩ .

الجسدية مما يحل محل كلمة أو مجموعة كلمات ، ويكون اشتراك التعبير الحركي مع القولي أبلغ في سياقاته القرآنية من القول وحده .

ظهرت حركة اليد المقترنة بالقول في شاهدين في الاعتراف بالزلل ، هما :

١- قول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

(الأعراف:١٤٩) .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾

(الكهف:٤٢) .

وقفة مع المعنى :

تبدو على المفرط علامات الحسرة والندم ، فتشتغل كل حواسه لتصف مرارة شعوره ، وتشترك كل الألفاظ ، وتتضافر المعاني لتظهر صدق اعترافه ، ابتداءً بذكر سبب الاعتراف وانتهاءً بلحظته ، مشكّلاً مقام البوح والعتاب للنفس ، وطلب العفو من الله .

ففي آية الأعراف نجد قوم موسى عليه السلام عندما وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع ، خافوا غضب الله عليهم فندموا ، والتجؤوا إليه بطلب العفو والمغفرة[١] .

وصاحب الجنة حين أغرق في كفره ، ونسي من أنعم عليه رغم تذكير صاحبه له ، وثبتت أمام عينيه قدرة الجبار المنتقم سبحانه ، لم يسعه إلا أن ينكسر ويعترف بذنبه ، فأصبح يُصفّق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأموال التي أذهبها عليها[٢].

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١١٨/١٣ .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم : ابن كثير : ١٦٠/٥ .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

الحركة : تقليب اليدين : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ و ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ :

﴿ **سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ** ﴾ : أي ندموا ، يقال سقط في يده وأسقط عبارة عن المتحسر أو عمن يقلب كفيه[١] ، وهو كناية عن ندمهم وشدة خوفهم ، وأصل هذه الكناية أن المجرم إذا أدركه الجنود أسرعوا فأسقطوا بعنف في يديه القيد الحديدي حتى لا يفر ، فإذا فعلوا به ذلك ارتخت أعصابه ، ووهنت عزائمه ، وأيقن أنه مسوق للعقاب .

وهؤلاء الذين اتخذوا العجل الذهبي الذي عبدوه أحسوا بمثل هذا لمّا رأوا من بعيد موسى عليه السلام راجعًا إليهم ومعه الألواح ، كأنه قد حصل سقوط قيد حديدي في أيديهم ، وسيلاقون عقابهم .

هذه الكناية أريد منها لازمها ، وهو الشعور بالندم والخوف من العقاب مع العجز عن الفرار ، وهي كناية ذات إبداع فني رائع ، وهي من الكنايات الخفية ، مع عدم وجود وسائط بين المكنى به والمكنى عنه[٢].

وقال ابن عاشور : « سقط في يده ساقط فأبطل حركة يده ، إذ المقصود أن حركة يده تعطلت بسبب غير معلوم ، إلا بأنه شيء دخل في يده فصيرها عاجزة عن العمل ، وذلك كناية عن كونه قد فجأه ما أوجب حيرته في أمره ، كما يقال : فت في ساعده .

وقد استعمل في الآية في معنى الندم وتبين الخطأ لهم ، فهو تمثيل لحالهم بحال من سقط في يده حين العمل ، فالمعنى أنهم تبين لهم خطؤهم وسوء

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني :٥٥١ .

(٢) ينظر : البلاغة العربية ، الميداني : ٥٧٩/١ .

معاملتهم ربهم ونبيهم ، فالندامة هي معنى التركيب كله» [١] ، ولا مانع من اجتماع المعنى الحقيقي ، والمجازي ، كما ذكر الأصفهاني [٢] .

- وانظر لذلك المتحيّر النادم على فوات جنته ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ : وتأمل تفاعُل فعل ﴿ يُقَلِّبُ ﴾ مع الحدث ؛ إذ أحالنا إلى مصيبة تَقلُّب الحال التي استعاذ منها نبينا ﷺ بقوله : «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوّل عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك» [٣] ، تزيد الشَّدة فوق اللام الموقفَ بلاغةً وشِدّة ، وتوحي بتكرار فعل التقليب مرة تلو الأخرى .

ويقول البغدادي : «يحتمل وجهين :

أحدهما : يقلب كفيه ندما على ما أنفق فيها وأسفًا على ما تلف .

الثاني : يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق وهلك ، لأن الملك قد يعبر عنه باليد ، من قولهم في يده مال ، أي في ملكه» [٤] .

- **وصف هلاك الجنة** ، وأقف معه إذ الوقوف على وصف الهلاك من الأهمية بمكان ؛ لأن فيه بيان عظم حسرة المقصّر ، وتأثيرها في اعترافه ، فاختيار لفظ (الإحاطة) يلفت النظر إلى أن الهلاك لم يترك له من ثمره ما يعوضه ويسليه ، و«الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد» [٥] ؛ إذ «أصابه عذاب ، أحاط به ، واستهلكه ، فلم يبق منه شيء ، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره ، وثماره ، وزرعه ، فندم كل الندامة ، واشتد لذلك أسفه» [٦] ، وقد أفاد ابن عطية في قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ حيث

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١١٢/٩ .

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن : ٥٥١ .

(٣) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : الرقاق ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتن بالنساء ، (رقم الحديث : ٢٧٣٩) .

(٤) النكت والعيون : ٤٧٨/٢ .

(٥) المحرر الوجيز ، ابن عطية :٣١٣/٤ .

(٦) تيسير الكريم المنان ، السعدي : ٤٧٧/١ .

قال : لا إشكال في أن المعنى ما في رؤوس الشجر من الأكل ، ولكن فصاحة الكلام تقتضي أن يعبر إيجازًا عن هلاك الثمر ، والأصول بهلاك الثمر فقط ، فخصصها بالذكر إذ هي مقصود المشتغل ، وإذ هلاك الأصول إنما يسوء منه هلاك الثمر الذي كان يرجى في المستقبل كما يقتضي قوله : ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ ، أن له أصولاً كذلك ، فتقتضي الإحاطة المطلقة بالثمر ، أن الأصول قد هلكت [1] ، وقد استجاب الله دعاء صاحبه حين ذكّره بالله فلم يتذكر فدعا على جنته ، فأصابها الفناء الذي هو سنة الله في خلقه .

- اجتماع مصيبة صاحب الجنة مع طول عنايته بها ، حيث تأتي كلمة ﴿ بِثَمَرِهِۦ ﴾ شاهدة على طول تعاهده لمزرعته ؛ فقد جاء المثل في سورة البقرة بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ (البقرة:٢٦٦)، ولم يعبّر بـ : (جنته) أما هنا نلحظ أن طول المدة التي ظل يعتني فيها بأرضه جعلته يتنعم بالثمر منها ، حتى شعر أنها جزء منه ؛ فجاء الضمير ليقوي تعلقه بماله مما يزيد فاجعته به ، فالمال مال الله والأرض أرضه يهبها من يشاء،وحين امتن الله على هذا الرجل بالنعمة فكفر بالمنعم، وتكاثر على صاحبه بالمال والولد ونسي شكر ربه تفاجأ بآماله التي ظن أنه قادر على جلبها وحده تتهاوى أمامه ، وجزمه أن هذا البهاء الذي وصلت له جنته لن يزول أبدًا بات كأعجاز نخل خاوية ، ففُتن بنعمته وظن أنه قادر عليها وهو العبد الفقير إلى مولاه .

وتُظهر لنا الآية عظم مصاب صاحب الجنة هنا حيث اشتركت كفاه في التعبير عن حزنه واعترافه بخطئه ، فصار « يضع باطن إحداهما على ظهر الأخرى ، ولما كان هذا الفعل كناية عن الندم عداه تعدية فعل الندم فقال ﴿ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ كأنه قال : فأصبح نادمًا على ذهاب ما أنفق في عمارة

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز :٤/٣١٠ .

تلك الجنة»[1]، وهذا تعليلٌ لحسرته وتقليب كفيه ، «والفعل المضارع للدلالة على تكرر ذلك القول منه» [2] ، حيث إن ليَديه ارتباطًا بماضي الجنة المزهر ، وبثمرها اليانع ، فتَحسُّسُ النعيم جالبٌ لسعادة القلب ، فكأنه يقلب كفيه باحثا عن ذلك الثمر الذي كان بين كفيه يوما ما ، ويحن إلى ملمسه بينهما ، لكن قُدرة الله التي أنكرها عاجلته بما لم يظن .

- إبهام (ما) وطبيعة المد فيها فتح لنا الآفاق في قوله تعالى : ﴿ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾: لتشمل إنفاق المال ، والجهد البدني والنفسي ، والعمر الذي أفناه لأجل أن تسر عينيه بجنته ، وتبقى من بعده لأبنائه ، كما أن الجار والمجرور «فيها» يزيدان هذا المعنى قوة ، إذ لم يُعبر بـ(عليها) بدلاً عنها ، فبعد أن كانت ذات بهاء وجمال أبدلها الجبار جل جلاله ، يقول ابن عطية : «تأمل هذه الهيئة التي ذكر الله ،فإن المرء لا يكاد يتخيل أجمل منها في مكاسب الناس: جنتا عنب أحاط بهما نخل ، بينهما فسحة ، هي مزدرع لجميع الحبوب ، والماء الغيل يسقى جميع ذلك من النهر الذي قد جمل هذا المنظر ، وعظم النفع ، وقرب الكد ، وأغنى عن النواضح وغيرها» [3] تتحوّل بقدرة الله إلى أرضٍ مهلَكة خاوية على عروشها .
- هلاك هذه الجنة كان من أشد أنواع الهلاك ويكفيه شِدة كونه حصل فجأة ، ولم ترد جملة ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (الكهف:٤٢) إلا في ثلاثة مواضع[4]، كلها تحكي عن إبادة قرى ارتبط هلاكها بالظلم الذي حدث فيها ، كما قال الله ـ في الآية هنا ـ حكاية عن صاحب الجنة ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ، فكانت نتيجة كل من ظلم نفسه بإنكار البعث ونسي أن له

---

(١) البحر المحيط ، أبو حيان : ٤٥٤/٧ .

(٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٣٢٧/١٥ .

(٣) المحرر الوجيز : ٣٠٩/٤ .

(٤) [٤٥ :البقرة] ، [٢٥٩ : البقرة] ، ٣-آية الكهف موضع الدراسة .

خالقا أوجده من العدم النتيجة نفسها ، و« ﴿ **خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا** ﴾ يريد أن السقوف وقعت ، وهي العروش ، ثم تهدمت الحيطان عليها ، فهي خاوية ، والحيطان على العروش»[1] ، وقد يُراد بالعروش : عروش الكرم ، فهذه العروش سقطت ثم سقطت الجدران عليها ، ويمكن أن يراد من العروش : السقوف وهي سقطت على الجدران ، وحاصل الكلام أن هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها[2] .

- القول المصاحب لحركة اليد :

في آية الكهف : ازدادت حالة الندم ـ بعد ما ذُكر من مسبباته ـ فأجبرت صاحب الجنة أن يختم حزنه باعتراف مؤسف ليس ينفعه إذ جاء في لحظة متأخرة ، وليس يعيد لجنته رونقها ، لكنه يُظهر عمق تحسره على شِركه الذي تَسبب في فواتها ، فلم يقل : هلكت جنتي ، فلم ينطق بالحسرة على الهلاك بقدر ما تفكر في سببه وتمنى لولم يشرك ؛ إذ هو أعظم من هلاك جنته،بقوله: ﴿ **يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا** ﴾ ، فقد « تذكر موعظة أخيه ، فعلم أنه أُتيَ من جهة شركه وطغيانه ، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه ، ويجوز أن يكون توبة من الشرك ، وندماً على ما كان منه ، ودخولاً في الإيمان»[3] ففطن بهذا القول إلى أن من آمن بربه وأطاعه حفظ الله له دنياه وآخرته ، «وحرف النداء مستعمل في التلهف ، و(ليتني) تمن مراد به التندم . وأصل قولهم : ﴿ **يَٰلَيۡتَنِي** ﴾ أنه تنزيل للكلمة منزلة من يعقل ، كأنه يخاطب كلمة «ليت» يقول : احضري فهذا أوانك ، وهذا ندم على الإشراك فيما مضى ، وهو يؤذن بأنه آمن بالله وحده حينئذ»[4]، وأكد اعترافه وندمه بقوله:﴿ **أَحَدٗا** ﴾ ،

(١) المحرر الوجيز : ٤/٣١٣ .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب ، الرازي : ٢١٢/١٠ .

(٣) الكشاف ، الزمخشري : ٦٧٦/٢ .

(٤) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٣٢٧/١٥ .

حيث ظن قبلُ أن نفسه الضعيفة قادرة على جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، فاتخذ إلهه هواه ، فابتلاه الله ؛ ليعرف نعمة ربه عليه ، فيعود منطرحًا بين يديه .

وتحسن الإشارة هنا إلى أن التحسر على فوات جنته اعترفت به حواسّه ، وعبّرت عنه كفّاه في صورة بليغة تميز بوصفها القرآن ، إذ كانت يداه هي العاملة في إصلاح تلك الأرض بما يتطلب ذلك من زراعة ، وحرث ، وبذل للمال ، فقاسمته يداه هذا الاعتراف فتقلّبت ، بينما نطقت شفتاه ، واعترف لسانه ـ إذ هو أداة الكلام ـ بما نطقه أمام صاحبه متجاهلاً قدرة الله ، منكرًا للبعث ، فجاء التعبير نطقًا ندمًا على الشرك ، وحِسًّا تحسُّرًا على الجنة .

وبمثل هذا يظهر ارتباط سبب الاعتراف ـ وماله من أثر على النفس ـ بسلوك المعترف ، حيث تضمّن السياق نوعين من التعبير : تعبير حركي يدوي في قوله تعالى : ﴿ **فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ** ﴾ ، وتعبير قولي : ﴿ **يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا** ﴾ ، والتعبير اليدوي يسبق التعبير القولي لا بدلالة السياق التركيبي فحسب بل بدلالة السياق النفسي كذلك ؛ إذ إن مشهد دمار البستان أفضى إلى تفاعل (فسيولوجي) قبل الفعل القولي ، فقد نقلت العين مشهد الدمار إلى الدماغ الذي أصدر أمرًا (فسيولوجيًّا) تجسّد بتقليب الكفين ، فسلوك الحواس يظهر قبل السلوك اللغوي ، إذ نستقبل المشاهد البصرية والسمعية وغيرهما بحواسنا التي تتفاعل مع عمليات (فسيولوجية) موافقة لطبيعة المشاهد المؤثرة ثم نعبّر عمّا شاهدناه بفن قولي مناسب للحواس والتفاعل (الفسيولوجي) ، وتتفق دلالة التعبيرين القولي والحركي ؛ فكلا الدلالتين تصوّر الندم والتحسّر على ما أصاب البستان ، ولا يخفى أن الإنسان لا يكتفي ـ في الغالب ـ بالاستجابة (الفسيولوجية) بأشكالها المختلفة من حركات وإشارات واهتزازات وتقلّصات عضلية ، فهو يميل إلى تحويل الاستجابة (الفسيولوجية) الظاهرة والخفية إلى سلوك لغوي»[(١)] .

---

(١) لغة الجسد في القرآن الكريم ، عمر عتيق : ١٨ .

- **وفي آية الأعراف :** لما أيقنوا تمام اليقين أنهم على ضلال ، ورأوا غضب موسى عليه السلام ، أثّر ذلك عليهم وشعروا بجرمهم ، واعترفوا بذلك ، فقدموا الرحمة على المغفرة : ﴿ **لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:١٤٩) فلولا الرحمة لم تأتهم المغفرة ، لأنهم كانوا على عهدٍ من الضلال بعد ذهاب موسى عليه السلام للقاء ربه .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

أن تقليب اليدين وضرب إحداهما بالأخرى إشارة واضحة وعميقة على فراغ القلب بعد حلول المصاب ، ودلالة على الخسارة المتحققة والإفلاس المادي والروحي .

* * *

المبحث السادس

حركة كامل الجسد

تصدُر من الإنسان عدة تفاعلات حركية تدل على استجابة تجاه مؤثّر ما ، وتشمل هذه الحركات كامل الجسد لتدل على قوة المؤثّر ، لا سيما وهي تتشارك مع القول في التعبير عن اللحظة التي فيها الاعتراف بالزلل ، وقد صدر الاعتراف بها عن مجموعة من الشخصيات ، قسّمتُ الدراسة ـ تبعاً لترتيب المصحف ـ عليها ، وما تشابه من المواضع لنفس القصة أدرجه تحتها ، وهي :

١- آدم وزوجه عليهما السلام .

٢- سحرة فرعون .

٣- قوم القرية الظالمة .

٤- داوود عليه السلام .

٥- سليمان عليه السلام .

* * *

- **اعتراف آدم وزوجه عليهما السلام :**

١- قوله تعالى : ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف: ٢٢، ٢٣).

٢- قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (طه: ١٢١) .

وقفة مع المعنى :

أسكن الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام جنته ، وجعل له فيها نعيماً يأكل كيف يشاء ، وخلق له من ضلعه زوجته حواء ، ورأى من عالم الغيب ما رأى ، وجعل الله في الجنة شجرةً حذره من الاقتراب منها ، فإن فعل سيكون من الظالمين ، فوسوس له الشيطان ، وأغراه أن هذه الشجرة يكون له بها إن أكل منها هو وزوجته ملكاً عظيماً ، فأكل آدم عليه السلام وزوجته ، فانكشفت لهما سوءاتهما فأدركا حينها الزلل الذي عملاه[١] .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

- **الحركة : الخصف** ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ : جعلا يلصقان ورقة على ورقة ويلصقانها بعدما كان كساهما حلل الجنة ظلاً يستتران بالورق[٢] ، ومعنى طفقا : أخذا في الفعل وهو الخصف ، ويستعمل طفق بمعنى كاد .

أي يجعلان ورقة على ورقة ليستترا بها ، كما تخصف النعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور ، والورق التين ، وفيه دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم عليه السلام ، ألا ترى أنهما كيف بادرا إلى الستر لما تقرر في عقلهما من قبح كشف العورة؟ [٣]

---

(١) ينظر : أنوار التنزيل ، البيضاوي : ١٣/١ .
(٢) البحر المحيط ، أبو حيان : ٢٨٠/٤، وينظر : تهذيب اللغة : ٦٩/٧، مادة (خَ صَ فَ).
(٣) ينظر : غرائب القرآن ، النيسابوري : ٢١٦/٣ .

لحظة الزلل :

﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ** ﴾ أي : نزلهما عن رتبتهما العالية ، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها ، فأقدما على أكلها ﴿ **فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا** ﴾ أي : ظهرت عورة كل منهما بعد ما كانت مستورة ، فصار للعري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر ، حتى انخلع فظهرت عوراتهما ، ولما ظهرت عوراتهما خَجِلا وجَعَلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة ، ليستترا بذلك .(١)

ونقل أبو حيان عن الأزهري قوله : «لهذه الكلمة أصلان أحدهما : أن الرجل يدلي دلوه في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء ، فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه ، فيقال : دلاه أي أطمعه ، والثاني : جرّأهما على أكل الشجرة ، والأصل فيه دللهما من الدال ، والدلالة ، وهما الجراءة»(٢) .

وردت وسوسة الشيطان في سورة البقرة بلفظ : ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا** ﴾ والفرق بين اللفظين : أن الزلة ليست بالضرورة أن تكون إلى محل أدنى بل يمكن أن يكون في نفس المكان ، وقد سُميت (زلة) تخفيفاً في مقام التكريم الغالب على السورة ، أما في سورة الأعراف ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ** ﴾ لأن التدلية لا تكون إلا من أعلى لأسفل ؛ إذن في مقام التكليف سماها (زلة) ، وفي مقام العقوبة سماها (تدلية) فخفف المعصية في البقرة ، ولم يفعل ذلك في الأعراف(٣) .

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، ابن السعدى : ٢٨٩ .

(٢) البحر المحيط : ٤/٢٨٠ .

(٣) ينظر : لمسات بيانية ، فاضل السامرائي : ٦٣٤ .

القول المصاحب لحركة كامل الجسد في قصة آدم وزوجه عليهما السلام :

﴿ **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾:

يذكرنا هذا الاعتراف باعتراف قوم موسى عليه السلام حينما أدركوا خطأهم بعبادة العجل[1] : ﴿ **قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:١٤٩) جاء تقديم المغفرة على الرحمة في قصة آدم ، وهو كذلك في آيات كثيرة ، ذلك أن المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة[2] ، وآدم عليه السلام قد عاش في سعة من رحمة الله زمناً ثم أذنب فباشر بطلب المغفرة قبل الرحمة ، بينما قوم موسى عليه السلام ، عصوا الله زمناً ثم جاءت الآن لحظة التوبة فقدموا الرحمة التي بها ينالون الراحة والسكينة ، ويتحولون عن الذنب الذي كانوا عليه ثم طلبوا المغفرة .

* * *

- **اعتراف سحرة فرعون :**

١- قوله تعالى : ﴿ **فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ** ﴾ (طه:٧٠) . وجاء اعترافهم بعدها بآيتين ﴿ **إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ** ﴾ (طه:٧٣).

٢- قوله تعالى : ﴿ **فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (الشعراء:٤٦، ٤٧) .

---

(١) ينظر : ص ٣١٥ .

(٢) ينظر : التعبير القرآني ، فاضل السامرائي : ٥٧ .

وقفة مع المعنى :

اتفق فرعون مع سحرته بحضور موسى عليه السلام ليكون يوم الاحتفال الذي يجتمع فيه كل الناس ، فيكون هذا موعد عرض موسى عليه السلام لمعجزاته ، وعرض السحرة لما عندهم من السحر ، وعندما جاء اليوم الموعود ، وأتم الله لنبيه النصر والغلبة ، وأكلت عصى موسى عليه السلام إفكهم ، وبطل سحرهم ، علموا أن الذي جاء به موسى ليس بالسحر ، فآمنوا ، وسجدوا مباشرة ذلاً وانكساراً واعترافاً بالذنب[1] .

من بلاغة الاعتراف في الآيات :

- **الحركة : السجود ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴾ :**
عندما بُهت السحرة لم يتمالكوا أنفسهم حتى انطرحت أجسادهم على الأرض ؛ اعترافاً لله بالقدرة والعظمة ، واعترافاً له بالخطايا والذنوب التي طالما مارسوها بسحرهم ، « وأطلق عليهم اسم السحرة في حال سجودهم لله مؤمنين به ؛ نظراً إلى حالهم الماضية »[2] ، فكان السجود معبّراً في تلك اللحظة أمام الملأ عن اعترافهم بأن سحرهم باطل ، وأن الغلبة لموسى عليه السلام « ولمّا كان السجود أعظم القرب ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ؛ بادروا به متلبسين بالقول الذي لا بد منه عند القادر عليه ، إذ الدخول في الإيمان إنما يدل عليه القول »[3].

- والتعبير بالإلقاء قبل السجود ، دون (فسجدوا) مباشرة ، « والمعنى خروا سجدًا كأنما ألقاهم مُلقٍ لشدة خرورهم ، وقيل : لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا ، وسجودهم كان لله تعالى لما رأوا من قدرته ، فتيقنوا نبوة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٧/٢٦٠ .
(٢) أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٢١/١٢٣ .
(٣) البحر المحيط ، أبو حيان : ٤/٣٦٤ .

موسى عليه السلام ، واستعظموا هذا النوع من قدرة الله تعالى ، وقيل سجدوا موافقة لموسى وهارون فإنهما سجدا لله شكرًا على وقوع الحق فوافقوهما إذ عرفوا الحق فكأنما ألقياهم» [1] ويدل على مزيد ذلٍّ ، وضعف ، وأنهم ألقوا كل ما كان معهم من السحر ، وألقوا بأنفسهم على الأرض ، فأي ضعف أشد من هذا !

القول المصاحب لحركة كامل الجسد في اعتراف سحرة فرعون :
﴿ **ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ** ﴾ ، ﴿ **قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ في سورة طه ، جاء الإيمان بالله ، بإضافة رب إلى ﴿ **هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ** ﴾ بينما في سورة الشعراء جاء مضافاً للعالمين ، ولعل هذا من المناسبات بين السورة وآياتها ، فخصوصية هارون وموسى عليهما السلام في سورة طه ، تناسب طول آياتها ، بينما في الشعراء جاء لفظ ﴿ **ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ ليضم هارون وموسى ، وكل المؤمنين الذين رحمهم الله بالإيمان ، قال ابن عاشور : « قصدوا من قولهم ذلك الإعلان بإيمانهم بالله ؛ لئلا يظن الناس أنهم سجدوا لفرعون ، إذ كانت عادة القبط السجود لفرعون ، ولذلك وصفوا الله بأنه رب العالمين بالعنوان الذي دَعا به موسى عليه السلام ، ولعلهم لم يكونوا يعرفون اسماً علماً لله تعالى ، إذ لم يكن لله اسم عندهم ، وقد عُلم بذلك أنهم كفروا بإلاهية فرعون ، وزادوا هذا القصد بياناً بالإبدال من ﴿ **بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ قولهم : ﴿ **بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ** ﴾ لئلا يُتوهم المبالغة في وصف فرعون بأنه رب جميع العالمين» [2].

- ثم جاء الاعتراف مفصلاً أكثر بعد ذلك في سورة طه ﴿ **إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ** ﴾ (طه:٧٣) مخاطبين فرعون ، غير آبهين بما سيأتيهم منه ، معللين سبب إيمانهم ، فذكروا الخطايا مجتمعة ، ثم خصوا السحر ، وكأنه ليس جزءاً منها ، فقد

---

(١) البحر المحيط ، أبو حيان : ٣٦٤/٤ .
(٢) التحرير والتنوير : ٥٣/٩ .



اعتبروا أن خطاياهم غير السحر في حياتهم كانت بمحض إرادتهم بينما السحر هو الذي كانوا عليه مُكرهين فلم يعتبروه جزءاً من تلك الخطايا ، فقد ـ « ذُكر الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يُفرد بالاستغفار منه ، مع صدور السحر عنهم بالإكراه ، وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة ، وقيل : أرادوا الإكراه على تعلم السحر »[(١)] .

التعبير بـ(الخطايا) دون (الذنوب) أو غيرها ، لشمول معناها ، فالخطيئة هي الإثم ، والإثم كل ما يمكن أن يناقض الصواب [(٢)] .

* * *

● اعتراف قوم القرية الظالمة :

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:١١-١٤) .

وقفة مع المعنى :

وصفٌ دقيقٌ معجز ، لما حل بالقرية الظالمة حين عصت أمر الله ، كيف أخذها الله ، ولم يبالِ بمن فيها ، وأنشأ مكانها قوماً آخرين ، فلما علموا بأن العذاب قد حل ، اشتركت الجوارح في تعبير عن اعتراف لا فائدة منه حين أذن الله بالعقاب ، فركضوا يحاولون الفرار لكن لم يكن لهم إلا الهلاك[(٣)] .

---

(١) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود :٦/٣٠ .

(٢) ينظر : ص ٤٤ .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٥/٣٣٥ .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- **الحركة : الركض :** ﴿ **إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ** ﴾ : يشترك في الركض كل الأعضاء لتعبّر عن فزعٍ قد حدث ، وهو نتيجة لتصرف صدر من الإنسان ، إذ لو لم يرتكب خطأً لما اضطر إلى مغادرة المكان ، وهذا ما فعله أهل القرية الظالمة ، عندما شعروا أن عذاب الله آت ، « ضربوا الأرض بأرجلهم ، ندمًا وقلقًا ، وتحسرًا على ما فعلوا وهروبًا من وقوعه » (١) .
- ﴿ **يَرْكُضُونَ** ﴾ كناية عن الهلع الذي أصابهم فأسرعوا في خروجهم من هذه القرية ، وقال الزمخشري : « فلما علموا شدة عذابنا وبطشتنا علم حس ومشاهدة لم يشكوا فيها ركضوا من ديارهم ، والركض : ضرب الدابة بالرجل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ** ﴾ (ص:٤٢) ، فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ، ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم فقيل لهم : ﴿ **لَا تَرْكُضُوا** ﴾ . . . » (٢) .

لحظة وقوع الهلاك :

- ﴿ **قَصَمْنَا** ﴾ : دقة اختيار لفظ (القصم) للإهلاك يجعلنا نقف على الفرق بينه وبين « الفصم » ، يقول العسكري في ذلك : « أن القصم بالقاف : الكسر مع الإبانة . . . ، والفصم بالفاء : كسر من غير إبانة ، انفصم الشيء انفصامًا إذا تصدّع ولم ينكسر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **لَا ٱنفِصَامَ لَهَا** ﴾ (البقرة:٢٥٦) ، ولم يقل : لا انقصام لها ؛ لأن الانفصام أبلغ فيما أريد به هاهنا ، وذلك أنه إذا لم يكن لها انفصام كان أحرى أن لا يكون لها انقصام » (٣) ، وقال

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٥٢٠ .
(٢) الكشاف : ٧٧٧/١ .
(٣) الفروق اللغوية : ٤١٣/١ .

الآلوسي : «أصل القصم : أفظع الكسر ؛ لأنه الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء ، بخلاف الفصم بالفاء فهو كسر لا يبين تلاؤم الأجزاء بالكلية ، والمراد بالقصم في الآية : الإهلاك الشديد ، واستعير لفظ «القصم» للقرية على سبيل الاستعارة المكنية ، لشدة طغيان أهلها وظلمهم استحقوا هذا العذاب الشديد الذي عُبر عنه بالكسر الذي لا جبر بعده ، وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء ، وإذهاب التئامها بالكلية ، كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة من الدلالة على قوة الغضب ، وشدة السخط ما لا يخفى . . .» (١) ، وحرف الصاد في اتصاله مع القاف وهو من أقوى حروف الصفير يزيد الكلمة قوة .

ثم كانت قوة وقع «فعل القصم على القرى ؛ للإشعار بأن الهلاك قد أصابها وأصاب أهلها معها ، فالكل قد دمره ـ سبحانه ـ تدميرًا» (٢) .

- ﴿ ظَالِمَةً ﴾ : كما هو معلوم أن الظلم لا يكون من القرية بل من أهل هذه القرية وساكنيها ، لكنه إنما أطلق على القرية مجازاً ؛ لأنه كان السائد والأغلب على أهلها ، وإطلاقه عليها دليل أن أهلها كانوا بحق طاغين مفسدين حتى كأنهم صبغوا تلك القرية بجرمهم فصارت مثلهم ، كما اعترفوا بذلك حين حلّ بهم العذاب فقالوا : ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .
- ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ﴾ جاء التعبير بلفظ الإحساس دون (شاهدوا) مثلاً أو (أبصروا) ؛ لدلالة عظم الكارثة وهول الهلاك الذي وقع بهم فكأنه قد شاركت فيه كل الحواس ، «والإحساس الإدراك بالحاسة أي فلما أدركوا بحاستهم عذابنا الشديد ولعل ذلك العذاب كان مما يدرك بإحدى الحواس الظاهرة،وجوز أن يكون في البأس استعارة مكنية ويكون الإحساس تخييلاً،

(١) روح المعاني : ١٢/٣٣٥ .

(٢) الوسيط ، سيد طنطاوي : ١/٢٨٨٥ .

وأن يكون الإحساس مجازًا عن مطلق الإدراك أي فلما أدركوا ذلك ﴿ **إِذَا هُم مِّنْهَا** ﴾ أي من القرية فمن ابتدائية ، أو من البأس ، والتأنيث ؛ لأنه في معنى النقمة والبأساء ، فـ(من) تعليلية وهـي على الاحتمالين متعلقـة بـ ﴿ **يَرْكُضُونَ** ﴾ »[١].

القول المصاحب لحركة كامل الجسد في اعتراف قوم القرية الظالمة : على الرغم من أن أصحاب القرية حاولوا الهروب ، إلا أنهم دعوا على أنفسهم بالويل والهلاك ، حين أدركوا أن الهلاك محيطٌ بهم ثم أكدوا ذلك باعترافٍ صريح : ﴿ **إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ** ﴾ ، وهذا يؤكد اجتماع كلمة المشركين في حالة الاعتراف على نداء واحد صارخ : ﴿ **يَٰوَيْلَنَآ** ﴾ ويؤكد فداحة اشتراكهم في فعل واحد وهو الإشراك بالله وظلمهم لأنفسهم ، فيقولون هذا القول كلهم ، ثم يؤكدون اعترافهم بقولهم : ﴿ **إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ** ﴾ ، فقد أفادت (إنّ) تأكيدهم ظلمهم ، وهذا التأكيد الصادر منهم يزيد من استحقاقهم لهذا العذاب الذي حلّ بهم ؛ لعلمهم أنهم ظلموا ، و ﴿ **كُنَّا** ﴾ تفيد مضي زمن الظلم ، وانتقالهم الآن إلى زمن مختلف ، لكن هيهات ينفع الظالم ندمه حين يقع العذاب ، ومثلهم أصحاب الجنة ، وقد سبق الحديث عنهم[٢] .

* * *

● اعتراف داود عليه السلام :

قوله تعالى : ﴿ **قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩** ﴾ (ص:٢٤) .

---

(١) روح المعاني ، الآلوسي : ١٦/١٧ .

(٢) ينظر : ص ١٤٧ .

وقفةٌ مع المعنى :

لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس ، وكان معروفًا بذلك مقصودًا ، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما اللّه فتنة لداود ، وموعظة لخلل ارتكبه ، فتاب اللّه عليه ، وغفر له ، وقيض له هذه القضية[(١)] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- **الحركة : الخر للركوع/السجود : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾** سقط ساجداً . قال الحسن[(٢)] : لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع ، أو المراد أن خرّ للسجود مصلياً لأن الركوع قد يعبر به عن الصلاة[(٣)] ، فاستعمال (الخر) يجمع الأمرين : السقوط وحصول الصوت بالتسبيح [(٤)] .

وما أجمل ما أضافه الفعل إلى السياق! فهو يرتبط بالأشياء العالية كالجبال أو الأبنية ، إذا سقطت مع صوت ، والنفس المؤمنة طود شامخ لا تهزه حوادث الدنيا ومواقف البشر ، لا يضعف إلا أمام خالقه[(٥)] ، فلما يعلم أنه أخطأ أمام مولاه ، يسارع بالإنابة والرجوع .

القول المصاحب لحركة كامل الجسد في اعتراف داود عليه السلام :

﴿ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ ﴾ لا يجد المؤمن حين يعرف زلله إلا أن يعود إلى ربه بالاستغفار ، والمسارعة إليه وقد بينها حرف الفاء ، وانظر إلى التركيب حين يقول رب العزة : **﴿ رَبَّهُۥ ﴾** (ص:٢٤) فقال بعدها : **﴿ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾** (ص:٢٥) .

* * *

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، ابن السعدى : ٧١١ .

(٢) هو الحسن البصري .

(٣) ينظر : غرائب القرآن ، النيسابوري : ٥/٥٨٩ .

(٤) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ١٥١ .

(٥) ينظر : التصوير البياني في آيات الأمن والخوف ، دكتورة زينب كردي : ٣٧٢ .

● اعتراف سليمان عليه السلام :

قوله تعالى : ﴿ **إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** ﴾ (ص:٣١-٣٣) .

وقفة مع المعنى :

أوتي نبي الله سليمان عليه السلام من النعم ما لم يؤت غيره ، فذات مساء عرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات ، وهي التي تقف « على ثلاث قوائم ، وطرفِ حافر الرابعة » [(١)] ، والجياد : السراع ، فاشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يُقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسيانًا كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب[(٢)]، فقال : لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي ، ثم أمر بها فعُقرت ، وقيل : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف[(٣)] .

من بلاغة الاعتراف في الآية :

- **الحركة : المسح** ﴿ **فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** ﴾ (ص:٣٣) : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف ، فتأمل كيف اختار أجمل الأماكن التي تفتن في الخيل ، وذبحها منها ، تأديباً لنفسه ، وقطعاً لحب تلك الخيل .

---

(١) بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي : ١/١٠٠٧ .

(٢) الحديث الذي رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ يوم الخندق فقال : « ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» ، أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الدعوات ، باب : الدعاء على المشركين ، (رقم الحديث : ٦٠٣٣) ، ورواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : التغليظ في تفويت صلاة العصر ، (رقم الحديث : ٦٧٦) .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٧/٦٤ .



القول المصاحب لحركة كامل الجسد في اعتراف سليمان عليه السلام:

﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ ﴾ :

- قال أبو السعود في الآية : «قالها سليمان عليه السلام اعترافًا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندمًا عليه ، وتمهيدًا لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها ، والتعقيب باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه ، والتأكيد بـ﴿ إِنِّيٓ ﴾ (ص:٣٢) للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر ، وأصل ﴿ أَحۡبَبۡتُ ﴾ أن يعدى بـ(على) ؛ لأنه بمعنى(آثرت) لكن لما أنيب مناب (أَنَبْتُ) عُديَ تعديته» [1] ، ويرى السعدي أن الفعل ﴿ أَحۡبَبۡتُ ﴾ قد ضُمّن معنى (آثرت) أي : آثرت حب الخير ، الذي هو المال عمومًا ، وفي هذا الموضع المراد الخيل [2] .
- ويرى ابن عاشور أن قوله اعتراضاً بين جملة ﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ ، وطلبها مجدداً ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ ﴾ ؛ «للتعجيل بذكر ندمه على تفريطه في ذكر الله في بعض أوقات ذكره ، أي أنه لم يستغرق في الذهول بل بادر الذكرى بمجرد فوات وقت الذكر الذي اعتاده» [3] ، فقالها نبي الله ندمًا على ما مضى منه ، وتقربًا إلى اللّه بما ألهاه عن ذكره ، وتقديمًا لحب اللّه على حب غيره .
- ﴿ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ﴾ : تأمل كيف يُحَبُّ الحُبّ؟ فيبرز من تكرار صفة الحب أنه كان مسيطِراً في تلك اللحظة ، ولم يكن شيءٌ يفكر به سوى هذا الحب ، فكان معجباً بحبه لهذه الخيل حتى استدرك تائباً .

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٢٢٦/٧ .

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن : ٧١٢ .

(٣) التحرير والتنوير : ٢٥٨/٢٣ .

- وقال ابن عطية : ﴿ **عَن ذِكۡرِ رَبِّي** ﴾ فإن (عن) على كل تأويل هنا للمجاورة من شيء إلى شيء ، فتدبّره فإنه مطرد »[1] .

- قال الزمخشري : « والتواري بالحجاب مجاز في غروب الشمس عن تواري الملك ، أو المخبأة بحجابهما ، والذي دلّ على أن الضمير للشمس مرور ذكر العشي »[2] .

- ﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ** ﴾ : سارع داود عليه السلام لذبحها تقرباً لله ، فلم يرد مع الفعل حرف عطف(فاء) أو (واو) أو (ثم) ، لدلالة المبادرة في اعترافه إلى التخلص مما ألهاه عن ذكر الله ، فهل يا ترى كان بيننا من له هذه الروح حين يعلم أن ما بين يديه من النعم قد ألهته عن ذكر ربه؟!

نسأل الله أن يبصرنا ويرحم حالنا .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

- خصف الورق والمبادرة إلى تغطية الجسد بعد عريه دلالة واضحة على الاعتراف بالزلل ، والسرعة في التخلص من أثر المعصية التي أصابت آدم عليه السلام وزوجه ، وهكذا اعتراف النفس المؤمنة المقصرة بما جنت في حق ربها فلم تقبل أن تستسلم لأثر العقوبة البادي عليها ، بل سعت للخلاص منه مع دعاء الله بالرحمة والمغفرة .

- خرور داود عليه السلام راكعاً منيباً ، وسجود سحرة فرعون ، هو انكسار العبد حينما تخالط قلبه بشاشة الإيمان ، ويعلم أن ماجناه في حق ربه لابد له من تكفير ، فكانت هذه الحركة إشارةً على رقي الاعتراف ، فكلما ذل العبد لربه رفعه الله .

---

(١) المحرر الوجيز : ٥٤٧/٤ .

(٢) الكشاف : ٩٢/٤ .

- طفق سليمان مسحاً بأعناق الخيل وسوقها دلالة على اعترافه بالزلل إضافة إلى اعترافه القولي ، ودلّ هذا التصرف منه على إزالة كل توابع المعصية ، وقطع شر الفتنة التي دخلت قلبه من نعمة ربه .

* * *

الباب الثاني

مؤثرات الاعتراف

وفيه ثلاثة فصول :

الأول : سياقات الاعتراف .

الثاني : عناصر أساليب الاعتراف .

الثالث : خصائص أساليب الاعتراف .

الباب الثاني : مؤثرات الاعتراف

- **الفصل الأول : سياقات الاعتراف**
  - المبحث الأول : في الدنيا
  - المبحث الثاني : في الآخرة
- **الفصل الثاني : عناصر أساليب الاعتراف**
  - المبحث الأول : الشخصية
  - المبحث الثاني : الباعث
  - المبحث الثالث : النتيجة
- **الفصل الثالث : خصائص أساليب الاعتراف**
  - المبحث الأول : الموضوع
  - المبحث الثاني : الزمان والمكان
  - المبحث الثالث : المخاطب



الفصل الأول

سياقات الاعتراف

وفيه مبحثان :

الأول : في الدنيا .

الثاني : في الآخرة .



الفصل الأول

سياقات الاعتراف

جرى الاعتراف بالزلل ابتداءً في بعض الآيات كما جرى بين طرفين في آياتٍ أخرى ، وقد صنفت مباحث الفصل بحسب السياقات الواردة في الآيات التي جرى فيها الاعتراف بالزلل محادثة بين طرفين إلى :

- سياقات دنيوية ، في المبحث الأول .
- سياقات أخروية ، في المبحث الثاني .

ولعل من الأهمية أن أحرر تعريفًا لعنواني المبحثين ليكون ما يورد تحتهما من شواهد بيّنًا .

أولاً : أقف على دلالة الشق الأول لأهميته في العنوانين :

معنى (السياق) :

السياق لغة من (س و ق) ، مصدر من ساق يسوق سوقًا وسياقًا ، وانساق ، أي : تتابع وتقاود[1] .

وقال الزمخشري : « ومن المجاز . . . هو يسوق الحديث أحسن سياق ، وإليك يساق الحديث ، وهذا الكلام مساقه إلى كذا ، وجئتك بالحديث على سوقه ، أي : على مراده »[2] .

---

(١) لسان العرب ، ابن منظور :١١/٥٥٢ ، مادة (سَ وَ قَ) .

(٢) أساس البلاغة : ٣١٤ ، مادة (سَ وَ قَ) .

وقال ابن فارس : « السين والواو والقاف أصل واحد بمعنى : حدو الشيء ،.. والسوق مشتقة من هذا لما يساق إليها كل شيء » [1] .

وقد أشار الشافعي إلى أحد نوعي السياق وهو (سياق النص) وإن لم يسمه بالمصطلح المعروف في عصرنا[2] ، حين قال : « وتبتدئ ـ أي العرب ـ الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره ، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله » [3] .

و(سياق النص) هو : « المقطع المتحد في الغرض »[4] .

أقسام دلالة السياق :

« دلالة السياق تنقسم قسمين :

١- سياق المقال : ويُعنى به : السِّباق واللِّحاق .

٢- سياق الحال (المقام) : ويُعنى به ما يصاحب النص من أحوال ، وعوامل خارجية لها أثر في فهمه كحال المتكلم ، والمخاطب ، والغرض الذي سيق له . . . » [5] .

وهو بتقسيمٍ آخر حسب لسانيات الخطاب يكون من ناحيتين :

« الأولى : توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك ، والسياق من هذه الزاوية يسمى (سياق النص) .

والثانية : توالى الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي ، وكانت ذات علاقة بالاتصال ومن هذه الناحية يسمى السياق (سياق الموقف) .

---

(١) مقاييس اللغة ، ابن فارس : ١١٧/٣ ، مادة (سَ وُ قَ) .
(٢) الدلالات السياقية للقصص القرآني ، بوزيد رحمون : ٢٨ .
(٣) الرسالة : ٥٢ .
(٤) الدلالات السياقية للقصص القرآني ، بوزيد رحمون : ١٥ .
(٥) السياق القرآني وأثره في التفسير ، عبد الرحمن المطيري : ٦٥ .

ويعد مصطلح (السياق) في الدراسات اللغوية الحديثة من المصطلحات العصية على التحديد الدقيق وإن كان يمثل نظرية دلالية من أكثر نظريات علم الدلالة (Semantics) تماسكًا وأضبطها منهجًا » [1] .

وقد عرّف سامي العجلان السياق اصطلاحًا بقوله : « النظم التركيبي للكلام الذي يوجه دلالة الكلمات والجمل والفقرات بناءً على موقعها من النص ، واستنادًا إلى العلاقات المعنوية بينها ؛ بما يتفق في النهاية مع الغرض العام للكلام ، ومع جملة الظروف الخارجية المصاحبة له » [2] .

ودراستي في هذا الفصل تشمل القسمين معًا ، سياق الحال أو الموقف بحسب تصنيف المباحث إلى ما ورد في الدنيا ، وما ورد في الآخرة ، وسياق المقال أو النص بحسب ما يرد فيها خاصًّا لكل آية ، أو يضم مجموعة من الآيات في سياق واحد .

أثر السياق :

قال عبد القاهر الجرجاني : « إذا كان الوصف الخاص بالكلام والمعنى مقوِّم ذاته وأخص صفاته كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر ، وبه أولى وأجدر ، ومن ههنا يبين للمحصل ويتقرر في نفس المتأمل ؛ كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ، ومن البين الجلي أن التباين في هذه الفضيلة والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ ، كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصًّا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدًّا كيف جاء واتفق ، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بُنِي ، وفيه أفرغ المعنى وأُجْرِي ، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد ،

---

(١) أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ، محمد سالم : ١ .

(٢) الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية : ٥٥ .

وبنسقه المخصوص أبان المراد ؛ أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان »[1] .

وقال الزركشي فيما يُعين المفسِّر على ترجيح المعنى الصحيح : « وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها ، واستعمالها بحسب السياق »[2] .

ولاشك أن للسياق « كيانًا لغويًّا يتشكّل في جملة العلاقات المعجمية ، والصوتية ، والتركيبية التي تصف النص بالالتحام ، أو الاتساق ، أو التماسك ، سواء من حيث بنيته الداخلية ، أم مع الموقف الذي يقال فيه ، هذه العلاقات التي إن تجسدت ، تحققت صفة الاتساق بينها وبين النص وهيّأت النظام بينها »[3] .

يظهر أثر السياق في تعدُّد معنى الكلمة ، إذ تتعدد بالتالي احتمالات القصد منها ، فيقوم « السياق ووضع الكلمة في موقعها داخل التركيب اللغوي بتحديد دلالة الكلمة تحديدًا دقيقًا مهما تعددت معانيها ، ويصرف ما يُدّعَى من التباس ، أو إبهام ، أو غموض في الدلالة بسبب هذه الظواهر »[4] ، فلا يمكن بحال نكران تأثير دلالة سياق النص اللغوي وسياق الموقف ، الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، ولا يُنكر أن دلالة السياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة بمفرداتها نفسها إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة ، تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه[5] .

---

(١) أسرار البلاغة : ٢ ، وقد أفاض الجرجاني في نظرية النظم في كتابه (دلائل الإعجاز) : ٨٠ ، ٨١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ١٧٢/٢ .

(٣) الدلالات السياقية للقصص القرآني ، بوزيد رحمون : ١ .

(٤) أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ، محمد سالم : ١ .

(٥) ينظر : السابق : ٤ .

السياق القرآني :

حرّر تعريفه عبد الوهاب الحارثي بقوله : « السياق قد يضاف إلى مجموعة من الآيات التي تدور حول غرض أساسي واحد ، كما أنه قد يقتصر على آية واحدة ، ويضاف إليها ، وقد يكون له امتداد في السورة كلها ، بعد أن يمتد إلى ما يسبقه ويلحقه ، وقد يطلق على القرآن بأجمعه ، ويضاف إليه ، بمعنى أن هناك : سياق آية ، وسياق النص ، وسياق السورة ، والسياق القرآني ، فهذه دوائر متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى »[(١)] .

فانقسم السياق القرآني إلى أربعة أنواعٍ [(٢)] ، وهي :

الأول : سياق الآية .

الثاني : سياق النص (المَقْطَع) .

الثالث : سياق السورة .

الرابع : السياق العام للقرآن .

الفرق بين السياق والمقام :

قد تتداخل بين المفهومين المعاني ، ولكِنْ بينهما خصوص وعموم ، فالمقام أعم ، والسياق أخص ، فيتعاضد سياق الموقف مع سياق النص ليشكل المقام ، « ولا يخفى على كل ذي نظر أن للمقام سلطته في توجيه الكلام ، سواء أكان ذلك على مستوى الموضوع ، أم على مستوى المخاطب ، وسلطة المقام هذه تقتضي مجيء الكلام والخطاب على وجه دون آخر ، أي : تقتضي سبيلاً يُقصد به الكلام دون غيره لملاءمته لمقتضى الحال ، . . .والحال هو المقام الذي يدعو المتكلم أن يختار للكلام الذي يؤدي به أصل المعنى المراد خصوصيةً ما ، تكون هي مقتضى هذا الحال أو ذلك المقام ، والخصوصية هي النكتة

(١) دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم : ٨٨ .

(٢) ينظر : السياق القرآني وأثره في التفسير ، عبد الرحمن المطيري : ١٠٤ .

أو المزية التي تكون في الكلام ، أي بصورة من الصور المتشابهة لنظم الكلام ، أو الوجه من الوجوه المتشابهة لتعلق أجزاء الكلام بعضها ببعض ، أما السياق فهو السياق اللفظي ، وقد يكون سياقًا سابقًا ، وهو الأكثر في التأثير ، وقد يكون لاحقًا »[1] .

* * *

ثانيًا : تحرير عنوان المبحثين :

- الدنيا :

ولا يخفى أن الدنيا هي الحياة الأولى التي تكون فيها الأعمال ، ويكون فيها الابتلاء ، و« سميت الدنيا لدنوها ؛ ولأنها دنت وتأخرت الآخرة »[2] .

وعرضتُ في المبحث الخاص بسياقاتها كل ما يكون في عالم الغيب ، أو في عالم الشهادة من الاعترافات التي تسبق الآخرة .

- الآخرة :

هي الحياة الأخرى التي يكون فيها الحساب على الأعمال ، وتبدأ بموت ابن آدم ، ودليل ذلك ما ورد عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان إذا وقف على قبرٍ يبكي حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكي ، وتبكي من هذا؟ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه »[3]، ويدخل في أول مراحل الآخرة قبض الروح وتمّ تحرير ذلك [4] .

---

(١) متشابه الفواصل القرآنية ، دكتورة سارة البديع : ٣٨٢ .

(٢) لسان العرب ، ابن منظور : ٢١٧/١٤ ، مادة (دَ نَ ا) .

(٣) رواه ابن ماجه بلفظه في سننه ، باب : ذكر الموت والبلى ، (رقم الحديث : ٤٢٦٧) ، والترمذي في سننه ، كتاب : الزهد ، باب : ما جاء في ذكر الموت (رقم الحديث : ٢٣٠٨) ، وحسّنه الألباني في الجامع الصغير : ٣٤٧/١ .

(٤) ينظر : ص ٣٤٣.

وفي مبحث سياقات الاعتراف في الآخرة أدرس أمثلة على السياقات التي تكون عند قبض الروح ، وما يأتي بعدها من أحداث القيامة .

ودراسة السياقات فيهما تعني : الوقوف عند السياق المرتبط بآية الاعتراف (سياق المقطع) [1] من التفاسير ، ثم إظهار أثر ذلك في بلاغة اللفظ المعجز في النصوص ، من حيث المعنى وتخصيص جملة الاعتراف دون غيرها .

وفي سياق المقطع يقول محمد دراز : « لماذا نقول : إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا ، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان ، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما ، كما يلتقي العظمان عند المفصل ، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائح تحيط بهما عن كثب ، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب ، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين ، وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًّا ، كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا ، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد ، مع اختلاف وظائفه العضوية » [2] .

* * *

(١) ينظر : ص ٣٤٣ .

(٢) النبأ العظيم : ١٤٠ .

المبحث الأول

سياقات الاعتراف في الدنيا

السياق الدنيوي يُلزم طريقة الاعتراف ، ويضبط ألفاظه ، وله بالغ الأثر فيما سيظهر على شخصية المُعترف في الفصل الذي يليه في المبحث الأول منه إن شاء الله[١] .

وفي تدبر الآيات ، وما فيها من ترابط بديع أستحضر درر ابن عاشور حين قال : « جاء القرآن بأسلوب في الأدب غض جديد صالح لكل العقول ، متفنن إلى أفانين أغراض الحياة كلها معط لكل فن ما يليق به من المعاني والألفاظ واللهجة : فتضمن المحاورة والخطابة والجدل والأمثال ، أي : الكلم الجوامع والقصص والتوصيف والرواية ، وكان لفصاحة ألفاظه وتناسبها في تراكيبه ، وترتيبه على ابتكار أسلوب الفواصل العجيبة ، المتماثلة في الأسماع ، وإن لم تكن متماثلة الحروف في الأسجاع ، كان لذلك سريع العلوق بالحوافظ خفيف الانتقال والسير في القبائل ، مع كون مادته ولحمته هي الحقيقة دون المبالغات الكاذبة والمفاخرات المزعومة ، فكان بذلك له صولة الحق وروعة لسامعيه ، وذلك تأثير روحاني وليس بلفظي ولا معنوي »[٢] .

وقد ظهر الاعتراف في الأقوال المحكية في سياقاتها الدنيوية بطريقة المحاورة ، وسأعرض لبيانها مع الوقوف عند أمثلة الشواهد التي يبرز معها أثر السياق في الصفحات التالية ، مُؤْثِرةً الاختيار منها حسب ترتيبها في المصحف ،

---

(١) ينظر : ص ٣٩٧ .

(٢) التحرير والتنوير :١/١١٩ .

وفقاً لما تنكشف فيه طريقة المحاورة ، واقتصرت على ثلاثة فيما تزيد شواهده عن ذلك ، وإن كانت أقلّ منه فتشملها الدراسة .

المحاورة :

أصل المادة اللغوية التي جاءت منها كلمة (الحوار) هي : « ح و ر ، والمحاورة المجاوبة ، والتحاور التجاوب ، وتقول : كلّمته فما أحار إلي جوابًا ، وما رجع إلي حويرًا ، ولا حويرة ، ولا محورة ، ولا حوارًا ، أي : ما رد جوابًا ، واستحاره : أي استنطقه »[(١)] .

قال الأصفهاني : « المحاورة والحوار : المرادّة في الكلام » [(٢)] ، وأورد الفيروزآبادي أن الحوار بفتح الحاء أو كسرها يعني : « مراجعة النطق ، وتحاوروا : تراجعوا الكلام . . . ، والتحاور هو التجاوب » [(٣)] .

و الحوار تفاعلٌ حيّ ، متغيّر الطَّبع ، « قد يكون مسموعًا أو ملفوظًا ، وهو الغالب عليه أن يكون مكتوبًا أو إشاريًّا ، وكما يكون الحوار تجاوبًا ، وتواصلاً بين شخصين ، أو بين شخص وجماعة ، يكون تجاوبًا داخليًّا مع الذات أيضًا »[(٤)] .

وقد صُنِّفت **سياقات (المحاورة)** بحسب موضوعاتها في الشواهد المُختارة إلى سياقين :

١- سياق محاسبة .

٢- سياق معاتبة .

(١) لسان العرب ، ابن منظور : ٢١٧/٤ ، مادة (حَ وَ رَ) .

(٢) المفردات في غريب القرآن : ١٣٥/١ .

(٣) القاموس المحيط : ٤٨٨/١ ، مادة (حَ وَ رَ) .

(٤) أسلوب الحوار في القرآن الكريم ، إدريس أوهنا : ١٨ .

الأول : من سياقيْ المحاورة :

- **سياق المحاسبة ،** وفيه :

١- محاسبة النفس .

٢- محاسبة الطرف المخطئ .

*   *   *

معنى المحاسبة :

معنى المحاسبة : «عدّك الشيء»[1] ، و «حاسَبْته ، مُحاسبةً وحِسابًا . . . واحتسب فلان على فلان : أنكر عليه قبيحًا عَمِله»[2] .

١- محاسبة النفس :

حوار النفس من أصدق أنواع الحوار ، ففيها يستسلم الإنسان أمام مرآة ذاته ، وتغيب عنه أنظار الناس فيكون مستفردًا بيقينه ، منقطعًا عن مؤثرات البشر ، واتهاماتهم التي قد تمس صدقه ، وشفافية إحساسه .

وليس هيّنًا أن يعترف الإنسان بخطئه أمام نفسه ، ويكون المرء حينها قد بلغ درجةً عاليةً من النضج حين يقر بأخطائه ، وأمثلة ذلك :

١- اعتراف قابيل في قول الله تعالى : ﴿ **فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ** ﴾ (المائدة: ٣١) .

السياق :

في قصة ابني آدم عليه السلام «تبيين وخيم عاقبة البغي ، والحسد ، والظلم ، في خبر ابني آدم عليه السلام لِصُلبه وهما هابيل وقابيل ، كيف عدا أحدهما

---

(١) لسان العرب ، ابن منظور : ٣١٠/١ ، مادة (حَ سَ بَ) .

(٢) جمهرة اللغة ، ابن دريد :١١٤/١ ، مادة (حَ سَ بَ) .

على الآخر ، فقتله بغيًا عليه وحسداً له ، فيما وهبه الله من النعمة ، وتَقَبَّل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة» [1] .

أَثَـره :

لأن الاعتراف تعرية الزلل أمام صاحبه ، فيكتشف أن جرمه شلّ تفكيره بدءًا فأقدم على الجريمة ، قال البقاعي في ذلك : «لما كان هذا الوعظ جديرًا بأن يكون سببًا لطاعة الله وزاجرًا للإنسان عن معصية الله ، بيّن تعالى أن ابن آدم هنا قسا قلبه ، فجعله سببًا لإقدامه ، فقال ـ مبيّنًا بصيغة التفعيل ـ إذ القتل لما جعل الله له من الحرمة ، وكساه من الهيبة لا يقدم عليه إلا بمعالجة كبيرة من النفس : ﴿ **فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ** ﴾ فعالجته نفسه معالجةً كبيرةً وشجعته ، وسهّلت له بما عندها من النفاسة على زعمها حتى غلبت على عقله ، فانطاع لها وانقاد فأقدم عليه ؛ وتحقيق المعنى أن من تصور النهي عن الذنب العقاب عليه امتنع منه ، فكان فعله كالعاصي عليه ، ومن استولت عليه نفسه بأنواع الشبه في تزيينه صار فعله له وإقدامه عليه كالمطيع له الممكن من نفسه بعد أن كان عاصيًا عليه نافرًا عنه ، ثم سبب عن هذا التطويع قوله : ﴿ **فَقَتَلَهُۥ** ﴾» [2]، ثم لم يتمكن من تدبير دفن أخيه ، «فتحير في أمره ، ولم يدر ما يصنع به ، إذ كان أول ميت من بني آدم عليه السلام ، فبعث الله غرابين فاقتتلا ، فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ، ورجليه ، ثم ألقاه في الحفرة» [3] .

وسبحان من هدى الغراب لهذا السلوك! «وكأنّ اختيار الغراب لهذا العمل إمّا : لأنّ الدفن حيلة في الغِربان من قبلُ ، وإمّا : لأنّ الله اختاره لذلك لمناسبة ما يعتري الناظر إلى سواد لونه من الانقباض بما للأسيف الخاسر من انقباض

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٨١/٣ .
(٢) نظم الدرر : ٤٤٧/٢ .
(٣) أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٣١٨/١ .

النفس ، ولعلّ هذا هو الأصل في تشاؤم العرب بالغراب» [1] ، فجاء مناسبًا للسياق التحذيري لبني آدم عليه السلام من مغبّة القتل وعمق الندم والحسرة التي يجنيها العبد في الدنيا والآخرة أن يكون النظم كما جاء بإحكامه ودقته[2] ، فجاءت ألفاظ الاعتراف على أتم تناسق مع السياق : ﴿ **يَٰوَيۡلَتَىٰٓ** ﴾ ، ﴿ **أَعَجَزۡتُ** ﴾ ، ﴿ **فَأُوَٰرِيَ** ﴾ ، فإن الويل ، والعجز والمواراة كلها ألفاظ بالغة في الوصف ، فاختيار (الويل) دون الحسرة أو اللهفة ، «وهي الكلمة التي تستعمل عند الداهية العظيمة لما نبهه ذلك ، متعجبًا متحيرًا متلهفًا عالمًا أن الغراب أعلم منه وأشفق ، منكرًا على نفسه» [3] ، ثم اختيار (العجز) دون الضعف أو غيره ، «فالعجز أصله التأخر عن الشيء ...، وصار في التعارف اسمًا للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة» [4] ، وقيل : «زوال القدرة عن فعل الشيء» [5] ، ثم اختيار (المواراة) دون التغطية أو الحجب ، فالمواراة من «وَاراهُ أي : أَخْفاه» [6] ففيها المبالغة في الاستتار ، فكانت المحاسبة قاسيةً على نفسه فجاءت ألفاظ الاعتراف مناسبةً لوصف ذلك : (الويل ، العجز ، المواراة) ، وكلها تصف فداحة الذنب المرتكب ، وتكشف ضعف نفس قابيل في تلك اللحظة[7] .

٢- اعتراف صاحب الجنة في قوله تعالى : ﴿ **وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدًا** ﴾ (الكهف:٤٢) .

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٧٣/٦ .

(٢) ينظر : ص١٧٤ ، ١٧٥ .

(٣) نظم الدرر ، البقاعي : ٤٤٨/٢ .

(٤) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٣٢٢/١ .

(٥) بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي :٤٥/١ .

(٦) السابق : ١٥٥٩/١ .

(٧) ينظر : ص ١٧٤، ١٧٥ .

السياق :

في قصة صاحب الجنة السياق هو الاعتبار بحال الدنيا ، وقدرة الله ، فكان الخطاب أول السياق «من الله جل وعلا لنبيه محمد ﷺ أن يضرب مثلاً للمشركين بالله ، الذين سألوه أن يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه بالرجلين اللذين جعل الله لأحدها جنتين »[١]، ثم جاء بسط القصة ، وما دار بين الصاحبين من المحاورة ، قال القرطبي : «هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ، ويستنكف عن مجالسة المؤمنين»[٢]، ونقل القرطبي عن الماوردي قوله مبيّنًا أثر السياق في ردّه ، فقال : «إن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً ، وسياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم» [٣] .

أَثَـره :

تدبّر تقلب أحوال الدنيا وبيان قدرة الله جل وعلا ، وعظمته ـ فيما كان من السياق الدنيوي ـ وكيف أثّر في تخيّر اللفظ ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ، والدنيا متقلبة الأحوال بين الشدة والرخاء ، والإنسان متقلب الحال بين الحزن والفرح ، كما حصل للرجل بعد الغنى انقلبت حاله إلى فقر ، نسأل الله السلامة والنجاة ، ثم ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ﴾ فيها أثر تقلب الدنيا فيتمنى هذا الكافر لو كان حاله الأولى على غير ما كانت عليه حتى يؤول أمره إلى خير ، ولم يكن له ذلك[٤] .

---

(١) جامع البيان ، الطبري : ١٨/ ٢٧ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٠/ ٤٠٩ .
(٣) السابق :١٠/ ٤٠١ .
(٤) ينظر : ص ٣١٣، ٣١٤ .

٣- اعتراف سليمان عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ (ص:٣٢-٣٥) .

السياق :

في قصة سليمان عليه السلام السياق هو الحديث عن الأنبياء عليهم السلام وقصصهم بما فيها من عبرة وتسلية للنبي ﷺ ، « فبعد تتميم قصة داود ، شُرِع في قصة ابنه سليمان عليهما السلام ، ومدحه »[١] ، « فوهب الله سليمان لداود وَلَدًا ، وأثنى تعالى عليه بأوصاف من المدح ، ثم ذكر الله عز وجل فتنة الخيل التي اعترضت سليمان عليه السلام : ﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ (ص:٣١) وأمر الخيل مقتضٍ أوبةً عظيمةً »[٢] .

أَثَـره :

كان لهذا السياق أثره في مبادرة سليمان عليه السلام لتصحيح زلله من خلال ألفاظ الاعتراف وقوّتها في : ﴿ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ﴾ ، ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ ، ﴿ فَطَفِقَ ﴾ ، ﴿ مَسۡحَۢا ﴾[٣] ، كما أن أثر السياق الدنيوي يبدو جليًّا في إمكانية أن يكون الاعتراف باليد حين ذبح الخيل لله تعالى تقربًا لقول الجمهور[٤] ، وتعبيراً عن التوبة والندم على فوات ذكر الله ، ثم عندما فُتن بإلقاء الجسد على كرسيّه اعترف بفتنته ، ودعا ثقةً بربه بمغفرةٍ وملك لا يكون لأحد من بعده ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا ﴾[٥] .

---

(١) غرائب القرآن ، النيسابوري : ٥/٥٩٣ .
(٢) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٤/٥٧٤ .
(٣) ينظر : ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .
(٤) ينظر : ص ٣٢٠ .
(٥) ينظر : ص ١٦٦، ١٦٧ .

٢- محاسبة الطرف المخطئ :

تتجلى في الأمثلة التالية :

١- اعتراف نسوة المدينة وامرأة العزيز في قول الله تبارك تعالى : ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (يوسف: ٥١-٥٣).

السياق :

في قصة يوسف عليه السلام « عندما جاء رسول الملك من عند يوسف عليه السلام بما أرسله إليه » [(١)] ، أخبر الله جل وعلا « أن الملك جمع النّسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال ما حُكي عنه في الآية مخاطبًا لهن كلهن » [(٢)] ، « وأراد يوسف عليه السلام أن يظهر الحق أمام الملك ، وعلى لسان من اتهمنه ، وتسببن في وضعه في السجن ظلمًا ، فكان عليه أن يرجع الرسول إلى الملك دون أن ينفذ أمر الملك ، وهذه من الأمور العظام بل ويعتبره الملوك تمردًا .

وليس هذا فحسب ، بل ويطلب أن يحقق الملك أولاً في قضيته ، فقال للرسول : ﴿ **ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ (يوسف: ٥٠) ، ثم حدد يوسف عليه السلام أطراف القضية للملك ، وبداية الخيط فيها ، ودلل عليهن ﴿ **ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾ ولكنه لم يسمِّهِنّ له ، وذلك ليبحث الملك ، وهذا الذي فعله يوسف أعطى لقضيته قوةً واهتمامًا لدى الملك .

---

(١) جامع البيان ، الطبري : ١٦/١٣٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤/٣٩٤ .

فعاد الرسول إلى الملك ، وقص عليه ما كان من يوسف عليه السلام ، فشعر الملك أن من يقول هذا الكلام ويرفض الخروج من السجن ، ووراءه خبر عظيم وشديد ، فأراد أن يعرف الحقيقة ، وبدأ يسأل عن حقيقة الأمر ، ومن هن النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، وبدأت تظهر الحقيقة أمام الملك» [1] .

أَثَـره :

تأمل اختيار لفظ (الخطب) في السياق مع مناسبة ألفاظ الحوار بعضه لبعض ، وتأديته للمعنى ، مع تأثير التعبير الوارد من أحد الأطراف في الحوار على الطرف الثاني (المعترف) .

فالسؤال من العزيز : ﴿ **مَا خَطْبُكُنَّ** ﴾ ، والخطب هو : «سَبَبُ الأمر» [2] ، وقيل : «الشأن أو الأمر صغر أو عظم» [3] ، وفي الآية : «الشأن المهم من حالة أو حادثة ، قيل : سمي خطبًا ؛ لأنه يقتضي أن يخاطِب المرء صاحبه بالتساؤل عنه ، وقيل : هو مأخوذ من الخُطبة ، أي يُخطب فيه ، وإنما تكون الخطبة في أمر عظيم» [4] ، وهذا استدعاء منه أن يعلمنه بالقصة [5] .وقال الزمخشري : «ما شأنكن؟ هل وجدتن منه ميلاً لَكُنَّ؟» [6] .

فكان جواب النسوة : ﴿ **حَـٰشَ لِلَّهِ** ﴾ ، «تعجبًا من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنه» [7] ، ثم جواب امرأة العزيز : ﴿ **ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ** ﴾ [8] .

---

(١) القول الفصل في قضية الهم بين يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، محمد حامد : ٦٧ .

(٢) العين ، الخليل : ٢٢٢/٤ ، مادة (خَ طَ بَ) .

(٣) لسان العرب ، ابن منظور : ٣٦/١ ، مادة (خَ طَ بَ) .

(٤) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٩٠/١٢ .

(٥) ينظر : البحر المحيط ، أبوحيان : ٣١٦/٥ .

(٦، ٧) الكشاف : ٤٥١/٢ .

(٨) ينظر : ص ٩٢ .

فأول الكلمات في صيغة الاعتراف ، هي الأكثر وقعًا عند المعترف ، والأبلغ بمعناها عند المُحاسب حيث يصل إليه الجواب بصورة متكاملة في لحظات ، ويكون الكلام المتبقي من الاعتراف للتأكيد أو توضيح الأمر ، وتبرير الموقف.

٢- اعتراف فتى موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا** ﴾ (الكهف:٦٣) .

السياق :

في قصة موسى عليه السلام السياق هو سؤاله الغداء من فتاه في رحلته للقاء الخضر ،[١] ﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا** ﴾ (الكهف:٦٢)، « وقال ذلك موسى عليه السلام بعد ما جاوز الصخرة ، حين ألقي عليه الجوع ليتذكر الحوت ، ويرجع إلى موضع مطلبه »[٢]، و« قيل : لم ينصب حتى جاوز الموعد ، فلما جاوزه ، وسار الليلة والغد إلى الظهر ألقي عليه الجوع والنصب ، وقيل : لم يعيَ موسى عليه السلام في سفرٍ غيره ، ويؤيده التقييد باسم الإشارة ﴿ **هَـٰذَا نَصَبًا** ﴾ »[٣] ، وقد نسي فتى موسى عليه السلام الحوت كما وصفَت الحادثة في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « . . . فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرب الحوت وموسى عليه السلام نائم فقال فتاه : لا أوقظه ، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره »[٤].

(١، ٢) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ٦٠/٨ .

(٣) أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٥٠٩/١ .

(٤) رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا** ﴾ (الكهف:٦١) ، (رقم الحديث : ٤٧٢٤) .

أَثَــره :

لا ريب أن سيّدًا متعبًا جائعًا من طول السفر يسأل فتاه الطعام لا يكون متقبّلاً التأخير في تحضيره ، فكيف إن كان الاعتذار بنسيان أساس الغداء وهو (الحوت) ! هذا السياق وهذه الظروف أثرت على طريقة اعتراف الفتى ، ومجيئها بطريقة (التمهيد للإقرار) بالزلل ، بدءًا بدلالة ﴿ **أَرَءَيْتَ** ﴾ وطريقة التشويق التي ابتدأ بها الفتى قاصًّا ما حدث قبل الاعتراف ، وانتهاءً بـ ﴿ **وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ** ﴾ ، ففي ذكر (الشيطان) مرتبطًا بنسيانه دلالات تعمّق أثر السياق الذي جاء ممهِّدًا للاعتراف بالزلل ، من تلك الدلالات :

- تهوين أمر الخطأ الصادر من الفتى (يوشع) عند سيده موسى عليه السلام .
- تعجّب الفتى من نسيان أمر عظيم مثل أمر الحوت أن يخبره لموسى عليه السلام ، فنسبه إلى الشيطان لأنه حريص على إضاعة الخير عند بني آدم .

٣- اعتراف موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا** ﴾ (الكهف:٧٤-٧٦) .

السياق :

في رحلة موسى عليه السلام مع الخضر بعد أن فرغ من إنكاره لأمر خرق السفينة توجّه للخضر باستنكارٍ آخرَ « بينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده ، فاقتلعه بيده فقتله » [(١)] ، فأنكر موسى عليه السلام للمرة الثانية على الخضر فعله[(٢)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ١٧٦/٥ .

(٢) ينظر : ص ٢٢٤، ٢٢٥ .



أَثَـره :

عندما غضب موسى عليه السلام لمقتل الغلام ونسي للمرة الثانية اتفاقه مع الخضر على الصبر من أجل العلم «كان جواب الخضر هذه المرة على نسق جوابــه السابق : ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴾ ، إلا أنــه زاد ما حُكي في الآية بكلمة : ﴿ **لَّكَ** ﴾ وهو تصريح بمتعلّق فعل القول ، وإذ كان المقول له معلوماً من مقام الخطاب كان في التصريح بمتعلق فعل القول تحقيقٌ لوقوع القول وتثبيتٌ له وتقوية ، والداعي لذلك أنه أهمل العمل به .

واللام في قوله : ﴿ **لَّكَ** ﴾ لام التبليغ[1]، وهي التي تدخل على اسم أو ضمير السامع لقولٍ أو ما في معناه ، نحو : قلت له ، وأذنت له ، وفسّرت له ؛ وذلك عندما يكون المقول له الكلام معلوماً من السياق فيكون ذكر اللام لزيادة تقوي الكلام وتبليغه إلى السامع ، ولذلك سميت لام التبليغ ، ألا ترى أن اللام لم يحتج لذكره في جوابه أول مرة ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴾ ، فكان التقرير والإنكار مع ذكر لام تعدية القول أقوى وأشدّ» [2] .

قال السكاكي : «قول الخضر لموسى عليه السلام في الكرة الثانية ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكَ** ﴾ بزيادة (لك)لاقتضاء المقام ، مزيد تقرير لما قد كان قدّم له من أنك لن تستطيع معي صبرا» [3] ، وصنّفها ابن الأثير من تأكيد المتصل بالمتصل حيث قال : «أكد الضمير في الثانية دون الأولى فقال في الأولى : ﴿ **أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ** ﴾ وقال في الثانية : ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ** ﴾ وإنما جي بذلك ؛ للزيادة في مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة على مرةٍ ، والوسم بعدم الصبرِ وهذا كما لو أتى الإنسان ما نهيته عنه فلمته وعنفتهِ ثم أتى ذلك مرة ثانيةٍ أليس أنك

---

(١) لام التبليغ هي اللام الجارة اسم سامع قول ، أو ما في معناه ، نحو : قلت له ، وفسرت له ، وأذنت له . ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ، المرادي : ١/١٥ .

(٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٦/٥ .

(٣) مفتاح العلوم : ١/١٢٥ .



تزيد في لومه وتعنيفه ؟ وكذلك فعل ههنا فإنه قيل في الملامة أولاً : ﴿ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ ﴾ ثم قيل ثانيًا : ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ ﴾ وهذا موضع يدق عن العثور عليه ببادرة النظر ما لم يعط التأمل فيه حقه »[1].

وكان أثر هذا العتب في اعتراف موسى عليه السلام ندماً واضحًا بعدما ذكر للخضر في المرة الأولى : « ﴿ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۢ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِي ﴾ فهذا شرط لازم ، والمسلمون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفَّى به ما التزمه الأنبياء ، والتُزِم للأنبياء ، وفي قوله تعالى : ﴿ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ يدل على قيام الاعتذار بالمرة الواحدة مطلقًا ، وقيام الحجة من المرة الثانية بالقطع »[2].

وفي قول موسى عليه السلام : ﴿ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ ما يُظهر أثر السياق في اقتباس المعاني ، مثل قول ابن عطية : « قد أَعذرت إلي ، وبلغت إلى العذر من قِبَلي ، ويشبه أن تكون هذه القصة أيضًا أصلاً للآجال في الأحكام التي هي ثلاثة ، وأيام التلوُّم ثلاثة ، فتأمله »[3] ، والتلوّم : « التنظّر للأمر تريده ، والتلوّم الانتظار والتلبث» [4] .

والثاني : من سياقيْ المحاورة :

- **سياق معاتبة** ، وفيه :

١- معاتبة الله تبارك وتعالى لأنبيائه عليهم السلام .

٢- معاتبة الله تبارك وتعالى لملائكته عليهم السلام .

٣- معاتبة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم .

---

(١) المثل السائر : ١٨/٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٢٢/١١ .

(٣) المحرر الوجيز : ٥٦١/٣ .

(٤) لسان العرب ، ابن منظور : ٥٥٧/١٢ ، مادة (لَ وَ مَ) .

معنى المعاتبة :

العُتْب : «بضم فسكون : هو الغضب الذي يحصل من صديق»[1] ، و«العُتْب والعتبان : لومك الرجل على إساءة كانت له إليك فاستعتبته منها ، ... والاستعتاب : طلبك إلى المسيئ أن يرجع عن إساءته» [2] ، و«العتب : الموجدة ، تقول : عتبت على فلان عتبًا ومعتبةً ، أي : وجدتُ عليه» [3] ، ومنه سُمّيت عتبة الباب بذلك لارتفاعها عن السهولة والانبساط من الأرض[4] .

وقد أورد ابن القيم كلامًا مهمًّا في نسبة العتب إلى الله ، حيث قال : «العتب منه على عبده ، والعتبى والإعتاب له من عبده ، والاستعتاب من العبد ومن الله ، فههنا أربعة أمور :

الأول : العتب وهو من الله تعالى ، فإن العبد لا يعتب على ربه فإنه المحسن العادل ، فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم ، ومن ظن من المفسرين خلاف ذلك غلط أقبح غلط .

الثاني : الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين : **فإعتاب الله عبده** إزالة عتب نفسه عن عبده ، **وإعتاب العبد ربه** إزالة عتب الله عليه والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي يزول بها عتب الله تعالى عليه .

الثالث : استعتاب وهو من الله أيضًا ، ومن العبد بالاعتبارين ، فالله تعالى يستعتب عباده ، أي : يطلب منهم أن يعتبوه ، ويزيلوا عتبه عليهم ، ومنه قول ابن مسعود : وقد وقعت الزلزلة بالكوفة ، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه ، والعبد يستعتب ربه ، أي يطلب منه إزالة عتبه .

---

(١) تاج العروس ، الزبيدي : ٣٠٨/٣ ، مادة (عَ تَ بَ) .
(٢) تهذيب اللغة ، الأزهري : ١٦٦/٢ ، مادة (عَ تَ بَ) .
(٣) مقاييس اللغة ، ابن فارس : ٢٢٦/٤ مادة (عَ تَ بَ) .
(٤) ينظر : السابق ، ٢٢٥/٤ ، مادة (عَ تَ بَ) .

الرابع : العُتبى ، وهي اسم الإعتاب ، فاشدد يديك بهذا الفضل الذي يعصمك من تخبيط كثير من المفسدين لهذه المواضع » [١] .

١- معاتبة الله تبارك وتعالى لأنبيائه عليهم السلام :

عندما يكون الحوار مع الله جل جلاله يتلذذ الأنبياء في بسط الحديث مع ربهم ، على الرغم من كون الحوار من طرفهم اعترافًا بالخطأ ، والذل والانكسار بادٍ على العبد غير أن المخاطب هو من ؟ هو الله جل جلاله ، فكان لسياق التخاطب مع الرب جل وعلا أثر في الصياغة ، وأثر في انتقاء العبارة المحكية ، وتأدب الأنبياء مع ربهم .

وشاهده في موضوع الدراسة اعتراف آدم عليه السلام وزوجه في قوله تعالى : ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٢٢،٢٣) .

السياق :

في قصة آدم عليه السلام بعد سياق خلقه وإخراج إبليس من موضعه من السماء لامتناعه من السجود له ، وطاعة الله في أمره ، أسكن الله آدم عليه السلام وحواء الجنة ، وأباح لهما الاستمتاع الرغيد بما فيها من الثمار والأشجار ، ومنعهما من الاقتراب من شجرة واحدة ، فجاءهما الشيطان في ثوب ناصح ، ووسوس له ولزَوْجه بالأكل منها ، فعصيا ربهما ثم تابا باعترافهما بذنبهما ، ودعائهما بالمغفرة [٢]، « فغفر اللّه لهما ذلك . . . ، هذا وإبليس مستمر على

---

(١) بدائع الفوائد : ٤/٩٨٧ .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٧/١٧٩ .

طغيانه غير مقلع عن عصيانه فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع ـ إذا صدرت منه الذنوب ـ اجتباه ربه وهداه ، ومن أشبه إبليس ـ إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي ـ فإنه لا يزداد من اللّه إلا بُعْدًا »[1].

وعن نسبة المعصية لآدم عليه السلام وحواء أو له وحده ورد توجيهٌ قيّم للشنقيطي بقوله : « في هذه الآية الكريمة سؤال معروف ، وهو أن يقال : كيف جعل سبب الزلة في هذه الآية وهو وسوسة الشيطان مختصًّا بآدم دون حواء قوله : {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ} مع أنه ذكر أن تلك الوسوسة سببت الزلة لهما معاً ؟

والجواب ظاهر ، وهو أنه بيّن في (الأعراف) أنه وسوس لحواء أيضاً مع آدم في القصة بعينها في قوله : {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ} فبيّنت آية (الأعراف) ما لم تبيّنه آية (طه) كما ترى ، والعلم عند الله تعالى »[2]، وقال ابن عاشور في توجيه ذلك أيضًا : « واقتصار الشيطان على التسويل لآدم وهو يريد أن يأكل آدم وحواء ؛ لعلمه بأن اقتداء المرأة بزوجها مركوز في الجبلة . . . وإثبات العصيان لآدم دون زوجه يدل على أن آدم كان قدوة لزوجه فلما أكل من الشجرة تبعته زوجه »[3] .

أَثَـره :

عندما وقعت المعصية من آدم عليه السلام وحواء ، وبدت لهما عوراتهما ، سارعا لسترها بورق الشجر ، وهذا بحد ذاته اعترافٌ منهما ، وجاء التعبير بـ(الطفق) ثم (الخصف) دون غيرهما[4] ، فقد كرّم الله نبيه عليه السلام بسكنى

(١) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٢٨٥ .

(٢) أضواء البيان :٢٢٦/٢١ .

(٣) التحرير والتنوير ، ٣٢٦/١٦ .

(٤) ينظر ص ٣١٨ ، ٣١٩ .



الجنة وسجود الملائكة ، فكان اعترافه وسرعة استجابته دليلَ استشعار عظمة المعصية مقابل فخامة التكريم .

ونلحظ أن العتاب في قصة آدم عليه السلام ورد استفهامًا ، وفيه لفظ (النهي): ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا ﴾ ، فجاء جواب أبي الأنبياء وزوجـه منكسرًا ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ ، تقديم الانكسار بين يدي الله ثم الاعتراف بالمعصية ، لم يكن في جوابهم :بلى نهيتنا ، بل المبادرة باسم الرب جل وعلا اعترافًا له بالمنة مع اختيار الفعل الدال على العصيان ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [1] .

* * *

٢- معاتبة الله تبارك وتعالى لملائكته :

كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٢) .

السياق :

في قصة خلق آدم عليه السلام كان السياق هو تذكير الله للناس بنعمة إيجادهم مجملة ، ثم فصّلها حيث عرّفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم ، ثم ذكّرهم بنبوة آدم عليه السلام ، وتاريخ تلك النشأة العجيبة ، وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة ، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشري ، إذ اختاره الله لخلافة الأرض ، وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم ؛ ليكون له كمال الامتنان[2] ، فأمر الملائكة بالسجود لآدم ،

---

(١) ينظر : ص ٣١٩ .

(٢) ينظر : النبأ العظيم ، محمد دراز : ٢٠٩ .

فقالوا : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ .

أَثَـره :

بعد أن كان هذا الزلل منهم « أرادوا أن يجيبوا بعدم العلم إلا ما علمهم ، فقدّموا بين يدي الجواب تنزيه الله اعتذارًا وأدبًا منهم في الجواب ، وإشعارًا بأن ما صدر منهم قبل يمحوه هذا التنزيه لله تعالى ، فقالوا : سبحانك » (١) ، وهنا يأتي أثر عبارة التسبيح ، وخصوصيتها لمن هو في مثل حالهم ، فكانت منهم « اعترافًا بالعجز والقصور ، وإشعارًا بأن سؤالهم كان استفسارًا ولم يكن اعتراضًا ، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان ، والحكمة في خلقة ، وإظهارًا لشكر نعمته بما عرفهم ، وكشفًا لهم ما اعتقل عليهم ، ومراعاةً للأدب بتفويض العلم كله إليه ، و(سبحان) . . .كـ :(معاذ الله) ، وقد أجرى علمًا للتسبيح بمعنى التنزيه . . . ، وتصدير الكلام به اعتذارٌ عن الاستفسار ، والجهل بحقيقة الحال ، ولذلك جعل مفتاح التوبة » (٢) ، « فكانت بهذه الكلمة توبتهم » (٣) ، وأثر السياق في استعمال أسلوب النفي والاستثناء تحقيقًا لتمام الانكسار لله ، وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

* * *

٢- معاتبة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم .

مثاله قصة موسى عليه السلام مع قومه حين عاتبهم على إخلاف العهد ، فاعتذروا له في قوله تعالى : ﴿ **فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ**

(١) البحر المحيط ، أبو حيان : ٢٩٧/١ .

(٢) أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٢٨٨/١ .

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم ، محمد بن عبد الوهاب :٩٤/١ .


عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾

(طه:٨٦-٨٧) .

السياق :

في قصة موسى عليه السلام السياق هو « إخبارٌ من الله تعالى بشأن موسى عليه السلام ، حين رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف ، بعد ما أخبره ربه بضلال قومه من بعده ، فكان في غاية الغضب والحَنَق عليهم ، وهو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ، وتَسَلّم التوراة التي فيها شريعتهم ، وفيها شرف لهم ، وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعْلَمُ كل عاقل له لب بطلان ما هم فيه ، وسخافة عقولهم وأذهانهم ؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفًا ، والأسف : شدة الغضب »(١) ، فما كان منهم حين رأوا هذا الغضب من موسى عليه السلام إلا أن اعترفوا(٢) .

أَثَـره :

تـأمّل مناسـبـة هــذا السيـاق للألفــاظ ، ﴿ **مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا** ﴾ ، ﴿ **مَوْعِدَكَ** ﴾ تسليم لموسى عليه السلام وتخيّر اللفظ الذي جاء في صيغة استجوابه لهم : ﴿ **فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى** ﴾ ، ﴿ **وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ** ﴾ أثر صيغة الفعل لما لم يسمّ فاعله في قراءة حفص في التبرؤ من الذنب ، ﴿ **فَقَذَفْنَٰهَا** ﴾ التعبير بالقذف في حقهم ، والإلقاء في حق السامري ﴿ **فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ** ﴾(٣) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤٧٦/٣ .
(٢) ينظر ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
(٣) ينظر ص ٣٢٨ .

ومن نتائج المبحث ما يأتي :

ظهر **أثر السياق في الشواهد** بتخيّر اللفظ وقوة دلالته على المعنى ، وبقاء هذا الأثر مع بقاء القرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ومن نتائج هذا الأثر ما يأتي :

سياق المحاسبة :

١- محاسبة النفس :

- في اعتراف قابيل بقتل أخيه بيان للمشقة التي لحقته بدءًا بنفسه حين طوّعت له هذا العمل ، ثم ما آل إليه اعترافه لنفسه بالعجز عن مشابهة حيوان عَقِلَ ما يصنع بجثة أخيه .
- في اعتراف صاحب الجنة حُكِي في قصته السياق الذي تمّ فيه اعترافه بدءًا بهلاك جنته وما كان من أثر ذلك على قلبه وجسده إذ تسبّب بألم شديد تذكّر فيه ما أنفقه من الجهد فيها وهو يراها خاوية أمام ناظريه بعدما كانت مورقة بهية ، فاعترف بتمنيه عدم الإشراك بالله ، وفي قصته مخاطبة للفطرة البشرية التي تَعتبِر بالنظر إلى مآلات الأمور عند الناس ، فكان في هذه القصة عبرة بإثارة معنى عدم الاغترار بالنعمة ، والميل إلى الدنيا ، وأهمية شكر الله على فضله حتى لا تتشابه العاقبة مع عمل صاحب الجنة ثم لا ينفع التمني حينئذ .
- واعتراف سليمان عليه السلام فيه تسلية للنبي ﷺ بما يتضمن سياق قصة سليمان عليه السلام من الانتباه إلى عدم الاشتغال بنعمة الله وعطاياه عن طاعته وذكره وشكره ، فقد تنبّه سليمان عليه السلام إلى هذا فما كان منه إلا أن بذلها في سبيل الله ، فشكر الله له ووهبه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده وأجاب دعاءه .

٢- محاسبة الطرف المخطئ :

- اعتراف نسوة المدينة وامرأة العزيز في الأحداث التي جرت في قصر الملك من إحقاق الحق بعدالة حتى ظهرت براءة يوسف عليه السلام ، وانكشفت الحقيقة الغائبة لسنوات ، مما يعطينا عبـرة مفـادهـا : إن مـرور السنـوات لا يعني الغياب عن نظر العدل سبحانه ، وإن الظلم لابد أن تنكشف حقيقته يومًا ويقتص منه وتكون عاقبته اعترافًا مريرًا .
- في قصة موسى عليه السلام واعتراف فتاه بنسيان الحوت كان الاعتراف ناتجًا عن سؤال موسى عليه السلام له أن يأتيه بالغداء فظهرت حينئذ أحداث النسيان وغرابة ما جرى للحوت والعودة إلى المكان الذي نُسِي فيه مما أسفر عن ملاقاة الخضر ، وهذا يطبع في القلوب أن الاعتراف بالزلل يجرّ على الإنسان محامد جمّة ، ليس كما يتوّقع من الخسائر مما يشجّع على فضيلة الاعتراف بالزلل .
- في اعتراف موسى عليه السلام للخضر باستعجاله في سؤاله عن قتل الغلام ، ثم اعتذاره بأحقية قطع الصحبة لأجل ذلك إن تكرر الأمر في المرة الثالثة ، وفي هذا السياق عبرة لكل مخطئ أن يعترف ولو بأقل ما يرتكبه عند صدور ذلك منه .

سياق المعاتبة :

- **معاتبة الله لأنبيائه عليهم السلام** متمثّلاً هذا السياق في قصة آدم عليه السلام حيث كان من العبد الراجي عفو ربه الإذعان فور العلم بما وقع منه ، ثم جاءت المعاتبة من الله محرّكة لدافع التوبة والطاعة والامتثال للأمر التالي الجديد الذي هو الهبوط إلى الأرض ، وأثر ذلك في بقاء هذه المعاتبة في نفس الإنسان حتى تستقيم حياته ويتجنب طرائق الشيطان .

- **معاتبة الله لملائكته الكرام عليهم السلام** فيه يظهر أثر الأدب مع الله عز وجل والخشية من غضبه وسؤاله ما ليس لهم به علم ، وهذا السياق حري أن يتمثله العبد المؤمن في حياته فينجو في الدارين .
- **معاتبة الأنبياء لأقوامهم** متمثّلةً في عتاب موسى عليه السلام لقومه ظهر فيها الهمّ الدعوي وعِظم أمر الرسالة التي يحملها النبي الكريم وثقل ذلك يلحق كل من سار على نهج الأنبياء عليهم السلام وهنا يتجلّى الأثر المستمر لهذا السياق على مر الزمن .

وقد تميّزت ألفاظ كل سياق من سياقات الدنيا بميّزات أظهرت خصوصية السياق وانسجام الاعترافات فيه وهي :

مميزات ألفاظ الاعتراف في سياق المحاسبة :

- محاسبة النفس :

- اللوم فاض بشكل واضح ، وصراحة مستفيضة بين الإنسان ونفسه ظهرت من الاعتراف : ﴿ **يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ** ﴾ (المائدة:٣١) ، ﴿ **يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ** ﴾ ، ﴿ **إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي** ﴾ (ص:٣٢) .
- العدول عن المضارع إلى التعبير بالماضي ﴿ **أَعَجَزۡتُ** ﴾ ، ﴿ **أَحۡبَبۡتُ** ﴾ وفي هذا العدول يذكر الدكتور ظافر العمري الحكمة فيقول : « يتبين أن للمقام أثراً في بيان دلالة الصيغة في السياق ، إذ يساعد المقام على توجيه دلالة الصيغة ، إذ إن التحقق الذي تفيده صيغة المضي لا يهمل لأن استعمال الصيغة في معناها المجازي ، إنما هو لأجل التحقق ، فإذا استعمل الماضي في مثل هذه المقامات من مدح أو ذم استلزمت صيغة المضي معنى الاستمرار الذي هو في الأصل مدلول المضارع » [1] ، ثم التعبير بالمضارع في ﴿ **يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ** ﴾ لدلالة الاستمرارية في الفعل والتجدد .

---

(١) بلاغة القرآن الكريم دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل :٢٩٠ .

- **محاسبة الطرف المخطئ :**

- ظهور الزلل بمقدمات وتمهيد ؛ لأن المُخطئ هنا محاسَب لا مُحاسِب لنفسه ، مثل : ﴿ **حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ** ﴾ (يوسف:٥١) ﴿ **أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ** ﴾ (الكهف:٦٣) ، ﴿ **إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا** ﴾ (الكهف:٧٦) ، فيبرز تقديم التعجب ثم التلميح بالإجابة في اعتراف نسوة المدينة ، وتقديم نتيجة سنوات الصبر في اعتراف امرأة العزيز ثم تصريحها بفعلتها ، وتقديم إجابة للخضر تريحه في رحلة محفوفة بالعناء قبل تقديم العذر والاعتراف بالاستعجال وكثرة التساؤل من موسى عليه السلام .

مميزات ألفاظ الاعتراف في سياق المعاتبة :

- في سياقات المعاتبة من الله للملائكة والأنبياء عليهم السلام يُترك التبرير والاعتذار عن الخطأ إلى المسارعة للتوبة ودعاء الله المغفرة عمّا بدر ، وهي صورة للخضوع والذل بين يدي الله عز وجل .

- وأما سياقات معاتبة الأنبياء لأقوامهم يكون فيها التبرير ومحاولة تغيير موقف النبي إلى الرضا عبر امتصاص غضبه ، ثم الاعتذار عن الخطأ بإحالته خارج دائرة الشعور ، بأن يكون غير مقصود ، أو غير مُتحكَّمٍ فيه ، كما حدث من قوم موسى عليه السلام .

* * *

المبحث الثاني

سياقات الاعتراف في الآخرة

سياق الآخرة بأهواله ومراحله له هيبة تجعل المتكبر خاضعًا ، والمكابر معترفًا ، منكسِراً ، بعد عهدٍ دنيوي طويل من التكبر ، فقد حانت لحظة الكسر الذي لا يُجبر ، فكان لدراسة سياق الآخرة أثرٌ في ظهور بلاغته على الاعتراف .

وفيه مطلبان :

١- سياق المجادلة .

٢- سياق الخصومة .

* * *

سياق المجادلة :

معنى (المجادلة) :

إذا كان الحوار هو ما تمت الإشارة إليه في المبحث الأول من التجاوب والمرادّة في الكلام[1] ، فإن الجدال كما جاء في لسان العرب : «اللدد في الخصومة ، . . . ويقال : جادلت الرجل فجدلته جدلاً ، أي : غلبته ، وجادله : أي خاصمه ، مجادلةً وجدالاً ، والاسم (الجَدَل) وهو : شدة الخصومة ، والمجادَلة : المناظرة والمخاصمة»[2] .

---

(١) ينظر : ص ٣٤٨ .

(٢) ابن منظور : ١٠٣/١١ ، مادة (جَ دَ لَ) .

وردّ ابن فارس هذه الكلمة إلى أصلها فبين أن « الجيم والدال واللام أصل واحد ، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه ، وامتداد الخصومة ، ومراجعة الكلام »[1].

وقد ورد في الكتاب العزيز استعمال لفظ (الجدال) ، و« يجدر بنا أن نقف عنده لنتبين الفرق بينه وبين الحوار ، ففي قوله تعالى : ﴿ **قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ** ﴾ (المجادلة:١) ، تضمنت الآية اللفظين معًا ، ومن ثَمَّ تجدنا في هذه الآية أمام حقيقة وَصفت أول الأمر بأنه **جدال** ، ووَصفت الآخر بأنه **حوار** ، وذلك هو الأمر الذي لا غرابة فيه ، لقد جاءت المرأة تشكو زوجها ، وجاءت منفعلةً من الظِّهار الذي أُقسِم به عليها ، لكن هذا الموقف قد تغيّر ، وهدأت نفسها قليلاً بالحديث مع النبي ﷺ ، واطمأنت إلى قوله ، فتحول **الجدل** إلى **حوار** .

ومما يؤكد استقامة هذا الفهم وهذا التمييز بين الحوار والجدل ، هو كون الجدال في كثير من آي القرآن ورد مقيّدًا بضوابط وآداب :

في مثل قوله تعالى : ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ (النحل:١٢٥) .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾

(الزخرف:٥٧،٥٨) .

فانظر في هذه الآية الأخيرة كيف أن الله تعالى بجدالهم وصفهم بأنهم ﴿ **قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾ ، مما يعضد ويؤكد المعنى اللغوي للجدال ، ويجعلنا نستبين الفرق الواضح بينه وبين الحوار »[2] .

---

(١) مقاييس اللغة : ٣٨٧/١ ، مادة (جَ دَ لَ) .

(٢) أسلوب الحوار في القرآن الكريم ، إدريس أوهنا : ٢٠ ، ٢١ .

ونخلص إلى أن المجادلة عند اللغويين : « طريقة في التخاطب ومراجعة الكلام ، تستوجب وجود طرفين ـ على الأقل ـ يسعى كل منهما إلى إحكام حججه بما يضمن تحويل الخصم ، وفتله عن رأيه إلى غيره »[1] .

وجاء **سياق المجادلة** متمثلاً في :

١- مجادلة الكفار للملائكة عند قبض الروح .

٢- مجادلة الكفار في نار جهنم للملائكة الكرام .

١- مجادلة الكفار للملائكة عند قبض الروح :

مثاله قوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٣٧) .

السياق :

بعدما « أنذر الله تعالى بني آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته ، وبَشّر من اتقى ، وحذّر من كذّب . . . ، يقول تعالى في هذه الآية أن لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله ، أو كذب بآيات الله المنزلة ، ﴿ **أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ** ﴾ اختلف المفسرون في معناها ، فقال العَوْفي عن ابن عباس : ينالهم ما كُتب عليهم ، وكُتب لمن يفترى على الله أن وجهه مُسْوَدٌّ .

وقال ابن عباس : نصيبهم من الأعمال ، من عَمِل خيرًا جُزِي به ، ومن عمل شرًّا جُزِي به ، وقال مجاهد : ما وُعدوا به من خير وشر ، وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وغير واحد . واختاره ابن جرير »[2] ، بقوله : « وأولى هذه الأقوال

---

(١) حوارٌ أم جدل؟ دراسة مصطلحية لمفهومي الحوار والجدل ، دكتور عادل نور الدين : ٢٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٣/٤١٠ .

عندي بالصواب ، قولُ من قال إن معنى ذلك : أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ، مما كتب لهم من خير وشر في الدنيا ، ورزق وعمل وأجل ، وذلك أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ ﴾ ، فأبان بإتباعه ذلك قولَه : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ، أن الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كان مقضيًّا عليهم في الدنيا أن ينالهم ؛ لأنه قد أخبر أن ذلك ينالهم إلى وقت مجيء رسلِه لتقبض أرواحهم ، ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب ، أو مما قد أعدّ لهم في الآخرة ، لم يكن محدودًا بأنه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم ؛ لأن رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة ، وأن عذابهم في الآخرة لا آخر له ولا انقضاء ، فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه ، فبيِّنٌ بذلك أن معناه ما اخترنا من القول فيه »[1] .

ووَرجّح ابن كثير أن معنى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ عملهم ورزقهم وعمرهم[2]، وقال : « وهذا القول قوي في المعنى ، والسياق يدل عليه ، وهو قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ ﴾ ، . . .ويخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت ، وقَبْض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا ، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه! قالوا : ذهبوا عنا ، فلا نرجو نفعهم ، ولا خيرهم ، فأقــروا واعتـرفـوا على أنفسهم ﴿ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ »[3] .

فالملائكة تقول لهم ذلك في تلك الحالة « توبيخًا وعتابًا فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة ، فيكون ردهم : ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ اضمحلوا وبطلوا ، وليسوا مغنين عنا من عذاب اللّه من شيء »[4] .

---

(١) جامع البيان : ١٢/٤١٤ .

(٢، ٣) تفسير القرآن العظيم : ٣/٤١٠ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٢٨٨ .

أثره :

بقدر بشاعة الظلم الذي ارتكبوه ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ** ﴾ كان التوبيخ في حقهم في أكثر لحظات احتياجهم للأمن والسكينة ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ** ﴾ ، فكان جوابهم جواب الحائر الذليل ﴿ **ضَلُّواْ عَنَّا** ﴾ ، فتأمل هنا دقة اختيار لفظ (الضلال) دون سواه ، وتوجيه الضمير في الفعل ﴿ **ضَلُّواْ** ﴾ ، ولم يقولوا :ضللنا عنهم ؛ لأن السياق سؤال الملائكة عن تلك المعبودات ؛ ولإظهار ما تعمّق في نفوسهم أنها لا تنفع فهي من ذهبت واضمحلّت ، وكأنها صارت ذات عقلٍ يهدي ويضل ، وهم من فقدوا عقولهم حين اتبعوها [(١)].

* * *

٢- مجادلة الكفار في نار جهنم للملائكة الكرام :

مثاله قول الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ (غافر:٦٩-٧٦).

السياق :

عندما « بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه ، في قوله : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا** ﴾ (غافر:٦٧) ، فهو الذي يقلبكم في هذه الأطوار

---

(١) ينظر : ص ٨٣، ٨٤ .

كلها ، وحده لا شريك له ، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ، ... قال الله في هـذه الآيـات ألا تعجـب يـا محمـد مـن هـؤلاء المكـذبين بآيـات الله ، ويجـادلون في الحـق والباطـل ، كيـف تُصـرّف عقـولهم عـن الهـدى إلى الضلال؟ »[1] .

والعجب إجابتهم حين تسألهم الملائكة عن معبوداتهم : ﴿ **ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ (غافر:٧٣،٧٤) وهذا تقريع وتوبيخ ، ﴿ **قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا** ﴾ أي : هلكوا وذهبوا عنا ، وتركونا في العذاب ؛ من ضل الماء في اللبن أي خفي ، وقيل : أي صاروا بحيث لا نجدهم ، ﴿ **بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا** ﴾ أي : شيئًا لا يبصر ولا يسمع ، ولا يضر ولا ينفع ، وليس هذا إنكارًا لعبادة الأصنام ، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة »[2] ، فقد صوّروا فقدهم لما كانوا يرجونه من هذه المعبودات بـ(الضلال) في تأسّف شديد إذ هم « غابوا وضاعوا ، ولم يصل إلينا ما كنا نرجوه من النفع والشفاعة ، وأكدوا هذا المعنى بقولهم : ﴿ **بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا** ﴾ يعتدّ به كما تقول : حسبت أن فلاناً شيء فإذا هو ليس بشيء ، أي : ليس عنده خير ، . . .وكون الجميع في النار لا ينافي غيبة أحدهما عن الآخر »[3] .

ثم يأتي السياق اللاحق توبيخاً ، حين تقول لهم الملائكة : « إنما نالكم هذا بما كنتم تظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية ، وكثرة المال والأتباع والصحة ، وقيل : إن فرحهم بها عندهم أنهم قالوا للـرسـل : نحـن نـعـلـم أنا لا نبعث ولا نعذب »[4] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ١٥٧/٧ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٣٣٣/١٥ .
(٣) غرائب القرآن ، النيسابوري : ٤٣/٦ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٣٣٣/١٥ .

أَثَـرُه :

تأمل زيادة ﴿ **بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا** ﴾ في جدالهم في نار جهنم على سياق مجادلتهم للملائكة عند نزع الروح ؛ لأن المقامين مختلفان ، فعند نزع الروح يكون من الصعب في تلك الحال الزيادة في الكلام ، فقد تلقتهم الملائكة من العالم الغيبي الذي طالما كفروا به ، وصار استجوابهم ـ الذي أنكروه ـ عين اليقين ، فهم في هول صدمة لا يغني معها الاستعطاف ، فالكافر كما قال نبينا محمد ﷺ : « . . . إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرّق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، . . . » [(١)] ، نسأل الله السلامة ، بينما في مقام العذاب في نار جهنم تكون الصدمة الأولى والأقوى للكفار قد عُبرت ، ودخلوا مأواهم الأبدي ، فتسنى لهم توضيح اعترافهم بهذه العبارة ، لا لهون العذاب بل هو عسير شديد لكنهم قرّوا في دار خلودهم بعد العرصات ، فتزايدت هناك صرخاتهم ومحاولات تحننهم لبارئهم ، كما مرّ بنا من الآيات

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، في مسند الكوفيين من حديث البراء بن عازب ، (رقم الحديث : ١٨٥٣٨) ، ورواه الحاكم بلفظه في مستدركه ، كتاب : الإيمان ، (رقم الحديث : ١٠٧) ، ورواه البيهقي بنحوه في شعب الإيمان ، باب : دار المؤمنين ومآبهم الجنة ، ودار الكافرين ومآبهم النار ، فصل : مما يحق معرفته في هذا الباب أن يعلم أن الجنة والنار مخلوقتان معدتان لأهلهما ، (رقم الحديث :٣٩٠)، وصححه صهيب عبد الجبار في الجامع الصحيح للسنن والأسانيد :١٠٣/٢ .

في الباب الأول[1] ، ولعل في زيادة ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ إضافة حسرة على حسرتهم الأولى ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ (الأعراف:٣٧) فقد تأكد في مأواهم الأخير أن هؤلاء الذي أشركوهم مع الله لم يجدوا منهم نفعاً حتى دخلوا نار جهنم ، فاصطلوا بسعيرها ولازال أولئك عنهم غائبين فجاء تأكيدهم ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ ﴾ ، ولم يكن الاكتفاء بها حتى جاءت ﴿ شَيْـًٔا ﴾ مؤكدة على قدر الغبن الذي يعيشونه يومئذ[2] ، وهكذا ترك السياق الأخروي بصمته على الألفاظ ، وعلى تأكيد المعنى في هذا المقام والله أجل وأعلم .

* * *

سياق الخصومة :

معنى (الخصومة) :

قال ابن فارس : « خصم أصلان : أحدهما المنازعة ، والثاني : جانب وعاء »[3].

وقد جاءت (الخصومة) في السياقات الشرعية بنوعين :

١- محمودة : كما جاء أن النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت »[4].

٢- مذمومة : كما في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (الزخرف:٥٨)[5].

(١، ٢) ينظر : ص٨٣، ٨٤ .

(٣) ينظر : مقاييس اللغة : ١٨٧/٢ ، مادة (خَ صَ مَ) .

(٤) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : التهجد ، باب : التهجد بالليل ، (رقم الحديث : ١١٢٠) ، ومسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء في صلاة الليل وقيامه (رقم الحديث : ٧٦٩) .

(٥) ينظر : أصول الجدل والمناظرة ، دكتور حمد العثمان : ١٥ .

والاختصام في الاصطلاح هو : الجدل ، والاختلاف بالقول [1] .

وجاء **سياق خصومة الأتباع في الشواهد** متمثلاً في :

١- خصومة الأتباع بعضهم لبعض .

٢- خصومة الضعفاء للذين استكبروا في نار جهنم .

٣- خصومة صحبة السوء عند وضع الموازين .

وقد جاء ترتيب أنواع الخصومات تبعاً للأعم من المختصمين ثم الأخص ، مع مراعاة ترتيبها في المصحف .

* * *

١- خصومة الأتباع بعضهم لبعض :

في قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾ (البقرة:١٦٥-١٦٧) .

السياق :

خلق الله تبارك وتعالى عباده على الفطرة السوية ، مجبولة نفوسهم على محبته ، والإقرار له بالألوهية ، ولمّا « قرر للتوحيد الدلائل الباهرة في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ (البقرة:١٦٤)، عقّبها بتقبيح ما يضاده ، وبضدها تتبين الأشياء ، . . . » [2] ، قال السعدي : « ما أحسن اتصال

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٧/٢٢٨ .

(٢) غرائب القرآن ، النيسابوري : ١/٤٦١ .

هذه الآية بما قبلها ، فإنه تعالى لما بين وحدانيته ، وأدلتها القاطعة ، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين ، المزيلة لكل شك ، ذكر هنا أن ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أندادًا لله أي : نظراء ومثلاء ، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة ، والتعظيم والطاعة .

ومن كان بهذه الحالة ـ بعد إقامة الحجة وبيان التوحيد ـ عُلم أنه معاندٌ لله ، مشاقٌ له ، أو معرضٌ عن تدبر آياته ، والتفكر في مخلوقاته ، فليس له أدنى عذر في ذلك ، بل قد حقت عليه كلمة العذاب» [1] .

والله عز وجل يخاطب نبيه ﷺ : «ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب ؛ لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال ، ولاستعظمت ما حل بهم .

ودخلت (إذ) ـ وهي لما مضى ـ في إثبات هذه المستقبلات ؛ تقريبًا للأمر ؛ وتصحيحًا لوقوعه ، . . . وهو عام في كل متبوع ، ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ يعني التابعين والمتبوعين ، قيل : بتيقنهم له عند المعاينة في الدنيا . وقيل : عند العرض والمساءلة في الآخرة .

وكلاهما حاصل ، فهم يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان ، وفي الآخرة يذوقون أليم العذاب والنكال ، . . . ﴿ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴾ أي : الوصلات التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من رحم وغيره ، وواحده : سبب ووصْلة ، وأصل السبب : الحبل يشد بالشيء فيجذبه ، ثم جعل كل ما جر شيئًا سببًا » [2] .

وتأمّل اختيار (الأنداد) وهي تعني : «الأصنام التي اعتقد المشركون أنها تقربهم إلى الله زلفى ، ونذروا لها النذور ، وقربوا لأجلها القرابين ، وقيل : يعني

(١) تيسير الكريم الرحمن : ٧٩ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٢/٢٠٥ .

السادة الذين كانوا يطيعونهم ، وينزلون على أوامــرهــم ، ونواهيهـم محلـين ما حرم الله ، ومحرّمين ما أحل» [١]، والإشارة «هنا إلى تخاصم أهل النار» [٢].

فتخيّر لفظ (الند) في الآية دون الشبيه والمثيل ؛ لأن (الند) كما أخبر الراغب : «هو المشارِك في الجوهر ، وذلك ضربٌ من المماثلة ، فإن المِثل يقال في أي مشاركة كانت ، وليس كل مِثل نِدًّا» [٣] ، ثم أضاف الراغب في (مِثل) قوله : «والمماثلة أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، وذلك أن (الند) يقال فيما يشارك في الجوهر ، و(الشبه) فيما يشارك في الكيفية فقط ، و(المساوي) فيما يشارك في الكمية فقط ، و(الشكل) فيما يشارك في القدر والمساحة ، و(المِثل) عام في جميع ذلك» [٤] .

وأضافت بنت الشاطئ : «كأنّ البيان القرآني في عدوله عن الأشباه والأمثال إلى (أنداد) لم يرد أن يعطيها صفة المشابهة والمماثلة ، والله أعلم » [٥] .

تأمل تخيُّر لفظ (الحُب) لهؤلاء الأنداد دون مرادفاته ، ففيه تعميق أثر السياق على ألفاظ الاعتراف بعدها ، إذ المحبة : «ميل القلب من الحب استعير لحبة القلب ، ثم اشتق منه الحُب ؛ لأنه أصابها ورسخ فيها ، ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه ، ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة ، وصونه عن المعاصي » [٦] .

واختلف المفسرون في تحديد معنى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ ، فذهب ابن كثير إلى أن المراد كل متبوع من الملائكة ، والجن ، وغيرهم [٧] ،

---

(١) غرائب القرآن ، النيسابوري : ٤٦١/١ .

(٢) أضواء البيان ، الشنقيطي : ٧٢/٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن :٤٨٦/١ .

(٤) السابق :٤٦٢/١ .

(٥) الإعجاز البياني للقرآن ، دكتورة عائشة بنت عبد الرحمن : ٣٥٩ .

(٦) أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٤٤٠/١ .

(٧) تفسير القرآن العظيم : ٤٧٧/١ .

وقال الطبري ـ وعلى كلامه أفردتُ هذا القسم من المخاصمة ـ : « الصواب من القول عندي في ذلك ، أنّ الله تعالى ذكره أخبرَ أنّ المتَّبَعين على الشرك بالله يتبرأون من أتباعهم حين يعاينون عذاب الله ، ولم يخصص بذلك منهم بعضًا دون بعض ، بل عَمّ جميعهم ، فداخلٌ في ذلك كل متبوع على الكفر بالله والضلال أنه يتبرأ من أتباعه الذين كانوا يتَّبعونه على الضلال في الدنيا ، إذا عاينوا عَذابَ الله في الآخرة ، . . . وأن (الأنداد) في هذا الموضع ، إنما أريد بها الأندادُ من الرجال الذين يُطيعونهم فيما أمرُوهم به من أمر ، ويَعصُون الله في طاعتهم إياهم ، كما يُطيع اللهَ المؤمنون ويَعصون غيره . . . ؛ لأن هذه الآية إنما هي في سياق الخبر عن مُتخذي الأنداد »[1] .

وقد جاء في الآيات الفعل الذي جعل الأتباع يتمنّون التبرؤ من المتبوعين ، وهو فعل (التبرؤ) ذاته ، دون تحديد كيفية وقوعه في سياق الآيات هنا ، وهو : « تكلف البراءة ، وهي التباعد من الأمر الذي من شأن قُرْبه أن يكون مضرًّا ، ولذلك يقال : تبّاراً إذا أبعد كلٌّ الآخر من تبعةٍ محققة أو متوقعة »[2] .

أَثَـرُه :

نلحظ في كلام القرطبي والطبري ، كيف أثّر السياق في ترجيح المعاني عندهم ، ومن المعنى الصحيح تنبع البلاغة والبيان ، وبعده تكون تأملاتٌ خصوصية اللفظ ، ومناسبته للمقام .

فبعدما جاء سياق الخصومة في انقطاع كل رجاء ونفع لهؤلاء الأتباع في نار جهنم ، بجملة في منتهى البلاغة تمثيلاً لهذا الانقطاع : ﴿ **وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ** ﴾ ، « والتقطع : الانقطاع الشديد ؛ لأن أصله مطاوع قطَّعهُ بالتشديد ، مضاعف (قَطع) بالتخفيف »[3] ، وتأكّد لهم بعد هذا (التقطّع) (التبرؤ) الحاصل

---

(١) جامع البيان : ٢٨٨/٣ .

(٢، ٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٩٦/٢ .



من متبوعيهم ، حُكي عنهم تمني العودة ، والتبرؤ من متبوعيهم كما لاقوا منهم ، مع تدبّر جمالية تتابع الشدات المصوّرة للمعنى ، (تقطّع) ، (تبرؤ) ، ثم تكرار الـ(تبرؤ) مرتين في اعترافهم ﴿ **فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا** ﴾ لتعميق حسرتهم ، فلم يعبّر بـ : نفعل فعلتهم ، أو نقول قولهم ؛ من اشتداد غيظهم[1] ، وتقطّع قلوبهم حسرة ، وقد قال الله فيهــم : ﴿ **كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ** ﴾ فما أشد الحسرة لو كانت واحدة! ، فكيف وهي حسرات! .

يقول ابن عاشور مبيّناً بلاغة الآية في وصف عمق تلك الحسرة : « والأسباب جمع سبب وهو الحَبْل الذي يُمد ليُرتقى عليه في النخلة أو السطح ، فهنا تمثيلية شبهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذي تعبوا لأجله مدةَ حياتهم ، وقد جاءَ إبانه في ظنهم فوجدوا عوضه العذاب ، بحال المرتقى إلى النخلة ليجتنى الثمر الذي كد لأجله طول السنة ، فتقطّع به السبب عند ارتقائه فسقط هالكاً ، فكذلك هؤلاء قد علم كلهم حينئذٍ أن لا نجاة لهم ، فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة ، وهي تمثيلية بديعة ؛ لأنها الهيئة المشبهة تشتمل على سبْعة أشياء كل واحد منها يصلح لأن يكون مشَّبهاً بواحد من الأشياء التي تشتمل عليها الهيئة المشبه بها ، وهي : تشبيه المشرك في عبادته بالمرتقى بجامع السعي ، وتشبيه العبادة وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل ، وتشبيه النعيم والثواب بالثمرة في أعلى النخلة ؛ لأنها لا يصل لها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر ، وتشبيه العمر بالنخلة في الطول ، وتشبيه الحرمان من الموصول للنعيم بتقطع الحبل ، وتشبيه الخيبة بالبعد عن الثمرة ، وتشبيه الوقوع في العذاب بالسقوط المهلك . وقلما تأتي في التمثيلية صلوحية أجزاء التشبيه المركب فيها لأن تكون تشبيهات مستقلة ، والوارد في ذلك يكون في أشياء قليلة »[2] .

* * *

---

(١) ينظر : ص ٣٠٧ .

(٢) التحرير والتنوير : ٩٨/٢ .



٢- خصومة الضعفاء للذين استكبروا في نار جهنم :

في قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١) .

السياق :

فيما سبق من آيات المقطع في سورة إبراهيم «أخبر الله تعالى عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (إبراهيم: ١٩، ٢٠) ، أليس الذي قدر على خلق هذه السموات ، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات ، والحركات المختلفات ، والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ، وبراري وصحاري وقفار ، وبحار وأشجار ، ونبات وحيوان ، على اختلاف أصنافها ومنافعها ، وأشكالها وألوانها ، قادر على استبدالكم؟ بلى ، وما ذلك بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره ، أن يذهبكم ويأتي بآخرين على غير صفتكم ، . . . ثم قال ذكر الله تعالى بعد ذلك بروز الخلائق كلها ، برّها وفاجرها لله وحده الواحد القهار ، فاجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدًا . . . والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها ، . . .ثم يخبر تعالى عما خطب به إبليس ـ لعنه الله ـ أتباعه ، بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله ـ حينئذ خطيبًا ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم ، وغَبنًا إلى غبْنهم ، وحسرةً إلى حسرتهم»[(١)] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٤/٤٨٨ .



أَثَـرُه :

جاء التعبير بـ (البروز) دون (الخروج) أو (الحشر) وفيه بلاغة متناهية ، فـ« البروز هو الظهور البيّن » [1] ، وأصله : « البَراز هو : الفضاء ، وبرز : حصل في بَراز ، وذلك **إما أن يظهر بذاته** ، . . .ومنه المبارزة للقتال ، وهي الظهور من الصف ، **وإما أن يظهر بفضله** ، وهو أن يسبق في فعل محمود ، وإما أن **ينكشف عنه ما كان مستوراً منه** » [2] ، والمعنى : « ظهروا من قبورهم إلى جزاء الله وحسابه »[3] ، فإنهم كانوا يخفون ارتكاب الفواحش ، ويظنون أنها تخفى على الله تعالى ، فإذا كان يوم القيامة تفاجؤوا بانكشافهم لله تعالى ، وكان مقتضى الظاهر التعبير بالمضارع ، وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه [4] .

وأثر هذا البروز تمادي الضعف بمن كانوا في حقيقة دنياهم ضعفاء ، فسمّاهم الله (الضعفاء) في هذا الموقف ثم حكى عنهم : ﴿ **إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ (إبراهيم:٢١) ، يظهر أثر السياق على وحشة قلوبهم حين انفردوا في آخرتهم ، وصار كلٌّ يحاسب على عمله ، لا ينفع أحدٌ أحدًا ، فلم يبادروا بطلب النفع ، إنما بدؤوا بالتحنن وإظهار ما كانوا عليه من التبعيّة لعل قولهم هذا يكون لهم شافعاً ، ولكنهم تفاجؤوا بالخذلان ، وهنا تظهر بلاغة ذكر الضمير ﴿ **أَنتُم** ﴾ في جملتهم التالية التي طلبوا بها النفع ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا** ﴾ « وقد يذكر القرآن ما يذكره مما يبدو أن السياق يجيز حذفه عندما يكون في هذا الذكر تثبيت للمعنى ، وتوطيد له في النفس ، ويكون في ذكره فضلاً عن ذلك معانٍ لا تستفاد إذا حُذف » [5] ،

---

(١) بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي : ٥١٥/١ .
(٢) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٤٣/١ .
(٣) البحر المحيط ، أبو حيان : ٤٠٦/٥ .
(٤) ينظر : أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٣٤٤/١ .
(٥) من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي : ١١٨ .

وذكر الحرف ﴿ مِنْ ﴾ [(١)] ، فـ(من) زائدة ، والمراد شيئًا كائنًا من عذاب الله ، ويكون محمولاً على المعنى تقديره : هل تمنعون عنا شيئًا ؟ . . . [(٢)] ، ومسوغ الزيادة كون الخبر في سياق الاستفهام ، فكأن الاستفهام دخل عليه وباشَره [(٣)] .

وانظر إلى السر البلاغي في تقديم قولهم : « ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ على طلب التخفيف عنهم من عذاب النار مع أنه هو الأهم لديهم ؛ لأنه مقدمة بين يدي طلبهم ليكون تعليلاً للطلب ، وشفيعاً لهم بتذكيرهم ما كان بين بعضهم البعض من ولاء في الدنيا » [(٤)] .

وأمّا المتكبرون في الدنيا فكان لهم يوم العرض على الله الذلة والصّغار ، فكانت تسميتهم (الذين استكبروا) فهم ليسوا بـ(كبراء) حقيقة ، إنما افتعلوا التكبّر وتكلّفوه حتى صاروا به يُعرفون ، ولا ينبغي لأحد أن ينازع ربه فيما هو له ، ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (غافر:١٦) ، ثم لم يكن قول الذين استكبروا إلا : ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم:٢١) « فأجابوا بذلك على سبيل الاعتذار والخجل ، ورد الهداية لله تعالى ، وهو كلام حق في نفسه » [(٥)] .

* * *

٣- خصومة صحبة السوء عند وضع الموازين :

شاهده في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ

(١) ينظر : ص ٣١٢ .
(٢) ينظر : كتاب الكليات ، الكفوي : ١/١٥٩٦ .
(٣) ينظر : البحر المحيط ، أبو حيان : ٥/٤٠٦ .
(٤) دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، دكتور منير المسيري : ٦٠٣ .
(٥) البحر المحيط ، أبو حيان : ٥/٤٠٦ .



يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴾ (الفرقان:٢٥-٢٩) [(١)] .

السياق :

في يومٍ شديد الوقع ، تصف لنا الآيات حالاً لأولئك الظالمين : « فهل ينتظر أولئك الساعون بالفساد في الأرض ، المتبعون لخطوات الشيطان ، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال ، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ، ما يقلقل قلوب الظالمين ، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين .

وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض ، وتنثر الكواكب ، وتكور الشمس والقمر ، وتنزل الملائكة الكرام ، فتحيط بالخلائق ، وينزل الباري تبارك تعالى : ﴿ . . . فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ (البقرة:٢١٠) ليفصل بين عباده بالقضاء العدل ، فتوضع الموازين ، وتنشر الدواوين ، وتبيض وجوه أهل السعادة ، وتسود وجوه أهل الشقاوة ، ويتميز أهل الخير من أهل الشر ، وكل يجازى بعمله ، فهنالك يعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه »[(٢)].

وهذا « ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذي لا مرْية فيه ، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة نَدمَ حيثُ لا ينفعه النَدَمُ ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفًا ،

---

(١) اخترت هذا الشاهد لأنه الأول في سياق (خصومة صحبة السوء) حسب ترتيب المصحف ، وحسب حصري ، فلم يكن في شواهد الاعتراف بالزلل في هذا السياق ما يتضح به الخصام بين الطرفين ، وكل ما هو واضح الخصومة بين الطرفين يكون حسب كلام المفسرين تابعاً للقسمين الأولين من الخصومة ، لذلك تم اختيار أول شاهد فيه أثر (خصومة صحبة السوء) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٩٤ .

وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم ، . . . فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويَعَض على يديه »[(١)] ، وذلك « في حال العرصات »[(٢)] .

أَثَـره :

تأمل كيف أثّرت تلك الأهوال العظيمة على جوارح الظالم وقـد أيقن أن لا فرار من عملٍ التصق به طوال حياته ، وعهدٍ من الظلم لا فوت منه ، فلما حانت ساعة المحاسبة لم يملك نفسه من فرط الحسرة حتى عضّ على كلتا يديه لا واحدة ، فسبق اعتراف جوارحه اعتراف لسانه ، ثم توالت اعترافاته نداءات مع أمنيات ، عبر صرخات لا تنفع ﴿ **يَٰلَيۡتَنِي** ﴾ ثم ﴿ **يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي** ﴾ .

ودقة التعبير القرآني حكايةٌ عن هذا النادم بتخير لفظ (الاتخاذ) في الموضعين : ﴿ **ٱتَّخَذۡتُ** ﴾ ﴿ **لَمۡ أَتَّخِذۡ** ﴾ وما فيها من طباق السلب ، يفيض بالغيظ والقهر الذي يلفُّ بهذا الظالم في ذلك المقام العصيب بين يدي الله ، فتأمل اللفظ (الاتخاذ) « مصدر من باب الافتعال ، . . .من تَخِذ يَتْخَذ تَخْذاً ؛ اجتمع فيه التَّاء الأَصليّ ، وتاء الافتعال ، فأُدغما ، . . . ومعنى الأَخذ والتَّخْذ واحد ، وهو حَوْز الشيء وتحصيلُه »[(٣)] ، ويجيء في القرآن بمعانٍ عدة ، بمعنى : سلوك السبيل ، والاختيار ، والعبادة ، وغيرها[(٤)] .

اختيار (السبيل) دون الطريق ، مع تنكيره يوحي بشدة ما يلقى الظالم من الألم النفسي ، فهو يتمنى لو سلك طريق الهداية ، وليس مجرد اختيار هذه الطريق بل بتعبير يدل على تمني القرب من الرسول أثناء عبور الدنيا ؛ لما في ذلك من اتخـاذ طريـق النجاة ﴿ **يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا** ﴾ وتنكير

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ١٠٨/٦ .

(٢) السابق : ٤٨٣/٦ .

(٣) بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي : ٤١٦/١ .



﴿ سَبِيلاً ﴾ يدل على سعة طريق الخير وعِظَمه ، ومع ذلك عَمِي عنها لغيه وضلاله ، والسبيل « هو الطَّريق السّهل ، يستعمل السّبيل لكلّ ما يتوصّل به إِلى شيء خيرًا كان أَو شرًّا » [1] .

ودقة التعبير بـ(السبيل) دون مرادفاتها من : الصراط والطريق ؛ لأن (السبيل) توحي بالغاية والهدف من العبور ، قال أبو هلال العسكري : « الصراط هو الطريق السهل . . . ، والطريق لا يقتضي السهولة ، والسبيل اسم يقع على ما يقع عليه الطريق وعلى ما لا يقع عليه الطريق ، تقول : سبيل الله ، وطريق الله ، وتقول : سبيلك أن تفعل كذا ، ولا تقول : طريقك أن تفعل به ، ويراد به : سبيل ما يقصده ، فيضاف إلى القاصد ويراد به القصد ، وهو كالمحبة في بابه ، والطريق كالإرادة .

وقد يفرق بينهما بأن السبيل أغلب وقوعًا في الخير ، ولا يكاد اسم الطريق يراد به الخير إلا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلّصه لذلك » [2] .

وتخيّر (الخليل) دون الصديق أو الرفيق ، يلفتنا إلى طول العلاقة مع الحب الذي جمع بين هذا الظالم وخليله على غير طاعة فأرداه ، ولم يكن هذا فقط بل إنه وجد من الحسرة في طول عهد الإكرام الذي كان يوليه لهذا الصديق حتى صار (خليلاً)، « فالخُلَّة آخر درجات الحبّ وخاتمة أَقسامه العشرة الَّتي أَوّلها : العَلاَقة ، وثانيها : الإِرادة ، وثالثها : الصبابة ، ورابعها : الغرام ، وخامسها : الوداد ، وسادسها : الشَّغَف ، وسابعها : العشق ، وثامنها : التتَيّم ، وتاسعها : التعبّد ، فحقيقة العبوديّة الحبّ التَّامّ مع الذلِّ التامّ والخضوع للمحبوب ، وعاشرها : الخُلَّة » [3].

---

(١) بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي : ٨٧٣/١ .

(٢) الفروق اللغوية :٣١٣/١ .

(٣) بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي : ٧٣٣/١ .



أضف إلى ذلك أن «الصداقة اتفاق الضمائر على المودة ، فإذا أضمر كل واحد من الرجلين مودةَ صاحبه فصار باطنه فيها كظاهره سُميا صديقين ، ولهذا لا يقال الله صديق المؤمن ، كما أنه وليُّه ، والخلة الاختصاص بالتكريم ، ولهذا قيل : إبراهيم خليل الله ، لاختصاص الله إياه بالرسالة ، وفيها تكريمٌ له»[1] .

وهكذا أثّر السياق الأخروي المهيب على بلاغة الاعتراف المحكي على لسان الظالم يومئذ .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

كانت لسياقات الاعتراف في الآخرة نتائج ، منها ما جاء في **سياق المجادلة** :

- عند **مجادلة الكفار للملائكة عند قبض الروح** ، ظهر فيه أن العقاب كان من جنس العمل فنال الكفار التوبيخ والألم في أكثر لحظات احتياجهم للسكينة والأمن ، وكذلك عندما كانوا في دنياهم في الرخاء كانوا يكفرون بالله ويجحدون رُسُله ، ويشركون به ؛ فكان للسياق أثره في تلك اللحظة إذ هي لحظة وِحدة لن ينجو منها الإنسان إلا بعمله .
- وعند **مجادلة الكفار في نار جهنم للملائكة الكرام** ، أظهر السياق قدر الغبن في ضلال المعبودات عنهم وضلالهم عنها ، حتى تيقّنوا أنهم لم يكونوا يعبدون قبل شيئاً ، فالهول المصوَّر في تلك اللحظة في نار جهنم كان له أثر بارز في هذا الاعتراف حيث انكشفت عندهم الحقائق .

وجاء في أثر **سياق خصومة الأتباع** ما يأتي :

- **خصومة الأتباع بعضهم لبعض** ، كان فيها حكاية حالهم في الدنيا وكيف أنهم كان بينهم من الحب ما كان من المفترض أن يُصرف لله ، فانقلب الحال حتى صاروا في شدة عداوتهم وتخاصمهم في الآخرة كما كانوا في

---

(١) الفروق اللغوية ، العسكري : ٣١١/١ .

محبتهم في الدنيا ، وهذا من الخيبة والخسارة التي جرّت تمنيهم لو يعودون ليتبرؤوا ممن تبرأ منهم من أحبابهم في الدنيا .

- **خصومة الضعفاء للذين استكبروا في نار جهنم** ، أثر السياق الذي حُكي فيه بروز كل الناس لله تعالى في هذا الاعتراف ، تمثّل في أن العباد كلهم مهما توزّعت بينهم الأرزاق فكان منهم الضعيف والقوي في حياته وأثره على غيره إلاَّ إن مردّهم جميعًا إلى الله تعالى وهو القوي الذي خلقهم وأعطى فئة منهم القوة فما أحسن بعضهم استعمالها وتكبّر على الخلْق والخالق ، فكانت النتيجة اجتماعهم عند الله وخصومتهم أمامه ، حيث لجأ الضعيف إلى من اعتقد أنه قوي فتبعه في الدنيا أملاً في نجاته فتفاجأ أنهم سواء في الأمر وكلهم عبدٌ ضعيف عند ربه .
- **خصومة صحبة السوء عند وضع الموازين** ، كان لتلك الصحبة في الدنيا شأنٌ حتى حُكي عن النادم تسمية صاحبه (خليلاً) ، ولأن السياق هوْلٌ وموازين ولا تغيب عن الله سبحانه مثقال ذرّة ، فكان الأثر أمنيات أن لم يقع على ذاك الخليل الاختيار ولكنها لا تنفع .

* * *

ظهر **أثر السياق** في الشواهد بطريقتين :

١- ترجيح بعض المعاني على بعض عند المفسرين :

ومن ذلك ما رجّحه ابن كثير في سياق المجادلة أن معنى ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ** ﴾ (الأعراف:٣٧) عملهم ورزقهم وعمرهم[١] .

٢- تخيّر اللفظ وقوة دلالته على المعنى :

ومنه الزيادة في صياغة الاعتراف ﴿ **بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا** ﴾ (غافر:٧٤) في جدال الكفار في نار جهنم عند قولهم : ﴿ **ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ**

---

(١) ينظر : ص ٣٧٣ .

مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (غافر:٧٣-٧٤) ، على سياق مجادلتهم للملائكة عند نزع الروح ، في قول الله تعالى : ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٣٧) [(١)] .

مميزات ألفاظ الاعتراف في سياقات المجادلة :

- تميزت بالتخلي عن الخصم ، مع العدول من استعمال المضارع الدال على الحال إلى الماضي ، وفيه معنى اليأس ، وإفراغ اليدين من أي منفعة يمكن أن تُرتجى من هؤلاء ، وتأمل زيادة ﴿ **بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا** ﴾ في جدالهم في نار جهنم على سياق مجادلتهم للملائكة عند نزع الروح ؛ لأن المقامين مختلفان[(٢)] ، فعند نزع الروح قالوا : ﴿ **ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ** ﴾ ، وعند الاستقرار في نار جهنم قالوا : ﴿ **ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا** ﴾.

مميزات ألفاظ الاعتراف في سياقات الخصومة :

- (لو ـ هل ـ ليت) أدواتٌ استعملت للتمني في هذه السياقات ، فسرُّ المجيء بـ(لو) للتمنّي في قوله تعالى:﴿ **لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا** ﴾ (البقرة:١٦٧) «وهي تدل على الامتناع ، إشعار السامع من أول الأمر بامتناع المُتمنّى ، واستحالة وقوعه» [(٣)] ، وكذلك يفيد مجيء التمني مرتين

---

(١) ينظر : ص ٣٧٥ .

(٢) ينظر : ص ٣٧٤ .

(٣) من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي : ١٦٧ .

في خصومة الضعفاء والذين استكبروا : ﴿ **إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ (إبراهيم:٢١) ، « والسر في إيراد المتمنّى في أسلوب الاستفهام في كلام الضعفاء لتصوير هذا الأمل الذي يجول بنفوسهم مجسّماً فيها تجسيماً قويّاً حتى ليلتمسونه بين ظهرانيهم »[(١)] ، ثم مجيء التمني بأداته (ليت) في قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً** ﴾ (الفرقان:٢٧-٢٩) فالأمنيات عند هذا الظالم بعيدة التوقّع ، مستحيلة الوقوع .

- تأمل الألفاظ الواردة في اعترافات سياقات الخصومة : (تبرؤ ـ غنى ـ محيص ـ ويل ـ ضلال) تجد ألفاظ الاعتراف فيها شعور المقصّر باليأس التام من خصمه ، فقد جرى الكلام بينهما على نحوٍ أيقن به أن لا نفع لأحدٍ ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله ، فازدادت بذلك حسرتهم ، وانطبعت أحاسيسهم على أقوالهم .

* * *

(١) من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي : ١٦٥ .

الفصل الثاني

عناصر أساليب الاعتراف

وفيه ثلاثة مباحث :

الأول : الشخصية .

الثاني : الباعث .

الثالث : النتيجة .

الفصل الثاني

عناصر أساليب الاعتراف

يشارك في تعبير الإنسان عن مراده طبيعةُ نفسه ، وتربيتُه ، وبيئتُه ، فيكون التعرُّف على بواعث قوله عسيرًا لكونها نابعةً من تركيبةٍ معقّدةٍ هي في الحقيقة من روائع صنع الباري سبحانه ، مشكِّلةً نفْساً ليست للبحث سهْلة ، ولا بالتسليم بنتائج دراستها مطلَقة ، وما الدراسةُ إلا بتتبّع أقوالٍ وأفْعالٍ ، فيتجلّى بهذا التتبُّع معدنُ الإناء الذي بما فيه نضَح ، وأمّا خفايا النفس وأسرارها فممّا لا يُتَقوّى للغوص فيه ، « فهذه النفس البشرية بحر متلاطم تتصافق أمواجه، ويعب عبابه ، وهي حصن حصين يستعصي على أبرع العقول وأبدع الأفكار ، وأينما حاصرته تحاول اقتحامه ، صدتك عنه المناورات المحبوكة ، والحيل اللاشعورية ، وألوان الخداع النفسي التي تصور لك الماء وهو سراب ، وتزين لك الأمر ومن ورائه الحسرة والعذاب ، لغزٌ معقدٌ متشابكٌ وقفلٌ صلبٌ متماسك ، وغابةٌ تضل في دروبها ومتاهاتها وشعابها أعتى النفوس دهاء وأقواها إدراكًا ، ما سلكها عالِم واستطاع أن يفوز منها بطائل ، اللهم إلا ما جادت به هذه النفس نفسها من ثمرات أوقعتها عمداً في يد طالبها من بين أغصان شجرة المعرفة ، وكذب والله من زعم أنه عرف نفسه ، فإن من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وأنُّىٰ يمكن أن يرقى هذا المرتقى الوعر ؟

لا يعلم خبايا هذه النفس ، بعيدة الأغوار ، عميقة الأسرار ، إلا من خلقها فسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، وأتقن صنعها ورعاها ، هو الذي لا تدرك

أسرار عظمته ، ولا تحصى دلائل قدرته ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢) »[1] .

وما أسلوب الفردِ منّا إلا حكايَةٌ عن نفسه ، وترجَمةٌ لأحاسيس أراد إيصالها لتقع في موقعٍ ما ، وهنا أرى الاعتراف بالزلل بعد دراسة الصّيَغ في الفصل الأول ، ودراسة سياقاته في الفصل الثاني ، لا يكتملُ بغيرِ دراسة عناصر الأسلوب ، ومنها الشخصية التي حصحص عنها الاعتراف ، ليكّون عنصُراً أساسيًّا في الأسلوب ، ثم يأتي الباعث وراء هذا الاعتراف كاشِفًا عن هذه النفس ، مشكّلاً عنصراً من مكونات الأسلوب ، ثم تأتي المرامي والتطلّعات التي أرادها المعترِف من اعترافه ، وأسميتُها في بحثي (النتيجة)[2] مفصِحةً عن الهدف الذي جاء به الأسلوب بهذا التكوين .

* * *

(١) النفس الإنسانية في القرآن الكريم ، إبراهيم محمد سيق : ١١ .

(٢) النتيجة : أقصد بها نتيجة الاعتراف عند كل شخصية باعتبارها عنصرًا مكوّناً لأسلوب الاعتراف ، لا نتائج البحث .

المبحث الأول

الشخصية

كم لشخصية المعترف من أثر بارز في طريقة اعترافه ، وتخيّر ألفاظه ، وفي هذا المبحث أدرس شخصية المعترفين ، ونماذج من تأثيرها على طريقة اعترافهم ، فالشخصيات الراقية تختار الألفاظ التي تناسبها حين تزل ، ومن دونهم من الناس يرضون بالدون .

مكانة شخصية الإنسان في القرآن الكريم :

لم يُترك الإنسان مذ خُلق دون دليل يُرشده إلى قيمة روحه ، ومكانة شخصيته إن هو اتبع أمر ربه أو عصاه ، فبانت للإنسان معالم بشريته في دينٍ متكامِل كي يعرف منشأَه ، ويتبيّن خُطاه ، « فعرّف القرآن الكريم بالإنسان ، بأصله الذي هو الماء والتراب ، وبسلالته التي هي الماء المهين ، وعرّفه بمكانته عند ربه حيث أسجد له الملائكة ، وأعلن كرامته وتفضيله على كثير من الخلق ، ليقف الإنسان وسطاً بين هذين الحدين : الأدنى والأعلى .

فبمكانته وكرامته يرى نفسه عزيزاً ، وبأصله وسلالته يتواضع معظّماً شأن من أنشأه من ذلك الأصل ، وأوصله إلى تلك المكانة العالية فينجو بذلك من العجب والكبر ، والغرور ، كما يمنعه عزه وكرامته من التذلل لغير الله تعالى ، فيكون البشر كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣) .

والإنسان لو تركه الإله دون هدى لعانى الكثير من سوء الفهم للنفس ، بل إن عدداً من الناس قد يعانون من ذلك لسبب ما ، كالإفراط في الثقة بنظرتهم

الخاصة إلى أنفسهم ، التي قد تؤدي إما إلى الغرور والتعالي ، وإما إلى الهوان والتدني »[1]، ومن هنا تنكشف عند الإنسان جوانب نفسه فيهتم بتزكيتها ورقيّها .

الشخصية من منظار اللغة :

إذا تتبعنا مادة الكلمة (ش خ ص) في اللغة وجدناها دلت على « جماعةُ شَخْصِ الإِنسان وغيره ، والجمع أَشْخاصٌ وشُخُوصٌ وشِخاص »[2] ، وقال ابن فارس : « الشين والخاء والصاد أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ارتفاع في شيء ، من ذلك الشّخص ، وهو سوادُ الإنسان إذا سما لكَ مِن بُعد »[3] .

وللدلالة اللغوية للكلمة قيمتها التي تجعل المبالغة في المعنى والتعمق فيه مرفوض إذا تبعه خطأ في التصور ، فقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « لا شخص أغير من الله »[4] ، وقد نفت الأشاعرة إطلاقها لله تعالى ، وادعت تصحيفاً في البخاري لأجل ذلك ، وتم الرد عليهم من أهل السنة والجماعة[5] ، لأن « هذا الحديث فيه إثبات أن الله ـ تعالى ـ شخص ، بمعنى أنه يُخبِر عنه ـ سبحانه ـ أي : ذات مستقلة ، فيخبر عن الله بأنه شخص ، كما يخبر عنه بأنه ذات وبأنه أحد ، وبأنه شيء ، فهذا من باب الخبر لا من الصفات ، فباب الخبر أوسع من باب الصفات ، ففي هذا الحديث إثبات أنه شخص »[6].

---

(١) أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم ، دكتور حسين جلو : ١٣٤ .

(٢) لسان العرب ، ابن منظور : ٤٥/٧ ، مادة (ش خ ص) .

(٣) مقاييس اللغة : ١٩٧/٣ ، مادة (ش خ ص) .

(٤) بوّب به البخاري في صحيحه ، كتاب : التوحيد ، باب : قول النبي ﷺ : « لا شخص أغير من الله » ولم يروِه ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب : الطلاق ، باب : انقضاء عدة المتوفّى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل ، (رقم الحديث : ١٤٩٩) .

(٥) تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري ، الشيخ عبد الرحمن البراك : ٩١/١ .

(٦) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ، عبد الله الغنيمان : ٦٣/١ .

الشخصية من منظار الأدب والعمل القصصي :

تشكّل الشخصيّات في القصة عنصر جذب لا ينفك عن نجاحها أو فشلها ، و « هي مدار المعاني الإنسانية ، ومحور الأفكار والآراء العامة ، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه ، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي ، بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما ، وإلا كانت مجرد دعابة ، وفقدت أثرها الاجتماعي وقيمتها الفنية معًا ، فلا مناص من أن تحيا الأفكار في الأشخاص ، وتحيا بها الأشخاص ، وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعي الفردي متفاعلاً مع الوعي العام ، في مظهر من مظاهر التفاعل ، على حسب ما يهدف إليه الكاتب ، . . .ولا مناص من اتساق هذه الأغراض مع الغرض الفني ، وهذا مظهر الصراع النفسي أو الاجتماعي يقوم به الأشخاص ضد المجتمع وعوامل الطبيعة ، وقد يقوم به الشخص ضد نفسه .

والأشخاص في القصة ـ وفي المسرحية كذلك ـ مصدرهم الواقع ، ولكنهم يختلفون عمّن نألفهم أو نراهم عادة ، في أنهم في ضوء العرض الفني أوضح جانبًا ، وسلوكهم معلل في دوافعه العامة ، ونوازعهم مفسرة نوعا من التفسير ، قد يكون فيه نوع من التعقيد ولكنه تعقيد ذو معانٍ إنسانية كذلك » [1] .

للشخصيات قيمتها الفنية في الأدب ، فيرى عبد الكريم الخطيب أن ورود الشخصيات في « القصص القرآني ـ أيا كانوا ـ ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد إبراز معالمهم ، وكشف أحوالهم ، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم ، وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية في مجال الحياة الخيّرة أو الشريرة وفي صراعها مع الخير والشر ، وفي تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار .

---

(١) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال : ٥٢٦ .

إن الشخصية في القصة القرآنية إنما ينظر إليها بهذا الاعتبار الذي تؤدي فيه دورها شاهدًا من شواهد الإنسانية ، في قوتها أو ضعفها ، وفي استقامتها أو انحرافها ، وفي هداها أو ضلالها ، وفي حكمتها أو سفاهتها ، إلى غير ذلك مما تندرج تحته عوالم الإنسانية ، وتتشعب فيه مذاهب سعيها وملكها في مضطرب الحياة»[1] .

وتعقيبًا على كلام الخطيب فإني أرى أن ورود الشخصية في القصص القرآني ـ تحديدًا ـ مُراد لذاته ولأبعاده الوعظية على حدٍّ سواء ؛ فإن كل حرف في هذا السياق مُراد ، وقد تُذكر أسماء بعض الأشخاص في القرآن ، ولا يأتي ذكر لبعضها مطلقاً[2] ، ويُكتفى بذكر موضع العظة في القصة ، مما يدل على أن ذكر الشخصيات بحد ذاته له هدف في شواهده متعلّق بتلك الشخصية وأحداث حصلت معها كلها تشكّل عبرة وعظة لا لعنصر دون عنصر في تلك القصة ، فإن لتحديدها بعينها ، وتجدد استذكارها نعمة ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (يوسف:١١١) ؛ فإضافة القصص للضمير (هم) يدل على أهميتهم بشخصياتهم لاكتمال عبرة القصة ، ومن هنا جاءت دراستي في هذا الفصل ، فالمؤمن يستفيد من القراءة في الشخصيات كشخصية آدم عليه السلام ويتأمل النظم البديع كيف حكى عنه ، ويقتدي به ، ويتأمل كذلك شخصية إبليس عليه لعنة الله ، ويستفيد من الحكاية عنه في اتخاذه عدواً كما أمر ربنا عز وجل ، وفي البعد عن صفاته ، وتأمّل قوله تعالى : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ** ﴾ (يوسف:٣) ؛ فالسياق القرآني وعرض الشخصية في خواطرها وحيرتها وصمتها ، ودقائق اللفتات التي ذُكرت في القرآن عنها

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : ٤٢ .

(٢) كقصة أصحاب الكهف المبسوطة في سورة الكهف ، ومؤمن آل فرعون في سورة غافر ، وغيرها .

يكشف للمتدبّر آفاقًا لا حصر لها من الارتباطات المعنوية اللفظية العميقة ، التي تنعكس على الإنسان سلوكيّاً وتربويّاً .

قال ابن عاشور : « وأبصر أهل العلم أن ليس الغرض من سوقها قاصرًا على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير أو الشر ، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم ، أو التشويه بأصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم ـ كما تقف عنده أفهام القانعين بظواهر الأشياء وأوائلها ـ بل الغرض من ذلك أسمى وأجل ، إن في تلك القصص لعبرًا جمة وفوائد للأمة ؛ ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزهًا عن قصد التفكه بها ، من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتاليةً متعاقبةً في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ ، بل كانت مفرقةً موزعةً على مقامات تناسبها ؛ لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع ، وهو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه ، . . .ومن أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء بشرائعهم فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء وأقوامهم تكليلاً لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرعين قال تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ** ﴾ (آل عمران:١٤٦) ، وقد رأيت من أسلوب القرآن في هذا الغرض أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة في رسوخ الإيمان وضعفه ، وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان ، وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم أو بلدانهم إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم »[١] .

---

(١) التحرير والتنوير : ٣٥/١ .

الشخصية من منظار علمي النفس والاجتماع :

أودع الله في هذا الإنسان الضعيف من الأسرار التي جعلت منه محط نظر نفسه ، فهو لا يزال يكتشف في خلقه عجائب قدرة الله كلما أعطاه الله من لدنه علمًا ، وتكوين الإنسان الذي يمزج بين عالم الغيب المتمثل في روحه ، وعالم الشهادة المتمثل في جسده ، يجعل من هذه الكتلة التي هي وزنه لا تعدل شيئًا عند وزن روحه وعقله وفكره ، مشكّلاً هذا كله شخصيته ، و« هي جملة السمات الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية التي تميز الشخص عن غيره ، والمعايير الاجتماعية هي ميزان أو مقياس السلوك الاجتماعي ، وهي السلوك النموذجي أو المثالي المحدد لما هو صحيح وما هو خطأ ، وما هو جائز وما هو غير جائز ، وما هو مباح وما هو عيب ، أي أنها تحدد وتسهل سلوك الفرد والجماعة وتحدد السلوك المتوقع في المواقف الاجتماعية »[(١)] .

مهما عاش الإنسان في عالمه الاجتماعي الذي يربطه بالناس من حوله فيظل « لكل فرد عالمه الخاص الفريد ، وشخصيته الفريدة المميزة عن باقي الأفراد وله حاجاته وقدراته وميوله ، وهو يختلف عن كل من سواه بسبب سماته الموروثة وخصائصه المكتسبة ، ولا يوجد اثنان على وجه الأرض صورة واحدة طبق الأصل ، وحتى التوائم المتماثلة التي تنشأ من بويضة واحدة ، ذات بداية واحدة في النمو من كافة مظاهره سرعان ما يختلفان بسبب العوامل البيئية المتعددة التي تؤثر في النمو »[(٢)] .

الشخصية من المنظار الطبي :

تكون مساحة العمل عند الأطباء في العادة هذا الجسد ، وما فيه من أوجاع وآلام ، وكيف يطبّبونها؟ ، وكيف تعمل أجهزة الجسم ليبقى الإنسان حيّاً ،

---

(١) التوجيه والإرشاد النفسي ، حامد زهران : ١/٦٤ .

(٢) القرآن والصحة النفسية ، جمال أبو العزائم : ١٤ .

ولكنهم يتساءلون أيضًا : «ترى ماذا هناك على سطح المخ؟ وما الذي يمسك بتوافق العمل بين بلايين من هذه الخلايا الحية؟ ، فقد لمس العلم أن هناك تيارات كهربائية في تصاعد وانخفاض في بلايين الخلايا الحية تسجل وتنفعل وتؤثر ، إنها شخصية الإنسان أو طاقاته المميزة أو طريقة استجاباته وربما محصلة لما يطلق عليه (نفس الإنسان) .

ومنذ فجر تاريخ ذلك الإنسان وهو يحاول أن يعرف كيف يحس؟ وكيف ينفعل؟ وكيف يمارس عمله؟ وكيف يتعلم؟ وكيف يترقى؟ وكيف يحصل على مدارج من الترقي لليقين وعلم اليقين وحق اليقين؟ وكيف تنفذ نفسه إلى مدارج من النضوج؟ وقد أمرنا الحق عز وجل أن يستبصر كل منا بما يحيط به من آيات بينات وما في نفسه من طاقات وطاقات فقال : ﴿ **وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١) »[١].

فسبحان من لا يحيط بخلقه إلا هو ، ولا يعلم تمام العلم وأدقّه عن كل ما يجري فيه من الإبداع التكويني الرباني لهذا المخلوق الضعيف إلا من خلقه ، ودبّر عيشه ، ونسّق حياته بحكمة ومعرفة وخبرة ، وهو الذي يعلم ما يتم داخله من تفكير مستمر ، «مركزه جسمي تشرف عليه طاقة نفسية روحية لولاها لما عمل ذلك الجهاز الجسمي الدقيق غاية الدقة»[٢] ، ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴾ (الملك: ١٤) .

في هذا الفصل إن شاء الله أتحدّث عن سمات الشخصيات موضع الدراسة ، ثم أربط بين هذه السمات وما ورد من الاعتراف حكاية عنهم ، في محاولة للكشف عن أثر هذه الشخصية وما تحمله من صفات على القول والسلوك ، مع ملاحظة أن بعض السمات قد لا تتّصل بالاعتراف مباشرةً ، لكنّ أهميتها تكمن في استكمال عرض سمات الشخصية المدروسة .

(١، ٢) العلاقات والقرائن في التعبير القرآني ، دكتور محمود حمدان : ١٧ .

وقد قُسِّم المبحث إلى مطلبين :

١- المطلب الأول : شخصيات من عالم الشهادة .

٢- المطلب الثاني : شخصيات من عالم الغيب .

* * *

المطلب الأول

شخصيات من عالم الشهادة

عالم الشهادة :

المعنى اللغوي :

جاء في لسان العرب : «المشاهدة المعاينة ، وشهده أي حضره»[1] ، وقال ابن فارس : «الشين والهاء والدال أصلٌ يدلُّ على حضور وعلم وإعلام ، لا يخرُج شيءٌ من فروعه عن الذي ذكرناه . من ذلك الشَّهادة ، . . . والمَشهد : محضر النّاس»[2] .

المعنى الشرعي :

الشهادة إمَّا بالبصر أو بالبصيرة ، فهي خبر قاطع يؤدي معنى الإقرار والحجة ، مع وجود العلم بذلك ، ولكن الشهود بالحضور المجرَّد أَوْلَى ، والشهادة مع المشاهدة أَوْلَى[3] .

قال الله تعالى : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ (الأنعام:٧٣) ، نسب الله لنفسه سبحانه علم الغيب والشهادة ، و«الغيب عبارة عما بطن ، والشهادة عما ظهر»[4] ،وقال الكفوي : «ما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه بهما ، ولما كان الخبر الخاص مبينًا للحق من الباطل سمي شهادة ، وسمي

(١) ابن منظور : ٢٣٨/٣ ، مادة (ش هـ د) .

(٢) مقاييس اللغة :١٧٢/٣ ، مادة (ش هـ د) .

(٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني :٢٧١/١ .

(٤) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ، الغزالي : ١٢٦/١ .

المخبر به شاهدًا»[1] ، وقال الشيخ ابن عثيمين : «الغيب ما غاب عن الناس ، والشهادة ما شهده الناس»[2]، وأضاف الشيخ خالد المصلح لفظ (الإدراك) فقال : «ما أدركناه ، ووقع عليه بصرنا هو من عالم الشهادة»[3] .

وجاء في تعريفات المحْدَثين عن عالم الشهادة : «عالم الشهادة ما يجري من تفصيلات فيه ، وإجماليات تجريبية يُعرَف بالملاحظة بوساطة العقل والحواسِّ ، ويقوم العقل بالاستنباط مما يلاحظه بالاستقراء والاستنتاج بتقديم معرفة عنه»[4] .

وقد صُنِّفَتْ الشخصيات من عالم الشهادة ، إلى :

أ- الأنبياء عليهم السلام .

ب ـ البشر دون الأنبياء عليهم السلام .

* * *

أ- الأنبياء عليهم السلام :

عصمتهم من الكبائر دون الصغائر :

قال ابن تيمية : «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام ، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أنّ هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلاّ ما يوافق هذا القول . . .»[5] .

---

(١) كتاب الكليات : ١/٥٢٨ .
(٢) شرح العقيدة الواسطية : ١/٣٦٧ .
(٣) شرح لمعة الاعتقاد ، خالد المصلح : ٩/١١ .
(٤) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، راجح الكردي : ٤٣٧ .
(٥) مجموع الفتاوى : ٤/٣١٩ .



وبيّن الشنقيطي أن الأنبياء معصومون من الصغائر التي تتعلق بالتبليغ ، أما ما لا يتعلق به فاختلف العلماء والراجح عدم عصمتهم منها[1] .

وعن الاعترافات التي وقعت منهم في القرآن قال القرطبي رحمه الله : « إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ، ونسبها إليهم ، وعاتبهم عليها ، وأخبروا بذلك عن نفوسهم ، وتنصلوا منها ، واستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها ، وإن قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور ، وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك ، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات ، وفى حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم ، وعلو أقدارهم ، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس ، فأشفَقوا من ذلك في موقف القيامة ، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة ، وهذا من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فَهُم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم ، فلم يخل ذلك بمناصبهم ، ولا قدح في رتبتهم ، بل قد تلافاهم ، واجتباهم وهداهم ، ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم »[2] .

شخصيات الأنبياء :

عاش الأنبياء عليهم السلام محققين معنى العبودية لله عز وجل ، متفانين لترسيخ التوحيد عند أقوامهم ، متحمّلين شتى ألوان الأذى منهم ، ولأنهم بشر لا تخلو الطبيعة البشرية من زلل ، فكانت منهم بعض الزلات التي استغفروا الله منها فغفرها لهم ، وبيّن ذلك في كتابه الحكيم ، وفي هذا البيان حِكمٌ كثيرة ، لعل منها :

١- لئلا تطيش بأهل الأهواء والضلالات العقول ، فيُترك الخطأ دون توبة من نبي الله ، وبلا مغفرةٍ من الرب .

---

(١) ينظر : أضواء البيان : ٤/١٠٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١١/٢٩٤ .

٢- ليعلم الناس أن المبادرة إلى التوبة ، والإنابة إلى الله خُلُق الأنبياء عليهم السلام ، قال ابن تيمية : « وليُعلم أن الدعاء الذي فيه اعتراف العبد بظلمه لنفسه ليس من خصائص الصديقين ومن دونهم ، بل هو من الأدعية التي يدعو بها الأنبياء ، وهم أفضل الخلق » [(١)] .

٣- لتنبثق قيمة الاعتراف ، وأن ما فيه من كسر للنفس وذلّة وخضوع هو في الحقيقة رقيٌّ بالعبد إلى شرف العبودية الخالصة .

٤- كي لا يقنط العبد من رحمة الله ، ويسيئ الظن بربه وهو العفو الغفور ، وقد قال رسولنا ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، وجاء بقومٍ يذنبون ، فيستغفرون الله فيغفر لهم » [(٢)] .

شخصيات الأنبياء نموذجٌ نادرٌ :

تمثّل شخصيات الأنبياء نموذجًا نادرًا لشخصية المؤمن الحق ، ونفسه اللوامة التي لا تهدأ وإن اعترفت بتقصيرها لله بارئها ، وهو أعلم بها ، وهو أرحم الراحمين ، غير أن ذنب المؤمن يعصف بوجدانه ، ويشاركه كل لحظات حياته ، فيكدّر عليه طيّب المعاش والطعام ، مصداقًا لما قاله نبينا ﷺ : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه » فقال به هكذا ، قال أبوشهاب : بيده فوق أنفه[(٣)] .

وقد بيّنت السيرة المطهّرة في حديث الشفاعة كيف يرى كل نبيٍّ تقصيره ، رغم استغفارهم عليهم السلام ، ووعد الله لهم بالمغفرة بعد اعترافاتهم

---

(١) جامع المسائل : ٤/ ٢٤ .

(٢) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : التوبة ، باب : سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ، (رقم الحديث : ٢٧٤٩) .

(٣) رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الدعوات ، باب : التوبة ، (رقم الحديث : ٦٣٠٨) .

الواردة في القرآن الكريم ، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله في حديث الشفاعة : «. . . فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح . . .» ، وهكذا يشفق كل نبي من خطئه حتى يقدموا على النبي ﷺ فيشفع للناس(١) .

ولعلي أتوقّف مع شخصية من تلك الشخصيات الجليلة ، وما ورد فيها من الوصف ، لتشفّ عن سر الاعتراف الذي جاء حكايةً عن هذا النبي ، وسيكون الحديث عن نموذج واحد من هذه الشخصيات وهي شخصية آدم عليه السلام ، وأمّا البدء بالأنبياء ؛ فلأنهم القدوة الذين أوصى الله تعالى المؤمنين بالتأسي بهم ، «وهم خير البشرية ، وأصفاهم نفسًا ، وأزكاهم عقلاً ، وأسرعهم إيمانًا ، وأحسنهم طاعةً واستقامةً ، اصطفاهم ربهم سبحانه وتعالى وهو : ﴿ **أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ** ﴾ (الأنعام:١٢٤) ، وأمدّهم بعلم لا يعلمه سواهم ، يقول تعالى : ﴿ **عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ** ﴾ (الجن:٢٦،٢٧) ، وأحاطهم بالأمان والحفظ ، قال تعالى : ﴿ **وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ** ﴾ (الصافات:١٨١) ، وأفاء عليهم بالنعم الوافرة ، والهداية السابغة ، واختارهم لرسالته التي هم بفضل الله أحق بها وأهلها ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا** ﴾ (النساء:٦٩) ، ويقول سبحانه : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ** ﴾ (الأنعام:٨٩) ، وجعلهم

---

(١) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا** ﴾ (الإسراء:٣) (رقم الحديث : ٤٧١٢) ، ورواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، (رقم الحديث : ١٩٤) .



سبحانه وتعالى مصدر الهداية ، ومناط الأسوة والقدوة ، يقول تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ (الأنعام: ٩٠) »(١) .

شخصية آدم عليه السلام :

لشخصية الأنبياء احترامها وجلالها ومهابتها ، كيف لا وهم خير البشر! الذين اصطفاهم الله برسالته ، ولأن معرفة شخصياتهم ليست بالأمر الهيّن ، فلا يسع المرء أن يفترض سماتٍ في شخصيةِ نبي مهما بلغ به العلم ليدعّم بها دراسته ، والواجب على من أراد البحث تتبع الوارد في السنة والآثار الصحيحة ، وقد اجتهدت في تتبع الأحاديث الواردة في الصحيحين التي تصف آدم عليه السلام ، وتتحدث عن خلقه فتظهر بها صفاته ، ويكتمل هدف الدراسة بمعرفة جوانب الشخصية النبوية الكريمة التي دعت نبي الله آدم عليه السلام إلى الاعتراف بما ورد في نص الآية دون غيره ، وبهذا تكون الباحثة بعون الله وفتحه حرصت على اجتناب المزالق الفكرية المتعددة الناتجة عن الاعتماد على الذات لا على النصوص ، وبالله التوفيق .

تخصيص آدم عليه السلام دون زوجه بالدراسة :

لأن الحديث عن شخصية آدم عليه السلام ؛ خصّصتُ الدراسة عن شخصيته واعترافه ، وقد استندتُ في ذلك إلى أن آدم عليه السلام خوطب بالإفراد في أكثر من شاهد بالوسوسة والمعصية ، رغم ورود التثنية في مرحلة الأكل من الشجرة ، وبدوّ السوأة ، والطفق ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه: ١٢٠-١٢٢) ، قال ابن عاشور : «اقتصار الشيطان التسويل لآدم وهو يريد أن يأكل آدم وحواء ؛

---

(١) دعوة الرسل عليهم السلام ، أحمد غلوش : ٣٥ .

لعلمه بأن اقتداء المرأة بزوجها مركوزٌ في الجبلّة ، . . . وإثبات المعصية لآدم دون زوجه ؛ يدل على أن آدم عليه السلام كان قدوة لزوجه ، فلما أكل من الشجرة تبعته زوجه»[1] ، وتوجيهًا لهذا الأمر رأى ابن القيم أن الإهباط حيث ورد بالجمع يكون المخاطب به : آدم وزوجه وإبليس ، وحيث ورد بالتثنية : فإما مراده آدم عليه السلام وزوجه ، وإمّا آدم عليه السلام وإبليس ، ورجّح الأخير ؛ لأنّ الله سبحانه لمّا ذكر المعصية أفرد بها آدم عليه السلام دون زوجه[2] ، ورأى الشنقيطي أن الخطاب لآدم وحده ، وأن المرأة ذُكرتْ فيما خوطب به زوجها[3] ؛ لذلك جعلتُ دراسة الشخصية وتعلّقها بالاعتراف من جهة آدم عليه السلام وحده ، ولا ينفي ذلك كون حواء مشتركة معه في القصة .

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « . . . لولا حواء لم تخن أنثى زوجها »[4]، قال ابن حجر : «فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك ، فمعنى خيانتها : أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم ، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق ، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول ، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا وكلا ، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة ، وحسنت ذلك لآدم عد ذلك خيانة له ، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها ، وقريب من هذا حديث : «جحد آدم

---

(١) التحرير والتنوير : ٣٢٦/١٦ .

(٢) التفسير القيّم ، ابن القيم : ١٣٧/١ .

(٣) ينظر : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب :١٥٥/١ .

(٤) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : خلق آدم صلوات الله وسلامه عليه وذريته ، (رقم الحديث :٣٣٣٠) ، ورواه مسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : الرضاع ، باب : لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر ، (رقم الحديث :١٤٧٠) .

فجحدت ذريته»[1] ، وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبرى ، وأن ذلك من طبعهن ، فلا يفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه ، أو على سبيل الندور ، وينبغي لهن أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع ، بل يضبطن أنفسهن ، ويجاهدن هواهن والله المستعان»[2] .

وقد عرضت ذلك الدكتورة نوال العيد[3] ـ حفظها الله ـ في طيّات الرد على الشبهة الموجّهة لحواء حيث قالت : «الحديث لم يفصّل قضية تزيين حواء لآدم الأكل من الشجرة ، وإنما أشار إليها إشارة فهمها شراح الحديث حيث توضح أن لحواء دوراً في أكل آدم من الشجرة ، ولكن لم يبيّن هذا الدور . . .وقد أطاع آدم حواء ، ولم ينهها أو يقوّمها ، . . . و وسوسة إبليس وقعت لهما معًا ، وليس لحواء وحدها ، بل أتت آيات لتخصيص آدم عليه السلام وحده بالعتاب ، إذن فمسؤولية الأكل من الشجرة مشتركة»[4] .

وقد سألتُ الدكتورة رقية المحارب[5] ـ حفظها الله ـ عن تخصيص آدم

---

(١) رواه الترمذي في سننه ، أبواب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الأعراف ، (رقم الحديث : ٣٠٧٦) ، والحاكم في مستدركه ، كتاب : الإيمان ، باب : وأما حديث سمرة بن جندب ، (رقم الحديث :٢١٤) ، وكتاب : التفسير ، باب : تفسير سورة الأعراف ، (رقم الحديث : ٣٢٥٧) ، وكتاب : تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين ، باب : ذكر نبي الله داود صاحب الزبور عليه السلام ، (رقم الحديث : ٤١٣٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير : ٩٢٥/٢ .

(٢) فتح الباري :٣٦٨/٦ ، وبمثل هذا المعنى قال النووي في المنهاج : ٥٩/١٠ ، والعيني في عمدة القاري : ٢١١/١٥ .

(٣) الأستاذة في السنة وعلومها بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن ، ولها موقع على الشبكة العنكبوتية :WWW .NAWALALEID .COM .

(٤) حقوق المرأة في ضوء السنة النبوية : ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٥) الأستاذة في السنة وعلومها بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن ، ولها موقع على الشبكة العنكبوتية :WWW .DR .ROQAIA .COM .

بالوسوسة الذي ورد في سورة طه : ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴾ (طه:١٢٠) الآيات ، وعمّا ورد في الحديث وشرحه من دور حواء في الوسوسة لزوجها فأجابتني مشكورة : «الذي يظهر لي توجيه الخبر في الحديث بأن حواء كانت في مقام المستشار ، والمستشار مؤتمن ، فحين وسوس الشيطان لآدم عليه السلام استشار حواء فمالت للأكل من الشجرة ، ولم تُشِر بخير ، كما جاء في البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر ، وتحضه عليه ، فالمعصوم من عَصَم الله تعالى»[1] ، والمرأة بطانة الرجل ، فقد جاء في الحديث فقال رسول الله ﷺ لأبي الهيثم : «هل لك من خادم»؟ قال : لا ، قال : «فإذا أتانا سبي فأتنا» ، قال : فجاء رسول الله ﷺ رأسان ليس لهما ثالث ، فأتاه أبو الهيثم ، فقال رسول الله ﷺ : «خذ أحدهما» ، فقال : يا رسول الله خر لي أنت ، قال رسول الله ﷺ : «المستشار مؤتمن ، خذ هذا ، فإني رأيته يصلي ، واستوص به معروفاً» ، فأتى به امرأته ، فحدثها بحديث رسول الله ﷺ ، فقالت : ما أنت ببالغ ما قال رسول الله ﷺ فيه حتى تعتقه ، قال : هو عتيق ، فقال النبي ﷺ : «إن الله لم يبعث نبيًّا ولا خليفة .....» الحديث المتقدم[2] .

---

(١) رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : القدر ، باب : المعصوم من عصم الله ، (رقم الحديث : ٦٦١١) ، وفي كتاب : الأحكام ، باب : بطانة الإمام وأهل مشورته ، (رقم الحديث : ٧١٩٨) .

(٢) رواه البخاري بلفظه في الأدب المفرد ، باب : المستشار مؤتمن ، (رقم الحديث : ٢٥٦) ، ورواه النسائي بنحوه في سننه الكبرى ، كتاب : الوليمة ، باب : استقبال من قد دُعي ، (رقم الحديث :٦٥٨٣) ، ورواه الترمذي بنحوه في سننه ، أبواب : الزهد ، باب : ما جاء في معيشة النبي ﷺ ، (رقم الحديث :٢٣٦٩) ، وصححه الألباني في كتابه : صحيح الأدب المفرد :/١١٣ .

وقد يحمل ما جاء خطابًا لآدم وحده ، والتنبيه على معصيته دون زوجه في السياق القرآني ، إلى أن الرجل مخاطب بأن يكون قوّامًا بالمعنى الشرعي ، وأن مسؤوليته في القيادة الحكيمة ، والرعاية السديدة أعظم وأولى ؛ فتوجّه اللوم له لأجل ذلك[1] .

* * *

سماته عليه السلام[2] :

- **المعلّم** ، «اعتاد الملائكة أن يتلقوا العلم عن الله سبحانه وتعالى ، ولكن ولأول مرة يذكر الله سبحانه وتعالى خليفته ، ليكون معلمًّا للملائكة : ﴿ **قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ** ﴾ (البقرة:٣٣) . . . فآدم ذو علم يفيض عن ذاته التي أودع الله فيها ما أودع من عقل وعلم»[3].
- **المحاجّ الواعي ،** ورد عن النبي ﷺ أنه قال : «احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة ، فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، ثم تلومني على أمر قُدّر علي قبل أن أُخلق ، فقال رسول الله ﷺ : «فحج آدم موسى» مرتين[4] ، «وإنما

---

(١) موقع : تسهيل ، www .taseel .com ، منيب شراب .

(٢) مرتبة وفقًا لأظهرها في النصوص .

(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، عبد الكريم الخطيب : ٣٦١ .

(٤) أخرجه الشيخان ، رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : وفاة موسى وذكره بعد ، (رقم الحديث : ٣٤٠٩) ، وبنحوه في كتاب : تفسير القرآن ، باب : قوله تعالى : ﴿ **وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي** ﴾ (طه:٤١) ، (رقم الحديث : ٤٧٣٦) ، وبنحوه في الكتاب نفسه ، باب : قوله تعالى : ﴿ **فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ** ﴾ (طه:١١٧) ، (رقم الحديث :٤٧٣٨) ، وبنحوه في كتاب : القدر ، باب : تحاج آدم وموسى ، (رقم الحديث :٦٦١٤) ، وبنحوه في كتاب : التوحيد ، باب : قوله تعالى : ﴿ **وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا** ﴾ (النساء:١٦٤) ، (رقم الحديث :٧٥١٥) ، ورواه مسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : القدر ، باب : حجاج آدم وموسى عليهما السلام ،(رقم الحديث :٢٦٥٢) .

صحت الحجة من آدم على موسى عليهما السلام ، من أجل أن الله قد غفر لآدم خطيئته ، وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يُعيِّر بخطيئة قد غفرها الله له ، . . . وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة فإن العلماء مجمعون أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم عليه السلام»[1] ، وأضاف النووي : «فالعاصي منا لو قال : هذه المعصية قدرها الله علي لم يسقط عنه اللوم والعقوبة ، وإن كان صادقاً فيما قاله ، فالجواب : أن هذا العاصي باقٍ في دار التكليف ، جارية عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ وغيرها ، وفي لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن هذا الفعل ، وهو محتاج إلى الزجر ما لم يمت ، فأما آدم عليه السلام فميّت خارج عن دار التكليف وعن الحاجة إلى الزجر فلم يكن في القول المذكور له فائدة ، بل فيه إيذاء وتخجيل والله أعلم»[2] ، وهناك رأي آخر في بيان هذه المحاجة : «أن اللوم ساقطٌ عن آدم عليه السلام من قِبل موسى ، إذ ليس لأحد أن يعيّر أحدًا بذنب كان منه ؛ لأن الخلق كلهم تحت العبودية أكفاء سواء ، ولكن اللوم لازم لآدم عليه السلام من قِبل الله سبحانه وتعالى ؛ إذا كان قد أمره ونهاه فخرج إلى معصيته وباشر المنهي عنه ، ولله الحجة البالغة سبحانه لا شريك له»[3] .

- **القائد المسؤول** ، فآدم عليه السلام أول الأنبياء ، ومنه تناسلت الذرية ، «خلقه الله بيده ، وأسجد له الملائكة ، وعلّمه أسماء كل شيء»[4] ، وإلى آدم عليه السلام يلجأ الناس يوم الحشر كما ثبت في حديث الشفاعة : «. . . فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم ، فيأتون آدم عليه السلام

---

(١) شرح صحيح البخاري ، ابن بطال : ٣١٥/١٠ .
(٢) المنهاج : ٢٠٢/١٦ .
(٣) طرح التثريب ، العراقي : ٢٥١/٨ .
(٤) الخصائص الكبرى ، السيوطي : ٣٠٤/٢ .

فيقولون له : أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري . . .» (1) .

- **قلب الأب الحنون الرفيق** ، ففي يوم القيامة هو أول من يُدعى على رؤوس الخلائق ، للحديث الوارد عن النبي ﷺ : «أول من يدعى يوم القيامة آدم ، فتراءى ذريته ، فيقال : هذا أبوكم آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بعث جهنم من ذريتك ، فيقول : يا رب كم أخرج؟ ، فيقول : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين ، فقالوا : يا رسول الله إذا أُخذ منا من كل مائة تسعة وتسعون ، فماذا يبقى منا؟ ، قال : إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود» (2) .

قال القسطلاني : «خص آدم بذلك ؛ لأنه والد الجميع ، ولكونه كان قد عرف أهل السعادة من أهل الشقاء» (3) .

وورد في حديث الإسراء عن رسول الله ﷺ : «. . .فلما علونا السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أَسْوِدَة ، وعن يساره أَسْوِدَة ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت

---

(1) سبق تخريجه ص : ٤١١ .

(2) رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : ، باب : كيف الحشر ، (رقم الحديث : ٦٥٢٩) .

(3) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري : ٩/٣٠٦ .

من هذا يا جبريل؟ قال : هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه ، وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى . . . »[(١)] .

والمراد « أنه ﷺ وجد آدم عليه السلام ونسم بنيه من أهل الجنة والنار ، فهو ينظر إلى أرواح المؤمنين من ذريته من أهل الجنة قِبَل يمينه فيضحك ، ثم ينظر إلى أرواح الكافرين من أهل النار قِبَل شماله فيبكي ، فيه شفقة الوالد على ولده ، وسروره بحسن حاله ، وحزنه وبكاؤه لسوء حاله »[(٢)] .

- **العبد المتلطّف المتأدّب في حق من رباه وأسكنه جناته** ، فمعنى (لبيك وسعديك) الواردة في الحديث[(٣)]: « لبيك : أي مقيم على طاعتك من قولهم: لب فلان بالمكان وألَب به إذا أقام به ، ومعنى سعديك : من الإسعاد والمتابعة ، وقيل : لبيك : أي إجابة بعد إجابة ، وسعديك : إسعادًا لك بعد إسعاد ، . . .والإجابة بنعم ، وكل ما يفهم منه الإجابة كاف ، ولكن إجابة السيد والتشريف بالتلبية والإرحاب والإسعاد أفضل »[(٤)] .

وزاد فيه العيني معنًى فقال : « معنى سعديك في العبادة : أنا متبع أمرك ، غير مخالف لك فأسعدني على متابعتك إسعادًا ، وأما في إجابة المخلوق فمعناه : أسعدك إسعادًا بعد إسعاد ، أي : مرة بعد أخرى »[(٥)] .

---

(١) أخرجه الشيخان ، رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : ذكر إدريس عليه السلام ، (رقم الحديث :٣٣٤٢) ، ورواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات ، (رقم الحديث : ٢٦٣) .

(٢) المنهاج ، النووي :٢١٩/٢ .

(٣) ينظر : ص ٤١٨ .

(٤) شرح صحيح البخاري ، ابن بطال : ٥٠/٩ .

(٥) عمدة القاري : ٢٥٥/٢٢ .

« والجواب بمثل لبيك وسعديك زيادة في الأدب ، وفيه الانفراد عند قضاء الحاجة ، وفيه أن امتثال أمر الكبير والوقوف عنده أولى من ارتكاب ما يخالفه بالرأي ، . . . وفيه استفهام التابع من متبوعه على ما يحصل له فائدة دينية أو علمية أو غير ذلك »(١).

- **المغترب عن وطنه المتلهّف إلى العودة** ، « لمّا خلق آدم عليه السلام أُسْكِنَ هو وزوجته الجنة ، ثم أُهبطا منها ووُعِدا بالرجوع إليها ، وصالح ذريتهما ، فالمؤمن أبدًا يحنّ إلى وطنه الأول ، وحب الوطن من الإيمان ، كَمَا قِيلَ :

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأوّل منزلِ »(٢).

- **العبد الضعيف** ، سُمي آدم عليه السلام بهذا الاسم (آدم) ؛ « لأنه خلق من أديم الأرض ، وهذا عن ابن عباس » (٣) ، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قَالَ : « لمّا صوّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ، ينظر ما هو ، فَلَمّا رآه أجوفَ عرف أنه خُلِق خلْقًا لا يتمالك »(٤).

وفي معنى الحديث الذي يدلنا على ضعف آدم عليه السلام وذريته من بعده : أن « الأجوف : ضعيف الصبر من وجهين ، أحدهما : أنه لا يثبت ثبوت ما ليس بأجوف ، والثاني : أنه مفتقرٌ إلى الغذاء لا يصبر عنه ، فيطمع فيه إبليس من الوجهين » (٥) ، « ومن له جوف لا يتقوّى بعضه ببعض ، ولا قوة ولا ثبات ، بل يكون متزلزل الأمر ، متغير الحال ، متعرضاً للآفات . . . »(٦).

---

(١) فتح الباري ، ابن حجر : ٢٩٦/١١ .

(٢) جامع العلوم والحكم ، ابن رجب : ٣٧٩/٢ ، وينظر : ديوان المعاني ، أبو هلال العسكري : ١٨٨/٢ .

(٣) فتح الباري ، ابن حجر : ٣٦٠/٦ .

(٤) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك ، (رقم الحديث : ٢٦١١) .

(٥) كشف المشكل من حديث الصحيحين ، ابن الجوزي : ٣٠٨/٣ .

(٦) مرقاة المفاتيح ، الهروي : ٣٦٣٦/٩ .

« لا يتمالك : لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات ، وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه ، وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب ، والمراد جنس بني آدم »[1].

- **المخلوق الجميل** ، « قال بعض العلماء في قوله ﷺ : « فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن »[2] معناه : أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام وهذا مناسب ؛ فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ، ونفخ فيه من روحه فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه »[3] .

عندما خلق الله تعالى آدم عليه السلام عرّف الله تعالى ملائكته بخلقه ، وأمرهم بالسجود له ، « حينما يرون نفخة من روح الله تعالى تدب في هذا الجسد المادي ، قال لهم : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ** ﴾ (ص:٧٢) .

وهكذا تكاملت الإنسانية في آدم عليه السلام ، وبدأت البشرية مسيرتها في الأرض ، . . . وأبقى الله تعالى هذا التمازج بين الجسد والروح ، سرًّا من أسرار حكمته ، بحيث لا يستطيع إنسان ما إدراك كيفية هذا التمازج ، أو اكتشاف صور التفاعل فيه .

ومن عجيب حكمة الله تعالى أن هذا التمازج يستمر ما دام لصاحبه في الدنيا حياة ، فإذا جاء الأجل في لحظة لا يعلمها إلا الله يأمر سبحانه وتعالى بانفصال العنصرين ؛ لترتفع الروح إلى بارئها ، ويعود الجسد ترابًا مرة أخرى .

وبعد تمام خلق آدم أخرج الله له من ضلعه الأيسر زوجته حواء ؛ ليكونا أول أسرة بشرية ، يجمعها الترابط ، وتتمتع بالمودة والرحمة ، ويشعر كل

---

(١) المنهاج ، النووي : ١٦/١٦٤ .

(٢) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات ، (رقم الحديث :١٦٢) .

(٣) البداية والنهاية ، ابن كثير :١/٩٧ .

طرف بدور الآخر معه ، فآدم عليه السلام يدرك دور حواء في مؤانسته ، وهو الموحى إليه ، ومهمته مواجهة الصعاب والمشاق ؛ لتعمير الأرض بخلافة الله التي اختصه بها ، يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء: ١) »[١] .

- **المقصّر الراجي عفو ربه** ، « نسي آدم أمر الله ، وانتقضت عزيمته التي كانت قائمة على امتثال أمر الله ، وهذه الآية الكريمة صريحة في أن معصية آدم كانت نسيانًا ، ولكنه في حق الأنبياء يعد معصية وذنبًا ؛ إذ قد يكون بعض النسيان تفريطًا ، والأنبياء مأمورون بالذكر وعدم الغفلة أكثر مما يؤمر به عامة الناس ؛ فيكون ترك الذكر في حقهم ذنبًا يستغفرون منه ؛ كما قال النبي ﷺ : « إنه لَيُغَانُّ[٢] على قلبي ، وإني لأستغفر اللَّه في اليوم مئة مرة »[٣] ؛ وكما جاء في المعجم من أن الغين : فتور عن الذكر ، فهنا يستشعر النبي ﷺ تقصيره ، وهو من هو! فيستغفر في اليوم الواحد مئة مرة فاللهم اغفر لنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

والنسيان من طبيعة الإنسان ، . . .ولهذا تجاوز الله لهذه الأمة عن النسيان ، الذي بمعنى عدم التذكر ، وليس بمعنى الترك لأمر الله والإعراض عنه ، حتى ينسيه الله نفسه[٤] .

---

(١) دعوة الرسل عليهم السلام ، أحمد غلوش : ٤٢ .

(٢) الغين : لغة في الغيم ، ويقال : غِين على كذا إذا غُطِّيَ عليه ، وأغان الغين السماء بمعنى ألبسها ، (ينظر : تاج الصحاح ، الجوهري : ٢١٧٥/٦) ، « والمراد هنا ما يتغشى القلب قال القاضي قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه فإذا فتر عنه أو غفل عد ذلك ذنبا واستغفر منه » ، (المنهاج ، النووي : ٢٣/١٧) .

(٣) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، (رقم الحديث : ٢٧٠٢) .

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي :٢٥٥/١١ .

وقد ذكر الشنقيطي أن آدم عليه السلام لم يكن معذوراً بالنسيان ، لذلك عاتبه ربه ، وأثبت أن التجاوز عن النسيان صار بعد ذلك من خصائص أمة محمد ﷺ[(١)] .

وقد رجّح القرطبي في قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (طه:١٢١)، تأويل الغواية بفساد العيش بالنزول إلى الدنيا بعد الجنة ، وليس الغي الذي هو الجهل ، ضد الرشد ، فلا يقال عن آدم عليه السلام : عاصٍ ولا غاوٍ ؛ كما لا يقال عن من خاط لمرة واحدة : خياط ، وإنما وقع من آدم ما وقع قبل النبوة ، ويرى الدليل : ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢٢)[(٢)] .

وقد بيّن الله تبارك وتعالى لآدم عدوّه الأبدي له ولذريته ، لكن الشيطان أتاه بصفة المرشد الناصح ، وسمى له الشجرة بـ(شجرة الخلد) ليزينها له ، فأزلّه ، « فكانت محنة إبليس أثراً لوقع الحدث الجديد على الطور السابق لآدم ، والذي لم يتهيأ لغير الطاعة والتسخير ، . . .والآدمية ليست ملائكية ولا إبليسية ، وليست جبرية تسليم وطاعة تسخير ، ولا هي محض شر وشهوة تمرد وإصرار على الضلال ، وإنما هي تحقيق للذات عن تمييز ووعي وإرادة ، وهي تجربة الابتلاء بتعرض آدم للغواية فيغوى ، ثم يؤرقه ضميره وتحاسبه النفس اللوامة فيندم ويتوب ، ويمضي ليمارس خلافته في الأرض فلا تكون حياته كلها من بدء خلقه إلى آخر وجوده إلا معركة متصلة بين الخير والشر ، يتحمّل فيها تبعةَ عمله ومسؤولية اختياره ، وكل خير من الإنسان مَجدٌ لا تحظى به الملائكة المسخرة ، وأي شر تنسخه التوبة ويكفر عنه حساب النفس اللوامة ، وهذه هي الآدمية السوية التي استحقت الخلافة في الأرض »[(٣)] .

---

(١) ينظر : أضواء البيان : ١٠٤/٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٢٥٧/١١ .

(٣) مقال في الإنسان دراسة قرآنية ، عائشة بنت عبد الرحمن : ٢٨ .

ارتباط شخصية آدم عليه السلام بالاعتراف الوارد :

قوله تعالى : ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٢٢،٢٣) .

قوله تعالى : ﴿ **فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ** ﴾ (طه:١٢١) .

عندما وقعت هذه المعصية من آدم عليه السلام ، سارع يبتغي عفو مولاه ، في مناجاة حانيةٍ شجيّة ، وهي « من أبرز الأساليب التي ألقت فيها الكلمات والحروف ظلالها على نفسية الشخصية وتلاءمت فيها الأصوات مع العاطفة ، في مشهد من مشاهد الندم والتوبة : ﴿ **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٢٣) ، فأسلوب الدعاء الذي استخدماه يعكس ما كانا عليه وقتها من ندم ، وحزن ، وانكسار ، وخوف ، ورجاء ، بسبب ما بدر منهما من معصية لله ومخالفة لأمره ، ولقد تناسب صوتهما الخاشع مع موقف مناجاتهما لله ، وما صاحب تلك المناجاة من خوف ورجاء .

كما أسهمت الألف المدية التي جاءت بعد النون في إطالة زمن النطق بالصوت ، وهذه الإطالة تناسب حالة الداعي لله المبتهل إليه ، وكأنا بالصوت يخرج من أعماق نفسيهما ، مما يدل على شدة الحاجة والرغبة ، وعمق الندم والأسف ، كما أن الإيقاع الذي أحدثه صوت النون الممدودة المكرر في الدعاء ، أوحى بتصاعد تأوهاتهما ... وغنة النون المشددة في ﴿ **لَنَكُونَنَّ** ﴾ ساعدت في إبراز ألمهما وكشف حسرتهما .

وتكرار النون في الاعتراف ملفت ، وهذا يجعلنا نعود إلى مخرج النون الذي يتصف بالجهر فأظهر قوة الشعور بالذنب ، ويتصف بالتوسط ، وهو ما يتناسب مع حال الداعي الذي ينبغي له التأدب مع الله لاسيما وهو في انتقال بين خوف ورجاء .

وتكرار حرف الراء ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ ، عند طلب المغفرة والرحمة ، والخوف من الخسارة ، بصوت الراء الترددي يوحي بتكرار الطلب والإلحاح في الرجاء»[1].

- ظهر اعتراف آدم عليه السلام وزوجته سلوكاً بالاستتار بورق الجنة ، بعدما فقدا سترهما عند الأكل من الشجرة ، وهو ما عُبِّر عنه بالطفق[2] ، وهذا أول علامات إنكار المعصية التي حصلت ، مع مفاجأة انكشاف العورة التي أحدثت ألمًا للعبد الذي أسجد الله له ملائكته .
- الابتداء بالربوبية ﴿ **قَالَا رَبَّنَا** ﴾ : آدم عليه السلام هو العبد الفقير إلى عفو ربه ، وقد علمه ربه الأسماء كلها ، وأسجد له الملائكة ، ورأى في الجنة من الغيب الذي لم يره أحد قبله من الأنبياء ، ما جعله يوقن باصطفاء الله للمؤمنين ، لكنه يعلم أن الله المربي سبحانه ، والأحق بالربوبية يقبل عبده العاصي فتقدم إليه باعترافه ، فذكر هذه الصفة لما يكون فيها من الذلة والانكسار لله عز وجل .
- ﴿ **ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا** ﴾ : على الرغم من كون الأكل من الشجرة المعصية الأولى التي حدثت لآدم عليه السلام ، لكنه سمّى ما حدث منه ومن زوجه(ظلمًا للنفس) ، فلم يسلم أبونا عليه السلام وزوجه من كيد الشيطان ، وهو المصطفى الذي اختاره الله بنبوته ، وأراه من عالم الغيب مالم يره فالواجب

---

(١) شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتور نورة الرشيد : ٣٥١ .
(٢) ينظر : ص ٣١٩ .

علينا أن نحذر من باب أولى ، ولهذا قال الله خطابًا لنا : ﴿ **يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ** ﴾ (الأعراف:٢٧) .

- ﴿ **وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا** ﴾ : الحصر ، يدل على شدة الحاجة من العبد الضعيف لربه القوي سبحانه ، وأنه لولا تفضّل الله عليه لم يكن شيئًا ، والتأكيد في النون الثقيلة ﴿ **لَنَكُونَنَّ** ﴾ ، يبيّن هذا المعنى الذي أضاف لاعتراف آدم عليه السلام وزوجه معنى الضعف والحاجة لمغفرة الله ورحمته .
- ﴿ **وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا** ﴾ : تخصيص المغفرة والرحمة ؛ لأنه العبد ذو القلب المشفق من ذنبه ، الراجي عفو ربه ، وقع في التقصير في جناب الله جل جلاله لأول مرة ، بعد أن أنعم عليه المنعم المتفضل ، وحذّره من الشيطان غير أن تقصير العبد الضعيف قد وقع! فهنا يرجو العبد مغفرة ربه لذنبه ، وتدارك رحمة الرحيم لقلبه وعمله ؛ فيتجاوز محنة التقصير ، فيكون في كنف الله جل جلاله ، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « لن يُنجي أحدًا منكم عمله » قال رجل : « ولا إياك يا رسول الله؟ ، قال : « ولا إياي ، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة ، ولكن سدّدوا »[1] ، وأما تقديم المغفرة على الرحمة فقد سبق بيانه[2] .
- ﴿ **لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ** ﴾ قال البيضاوي : « وإنما سمى نفسه ظالمًا وخاسِراً ؛ لأنه ظلم نفسه وخسر حظه بترك الأوْلى »[3] ، وهكذا العبد المؤمن الذي

(١) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : صفة القيامة والجنة والنار ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ، (رقم الحديث : ٢٨١٦) .

(٢) ينظر : ص ٣٢٠ .

(٣) أنوار التنزيل : ٧٤/١ .

لا يتحمّل ثِقل زلّته ، وكلما زاد تقواه زاد استصغار نفسه عند ذنوبه ، والأنبياء أشد الناس تُقًى وورعًا ، وهم الأشد ابتلاءً .

وبهذه التوبة التي تاب الله بها عليهما « خرج الزوجان من الجنة طاهرين ، كما دخلاها طاهرين ، فلقد قبل الله توبتهما ، ليبدآ بعد ذلك حياتهما في الأرض نقيين من المعصية التي اقترفاها .

وفي هذا درسٌ عظيم في وجوب المبادرة إلى التوبة والاستغفار والاعتراف بالذنب ، والندم على فعله ؛ ليحظى العبد بتوبة ربه عليه ، ورفعة درجاته عنده ، فلقد اعترفت حواء وآدم بذنبهما ، وندما على فعلهما ، واستغفرا ربهما ، فغفر لهما ، بينما استكبر إبليس وأخذته العزة بالإثم ؛ فطرده الله من الجنة ، ولعنه ، وغضب عليه ، وجعل النار مثواه ومن اتبعه »[(١)] .

* * *

١- البشر دون الأنبياء .

بعد استقراء الآيات قُسّم البشر دون الأنبياء إلى قسمين :

١- شخصيات عاصرت الأنبياء :

أ- شخصيات آمنت بعد كفر ، ملكة سبأ أنموذجًا .

ب ـ شخصيات لم يرد عنها الإيمان ، امرأة العزيز أنموذجًا .

٢- شخصيات لم ترد نصوص بمعاصرتهم للأنبياء :

أ - المشركون الذين لم يخصصوا بزمن ، مثل أصحاب الجنة وغيرهم ، وقد صعب البحث في شخصياتهم ؛ لعدم تحديدها في الكتاب والسنة ، فلم يذكر عنها ما ييسّر تتبعها ، وتوثيق سماتها باعترافاتهم .

* * *

---

(١) شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتور نورة الرشيد : ١٠٥ .

أ- شخصيات آمنت بعد كفر :

١- شخصية ملكة سبأ [1] :

في قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤) .

سماتها[2] :

- **الملكة الحكيمة التي لا تمضي أمرًا دون مشورة** ، فعندما وصلها كتاب سليمان عليه السلام قرأته على قومها مبلّغةً ومستشِيرةً ، فقالت : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ (النمل:٢٩) ، ثم قالت بعد أن قرأته عليهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (النمل:٣٢) ، عبّرت عن الجواب بالفتوى التي هي الجواب في الحوادث المشكلة غالبًا[3] ؛ تهويلاً للأمر ، ورفعًا لمحلهم ، بالإشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمّة ، وأظهرت لملئها أهمية شهادتهم على كل أمرٍ تقطعه من أمور مملكتها ؛ استعطافًا لهم ، واستمالةً لقلوبهم ، لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير[4] ، «وفي هذا تبدو سمة الملكة الأريبة ؛ فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أُخِذَتْ بهذا الكتاب الذي أُلقي إليها من حيث لا تعلم ، والذي يبدو فيه الحزم والاستعلاء ، وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهي تصف الكتاب بأنه ﴿ كَرِيمٌ ﴾ وواضحٌ أنها لا تريد المقاومة

(١) اختيارها نموذجًا للتحليل ، وتقديمها على شخصية فرعون في قسم أصحاب الألقاب في القرآن ؛ لأن تتبع شخصية فرعون وتحديد هويته ليست واضحة في الكتاب والسنة ، فلن يتحقق الغرض من الدراسة في بيان الترابط بين الاعتراف والشخصية .

(٢) مرتبة وفقًا لأظهرها في النصوص .

(٣) ينظر : الفروق اللغوية ، العسكري : ٤٩٥/١ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٢٨٤/٦ .

والخصومة ، ولكنها لا تقول هذا صراحة ، إنما تمهّد له بذلك الوصف ، ثم تطلب الرأي بعد ذلك والمشورة!»[1] .

- **الإنصاف وبعد النظر** ، عندما قرأت كتاب سليمان عليه السلام وصفته بالكرم فقالت : ﴿ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ ؛ لما رأت من وجازة لفظه ، وبلوغ معناه ؛ ولأنه مختوم ، ومرسل من عند ملك كريم ، ومفتتح بهيبةٍ لقارئه : ﴿ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (النمل:٣٠)[2] .

- **الحظوة بالمحبة والاحترام والتقدير** ، قال تعالى : ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأۡسٍ شَدِيدٍ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ (النمل:٣٣) ، فقد أظهر قومها استعدادهم للقتال ، لكنهم لم يمضوا في الأمر وأبدوا توقفهم التام عند رأيها ثقة بها وبتدبيرها ، فهم خاضعون لها ورهن إشارتها .

- **الحنكة والعلم بالسياسة وما يتطلبه الحكم** ، قال تعالى : ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ (النمل:٣٤،٣٥) ، وهذا من حسن نظرها وتدبيرها ، «فقررت أن تختبر سليمان عليه السلام بهدية ، وتعطيه فيها نفائس من الأموال ، فإن كان ملِكًا دنيويًّا أرضاه المال وسهل التعامل معه بالإغراءات المالية ، وإن كان نبيًّا لم يرضه المال فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه ، . . . قال قتادة : يرحمها الله إن كانت لعاقلة في إسلامها وشِرْكها ، قد علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس»[3] .

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب :٣٨٢/٥ .
(٢) ينظر : الكشاف ، الزمخشري : ٤٥٢/٤ .
(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي :١٩٦/١٣ .

- **الفطنة والنباهة ،** فعندما دخلت الصرح ورأت عرشها منكّرًا ، دار حوارٌ أظهر فطنتها في قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ** ﴾ (النمل:٤٢) ، « فقد رأته على هيئة لا تعرفها فيه ، وتميزت فيه أشياء من عرشها ، لم تجزم بأنه هو ، ولا نفته النفي البالغ ، بل أبرزت ذلك في صورة تشبيهية فقالت : ﴿ **كَأَنَّهُۥ هُوَ** ﴾ وذلك من جودة ذهنها ، حيث لم تجزم في الصورة المحتملة بأحد الجائزين من كونه إياه ، أو من كونه ليس إياه »[1]، وهذه الملكة ذات التيقّظ والحذر ، فهذا الرد « يدل على ثبات كبير ، وفكر ثاقب ، ونظر ثابت ، وطبع منقاد ، لتجويز المعجزات والإذعان لها مع دهشة القدوم ، واشتغال الفكر بما دهمها من هيبته وعظيم أمره ، فعلم سليمان عليه السلام رجاحة عقلها »[2] .
- **العقل والفهم ،** غير أنه لم يكتمل لإشراكها بالله ففي قوله تعالى : ﴿ **وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ** ﴾ (النمل:٤٣) ، قال البقاعي : « وإن كانت في غاية من وفور العقل ، وصفاء الذهن ، وقبول العلم ، كما دل عليه ظنها في عرشها مما لا يهتدي له إلا من عنده قابلية الهداية ، لكن عبادتها للشمس من دون الله كانت سبباً في اقتفائها لآثار قومها في الدين ، فصديت مرآة فكرها ، ونبت صوارم عقلها ، حتى آمنت فانجلت عنها الغشاوة . . . »[3].
- **الاحتراس والفراسة ،** عندما قررت بلقيس أن تأتي سليمان عليه السلام مع قومها مسلمين ، أراد « مفاجأتها واختبار مظنَّتها » [4] بما يؤثر في قلبها ، ويقودها إلى الإسلام بيقين ، وتعلم أن سليمان عليه السلام نبي من ربه ، فجاء بعرشها من مملكتها ليكون ماثلاً أمامها حين وصولها ، « فأراها سليمان عظمة حضارته ، فانتقل بها حيث تشاهد أثرًا بديعًا من آثار الصناعة

---

(١) البحر المحيط ، أبو حيان : ٢٤٢/٨ .

(٢-٤) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ١٢٨/٦ .

الحكيمة وهو الصرح ، ويطلق على صحن الدار وعرصتها ، . . .فهو ساحة معنية للنزهة فُرِشت بزجاج شفاف ، وأجري تحته الماء حتى يخاله الناظر لجة ماء ، وهكذا رأته ، وهذا من بديع الصناعة التي اختصت بها قصور سليمان في ذلك الزمان لم تكن معروفة في اليمن على ما بلغته من حضارة وعظمة بناء ، . . . وكشْفُ ساقيها كان من أجل أنها شمّرت ثيابَها كراهيةَ ابتلالها بما حسبته ماء»[1] ، وهذا من طبع من اعتاد الرفاهية ، والثوب الحسن ، والاهتمام بالمظهر ، لاسيما وهي في مقام الملوك ، وتُستَقْبَل الآن عند سليمان عليه السلام .

- **الاستسلام للحق بعد بيانه ،** دل على مبادرتها لامتثال الأمر ، وسرعة دخولها عبّرت عنها الفاء فقال تعالى حكايةً عنها : ﴿ **فَلَمَّا رَأَتْهُ** ﴾ وعبّر بما هو من الحسبان دلالة على أن عقلها وإن كان في غاية الرجاحة ناقصٌ لعبادتها غير الله فقال : ﴿ **حَسِبَتْهُ** ﴾ ؛ لشدة صفاء الزجاج ، واتصال الماء بسطحه الأسفل ، واللجة غمرة عظيمة من ماء ، فعزمت على خوضها إظهاراً لتمام الاستسلام ﴿ **وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا** ﴾ أي لئلا تبتل ثيابها فتحتاج إلى تغييرها قبل الوصول إلى سليمان عليه السلام[2] .
- **الأنثى الحييّة** ، يظهر من ثوبها الطويل المُلوكي السابغ ، الذي يصوّره قول الباري سبحانه : ﴿ **قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا** ﴾ ، ليظهر لنا أن إرخاء الثياب ، وتغطية القماش للبدن هو فطرةٌ ، قبل أن يكون أثرًا للغنى والكرم من قديم العصور ، حيث يكون إزار المرأة طويلاً ضافيًا كما كان ثوب بلقيس الذي اضطرّها لكشف ساقيها خشيةَ أن تبتل بالماء فيسوء منظرها ، وهي تكره ذلك فهي الملكة صاحبة العرش والجاه ، المكرّمة في قومها ، المنعّمة في مملكتها .

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٩/٢٧٦ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ٦/١٢٨ .

- **تغليب جانب السلم والموادعة على جانب الحرب** ، وهذه من السمات النفسية الأنثوية لدى الملكة حيث مالت إلى هذا ، ولجأت إلى سلاح الحيلة والكيد ، حين أرسلت إلى سليمان عليه السلام بالهدية ، مما يوحي بالضعف الأصيل والرقة لدى المرأة ، غير أن ما ظهر في القصة من حسن سياستها ، وتعقلها ، وبعد نظرها ، وقوة شخصيتها ، وقدرتها على تحمّل المسؤولية في أحلك الظروف والمواقف ، يجعلنا نؤمن بقوة المرأة في جانب بعد النظر وفهم نفسية الناس ، وبضعفها الذي يصعب معه أن ترأس قومًا ، فهي لا تستغني عن الرجل مساندًا ومدافعًا[(١)] ، وقد صدق حبيبنا ﷺ حيث قال : «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[(٢)] ، ولا يخفى أن «التدبير يحتاج إلى كمال الرأي ، ونقص المرأة مانع»[(٣)] .

ولذلك كانت لا تتولّى الأحكام العامة بالمسلمين[(٤)] ، قال ابن القيم : «وَرَد هذا في الولاية والإمامة العظمى والقضاء ، وأما الرواية والشهادة ، والفتيا والإمامة الصغرى فلا تدخل في هذا»[(٥)] .

ارتباط شخصيتها بالاعتراف الوارد :

ورد اعترافها عندما دخلت القصر في قوله تعالى حكاية عنها : ﴿ **قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (النمل:٤٤) .

---

(١) ينظر : شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتور نورة الرشيد : ٨٦ .

(٢) رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : المغازي ، باب : كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ، (رقم الحديث :٤٤٢٥) ، وكتاب : الفتن ، باب : الفتنة تموج كموج البحر ، (رقم الحديث : ٧٠٩٩) .

(٣) المشكل من حديث الصحيحين ، ابن الجوزي : ١٦/٢ .

(٤) ينظر : سبل السلام ، الصنعاني : ٥٧٥/٢ .

(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين : ٢٧١/٢ .

- ﴿ رَبِّ إِنِّي ﴾ : تأمل هنا كيف كان اعترافها بخطئها وإذعانها لسليمان عليه السلام ، وخضوعها لله عز وجل ، فقد باشرت قولها هذا بعد قول سليمان عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ ﴾ ، دون عطفٍ بواوٍ أو فاء ، وفي ذلك دلالة على حكمتها عند رؤية الحق ، ليست بحاجة إلى بسط كلام زائد في الحوار مع سليمان عليه السلام ، بل يكفي أن تخاطب ربها مباشرة معلنةً أن هذه هي لحظة التحوّل في حياتها ، « فدَعت الله بوصف الربوبية الموجبة للعبادة بالإحسان ، وجرّدت لفظ ﴿ رَبِّ ﴾ من أداة النداء ، فلم تقل : يا رب ، بل قالت : ﴿ رَبِّ ﴾ وفي هذا دلالة على شعورها بقرب الله منها ، وقربها منه »[1]، وهذا مطّردٌ في القرآن[2].

اهتدت بلقيس إلى الحقيقة و« بهرها ما رأت من آيات علمت منها أن سليمان صادق فيما دعاها إليه ، وأنه مؤيد من الله تعالى ، وعلمت أن دينها ودين قومها باطل ، فاعترفت بأنها ظلمت نفسها في اتباع الضلال بعبادة الشمس ، وهذه درجة أولى في الاعتقاد وهو درجة التخلية ثم صعدت إلى الدرجة التي فوقها وهي درجة التحلية بالإيمان الحق فقالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، فاعترفت بأن الله هو رب جميع الموجودات وهذا مقام التوحيد »[3] .

- في قولها ﴿ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ ظهر هنا ضعفها ، واحتياجها إلى القدوة ، والمعلم فهي حديثة عهد بإسلام ، ومن قومٍ أولي قوة وأولي بأس شديد ، فهي بحاجة الحماية والسند [4].

---

(١) شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتور نورة الرشيد : ٨٦ .
(٢) ينظر : ص ٧٣، ٧٤ .
(٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٧٦/١٩ ، وينظر : ص٧٢ .
(٤) ينظر : ص ٧٨ .



- لم تكتفِ بقولها ﴿ لِلَّهِ ﴾ حتى أتبعتها بـ ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فهي المنصِفة الحكيمة ، التي تعطي كل ذي قدرٍ قدره ، فكما كانت تعطي للبشر قدرهم ، فهي تعطي من عرفت أنه الإله المعبود سبحانه من دون كل المخلوقات قدره ، فتثني عليه ، وتلتجئ به في أول لحظات إسلامها .

وقد امتن الله عليها بالإسلام والاتباع لسليمان عليه السلام ، والاعتراف أن ما كانت عليه خاطئ ، رغمًا عن السيادة والرفاهية والمُلْك الذي يلبس الملوك الطغيان ، والتكبّر عن الحق ، والرغبة في الحفاظ على العرش المهيب ، لكنها كانت الحكيمة ، المترويّة في حكمها ، التي تزن الأمور ، فرأت في ملك سليمان عليه السلام ما لم يخطر ببالها ، ومع هذا كان عبدًا لله داعٍ لرسالة ربه ، فتأثّر قلبها ، وشاهدت الجمع بين الدنيا والدين ، فاكتملت رؤيتها وأذعنت إلى مولاها ، فسلكت بها منة الله ثم فطرتها وسماتها إلى معرفة الصواب بعبادة الله وحده .

وعلينا «الاتعاظ بحال هذه الملكة ، إذ لم يصدها علو شأنها ، وعظمة سلطانها مع ما أوتيته من سلامة الفطرة ، وذكاء العقل عن أن تنظر في دلائل صدق الداعي إلى التوحيد ، وتوقن بفساد الشرك ، وتعترف بالوحدانية لله فما يكون إصرار المشركين على شركهم بعد أن جاءهم الهدي الاسلامي إلا لسخافة أحلامهم ، أو لعمايتهم عن الحق ، وتمسكهم بالباطل ، وتصلبهم فيه»[1].

* * *

جـ ـ المفتونون زمن يوسف عليه السلام :

تعرض للفتنة من الرجال في زمن يوسف عليه السلام : إخوته ، حين أرادوا قتله وتغييبه عن وجه أبيهم ؛ ليظفروا بوده ، ثم جاء منهم الاعتراف بعد افتضاح أمرهم في أكثر من موضع في سورة يوسف عليه السلام ، ولكنّ المفتونة

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٧٧/١٩ .

الأكثر وضوحًا بشخصيتها واعترافها في قصة يوسف عليه السلام هي امرأة العزيز ، وقد تم اختيار شخصيتها للدراسة على إخوة يوسف عليه السلام ؛ لأن البحث في شخصية فرد ، وتتبعها بما جاء فيها من أدلةٍ تحكي سماتها أوضح لمناسبة الاعتراف من تتبع شخصيات مجموعة بكاملها .

شخصية امرأة العزيز :

مثّلت امرأة العزيز « صراع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح ، فلا تحفل حياءً أنثويًّا ولا كبرياء ذاتيًّا ، كما لا تحفل مركزًا اجتماعيًّا ، ولا فضيحة عائلية ، ... ومع ذلك تستخدم كل مكر الأنثى وكيدها ، سواء في تبرئة نفسها أو حماية من تهوى من جرائر التهمة التي ألصقتها به ، وتحديد عقوبة لا تودي بحياته ! أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها! أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى ، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة ، حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تجمل المرأة وحيائها ، الأنثى التي لا تحس في رواء هواتفها الأنثوية أمرًا يعاب أصلاً! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيته ، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعيتها ، فإن الأداء القرآني ـ الذي ينبغي أن يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفني الإسلامي ـ لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة ـ حتى وهو يصور لحظة التعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها ـ كي لا ينشئ ذلك المستنقع الكريه الذي تتمرغ في وحله بعض الكتب . . . بحجة الكمال الفني في الأداء » [1] .

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب :٤/١٩٥٤ .

سماتها[1] :

- **المرأة العقيم ، الخائنة** ، ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا** ﴾ (يوسف:٢١) ، سماها القرآن (**امرأته**) ولم تُسمّ (زوجته)؛ قد يبدو من القريب أن يترادفا فيقوم أحد اللفظين مقام الآخر ـ وكلاهما من الألفاظ القرآنية ـ ، لكننا لا نقول في زوج آدم عليه السلام (امرأة آدم)، ولا نقول في امرأة العزيز (زوج العزيز) ؛ فذلك ما يأباه البيان المعجز! وهو الذي يعطينا سر الدلالة في الزوجية مناط العلاقة بين آدم وزوجه في قصة أول زوجين من البشر . . . وبتدبر سياق استعمال القرآن للكلمتين : كلمة زوج تأتي حيث تكون الزوجية في مناط الموقف ، حكمة وآية ، أو تشريعًا وحكمًا ، في آية الزوجية قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ (الروم:٢١)، وكذلك الأمر في (أزواج) بالحياة الآخرة ، فإذا تعطّلت آية الزوجية من السكن والمودة والرحمة ، بخيانة أو تباين في العقيدة ، فـ (امرأة) لا زوج : ﴿ **ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا** ﴾ (يوسف:٣٠) ، وكذا في امرأة نوح ، وامرأة لوط عليهما السلام ، وحكمة الزوجية في الإنسان وسائر الكائنات الحية من حيوان ونبات ، اتصال الحياة بالتوالد ، فإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر بعقم أو ترمل ، فامرأة لازوج ، كامرأة إبراهيم ، وامرأة عمران ، وامرأة زكريا عليهم السلام قبل أن تنجب : ﴿ **وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا** ﴾ (مريم:٥) ، وبعد أن أنجبت تحققت الزوجية ، كما في الآية : ﴿ **فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ** ﴾ (الأنبياء:٩٠) [2] ،

---

(١) مرتبة وفقًا لأظهرها من النصوص .

(٢) ينظر : الإعجاز البياني للقرآن ، عائشة بنت عبد الرحمن : ٢٢٩-٢٣١ .

فاجتمع في امرأة العزيز الخيانة الزوجية والعقم ، فحين قال العزيز لها : ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ لأنه لم يكن يولد له ، فأراد أن يتبناه[1] ، فتحقق فيها لفظ (امرأة)[2] .

- **العاشقة** التي بالغت في طاعة الهوى ، وانصاعت لعواطفها ، وفي مدلول قوله تعالى : ﴿ **قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا** ﴾ ، الدرجة البالغة للحب : « فقد وصل الحب إلى شغف قلبها ، وهو غلافه »[3] ، وقال البقاعي : « حبه صار شغافًا لها ، أي : حجاباً ، وظرفًا محيطًا بها »[4] .

وطبعت في شخصية هذه المرأة العوامل الاجتماعية ؛ فهي زوج عزيز مصر ، ذي المنصب الرفيع في الدولة ، ومن الطبقة الحاكمة المسيطرة ، حيث تعيش حياة مترفة في قصر عظيم فسيح ، له أبواب كثيرة بدليل ﴿ **وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ** ﴾ (يوسف:٢٣) .

فعندما أحبّت يوسف عليه السلام اشتد بها العشق ، ونما في قلبها مع الأيام فظهر على شخصيتها ، بعدد من الأفعال التي قامت بها في قصة المراودة التي تفصح عن شغف هذا الحب ، منها :

- جديّة الطلب إلى الفاحشة ، ﴿ **وَرَٰوَدَتْهُ** ﴾ ، ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ** ﴾ قال ابن عاشور : « كانت جادة فيما راودته لا مختبِرة ، والمقصود من ذكر همّها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همّه بها ، لبيان الفرق بين حاليهما في الدين فإنه معصوم »[5] .

---

(١) ينظر : جامع البيان ، الطبري : ١٩/١٥ .

(٢) ينظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، دكتور عبد العظيم المطعني : ١٤٦ .

(٣) إعجاز القرآن ، أبوعبيدة : ٥٤ .

(٤) نظم الدرر : ٧١/١٠ .

(٥) التحرير والتنوير : ٢٥٢/٥ .

- تهيئة وسيطرة وتخطيط ، « يكشف النص القرآني عن أول خطوة عملية تقوم بها امرأة العزيز في سبيل تنفيذ رغبتها ، وهي خطوة ذات شقين ، فعلي : ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ ، وقولي : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، وبهذا يكون قوله تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، يصوّر تهيئة خاصة سبقت تغليق الأبواب لكن تفاصيل هذه التهيئة لم تذكر في النص القرآني ؛ لأنه لا يحسن ذكرها ، ثم تأتي خطوة تغليق الأبواب والكلام بوصفها آخر مراحل تلك المراودة ، وأصرح صورها »[1].

وفي المبالغة في غلق الأبواب الوارد في لفظ ﴿ وَغَلَّقَتِ ﴾ يفصح عن شغف الحب الذي تملّك المرأة لفعل الفاحشة ، وتظهر الشدّة على اللام سيطرة امرأة العزيز على مغاليق القصر ، قال ابن فارس : « الغين واللام والقاف أصلٌ واحد صحيح يدل على نشوب شيءٍ في شيء »[2] ، والأمان النفسي الذي أرادت أن تكسبه ليوسف عليه السلام ليتأكد من عدم إمكانية دخول أحد ، كما تؤكد الجملة ﴿ فِى بَيْتِهَا ﴾ هذا المعنى ، فيسهل عليه ما أرادت ، ولكنّ الله عصمه وحماه .

وقد كان فعلها مع الأبواب تحديداً بهذه الصياغة المتوّجة بالشَّدة ﴿ وَغَلَّقَتِ ﴾ الموحية بشِدّة التغليق ، والتأكد من إحكامه ، فقد « أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة . . . كأنها تحاول سد الأبواب لا إغلاقها »[3] ، وهذه « تهيئة خاصة لما ستتفوّه به من الطلب ، إذ يوحي هذا التصرف بالأمان والطمأنينة ، فهو ليس (إغلاقًا) بل (تغليقٌ)، وهي هي بنفسها قامت به إظهارًا للحيطة ، ونشْراً للأمان ،

(١) جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف ، دكتور عويض العطوي : ٢٤ .

(٢) مقاييس اللغة :٤/ ٣٩٠ ، مادة (غ ل ق) .

(٣) وحي القلم ، الرافعي : ١/ ٨٧ .

فالصياغة كما نرى تقدم الضمان اللازم للموقف ليكون الخطاب ليّنًا رقيقاً كما أرادت ، لأن خطاب الخوف والتوجّس لا يكون بهذه الصورة»[1] .

تلميحٌ بعد تصريح ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، قال البقاعي : «تهيأت لك وتصنعت لك خاصة ، فأقبل إلي ، وامتثل أمري»[2] ، فقد قامت بتهيئة للجمادات ، وهي الأبواب ليكون لها الجو الذي أرادت فبدا مرادها صريحًا ، وتهيئة لنفسها بملبسٍ مناسب لهذه اللحظة فاكتفت بعد تلك الأفعال الصريحة بالتلميح القولي أنها قدْ تجهزت خصّيصًا ليوسف عليه السلام فكان مقصودها واضحًا ، غير أن المرأة من طبيعتها أن لا تبدي مرادها للرجل بالقول الصريح فكأنّ شيئًا من فطرة الحياء الباقية قد شاركتها الموقف فلم تقوى على الإفصاح عمّا أرادت صراحةً ، واكتفت بما فعلت .

وقرأ هشام من بين القراء السبعة (هيت) بالهمز : (هئت لك) ، من الهيئة كأنها قالت : تهيأتُ لك[3] .

- جُرأة وإصرار ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ (يوسف:٢٥) ، التعبير القرآني بـ ﴿ وَقَدَّتْ ﴾ دون (قطعت) أو (شقّت) ؛ لأن «القطع المستأْصِلُ والشَّقَّ طولاً»[4]، «ولمّا كانت هي المخطِّطة المراودة ؛ كانت حريصة على عدم تفويت هذه الفرصة ، لذا جذبت قميص يوسف عليه السلام لمنعه ، وإن كان مثل هذا الأمر مستغربًا من امرأة ، وهذا يصوّر شدة استعار الشهوة وجنونها ؛ لأن مثلها في العقل والمكانة لا يتصور أن يحدث معه ذلك»[5]، وقد أُسند

---

(١) جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف ، دكتور عويض العطوي : ٢٤ .

(٢) نظم الدرر : ١٠/٦٠ .

(٣) حجة القراءات ، ابن زنجلة : ٣٥٨ .

(٤) لسان العرب ، ابن منظور : ٣/٣٤٣ ، مادة (ق د د) .

(٥) جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف ، دكتور عويض العطوي : ٤٩ .

الفعل إليها مع أن قوة يوسف عليها السلام لها دورٌ فيه ، وذلك « للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج ، وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح »[1] .

- **ومن سماتها : أنها الجريئة التي لا تخاف أحدًا ،** كانت جريئةً في الباطل ، وجريئةً في الحق ، فلما راودته كانت تتصرّف من « نفس تنطلق من تيار الجنس دون حرص على الشرع »[2] ، ولما اعترفت بخطئها كانت جريئة ، حيث بادرت أمام الملأ بقول : ﴿ **ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ ، وهذه الجرأة غير المعقولة منها في الباطل تكشف تأثير بيئة القصور المترفة ، وحياة المدن على الأخلاق ، وما قد يُؤثر على نظرة المجتمع للعيب والحرام، « ونلحظ في القصة استبداد المرأة ومن في طبقتها، بدليل أنها هددت يوسف عليه السلام وأوعدته بالسجن والإذلال والصغار أمام النسوة ، على الرغم من افتضاح أمرها ، وانكشاف خبر مراودتها ، وما ذاك إلا ليقينها بأن زوجها ورجال حاشيته سيبرؤونها أمام الناس ، وسيجرمون الفتى ، وهذا منطق الأقوياء وأصحاب السلطة والجاه ، إلا من هدى الله »[3].

- **ومنها : أنها السيدة المطاعة المخدومة** من الإماء والغلمان ، تملك حرية الأمر والنهي ، ولها الصولة والجولة ، والجاه والمال ، يتوافر في قصرها العظيم صنوف الطعام والشراب ، وأطباق الفاكهة ، ولديها المتكأ والسكاكين وغيرها من رفاهيات المائدة ، بدليل مأدبتها التي أعدتها لنسوة المدينة : ﴿ **وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا** ﴾ (يوسف:٣١)، بيئة متحضرة ، وحياة راقية مسيطرة [4].

---

(١) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٤/٢٦٧ .

(٢) القرآن والصحة النفسية ، جمال أبو العزائم : ٣٠ .

(٣، ٤) شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتور نورة الرشيد : ١٩١ .

- **ومنها : أنها الماكرة** التي لم ترض أن يتحدث عنها النسوة دون أن يجرّبن ما تمر به ، لتدخلهن في دائرة العشق كما دخلتها ، ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ** ﴾ (يوسف:٣١) ، نجدها عندما خافت ورآها العزيز في مشهد السوء قالت : ﴿ **مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (يوسف:٢٥) ، لكنها بعد أن انتصرت في مجلس الكيد مع نسوة المدينة ، وصار لها في حب يوسف عليه السلام شريكات استعملت لغة التهديد دون التخويف السابق فقالت : ﴿ **لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ** ﴾ (يوسف:٣٢) وهذا من مكرها .
- **ومنها أنها : سريعة البديهة ،** « حاولت تصريف الموقف لصالحها ، وتفهم نفسية زوجها في ذلك الموقف » فجأة عندما ظهر السيد ورأى المشهد المثير ، وقبل أن يسأل أو يستفسر أو يحكم ، أو يتهم أو يدين انفجرت المرأة لتحقق أمرين معًا : تبرئة نفسها ، والكيد لذلك الذي أذل أنوثتها ، فقالت بحدة : ﴿ **مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (يوسف:٢٥) ، واستعملت كلمة ﴿ **بِأَهْلِكَ** ﴾ لتحريض الزوج ، وإثارته ، فحددت له العقوبة ، بالسجن أو العذاب الأليم »[(١)]، ومن الأسرار في هذا التعبير « أنها لا تريد أن تصيب معشوقها بمكروه يؤذيه هو بعينه ، لذا أخفت اسمه عند لحظة المواجهة ، كما أن في ذلك تخفيفًا من رد يوسف عليها ، إذ لو أشارت إليه أو نسبت الأمر بصراحة إليه ربما لحدث أمر آخر ، وبهذا يتضح أن هذا الخطاب قد أدّى مطلبه على وجه مناسب ... وفي اختيار لفظ (الأهل) دون (الزوجة) من دلالة الاستقرار ما لايخفى ، وكل هذا مقصود في الخطاب الذي تريد به نصرة زوجها لها ، وترويض خصمها ، فهي هنا تقيس مشاعر مختلفة : بين استغراب ، وسؤال ، ورهبة ، وعشق ، كل ذلك استطاعت استيعابه بخطاب شامل يدل على قدرة فائقة »[(٢)].

---

(١) المدخل إلى علوم القرآن الكريم ، محمد النبهان : ٢٦٨ .

(٢) جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف ، دكتور عويض العطوي : ٤٨ .

قال أبو حيان : « وبدأت بالسجن أولاً إبقاء على محبوبها ، ثم ترقت إلى العذاب الأليم »[١] .

- **ومنها : أنها العنيفة المهدّدة** ، عندما لم تنجح محاولات امرأة العزيز لتمكين يوسف عليه السلام منها ، وفي المقابل صُدمت بدخول زوجها ورؤيتها في هذه الحال مارست مايسمى في علم النفس بـ(العنف اللعوب) ، وهو « (العنف اللعوب) أكثر أشكال العنف طبيعيّةً ولا مرضيّةً ، ويمكن أن نجده في أشكال العنف تلك التي يمارس العنف فيها بهدف إبداء المهارة ،... الشكل الأكثر أهميّةً وعمليّةً بكثير من العنف اللعوب فهو (العنف الارتكاسيّ) ، وهو العنف المستخدَم في الدفاع عن الحريّة والكرامة والملكية ، سواء الخاصّة بالمرء نفسه أم بالآخرين ، وهو متجذّرٌ في الخوف ، ولهذا السبب تماماً قد يكون أكثر أشكال العنف وجوداً ، وقد يكون الخوف حقيقيّا أو متخَيّلاً ، واعياً أو غير واع ، . . .الوجه الآخر للعنف الارتكاسي هو شكل العنف الناتج عن (الإحباط) فنحن نجد أن السلوك العدواني لدى الحيوان والأطفال والبالغين ناتج عن إحباط حاجةٍ ما أو رغبةٍ ما لديهم ، ويُمثّل هذا السلوك العدواني محاولةً ، وإن كانت غالباً هَشّة لبلوغ الغاية التي تمَّ إحباطها عبر استخدام العنف »[٢] .
- **ومنها : أنها المتحكمة في زوجها ، والمترئّسة** ، حددت العقاب لزوجها فاستجاب لها ، ولم يعاقبها ، واكتفى بقوله لها : ﴿ **وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ** ﴾ (يوسف:٢٩) .
- **ومنها أنها : المعترفة المعلنة ذنبها ،** فلما مرت السنوات وأراد الملك أن يستخلص يوسف عليه السلام لنفسه ، وسأل عن أمر النسوة معه ، أعلنت امرأة العزيز أمرها بكل صراحة ، في موقف مغاير تمام المغايرة لما فعلته

(١) البحر المحيط : ٦/٢٦٠ .

(٢) جوهر الإنسان ، إربك فروم ، ترجمة : السلام خير بك : ٥ .

مع يوسف عليه السلام في سابق عهدها ، غير أن القوة والجرأة في شخصيتها هي التي بقيت ، وهكذا « شرة الإنسان قد تتوهد لغرض خاص ، وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالي في نفسه ، وقد يجعل الزلة الأولى في خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس فيه ضعف »[(١)] .

ورجوع امرأة العزيز إلى الحق ، وإقرارها ببراءة يوسف عليه السلام معلنة أمام الجميع بنقص نفسها إذ ذاك ، يجعل المتدبر يوقن أن أمورًا قد تغيرت بشكل واضح في شخصيتها ، ومنها :

- كبر سنها ، وذهاب ثورة شبابها ، وطيشها ، وما قد يحدث في تلك المرحلة من هياج الشهوة .
- شعورها بالإخفاق والفشل في تحقيق مآربها ، فلا ضرر عليها من الاعتراف الآن إذ المطلوب ميئوس منه ، وستظهر براءة يوسف عاجلاً أم آجلاً لما كان من شهادة الشاهد من أهلها ، فخير لها الرجوع على الحق .
- الشعور بعظم ما ارتكبته في حق يوسف عليه السلام ، فجاءت اللحظة التي أرادت فيها أن توصل إليه اعترافها وانكسارها نتيجة ذنبها في حقه واتهامه بهتانًا .
- مواجهة الملك لها بالحقيقة دون أدنى فرصة للمراوغة ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ (يوسف:٥١) [(٢)] .
- مرارة انتشار خبرها في المجتمع وهي فضيحة لا تقبل التسامح ؛ لأنها خرقت سمعتها ، فلا خير لها في المكابرة والإصرار على الذنب .
- انكسار نفسها وخيبة أملها بتزلزل أنوثتها وهي في أيام الشباب والجمال أمام ذلك الصبور النبي التقي يوسف عليه السلام ، فكيف بها بعد ما مرّت

(١) تفسير القرآن الكريم ، الشعراوي : ٦٩٩٠ .

(٢) ينظر : شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتور نورة الرشيد : ٢١١ .

السنوات وولّى عنها ريعان الشباب! فلا مطمح لها الآن في إضلاله أو الانفراد به بعدما حدث من فشو أمرها .

ارتباط شخصية امرأة العزيز بالاعتراف الوارد :

جاء الاعتراف محكيًّا عنها مع استكبارها مرة في قوله تعالى : ﴿ **قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ** ﴾ (يوسف:٣٢) [(١)] ، ومرة بانكسارها في قوله تعالى : ﴿ **ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّى لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ (يوسف:٥١-٥٣) [(٢)] .

أثّرت الدلالات الصوتية في القرآن على وقع اعترافها في الحالين ، فهي عندما أكثرت نسوة المدينة من الحديث عنها وأرادت أن تذيقهن ما ذاقت ، قالت : ﴿ **فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ** ﴾ ، « فإطالة زمن النطق بالصوت عند المد في اسم الإشارة (ذا) ؛ تعظيمًا لقدره ، كما أنّ النون المغنّة في ﴿ **لُمۡتُنَّنِى** ﴾ لتناسب موقف العتاب واللوم الذي وجهته إلى النسوة ، وما يحتاجه من إطالة في زمن النطق بالصوت زيادة في تقريعهن وتأنيبهن . . .ثم إن ألف المد في قولها : ﴿ **وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ** ﴾ توحي بطول فترة مراودتها ، وحركة الضم آخر الكلمة توحي باستعلائها ، فهي السيدة التي ينبغي أن تطاع ، بينما تعكس حركة الكسر في قولها : ﴿ **عَن نَّفۡسِهِۦ** ﴾ نظرتها إلى يوسف عليه السلام ، فهو فتاها الذي لا ينبغي له إلا أن يكون أسيرًا مأمورًا ، ولكن ما فاجأها أنه تصرف على العكس مما تريد ﴿ **فَٱسۡتَعۡصَمَ** ﴾ أي بالغ في الاعتصام» [(٣)] ، فهي في ذهول مما حدث ، مما جعل اعترافها مشوبًا بالكبرياء والتعسّف والقهر ، حتى

---

(١) ينظر : ص ٨٩ .

(٢) ينظر : ص ٩٢، ٩٣، ٩٤ .

(٣) شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتور نورة الرشيد : ٣٦٢ .

إن عفة يوسف عليه السلام لم تزدها إلا رغبة فيه وتمسكاً بما تريده ، وهنا ظهرت المعاندة العاشقة التي لا تأبه بما يقوله عنها الناس في سبيل إرضاء نفسها ، وتهدئة شهوتها ، حيث قالت : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ ﴾ ، وتحولت رغبتها من كسب يوسف باللين إلى ما تريد ، حتى صارت أمرًا والعياذ بالله ووراء تركه عقوبة ، وهنا تظهر سلطتها ، واعتيادها إلقاء الأوامر والطاعة من الخدم في قصرها ، فهي لا تحتمل أن يكون أمرها مرفوضًا .

ثم أتت فورة العشق مجدداً لتطبع بصمتها على التهديد ، وتعيش المرأة صراعات تنفيذ العقوبة مع شغف الحب لهذا الرجل ، فلم تجد إلا أن تخفف العقاب بتقديم السجن على العذاب الأليم(١) .

« وأما اعترافها آخر القصة بالذنب(٢) فنجد الأصوات تتلاءم مع عاطفتها خير ملاءمة ، فالإيقاع في الصوت يتجه نحو الهبوط ، ولعل السبب في هذا هو تبدل شخصيتها من التهور والاندفاع إلى التعقل والرزانة ، ولأن المقام اعتراف واعتذار لا مقام اندفاع ودفاع ، فهو أشبه بمقام الذليل ، . . . كما أنّ في استخدامها لأداة التأكيد (إن) أكثر من مرة إيحاء بشدة حرصها على تبرئة ساحة يوسف عليه السلام ، وإثبات خطئها ، وفي هذا دلالة على تبدل شخصيتها »(٣) .

- ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ كما سبقت جرأتها في الباطل ، جاءت في موقف الحق تظهرها بكل وضوح ، وهذا من بديع الحكاية عمّا ورد من ألسنة من لم يتكلم بالعربية في النظم القرآني ، فقد حكى ما في نفوسهم بدقة متناهية ، وبلفظ غاية في الرقي والإعجاز ، واصِفًا خلجات الصدر وبواطن المواقف كأروع ما يكون الوصف .

---

(١) ينظر : ص ٩١ .

(٢) ينظر : ص ٩٢ .

(٣) شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتور نورة الرشيد : ٣٦٢ .

«بانت حصة الحق من حصة الباطل ، فظهر وجه اختيار حصحص على ظهر ، وهذا المعنى أنسب بالمقام ، وأحرى بالتقديم للتنبيه على المرام»[1].

- في ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ ﴾ يبدو لك منتهى النضج ، فقد ولّى عهد الطيش ، وصار الأمر ذائِعًا في المدينة بين النسوة ، وإذا انتشر بين النسوة فقد انتشر بين الرجال ، فأعلنت أنها لحظة انبلاج الحقيقة التي كان لسانها عنها متحفّظًا أول الأمر في مراودتها ليوسف عليه السلام ، واتهامه بأنه من أراد بها سوءًا ، فتأمل «تقديم الضمير ﴿ أَنَا۠ ﴾ وهو المسند إليه على المسند الفعلي ﴿ رَٰوَدتُّهُۥ ﴾ (يوسف:٥١) ؛ لقصر المراودة عليها لا على أحد سواها ، وتثبيتًا وتأكيدًا لبراءته عليه السلام»[2] .
- ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ : تأكيد لاختصاص المراودة في ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ ﴾ ، «وإيراد (إن) واللام مع اسمية الجملة ؛ لكمال العناية في شأنه ، وإفادة أنها قالت عن صدق وصواب ، ولم تقل : وإنه لصادق ، إشارة إلى طريق برهاني»[3] ، وكل هذه محاولات لتكفير صنيعها معه في مراودتها له .
- ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ ، اعتراف متّزن لرجلٍ حفظ شبابه ، وإحسان ربه ، وقَبِل دخول السجن وهو مظلوم لئلا يُفتن ، وهذا لم يغب عنها ، وكان بمرأى ومسمعٍ منها ، فأعلمته وهو في السجن لتصله مقالتها فيه ولو بعد تلك السنوات ، وأتمت قولها بأنها نفسها العنيدة التي استعصت عليها وأمرتها بالسوء ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ ﴾ .
- وألقت حِكَمًا في طيات اعترافها أخبرتها بها السنون ، وأرتها قصتها مع يوسف عليه السلام تحديدًا مآلات الأمور ، ومعية الله للعبد ونصره له ،

---

(١) حاشية القونوي : ٣٥٣/١٠ .

(٢) دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، منير المسيري : ٤٤٢ .

(٣) حاشية القونوي : ٣٥٣/١٠ .

وعقوبته بالمقابل وخذلانه ﴿ **وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ** ﴾ ، ﴿ **إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ ، وهنا اكتمل نضجها ، واستقرت عاطفتها ، وعالجت فترة انقطاع يوسف عليه السلام عنها في السجن داء العشق المتمكن منها فأتمّ الله لها الشفاء منه ، وعادت لرشدها .

* * *



المطلب الثاني

شخصيات من عالم الغيب

عالم الغيب :

المعنى اللغوي : جاء في لسان العرب : «الغيب كل ما غاب عنك ، . . . وسمعت صوتًا من وراء الغيب ، أي : من موضع لا أراه»[(١)] .

المعنى الشرعي :

لم تكن التعاريف في بداية التأليف تظهِر المصطلح الدقيق لـ(الغيب) ، ثم جاء في تعريفه عند المحدثين : «الغيب ما غاب عن الحس ، وأدركه الإنسان بتحليله الفكري ، أو بالخبر اليقيني عن الله ورسوله ، أو يبقى سرًّا مكتوماً يعجز الإنسان عن إدراكه ، ولا يعلمه إلا اللطيف الخبير»[(٢)] .

قال ابن تيمية في موقفه من الأشاعرة : «يظنون أن الفرق بين الغيب والشهادة هو الفرق بين المحسوس والمعقول ، وهذا أحد مداخل ملاحدة الباطنية والصوفية وغيرهم ، والحق أن الغيب ليس غير المحسوس ؛ بل الغيب يمكن إحساسه ، والله تعالى أعظم الغيب ، وهو يُرى»[(٣)] .

وكان لابد من تحرير المصطلح في البدء إذ «الغيب بمعناه اللغوي الواسع يكتنف جوانب حياتنا في المبدأ والمصير وما بينهما ، فالكون يعجّ بعوالم يغيب أكثرها عن حواسنا ، ولا نكاد نعلم عنها إلا شيئًا يسيرًا ، والغيب الذي

---

(١) ابن منظور :٦٤٥/١ ، مادة (غ ي ب) .

(٢) رحلة عبر الغيب ، عبد الكريم عثمان : ٢٥ .

(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، عبد الرحمن المحمود : ١٢٤٢/٣ .

وصلنا عن طريق الخبر الصادق هو مايجب علينا الإيمان به ، ومسائله كثيرة متنوعة ترجع كلها إلى أركان الإيمان الستة التي جعلها النبي ﷺ تعريفًا له في خبر جبريل المعروف[1] . . . ، وقد أكّد أهل السنة والجماعة على أن للغيب حقيقة يجب الإيمان بها ، كما تدل عليها اللغة ومعانيها ، وإنما نفوّض علم كيفيتها إلى الله عز وجل ، إذ لم نعايشها بحواسنا ، ولا تدرك كنهها عقولنا »[2].

وستكون الشخصية المدروسة من عالم الغيب هي الشيطان ـ عليه لعنة الله ـ ، وفي تحليلها عبرٌ ودروس .

وعند تصنيف الشخصيات المعترِفة من عالم الغيب كانت على النحو التالي:

شخصيات من عالم الغيب :

١- الملائكة .

٢- الجن .

٣- الشيطان .

ولكن التحليل كان للشخصية الأخيرة للأسباب التي سأوردها عند الحديث عن كل شخصية .

١- الملائكة :

شخصية الملائكة من الشخصيات المعترفة ولذلك صنفتها في هذا القسم لاعترافها في قوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (البقرة:٣٢) ، غير أنهم ﴿ **لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (التحريم:٦) ، وترك الكلام فيهم أولى ، وهم عدد غير معيّن ، وتتبع

---

(١) رواه مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامات الساعة ، (رقم الحديث :١٠٢) .

(٢) أصول الإيمان بالغيب وآثاره ، دكتور فوز كردي : ٢٤ ، ٢٣ .

سماتهم يستعصي فتكون دراستهم في هذا المجال من المحال ، وبهذا يتحقق العذر ، وأرجو أن أنال به الأجر .

٢- الجن :

شخصية الجن جاء اعترافها في قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا** ﴾ (الجن:٩).

وتطبيق الدراسة على شخصيتهم يصعب لكون عددهم غير معين ، ولم يذكر عنهم ما يسهل تتبعه في شخصياتهم في القرآن والسنة .

٣- الشيطان :

هو الشخصية التي اخترتها للتحليل ، لأنها معيّنة ، ووردت آيات كثيرة عنها في القرآن والسنة ، غير أني سأقتصر فيها على ما ورد في كتاب الله عز وجل ؛ لأن الحديث عنها واسع ، والأدلة فيها كثيرة في السنة وسيكون حصرها أهلاً لبحث مستقل ، وسأورد موضع اعترافها في التحليل .

شخصية الشيطان :

تظل هذه الشخصيّة رمزٌ مرتبطٌ بالشرّ والمقت ، وقد « دعا الله الشيطان في القرآن بسبعين اسمًا قبيحًا[1]،... وذكره الله عزّ وجلّ باسمه المخبر عن إبلاسه ، المنبئ عن حرمانه ويأسه في مواضع من كتابه العزيز ، قال ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة:٣٤) »[2]، جاء اعتراف الشيطان في مواضع متلبّساً بالكبْر مع الإصرار ، في قوله تعالى : ﴿ **وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ**

---

(١) لو كانت هناك صفة أنسب من (قبيحًا) لكان أولى ؛ لأن الله عز وجل هو الداعي بها .

(٢) بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي : ١٨٠/١ .

خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴾ (النساء:١١٩) [(١)] ، وفي موضع الآخرة ذُكر اعترافه ذليلاً بإخلافه الوعد مع الخيبة والضعف في قوله تعالى : **﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾** (إبراهيم:٢٢) .

سماته[(٢)] :

- **الكِبْر**[(٣)] ، عندما ظن أن مادة خلقه وهي النار خير من مادة خلق آدم عليه السلام وهي الطين فقال : **﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾** (الأعراف:١٢،١٣).
- **الضعف والصَّغار** مع التظاهر بالقوة ، وقد وصفت الآيات كيده بذلك عندما أمر الله المؤمنين بقتال أولياء الشيطان فقال : **﴿ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾** (النساء:٧٦).
- **الحسد** ، قال تعالى : **﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴾** (الأعراف:٢٠) ، وقال تحذيراً من فعله المستمر حتى قيام الساعة : **﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾** (الأعراف:٢٧) .

---

(١) ينظر : ص ١٥١ فيها تتمة الآيات .

(٢) السمات مرتبة حسب أبرز ما اتصف به الشيطان وكان مُخرجًا له من الجنة ، ابتداءً بالسمات الشخصية ثم المتعدية .

(٣) لن تكون السمات بصيغة الفاعل كما كانت في شخصيات عالم الشهادة ؛ لأن الشيطان عليه لعنة الله ـ على سبيل المثال ـ يستكبر وليس متكبّرا ولا يرقى إلى أن يكون كذلك فهو الذليل الضعيف ، أمّا قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ هي من الصّغار فيستحقها ففيها إذلال له .

وصفة الحسد من العدوانية التي تمارسها الشخصيات المغرورة المحبَطة ، فقد رأى الشيطان سجود الملائكة لآدم عليه السلام ، فأبى أن يسجد حسدًا لهذا المخلوق الذي أسجد الله له ملائكته ، بينما لم ينل هو هذا الشرف ، فاتخذ عداء آدم وذريته حتى قيام الساعة كما جاء في الآيات : ﴿ **قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ (الإسراء:٦٢) .

وهذه الصفة من العدوانية ناتجة عن الإحباط ، « إذ يُشكّل كل من الحَسد والغيرة شكلاً خاصّاً من الإحباط ، وهما ينتجان عن حقيقة امتلاك (ب) شيئاً ما يرغبه (أ) ، أو يكون (ب) محبوباً من شخصٍ ما يحبّه (أ) هنا يظهر الحسد والغيرة لدى (أ) ضدّ (ب) الذي يتلقّى ما يريده (أ) ولا يستطيع امتلاكه ، إنّ الحسد والغيرة إحباطان ، لا تبرزهما فقط حقيقة عـدم تمكّن (أ) مـن نـيل ما يريد ، بل وأنّ الشخص الآخر مُفَضّلٌ أيضاً . وتعتبر قصّة قابيل ، غير المحبوب لا لذنبٍ ارتكبه ، الذي قتل أخاه المُفَضّل ، وقصّة يوسف وأخوته ، هما نسختان تقليديتان للحسَد والغيرة »[(١)] .

- **الكذب** ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ (النساء:١٢٠) و(الإسراء:٦٤) ، وقد ورد عنه في القرآن شاهدان يوضحان هذه الصفة التي يتخذها شعارًا ، مرة في سورة الأنفال في موقف القتال في الدنيا : ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ (الأنفال:٤٨) ، ومرة في موقف القيامة حيث كان فيه اعترافه الكسير حين قال : ﴿ **وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ**

(١) جوهر الإنسان ، إربك فروم ، ترجمة : سلام خير بك : ٥ .

فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) .

- **الوسوسة والإغواء** ، كما حدث في قصة آدم عليه السلام : ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ** ﴾ (الأعراف: ٢٠)، ويكون ذلك بعدة طرق ، منها :
- التخويف ، ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ** ﴾ (آل عمران: ١٧٥) .
- النزغ ، والرجز ، والطيف الشيطاني ، ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ (الأعراف: ٢٠٠،٢٠١)، ﴿ **وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ** ﴾ (الأنفال: ١١) .
- الاقتران بضعيف التحصين أو التلبس به ، ومصاحبة الفجرة ﴿ **وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا** ﴾ (النساء: ٣٨)، ﴿ **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ** ﴾ (البقرة: ٢٧٥) ، « والشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبهما ، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان ؛ لأن الحاسد شبيه بإبليس ، وهو في الحقيقة من أتباعه ؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسداً ، فالحاسد من جند إبليس »[1].

---

(١) بدائع الفوائد ، ابن القيم : ٢/٤٦٠ .



- النسيان ، وقد نسب النسيان في مواضع الحق ، أو الخير للشيطان كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام:٦٨)، وجاء في قصة موسى عليه السلام وفتاه كذلك ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ (الكهف:٦٣).

- التدرج في التسويل بالخطوات ـ كما وصفت الآيات ـ ليهوّن المعصية على بني آدم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة:١٦٨) .

ارتباط شخصية الشيطان بالاعتراف الوارد :

كان ذنب الشيطان الذي منعه السجود لآدم عليه السلام ، هو الحسد[1] ومنه كانت كل مكائد الشيطان لبني آدم ، والتي اعترف أنه سيقترفها حتى قيام الساعة.

- نون التوكيد الثقيلة واعتراف الشيطان :

لم تخل اعترافات الشيطان في مواضع اعترافه مع الاستكبار والإصرار من نون التوكيد الثقيلة[2]، وأسلوب التهديد والقسم الذي كشفت فيه الآيات شخصية هذا المعاند العاصي الذي سيظل على ذنبه حتى يأتي وعد الله ، وحينها ستنقلب لهجته المعاندة وأسلوبه المتبجح المهدد إلى ضعف وخضوع للباري سبحانه لما يرى من يوم القيامة وكبرياء الله وقهره وجبروته سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ

(١) جامع العلوم والحكم ، ابن رجب :٢/٢٦٠ .
(٢) ينظر : ص ١٥١، ١٥٢، ١٥٥ .

أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧) ، وما شابهها مما حُكي على لسان الشيطان من الاعترافات .

في هذا الشاهد نلحظ التعبير في إتيانه بـ (من) أولاً ثم (عن) ثانيًا ، وفي توجيه هذا قال الخضري: « عدل القرآن عن حرف الابتداء إلى حرف المجاوزة؛ تصويرًا لتنوع أساليب الغواية والإضلال التي يسلكها إبليس لصرف بني آدم عن ربهم ، وكان المتوقع لحسن المشاكلة أن يقول : ومن أيمانهم ومن شمائلهم ، كما قال : « من بين أيديهم ومن خلفهم » . . .وإنك إذا قلت : من يمينه : معناه أن مبدأ إتيانه كان من هذه الجهة ، وإذا قلت : عن يمينه : كأن معناه : أتاه منحرفًا عنها أو متجاوزًا لها ، ويأتي أحد الحرفين تبعًا لما يستدعيه النظم وتتطلبه المقاصد »[1] .

في آيات الاعتراف المستكبِر من الشيطان تتتابع الأفعال المضارعة المؤكدة بالنون الثقيلة فقارئ الآيات يستشعر هذا التهديد من هذا العدو مع ما يبثه الفعل المضارع من معاني الاستمرارية والتجدد ، فأين المتسلّحون بالحصن الحصين الذي يجنبهم تلاعبه وتزيينه ، فلابد أن يخشى المؤمن حقيقة هذا العدو ويعد العدة لاجتنابه ، ويكشف لنا الطبع الإبليسي وإصراره على الإضلال بكل ما يستطيع رغم أنه قد علم أن مقعده في نار جهنم .

ففي هذا العدول مناسبة لتلوّن الشيطان ووسوسته وطرق إغوائه ، وتدرجّه فيها عليه لعنة الله ، والسعيد من جُنِّب مزالقه ، نسأل الله السداد والسلامة .

ثم يكون اعترافه في مقام الآخرة حين يقر أنه قد وعد أولياءه وعدًا فأخلفه ، يظهر معه ضعفه وانكشاف شخصيته على حقيقتها وانهيار قواه المزعومة عند أتباعه وحزبه ﴿ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى** ﴾ (إبراهيم:٢٢) ، وهنالك يكون منكسرًا ذليلاً مدحورًا ، وهو يرى مكانه في جهنم مع المشركين .

---

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٣٢٢ .

«والشيطان هنا إبليس ، وهو رأس الشياطين . . . ، وقضي الأمر : تعين قوم للجنة وقوم للنار ، وذلك كله في الموقف ، وعليه يدل حديث الشفاعة أو بعد حصول أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار»[1] .

وقد قال الشيطان ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ ﴾ (إبراهيم:٢٢) فدلّ على أنه لا يشفع ولا ينفع كما ظنوا ، ولا هو يغيث ، ولكن التأكيد وذِكر ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ (إبراهيم:٢٢) «للإقناط الكلي من إعانة أصحاب الجحيم بعضهم لبعض اللئيم»[2].

ولأن هذا اللعين عرف بالاستكبار فهو يظل يقدّم نفسه على من دعاهم ، رغم أن أحدهم لا ينفع صاحبه ، ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ ، ولعل دلالة الاختصاص في ضمير الفصل (أنا) تدل على هذا الكبر المتعمّق في نفس الشيطان ، وتدل على صَغاره في آن ؛ فهو في ذلك الموضع يُرى ذليًلا حقيراً ومن اتبعوه يرون وضاعته وهو يتحدّث بهذا الحديث فيكون فيه زيادة إذلال وألم له ولهم .

- وفي قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي ﴾ يلحظ تكرار (لي) ، مما يدل على فخره بإغوائه بني آدم وأنانيته المتحدة مع طبعه ، كما يظهر هنا ادعاء القوة المزيفة التي تعالى بها عند أوليائه في الدنيا وأتباعه فخدعهم ، أما يوم القيامة حين تتهاوى كل القوى المزعومة وتبقى العظمة والكبرياء والجبروت للواحد الأحد سبحانه ، يعترف الشيطان بضعفه ، فيقول : ما كانت لي «قدرة ومكنة وتسلط وقهر ، فأقهركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها ، إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني»[3] .

---

(١) البحر المحيط ، أبو حيان : ١٥١/٧ ، وينظر : جامع البيان ، الطبري : ٥٥١/١٦ .
(٢) حاشية القونوي : ٥٤/١١ .
(٣) مفاتيح الغيب ، الرازي : ٢٣٦/٩ .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

المطلب الأول : شخصيات من عالم الشهادة :

- شخصيات الأنبياء عليهم السلام ، شخصية آدم عليه السلام أنموذجاً .

وقد ظهر أثر تتبع سمات شخصية آدم عليه السلام في السنة على اعترافه بعد الأكل من الشجرة .

والسمات ـ التي اجتهدتُ في حصرها مرتّبةً وفقًا لأظهرها في النصوص ـ كالتالي :

١- المعلم .

٢- المحاج الواعي .

٣- القائد المسؤول .

٤- الأب الحنون الرقيق .

٥- العبد المتلطف المتأدب في حق من رباه وأسكنه الجنة .

٦- المغترب عن وطنه المتلهف إلى العودة .

٧- العبد الضعيف .

٨- المخلوق الجميل .

٩- المقصّر الراجي عفو ربه .

١٠- البشر دون الأنبياء .

وقد ربطتُ بين بعض تلك السمات والاعتراف الوارد حسب ما تبيّن لي[(١)] .

---

(١) ينظر : ص ٤٢٤، ٤٢٥ .

وأما البشر دون الأنبياء فصُنِّفوا إلى قسمين :

١- **شخصيات عاصرت الأنبياء :**

أ- شخصيات آمنت بعد كفر ، **ملكة سبأ** أنموذجًا .

وألخّص سماتها التي جمعتها مرتّبةً وفقًا لأظهرها في النصوص حسب ما تبين لي في التالي :

١- الملكة الحكيمة التي لا تمضي أمْرًا دون مشورة .

٢- الإنصاف وبعد النظر .

٣- الحظوة بالمحبة والاحترام والتقدير .

٤- الحنكة والعلم بالسياسة وما يتطلبه الحكم .

٥- الفطنة والنباهة .

٦- العقل والفهم .

٧- الاحتراس والفراسة .

٨- الاستسلام للحق بعد بيانه .

٩- الأنثى الحيية .

١٠- تغليب جانب السلم والموادعة على جانب الحرب .

وقد ربطتُ بين بعض تلك السمات والاعتراف الوارد حسب ما تبيّن لي[١] .

ب ـ شخصيات لم يرد عنها الإيمان ، **امرأة العزيز** أنموذجًا .

وألخّص سماتها التي جمعتها مرتّبةً وفقًا لأظهرها في النصوص حسب ما تبين لي في التالي :

١- المرأة العقيم الخائنة .

---

(١) ينظر : ص ٤٣٣ .

٢- العاشقة .

٣- الجريئة التي لا تخاف أحدًا .

٤- السيدة المطاعة المخدومة .

٥- الماكرة .

٦- سريعة البديهة .

٧- العنيدة المهدِّدة .

٨- المتحكمة في زوجها ، والمترئّسة .

٩- المعترفة المعلنة لذنبها .

وقد ربطتُ بين بعض تلك السمات والاعتراف الوارد حسب ما تبيّن لي[١] .

٢- شخصيات لم ترد نصوص بمعاصرتها للأنبياء :

أ- المشركون الذين لم يخصصوا بزمن ، مثل أصحاب الجنة وغيرهم ، وأوردت سبب عدم تتبع هؤلاء[٢] .

المطلب الثاني : شخصيات من عالم الغيب .

وهذه الشخصيات حسب الوارد في الآيات موضع الدراسة هي :

١- الملائكة .

٢- الجن .

٣- الشيطان .

وكان التحليل لشخصية الشيطان ـ لعنه الله ـ لأسباب تقدّمت[٣].

---

(١) ينظر : ص ٤٤٣، ٤٤٤ .

(٢) ينظر : ص ٤٢٨، ٤٢٩ .

(٣) ينظر : ص ٤٤٩، ٤٥٠ .

ومن أبرز سمات شخصيته مرتبة حسب أبرز ما اتصف به الشيطان وكان مُخرجًا له من الجنة ، ابتداءً بالسمات الشخصية ثم المتعدية حسب ما جمعته من النصوص :

١- الكِبر .

٢- الضعف .

٣- الحسد .

٤- الكذب .

٥- الوسوسة والإغواء .

وقد ربطتُ بين بعض تلك السمات والاعتراف الوارد حسب ما تبيّن لي[١] .

خُلاصة :

لابد أن يظهر أثر الشخصية على نص الاعتراف ، وطريقته من حيث التعبير بالقول أو الإشارة أو بهما معًا ، فقد لاحظت أن لكل سمةٍ أثرًا على الاعتراف من بعيد أو من قريب ، بل إن نص الاعتراف في أحيان كثيرة كان يصوّر السمات الشخصية تصويرًا دقيقاً ، وهذا من البلاغة المعجزة ، والكلام البديع الذي لا يشبهه كلام ، فتقدّس وتعالى من هذا كلامه .

ومهما بلغت بالإنسان الشجاعة في إخفاء مشاعره وسمات شخصيته خوفًا من ظهورها على سلوكياته ؛ فإن للجوارح حديثًا أذكى من الألسنة يفهمه الناس ، فكيف إن دخلت العبارات في إيضاح ما في القلب من المشاعر ، وما في العقل من الأفكار ، وكما يُقال : « الألسنة خدم الجوارح »[٢].

* * *

(١) ينظر : ص ٤٥٤، ٤٥٥ .

(٢) أدب المجالسة وحمد اللسان ، النمري : ٤٣ .

المبحث الثاني

الباعث

إن محرّك الهمم إلى الإنجاز والعمل لتحقيق الخلافة في الأرض هي البواعث الحيّة في الأشخاص الذين لا يرضون العيش على هامش الحياة ، وهؤلاء أنفسهم هم المخوّلون لمناصب قيادة الأمة ، تراهم ساعين في الحياة بتطلّع نحو العلم الديني والذاتي والاجتماعي بتوازن خلاّق كفيل أن يكونوا به محققين معنى العبودية فهم لا ينسون أن الذي خلقهم وضمن لهم الحياة الطيبة جعل لها شرطًا لبلوغها ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴾ (النحل:٩٧) فتجد هؤلاء لا يهدؤون في سبيل الوصل ما استطاعوا إلى كمال الدنيا والآخرة ، وإن حرمتهم أنفسهم بسبب أخطائهم من هذا الكمال فهم مسارعون إلى كشف أخطائهم بمنتهى النضج والشفافية ومعالجتها والاعتذار منها ، سواء كانت في حق بارئهم ، أو في حقوق عباده ، وأمّا « من عاش لا يبصر من ذاته إلا مظاهر ضعفها ودلائل تفاهتها وهوانها ، جدير به أن يركن إلى ضعف يجعله ضحية طغيان الجبابرة والمتكبرين ، وأن يبعده ذلك عن إنجاز أي عمل أو خدمة إنسانية مما حمّله الله تعالى مسؤولية النهوض به ، . . . ومن عاش وهو لا يعرف من ذاته إلا أنه الإنسان المكرّم الذي يملك من المزايا والصفات ما يحوله أن يبسط نفسه حكماً وسلطاناً على كل ما حوله ومن دونه ، جدير به أن يسكر بنشوة تلك الصفات . . .وأن يجعل من نفسه حاكماً من دون الله عز وجل ، يبسط قهر ربوبيته المزعومة على سائر

المستضعفين ، . . .ولا علاج من التطرّف إلا بالجمع بين الحقيقتين »[1] حينها يعيش الإنسان محقّقاً الوسطية والاعتدال في حياته .

لقد بحثت في كتب علم النفس ، وسألت أساتذة متخصصين فيه عن كتبٍ تتحدث عن أثر البواعث في الشخصية وسلوكها ، وتحليل السلوك على أساس الباعث ، فلم أجد ، وأخبرتني الدكتورة سحر كردي[2] بأن المراجع في ذلك شحيحة ، وغالب ما وجدَتْه هو مراجع أجنبية لم تُخدم بترجمة إلى اللغة العربية بعد .

وقفة مع اختيار اسم المبحث :

الباعث :

أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه ، وهو ضربان : ضرب بشري ، كبعثت البعير أرسلته وحللت عقاله ، أو كان باركًا فهجته ، وضرب إلهي يختص بالله تعالى كإحياء من في القبور ، وذكر الفيروزآبادي أنه يأتي بثمانية معانٍ في القرآن وهي تدور في المجمل على الإرسال[3] ، ويقال : « انبعث القومُ في الخير والشر انبعاثاً إذا تتابعوا »[4] ، « وبعثه على الشيء : حمله على فعله »[5] ، وقد يستعمل مجازًا في الجمل مثل : بعثت النوم ونحوه ، « وتأويله : إزالة ما كان يحمل عن التصرف »[6] .

---

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، محمد البوطي : ص ٥٣-٥٩ .

(٢) أستاذ مساعد في قسم علم النفس التربوي ـ كلية التربية ـ جامعة طيبة ، لمراجعة المزيد من السيرة الذاتية لها موقع شخصي على الشبكة الإلكترونية بعنوان : إشراقات نفسية .

(٣) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ٢/٢١٥ ، وينظر : العين ، الخليل : ٢/١١٢ ، مادة (بَ عَ ثَ) .

(٤) المحكم والمحيط الأعظم ، علي المرسي : ٢/٩٦ ، مادة (بَ عَ ثَ) .

(٥) لسان العرب ، ابن منظور : ٢/١١٦ ، مادة (بَ عَ ثَ) .

(٦) جمهرة اللغة ، ابن دريد : ١/٢٥٩ ، مادة (بَ عَ ثَ) .

والبواعث في بحثي : هي الأسباب التي أدت إلى الاعتراف بالزلل .

وكان اختيار اسم (الباعث) على (الدافع) لاتصال الأخير بالدوافع (الفسيولوجية) والنفسية في علم النفس[1] ، فخشيت أن يفهم أن حديثي متفرّع إليهما ، وهو وإن تداخل معهما لكنه ليس كما جاءت مفرداته في اصطلاح علم النفس ، ومع تتبع استعمال اللفظ في اللغة العربية وجدت أن الأليق بمضمون الدراسة أن يكون تسمية المبحث بـ (البواعث) ، إذ لفظ (الدوافع) له استعمالات أخرى ، وكانت نتيجة تتبعي كالآتي :

الدافع :

الدفع هو «الإزالة بقوة ، . . . ويقال دافَع الرجل أمر كذا إذا أولع به ، وانهمك فيه»[2] ، و«دفعت القول : أي رددته بالحجة ، ودُفعتُ إلى كذا انتهيت إليه»[3] ، وتطلق (الدَّوافِع) على «أسافل الميْث[4] ، حيث تدفع فيه الأودية أسفل كل ميثاء دافعة ، . . . واندفع في الحديث : أفاض»[5] .

وقال الكفوي : «الدفع صرف الشيء قبل الورود»[6] .

وأما الدافع عند علماء النفس فهو : «طاقة جسمية نفسية كامنة ، على شكل استعداد يدفعنا نحو سلوك معين ، يهدف إلى غاية : مثل دافع الجوع والظمأ لتناول الطعام والماء . . .»[7] .

---

(١) ينظر : علم النفس أصوله وتطبيقاته التربوية ، دكتور مصطفى فهمي : ص ٨٥ .
(٢) لسان العرب ، ابن منظور : ٨/٨٧ ، مادة (دَ فَ عَ) .
(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، الفيومي : ١/١٩٦ ، مادة (دَ فَ عَ) .
(٤) الميثاء : الأرض اللينة من غير رمل ، وكذا الدّمِثة ، ينظر : القاموس المحيط ، الفيروزآبادي : ١/١٧٦ ، مادة (مَ يَ ثَ) ، وينظر : تاج العروس ، الزبيدي : ٥/٣٦٤ ، مادة (مَ يَ ثَ) .
(٥) القاموس المحيط ، الفيروزآبادي : ١/٧١٥ ، مادة (دَ فَ عَ) .
(٦) كتاب الكليات : ١/٤٥٠ .
(٧) علم النفس التربوي ، دكتور محمد زيدان : ص ٧٢ .

وأمّا تفصيلات هذه الدوافع والحاجات عند الإنسان في علم النفس « هي في الغالب لا شعورية ، ومن الجلي أن الموقف الذي يتفاعل فيه الفرد مع بيئته يجب أن يوضع بأكمله في الاعتبار ، وعلى الرغم من أن الدوافع هي التي تسبب السلوك إلا أن هذا السلوك يتأثر عادة بعوامل بيولوجية وثقافية وموقفية ، فقد نظم (مازلو) الحاجات الأساسية بطريقة هرمية بالنسبة لقوة هذه الحاجات وفاعليتها ، ويلاحظ أن كل حاجة من الحاجات الأساسية لا تعلن عن نفسها إلا إذا أشبعت الحاجة التي قبلها في التنظيم الهرمي ، والحاجات الأساسية للإنسان هي :

- الحاجات (الفسيولوجية) .
- الحاجة إلى الأمن .
- الحاجة إلى الانتماء والحب والنشاط الاجتماعي .
- الحاجة إلى الاعتراف والتقدير والمكانة .
- الحاجة إلى تحقيق الذات » (١) .

* * *

أثر البواعث في السلوك :

شعيراتٌ صغيرةٌ تتشكّل في أعصاب جسم الكائن الحي تؤثر فيه ، وتجعل إشاراته وكلماته تخرج عن وعي منه ؛ لأن كل ما في جسمه هو حكايةٌ عن شخصيته التي بإرادة الله جعلها تميّزه عن غيره من المخلوقات ، « فالجهاز العصبي يؤثّر على الجهاز العضلي للإنسان حتى يجعله يقوم بما يتفق مع المواقف التي يعيش فيها ، فكل حركة من الجهاز العضلي قد حُسبت طاقاتها حساباً دقيقاً ليقوم بعمل ما يناسب الأحاسيس التي أثارت الخلايا العصبية بعد

(١) العلاقات الإنسانية ، دكتور سيد عبد الحميد مرسي : ص ١١٥ .

أن ينفعل الإنسان بهذه الأحاسيس ، فتثور فيه خلاياه الداخلية لتثير بالتالي تيارات كهربائية تدل على هذا الانفعال ، فتجري في أعصابه إلى عضلاته لتحدث إشارات أخرى تثير العمل »[1] .

وإذا تأمل الإنسان « وهو يخط بيده كتابة أو جملة ، كيف فكر؟ وكيف نظر؟ وكيف أمسك بالقلم؟ وكيف بدأ يحركه بعد أن أمرت مراكز المخ عضلات أصابعه أن تتحرك حركة دقيقة لكتابة أحرف دقيقة كلها تعبر عن فكرة نبعت أصلا من مراكزه على سطح مخه ، ويقسم الحق عز وجل بهذا العمل ليلفت الإنسان إليه ، ويعلم قدر عظمته ، وقيمته وفضل الله عليه ، ﴿ **نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ (القلم: ١) »[2] .

وفي كثير من العلوم نجد الخبراء فيها يتساءلون عن الأسرار وراء السلوكيات التي تحدد نمط عيش مخلوقات معينة ، أو الأسباب وراء ارتكاب الأشخاص لجرائم محددة تكثر في المجتمعات الإنسانية لمعالجتها ، أو الدوافع لتصرفات في مرحلة طفولية أملاً في تربية الجيل تربية سوية دون المرور بمراحل مستعصية على الوالدين قدر الإمكان ، و « في الطب النفسي مثلاً الأشياء المزعجة التي يفعلها أو يقولها شخص ما ، تعتبر دائمًا مجرد أعراض ، كذلك يبدو السلوك نفسه سطحيًّا حقًّا بالمقارنة مع المسرحيات الساحرة التي تمثل من أعماق مسرح العقل ، وفي اللغويات وفي النقد الأدبي يعامل ما يقوله الإنسان على الدوام باعتباره تعبيراً عن أفكار ومشاعر ، . . .وقد ظل الانتباه مركزا على الحياة العقلية لأكثر من ألفين وخمسمائة عام ، ولم يبذل أي جهد لدراسة السلوك البشري باعتباره أكثر من مجرد نتيجة ثانوية إلا مؤخرًا ، كذلك تُهمل الظروف التي يعتبر السلوك نتيجة لها ، والتفسير العقلي يضع حدًّا لحب الاستطلاع ، ونرى النتيجة في الحديث العفوي غير المقصود ، ولو سألنا

(١، ٢) القرآن والصحة النفسية ، جمال أبو العزائم : ص ١٢ .

شخصا ما (لماذا ذهبت إلى المسرح؟) فقال : (لأنني أحسست برغبة في الذهاب) فإننا حريون أن نعتبر إجابته نوعًا من التفسير ، وأنه أقرب إلى صميم الموضوع أن نعرف ماذا حدث حينما ذهب إلى المسرح في الماضي؟ وماذا سمع أو قرأ عن المسرحية التي ذهب لمشاهدتها؟ وماهي الأشياء الأخرى في بيئته الماضية أو الحاضرة التي قد تكون حفزته على الذهاب عوضًا عن القيام بعمل شيء آخر؟ ولكننا نتقبل قوله : (شعرت برغبة في الذهاب) على أنه نمط من التلخيص لكل هذا ، ومن غير المحتمل أن نسأل عن التفاصيل .

منذ زمن طويل صحح (وليم جيمس) وجهة نظر شائعة عن العلاقة بين المشاعر والأفعال حين أكد مثلاً ، أننا لا نهرب لأننا خائفون ، ولكننا خائفون لأننا نهرب ، وبعبارة أخرى ، ما نشعر به حينما نحس بالخوف هو سلوكنا ، السلوك ذاته الذي يعبّر ، بموجب وجهة النظر التقليدية ، عن الإحساس ويفسر به » (١) .

وألصَق المصطلحات النفسية بمبحثي هذا هي (الحاجات الثانوية) ، وهي « أكثر غموضًا من الحاجات الأولية ؛ لأنها تمثل حاجات العقل والنفس بدلاً من الحاجات الوظيفية للجسم ، وتنمو هذه الحاجات الثانوية وتتطور وفقا للنضج العقلي للشخص والتقدير ، والمنافسة ، وتحقيق الذات . . .وتختلف الحاجات الثانوية وتتنوع من شخص إلى آخر بدرجة تفوق تلك التي نراها في الحاجات الأولية ، بل قد نراها متضادة بين شخصين ، فقد يشعر فرد بالحاجة إلى تحقيق الذات ، ولذا فهو يؤكد أهميته بصفة مستمرة ، ويسلك سلوكًا عدوانيا مع الآخرين ، بينما نرى شخصًا آخر على النقيض من ذلك ، فهو يرغب أن يكون متسامحًا أمام عدوان الآخرين ، ويبذل جهده في العمل والإنجاز » (٢) .

---

(١) تكنولوجيا السلوك الإنساني ، سكينر ، ترجمة : دكتور عبد القادر يوسف : ص١٥.
(٢) العلاقات الإنسانية ، دكتور سيد مرسي : ص ١١٥ .

البواعث :

حين نتدبّر في كلام اللطيف الخبير نجد أن الله تعالى حينما جعل للإنسان حريّة اختيار الطريق الذي يسلكه في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ (الإنسان:٣) بيّن له عاقبة كلٍّ من السبيلين ليختار من هداه الله واتّقد فيه باعث الخير الصراط المستقيم ، وأخبر الله جل وعلا عن قوم موسى عليه السلام أن باعث الضلال عندهم عماهم فسلكوا الضلال فأضلهم الله ، فقال سبحانه : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ (الصف:٥)، قال الطبري : « فلما عدلوا وجاروا عن قصد السبيل أمال الله قلوبهم عنه »[(١)]، وقال البيضاوي : « صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب »[(٢)] ، ففي هذه الآيات ـ وأشباهها كثير متناثر في كتاب الله تبارك وتعالى ـ دليل على أثر الباعث وهو المحرّك للعمل أساس في السلوكيات ، وقد « منح الله الإنسان المواهب والقابليات كما منحه العقل والإرادة ليمتحنه في هذا الوجود ، ولكن في الإنسان نقاط ضعف إذا لم تتلافاها التربية فإنه ساقط في الهاوية ، وخاسر في هذه الحياة وفي الآخرة ، هذا وإن القرآن الكريم قد عرّف الإنسان بنفسه ، ووصف له أسلوب معالجة ضعفه وترك له فرديًّا واجتماعيًّا اختيار العلاج والوقاية من الشرور إذا شاء ذلك ، فإن فعل نجا ، وإن أهمل فقد هلك »[(٣)] ، فاللهم يا مصرف القلوب والأبصار صرّف قلوبنا على طاعتك .

في دراستي لآيات الاعتراف بالزلل والشخصيات المعترفة بدت لي بواعث أدّت إلى الاعتراف ، وقد تشترك بعض الاعترافات في أكثر من باعث فأجتهد في الاستشهاد بها وفقًا لأظهرها ، فصُنّفت البواعث إلى :

١- بواعث المؤمنين .

---

(١) جامع البيان : ٦١٢/٢٢ .

(٢) أنوار التنزيل : ٢٠٨/٥ .

(٣) الفلسفة التربوية في القرآن ، دكتور محمد الجمالي : ص ٦٨ .

٢- بواعث المشركين وغيرهم ممن لم يحك عنهم الشرك أو الإيمان .

ولاشك أن الباعث الذي يشترك فيه كل مقصّر في لحظة اعترافه هو التأثر بموقف ما ، وهذه المواقف على اختلافها تولّد في النفس ضعفًا يتهاوى أمامه صمود الإنسان فتبعث منه الأقوال والأفعال اعترافًا بفعلته ، وبقيت تفاصيل هذه البواعث التي اشتركت في الموقف لتطلق سراح الكلمات آتيةً بتفصيل .

* * *

١- بواعث المؤمنين :

١- باعثهم الأول جميعًا مع اختلاف مقاماتهم هو **الحرص على كسب رضا الله ومغفرته وعفوه** ، وهكذا نفس المؤمن اللوامة ، نفسٌ دفعت الأنبياء إلى اعترافهم بزللهم ، وإنابتهم إلى الله جل وعلا ، فتوجّهوا إلى الله عندما أبصروا أثر المعصية الذي يحيط بهم ، فجاء هذا الأثر لكل منهم بحسبه ، فجاء لآدم وزوجه بالتعري ، وجاء لموسى عليه السلام بموت القبطي خطأً ، وجاء لصحابة رسول الله ﷺ الذين خُلّفوا بضيق في النفس شديد من هجر رسول الله عليه الصلاة والسلام والناس لهم ، وكل من هؤلاء كان يرجع إلى ربه بالدعاء أن يتجاوز الله عنه فيغفر ويصفح ، « إنها النفس التي أقسم الله بها عندما قال : ﴿ **لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ** ﴾ (القيامة: ١،٢) ، قال الحسن البصري : إن المؤمن لا تراه إلا لائمًا لنفسه ، وهي النفس التي تلوم ذاتها على التقصير والتفريط في جنب الله وتأمل التعويض ، . . . وهنا فإن التحسر والندم لا يكون دون تفكير ومراجعة الذات ، ولا يتم دون عقل ، ومثل هذه نفسٌ شريفةٌ تهتدي بنور العقل الذي كشف مبادئ ومثل الأخلاق والضمير أمامها ، فأخذت بها وتمثلتها حتى كانت هي الضمير والأخلاق فاستحقت ذلك الشرف فأقسم الله بها »[(١)].

---

(١) خواطر الإنسان بين منظاريْ علم النفس والقرآن ، وليد زريق : ص ٣٣، ٣٤ .

٢- تعويض ما مضى من التقصير وملازمة الطريق القويم ، وقد حُكي هذا الباعث عن موسى عليه السلام بقوله عندما غفر الله له قتل القبطي : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القصص:١٧) ، وسليمان عليه السلام حين قرن طلبه الهبة من الله مع غفران الذنب فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (ص:٣٥) ، وحكي عن بلقيس لحظة إسلامها فقالت : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤) فبعد أن اعترفت بظلمها لنفسها أعلنت دخولها في الإسلام ، وأرادت إسلامًا كإسلام سليمان عليه السلام كما لفت الجناس إلى هذا [(١)] .

٣- براءة الذمة ، والتسليم بالزلل لداعي الصدق حال الاستجواب ، والانتقال لموقف القوة ، مثل اعتراف موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء:٢٠،٢١) .

٤- التأدُّب ـ في مقام التعلّم ـ للمعلّم ، مثل اعتراف موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ (الكهف:٧٦) .

* * *

٢- بواعث المشركين وغيرهم ممن لم يُحك عنهم الشرك أو الإيمان :

ربما تكون نفس الكافر لوّامة لكنها ليست لوّامةً في الدنيا لفوات رضا الله عنها ، وتقصيرها في حقه سبحانه ، « فنفس الكافر اللوامة نفسٌ ظالمة يعاقبها

---

(١) ينظر : ص ٧٨ .

الله ويلومها الناس وتلومها الملائكة ، حتى إنها تلوم ذاتها ولومها لذاتها يكون في حالتين :

حالة عدم تمكنها من تحقيق اللذة وضياعها عليها وحتى إن كان ذلك في الإثم وارتكاب المعصية ، ومثل هذه نجدها لدى منحرف ، أضاع على نفسه فرصة انحراف فندم على ما حصل له ولام نفسه ، ولام الواعظ الذي نصحه بالابتعاد .

- حالة مذنب أقر بذنبه واعترف بخطيئته فلام نفسه لأنه أتاها ، ولكن كان ذلك في وقت لا ينفع معه الندم وفي مثل هذا يقول تعالى : ﴿ **وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا** ﴾ (النبأ: ٤٠)»[1] .

ومن آيات الدراسة لأقوال المعترفين من المشركين ومن غيرهم ممن لم يُحك عنهم الشرك أو الإيمان تلخّصت بواعثهم في الآتي :

١- محاولة تخليص النفس من سوء المصير ، وقد جاء في شواهد كثيرة منها : قوله تعالى حكاية عن المشركين في نار جهنم : ﴿ **قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ** ﴾ (غافر: ١١) .

٢- رؤية من هو أدنى[2] من المعترِف بسلوك أعلى منه ، من ذلك اعتراف قابيل بعجزه وضعفه وندمه في قوله تعالى : ﴿ **فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ** ﴾ (المائدة: ٣١) ، وهذا الباعث جرّ قابيل إلى التحدث بفعلته من فرط حسرته وندمه وهو يرى في هذا الغراب درسًا يزيد من ندمه وعجزه ، ويود لو يواري جريمته مع جسد أخيه ، «فالمجرم في محاولته إخفاء جريمته حتى يقضي على كل معرفة يمكن أن تتطرق إلى نفس إنسان كأنه يحاول أن يبطل الجرم

---

(١) خواطر الإنسان بين منظاريْ علم النفس والقرآن ، وليد زريق : ص ٣٤ .

(٢) يقصد به هنا : إما دنو المنزلة أو العمر ، أو دنو الأفضلية والكرامة .

نفسه ، وبعد أن يظفر المجرم بإخفاء جريمته عن الناس لا يستطيع أن يخفيها عن نفسه ، فهو ما زال يعرف أنه مجرم ومعرفته هنا تنأى به عن المجتمع شيئًا فشيئًا بعد أن كان يرجو أن يظل فيه بمحو آثار الجريمة ، إنه يعرف أن الاحترام الذي كان يوجه إليه الآن إنما يوجه إلى شخصه السابق الذي لم يعد موجودًا ، ويعرف أن المجتمع لا يخاطبه هو بل يخاطب شخصًا آخر غيره ، إنه يعرف من هو فيعيش بين الناس وهو أكثر عزلة مما لو كان يحيا في جزيرة خالية ؛ لأنه في عزلته يحمل معه صورة المجتمع الذي تحف به وتسنده ، أما الآن فقد انقطع عن المجتمع وعن صورته معاً»[1].

ومنه اعتراف إخوة يوسف عليه السلام[2] لأخيهم : ﴿ **قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ** ﴾ (يوسف:٩١) .

٣- انقطاع المنفعة المرجوّة من الاستمرار على فعل الزلل ، منه : اعتراف قوم موسى عليه السلام الذي ذكر باعثه في الآية ، عند قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:١٤٩) ، ومنه اعتراف إخوة يوسف أمام أنفسهم بما وقعوا فيه عندما تناجوا عند يوسف عليه السلام في

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية ، مقداد يالجن : ٢٨٣/١ .

(٢) أدخلتُ إخوة يوسف عليه السلام في مَن لم يحك عنهم الشرك أو الإيمان ، إبراء للذمة دون تحديد عقيدتهم ؛ لأن الأمر محتمِل ، وبحثتُ المسألة في التفاسير وكتب العقيدة فلم يكن هناك كلام جازم يحدد عقيدتهم غير أن ابن حزم رحمه الله قد اجتهد في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ورأى أنهم على الإيمان قال : (وقد عق ابن نوح عليه السلام أباه أكثر مما عق به إخوة يوسف عليه السلام أباهم غير أنهم لم يكفروا . . .) ٧/٤ ، ووافقه ابن الوزير في كتابه(إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات : ص ٣٩٩ ، والآلوسي في (جلاء العينين) : ص ٢١٨ ، فتركتُ الأمر دون تحديد تابعًا لهذا العنوان ليدخل في دائرة الاحتمال ؛ لأن النصوص من الكتاب والسنة وأقوال السلف لم تأتِ بتحديد لذلك .

قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ** ﴾ (يوسف:٨٠) ، ومنه اعتراف الشيطان في موقف القيامة في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ** ﴾ (إبراهيم:٢٢)، ومنه اعتراف فرعون في سكرات الموت : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ** ﴾ (يونس:٩٠) ، واعتراف السامري لموسى عليه السلام : ﴿ **قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي** ﴾ (طه:٩٦) .

٤- انكشاف الحق وافتضاح الباطل ، كاعتراف امرأة العزيز حين طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يسأل النسوة عن مراودتهن إياه فقالت : ﴿ **قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴾ (يوسف:٥١) الآيات[يوسف] وقد بيّنت امرأة العزيز أن سبب اعترافها ظهور صدق يوسف عليه السلام ، وانكشاف أمره وأمرها وأيهما الصادق [(١)] ، فقالت حينها : ﴿ **ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ** ﴾ (يوسف:٥٢) ولسان حالها يقول : «اعترفتُ بذلك على نفسي ، ليعلم زوجي أن لم أخنه في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ؛ فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة» [(٢)] ، ومنه اعتراف إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ **قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ** ﴾ (يوسف:٩٧) .

---

(١) على القول بأنه اعترافها ،كما ذهب إليه ابن كثير ورجحه ابن القيّم في التفسير ـ الذي جمعه من وقفاته المتفرقة محمد الندوي ـ وبيّن أسباب ترجيحه ، ينظر : التفسير القيم : ٣٣٠/١ ، ويراجع الخلاف مفصّلاً في فتح القدير ، الشوكاني : ٤١/٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٣٩٤/٤ .

٥- تبرير موقف الخطأ وصدوره عن غير إرادة ، مثل اعتراف قوم موسى إليه حال رجوعه إليهم : ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ (طه:٨٧) ، واعتراف المشركين في نار جهنم رجاء أن يكون به عذرهم : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ﴾ (النحل:٨٦) .

٦- محاولة رد الاعتبار والظهور في موقف القوة ، والإحساس بالأمن من العقوبة ، وهنا كان الاعتراف مغلّفًا بالكِبر مع الإصرار ، منه اعتراف امرأة العزيز في أول قصة مراودتها ليوسف عليه السلام : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (يوسف:٣٢).

٧- ضمان سوء الخاتمة ، واليأس من رحمة الله ، وهذا الباعث اختص بالشيطان في آيات الدراسة ، وحُكي في اعترافه في أكثر من شاهد على إضلال بني آدم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧) ، ولكن الشيطان حريص على أن ييئّس بني آدم من رحمة الله فيصير اعترافهم بزللهم مذمومًا بنفس طريقته عليه لعنة الله ، فيجاهر العاصي بالمعصية لا يخاف الخالق ولا المخلوق ، وقد ورد عن المصطفى ﷺ قوله : «كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[1] ،

(١) رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الأدب ، باب :ستر المؤمن على نفسه ، (رقم الحديث : ٦٠٦٩) .



وكثيرًا ما تُسمع عبارات اليأس من رحمة الله ، واتخاذ الماضي المشحون بالغَيِّ حجة على الاستمرار بعلانية في المعصية ممن أسرفوا على أنفسهم ، وتمادوا في الطغيان ، حجتهم أن الغواية قد كتبت عليهم فأي شيء يحذرون! وهذا من مكائد الشيطان واستحواذه عليهم ، وهو أيضًا من ضعف الإيمان بالقضاء والقدر ، ومن الجهل بقدر الله جل وعلا ، والله تعالى يقول لعباده : ﴿ **قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (الزمر:٥٣)، نسأل الله حسن الختام .

* * *

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

- اخترت لفظ (بواعث) ؛ لأنه الأليق بالمبحث حتى لا يُفهم أن القصد منه هو الدوافع النفسية و(الفسيولوجية) في مرادفات علم النفس .
- قسّمت البواعث إلى قسمين :

١- بواعث المؤمنين .

٢- بواعث المشركين وغيرهم ممن لم يُحك عنهم الشرك أو الإيمان .

- بواعث المؤمنين حسب الآيات هي :

١- الحرص على كسب رضا الله ومغفرته وعفوه .

٢- تعويض ما مضى من تقصير وملازمة الطريق القويم .

٣- براءة الذمة ، والتسليم بالزلل لداعي الصدق حال الاستجواب .

٤- التأدّب ـ في مقام التعلُّم ـ للمعلّم .

- بواعث المشركين حسب الآيات هي :

١- محاولة تخليص النفس من سوء المصير .

٢- رؤية من هو أدنى من المعترِف بسلوك أعلى منه .

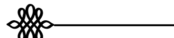
٣- انقطاع المنفعة المرجوّة من الاستمرار على فعل الزلل .

٤- انكشاف الحق وافتضاح الباطل .

٥- تبرير موقف الخطأ وصدوره عن غير إرادة .

٦- محاولة رد الاعتبار والظهور في موقف القوة ، والإحساس بالأمن من العقوبة .

٧- ضمان سوء الخاتمة ، واليأس من رحمة الله .



المبحث الثالث

النتيجة

كم لمآلات الأمور وعواقبها من أثر يروّض النفس ، هذه النفس التي امتُدح من يتنبّه لما يعليها ويخطو خطواتٍ لتزكيتها ، فقال الله تبارك وتعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا** ﴾ (الشمس:٩) وإن انصاعت ـ النفس ـ بتوفيق الله ورَقَت كانت «عنصراً علويًّا يتضمن استعداد الإنسان لتحقيق معالي الأمور ، وأقدس الصفات ، . . .فهي التي تؤهله للارتفاع فوق مستوى الحيوان ، وتقرر له أهدافه وغاياته العليا في الحياة ، وترسم له خطوط منهاجه ، وتضيف على بشريته النزوع إلى مصدر القيم والمعارف التي تجعل له حقيقة إنسان» [(١)] .

وإذا تأملنا في شواهد القصص القرآني ، رأينا عجبًا من العِبر المستقاة من أدق التفاصيل فيها ، وما ينطبع على الإنسان من تكرار التلاوة المتدبّرة لكلام الله القيّم من تقويم للسلوك ، وقد «أفاض القرآن وعوداً جميلة لأولئك الذين يرجعون عن ذنوبهم ، . . .والواقع أن السُّنة تُقدّم لنا حالات زنا ، يتقدم المذنبون فيها ليقروا تلقائيًّا بجريمتهم ، وليطلبوا بإلحاح تطبيق العقوبة عليهم ، وعليه فإن النبي ﷺ مع علمه بعظمة هذه اللمحة منهم ، وروعة القيمة في توبتهم ـ لم يتردد في أن يوقع عليهم الجزاء المنصوص عليه في الشرع ، وكذلك الحال في كل اعتداء يرتكب ضد شخص غيره ، أو ماله ، أو عرضه ، ثم يتوب المعتدي قبل أن يعاقب .

---

(١) القرآن وعلم النفس ، محمد نجاتي : ص ٢٢ .

فالموقف الداخلي الذي كان يعتمد عليه في تجريم الفعل لا قيمة له إذن حين يكون المطلوب إيقاف الآثار السيئة التي حدثت من قبل ، إذ تتدخل هنا بالذات اعتبارات مختلفة ، فوق الاعتبارات الشخصية فهي التي تفرض الجزاء ، أما الندم ، والتوبة ، والإرادة الطيبة التي عادت مرة أخرى ، فربما تكفي لتحسين حال المذنب ، وتأكيد احترامه للقانون ، ولكنها لا تكفي لتهدئة المشاعر الأليمة التي أثارها المذنب لدى الأشخاص الذين انتهك حقهم المقدس في الحياة ، وفي الأمن ، سوف تضمن لنا هذه المعاني ـ على الأكثر ـ أنه لن يعود إلى الجريمة ، ولكنها لا تستطيع أن تضمن أنه لن يكون قدوة تحتذى من أولئك الذين يعملون على اتباعه ، وإذن فإن هناك ضرورة مزدوجة ، خارج الأمر الأخلاقي ، أو مبدأ العدالة المجرد ، هذه الضرورة تفرض نفسها على أنها محتومة ، وهي تنظر إلى الماضي وإلى المستقبل معًا وتتطلب تطبيق العقوبة ، حتى عندما يصبح جانب المبدأ الأخلاقي مستوفى راضيًا بطريقة أخرى ، هذه الضرورة المزدوجة هي ـ من ناحية ـ اقتضاء شرعي من الأفراد ذوي الشأن في العمل ، وهم الذين أهينت مشاعرهم نتيجة الشر الحادث ، وهي من ناحية أخرى : حفاظٌ على النظام العام ، وصيانة للمجتمع ضد العدوى الأخلاقية ، حين لا يعاقب الشر بمثله ، وتَوَقٍّ من تشجيع الشر ، إذا ما بقي المذنب دون عقاب»[(١)] .

في هذا المبحث بإذن الله أتتبع النتائج التي أفصحت عنها الشواهد ، ليكون بها ملاحظة مدى تأثير الاعتراف بالزلل على الفرد والمجتمع .

* * *

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن ، دكتور محمد دراز : ٢٣٣/١ .



نتائج الاعتراف بالزلل :

درس تربوي وموعظة للعالمين ، هي **أبرز وأبلغ نتيجة للاعتراف ،** وهي النتيجة العامة للاعترافات في الشواهد لأخذ العظة والاعتبار من حكاية هذه المواقف للشخصيات المعترفة بما فيها من بواعث ، وطريقة اعتراف ، ونتائج ، في كتابٍ كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأظهر القصص دلالةً على هذه النتيجة من حيث النص عليها في الآية هي قصة قابيل وهابيل ، حيث قال الله عز وجل في ختامها : ﴿ **فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ۝ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ (المائدة:٣١،٣٢) ، قال الطبري : « من جرّ ذلك وجريرته وجنايته ، يقول : من جرّ القاتل أخاه من ابني آدم عليه السلام ـ اللذين اقتصصنا قصتهما ـ . . .حكمنا على بني إسرائيل أنه من قتل منهم نفساً ظلمًا بغير نفس قتلت ، فقتل بها قصاصًا »[(١)] ، وقال أبو السعود : « ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ** ﴾ شروع فيما هو المقصود من تلاوة النبأ ، من بيان بعض آخر جنايات بني إسرائيل ومعاصيهم ، وذلك إشارة إلى عظم القتل وإفراط قبحه المفهومَيْن مما ذكر في تضاعيف القصة من استعظام هابيل له ، وكمال اجتنابه عن مباشرته ، وإن كان ذلك بطريق الدفع عن نفسه واستسلامه لأن يُقتَل خوفًا من عقابه ، وبيان استتباعه لتحمّل القاتل لإثم المقتول ، ولكون قابيل بمباشرته من جملة الخاسرين دينهم ودنياهم ، ومن ندامته على فعله مع ما فيه من العتو وشدة الشكيمة وقساوة القلب »[(٢)] ، وفي هذا الدرس القرآني الواعظ ، والعرض المثالي البديع لأثر الاعتراف « توضيح للدافع النفسي الذي دفع (قابيل) حسدًا من عند نفسه إلى

---

(١) جامع البيان : ٢٣١/١٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٢٩/٣ .

ارتكاب أشنع جريمة ، عندما أحس بالإحباط الذي استولى على نفسه عقب رفض قبول قربانه ، فتحوّل رد فعل هذا الحرمان إلى حقد مدمّر انصبت شحنته على أخيه الذي رآه يظفر بكل ما حرم منه ، ومما زاده غيظًا أن أخاه لم يقف منه موقف المتحدّي المدافع عن نفسه ، فقد مضى يذكّره ويوضّح له مسوغات الإعراض عن مجاراته في تهديده ؛ بغية أن تتولّد عن هذه المسوّغات الاستجابة في نفسه لتحدث عملية التعلّم ، إذ الاستجابة شرط أساسي يتوقّف عليها تقبل المعلومة ، فذكره بالتقوى ، وبالخوف من رب العالمين ، وبالإثم المضاعف ، وبأصحاب النار ، وبجزاء الظالمين ، ولكن (قابيل) لم يَعِ الدرس ولم يستوعب المعلومة ، بل اندفع متماديًا في غيّه ، وباندفاعه طوّعت له نفسه قتل أخيه ، ويستمر الدرس بعد ذلك في عرض الوسيلة التوضيحية والتقويم الختامي الذي سجل قيمة حياة الإنسان في حالة سموّها »[(١)] .

أما النتائج الفردية الخاصة للاعترافات فهي :

١- نيل مغفرة الله ورحمته وعفوه ، ونتائجه حُكيت في قصص الأنبياء عليهم السلام بعد اعترافاتهم مباشرة ، ومن ذلك ما ورد في قصة موسى عليه السلام قال الله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾ (القصص:١٦،١٧) .

وهكذا نجد المؤمن دائم المحاسبة لنفسه ، فعندما « يقوى الإيمان وينضج فإنه يصبح عاملاً فعالاً كما تكون له في الوقت نفسه قوة دائمة عن طريق علاقة الفرد بالله ، لقد كان هذا هو سر نجاحه في حياة الناس وتأثيره على سلوكهم ، وبالتالي على صحتهم وعلى الرغم من أن للإيمان درجات متفاوتة إلا أن الإيمان الروحي يخلق في الإنسان إحساسا بالرضا والسعادة وينبع هذا

---

(١) القرآن أصل التربية وعلم النفس ، أحمد جهان الفورتيه : ص ٣١، ٣٢ .

الإحساس من التزامه بالمثل والقيم الخلقية حتى ولو ضحّى بحياته في هذا السبيل ، والمثل الصحيح لهذا السلوك يظهر في سلوك المؤمن الحقيقي الذي يواجه موقفًا خطيرًا ولكن إيمانه يحثه على المضي إلى الأمام وكثيرا ما ينجح ، ودون هذا الإيمان ما كان من الممكن له أن يحقق هذه المحاولة»[1] .

٢- الحصول على الهدف ، بدا ذلك في قصة العبد والنبي الصالح سليمان عليه السلام ، حيث قال الله عز وجل من نتائج اعترافه لله وانكساره : ﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ (ص:٣٦-٣٩) ، وظهرت هذه النتيجة في قصة موسى عليه السلام مع الخضر فقد نال موسى عليه السلام ما طلب بعد اعتذاره من الخضر وأكمل الرحلة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا** ﴾ (الكهف:٧٧) .

٣- لوم الذات للتخلص من شؤم الزلل دون طائل ، وهو كثير في حديث أهل النار وتلاومهم لبعضهم البعض ، ومنه قول الله تبارك وتعالى عنهم بعد تبرؤهم : ﴿ **كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾ (البقرة:١٦٧) .

٤- تفكير سليم في خطوات معالجة المشكلات ، قصة سليمان وأبوه داود عليهما السلام دالةٌ على هذا ، فداود عليه السلام قال الله تعالى عنه : ﴿ **وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ** ﴾ (ص:٢٤-٢٦)، ثم الذرية الصالحة التي سارت على نفس الخطوات فقال الله

---

(١) القرآن والصحة النفسية ، جمال أبو العزائم : ص ٧٩ .

تعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ (ص:٣٢،٣٣).

٥- ظهور المظلوم وعلو شأنه ، وهي نتيجة بارزة من اعتراف امرأة العزيز ، إذ كان باعترافها والتأكيد على براءة يوسف عليه السلام خروجه من السجن واعتلاؤه الذي أراده الله له : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾ (يوسف:٥٣،٥٤) .

٦- عفو صاحب السلطة ، ومنه اعتراف إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم ، قال تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (يوسف:٩٧،٩٨) ، وعفو يوسف عليه السلام عندما عفا عن إخوته ، قال تعالى : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف: ٩١،٩٢) .

٧- اللوم والحسرة ، والتعب النفسي وقد بدا واضحًا بعد اعتراف صاحب الجنة كما حُكي عنه في قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ (الكهف:٤٢،٤٣)، وفي اعترافات أهل النار حيث يقولون : ﴿ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٩٦-١٠٢) ، وهذه الحسرة يلقى بها العبد من التعب ما لا يشعر به إلا من جرّب ألمه ،

« وهذا عذاب الوجدان أو وخز الضمير وتأنيبه ، فهو ألم معنوي ينتج عن تصور شر وقع والإنسان مسئول عنه ، إنه هو الذكرى التي تعض قلب المجرم ولا تفارقه ليل نهار ، وهذا حق »[١] .

٨- الزجر والتعنيف والتوبيخ ، ووقوع الهلاك الذي لا فرار منه ، وهي نتيجة متكررة في اعترافات أصحاب النار ،لم أجدها في شواهد الاعترافات بالزلل الواقعة في الدنيا ، بل كلها واقعٌ في دار المُقامة ، نسأل الله السلامة ، وفي هذا أبلغ الأثر ليكفّ الإنسان عن الاستمرار في الباطل ، من التقصير في حقوق الناس ، أو التقصير في حق الله تعالى ، فهنا دار سلامة والعفو والاسترجاع ممكن ، لكن في الآخرة كل الأمور بيد علاّم الغيوب ، وكلٌّ هنالك شحيح ، فليعدّ الإنسان لنفسه قبل أن يغادر ، ومثال هذه النتيجة قوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ** ﴾ (المؤمنون:١٠٦-١٠٨)، وقوله تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ (الملك:١٠،١١)، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ** ﴾ (الحاقة:٢٥-٣٠) ، وقوله تعالى : ﴿ **يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ** ﴾

(الفجر:٢٤-٢٦) .

٩- تمايز الحق من الباطل ، وخضوع النفس السوية والفطرة البشرية إلى الحق ، مثاله ما حدث لبلقيس عندما دخلت الصرح الذي أعده جند سليمان عليه

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية ، مقداد يالجن :٢٨٣/١ .



السلام فحسبته لجة ، واعترفت بخطئها وظلمها لنفسها ، فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤)، ومن ثبات ملكة سبأ في الموقفين العصيبين عندما تلقّت كتاب سليمان عليه السلام ، وحين ردّ سليمان عليه السلام هديتها ، نتيجةٌ مفادها أن ثبات الحاكم في الأزمات ثبات لشعبه، وفي اهتزازه وضعفه اهتزاز لهم وضعف، فلو لم تثبت الملكة ، ولو لم تعالج الأمور بحكمة وتعقل فتذعن للحق ؛ لتحقق فيها وقومها وعيد سليمان عليه السلام حين قال لرسولها : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ (النمل:٣٧) [1].

ومثاله كذلك ما حدث للمتمنين من الفقراء مكان قارون عندما خرج يتبختر في زينته ، فقال الله تعالى عنهم : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (القصص:٨٢) .

١٠- العقوبة العادلة من الله عز وجل ، مع مغفرة الذنب ، كما جاء في قصة آدم عليه السلام ، فقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه:١٢٢،١٢٣) ، ويُلحظ من النتيجة في الآية بما فيها من دنو منزلة آدم عليه السلام وزوجه من الجنة إلى الدنيا ، «أن لم يؤنسه ربه جل وعلا بالنداء ، ولا أقبل عليه بتنويهه بذكر اسمه ، بخلاف قوله :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة:٣٥)» [2] .

---

(١) ينظر : شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتورة نورة الرشيد : ص ٢٤٩ .

(٢) البحر المحيط ، أبوحيان : ٢٦٢/١ .

خلاصة :

كيف للمخطئ أن يعترف أمام نفسه بالخطأ وهو يُربّى على أنانية متراكمة منذ طفولته ، وتُنفخ فيه دواعي التكبُّر من أبوين لا يطيقان رؤية ابنهما في حالة انكسار وإن كان مخطِئًا؟

إن المتدبّر لكلام الله تعالى يضع للإنسان منهجًا في التربية ليرى نتائج الاعتراف فيعلم أن الدنيوية منها هيّنة على النفس ، ميسورٌ أمرها إذا ما قورنت بنتائج فوق احتمال العبد يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ومن اعتاد أن يعترف بخطئه للناس ليقتص منه من أخطأ بحقه ، اعتاد ذلك في كل أمره ، في حق العباد وحق رب العباد ، ولنا في رسول الله صلى الله عليه أسوة حسنة إذ دعا إلى القِصاص من نفسه في خدشةٍ خدشها أعرابيًّا لم يتعمّده ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، إن الله لم يبعثك جبّارًا ولا متكبّرًا ، فدعا النبي ﷺ الأعرابي ، فقال : « اقتص مني » فقال الأعرابي : قد أحللتك بأبي أنت وأمي ، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا ولو أتيتَ على نفسي ، فدعا له بخير[1] ، « فالصواب تنشئة النفس على دوام المحاسبة الذاتية والمراقبة الشخصية ، وتعويدها على العقاب عند الزلل ، فإن هذا من شأنه أن ينقّي العبادة من أي حافز خارجي دخيل على النية الصالحة كرغبة في تسويد ورقة المحاسبة أو نحو ذلك »[2] .

---

(١) رواه الحاكم بلفظه في مستدركه على الصحيحين ، كتاب : الرقاق ، (رقم الحديث : ٧٩٤٣) ، ورواه البيهقي بلفظه في شعب الإيمان ، كتاب : طاعة ولي الأمر ، فصل : في نصيحة الولاة ووعظهم ، (رقم الحديث :٧٠٢٤) .

(٢) القواعد الحسان في أسرار الطاعة ، رضا أحمد صمدي : ص ٩ .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

- للاعترافات بالزلل نتيجة عامة وهي أنها درس تربوي وموعظة للعالمين ببلاغة القصة وإيرادها على النحو الذي وردت عليه ، ونص اعتراف المقصّرين وبواعثهم ونتائج اعترافاتهم .

- ونتائج خاصة ظهرت مع تتبع الشواهد والقصص التي وردت فيها ، ومنها :

١- نيل مغفرة الله وعفوه .

٢- الحصول على الهدف .

٣- لوم الذات للتخلص من شؤم الزلل دون طائل .

٤- تفكير سليم في خطوات معالجة المشكلات .

٥- ظهور المظلوم وعلو شأنه .

٦- عفو صاحب السلطة .

٧- اللوم والحسرة والتعب النفسي .

٨- الزجر والتعنيف والتوبيخ .

٩- تمايز الحق من الباطل ، وخضوع النفس السوية والفطرة البشرية إلى الحق .

١٠- العقوبة العادلة من الله تعالى ، مع مغفرة الذنب .

* * *

الفصل الثالث

خصائص أساليب الاعتراف

وفيه ثلاثة مباحث :

الأول : الموضوع .

الثاني : الزمان والمكان .

الثالث : المخاطَب .

الفصل الثالث

خصائص أساليب الاعتراف

يختص أسلوب كل إنسان بالموضوع الذي يريد إيصاله ، وبمن يوصل إليه الرسالة ، وبظروف زمانية ومكانية تؤثر في طريقة الكلام ، فتكوّن هذه الظروف مجتمعة خصائص للأساليب .

ولأن الاعتراف بالزلل ليس أمرًا محبَّبًا تختاره النفس! لكنه أشبه بحائط يقف عنده المُقّصّر مُحاطًا بظروف وملابسات معينة ، ليجد أن الفرار ليس عنه محيصًا ، وما من شافع أو نافع ، صارت دراسة خصائص أساليب الاعتراف بالزلل بتفاصيله ممتعةً ، وإن كانت متشعّبةً مضنية ، لكنّ النتيجة هي الوقوف على أسرار هذا الاعتراف وكوامنه ، فجاء هذا الفصل مرتديًا ثوب الختام ، راجِيًا أن يكون قد أدّى واجب الكرَم في ضيافة تلك الخصائص الثلاثة ، ليكشف عن هدف الدراسة في بيان أثر كل خاصية في الاعتراف .

وقد برز في (الموضوع) أثر توجيه صيغة الاعتراف في مجملها نحو مسارٍ أراد المقصّر وروده ، ثم جاء (الزمان والمكان) مُؤثّرين لم يخترهما المعترف البتة ، ولكنهما أبيا إلا أن يشاركاه اعترافه ، وكان (المخاطب) لبّ الكَلِم ، ولأجله انطلق اللسان معترِفًا فكان له أكبر الأثر في تخيّر اللفظ ، وتشكيل معالم الأسلوب .



المبحث الأول

الموضوع

يلحظ المتدبّر أن أسلوب الاعتراف بالزلل يختلف بحسب موضوع الزلل المراد البوح به ، فاعتراف امرأة العزيز بمراودة يوسف عليه السلام ليس كاعتراف إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم ، وبتحليل الآيات تتضح لنا خصوصية الموضوع وأثرها في الأسلوب .

وكل أسلوب في القرآن الحكيم جاء محكيًّا على أبلغ ما يصف قول القائل وفعله وخلجات نفسه ، وإن كل اختلاف ولو كان يسيرًا بين أسلوبين يدل على أن المعنى يختلف ، ويورد ابن عاشور في مقدمته في معرض حديثه عن تكرار القصص القرآني وأسراره ، فوائد لا حصر لها من ذلك التنوع والتفنن في القصص ، ومجيئها موجزة مرة ومطوّلة مرة ، فردّ ذلك إلى « ظهور البلاغة ، فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ ، فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات أو كناية ، وتفنن في الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة ، وسعة اللغة باستعمال المرادفات مثل : ﴿ **وَلَئِن رُّجِعْتُ** ﴾ (فصلت:٥٠) ، ﴿ **وَلَئِن رُّدِدتُّ** ﴾ (الكهف:٣٦) ، وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان من الحدود القصوى في البلاغة ، فذلك وجه من وجوه الإعجاز »[١] ، وكان ابن عاشور في مواضع كثيرة من تفسيره[٢] حين يطرق (التفنن) يوجّه هذا

---

(١) التحرير والتنوير : ١/٦٨ .

(٢) ينظر السابق مثلاً : ١/٥٨٥- ٦٩٨ ، ٢/٥٠ ، ٤/١٤٤ ، ٥/٢٦ .

التفنن ليكتمل الإشباع البلاغي في الأسلوب ، فيشعر القارئ أنه في غنى عن قراءة غيره من التفاسير لعمق توجيهاته البلاغية فيما يُظن أنه (ترادف) ، فكيف بما يكون فيه الأسلوب متنوّعًا بحسب الموضوع الذي تحمله الآيات!

كما وجّه شهاب الدين الخفاجي في أكثر من موضع في حاشيته التغاير في الألفاظ إلى أعمق من مجرّد (التفنن) الذي هو بحد ذاته من صميم الإعجاز فقال : « تغيير التعبير ليس مجرد تفنن . . . » [1] ، وجاء في (فتح البيان في مقاصد القرآن) بعد توجيه قوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ (البقرة:١٧٧) ، بـ(التفنن) في الكلمتين الأخيرتين قائلاً : « وخولف الإعراب في بعضها ، ويسمى قطعًا ؛ لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع الذكر ، ومزيد اهتمام بشأنه » [2] ، ويلفت النظر إلى أن هذا من فتح الله على المفسرين البلاغيين ، حيث يُجلي طول التأمل وعمق التدبر معهم بعضًا من الأسرار التي تتفتق بها الآيات بتوجيهات في منتهى الروعة ، تعرض المعنى في أبهى حلة ، فسبحان من هذا كلامه!

وقد سُلّط الضوء من قِبل « المحققين من فقهاء العربية ، فلم ينكروا الترادف في الألفاظ التي تختلف حروفها وموادها فحسب ، بل أنكروه كذلك في الألفاظ تتفق مادتها وحروفها ، وتختلف صيغها وأبنيتها ، إلا إذا جيء ذلك في لغتين ، بل إنه لا يجوز أن تختلف الحركتان في الكلمتين ومعناهما واحد » [3] .

ونقل أبو هلال العسكري من ذلك مثلاً الاختلاف في صيغ المبالغة ، فقال : « إذا كان الرجل قويًّا على الفعل قيل : فعول ، مثل : (صبور) و(شكور) ، وإذا فُعِل الفِعْل وقتًا بعد وقت قيل : فعّال ، مثل : (علاَّم) و(صبّار) ، وإذا كان ذلك

---

(١) عناية القاضي :٣٢٢/٦ ، وله أشباهها في مواضع أخرى مثل : ٥٣/٢ ، ٤٨/٤ .

(٢) محمد صديق القنوجي : ٣٥١/١ .

(٣) الإعجاز البياني للقرآن ، عائشة بنت عبد الرحمن : ٢٣٢ .

عادةً له ، قيل : مفعال ، مثل : (معوان) و(معطاء) ، ومن لا يتحقق المعاني يظن أن ذلك كله يفيد المبالغة فقط ، وليس الأمر كذلك ، هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها »[1] .

وأشار العسكري إلى معيار قبول الكلام بقوله : « الكلام ـ أيدك الله ـ يحسن بسلاسته ، وسهولته ، ونصاعته ، وتخيّر لفظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشابه أعجازه بهواديه ، وموافقة مآخيره لمباديه ، مع قلّة ضروراته ، بل عدمها أصلاً ، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر ؛ فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ؛ وكمال صوغه وتركيبه ، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقًا ، وبالتحفظ خليقًا »[2].

وإذا فككت نسج الكلام وأردت حياكته مجدّدًا تجدك محتاجًا لمعرفة الموضوع الذي يقودك لمبتغاك ، فإن « الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدلّ عليها ويعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ ؛ لأنّ المدار بَعْدُ على إصابة المعنى ، ولأنّ المعانى تحلّ من الكلام محلّ الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة »[3] ، ومن هنا تتبيّن قيمة اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ومدى دقة اللفظ القرآني وأعاجيبه وأسراره مع الموضوعات التي طرقها .

لو تأملنا الكلام لوجدناه « يقوم بثلاثة أشياء : لفظٌ حامل ، ومعنًى قائم ، ورباطٌ لهما ناظم »[4] ، فانظر كيف نال القرآن باجتماعها فيه غاية الشرف

---

(١) الفروق اللغوية : ١٢، ١٣ .

(٢) كتاب الصناعتين : ١/٥٥ .

(٣) كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري : ١/٦٩ .

(٤) بيان إعجاز القرآن ، الخطابي : ١/٢٧ .

والرفعة؟ «ففيه أفصح الألفاظ ، وأعذبها وأجزلها ، وأحسن التأليف ، وخير المعاني ، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير! وقد تفنن القرآن في تنويع المعاني مدرجة في أحسن نظوم التأليف ، ووقف عند الألفاظ وقفةً دلَّ بها على أن كلاًّ من التأليف والمعنى يعتمد على اللفظ ، أو بعبارة أدق على وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به ، ولهذا عرّج على بعض الألفاظ المتشابهة في المعنى مثل : (الشح) ، و(البخل) ، ودلَّ على أن اللفظة الواحدة تصلح في موضع لا تصلح فيه الأخرى ، فإذا تغيرت أو انتقلت عن موضعها اختل التأليف وتفاوت المعنى»[(١)] .

وترتبط صيغ الاعتراف في الباب الأول[(٢)] ارتباطًا وثيقًا بالأسلوب والمعنى وموضوع الاعتراف ، ومن المبحث الحالي ستتبيّن خصوصية الموضوع في الاعتراف بالزلل ومميزاته .

موضوعات الاعتراف :

لكل اعترافٍ بالزلل موضوعٌ محدد ، حصرتها فكانت في خمسة عشر موضوعًا ، منها ما ذكره صريحٌ في الآية ومنها ما كان تحديده من التفاسير الموثوقة ووثقت الرجوع إليها في تحليل تلك الآيات في الباب الأول صنفتها كالتالي :

أ- عامة ، وهي التي لم تُحدد في سياق الآيات وعُبّر عنها بـ (الظلم ، الإجرام ، أخذ الكتاب بالشمال) ، أو حُدّدَتْ وأخذت تصنيفًا واحِدًا ، وفيها اثنان من هذه الموضوعات ، هي :

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دكتور إحسان عباس : ٣٤٤/١ .

(٢) ينظر : ص ٥٥ .

١- ارتكاب مجموعة من الكبائر .

٢- التفريط في جنب الله .

ب ـ خاصة ، وفيها ثلاثة عشر موضوعًا ذُكرت صريحة في الآيات ، رتّبتُ أوّل خمسةٍ منها التي تُعدّ من الكبائر حسب درجة شدّته ، ثم ما بعدها كان بحسب ما ترتّب عليه من عقوبة ونتيجة في السياق :

١- الكفر أو الشرك بالله .

٢- القتل .

٣- فعل الفاحشة (الزنا أو اللواط) .

٤- التخلف عن المعركة .

٥- الحسد .

٦- الأكل من الشجرة .

٧- سؤال الله مالا ينبغي .

٨- الإعجاب بالكثرة .

٩- الاشتغال بالنعم عن عبادة الله .

١٠- الخطأ في القضاء .

١١- قلة الصبر .

١٢- النسيان .

١٣- تمني ما عند العصاة .

عرضتُ كل موضوعٍ ثم حصرت شواهده تحت عنوانه مرتّبةً حسب ورودها في سور القرآن ، ثم أبرزت الخصائص الذي تميّز بها الاعتراف في كل موضوع .

* * *

أ- عامة :

١- كبائر الذنوب ، وفي هذا الموضوع خمسة شواهد هي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ (إبراهيم:٤٢،٤٣) .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (السجدة:١٢) .

٣- قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ (القلم:٢٦-٣٢).

٤- قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ (الحاقة:٢٥-٢٩) .

٥- قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ (المدثر:٤٢-٤٧).

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- ارتباط الاعتراف فيه برؤية العقاب ، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ ﴾ ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ

أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ ﴾ ، ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُواْ** ﴾ ، وهذا حال الغافل متّبع الهوى فلا يزال في غفلة حتى يرى ما يردعه ، ومن يألف الكبائر لا يكون فعلها مؤثّرًا في نفسه ، بل يكون مما يعتاد عليه ، فمع كونهم يعصون الله عز وجل غير أنهم لن يعترفوا حتى يروا قدرة الله عليهم فيسلّموا له يوم لا ينفعهم التسليم .

- وصف الإنسان لنفسه وما حوله بما يراه مستحقًّا له ، فحقيقة فعله تجلت ذلك الحين ، فأدرك ما لم يكن يدركه من قبل لغشاوة بصره ، ففي وصف النفس :

وصف الحالة الراهنة : ﴿ **إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ ، ﴿ **إِنَّا لَضَآلُّونَ** ﴾ - ﴿ **نَحْنُ مَحْرُومُونَ** ﴾ .

وصف الحالة الماضية : ﴿ **إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ** ﴾ - ﴿ **إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ** ﴾ ، ﴿ **وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ** ﴾ - ﴿ **وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ** ﴾ .

وصف الحالة المستقبلة : ﴿ **إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ** ﴾ .

ووصف الأمور المحيطة بالإنسان : ﴿ **مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ** ﴾ - ﴿ **هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ** ﴾ .

البلاغية :

- اشتراك تعبير الندم بين الآيات بإحدى طريقين : تعبير حقيقي بالكلمات وهو نص الاعترافات ، وتعبير تصويري بالحركات ، ومنه شخوص البصر ﴿ **تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ** ﴾ والانشغال حتى عن حركات العين غير الإرادية وهي الإغماض ﴿ **لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ** ﴾ ، وحركة الرأس المعبرة عن الاعتراف في سورة إبراهيم بالإقناع ﴿ **مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ** ﴾ ، وفي سورة السجدة بالنكس ﴿ **نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ** ﴾ ، ولاشك أن الإنسان عندما يكون قد ارتكب ما يشينه اكتشف أن كل ما كان يفعل أمام عينيه محاسبٌ

عليه لاسيما وأن الذنوب عظيمة حتى سمي الإنسان ظالمًا أو مجرمًا ﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، ﴿ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ فإنه يأتي بثياب الخزي والندم التي لا تنفك عنه .

- التعبير بالوصف المشتق : ﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، ﴿ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ - ﴿ مُوقِنُونَ ﴾ ، ﴿ لَضَآلُّونَ ﴾ - ﴿ مَحْرُومُونَ ﴾ ، ﴿ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ ، ﴿ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ يدل على تحقق المعنى وتأكيد التصاقه بالشيء وثبوته ودوامه[1] ، وهو يناسب عِظم الموضوع في مقابل ماضي هؤلاء المعترفين من الاستهانة بالذنب حتى هالهم ما رأوا .

* * *

٢- التفريط في جنب الله ، وفي هذا الموضوع خمسة شواهد هي :

١- قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون:٩٩،١٠٠) .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴾

(الفرقان:٢٧-٢٩) .

٣- قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر:٥٦-٥٨).

---

(١) ينظر : الوصف المشتق في القرآن الكريم ، دكتور عبد الله الدايل : ١٧٨ .

٤- قوله تعالى : ﴿ **وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ (المنافقون: ١٠).

٥- قوله تعالى : ﴿ **يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾ (الفجر: ٢٤).

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- ذكر الفعل المُتمنّى من المفرّط صريحًا دون ذكر المصير الذي يتمناه مع شدة ما يلقى ؛ وهذا يتناسب مع موضوع التفريط من حيث إن تأنيب الضمير على ماضي الغفلة مستمر ، وإن ألم التفريط على عدم التزوّد سيكون وحده عذابًا نفسيًّا مختلفًا عن ما سيلقى من العذاب الحسي ، نسأل الله السلامة ، وكانت الأمنيات حسب ورودها في الشواهد هي : العمل الصالح:﴿ **لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا** ﴾،واتباع الرسول:﴿ **يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا** ﴾ ، والفرار من صحبة السوء : ﴿ **لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا** ﴾ ، والهداية : ﴿ **لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي** ﴾ ، الإحسان : ﴿ **فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ ، الإكثار من الصدقة والصلاح : ﴿ **فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ ، التزود من العمل للآخرة : ﴿ **يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾ ، فنسأل الله أن يلهمنا رشدنا .

البلاغية :

- غلبة أسلوب التمني ، ﴿ **لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا** ﴾ ، ﴿ **يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا** ﴾ ـ ﴿ **لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا** ﴾ ، ﴿ **لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي** ﴾ ـ ﴿ **لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً** ﴾ ، ﴿ **رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ** ﴾ ، ﴿ **يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾ ، فالمفرط طويل الأمل قليل العمل فناسب أن يكون التمني هو أسلوب اعتراف المفرّط ، إذ لا حيلة له غير الأماني التي اعتادها في دنياه وهو الآن يكررها .

ب ـ خاصة :

١- الشرك أو الكفر بالله تعالى ، وفي هذا الموضوع شواهد كثيرة ، بلغت ثمانية وأربعين موضعًا ، فهو الغالب على موضوعات الاعتراف ، والشواهد هي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧) .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنعام:٢٧) .

٣- قوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٠) .

٤- قوله تعالى : ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣١) .

٥- قوله تعالى : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام: ١٣٠) .

٦- قوله تعالى : ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف:٣٧) .

٧- قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ (الأعراف:٥٣) .

٨- قوله تعالى حكاية عن الكافرين من قوم صالح عليه السلام : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (الأعراف:٧٦) .

٩- قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٤٩) .

١٠- قوله تعالى : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس:٩٠) .

١١- قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

(إبراهيم:٢١) .

١٢- قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم:٢٢) .

١٣- قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ (إبراهيم:٤٤).

١٤- قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (النحل:٨٦).

١٥- قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ (الكهف:٤٢) .

١٦- قوله تعالى : ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ (طه:٧٠-٧٣) .

١٧- قوله تعالى حكاية عن قوم موسى عليه السلام : ﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ (طه:٨٧).

١٨- قوله تعالى حكاية عن السامري : ﴿ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾

(طه:٩٦).

١٩- قوله تعالى : ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ (الأنبياء:١١-١٥) .

٢٠- قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾

(الأنبياء: ٦٤، ٦٥) .

٢١- قوله تعالى : ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

(الأنبياء: ٩٧).

٢٢- قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾

(المؤمنون: ٦٤) .

٢٣- قوله تعالى : ﴿ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٤-١٠٧) .

٢٤- قوله تعالى : ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(الشعراء: ٤٦-٥١) .

٢٥- قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٩٦-١٠٢) .

٢٦- قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤) .

٢٧- قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾

(القصص:٦٣) .

٢٨- قوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (القصص:٦٥،٦٦) .

٢٩- قوله تعالى : ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾

(الأحزاب:٦٦-٦٨).

٣٠- قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (سبأ:٣١-٣٣) .

٣١- قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾

(سبأ:٥٢) .

٣٢- قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر:٣٧) .

٣٣- قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (الصافات:٥٠-٥٩) .

٣٤- قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ (ص:٣) .

٣٥- قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الزمر:٧١) .

٣٦- وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (غافر:١٠،١١) .

٣٧- قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (غافر:٥٠) .

٣٨- وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (غافر:٧٣،٧٤).

٣٩- قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ (غافر:٨٤) .

٤٠- قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٧) .

٤١- قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ (الشورى:٤٤،٤٥) .

٤٢- قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ (الزخرف:٧٧).

٤٣- قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأحقاف:٣٤).

٤٤- قوله تعالى : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر:٧) .

٤٥- قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الملك:٨-١٠) .

٤٦- قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ (القلم:٤٢،٤٣) .

٤٧- قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج:٤٣،٤٤) .

٤٨- قوله تعالى حكاية عن الجن : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (الجن:٤-٩) .

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- غلبة السياق الحواري الحاصل بين طرفين ، سواء اتجه نحو الحِجَاج أو الخصومة إلا أن الاعتراف فيه نتج عن حوار ، وجاء في سبع وعشرين آية ، وهذا يدل على أن أمر الشرك والكفر يجعل صاحبه داخلاً في دائرة العناد والكِبر عن اتباع الحق والاعتراف بالباطل حتى تحين اللحظة التي يكون فيها مضطرًّا إلى ذلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأنعام:٣٠) ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ

وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام:١٣٠)، وغيرها من الشواهد سابقة الذكر تحت هذا الموضوع .

- المباشرة في إلقاء الجواب المختص بمقامات الآخرة دون تهرّب أو مماطلة ، ومنه حكاية كلام أهل النار في قوله تعالى : ﴿ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠٤-١٠٧) ، وغيره من الشواهد مما يفصح عن كآبة الحال في ذلك المقام ، والكدر والضيق والعذاب الذي يمنع تحسين الأسلوب .

البلاغية :

- **ذكر لفظ يقوم المعنى بدونه ؛ للمبالغة في المعنى** وتأكيد مضمون اللفظ المذكور ، ومنه ذكر ﴿ أَحَدٗا ﴾ بعد تمني عدم الشرك بالله في قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ (الكهف:٤٢) وذلك تأكيداً لأمنية التوحيد التي تمنّى لو كان عليها،ومنه ذكر المفعول المطلق ﴿ قَبۡضَةٗ ﴾ بعد فعل القبض في قوله تعالى حكاية عن السامري : ﴿ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾ (طه:٩٦) ، وقوله تعالى حكايةً عن مخاصمة أهل النار تأكيدهم اللعن : ﴿ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ (الأحزاب:٦٨) مع وصف اللعن بالكبير من فرط حسرتهم وقهرهم على من ظنّوا بهم العون والنصر والشفاعة ؛ فكأنما أرادوا أن ينتقم الله لهم لكن لا فضل لأحد على أحد فكلهم ذائق العذاب ،

وقوله تعالى : ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ (المعارج:٤٤) بعد وصف أبصارهم بالخشوع تأكيدٌ لمعنى الانكسار البادي على الجوارح ، ومبالغة فيه، إذ المراد منه: «أن أبصارهم تُزعج نفوسهم ، وتظهر عليهم ظهوراً يخزيهم»[1] وقد ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ (القلم:٤٢،٤٣) ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج:٤٣،٤٤) ، وذكر فعل ﴿ نَقْعُدُ ﴾ وتأكيده بمصدره ﴿ مَقَٰعِدَ ﴾ في قوله تعالى حكاية عن الجن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾

(الجن:٩) .

- **التكرار** ، ومن ذلك تكرار المشركين لفظ (التبرؤ) وما في تكراره من دلالة الانتقام لهذا الفعل غير متوقّع من شركائهم الذين خيّبوا ظنونهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧) ، ولفظ (الشهادة) في قوله تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام:١٣٠) فيه تأكيد إقرار المشركين بباطلهم ، وتكرار لفظ الشفاعة في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟

(١) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٥/٣٥١ .

﴿ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (الأعراف:٥٣) يحمل رغبة من المشركين في أشخاص يصدُقونهم بعد خيبة أملهم في شركائهم ، فهم الآن يطلبون أناس لا يُسَمَّوْن شفعاء فقط وإنما يشفعون بالفعل ، وتكرار لفظ العمل في نفس الآية : ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (الأعراف:٥٣) دليل على رغبة حقيقية في تغيير ذلك العمل في صفته ووجهته وإخلاصه وكل شيء فهو ﴿ غَيْرَ ﴾ سابقه في كل شيء ، وتكرار لفظ الهداية في قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم:٢١) يؤكّد صدق الرغبة في الحصول على تلك الهداية التي هي أبعد ما تكون عنهم في ذلك المصير ، وتكرار لفظ (الطاعة) لله ولرسوله في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾ (الأحزاب:٦٦،٦٧) بينما جاء اللفظ مرة واحدة مع السادة والكبراء ؛ تأكيدًا لتوقير الله جل جلاله وتوقير رسوله واتباعه ، بعكس أولئك الذين لا يستحقون التوقير ، ولا يخفى أنه واردٌ في سياق حكاية تمني المشركين للحال التي تنجيهم وهي الطاعة لا المعصية ، وتكرارها يؤكد معناه ، ويكشف عن الندم على مخالفة ذلك .

- تميّز هذا الموضوع من بين موضوعات الاعتراف بورود أنواع من فن **الإطناب** منتشرةً في شواهده ، ومن هذه الأنواع :

١- **الإيضاح بعد الإبهام** ، ليتحقق منه المغزى الذي ذكره القزويني حيث قال : « ليُرى المعنى في صورتين مختلفتين ، أو ليتمكن في النفس أفضل تمكّن ، ويكون شعورها به أتم »[1] ، ومن ذلك مثلاً قول الله تعالى حكاية عن

(١) الإيضاح : ٣٠١ .

اعتراف فرعون لحظة موته : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس:٩٠) ، في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ بعد توحيد الله ؛ محاولة منه أن يقرر معنى انتقال عقيدته، ويوضّح ما سبق قوله لكن أنّى له أن ينال ذلك، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (النحل:٨٦) ، في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ﴾ ، إيضاح لاسم الإشارة وما بعده : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ﴾ والله عز وجل لا تخفى عليه خافية ، ولكنّ هذا القول المحكي عنهم زيادة إيضاح لأنفسهم الغافلة ، القاصرة النظرة والعقل ، فهذا الإيضاح أبلغ في حسرة قلوبهم ، ولسان حالهم : كيف نشرك بك من هم دونك في العلم ، والقوة ، والخلْق ، وكل صفات كمالك سبحانك هم دونك؟ ومع ذلك دعوناهم من دونك! ومثله قول المشركين : ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (غافر:٧٣،٧٤) ، وجاء هذا الفن أيضًا في قوله تعالى حكاية عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ (طه:٧٢) ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ إيضاح للقول المحكي عنهم : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ ، فالإبهام في الجملة من جهة نوع القضاء وأهميته لهم ، فجاء النظم الحكيم بما يوضّح المراد حكاية عنهم أن نوع القضاء دنيوي وقضاؤك منحصرٌ فيها لن تتعداه فسمت أرواحهم عن الخوف من البشر إلى الخوف من رب البشر ، قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ

يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر:٣٧).

٢- **ذكر العام بعد الخاص** والعكس ؛ «للتنبيه على فضل المذكور حتى لكأنه ليس من جنسه تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات»[(١)] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ** ﴾ (إبراهيم:٤٤) ، ففي قوله تعالى : ﴿ **وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ** ﴾ ، بعد قوله : ﴿ **نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ** ﴾ تخصيصٌ بعد عموم ؛ إذ اتباع الرسل داخل في إجابة دعوة الله جل جلاله ، فهم المرسلون منه وبأمره ، ويفيد هذا التخصيص والله أعلم تأكيد توقير الله ، وتوقير رُسله وعدم إهانتهم وتكذيبهم .

ومن ذكر الخاص بعد العام قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:١٤٩) ، في قوله تعالى : ﴿ **وَيَغۡفِرۡ لَنَا** ﴾ خاص ذُكر بعد عام وهو : ﴿ **يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا** ﴾ ، فإذا رحم الله عبداً غفر له ، وإنما جاء ذكر المغفرة بعد الرحمة لحاجتهم لها أشد الحاجة حتى كأنها ليست من لوازم الأولى ، ومنه قوله تعالى حكاية عن سحرة فرعون : ﴿ **إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ** ﴾ (طه:٧٣)، فقوله تعالى : ﴿ **وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِ** ﴾ بعد جمع الخطايا ؛ لأن أمر السحر الذي اعتادوه اعتبروا أنه منفصل عن إشراكهم وذنوب حياتهم كلها ، وهذا من زيادة حسرتهم .

---

(١) الإيضاح : ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

٣- **التكرير** ، وما يحمله من زيادة في ترسيخ الأثر النفسي للمعنى المراد عند المعترف ، وقد جاء بنوعيه تكرير اللفظ ، وتكرير اللفظ والمعنى ، فمن **تكرير اللفظ :** تكرير لفظ الربوبية في الدعاء للتحنّن وإظهار الذل ، كما في قوله تعالى حكايةً عن أهل النار : ﴿ **قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ** ﴾ (المؤمنون:١٠٦،١٠٧) ، وقوله تعالى حكاية عن سحرة فرعون : ﴿ **فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ** ﴾ (الشعراء:٤٦-٤٨) ، وتكرير فعل الغواية تأكيدًا لشناعة هذا الفعل في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ** ﴾ (القصص:٦٣) ، وتكرير عدد الإحياء والإماتة ﴿ **ٱثۡنَتَيۡنِ** ﴾ إظهارًا لكمال وعيهم رغم شدة العذاب يومئذ في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ** ﴾ (غافر:١٠،١١) .

ومن تكرير اللفظ والمعنى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ (الأنعام:٢٧)، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ** ﴾

(غافر:١٠،١١).

- كثرة ورود الطباق بكونه أحد فنون البديع التي امتازت بها شواهد هذا الموضوع ؛ فبرغم أن الطباق من جماليات النظم القرآني يظل اختصاصه



بهذا الموضوع ظاهرًا مشيرًا إلى قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (النمل:١٤) وهي حقيقة المفارقة في شخصية الكافر بين تمام اليقين في داخله بالحق وجحده عيانًا أمام الناس والعيش على هذه الازدواجيّة الممقوتة ، ففي الطباق وهو التضاد والتفاوت بين معنيين[1] مناسبة لوروده في آيات وأساليب الاعتراف المحكية عن تلك الشخصيات المشركة ، ومنه الطباق بين ﴿ أَخِّرْنَآ ﴾ و ﴿ قَرِيبٍ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ (إبراهيم:٤٤) ، وبين ﴿ حُمِّلْنَآ ﴾ و ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ في قوله تعالى حكاية عن قوم موسى عليه السلام : ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ (طه:٨٧)، وبين ﴿ ٱسْتُضْعِفُواْ ﴾ و ﴿ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ ، وبين ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ و ﴿ مُّجْرِمِينَ ﴾ ، وبين ﴿ ٱلَّيْلِ ﴾ و ﴿ وَٱلنَّهَارِ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ: ٣١-٣٣).

---

(١) (المطابقة وتسمى الطباق والتضاد أيضاً ، هي الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة) ، ينظر : مختصر المعاني ، التفتازاني : ٢٤٨/١ .

٢- القتل ، وفيه ثلاثة شواهد هي :

١- قوله تعالى في قصة قابيل : ﴿ **فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ** ﴾ (المائدة: ٣١) .

٢- قوله تعالى حكايةً عن موسى عليه السلام : ﴿ **وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ** ﴾(الشعراء: ١٤) ، وقوله تعالى في السياق نفسه : ﴿ **قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** ﴾

(الشعراء: ٢٠-٢٢).

٣- قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ **وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾ (القصص: ١٥-١٧) .

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- حكاية الانفعال والشعور النفسي الوارد كنتيجة لفعل القتل في الشواهد ، ﴿ **يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ** ﴾ ـ ﴿ **فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ** ﴾ ، ﴿ **فَأَخَافُ** ﴾ ، ﴿ **فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ** ﴾ ، ﴿ **قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى** ﴾ ، وذلك أن فعلاً مروّعًا كالقتل يلزم منه حدوث انفعال يوازيه من حيث الشدة على النفس ، وهذا ما حدث .

البلاغية :

- تفرّد الأفعال الواردة في الشواهد والمتعلّقة بموضوع القتل فهي مرتبطة بالإرادة وعدمها : ﴿ **أَعَجَزْتُ** ﴾ . ﴿ **فَعَلْتُهَآ** ﴾ ، ﴿ **قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ** ﴾ .

- ورود الفاء العاطفة في نتيجة الاعتراف وهي تدل على الترتيب والتعقيب في الأحداث ، وهي تناسب التدرّج في الانفعال بعد حدوث فعل القتل : ﴿ **أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ** ﴾ (المائدة: ٣١)، ﴿ **قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى** ﴾ (الشعراء: ٢٠، ٢١).

* * *

٣- فعل الفاحشة ، وهي في الآيات (الزنا أو اللواط) ، وفيه ثلاثة شواهد هي :

قوله تعالى حكاية عن قوم لوط عليه السلام : ﴿ **قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾ (هود: ٧٩) .

قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ **قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ** ﴾ (يوسف: ٣٢) .

قوله تعالى حكاية عن نسوة المدينة وامرأة العزيز عندما كُنّ بحضرة الملك : ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (يوسف: ٥١-٥٣) .

خصائص الموضوع :

الموضوعية البلاغية معًا :

- الجرأة في كشف أمر الفاحشة ، مع عدم ذكر اسمها ، وهذا يتناسب مع عِظم أمرها ، وكذلك فإن عرض النظم الحكيم لحكاية هذا الأمر دون المساس بتفصيل ما يخدش الحياء لنا فيه عظة وعبرة ، ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾ ، ﴿ **وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ** ﴾ ، ﴿ **مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ** ﴾ ، فقد ورد على لسان امرأة العزيز مرتين ذكر المراودة عن النفس ، وهي تكشف عن مرادها دون أن تقوله صراحة .

البلاغية :

- ذكر الضمائر في جملة الاعتراف فيها مع الجرأة مزيد اهتمام بالذات ورغباتها ، وحرص على تحصيل المصلحة الشخصية ، ﴿ **مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ** ﴾ (هود:٧٩) ، ﴿ **فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ** ﴾ (يوسف:٣٢) ، ﴿ **أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ (يوسف:٥١) ، وصاحب الفاحشة يكون أنانيَّ الطبع حريصًا على تحقيق حاجته مهما كانت الظروف ، غير أن اعتراف امرأة العزيز الأخير اختلف أن فيه قصدَ نسبة الاتهام للنفس بعد ماضي المكابرة الذي عُرفت به المرأة .

* * *

٤- التخلف عن المعركة ، وفيه شاهد واحد هو :

قوله تعالى حكاية عمّا أصاب المتخلفين عن المعركة من صحابة رسول الله ﷺ يوم أحد : ﴿ **وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (التوبة:١١٨) .

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- ارتباط ضيق النفس نتيجة للتخلّف عن رسول الله ﷺ ، تحيلنا إلى طول تأمّل ومحاسبة لأفعالنا ، فالشعور النفسي العابر الذي قد يصيب الإنسان ينبغي أن لا يكون عند المؤمن والكافر على السواء ، بل ينبغي أن يكون المؤمن حسّاسًا لهذه الأعضاء التي تتأثّر بالمعصية ، وتكون تلك المشاعر أو الأحاسيس بالضيق مؤشّرًا لتغيّر في السير إلى الله عز وجل ، أو تعقبُ ذنبًا فتئنّ الروح وتضيق حتى ترتاح إذا رضي الله جل وعلا ، فبعد الطاعة يجد الإنسان نفسه منشرحًا ، وبعد المعصية يحدث الضيق ، ومن عاد إلى الله وأبدل سيئاته حسنات عندما شعر بشيء كهذا أو قبل أن يشعر فهو في خير ، ومن تُنكتُ في قلبه نُكتٌ سودٌ ولا يرعوي فيُخشى عليه ، قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ (الأنعام:٤٣).

البلاغية[1] :

- تكرار الضيق مرتين : مرة للأرض ومرة للنفس فيه مضاعفة لحالة الضيق التي مرت بالصحابة الكرام رضوان الله عليهم بما يتناسب مع عِظم فعلهم وهو التخلّف عن المعركة مع احتياج رسول الله ﷺ لهم ، وقال كعب بن مالك رضي الله عنه يصف حاله ، وشدة الضيق التي مرّت به وبصاحبيه : «نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلّف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيّروا لنا حتى تنكّرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأمّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أَشَبَّ القوم وأجْلَدهم فكنت أخرج

(١) ينظر : ص ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣ .

فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه بردّ السلام علي أم لا ؟ ثم أصلّي قريبًا منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام ، فقلت : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت ، فعدتُ له فنشدته فسكتَ ، فعدت له فنشدتُه ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي . . . »[1] ، وقد ورد في رواية مسلم الحديث نفسه أنه ﷺ كان يتفقّدهم ، فقد قال رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في القوم بتبوك ـ كما في الحديث ـ « ما فعل كعب بن مالك؟ » قال رجلٌ من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عِطْفَيْه؟ فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيْرًا ، فسكت رسول الله ﷺ ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيِّضًا يزول به السّراب فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا خيثمة » فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري ، . . .الحديث.

* * *

٥- الحسد ، وفيه ثمانية شواهد هي :

أ- قوله تعالى حكاية عن قول الشيطان جاء في خمسة مواضع ، هي :

١- قوله تعالى : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ

(١) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : المغازي ، باب : حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وقول الله عز وجل : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ (التوبة:١١٨) ، (رقم الحديث : ٤٤١٨) ، ومسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : التوبة ، باب : حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وصاحبيه ، (رقم الحديث : ٢٧٦٩) .

فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١١٨،١١٩).

٢- قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧) .

٣- قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٦٢) .

٤- قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر:٣٩) .

٥- قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص:٨٢،٨٣) .

ب ـ قوله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في ثلاثة مواضع هي :

١- قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (يوسف:٨٠) .

٢- قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف:٩١) .

٣- قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف:٩٧) .

خصائص الموضوع البلاغية :

١- تخيّر المفردة الدقيقة العميقة في المعنى ودلالته : (الاتخاذ ، والإضلال ، والقعود ، والتغيير ، والاحتناك ، والإغواء ، والتفريط ، والإيثار ، والإخطاء)، كلّها ألفاظ تدل على بلوغ أقصى درجات الفعل ، وهذا يتناسب مع الحسد ؛

فالحسود لا يتمنّى النعمة التي عند غيره ويسعى لها فحسب ، بل يتمنّى زوالها عن غيره ممن يحسدهم ، وهذه درجة بالغة في الاعتداء .

٢- مجيء القسم مع لامه في سبعة شواهد من هذا الموضوع ، وفي القسم تقوية للمعنى تناسب ما تتصف به تلك الشخصيات من القوة في الحصول على مبتغاها ، فهي تتفانى لتسلب من تحسده من النعمة التي تريدها .

* * *

٦- الأكل من الشجرة ، وفيه شاهدان هما :

قول الله تعالى حكاية عن اعتراف آدم عليه السلام وزوجه :

١- ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٢٢،٢٣) .

٢- ﴿ **وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ** ﴾ (طه: ١٢١).

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- مناسبة الأكل من الشجرة بل التذوق منها مع عقوبة التعري ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ** ﴾ فبالرغم من كونه تذوّقًا فقط لكنّ نتيجته عظيمة لكونه عصيانًا نُبّهوا عليه قبل فعله وجُعل لهم في الجنة عوض من ثمراتها وأشجارها ومع ذلك حدث منهم ما حدث ، فكانت النتيجة من أول تذوق ، لم يصل إلى حد الشبع أو الاكتفاء .

البلاغية :

- التعبير بالمضارع مع الطفق لدلالة التجدد والاستمرار[1]، لضعف العزم عن الاستدامة على ما نهى الله عنه مع رؤية نعيم الجنة سوى الشجرة المنهي عنها ناسب أن يكون مع الاعتراف استمرار على الفعل تعويضًا عمّا حدث .

* * *

٧- سؤال الله ما لا ينبغي ، وفيه شاهدان هما :

١- قوله تعالى حكاية عن الملائكة : ﴿ **قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (البقرة:٣٢).

٢- قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ (هود:٤٧) .

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- التبرؤ من ادعاء العلم ونسبته لله مطلقًا ؛ وهذا يناسب سؤال الله ما لا ينبغي ، ومنه سؤال الملائكة لربهم عن سبب وجود بشر في الأرض خليفة ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة:٣٠) ، فيناسب بعد هذا الزلل أن يكون الاعتراف هو نسبة العلم المطلق لله سبحانه ، وكذلك نوح عليه السلام عند سؤاله ربه نجاة ابنه ، فعاتبه الله عز وجل في ذلك .

---

(١) ينظر : ص ٣١٨ ، طفق يفعل : لازال يفعل ، ودلالته مثل : ظلّ وبات . ينظر : جمهرة اللغة ، ابن دريد : ٩١٩/٢ ، مادة (طَ فِ قَ) ، وينظر : العين ، الخليل : ١٠٦/٥ ، مادة (طَ فِ قَ) .

البلاغية :

- حسن الابتداء ، فالملائكة في اعترافها ابتدأت بالتنزيه فقال الله حكاية عنها : ﴿ **سُبۡحَٰنَكَ** ﴾ ، ونوح عليه السلام قال : ﴿ **أَعُوذُ بِكَ** ﴾ ، وهذا من الأدب عند مخاطبة الله جل جلاله بعد ارتكاب الزلل لمظنة عفو الله ورجاء ما عنده من الرحمة والفضل .
- تكرار لفظ العلم في الشواهد ، ﴿ **لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ ، قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ **مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌ** ﴾ ، وهذا التكرار يؤكّد انتفاء هذه الصفة العزيزة عند المعترفين بزللهم وهم (الملائكة ، ونوح عليه السلام) مع طلبها من الله عز وجل ، وهذا التكرار يفيد أيضًا مقدار تمني علم من لدن الله .

* * *

٨- الإعجاب بالكثرة ، وفيه شاهد واحد هو :

قوله تعالى حكاية عمّا أصاب صحابة رسول الله ﷺ يوم حنين : ﴿ **لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ** ﴾ (التوبة:٢٥).

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- التعبير بالضيق مقابل شعور الإعجاب ، والذي هو الزلل المرتكب ، فسبحان الله كيف كانت عقوبة الشعور هي شعور أيضًا ، ليُعلَم أن الجزاء من جنس العمل ، والإنسان ضعيفٌ وقلبه في كل أحواله ومشاعره بين أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

البلاغية :

- تقديم الجار والمجرور على الفاعل ﴿ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ ، تدل على الاهتمام بالمقدّم على المتأخر ، فالأهم ما حدث لهم وكيف أن هذه الأرض ضاقت (عليهم) لا (فيهم) أو (بهم) ، وهذه الإلماحة تدل على تبدّل الحال الأول من الإعجاب إلى الضيق(١) .

* * *

٩- الاشتغال بالنعم عن عبادة الله ، وفيه شاهد واحد هو :

قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام : ﴿ **فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ** ﴾

(ص:٣٢-٣٥) .

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- صرف العبادة لوجه الله مناسب لموضوع الاشتغال بها عنه سبحانه وعن ذكره ، فالمؤمن صاحب النعمة يعلم أن نعمته هي محض تفضّل من ربه الكريم ، فعندما يعلم أنه افتتن بشيء من تلك النعم ناسب أن يعاقب نفسه بأن يصرفها لوجه الله تعالى ، ليكون صابِرًا في السراء قبل الضرّاء ، ثم إنه بعد ذلك من حسن ظنه بربه سأل الله تعالى ملكًا .

---

(١) ينظر : ص ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣ .

البلاغية :

- تكرار لفظ (الحب) ﴿ **أَحْبَبْتُ حُبَّ** ﴾ ، ولفظ (الهبة) ﴿ **وَهَبْ .... ٱلْوَهَّابُ** ﴾ ، تحمل استشعاراً عميقًا للمعنى المراد من الحب ، ومن الرغبة الصادقة في هبة الله جل جلاله(١) .

* * *

١٠- الخطأ في القضاء ، وفيه شاهد واحد هو :

قوله تعالى في قصة داود عليه السلام : ﴿ **قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩** ﴾ (ص:٢٤).

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- ربط الاعتراف المنكسر لله بالخرور طلبًا لمغفرته ورجاء تسديده وفتحه بأصل الزلل وهو الخطأ في القضاء ؛ فالمؤمن يعلم أن ما يُؤتاه من علم في القضاء والحكم إنما هو فتحٌ وتسديدٌ وتوفيقٌ منه جلّ في علاه ، وهكذا المؤمن مهما بلغ علمه فإنه يستشعر قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه : « .... يا عبادي كلكم ضال إلا من هديتُه ، فاستهدوني أهدكم ... »(٢)، فقد قال الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام : ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ** ﴾ (ص:١٨-٢٠) ، وهكذا يكون تعامل

---

(١) ينظر : ص ١٦٦-٣٣٠ .

(٢) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم ، (رقم الحديث : ٢٥٧٧) .

العبد المؤمن الأوّاب مع زلله وتقصيره ، فإن ظنّ أنه أخطأ على الناس في الحكم فعليه أن يلجأ لله الذي وهبه هذا العلم .

البلاغية :

- التعبير باسم الفاعل ﴿ رَاكِعًا ﴾ يُكسب داود عليه السلام دوام هذه الصفة والتصاقها به ، وهذه طريقة الرجل المؤمن العابد في الاعتراف لربه ، وهذا يناسب ما ورد عنه ؛ فقد ظل أربعين صباحًا على هذه الحال[1] .

* * *

١١- قلة الصبر ، وفيه شاهدان هما :

١- قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ **قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا** ﴾ (الكهف:٧٦).

٢- قوله تعالى حكاية عن يونس عليه السلام : ﴿ **وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٨٧).

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- الاعتراف باستحقاق نتيجة الزلل ، والانقطاع عن الخير إذ هو ناتجٌ من عند الإنسان نفسه ، ومن يخاطِبه معذورٌ في ذلك ، فعند موسى عليه السلام انقطاع الخير هو انقطاع الصحبة مع الخضر ، وعند يونس عليه السلام انقطاع الحياة الطبيعية الهانئة فوق سطح الأرض ككل البشر .

البلاغية :

- مراعاة مقام المخاطب عند الاعتراف والاعتذار ، فعندما توجّه موسى عليه السلام إلى الخضر بحديثه قال مقولة تناسب الاعتذار للبشر : ﴿ **قَدْ بَلَغْتَ**

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٥١/٧ .

مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ ، أمّا يونس عليه السلام في بطن الحوت فكان يخاطب خالقه جل في علاه فناسب مقام العبودية قوله : **﴿ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾** .

١٢- النسيان ، وفيه شاهدان هما :

١- قوله تعالى حكاية عن فتى موسى عليه السلام : **﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴾** (الكهف:٦٣).

٢- قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : **﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴾** (الكهف:٧٣) .

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- وقوع الزلل بسبب رؤية أحداث عجيبة ، فعند فتى موسى عليه السلام عودة الحوت حيًّا يسبح في البحر بعد موته ، وعند موسى عليه السلام مع الخضر رؤية الخضر يخرق السفينة دون عذر وجيه فيما يرى .
- التصريح بالنسيان ، **﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ ﴾** ، **﴿ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾** ، يناسب موضوع الزلل وهو (النسيان) فلا أحد من البشر منزّه عن وقوع مثل هذه الزلّة ، لذلك لم يكن هناك حرج من ذكرها .
- طلب عدم المؤاخذة على النسيان جاءت تلميحًا من فتى موسى عليه السلام بنسبة النسيان إلى الشيطان ، ومن موسى عليه السلام صريحة لهول ما رأى .

البلاغية :

- ذكر الاحتراس أحد فنون الإطناب في الشاهدين ، ففي اعتراف فتى موسى عليه السلام قال : **﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ**



وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ (الكهف:٦٣) فجملة : ﴿ **وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ** ﴾ احتراس الفتى أمام سيّده أن ينسب كل الزلل لنفسه فيهلك بظنه مع علمه أن الأمر أعجب من أن يُنسى ، وقول موسى عليه السلام للخضر : ﴿ **قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي** ﴾ (الكهف:٧٣) فجملة : ﴿ **بِمَا نَسِيتُ** ﴾ تحمل احتراسًا من أن يُفهم أن موسى قد قصد سؤال الخضر عن أمر السفينة ، فأراد أن يذكّره أن الزلل جاء نسيانًا لم يكن مقصودًا ، لاسيما وأن الحق مع الخضر تلك اللحظة فقد أخذ العهد من موسى عليه السلام على أن لا يسأله عن شيء حتى يوضّح له الخضر أمره :

﴿ **قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾

(الكهف: ٧٠) .

* * *

١٣- تمني ما عند العصاة ، وفيه شاهد واحد هو :

قوله تعالى حكاية عن قوم قارون من الفقراء الضعفاء : ﴿ **وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾

(القصص: ٨٢).

خصائص الموضوع :

الموضوعية :

- تأخّر الاعتراف حتى رؤية النتيجة ، وهكذا دأب المتمنّي ودائم النظر للنعم التي في يد غيره ، فهلا يملأ عينه بما عنده ويقنع حتى يرى ما حل بالنعمة التي تمناها عند غيره فيحمد الله ويسترجع ، كيف وهذه النعمة بيد العصاة ، بيد من يمشون وسخط الله عليهم في أرضه ، نسأل الله الرضا والقناعة .

البلاغة :

- تفرّد الكلمة القرآنية[1] التي تكررت في اعترافهم ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ ، ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ ﴾ حيث لم ترد في مواضع أخرى من كتاب الله ، وهي بسكون يائها تحمل إيقاع المفاجأة التي حدثت فقطعت حبل تمنيهم لمثل حالهم وأحالتهم إلى عظيم منة الله أن لم يكن مصيرهم كما صار لهذا الطاغية .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

- ارتباط الاعتراف وما فيه من أساليب بلاغية ، وسمات موضوعية بموضوع الزلل المراد الاعتراف به .
- تأثّر الإنسان بما اقترف يظهر على الطريقة التي يعترف بها سواء كانت بالقول المجرد ، أم بالقول والإشارة ، أم بالإشارة وحدها ، وكل إشارة لها دلالة وعمق لا تؤدّيه الإشارة الأخرى ، فتعبير العبد المؤمن عند تقصيره بالخرور ساجِدًا ، ليس كتعبير الجاحد عند اكتشاف الحق أمامه بإطراق رأسه ، وهكذا تجتمع الإشارات والعبارات لتكون دلائل لا يمكن إغفالها في مجال الاعتراف .
- موضوع الزلل يعتبر من المؤثرات على الاعتراف التي تتلاحم مع مباحث الفصل المتبقّية وهي الزمان والمكان والمخاطب ، فكل اعتراف لا يمكن أن تُدرس خصائصه دون النظر في أبعاده ومؤثراته التي تشكّل مقامات يكون الوقوف عليها جزءًا من هذا الإعجاز الرباني في صياغة هذا النظم الحكيم .

* * *

(١) ينظر : ص ٢٣٢ .

المبحث الثاني

الزمان والمكان

تُرى هل للزمان أو المكان تأثيرٌ في السلوك الصادر عن الإنسان؟

هل يمنع الإنسان أن يتلفّظ بكلمةٍ كونه في هذا الشهر أو ذاك؟ أو هذا المكان أو غيره؟

هل هناك مزايا لزمنٍ دون زمنٍ ، ومكان دون آخر ، فاختلف بحسبهما نطق اللسان؟

هل يكون المكان مهّيئًا لإطلاق مشاعر ما كانت لتخرج في سواه؟

أسئلةٌ أطلتُ معها المكث ، فعرضتُ في هذا المبحث تنظيرًا يسيرًا لمسألة تأثير الزمان والمكان حسبما تبيّنت لي في الوحي العظيم من كتابٍ وسنّة عرضتُ في المطلب الثاني إلى ما جاء في الأدب ، فقد لا يكون الاقتناع بهذا التأثير عند كثير من الناس ، لذا حرصتُ أن أجلّيَ هذا الأثر حسب التتبع والدراسة ، فالمكان والزمان ظروفٌ تحكم أحداث الموقف الذي يجري فيه ، وتؤثر في أسلوب شخصياته ، وإعجاز البيان الرباني في وصف الاعترافات يصوِّر ذلك ، كما أن في الأماكن أزمنةً خاصةً تحدد سمات الاعتراف وترسم معالمه ، وتؤثر إيجازًا وإطنابًا ، ضعفًا وشدةً تظهر في نبرات المعترف حسب المشهد الذي يشكل له خوفًا أو أمنًا .

كما يتبيّن في هذا المبحث تأثير المدة الزمنية بين ارتكاب الزلل ولحظة الاعتراف ، والعلاقة بينهما ، مستدلة بشواهد من الآيات موضع الدراسة .

ويلفت عبد القاهر الأنظار إلى هذا التأمل في مكانة الكلمة ، ومقامها من النظم بإحكامٍ ودقة بقوله : «اعلم أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها ، ويبيّن مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجني صنوف ثمرها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها ، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان ، ونبّه فيه على عظم الامتنان ، فقال عز من قائل : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ (الرحمن:١-٤) ، فلولاه لم تكن لتتعدّى فوائد العلم عالِمَه ، ولا صحّ من العاقل أن يفتّق عن أزاهير العقل كمائمه . . .»[١] .

وللعلماء وقفاتٌ تدبرية مع كلام الله تتميّز بحسب عمق غوصهم في بحر عجائبه التي لا تنقضي ، «فعندما ننعم النظر في النظم القرآني ، ونتأمل ألفاظه وتراكيبه ، يبدو لنا اختلاف في استخدام الألفاظ ، وفي التراكيب ، فهذه جملة مؤكدة ، وتلك خالية من التوكيد ، هذا اللفظ مفرد في سياق وجمع في سياق آخر ، وذاك نكرة في موضع ومعرفة في موضع آخر ، هذه الكلمة قدمت في آية وأخرت في آية أخرى ، وردت مفردة في موضع وجمعًا في موضع آخر ، أوثر التعبير في هذا الموطن بلفظ ، وبمرادف له في موطن آخر ، وردت واو العطف في تلك الآية ، ولم ترد في الأخرى ، هذا الاختلاف وراءه أغراض قد اقتضته ، وأسرار دعت إليه ، إنه يرجع إلى أن لكل مقامٍ مقالا»[٢] .

وفي هذا المبحث يتضّح أثر الزمان والمكان في الاعترافات من حيث مناسبة الاعتراف للمقام ، والعلاقة بين ما يخصص ذكره في الآية من ألفاظ تدل على الزمان أو المكان ، سواء كان هذا الذِّكر لكلمةٍ أو لحرفٍ ، مع ما اتصل في الآية من اعتراف تأثّر بهما ، على أن يكون القيد الذي على أساسه تُصَنّف

(١) أسرار البلاغة : ٣ .

(٢) من بلاغة النظم القرآني ، دكتور بسيوني فيود : ١٠ .

الآيات[1] هو وضوح أثر المؤثر (زمانًا أو مكانًا) على نص الاعتراف في الآية ، ثم اختيارِ نموذجٍ واحد ـ ظهر فيه هذا الأثر ـ تكون فيه الدراسة تحت هذا التصنيف ؛ لأن الدراسة تتطلّب تحليلاً عميقًا لهذا الارتباط بين المؤثّر والأثر سيأخذ صفحات كثيرة جدًّا فيحتاج إلى رسالة منفصلة تختصّ بهذا الجانب من الدراسة .

* * *

(١) وأقصد بالتصنيف في مطلب الزمان : الأزمنة التي صنّفت عليها الشواهد فكانت : في الدنيا ، وفي الآخرة ، ثم اخترت لكل تصنيفٍ نموذجًا ، وفي مطلب المكان : الأمكنة التي صنّفت عليها الشواهد ، فكانت أماكن دنيوية ، وأماكن أخروية ، ينظر ص ٥٢٢، وهذا التصنيف هو استقرائيٌّ حسب الشواهد موضع الدراسة التي دُرست في الباب الأول ، ينظر : ص ٥٦، ٥٧ .



المطلب الأول

الزمان

في تفاصيل حياتنا وتتابع الأزمان يتبيّن أن للزمان فينا أثرًا بالغًا ، في سلوكياتنا وأقوالنا ، ومن هنا كانت دراسة أثر الزمان في الاعترافات من لوازم الدراسة ، وسيظهر ذلك من خلال تحليل هذا الأثر في الشواهد .

قال الدكتور فاضل السامرائي في أثر الزمن في حكاية القصص القرآني : «قرأت في اختيار التعبير القرآني لبعض الكلمات التاريخية كـ(العزيز) في قصة يوسف عليه السلام ، وكاختيار تعبير (الملك) في القصة نفسها ، واختيار (فرعون) في قصة موسى عليه السلام ، فعرفت أن هذه ترجمات دقيقة لما كان يستعمل في تلك الأزمان السحيقة ، فـ(العزيز) أدق ترجمة لمن يقوم بذلك المنصب في حينه ، وأن المصريين القدامى كانوا يفرقون بين الملوك الذين يحكمونهم فيما إذا كانوا مصريين أو غير مصريين ، فالملك غير المصري الأصل كانوا يسمونه (الملك) ، والمصري الأصل يسمونه (فرعون) ، وأن الذي كان يحكم مصر في زمن يوسف عليه السلام غير مصري ، وهو من الهكسوس ، فسماه (الملك) ، وأن الذي كان يحكمها زمن موسى هو مصري فسماه (فرعون) ، فسمى كل واحد بما كان يسمى في الأزمنة السحيقة»[1] ، ويكشف هذا أمام المشككين في كتاب الله ضعف تفكيرهم وتأمّلهم ، فعلى هذه الدقة الزمنية في التسمية تجد القرآن الكريم يطلق الكنى دون أي اضطراب أو خطأ في قصتي موسى ويوسف عليهما السلام ، فحين يذكر ملوك مصر الذين سبقوا (فرعون موسى) كالحديث عن الملك في قصته مع يوسف عليه السلام ،

(١) لمسات بيانية ، دكتور فاضل السامرائي : ٦ .

فنقرؤها في القرآن (الملك) ، لم يأت فيها خطأ لتكون (فرعون) عند يوسف ، ولا العكس عند موسى عليهما السلام[1] ، فهنا يتبيّن أثر اختيار الكلمة القرآنية الملائمة ببلاغتها لزمن حكاية الأقوال ، وتستمر بلاغتها بهذا الاتساق وهذه الخاصية حتى قيام الساعة .

وإذا عدنا للقصص القرآني وجدناه يطوي كثيرًا من الفترات الزمانية التي لا تكمن العظة في ذكرها ، من ذلك المدة الزمانية التي استغرقتها رسل ملكة سبأ في المسير إلى بلاط سليمان عليه السلام وحضور الملكة[2] .

ولا يخفى كم «للعنصر الزمني من أثرٍ فاعلٍ في تغيير الشخصيات ، والأماكن من خلال حركته داخل القصة ، كما أن له أثرًا فاعلاً في تشخيص الأحداث من خلال معرفة ظروف البيئة وأجوائها التي جرت فيها الأحداث ومدى تأثيرها في أخلاق الأشخاص وأفعالهم ، إضافة إلى تأثيره الكبير في سير الأحداث القصصية وفي تنميتها ، وإنضاجها ، وفي توضيح السببية التي تحرك الأحداث وتدفع بها .

كما لا يغيب عن المتدبّر أن تأثير الزمن في الشخصيات والأحداث أوضح من تأثير المكان عليهما ، . . .ففي قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام تحديد للوقت الذي راودت فيه المرأة يوسف عليه السلام ذلك هو بلوغ الأشد ، ويؤخذ هذا من قوله : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ (يوسف:٢٢،٢٣) ، والمقصود ببلوغ الأشد في الآية الإدراك والبلوغ . . . ، كما يرد تحديد مباشر للمدة الزمنية التي قضاها يوسف عليه السلام في السجن بعد أن ابتلي بافتتان امرأة العزيز والنسوة به ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ (يوسف:٤٢) ، والبضع هو ما بين الثلاث إلى العشرة إلى ما دون

(١) ينظر : من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن ، محمود أبو سعدة : ٤٢ .
(٢) ينظر : شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتورة نورة الرشيد : ٢٨٥ .

العشرة ، ومعنى هذا أن المدة الزمنية التي قضاها يوسف عليه السلام في ابتلاء فتنة امرأة العزيز بصورته وما ترتب عليها من نتائج سلبية تتمثل في دخوله السجن ، وإهمال شأنه ، هذه المدة كانت طويلة ، وكان لها أثر واضح في سير الأحداث ، وتطور شخصية المرأة بعد ذلك ، ونزوعها إلى الاعتراف بذنبها ، والندم على ما بدر منها ، تحت تأثير عوامل عدة [(١)] ، وهو النموذج الذي سيكون عليه التطبيق بالتفصيل فيما سيأتي إن شاء الله[(٢)] .

ومع تقليب كتب الأدب والتبصُّر في أحوال الناس ينكشف ارتباط بعض الأوقات بمشاعر معيّنة ، وهي تكاد تكون تلازمات كونية قبل أن تكون تلازمات تنشأ من حالات فردية خاصة ، مثل : ارتباط زيادة الشجن والحنين عند المشتاق مع الليل وهجوع الخلائق ، وزيادة عواصف الضيق والهم عند المهموم الحزين ، فترى ليل أولئك لا ينقضي .

وهذا يذكرنا بتوجيه النبي ﷺ الذي يُظهِر خصوصية الليل ببعض السلوكيات في قوله : « إذا استجنح الليل ، أو قال : إذا جنح الليل[(٣)] فكفّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمّر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض عليه شيئًا »[(٤)] ، قال الطحاوي : « ومن الشياطين يكون في الليل في الظلمة التي تكون من المحو

---

(١) ينظر : شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتور نورة الرشيد : ٢٨٥ .

(٢) ينظر : ص ٥٣٩ .

(٣) أي : أقبل بظلامه ، ينظر : المنهاج ، النووي : ١٨٤/١٣ .

(٤) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : بدء الخلق ، باب : صفة إبليس وجنوده ، (رقم الحديث : ٣٢٨٠) ، ورواه مسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : الأشربة ، باب : الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء ، وإغلاق الأبواب ، وذكر اسم الله عليها ، وإطفاء السراج والنار عند النوم ، وكف الصبيان والمواشي بعد المغرب ، (رقم الحديث : ٢٠١٢) .

الذي في القمر ، مما لا يكون مثله في الضياء الذي في النهار ، فأمر النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها بالاستعاذة من شر القمر الذي هو سبب الليل مريدًا بذلك الأشياء التي تكون في الليل مما القمر سبب لها »[1] ، قال ابن الجوزي : « والحكمة من انتشارهم حينئذ أن حركتهم في الليل أمكن منها لهم في النهار ؛ لأن الظلام أجمع لهم من غيره ، وكذلك كل سواد ، ويقال : إن الشياطين تستعين بالظلمة وتكره النور وتشأم به »[2] ، قال المهلب : « خشي النبي ﷺ على الصبيان عند انتشار الجن أن تلم بهم فتصرعهم ، . . . »[3] .

أثر حروف عطف النسق في الزمان الكائن بين الأحداث :

تكلم ابن الأثير عن أثر تتبع حروف الجر وأسرارها ، وهو مما ينبغي ألاَّ يُغفله الدارس لمكانته من النظم ، فقال : « هذا موضع لطيف المؤخذ ، دقيق المغزى ، وما رأيت أحدًا من علماء هذه الصناعة تعرّض إليـه ، ولا ذكـره ، وما أقول إنهم لم يعرفوه ؛ فإن هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى ؛ لأنه مذكور في كتب العربية جميعها ، ولست أعني بإيراده ههنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تتبع المعطوف عليه في الإعراب ، ولا أن الحروف الجارة تجرّ ما تدخل عليه ، بل أمرا وراء ذلك ، وإن كان المرجع فيه إلى الأصل النحوي ، فأقول :

إن أكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها ؛ فيجعلون ما ينبغي أن يجرّ بـ(على) بـ(في) في حروف الجرّ ، وفي هذه الأشياء دقائق أذكرها لك .

أما حروف العطف فنحو قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ** ﴾ (الشعراء:٧٨-٨١) ، فالأول عطفه بـ(الواو) التي هي للجمع ،

(١) شرح مشكل الآثار : ٢٩/٥ .
(٢) عمدة القاري ، العيني : ١٧٣/١٥ .
(٣) شرح صحيح البخاري ، ابن بطال : ٧٦/٦ .

وتقديم الإطعام على الإسقاء والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ، ثم عطف الثاني بـ(الفاء) ؛ لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما ، ثم عطف الثالث بـ(ثم) ؛ لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان ، ولهذا جيء في عطفه بثم التي هي للتراخي ، ولو قال قائل في موضع هذه الآية : الذي يطعمني ويسقين ويمرضني ويشفين ويميتني ويحيين ، لكان للكلام معنى تامٌّ إلا أنه لا يكون كمعنى الآية ؛ إذ كل شيء منها قد عطف بما يناسبه ويقع موقع السداد منه »[1] .

وفي تتبع مواقع هذه الحروف من النظم البديع تنكشفُ لطائف لا حصر لها ، « تأمل حروف التراخي في الذكر الحكيم ، لتقع لأول مرة على ضروب من المجاز ، تستعمل فيها أردية الزمن ، لتباعد بين المعاني ، وتفاضل بين المنازل ، وتبرز التناقض بين المقدمات والنتائج ، وتضفي على المعاني من حركة الزمن ما يجعلها أقدر على نقل حركات الفكر ونبضات الشعور »[2] .

وإنه لشرفٌ عظيم أن تتيسّر دراسة آيات من كتاب الله على هذا النحو من الدقة ، وبشيء من التركيز والتفصيل ، ليدرك الباحث والدارس أنه مهما ظنّ أنه تدبّر كلام الله فقد قصّر ، ولم يأت على بحر عجائبه الزاخر ، يقول الدكتور الخضري : « وإنك لتعجب لهذه اللغة التي اختارها الله وعاء لكتابه ، وكيف توائم بين الألفاظ ودلالتها في إحكام يشهد بأن الله أسبغ عليها ما يؤهلها لاستيعاب أسرار الإعجاز في القرآن المجيد ، والدليل على ذلك أنها اختارت اللفظ الأقصر صوتًا والأسرع نطقا ليدل على سرعة تعاقب الأحداث ، كما هو شأن الفاء ، المكونة من حرف واحد يمر بظاهر الشفة همسًا ، وكأن ما عبّر عنه من الأحداث مر بسرعة صوته ، ثم اختارت اللفظ المطول نطقا بما ضمه

---

(١) المثل السائر : ٢/ ٤٨ .

(٢) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ، دكتور محمد الأمين الخضري : ١٠.

من حروف ثلاثة ، وما صاحبه من تضعيف أثقل حركته على اللسان ليدل على بطء حركة الأحداث ، وتثاقل خطوات الزمن . . .»[1] .

وظهر لي عند الوقوف على أثر الزمان في الآيات أن للحروف دورًا بارزًا في حكاية الأحداث ، وصياغة المدة الزمنية بينها ، أن كل حرفٍ منها وُجد بدقّةٍ في مكانه ، وسيتبيّن ذلك إن شاء الله في تطبيق هذا الأثر .

تطبيق لأثر الزمان في الاعتراف :

بعد النظر في شواهد الاعتراف رأيتُ أن أقسّم الزمان المؤثّر في الآيات إلى قسمين :

الأول : في الدنيا ، والثاني : في الآخرة ، ثم نظرت بعدها لأوضح الشواهد من حيث تأثير الزمن وذكر ما يدلُّ عليه فيها ، فكان اختيار نموذجٍ واحدٍ هو الأوضحَ والأدلَّ على أثر الزمن في القسم الأول : (في الدنيا) ، وهو نموذج قصة امرأة العزيز ، بينما القسم الثاني : (في الآخرة) ، كان أوضح زمنٍ بعد تتبُّع الشواهد وما اتفق عليه المفسرون في لحظة ورود الاعتراف المحكي في الشواهد المختارة هي : لحظة غمرات الموت ، فعلى هذا جمعت الشواهد التي كان الاعتراف فيها لحظة الموت واجتهدتُ في إبراز أثر الزمن في أوّلها ورودًا في لحظة الموت نموذجًا للتحليل .

وقد بدا لي أن أثر الزمان في الاعتراف ـ في كلا القسمين ـ من جانبين ، أحدهما : الزمن الذي وردت القصة فيه وأظهرته الكلمات ، والثاني : زمن سير الأحداث والمسافة بين الزلل والاعتراف به الذي أظهرته الحروف .

---

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم : ١٠ .

القسم الأول : في الدنيا ، متمثّلاً في قصة امرأة العزيز :

أثر الزمن الذي تعيش فيه المرأة وبيئتها :

كان الزمن مؤثّرًا من عدة جوانب في قصة المراودة ، أُجملها أوّلاً ثم يأتي تفصيلها :

- اللقب الذي ارتبط بالمرأة (امرأة العزيز) في كل الآيات التي ذكرتها ، وفي تناقل النسوة لخبرها .
- اعتياد نفسيتها على الكبر من الحياة الفارهة لنساء القصور في عصرها ، والسمع والطاعة لكل ما تأمر .
- انطباع النسوة في ذلك الزمن عندما يصلهنّ خبر فعلتها .
- انفعال زوجها تجاه ما فعلت ، وليس هذا بمعتاد في كل زمن .

في أحداث قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز التي وردت في القرآن الكريم بُسطت أجزاء من أثر البيئة والزمن حينذاك ، فذُكر أن الذي اشتراه كان من مصر ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ** ﴾ (يوسف:٢١) ، ثم أثر هذا الزمن على اللقب الذي سُمّيت به في كل السياقات وهو (امرأة العزيز) دون أي تعريف لها أو لزوجها سوى أنه عزيز مصر وكبير وزرائها [(١)] ، وفي هذه الإضافة تأملاتٌ عديدة ، وما يرتبط بالزمن منها : هو أن (العزيز) لم يكن يطلقُ على كل من يلي ذلك المنصب في الدولة في كل زمن مصر ، بل كان خاصًّا في زمن يوسف عليه السلام [(٢)] ، وأنها امرأة ذلك الزوج صاحب الشأن الذي جاء بيوسف عليه السلام لتكرمه لا لتهينه وتلبسه تهمةً هو منها بريء ، ولكنها فعلت ، فكان الأثر على المرأة أن اتصفت بصفات ذلك اللقب ؛ فمن (العزيز) اكتسبت سمات اعترافها الأول بما فيه من كِبر ورفاهية العيش ،

(١) ينظر : بدائع الفوائد ، ابن القيم :٢/٤٧٠ .

(٢) ينظر : لمسات بيانية ، دكتور فاضل السامرائي : ٦ .

والتسلط ، ومن (امرأة) اكتسبت الصفة التي لا تنفك عن كل امرأة من الضعف واللين فظهر ذلك في سمات اعترافها الأخير .

في قصة امرأة العزيز بعدما افتُضح أمرها وجاءت بالنسوة ليرين يوسف عليه السلام قالت لهن : ﴿ **فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ** ﴾ (يوسف:٣٢) يظهر من الآية الأثر في الآتي :

- تكبّر وغطرسة المرأة ثم الجرأة في كشف أمرها لا تعتاده النساء في كل زمان ، وأن زمانها له أثر بالغ في اعترافها ، حيث إن اعتياد نساء القصور المترفات يختلف عن اعتياد الأخريات غيرهن وسيُبسطُ فيه الحديث أثناء التحليل .
- اعتراض النسوة على فعلتها ، وتناقل حديثها على ألسنتهن كان سببه أن المستغرب عندهن ـ كما كشفت الآية ـ أكثر من أمر المراودة ، وهو أن هذا المراوَد هو : (فتاها)! ﴿ **تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا** ﴾ (يوسف: ٣٠).
- وجود رجل في ذلك الزمن بهذه المواصفات ، شجّعها على الاستمرار في فعلتها هو زوجها العزيز والعجب من انفعاله حين علم بشهادة الشاهد في حضرته عن أمرها مع يوسف قال لها : ﴿ **وَٱسۡتَغۡفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ** ﴾ (يوسف:٢٩) ، و« كان قليل الغيرة ؛ فلذلك اكتفى منها بالاستغفار »[1] ، ثم طاوعها فيما رأت من الحكم على يوسف عليه السلام رغم ظهور براءته بشهادة الشاهد « فقد كان مطواعة لها ، وجُمَيْلاً ذلولاً زمامه في يدها ، حتى أنساه ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه وإلحاق الصَّغار به كما أوعدته به ، وذلك لما يئست من طاعته لها ، أو لطمعها أن يذلله السجن ويسخره لها »[2] .

---

(١) غرائب القرآن ، النيسابوري : ٧٤/٤ .

(٢) الكشاف ، الزمخشري : ٤٦٨/٢ .

- اختيار السجن على ارتضاء فعل هؤلاء النسوة من يوسف عليه السلام في تلك الأجواء ، فقال الله فيه : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (يوسف:٣٣) ، «فشعر بضعفه إزاء كيد النسوة ، ومنطق البيئة ، وجو القصور ، ونسوة القصور أيضًا! ولكنه تمسك بالعروة الوثقى ، . . . والعزيز وشخصيته بطبيعتها الخاصة ، وبطبيعة سمت الإمارة ثم بضعف النخوة ، وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته ، ونسوة هذا المجتمع بكل ملامحه : اللغط بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذي راودته عن نفسه ، بعد ما شغفها حبًّا! والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة! ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف عليه السلام ، ثم إقرارهن الأنثوي العميق بموقف المرأة التي كن يلغطن بقصتها ويستنكرن موقفها وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل ، وهي آمنة في ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها ، ثم ميلهن كلهن على يوسف عليه السلام بالإغراء والإغواء ، رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾ (يوسف:٣١) ، . . . فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده! والبيئة التي تتجلى سماتها من خلال ذلك كله ، ثم من خلال ذلك التصرف في أمر يوسف عليه السلام ، على الرغم مما بدا من براءته ، ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معالمها ولا يهم أن يذهب بريء كيوسف عليه السلام ضحيتها ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ (يوسف:٣٥)...»[1].

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ١٩٥٥/٤ .

ثم جاء أثر الزمن في السياق بعد ذلك متمثّلاً في مدة سجن يوسف عليه السلام (حتى حين) ، ثم في (بضع سنين) ليقلبَ كثيرًا من الأحداث ويتبدّل الاعتراف من امرأة العزيز الذي كان أول الأمر ، ففي القصة ذاتها بعد سجن يوسف عليه السلام الذي كان حكمًا جائرًا عليه من كيدها به ، جاءت المدة في الآية : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأَيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (يوسف:٣٥) ، «و(الحين) في كلام العرب وفي هذه الآية : الوقت من الزمن غير محدود يقع للقليل والكثير ، وذلك بين موارده في القرآن ، وقال عكرمة : (الحين) هنا يراد به سبعة أعوام ، وقيل : بل يراد بذلك سنة»[1] ، ثم جاء ذكر المدة في قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (يوسف:٤٢) والبضع : «قال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع ، . . .وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ثنتا عشرة سنة»[2] ، والشاهد من إيرادي للمدة هنا أن هذه السنوات التي مكثها يوسف عليه السلام كان لها أثر في تحوّل شخصية امرأة العزيز بعيدًا عن فتنتها به وبجماله ، وكانت سنوات علاج لها من العشق الذي تمكّن في شغافها ، فحينها اعترفت بغير ما إصرار واستكبار لإذلال يوسف عليه السلام والضغط عليه ليستجيب لرغبتها ، بل أظهرت الآيات أن هذه المدة كانت قد حوّلت تلك الشخصية المتكبرة إلى الشخصية الناضجة التي أرادت أن تظهر براءة يوسف عليه السلام دون أن تطالبه برغبتها مجددًا ، فما إن سأل الملك عن أمرهنّ مع يوسف عليه السلام حتى جاءته الإجابة مباشرة ، دون أداة عطف بل بفصلٍ[3] محكمٍ بليغ ، حكاه القرآن عنها وعن النسوة على حد سواء :

(١، ٢) المحرر الوحيز ، ابن عطية : ٢٤٢/٣ .

(٣) قد يوهم مصطلح الفصل خلاف حقيقته ؛ لأن الفصل تمييز الشيء عن الشيء وإبانته عنه ، وشأن الفصل بين الجمل بخلاف ذلك ، لأنه وصل خفي تقديري بين الجملتين كما يقول الزمخشري (ينظر : الكشاف ٤٢٤/٢)، بل إن الصلة فيه بينهما أقوى وأظهر من الصلة بين الجملتين الموصولتين بلفظ ظاهر ، لأنهما في الأخير يبقيان على التغاير . (ينظر : وجوه الخطاب في سورة الإسراء دراسة بلاغية تحليلية ، سارة البديع : ٤٢٣) .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (يوسف:٥١) ، و ﴿ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ «اسم لزمن الحال ، وهو الذي يقع فيه كلام المتكلم الفاصل بين ما مضى وما هو آت ، وهو من آن الشيء أينًا بمعنى (حان)[1] فمعنى (الآن) : هذا الحين»[2] ، «واتُّسِع فيه فاستعمل في المستقبل في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (الجن:٩)»[3] ، فتلك اللحظة تحديدًا كأنما انفلقت براءة يوسف عليه السلام التي كُتمت سنينَ ، فصارت هذه الكلمة في النظم هي مُنجِبة هذه الحقيقة التي تكلّمت عنها امرأة العزيز بصراحة لم تكن لتنطق بها في غيرها .

أثر حروف عطف النسق في بيان الزمن في قصة امرأة العزيز :

تبدّى من خلال متابعة الشواهد أن لحروف العطف بالغ الأثر في اكتمال الصورة من الأحداث ، أقف هنا على النموذج في قصة امرأة العزيز ، اكتمالاً لبيان جماليات النظم التي بدأتها في أثر الزمان فيما سبق من صفحات ، ومن هذه الحروف أنموذجًا :

- الفاء والواو :

في قصة امرأة العزيز قال الله تعالى حكاية عنها : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ (يوسف:٣١،٣٢) .

---

(١) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ١٨٣/١٦ ، مادة (أَ وَ نَ) .

(٢) معاني النحو ، السامرائي : ٢٠٤/٢ .

(٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عضيمة : ٢٣٢/٢/٣ .

تعاقبت الفاءات في القصة ، بدايةً في أولها : « فلما : الفاء عاطفة ، و(لما) ظرف بمعنى (حين) متضمن معنى الشرط »[1] ، ثم في آخرها : « ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر أي : إن كنتن قد لمتنني فذلكن ، اسم إشارة مبني في محل رفع مبتدأ ، واللام للبعد »[2] ، والفاء تفيد الترتيب ، ومنه المعنوي والذّكري ، وقد تفيد التعقيب وهو في كل شيء بحسبه ، وقد تفيد السببية في عطف جملة أو صفة غالبًا [3] .

سارعت امرأة العزيز بمجرد سماعها لكلام النسوة فيها إلى رد المكر بالمكر ، غير أن الخبر بين زللها وبين دعوتها إياهن إلى الوليمة أظهرته هنا (الفاء) ؛ دلالة التعقيب على فعلتها التي ما لبثت أن صارت مما يُلاك بالألسنة ، إذ « لابد أن هناك مرحلة بين ما حدث في القصر ؛ وكان أبطاله أربعة ، هم : العزيز ، وامرأته ، ويوسف عليه السلام ، والشاهد ، ولابد أن يكون من نقل الكلام إلى خارج القصر إنسان له علاقتان ، علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك ، ونقل ما علم إلى من له به علاقة خارج القصر . . . » [4] ، ثم بمجرد أن وصل إلى سمعها لم تتأخر في إعداد المتكأ لهن ، غير أن هذا الأمر لا يحتاج إلى إعداد من امرأة مرفهة تعيش في قصرها بين خدمها ، وليس بين أمرها وتنفيذه سوى كلمة ، فجاء الفصل عندها ؛ ليظهر مباشرتها في الإعداد مجازًا بأمرها لخَدَمها ، و« روي أن مقالة هؤلاء النسوة إنما قصدن بها المكر بامرأة العزيز ليغضبنها ، حتى تعرض عليهن يوسف عليه السلام ليبين عذرها ، أو يحق لومها . . . »[5] ، فلهذا سمي مكرًا ، وهذا من عجائب النساء ، فقد استنكرن

---

(١) الجدول في إعراب القرآن ، محمود صافي : ١٢/٤١٤ .

(٢) المجتبى في مشكل إعراب القرآن ، الأستاذ دكتور أحمد الخراط : ٢/٥٠٠ .

(٣) ينظر : مغني اللبيب ، ابن هشام : ١/٢١٣ .

(٤) الخواطر ، الشعراوي : ١١/٦٩٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٣/٢٣٨ .

فعلتها ومع ذلك استفززنها بحديثهن فيها ليرين يوسف عليه السلام ، ثم دارت أحداث الضيافة بالواو ، ﴿ وَأَعۡتَدَتۡ ... وَءَاتَتۡ ... وَقَالَتِ﴾ لتدل والله أعلم على سرعة الأحداث وأنها ليست الدقائق المقصودة من مجيئهن ، بينما لما جاءت اللحظة الحاسمة التي سلبت العقول وكان فيها ذهول ودهشة تغيّر الحرف إلى الفاء ﴿ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ ﴾ ، فعند خروجه عليهن ، وفي تلك اللحظة تحديداً حززن أيديهن مراراً دون شعور ، فلا يجدن ألمـاً مما رأين من جماله ، ثم استغلت امرأة العزيز بمكرها بعدما ولىّ عنهنّ [1] قالت : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ﴾ ، فعادت الفاء لتبرز أن هذا التتابع الحاصل في القصة كان مقصوداً من امرأة العزيز ، تتابع مخطط في مدة يسيرة لتوقعهن في المكر .

* * *

القسم الثاني : في الآخرة ، متمثّلاً في غمرات الموت :

من حضره الموت صار كالميت من حيث عدم ملكه مـن أمـره شـيئًا ، وأنـه يرى من الغيب مثل حضرة الملائكة ما لا يراه غيره ، فاختلف هذا الزمان كليـةً عن الدنيا من حيث التحكّم بمـا يقـول الإنسـان ، ولهـذا لا تقبـل فيـه الشـهادة ، وجاء مؤيّداً ذلك قول رسول الله ﷺ عـن لحظـة المـوت واصِـفًا حـال العباد بقوله : « إن العبد المؤمن إذا كان في إقبـال علـى الآخـرة ، وانقطـاعٍ مـن الـدنيا تنزّلت إليه الملائكة كأن وجوههم الشمس . . . . » الحديث[2] .

---

(١) ينظر : الدر المنثور ، السيوطي : ٤/٥٣١ .

(٢) رواه أحمد بلفظه في مسنده ، في أول مسند الكوفيين ، من حديث البراء مـن عـازب ، (رقم الحديث : ١٨٦١٤)، ورواه الحاكم بنحوه في مستدركه ، كتاب : الإيمان ، باب : مجيء ملك الموت عند قبض الـروح وذكـر مـا يكـون بعـد ذلـك في القـبر للمـؤمن والكـافر ، (رقـم الحـديث : ١١٤) ، وصـححه الألبـاني في كتابـه : صـحيح الجـامع الصغير ، ١/٣٤٤ .

وأثناء البحث استوقفتني العبارات المتّسقة في النظم البديع المصوّر للحظة الموت ، ذلك الزمن المخصوص الذي يجهل كل امرئ وقْعه على نفسه ، وما كُتب له في الغيب من كيفية لقائه ، ويسأل الله الثبات والنجاة ، فقد أُسنِدت إلى (الموت / الأجل) في القرآن الكريم أفعالاً لا تخلو من الإسناد المجازي وهي :

جاء[(١)]، حضر[(٢)]، أتى[(٣)]، توفَّى[(٤)]، أدرك[(٥)]، قضى[(٦)]، لقي[(٧)]، كلّها تحمل حركةً ، وتُفهِم معنى السير ، والاقتراب ، وأن العبد وساعة الأجل يسيران ليلتقيا يومًا ، وفي هذه البلاغة في اختيار اللفظ الدال على الحركة إشارة إلى سرعة مرور الأيام حتى مجيء ذلك الزمن المجهول ستكون فيه ساعة اللقاء ، فعجبًا لمن لم يتذكر ولم يخْشَ !

وعُبّر عن هذه اللحظة في شواهد الاعتراف بالزلل بأكثر من صياغة مرة : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ** ﴾ (الأعراف:٣٧) ، ومرة حكاية عن فرعون وصف للحظة الموت : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ** ﴾ (يونس:٩٠) ، ومرة : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ** ﴾ (المؤمنون:٩٩) ، ومرة : ﴿ **مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ** ﴾ (المنافقون:١٠)، وفيها جميعًا يظهر الأثر بين ذكر لحظة الموت مع الاعتراف ، وسأدرس الموضع الأول نموذجًا وكان اختياره لأنه الأوّل

---

(١) [الأعراف : ١٩] ، [الأنعام : ٦١] ، [يونس :٤٩] ، [النحل ، ٦١] ، [المؤمنون :٩٩] ، [فاطر : ٤٥] ، [المنافقون :١١] ، [نوح :٤] ، [ق : ١٩] .

(٢) [البقرة :١٣٣/١٨٠] ، [النساء :١٨] ، [المائدة :١٠٦] .

(٣) [إبراهيم :١٧] ، [المنافقون :١٠] .

(٤) [النساء :١٥] .

(٥) [النساء :٧٨/١٠٠] .

(٦) [سبأ :]١٤ ، [الزمر :٤٢] .

(٧) [الجمعة :٨] ، [آل عمران : ١٤٣] .

حسب ورود لحظة الموت مع شواهد الاعتراف ، وهو قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف:٣٧).

الزمن في الآية : هو مشهد الاحتضار ، ولكنه ليس لأي قوم إنما هو احتضار « الذين افتروا على الله الكذب ، فزعموا أن ما ورثوه عن آبائهم من التصورات والشعائر ، وما شرعوه هم لأنفسهم من التقاليد والأحكام ، أمرهم به الله ، . . . هاقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم ، فدار بينهم هذا الحوار »(١) المحكي في الآية .

أثر الزمن في الآية :

- تسمية لحظة الموت بـ(التَوَفِّي)، فتوفّاه واستوفاه بمعنى استكمله ، وأتمّه(٢) ، وعندما تطْرق هذه الكلمة الآذان يعلم الإنسان أنها ساعة انفصال المرء عن ملذات الدنيا ، انفصال الروح عن الجسد ، انفصال عن الأهل والأحباب إلى أجلٍ في التراب ، « والتوفي نزع الروح من الجسد ، . . . ويجوز أن يكون المراد حتى يتوفون آحادهم في أوقات متفرقة إن كان المراد بالنصيب من الكتاب وعيد العذاب »(٣)، فأثر هذه الكلمة في اعترافهم أن الروح عاشت زمنًا في هذه النفس فجاءت الآن لحظة تنتقل فيها من الجسد إلى خالقها فينتهي زمن التكليف ، ويبتدأ زمن مختلف في صورته وهيبته ، فهذه لحظة تيه وشتات للمفرّط ، فاستعملوا ذات اللفظ الذي يعبّر عن ذلك ولكن في حق معبوداتهم ﴿ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾ ، وهذا من أثر تلك اللحظة في فرار العقل ، وإنما هم من ضل لا معبوداتهم .

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ١٢٨٩/٣ .
(٢) ينظر : أساس البلاغة ، الزمخشري : ٣٤٨/٢ ، مادة (وَ فِ يَ) .
(٣) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١١٧/٨ .

قال ابن كثير : « يخبر الله تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت ، وقبض أرواحهم إلى النار ، . . .فحينهما يقولون : ذهبوا عنا ، فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ، وأقرّوا واعترفوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين »[1]، قال الزمخشري : « حتى : غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له ، أي إلى وقت وفاتهم »[2] .

- في تلك اللحظة لا نجاة إلا بإيمان وقر في القلب باعوه بالتكذيب ، لكنهم مفلسون ، تفاجؤوا بآلهة لم تكن شيئًا! فقالوا : ﴿ **ضَلُّواْ عَنَّا** ﴾ ، فما أصعبها من لحظة! يرتبط بصعوبتها احتياج المرء إلى المؤازر والنصير فيُفَاجَأ أنه لا ولي له ولا نصير ، وبأن كسبه الآن هو خيبة أمل على متاع دنيا أُتبع بإفلاس ، وهنا يكمن أثر اللحظة على الاعتراف ، حيث إن اللحظة أصعب من أن تكون مقامًا لبسط الكلام ، وهي أجلّ من المجادلة وطلب المجيء بالشركاء ، لاسيما وأن سكرة الموت ونزع الروح على الكافر عسيرة ، وقد صورها لنا رسول الله ﷺ[3] ، فهي لحظة تنجلي فيها غشاوة العين ، وتتلاشى غفلات السنين ، ليدخل الكافر في دوّامةٍ من الهلع ، وُصفت بأنها سكْرة لهولها ، قال تعالى : ﴿ **وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ** ﴾ (ق:١٩).
- ارتباط هذا التخلي من الشركاء بأول لحظة مغادرة للدنيا وهي(التوفِّي) قبل العرض على الله ، فيه مزيد إخافة لهؤلاء الكفرة والمشركين ، لعلهم يعودون إلى رشدهم ، وليعلموا أن تلك اللحظة أقرب مما يتصوّرون ، قال ابن عاشور : « وهذا الكلام الواقع هنا بعد (حتى) فيه تهويل ما يصيبهم عند قبض أرواحهم ، وهو أدخل في تهديدهم وترويعهم وموعظتهم ، من الوعيد

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٣٦٩/٣ .

(٢) الكشاف : ١٠٢/٢ .

(٣) ينظر : ص ٣٧٧ .

المتعارف ، وقد هدد القرآن المشركين بشدائد الموت عليهم في آيات كثيرة ؛ لأنهم كانوا يرهبونه»[1] .

التعبير بالفعل الماضي في الأحداث المستقبلة في الآخرة يحسن الالتفات إليه في هذا المقام ؛ فإن فيه بيانًا لقدرة الله عز وجل في تلك المواقف ، وتحقق حدوث الأهوال فيها ، «فقد جعل الأسلوب القرآني المستقبل ماضيًا ، وأصبح المحتمل الوقوع واقعًا ، والبعيد قريبًا ، والمتخيّل حقيقةً ، والمستحيل عند قوم أنكروا البعث ممكناً ، إذ أخبرت الآيات عن الأمور المستقبلة والأحداث المرتقبة على أنها أمور وقعت . . . ، وإخبار القرآن عن المستقبل بطريقة الإخبار عن الماضي هو من أقوى أساليب التوكيد ، ولا يمكن أن يصدر إلا عن صاحب القدرة التي بها يكون ما هو للوقوع واقعًا ، ولا يتطرق لخبره الاحتمال ، . . . وهذا الأسلوب العجيب من وصف الأحداث المستقبلة بأنها مضت ، وأن الخبر عنها خبر عن شيء انتهى فلا مجال لإنكاره وتكذيبه ، لم يكن له وجود بارز في كلام العرب شعره ونثره ، ولم يأت به خطابهم ، لأن ذلك لابد أن يصدر عن مقتدر ، وإلا كان اجتراء وكذبًا»[2] .

- اختيار الفعل المضارع للحدث الماضي ، والفعل الماضي للحدث الحاضر في قوله تعالى : ﴿ **قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا** ﴾ (الأعراف:٣٧) ، فلم يعبّر بـ(ما دعوتم) في الفعل الماضي بل بـ﴿ **كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ ليدل على استحضار الصورة والإقامة على الفعل واستحكام الغي حتى مجيء لحظة الوفاة ، بينما في لحظتها كان التعبير بالماضي ليلفت النظر والله أعلم إلى أن المعبودات انتقلت مباشرة للزمن الماضي فلم يكن لها أي أثر في اللحظة الحاضرة .

---

(١) التحرير والتنوير : ١١٧/٨ .

(٢) بلاغة القرآن الكريم دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل ، دكتور ظافر العمري : ٣٠٠ .

أثر (إذا) في بيان الزمن في الآية :

معنى (إذا) :

كان لـ(إذا) في سياق الجملة أثرٌ على وقع تيك اللحظة على هؤلاء الكفرة ، وهي « في الغالب تكون ظرفًا للمستقبل مضمّنة معنى الشرط ، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية . . . ، قيل : وقد تخرج عن الظرفية والاستقبال ومعنى الشرط »(١) .

وذكر سيبويه أن « (إذا) تجيء وقتا معلوماً ، ألا ترى أنك لو قلت : آتيك إذا احمرّ البسر كان حسنًا ، ولو قلت : (آتيك إن احمرّ البسر) كان قبيحًا ، فـ(إن) أبدا مبهمة ، وكذلك حروف الجزاء »(٢) ، وتستعمل في الاستمرار كما جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ (البقرة:١٤) (٣) ، ولعلّها تفيد هذا في الآية موضع التحليل : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ ﴾ (الأعراف:٣٧) .

وقال السامرائي : « الأصل في (إذا) أن تكون للمقطوع بحصوله ، وللكثير الوقع ، فمن المقطوع بحصوله قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ (البقرة:١٨٠) ، فإن كل واحد منا سيحضره الموت ، . . .وأما ما يقع كثيًرا فنحو قوله تعالى : ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكۡتُبُوهُ ﴾ (البقرة:٢٨٢) . . .والنحاة يفرقون بين (إن) و(إذا) ، فيقولون :(إن) الأصل فيها أن تستعمل للمشكوك فيه ، و(إذا) للمقطوع بوجوده »(٤) .

---

(١) مغني اللبيب ، ابن هشام : ٩٢/١، ٩٣ .
(٢) الكتاب : ٤٣٣/١ .
(٣) ينظر : البرهان ، الزركشي : ١٩٠/٤ .
(٤) معاني النحو : ٧٢/٤ .

وفي الشاهد هنا وهو قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف:٣٧) ، جاء الشرط في (إذا) يفيد خطر الوقوع ؛ لأن زمنه لم يأت بعد ، وهنا تظهر ملامح معنى الاستقبال في حرف الشرط ، وكثيرًا ما تأتي (إذا) بعد (حتى) في القرآن الكريم فتكون (إذا) وما بعدها غاية لما قبل(حتى) (١) .

وأثر ذلك في لحظة الموت عصيبة ، إنها لحظة مقطوعٌ بوقوعها ، لحظة معيّنة ستقع في مدة محددة مكتوبة مستوفاة لكل حي عند من لا يموت سبحانه ، ومهما يحاول المرء الهرب منها فإنها آتية ، وسيحاول المقصّر فيها الاستدراك وهيهات ، «فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندمًا شديدًا ، فهذا فرعون لما دعا عليه الكليم عليه السلام بقوله : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (يونس:٨٨) ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس:٨٩)، فأثّرت هذه الدعوة في فرعون فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ، وقَالَ سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ (غافر:٨٤،٨٥)» (٢) .

* * *

(١) ينظر : أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط (إن وإذا ولو) ومواقعه في القرآن الكريم ، دكتور محمود حمدان : ٣٣٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٦/١٦٠ .

المطلب الثاني

المكان

ظروفٌ مكانيّةٌ بسطت هول الموقف ، وجعلت للاعتراف مساراً لا يتحكّم فيه المعترف ، فالمكان يرسمُ حدوداً لاشعوريةً تؤثّر على حالة الفرد ونفسيّته ، وتحكم ألفاظه ، فتجعل للاعتراف خصوصيةً تميّزه عن صدوره في مكان آخَر .

ولا يخفى كم وقف الأدباءً والشعراء عند الأطلال التي هي مجرّد أماكن لكنها ارتبطت بشخصياتٍ فذكّرتهم بماض من الحب ، وزمانًا من المودة والحنين ، « قال سيبويه : المكان أشبه بالأناسي فلها صور تثبت عليها ، وحدود تنتهي إليها وتتباين بها »[1] .

ومن ذلك قول المتنبي[2] عن **أثر المكان في الشعراء** :

لكِ يا منازلُ في القلوبِ مَنازلُ أقْفرتِ أنتِ وهنَّ منكِ أواهلُ

يعلَمنَ ذاكَ ، وما علمْتِ ، وإنما أُوْلا كُمَا يَبكِي عليهِ العاقلُ

ولأجل أثر المكان على طبعِ الشخص ومعرفته وقدر الثقافة التي تصل إليه من المكان نهى النبي ﷺ عن سُكْنى البادية بقوله : « من سكن البادية جفا ،... » الحديث[3] .

---

(١) الأزمنة والأمكنة ، الأصفهاني : ١٠١/١ .

(٢) ديوان المتنبي : ١٧٧ .

(٣) رواه أبو داود بلفظه في سننه ، كتاب : الضحايا ، باب : في اتباع الصيد ، (رقم الحديث: ٢٨٥٩)، ورواه النسائي بلفظه في سننه الكبرى ، كتاب : الصيد ، باب : اتباع الصيد ، (رقم الحديث :٤٨٠٢) ، ورواه الترمذي بنحوه في سننه ، في أبواب الفتن ، (رقم الحديث :٢٢٥٦)، وصححه الألباني ، ينظر : صحيح الجامع الصغير : ١٠٧٩/٢ .

قال السيوطي : «من سكن البادية غلظ طبعه ؛ لقلة مخالطته للناس»[1] ، وزاد الصنعاني : «وقسا قلبه ، فلا يرق لوعظ ، ولا غيره ، ويضاف إلى ذلك بعده عن العلماء والصالحين فيصير كالوحوش ، وفيه الإرشاد إلى عدم سكون البادية ؛ لأن الجفاء يُجتنب»[2] .

وقد تَسَمَّوا في الكتاب الحكيم (أعرابًا) ونُسِبَتْ إليهم أعمالٌ قد لا يفعلها غيرهم لخصائص بيئتهم ، واستثنى منهم بعد ذلك عدلاً ورحمة منه سبحانه ، حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (التوبة:٩٧) ، قال الزمخشري : «الأعراب أهل البدو أشد كفرًا ونفاقًا من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ، ونشأتهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة»[3] ، قال الشوكاني : «هم أقسى قلبًا ، وأغلظ طبعًا ، وأجفى قولاً»[4] .

وكثيرًا ما أغفل الباحثون أثر العوامل الجغرافية في شخصية الإنسان ، ودورها في إبراز سماتٍ ودفن أخرى ، فعلى سبيل المثال سكان شبه جزيرة جرينلاند (الإسكيمو) يعيشون ظروفًا جبلية ثلجية وعِرة وصعبة لم يصبر عليها إلا الأقوياء أما الضعفاء والعاجزون فليست لهم ، لذا كانت أبرز السمات التي تظهر على شخصيات أفرادهم هي الاعتماد على النفس والتحدّي والأنا[5] .

وهكذا «لم يزل الإنسان ذلكم الكائن الضعيف يتأثر بعدد من العوامل المحيطة به ، وتتشابك عدد من الظواهر والظروف في تكوين شخصيته وتشكيل مزاجه وهُويته ، . . . تتنوع كذلك هذه العوامل وتتعدّى لتشمل حتى المكان ؛ ذلك أن نصوص الكتاب والسنة تضافرت على ذم بعض الأمكنة

(١) التنوير شرح الجامع الصغير : ٢٦٣/١٠ .
(٢) حاشية السندي : ١٩٥/٧ .
(٣) الكشاف : ٣٠٣/٢ .
(٤) فتح القدير : ٤٥٠/٢ .
(٥) ينظر : أصول علم النفس ، أحمد راجح : ٤٣٧، ٤٣٨ .

والتوصية بالابتعاد عنها مقابل مدح أمكنة أخرى ، وجعلها حرمًا آمنًا يتضاعف الثواب لمن حل بساحته ؛ مما يجعلها ظرفًا مناسبًا لتكثير الحسنات ، يلجأ إليه الراغبون بزيادة رصيدهم من أعمال البر ، المشفقون من تكاثر سجل السيئات لديهم ؛ إضافةً لعددٍ من النصوص نسبت للمكان التأثير المباشر أو غير المباشر على أفعال ساكنيه يأتي في مقدمتها حديث الرجل الذي قتل مائة نفس ثم أرشده العالم إلى أن يتوب وقال له : « لا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء »(١).

قال النووي في شرح الحديث : « قال العلماء : في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب »(٢).

وكم يطبع المكان على صاحبه وقارًا ! فيتخلّق الإنسان بأخلاق تناسب المكان الذي ينزل فيه من زيادة التحفّظ على نفسه ، بعدم ظلمها بارتكاب ما يشين فيسيئ للمكان ، ولاشك أن هذا من الأثر المتبادل بين المكان وبين أخلاقيات الإنسان وسلوكه ، فيكون الإنسان بهذا متعلّمًا في كل حياته حتى من قدسيّة المكان ، وإلى هذا وجّهت الآية الكريمة في قوله الله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ** ﴾ (الحج:٣٢)، فأمر الله بتعظيم المكان وما يكون فيه من الشعائر ، فلابد للمؤمن أن يعظم ما عظّمه ربه ، قال ابن عطية : « الشعائر في هذه الآية مواضع الحج كلها ومعالمه بمنى وعرفة ، والمزدلفة ، والصفا ، والمروة ، والبيت وغير ذلك » (٣) ، وإنما سميت شعيرة ؛ لأنها ما أحسّت به القلوب وشعرت به من حق الله تعالى ، وإنما ذكرها الله تعالى بالشعائر وكانت لأجل ذلك معلمًا من معالم الإسلام وجعل لها حُرمة ؛

---

(١) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : التوبة ، باب : قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ، (رقم الحديث : ٢٧٦٦) ، والنص من مقال (تأثير البيئة والمكان على السلوك الإنساني) ، دكتور محفوظ ولد خيري : موقع الإسلام ويب :

http ://articles .islamweb .net/media/index .php?page=article&lang=A&id=١٩٧٣٧٧

(٢) المنهاج : ٨٣/١٧ .

(٣) المحرر الوجيز : ١٢١/٤ .

لأن المؤمن يوقّر ما استقر توقيره في شعوره ، ويحرجه أن يكون خلاف ذلك[1] ، فتأمّل كيف ينبغي أن يكون أثر المكان في المؤمن .

وإضافة إلى هذا فقد «وردت استعارات في القرآن تنسب الشر للمكان وتقصد ساكنيه أو الحالة التي هم عليها ؛ . . . كما في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة:٦٠) **، وقوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾** (الفلق:٣) **، وبدهي أن الجماد لا يمكن أن يرتكب شرًّا أو يبذل خيراً ، وما كانت البقع والمباني لتنذر أو تدعى إنما المقصود أهلها ، لكن هذه الاستعاضة عن الإنسان وحالته بمكانه ما كانت لتأتي في أرقى التعبيرات وأفصحها ـ وهو النسق القرآني المبين ـ لولا الارتباط الوثيق بين أفعال الإنسان والمكان والبيئة التي يسكن»[2] .**

وهناك عدد من الأحاديث الواردة في هذا الأثر ، وتبيّن التلازم بين المكان وما يحدثه من آثارٍ بالغة في نفس الشخص ، ولا أظن أحدًا يخالف ذلك ، مثل : تلازم زيارة القبور وورودها برقة القلب ؛ لأنها تذكر الآخرة فإنها تؤثر في الإيمان وترفعه ، لحديث رسول الله ﷺ : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها ؛ فإنها تزهّد في الدنيا ، وتذكّر الآخرة»[3] .

---

(١) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي : ٢/٢٦٦ .

(٢) مقال (تأثير البيئة والمكان على السلوك الإنساني) ، دكتور محفوظ ولد خيري : موقع الإسلام ويب :

http ://articles .islamweb .net/media/index .php?page=article&lang=A&id=١٩٧٣٧٧

(٣) رواه ابن ماجه بلفظه في سننه ، كتاب : الجنائز ، باب : ما جاء في زيارة القبور ، (رقم الحديث : ١٥١٧) ، ورواه مسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : الجنائز ، باب : استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة أمه ، ورواه أبو داوود بنحوه في سننه ، كتاب : الجنائز ، باب : في زيارة القبور ، (رقم الحديث : ٣٢٣٥) ، ورواه النسائي بنحوه في سننه ، كتاب : الجنائز ، باب : زيارة القبور ، (رقم الحديث : ٢٠٣٢) ، ورواه الترمذي بنحوه في سننه ، كتاب : أبواب الجنائز ، باب : ما جاء في الرخصة في زيارة القبور ، (رقم الحديث : ١٠٥٤) .

قال ابن الجوزي : « إنما نهاهم ؛ لأنهم كانوا إذا زاروا القبور ربما ذكروا محاسن الآباء على عادة الجاهلية ، وكن النساء يندبن ويبكين ، فنهى الكل ، ثم أطلق الرجال بعد معرفتهم بآداب الإسلام ، وبقيت الكراهية للنساء لضعفهن عن التماسك »[1] .

أمّا التلازمات الفردية ، مثل : أن يكون هناك تلازم بين أن يكون الإنسان سعيدًا في مكان ما فيربط بين سعادته وبين هذا المكان ، وهذا من التعلّم الشرطي أو الاشتراط الكلاسيكي في علم النفس[2] ، فلا يعمّم على الأفراد ، وإنما هو شخصي بدرجة كبيرة .

أثر المكان في شواهد الاعتراف :

لأن المكان وأثره في الاعتراف أوضح من الزمان ، من حيث ذكره أو الإشارة إليه في الآية ، فقد جمعتُ الأماكن الواردة في شواهد الاعتراف بالزلل ، ومجمعٌ عليها في التفاسير ، مع بيان أثرها في الاعتراف ، وصنّفتها إلى مجموعتين : الأماكن الدنيوية ، والأماكن الأخروية ، ورتبتُ الأماكن الدنيوية تاريخيًّا في القصص الواردة عن الأنبياء عليهم السلام بحسب أسبقيّتهم ، والأماكن الأخروية رتبتها زمنيّاً حسب الأسبق حصولاً ، فكانت كالتالي :

١- الأماكن الدنيوية ، وفيها :

- العراء ، فيه اعتراف قابيل بقتل أخيه هابيل .
- المحفل ، فيه اعتراف قوم إبراهيم عليه السلام بعدم نطق الأصنام .

---

(١) المشكل من حديث الصحيحين : ٢/ ٢١ .

(٢) هو ارتباط مثير طبيعي بمثير صناعي جديد ـ غير طبيعي ـ يخلع على المثير الصناعي قوة المثير الطبيعي فإذا به أصبح قادرًا على إثارة السلوك . ينظر : أصول علم النفس ، أحمد راجح : ١٧٦ .

- القصر : قصر امرأة العزيز ، وقصر الملك ، في قصر امرأة العزيز كان اعترافها بمراودة يوسف عليه السلام أمام النسوة ، وفي قصر الملك كان اعتراف النسوة وامرأة العزيز بالمراودة أيضًا .
- بطن الحوت ، فيه اعتراف يونس عليه السلام إلى ربه ، بقلة صبره على قومه .
- المحراب ، فيه اعتراف داود عليه السلام بعدم العدل في القضاء .
- الصرح ، فيه اعتراف ملكة سبأ بظلمها لنفسها .

٢- الأماكن الأخروية ، وفيها :

- الجنة ، فيها اعتراف آدم وزوجه عليهما السلام بظلم النفس .
- أرض المحشر ، فيها اعتراف الضعفاء والذين استكبروا بالشرك مع الله .
- النار ، فيها اعتراف الكفار بتكذيبهم لآيات ربهم .

* * *

١- الأماكن الدنيوية :

- العراء[1] :

في قصة قابيل وهابيل ، قال الله تعالى حكاية عن فعل قابيل بأخيه هابيل **﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾** (المائدة: ٣٠، ٣١) .

(١) وردت في مكان قتل واعتراف قابيل في أكثر من تفسير ، ينظر منها : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٦/١٤٢ ، والبحر المحيط ، أبو حيان : ٤/٢٣٣ ، وغيرهما ، والعراء : الأرض الفضاء التي لا يستتر فيها شيء . ينظر : العين ، الخليل : ٢/٢٣٤ ، مادة : (ع ر و) .

المكان في الآية :

لمّا قتل قابيل هابيل كان أول قتيلٍ على وجه الأرض من بني آدم عليه السلام ، فتركه بالعراء ، لا يدري ماذا يصنع به ، فخاف عليه السباع فحمله على ظهره سنة حتى أروح وعكفت عليه السباع ، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه ، ثم ألقاه في الحفرة [١] .

أثر المكان في الاعتراف :

- تعجُّب ابن آدم من عدم اهتدائه لما اهتدى إليه هذا الغراب ، فكان وحي البيئة والطبيعة الصحراوية بمكوناتها الأولية كفيلة بحجب الجثة ، ومع ذلك لم تخطر له هذه الطريقة على بال ، حتى أراه الله عز وجل بهذا المخلوق الضعيف كيف توارى الجثث ، وعبّر عن فعل الغراب بفريدة مبدعة وهي : ﴿ يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن جني : «الباء في (بحث) لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، والحاء لصَحَلِها[٢] تشبه مخالب الأسد ، وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض ، والثاء للنفث والنبث في التراب»[٣]، فانظر لكلمة توحي في سياقها بالحدث في تلك البقعة من الأرض حتى يكاد الإنسان يراه مصوّرًا،ولم ترد هذا الكلمة إلا في هذه القصة من القرآن، فتفرّدت المفردة لتفرّد الحدَث ، وتلمح فريدة ﴿ يَبْحَثُ ﴾ (المائدة:٣١) من طرف خفي إلى أن البحث في باطن الأرض ، وإثارة كوامنها ، والاجتهاد في معرفة باطنها من أوائل الأشياء التي تعلمها الإنسان الأول من طائر صغير ،

---

(١) ينظر : الكشاف ، الزمخشري :٦٢٦/١ ، وينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٩٠/٣ .

(٢) صَحَل : أي بحوحة ، ينظر : المزهر في علوم اللغة ، السيوطي : ٣٦٠/١ .

(٣) الخصائص : ١٦٣/٢ .

ضعيف لا يعتد به ، وهي دعوة للإنسان في كل زمان ومكان أن يتلقّى العلم من أي مصدر كان ، فالحكمة ضالته أنى وجدها التقطها[1].

- تأمَّل قابيل في هذا الغراب زاد من حسرته على جهله وعجزه أن يتعلّم من حيوان! فقال : ﴿ **يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى** ﴾ ، وهنا وقف الإنسان ـ في هذا المكان الخالي من الحضارة والمدنيّة والتقنية والترف ـ يراقب الحيوان ويتعلم منه ، بلا أدوات ، ولا تجهيزات معقّدة تستلزم التعليم ، إنما هو تصرّف من مخلوق مرسل من عند ربه مع حفنة تراب لا غير ، فانظر كيف كان للمكان والموقف الحادث أمامه أثرٌ في تعليمه واعترافه! ومن ذلك التصور الذي اهتدى إليه قابيل فأنشأ يفعل كما يفعل الغراب فبدأ الإنسان بالحفر ليُخبأ ، وليكتشف ، وليعمل ، ثم يشاء الله أن يكون بهذا الموقف وقفة للبشرية كلها ، وتشريعٌ يتعلّق بإحياء النفس وقتلها وما يترتب عليه من أحكام .

- التعبير بالعجز من بين المرادفات ، لأنه أدرك أن مواراة الجثة لا يحتاج سوى إلى حَفْر وتراب ، ومع ذلك جاءت مفردة العجز لتصف أن هذا الأمر على يُسره يتطلّب مهارة ذهنية وإعمال فِكر عجز عنه مَن لم يعجز عن قتل أخيه وهو الأمر الأكثر جهدًا وأعسر فِكرًا .

* * *

- المحفل :

وهو المكان الذي اجتمع فيه قوم إبراهيم عليه السلام ،حيث قال الله حكاية عنهم : ﴿ **قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن**

(١) ينظر : الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية ، الأستاذ دكتور عبد الله سرحان : ٢٨٠ .

كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦١-٦٥).

المكان في الآية :

حطّم إبراهيم الأصنام في لحظة انصراف القوم إلى عيدٍ لهم ، حيث قعد هو عنهم متظاهراً بسقمه ، وعزم على تحطيم الأصنام ، وعند عودتهم رأوا ما حلّ بأصنامهم ، فاختاروا أن تكون عقوبة إبراهيم والشهادة عليه في نفس محفلهم ، لحضور حشدٍ من الناس[١] ، وقال ابن كثير : «على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم ، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يتبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة الأصنام»[٢]، فجمعوه في مكان مرتفع حيث لا يخفى على أحد[٣] ، ورأى الطبري أن الاجتماع مقصودٌ منهم ليشهدوا عقوبتهم إياه[٤] .

أثر المكان في الاعتراف :

- حرجهم من قول الحق بعد تحققه لكبر نفوسهم ولحضرة الناس ، فالاجتماع وترقّب ما يحل بإبراهيم عليه السلام من العقوبة ، ثم صدمتهم بما واجههم به عليه السلام من الدليل العقلي ، جعلهم يفقدون صوابهم ويتوجهون إلى المكابرة والتمسك بباطلهم بدل الاستسلام ، كيف لا ! وهدفهم هو الإذلال به في هذا المجمع فانتقل الذل لهم والعلو له بفعلهم حِسًّا ومعنى ، فعندما قصدوا التشهير به انقلب كيدهم عليهم وأعلى الله شأنه ، إذ وجّههم أن يسألوا كبيرهم عن خبر تحطيم الأصنام فهو من فعله ،

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٨٧/٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم : ٣٤٩/٥ .
(٣) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٧٤/٦ .
(٤) جامع البيان ، الطبري : ٤٦١/١٨ .

«فراجعوا عقولهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره ، أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودًا ، فقال بعضهم لبعض فيما بينهم إنكم أنتم الظالمون بهذا السؤال ؛ لأنه كان على سبيل التوبيخ المستتبع للمؤاخذة ، أو بعبادة الأصنام لا من ظلمتموه بقولكم إنه لمن الظالمين أو أنتم ظالمون بعبادتها»[(١)] ، فأعرضوا عن إبراهيم عليه السلام ، وصاروا يخاطبون أنفسهم ، فتركوا تهمتهم لإبراهيم عليه السلام ، وتأمّلوا دفاعه عن نفسه[(٢)] ، وهذا مشهد مخزٍ واضح الضعف لعبّاد الأصنام .

- بلاغة التعبير القرآني إذ وصفهم بالذلة في الإخبار عمّا جرى بوصف حركة الجسد : ﴿ **نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ** ﴾ (الأنبياء:٦٥) حيث «انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام ، حين نفوا عنها القدرة على النطق ، أو قُلبوا على رؤوسهم حقيقةً لفرط إطراقهم خجلاً وانكسارًا وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام فما أحاروا جوابًا إلا ما هو حجة عليهم»[(٣)] .

* * *

- القصر :

- ومنه : **قصر امرأة العزيز** الذي ترعرع فيه يوسف عليه السلام حيث كان موضع اعترافها مع استكبارها أمام النسوة أول الأمر ، فكان له أثر في اعترافها الماكر[(٤)] بقولها : ﴿ **قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ**

(١) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٧٤/٦ .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٩٧/١٧ .
(٣) الكشاف ، الزمخشري : ١٢٥/٣ .
(٤) ينظر : ص ٤٤١ .

ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (يوسف:٣٢) ، **وقصر الملك** الذي كان فيه اعتراف النسوة وامرأة العزيز قبل خروج يوسف عليه السلام من السجن : ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴾ (يوسف:٥١).

وصف المكان في الآية :

- اختيار المفردة التي تصف المكان وطبيعته المنعّمة بإيجاز ودقة مصوِّرة في قوله تعالى : ﴿ **وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا** ﴾ (يوسف:٣١) ، «فكلمة (متكأ) تعني للوهلة الأولى تلك النمارق المعدة للجلوس ، ولكنها بعد التمحيص تتكشّف عن ترفّع محق لتصوير حقيقة انبساطهن ، وكيفية الجلوس ، والحديث الفكه مع الراحة ، وهذه الكلمة أبعدتنا عن جو الجوع والطعام»[(١)] ، وفي هذا يقول البوطي : «لم يعبّر عن ذلك بالطعام ؛ وهو اللفظ الذي لابد أن يعبّر به أو بنظيره أي واحد من الناس مهما امتلك ناصية البلاغة والبيان ، لم يعبّر القرآن بهذه الكلمة ؛ لأنها إنما تصور شهوة الجائعين ، وتنقل الفكر والخيال إلى (المطبخ) ، بكل ما فيه من الطعام ورائحته وأسبابه ، . . .لقد أبدع القرآن لذلك تعبيراً عجيبًا رائعًا ، بـ(متكأ) كلمةً قرآنيةً تصور ذلك النوع من الطعام الذي يقدم إلى المجلس تفكّهًا وتبسّطًا ، وتجميلاً للمجلس ، وتوفيراً لأسباب المتعة فيه ، ولذلك فالشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتكاء ، والكلمة من الألفاظ الكثيرة التي أبدع القرآن في صياغتها واشتقاقاتها فتعلق العرب بها من بعد ، ولولا ذلك لما اهتدوا إليها ولخانتهم اللغة في هذا الباب عن تصوير ما يريدون»[(٢)] .

---

(١) جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف : ٢٨٠ .

(٢) من روائع القرآن : ١٤١ ، ١٤٢ .

- تجلّى بكلمة (متكأ) وصف جزء من غرفة واحدة من القصر الفاره ، وبانت معالم حضور سيدته التي كانت هي وضيفاتها «من الطبقة الراقية ، فهن اللواتي يدعون إلى المآدب في القصور ، وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر ، ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق ذلك الزمان ، فأعدت لهن هذا المتكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا تستعملها في الطعام ، ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر قد بلغت شأوا بعيدًا ، وأن الترف في القصور كان عظيمًا ، فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية ...» [(١)] ، وهذه الكلمة بما تحمل من أبعاد تبين لنا أن «المفسرين تعمّقوا في جمالية الاختزان الذي يدعو إلى الترفع والتأدب في كلمات لا علاقة لها بالنساء ، . . . ولابد من القول إن التفسير العلمي الحديث جعلنا نتأكد من أن بعض المجاز في القرآن حقيقة ، وذلك في مواءمة المفردة لكل عصر ، فالدلالة تستمر وتتسع لمفاهيم كل عصر ، ويتلقّف هذه المفردة كلٌّ حسب فهمه وقدراته العقلية ونوع ثقافته ، وذلك من غير إقحامٍ أو تقوّل ؛ لأن مرونة الكلمة القرآنية ليست عشوائية ، والاختزان يكون في إفهام هذا وذاك من البشر ، وهذا مما يجعل في العقل مرونة ، ويفتح باب التفكير» [(٢)] .

أثر الوصف البديع للمكان في الاعتراف :

- ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ هذا الاعتراف لا يمكن أن يكون لمن لا يملك تلك السلطة والوجاهة ولمن لا يملك هذه المعطيات والإمكانيات ، فامرأة لا تعيش في مثل هذا المكان وليس لها من دنياها إلا اليسير ، وإن كانت عندها نفس رغبة امرأة العزيز فلن تكون بهذا الكبرياء الذي ساعدها عليه

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ١٩٨٤/٤ .

(٢) جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف : ٢٨٠ .

ما تملك من بيئة القصر التي زادتها كِبراً وشعوراً بالخدمة المستمرة المرفّهة التي صنعت منها امرأة لا ترى إلا رغباتها ورفاهيتها ، فهي تعترف بما هو من المُفترض أن يكون أمرًا يُستحيا منه لكن دون أدنى حياء بل بعزيمة واستكبار وإظهار لتجدد الرغبة فيه .

- ﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ ، تعجّبت امرأة العزيز سابقًا من استعصامه أمامها ، وهي الآن تنقل لهنّ عجبها ، فالمراودة بقصرٍ فيه من المنعة والتكتّم في إظهار الأخبار ، وإحكامها إغلاق أبوابه ، ومع ذلك يمتنع من الاستجابة لها ، هذا أمرٌ عجيب ومُحيّر بالنسبة لها في شخصية يوسف عليه السلام ، فهي تعيد إليهنّ وتُسمعه أيضًا أن ليست هي من يمكن الإفلات منها حسب ظنها .

- صيغة التهديد المحكيّة في الآية : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ إذ كأن امرأة العزيز قصدت بما فعلت من الإعداد لاستقبال النسوة ، وخروجه على أربعين امرأة مجتمعات ، وفي أيديهن السكاكين تهويل أمر الاستجابة إليها وإخافة يوسف عليه السلام من مكرها إضافةً لإذاقة النسوة من نفس الكأس الذي ذاقته [(١)] ، فمن يملك مثل هذا المكان ويقدر على هذه التهيئة ، يظن أنه يقدر على كل شيء حتى تغيير قناعات الناس بسلطته وماله ، فاستعمال قوة السلطة والتهديد لإمضاء رغبات نفسية تناسب هذه البيئة وهذا المكان ، ثم إنه هو العبد المملوك وهن في ما هنّ فيه من الترف والسلطة والجاه ، فقد يضعف أو يتراجع عن استعصامه بهذا الضغط الذي حاولت أن تمارسه امرأة العزيز لكن من يتصبّر يصبّره الله ، فقد حماه الله وجعله من الأنقياء ، فلم يتأخر عن طلب الدخول في السجن مقابل هذه الفتنة العظيمة ، قال أبو حيان في قول امرأة العزيز ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ﴾ في أثر اللام التي أضافت بعدًا حسيًّا ومكانيًّا : «اللام

---

(١) غرائب القرآن ، النيسابوري : ٤/٨٢ .

لبعد المُشار إليه ، فاحتمل أن يكون لمّا رأى دهشتهن وتقطيع أيديهن بالسكاكين وقولهن : ما هذا بشراً ، بعد عنهن إبقاءً عليهن في أن لا تزداد فتنتهن ، . . .فأشارت إليه باسم الإشارة الذي للبعيد ، ويحتمل أن تكون أشارت إليه وهو للبعد قريب بلفظ البعيد رفعًا لمنزلته في الحسن ، واستبعادًا لمحله فيه ، وأنه لغرابته بعيد أن يوجد منه ، واسم الإشارة تضمّن الأوصاف السابقة فيه»[1] ، فما كان منه إلا أن قال : ﴿ **رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ** ﴾ (يوسف:٣٣) ، وكشف عن الصراعات والمجاهدة العظيمة التي تكمن في نفسه ﴿ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ** ﴾ (يوسف:٣٣) ، فخشي يوسف عليه السلام من الميل إليهن وكان في كلامه معنى الدعاء وإن لم يذكر بدليل قوله تعالى : ﴿ **فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ** ﴾ (يوسف:٣٤)[2] .

- اتّصاف هذه المرأة بصفات (مصر) في ذلك الزمن ، من صفات السلطة والمهابة التي غلبت عليها مدة من الزمن ثم نُزعت منها ، هو من أثر المكان الذي هو بلدها على أخلاقها ، «فلم يسمّ المصريون بلدهم باسم (مصر) العربي العبراني على معنى الحائل أو الحاجز كما أسماهم بلغاتهم جيران مصر في الشرق ، هيبةً وبأسًا وتعظيمًا ، فقد منّ الله على هؤلاء المصريين في غابر الدهر بالطمأنينة في بلادهم ، لا يهابون أحدًا من وراء هذا الحائل ، بل قل لا يهتمون لشيء من أمر الذين هم من وراء هذا الحائل ، فكان لديهم قدر من (الاكتفاء بالذات) تغبطهم عليه كل شعوب العالم القديم ، فانكفؤوا على أنفسهم يحرثون ويزرعون ، وينسجون ثم لا يجدون من بعد هذا كله وفرة من الوقت يصنعون فيه أصول الحضارة والفن لكل البشر ،

---

(١) البحر المحيط : ٢٧١/٦ .

(٢) ينظر : معاني القرآن ، النحاس : ٤٢٣/٣ .

وهذا الاكتفاء بالذات ، والانكفاء على النفس أورثا المصريين من قديمٍ أنفةً واعتزازًا ، وربما قل عجبًا وخيلاء ، والتصاقًا بالأرض»[1] .

أمّا الاعتراف الأخير بتبرئة يوسف عليه السلام من النسوة ومن امرأة العزيز في قصر الملك ، ذلك المكان المختلف الذي دخلنه استدعاءً لا نزولاً وسُكنى ، تنفيذًا لطلب يوسف عليه السلام فقد استدعاهنّ ليعلمنه القصة ، فجمع النسوة وامرأة العزيز معهن ، فوجود النساء في حضرة الملك ، وفي بيئة عدالة راقية نظاميّة لا تحتمل إلا الصدق ، إذ هو قصر الملك الذي لا مجال للفرار منه فحرسٌ وحاشيةٌ في كل مكان ، ظروفٌ ساهمت في ذلك الاعتراف ذا النبرة الأضعف من امرأة ذات تاريخٍ عريقٍ من الكيد والسلطة ، وأثر المكان في هذا الاعتراف كان كالتالي :

- إجابة النسوة بجواب موهم ظهرت فيه براءة أنفسهن جملةً ، وأعطين يوسف عليه السلام بعض البراءة ، فقلن : ﴿ **حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٍ** ﴾ (يوسف:٥١) ، وقد يحتمل أن يكون هذا القول في جهة يوسف عليه السلام ليس ببراءة تامة ، وكان ينبغي منهنّ وصف القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأ ولمن يتوجه ، فلو قلن : ما علمنا عليه إلا خيرًا ، لكان أدخل في التبرئة ، فلما سمعت امرأة العزيز ما قلنه من موقف حيادي لا يعتبر تبرئة ، وفيه حنكة عن الوقوع في الخزي ، أبانت نصيب يوسف عليه السلام من ذلك الموقف ، بقولها : ﴿ **ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ** ﴾ (يوسف:٥١) ، وأقرّت على نفسها بمراودتها له ، وأوقعت كامل الذنب عليها ، وبرّأت يوسف عليه السلام براءة تامة[2] ، وهذا أوان اتّضاح الأمر غاية الوضوح فمهّلت لنفسها أنها هي التي أمرتها بالسوء .

---

(١) من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن ، محمود أبوسعدة : ٩١/٢ .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٢٥٣/٣ .

- مهابة القصر ووجود الملك ، أثّرت في دقة الألفاظ التي تلتحم جنبًا إلى جنب هنا مع مبحث المخاطب[1]، والتحليل هناك أكثر تفصيلاً لعلاقات قولها .

* * *

- **بطن الحوت :**

حيث قال الله تعالى في قصة يونس عليه السلام : ﴿ **وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٨٧) .

المكان في الآية :

جاء المكان الذي اعترف فيه يونس عليه السلام جليًّا في قوله تعالى : ﴿ **فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ** ﴾ (الصافات:١٤٢-١٤٤) ، وفي سورة الأنبياء ـ موضع الشاهد ـ كان في السياق وصف المكان لا تحديده كما في سورة الصافات ، ولعل أثر المكان الآتي يُبيّن شيئًا من لطائف التعبير بذلك .

أثر المكان في الاعتراف :

- نسبة الاعتراف إلى نبي الله عليه السلام كانت متعلّقة بالمكان الذي وُجد فيه ، وهذا من أثر المكان ، والنون هو الحوت ، ونسب إليه يونس عليه السلام لأنه عاش في بطنه زمنًا[2] .

- ﴿ **فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ** ﴾ : ناسب هذا المكان المظلم أن يكون الأسلوب المستعمل ليس هو الدعاء فحسب ، إنما النداء وهو يدعو ؛ فالمكان هو بطن الحوت فهو في مكان قصي بل ومنخفض عن مستوى سطح الأرض ،

---

(١) ينظر : ص ٦١١ .

(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم الخطيب : ٩/٩٤٥ .

والمنقِذ هو ليس عاليًا فحسب بل هو الأعلى سبحانه ، مستوٍ على عرشه ، فشعر نبي الله عليه السلام بذله وانكساره وصغره في ملكوت الأعلى سبحانه ، واستشعر مع ذلك قربه سبحانه ومعيته لعباده مع علوّه فناداه بصوت العبد الكسير الذي دخل ﴿ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ مع ما يصوّره حرف الجر من العمق ، والكرب الذي لا منجي منه إلا العظيم سبحانه ، فهذه الظلمات تحيط بيونس عليه السلام من كل جانب والله بكل شيء محيط .

- ﴿ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ : جاء التعبير بالظلمة في هذا السياق ؛ لا لتدل على المكان فحسب ، بل على صفته ، فمن هو في هذه الظلمة ناسب أن يستعمل أسلوب النداء لمن قال عن نفسه سبحانه في محكم تنزيله : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٣٥) ، فمن هو في الظلام بحاجة إلى النور ، بحاجة إلى نور عفوه ، ونور تفريجه لهذه الكربه ، ونور الكون الذي تشع به الشمس فيتنفس بها العباد هواء نهار صحيًّا طيّبًا .

- جمع الظلمة تدل على اشتداد الكرب الذي يتيقّن به الإنسان أنه ضعيف وبحاجة للقوي سبحانه ، فهي تحتمل قولي المفسرين من الظلمات الحسية : وهي ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، والظلمات المعنوية : وهي ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدة ، وظلمة الوحدة[١] ، أو جاء الجمع ليصف شدة الظلمات المتكاثفة[٢] فهي ظلمةٌ واحدة لكنها من شدتها كأنها ظلمات مجتمعة ، ومع هذا الجمع للظلمات جاء تناسب توحيد الله عز وجل ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ القادر وحده على تبديد كل الكُرب وإن اجتمعت بقوته وقدرته .

- ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ : أثر المكان مهما ضاق وبعد وأظلم على اشتداد يقين المؤمن ، وزيادة قربه من ربّه ، ففي الآية يظهر استشعار نبي الله عليه

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١١/٣٣٣ .
(٢) ينظر : أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٤/٥٩ .

السلام مخاطبة الله عز وجل بالضمير ﴿ أَنتَ ﴾ ، ويكون هذا الأثر من أعجب آثار المكان على الاعتراف ؛ فالمكان بكل تلك الظروف التي تكون مهلكة لا محالة لضعيف فأل ورجاء بالله ، يتحوّل إلى مصدر يقين وثقة بالله للعبد المؤمن التقي الذي يعلم أنه غير خافٍ على من هذا ملكوته ، أرضه بترابها ومائها ، بنورها وظلمتها ، باتساعها وضيقها ، كلها قبضته يوم القيامة ، لا شيء يستعصي مطلقًا ، أكان العبد في سعة من العيش وفي نعيمٍ على سطح الأرض ، أم في كُرَبٍ في بطن الحوت ، كلها أقدار القادر سبحانه ، فيرضى ويسلّم ، وبل ويخاطب ربه كأقرب قريب ويعلم أن ربه مطّلع عالم ، يحب إلحاح عبده بالدعاء فيلجؤ إلى محابّ الله ليكشف عنه ما ألمّ به .

- ﴿ سُبۡحَـٰنَكَ ﴾ تسبيح الله عز وجل ، وتنزيهه عن سمات النقص ، وما يقع فيه البشر من الأخطاء كان له أثر في تبدّل المكان الذي كان فيه يونس عليه السلام بخروجه من تلك الظلمات ، وهذه من العلاقة العكسية بين المكان والاعتراف ، فالمكان أثّر من حيث استشعار المخطئ لخطئه لوقوعه في العقوبه ، وكانت بطن الحوت لنبي الله يونس عليه السلام ، فالذي أدخل الإنسان بطن الحوت دون أن يتعرّض لمكروه هو القادر سبحانه ، وهذا أوان يستشعر فيه المخطئ زللـه وتقصيره مقابل عظمة العظيم سبحانه ، ولسان حاله : « تنزّهت عن كل نقص ، فلا يقدر على الإنجاء من مثل ما أنا فيه غيرك »[1] ، والاعتراف أثّر في المكان بأنه كان سببًا لخروج العبد المسبِّح منه ، فقال الله تعالى في سورة الصافات : ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ (الصافات:١٤٣،١٤٤) ، على أحد قولي المفسرين في الآية[2] .

---

(١) نظم الدرر ، البقاعي : ١٢/٤٦٦ .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٧/٣٩ .

- ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ : عندما يتحوّل بأمر الله أمر العبد من النور والرخاء إلى الظلمة والعسر ، يقلّب حاله مع ربه سبحانه وتعالى ، ويخشى من ذنبه ، فهنا أحس نبي الله عليه السلام بندمه فقال : ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ « مبالغة في اعترافه بظلم نفسه ، فأسند إليه فعل الكون الدال على رسوخ الوصف ، وجعل الخبر أنه واحدٌ من فريق الظالمين ، وهو أدل على رسوخ الوصف »[1] ، وهنا يظهر الجناس الناقص بين الظلمات والظلم ، الذي يدل على أثر المكان في إحساس الفرد واعترافه .
- ظهر أثر المكان في ترتيب الاعتراف المحكي على لسان يونس عليه السلام ، فتقديم الإقرار بالتوحيد ثم التسبيح ثم الاعتراف بظلم النفس ، فالضيق الذي تسببه الظلمة مع انعدام أي مصدر للنور ، يَجعل نور الإيمان والتوحيد يسطع في قلب العبد ليشعل له الأمل والتمسك بحسن الظن بالله ، ثم عندما يخرج للعبد من قلبه بصيص نور يبدأ بتأمّل المكان الذي هو فيه ، فإذا به يستشعر قدرة الله جل وعلا وقوته مقابل ضعف العبد وقلة حيلته فينزه ربه ، ثم يتذكّر السبب الذي أدخله في هذا المكان فيستغفر ربه ويعترف بذنبه .

* * *

- **المحراب :**

في قوله تعالى في قصة داود عليه السلام : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ (ص:٢١) ، حتى قوله تعالى حكاية عن اعترافه بعد حكم القضاء : ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴾ (ص:٢٤).

المكان في الآية :

كان نبي الله داوود عليه السلام يحكم بين الناس في محرابه حتى أتى إليه الرجلان للفصل بينهما ، فكان المكان الذي حكم بينهما فيه ثم تبيّن له خطأ

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٣٠/١٧ .

الاستعجال في القضاء هو (المحراب) ، وهو « أشرف المجالس والمقدم فيها ، وقد قيل : إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب ، والمحراب في اللغة : الموضع العالي الشريف »[1] ، قال ابن عاشور : « المحراب : البيت المتخذ للعبادة »[2]، وقال السعدي : « تسوّروا محل عبادته من غير إذن ولا استئذان »[3]، وكان مشتهرًا بالعبادة عليه السلام ؛ وهذا ما يرجّح كون المحراب في الآية مكانًا يتعبّد فيه ؛ يدل على ذلك قول النبي ﷺ : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يومًا ويفطر يومًا »[4] .

أثر المكان في الاعتراف :

- ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ : عُبّر عن علم داود بالظن ؛ لأنه علم نظري اكتسبه بالتوسّم في حال الحادثة ، وكثيرًا ما يعبّر عن العلم النظري بالظن لمشابهته الظن من حيث إنه لا يخلو من تردد أول النظر »[5] ، ومن هو نبي يوحى إليه من ربه ، وتواجده في مكان العبادة فهو دائم اللجوء لربه ، فسيشعر من عميق إيمانه أنه فُتن ، ولا يزال في تأنيبٍ لنفسه حتى يُنيب إلى ربه فيتوب عليه .

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج : ٤٠٣/١ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٣١/٢٣ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن : ٧١١ .

(٤) أخرجه الشيخان ، رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : التهجد ، باب : من نام عند السحر ، (رقم الحديث : ١١٣١) ، وكتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : أحب الصلاة إلى الله صلاة داود . الحديث ، (رقم الحديث : ٣٤٢٠) ، ورواه مسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : الصيام ، باب : النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به ، أو فوّت به حقّاً ، أو لم يفطر العيدين والتشريق ، وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم ، (رقم الحديث : ١١٥٩) .

(٥) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٢٣١/٢٣ .

- ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ : لم يركع نبي الله فحسب إنما جاء التعبير بـ ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ بمعنى : سقط ساجِدًا [1] ، وهذا اعتراف دائم العبادة ومن وحي بيئة العبادة التي تجعل المؤمن وإن أذنب رجّاعًا ، يعينه على ذلك وتواجده في مكان العبادة ، وكثيراً ما يعبّر بالركوع عن السجود ، لأنه ينحني ويخضع كالساجد ، ويعبر بالركوع عن الصلاة عموماً[2] ؛لأنه مبدؤه[3] ، من التعبير بالجزء عن الكل ، فناسب أن يكون هو دأب نبي الله عليه السلام كثرة العبادة إضافة إلى تواجده في مكانها ، فكان الاعتراف الأمثل بدل لوم النفس والاشتغال بالتفكير سرعة التوبة والإنابة لله .

* * *

- الصرح :

هو الذي حدث فيه اعتراف ملكة سبأ يوم أعده لها سليمان عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤) .

المكان في الآية :

بعدما قررت بلقيس أن تأتي إلى سليمان عليه السلام ، أراد أن يريها آثار الصناعة الحكيمة ، وهو الصرح ، وقيل معناه : صحن الدار وعرصتها[4]، وقيل : القصر من الزجاج[5]، وممرّد هو «المملّس الذي لا يعلق فيه شيء

---

(١) ينظر : غرائب القرآن ، النيسابوري : ٥/٥٨٩ .
(٢) ينظر : الكشاف ، الزمخشري : ٤/٨٨ .
(٣) ينظر : أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٥/٢٧ .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٩/٢٧٥ .
(٥) ينظر : البحر المحيط ، أبوحيان : ٨/٢٤٤ .

لملاسته»[1]، ثم كان أمر التنكير لعرشها بعد ذلك ، حيث تم تغيير وضعه وستر بعضه[2] ، فاتخذ جزءًا من المكان الذي حدث فيه وبسببه الاعتراف .

أثر المكان في الاعتراف :

- مسارعة ملكة سبأ بإعلان إسلامها في دهشة رؤيتها للصرح الممرد من قوارير كما حسبته ، «فالمكان بهذا الشكل وبهذه الصفة أمر لم تر الملكة له مثيلاً ، ولهذا سارعت بإعلان إسلامها : ﴿ **قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ »[3] .
- تحديد المكان الذي جاءت منه هذه الملكة له تأثير في شخصيتها[4] ، قال تعالى حكاية عن الهدهد : ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ (النمل:٢٣) ، فامرأة اعتادت سُكنى القصور ، والحياة الباذخة كيف انبهرت بالصرح الذي أعده لها سليمان عليه السلام؟ واعترفت بظلمها لنفسها وإسلامها؟

لقد رأت بلقيس في قصر سليمان مشابهة كبيرة لعرشها ، لكنها في الوقت ذاته علمت أنها وإن كانت ملكة فهناك من الرقي ما لا تعرفه ، فقد ساهم المكان الذي صممه جن سليمان عليه السلام وقصد به إبهارها واختبارها[5] ، في معرفتها لضعفها وعجزها عن إدراك حقيقة كل شيء كما تنبغي ، فقد حسبت القوارير لجة فكشفت عن ساقيها ، ثم غُمّ عليها أمر عرشها فلم تره كما هو ، فعلمت أخيرًا أن الحق غائبٌ عنها فأعلنت اعترافًا بظلمها لنفسها أنها مع سليمان أسلمت لله رب العالمين .

* * *

---

(١) ينظر : تفسير الراغب الأصفهاني ، الأصفهاني : ١٦١/٤ .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٢٦١/٤ .

(٣، ٤) شخصية المرأة في القصص القرآني ، دكتورة نورة الرشيد : ٣٠٠ .

(٥) ينظر : ص ٤٣١ .

أماكن أخروية :

ذكر المكان ووصفه في الآيات له دلالة وأثر في الاعتراف من حيث صياغته وأسلوبه ، وتمّ الاقتصار على ثلاثةٍ من أماكن الآخرة التي حدّدها عدم ورود المكان صريحًا في الآية ، واختلاف المفسرين وعدم ذكرهم أو توقّفهم في تحديد أماكن اعترافات الشواهد المتبقية موضع الدراسة مما جعلني أتوقّف فيها ، وقد اخترت شاهدًا لكل مكان من أماكن الآخرة ؛ فالشواهد أكثر من أن تحصر هاهنا ، سوى الجنة إذ كان ورودها في قصة آدم وحواء عليهما السلام ، ومعيار الاختيار للشواهد هو لأولها ورودًا في ترتيب المصحف ، ولما فيه تحديدٌ لمكان الاعتراف في التفاسير ، وصراحةٌ في التعبير بالقول ، أو بالقول والإشارة معًا[1] ، ـ حسب تقسيم فصول الباب الأول من الرسالة ـ ولعلّ رسالةً تخصص في أثر المكان تكون أكثر تمحيصًا وتتبّعًا من الكتاب والسنة ، وتبقى بالغة النفع إن شاء الله ، وأسأل الله السداد والعون ، والأماكن الأخروية التي وردت في الشواهد هي :

١- الجنة . ٢- أرض المحشر . ٣- النار .

* * *

١- الجنة :

قال الله تعالى في سورة الأعراف في قصة آدم عليه السلام : ﴿ **وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴾ (الأعراف:١٩) ، ثم وسوس الشيطان لآدم عليه السلام وزوجه حتى أوقعهما في المعصية حينها قال الله تعالى حكاية عن اعترافهما : ﴿ **فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا**

---

(١) ينظر : ص ٥١ .

رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

(الأعراف:٢٢،٢٣).

المكان في الآية :

أسكن الله آدم عليه السلام الجنة ، وكان التعبير بالسُّكنى دون النزول أو ما يرادفها ؛ للدلالة على «اللبث والإقامة والاستقرار»(١) وهذا تعبيرٌ يُشعر المخاطب بالراحة والأمان ، قال ابن فارس : «السين والكاف والنون أصل واحد مطّرد ، يدل على خلاف الاضطراب والحركة»(٢) ، والمراد بالجنة دار الثواب ؛ لأنها المعهودة(٣)، وقد ورد في الحديث الصحيح ما يدل على أن آدم عليه السلام سكن الجنة التي هي دار جزاء المحسنين ، في قول النبي ﷺ : «حاج موسى آدم ، فقال له : أنت الذي أخرجتَ الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم . . . .» الحديث(٤) ، وجاء التعبير في الآية عند مخاطبة الله عز وجل لآدم في سورة الأعراف : ﴿ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴾ ليدل على تنوّع مصادر الأكل وإباحته مما يكون به العيش رغيداً غير الشجرة المنهي عنها ، كما قال الله في سورة البقرة : ﴿ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴾ (البقرة:٣٥) ، واختصاص آية البقرة أنها تدل على إباحة الأكل منها في أي مكان كان(٥) ، وهذه التعابير تصوّر سعة

---

(١) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ١/٩٠ .

(٢) مقاييس اللغة : ٣/٨٨ ، مادة (سَ كَ نَ) .

(٣) السابق ، وقد حقق القرطبي الخلاف في كنه الجنة حسب ما جاء عند بعض التفاسير في تفسيره : الجامع لأحكام القرآن : ١/٢٩٨ .

(٤) أخرجه الشيخان ، رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ (طه:١١٧)، (رقم الحديث : ٤٧٣٨) ، ورواه مسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : القدر ، باب : حجاج آدم وموسى عليهما السلام ، (رقم الحديث : ٢٦٥٢) .

(٥) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي :٧/٤٧١ .

الجنة ونعيمها ، وقد جاء في السنة أوصافٌ كثيرة لها لا يسع المقام ذكرها ، نسأل الله أن لا يحرمنا الفردوس الأعلى من الجنة .

فكان أمر الله له بالسكن في الجنة ثم الأكل منها يراد به لزوم المكان ، والاستمتاع به والحفاظ على المكث فيه دون الانتقال عنه(١) .

أثر المكان في الاعتراف :

- ﴿ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا** ﴾ : عندما سكن آدم عليه السلام الجنة ناداه الله باسمه ليسكنه إياها ﴿ **يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ** ﴾ ؛ نداء تنويه لينتشر ذكره بين الملأ الأعلى ، ويسترعي أسماعهم فيتطلعون لما سيخاطَب به(٢) ، فأكرمه الله بسكناها وبالتنعّم بثمارها ، غير شجرة واحدة كان التعرض لها يزيل عنه هذا النعيم ، فعندما حصل المحذور في هذا المكان الكريم ، وهذا المقام العظيم أسرع نبي الله وزوجه إلى الاستتار ؛ لأن ستر العورة أمرٌ فطري ، وانكشافها تأباه الطباع السليمة ، ولأن ارتكاب المنهي عنه بحد ذاته في هذا المكان المبارك حصل به الندم ، فكيف إن اجتمع مع الفعل الذي نهى الله عنه انكشاف العورة! ، وفي مكانٍ أكرمه الله فيه! فجاء التعبير بـ(الطفق) ليدل على استمرارية الفعل منهما ، فطفق يفعل كذا ، ظل يفعل(٣)، فهذه الاستمرارية مع دلالة الفعل المضارع ﴿ **يَخْصِفَانِ** ﴾ ، تكشف لنا استشعار الندم بما ترتب على الفعل المنهي عنه ، وإدراك الحاجة إلى ستر الجسد وستر الذنب معاً .

- ﴿ **مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ** ﴾ ، لم يقتصر التعبير على فعل الخصف ، أو أنه كان من الورق فحسب ، إنما كان التعبير الذي يُشعر بالمكان الذي كان فيه هذا الخصف وهذا الورق ، فهو المكان الرغيد الذي أسكنه الله آدم عليه السلام

---

(١) ينظر : درّة التنزيل ، الخطيب الإسكافي : ١/٢٢٣ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١/٤٢٨ .

(٣) ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس : ٣/٤١٣ ، مادة (طَ فِ قَ) .

وزوجه ، وأحل الله أن يأكل من حيث شاء ، وأمره بعدم الاقتراب من شجرة محددة هي الممنوعة من بين ذاك النعيم ، فوقع في الذي نُهي عنه .

- التعبير بالورق دون ذكر الشجر يدل والله أعلم على أن هذا الجزء اليسير من الجنة كان سببًا في ستر عوراتهما ، وهذا من نعيم وكرم المكان الذي كانوا فيه ، فبالجزء الذي هو (شجرة واحدة) نهي عنها في ذاك المكان ظهرت عورته ، وبالجزء (الورق) سترها .
- ﴿ **رَبَّنَا** ﴾ ، هذا النداء كان في السماء وفي الجنة في قرب من الله عز وجل ، ليس كالنداء على ظهر الأرض ، و« قيل في حذف (يا) معنى التعظيم »[1] ، فيه تأدّب من أبي البشرية ، وإسناد الفضل بمن أكرمه وأسجد له الملائكة ، وأسكنه الجنة .
- ﴿ **ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا** ﴾ ، استشعار ظلم النفس في الجنة التي جعلها الله لآدم عليه السلام سكن يكون أشد على القلب ، وأكثر إيلاماً وتحسّرًا من أن يكون الاعتراف في غير المكان الذي سيُحرم منه بعد اعترافه .
- ﴿ **وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا** ﴾ تقديم المغفرة على الرحمة[2] في القول المحكي من آدم عليه السلام وزوجه ، يظهر فيه أثر المكان في اعتياد الرحمة والرخاء في الجنة قبل ، وإعلان الحاجة إلى المغفرة في هذا الموقف بتقديمها على الرحمة .

* * *

٢- أرض المحشر .

قال تعالى : ﴿ **وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ (إبراهيم: ٢١).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٧٩/٧ .

(٢) ينظر : ص ٣٢٠ .



المكان في الآية :

- ورد التعبير عن ذلك الموقف بين يدي الله بالبروز ، « برزوا من قبورهم ، يعني يوم القيامة ، والبروز الظهور ، والبَراز المكان الواسع لظهوره »[1] ، « فاستعير ذلك ليوم القيامة »[2] ، وعدل عن التعبير بالمضارع إلى التعبير بالماضي ؛ « لأن ما أخبر به عز وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد ، . . . وقد كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ، ويظنون أن ذلك خاف على الله ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله ، وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية »[3] .

وإن أرض البروز والحشر إلى المولى الواحد القهّار ليست كهذه الأرض ، بل هي أرضٌ أخرى[4] قال الله فيها : ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ** ﴾ (إبراهيم:٤٨)، وقال ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء كقُرصة النقيّ »[5] ، فهي بيضاءٌ إلى حمرة[6] ، وكالدقيق النقي من الغش والنخال ، ففيه إشارة إلى أن أرض الدنيا تبدّلت وأرض الموقف تجددت[7] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٣٥٥/٩ .
(٢) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٣٣٢/٣ .
(٣) الكشاف ، الزمخشري : ٥٤٨/٢ .
(٤) ينظر : القيامة الكبرى ، دكتور عمر الأشقر : ١٢٣/١ .
(٥) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الرقاق ، باب : يقبض الله الأرض يوم القيامة ، (رقم الحديث :٦٥٢١) ، ورواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة ، (رقم الحديث : ٢٧٩٠) .
(٦) ينظر : المنهاج ، النووي : ١٣٤/١٧ .
(٧) ينظر : فتح الباري ، ابن حجر : ٣٧٥/١١ .

ما أجلّ خطب يومئذ! ، في مكان يجتمع فيه الناس منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها ليلتقوا ببعضهم ، غير أن لا يسأل أحد عن أحد فكلٌّ منشغلٌ بأمره ، ذلك المكان الذي هو أرض المحشر ، المكان الذي يلجأ فيه الناس إلى مخرجٍ لهم مما هم فيه ، فلا محيص حتى يطول بهم الوقوف وتدنو الشمس من الخلائق ويشفع لهم النبي ﷺ حتى يخرجوا من كُرَبهم فإما إلى فرَج ، وإما إلى ضيق وكرب أشد والعياذ بالله [1] .

وفي لحظة البروز لله جل في علاه ، يوم يقهر كل متكبر ، ويبلى كل ملك ، ويبقى المَلِك الجبّار القهّار سبحانه وتعالى ، في ذلك المكان حين لا ينفع مال ولا بنون ، تأتي خصوصيته في كون اللقاء فيه ممكنٌ غير أن النفوس ذاهلة ، فكل امرئ يرتقب نجاة نفسه ، فلا يسأل أحد عن أحد ، يحشرون نساءً ورجالاً ، عراةً حفاةً إلى ربهم ، كما بدأهم أول مرة ، وقد أخبرنا نبينا ﷺ عن هذا السر لذلك المكان بقوله : « تحشرون حفاةً عراةً غرْلاً » ، قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ ، فقال : « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك »[2].

ثم جاءت هذه الآية لتصوّر الموقف والمكان المهيبين ، بعد صفة البروز لله بلفظ ﴿ جَمِيعًا ﴾ لا استثناء ، الكل أمام ربه ماثلٌ بارز ، وهذا مما يزيد مهابة المكان بلا شك ، فهو لفظ مؤكد أنه لن يغيب أحدٌ عنه سبحانه وتعالى ، نسأل الله السلامة .

---

(١) ينظر : القيامة الكبرى ، دكتور عمر الأشقر : ١/٦٥-١٢٣-١٣١ .

(٢) أخرجه الشيخان ، رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الرقاق ، باب : كيف الحشر ، (رقم الحديث : ٦٥٢٧) ، ورواه مسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : صفة القيامة والجنة والنار ، باب : فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، (رقم الحديث : ٢٨٥٩) .

أثر المكان في الآية :

- وصف المعترفين بالضعف في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ﴾ فموقف القدرة والعزة والقهر من الرب تعالى وتبارك ومكان اجتماع الناس عبادًا ضعافًا أمام خالقهم جعل الذليل أشد ذلاًّ ، تأمّل عظم الخطب ثم فداحة الذنب المرتكب في حقه جل جلاله! فحينئذ لا يغني أحد عن أحد .

- لجوء المتبوعين إلى الهرب من سؤال الأتباع لهم ، وهؤلاء هم الضعفاء في الدنيا ، كانوا فيها كذلك وأتوا إلى الآخرة بلباسهم الصاغر الحقير الذي لا ينفك عنهم وعمّن تبعوهم ، « والسياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال! ويرد الذين استكبروا بردٍّ يبدو فيه الضيق والتَّبَرُّم ، . . . فيعترفون الساعة بقدرته سبحانه ، وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسابًا لقدرة القاهر الجبار ، وهم إنما يتهربون من تبعة الضلال برجع الأمر لله ، والله لا يأمر بالضلال »[1] .

- تخيّر اللفظ القرآني للتسمية التي يستحقها المتبوعون بإيثار الفعل ﴿ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ ﴾ على(الكبراء) المقابل لـ (الضعفاء) ؛ فيه دلالة على أنهم ادّعوا العظمة ، ولم يكونوا عظماء حقيقة[2] ، و« السين والتاء للمبالغة في الكبر »[3] ، وكما قال عنهم النبي ﷺ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان »[4] الحديث ، ففي وصفهم البليغ في الآية صلةٌ بمكانهم .

(١،٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٤/٢٠٩٥ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٣/٢١٥ .

(٤) رواه النسائي بلفظه في سننه الكبرى ، كتاب : الرقاق ، (رقم الحديث : ١١٨٢٧) ، رواه الترمذي بلفظه في سننه ، أبواب صفة القيامة والرقاق والورع ، باب :٤٧ ، (رقم الحديث :٢٤٩٢) ، وحسّنه الألباني ، ينظر : صحيح الجامع الصغير : ٢/١٣٣٥ .

- جواب المستكبرين المباشر في صياغته ، فليس فيها مماطلة ، ولا مجادلة ، إنما هي قطع طريق أي جدل أو حوار مطلقًا بينهم! وهذا يناسب مكان الاجتماع الذي هم فيه ، ليس فيــه أي مخـرج ، وليس هناك أي متنفّس ، لا ظل ، ولا ماء ، بل أرضٌ مستويةٌ لا معلم فيها ، فما كان جوابهم إلا «اعتذار عن تغريرهم بأنهم ما قصدوا به توريط أتباعهم ، كيف وقد ورطوا أنفسهم أيضًا ، أي : لو كنا نافعين لنفعنا أنفسنا ، وهذا الجواب جار على معنى الاستفهام التوبيخي العتابي ؛ إذ لم يجيبوهم بأنا لا نملك لكم غناء ، ولكن ابتدأوا بالاعتذار عما صدر منهم نحوهم في الدنيا ، علمًا بأن الضعفاء عالمون بأنهم لا يملكون لهم غناء من العذاب»[(١)] .
- التعبير بالهداية وتمنّيها بتكرارها ، ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾ ولم يعبَّر بالنجاة ، أو مرادفاتها ، بل جيء بسبب النجاة ومطمح الكافرين يومئذ ، وهو (الهداية) ، لأنها لو حصلت منهم قبلُ لما كان لهم هذا المكان!
- إسناد الجزع والصبر إلى ضمير المتكلّم المنتظم للمخاطبين أيضًا في القول المحكي عن المستكبرين ؛ مبالغة في النهي عن التوبيخ بإعلامهم أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم[(٢)]، فليس المقام مقام شرح سبب ما هم فيه أو إظهار حجتهم في كونهم لم يكونوا سوى آمرين ، فهم في أرض فلاة أمام ربهم لا مجال لإطالة الحديث ، وإنما قدّموا لهم ما يفيد شراكتهم في العذاب ، وأنهم ـ والحال كما يشاهدون ـ لا فرار من عذاب الله ، فما من ملجأ ومكان ننجو فيه ، كلنا مكشوفون بارزون لله عز وجل ، فلا فائدة من الملامة وزيادة العذاب النفسي .
- الطباق اللفظي بين الجزع والصبر ، يناسب ذلك المكان فالحال فيه أن من صبر في الدنيا على شهواته جاء اليوم فائزًا مستبشرًا ، ومن استسلم لهواه

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٣/٢١٥ .
(٢) ينظر : روح المعاني ، الآلوسي : ٧/١٩٦ .

وجزع من نداء فطرته وروحه هو اليوم مثلهم يقف موقف النادم المعترف يوم لا يغني عنه أحد شيئًا ، ثم إن خصوصية التعبير بالجزع لها دلالتها ، فهو أبلغ ما يوصف به من يقف في مثل موقفهم في زحام الخلق ، دون أن يعرف إلى متى سينتظر؟ وإلى أين المصير؟ ويعلم يقينًا أن ليس في ميزانه ما ينقذه ، « فالجَزَع : أبلغ من الحزن ، فإنّ الحزن عام ، والجزع هو : حزن يصرف الإنسان عمّا هو بصدده ، ويقطعه عنه»[1] ، فتجد أن من كان في مثل حالهم والعياذ بالله ليس أمامه سوى الصبر ، فكيف والصبر أيضًا لا ينفع ، فمن يصبّر نفسه عادة ينتظر ثمار الصبر ، فكيف وزمن البذر قد انتهى!

- الطباق المعنوي في مطلع الآية البديع المتمثل في (البروز) الذي وصف المكان والوقوف بين يدي الله ، مع ختامها في كلمة (محيص) ، فـ(محيص) تعني : « منجى ومهرب من العذاب ، من الحيص وهو العدل على جهة الفرار ، وهو يحتمل أن يكون مكاناً كالمبيت ، ومصدراً كالمغيب»[2] ، ليظهر معه أثر المكان على الاعتراف ، وتمني المأوى والأمان ، والاختباء في حين أنهم في انكشاف بأنفسهم وبصحائف أعمالهم أمام من لا يخفى عليه شيء سبحانه .

* * *

٣- النار :

قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ** ﴾ (المؤمنون:١٠٣-١٠٧).

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ١٩٤ .

(٢) أنوار التنزيل ، البيضاوي : ١٩٧/٣ .



المكان في الآية :

وُصفت النار بأفظع الأوصاف في الوحيين ، ولا شك أن المكان وما يكون فيه من الهول وتمام قدرة الملك مع ضعف العبد كافٍ للاعتبار والندم ، وقد جاء في كلام الله تعالى قوله : ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ (الفجر:٢٣) ، فإن كان مجرد مجيء جهنم تجر بسبعين ألف زمام يحرّك مشاعر الهلع والخوف كما ورد عن النبي ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[(١)] ، فحينها يسترجع الإنسان عمره وأعماله ، ويتذكر سوءَاته ، فكيف إن حُكيت لنا صيغة الاعتراف التي وردت عن أولئك الزمرة لتؤكد لنا أن المشهد يحكي تلك « الحناجر الكظيمة المكبوتة ـ التي تُسمَع من الآيات ـ وهي تطلق أصواتها الحبيسة بكل كربها وضيقها وبحتها وحشرجتها فهي حناجر الكافرين النادمين يوم الحساب العسير ، ولنا الآن أن نتمثل شرذمة من أولئك المجرمين تلفح وجوههم النار ، فيتحسرون ويحاولون التنفيس عن كربهم ببعض الأصوات المتقطعة المتهدجة كأنهم بها يتخففون من أثقال تنقض ظهورهم ، ويفرغون عن طريقها ما يعانون من عذاب أليم »[(٢)] .

أثر المكان في الآية :

- التقديم في قوله تعالى : ﴿ فِي جَهَنَّمَ ﴾ ، والتأخير في قوله : ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ دالٌّ على الاهتمام بذلك المنزل الذي سكنوه والله أعلم ، ثم بعد ذلك زيادة على كونهم في شرّ منزِل وأوضع منزلة ، فهم ليسوا بخارجين منها ، كما يدل على تعجيل المساءة لهم .

---

(١) رواه مسلم بلفظه في صحيحه ، كتاب : صفة القيامة والجنة والنار ، باب : في شدة حر نار جنهم وبعد قعرها وما تأخذ من المعنيين ، (رقم الحديث : ٢٨٤٢) .

(٢) مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح : ١/٣٣٩ .

- اكتمال الصورة الجسدية في العذاب ، وتخصيص الوجه بالذكر ، في مشهد حسي ظاهر يبيّن أثر المكان في اعتراف القول والفعل ، ﴿ **تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ** ﴾ ، « فمن عادة من يلاقي ما يكرهه ، ويرى ما لا يحبّه ، أن يحدث ذلك تهيّجًا في وجهه ، يدلّ على نفور جأشه ، وشدّة استيحاشه ، فكذلك هؤلاء إذا شاهدوا أمارات العذاب ، ونوازل العقاب ، ظهر في وجوههم ما يستدلّ به على فظاعة الحال عندهم ، وبلوغ مكروهها من قلوبهم ، فكانوا كلائك المضغة المُقِرّة [١] ، وذائق الكأس الصّبرة ، في فرط التقطيب ، وشدة التهيج » [٢] .

وتخصيص أثر النار في الوجوه وإن كانت ستفعل الفعل نفسه مع أجسادهم كاملة ؛ لأن الوجوه الكالحة ، تجسّم معاناة النفوس ، من هذا اللفح بالنار ، فلا يخفى كم تعبّر الوجوه عن الخفايا [٣] .

- ترك الإجابة عن السؤال الموجه لهم : ﴿ **أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ** ﴾ إلى التعليل عن عدم اتباع الآيات والتكذيب بها ، وذلك لأن المكان نارٌ تلظّى ، والأمنية التي تسيطر عليهم الآن هي حيلة للخروج من هذا المكان الذي يأكل أجسادهم ، فأحالوا التكذيب إلى غلبة الشقوة عليهم ، وكأنهم لا يد لهم فيها ، طلبًا لأدنى حيلة للخروج ، « فقد تدرّجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرّع ؛ وذلك أنهم ذلّوا ؛ لأن الإقرار بالذنب اعتذار وتنصُّل » [٤] .

---

(١) شديدة المرارة ، وأمقر الشيء إذا مُرًّا .ينظر : الصحاح ، الجوهري : ٨١٩/٢ ، مادة (م ق ر) .

(٢) الموسوعة القرآنية (خصائص السور) ، جعفر شرف الدين : ٨٤/٩ .

(٣) ينظر : وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، عبد السلام الراغب : ٣٥٨/١ .

(٤) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ١٥٧/٤ .

- تكرار لفظ الربوبية لعلّ رحمةً من عند ربهم تتنزّل عليهم فتجيرهم ، وهذا عندما قدروه قدره ، وتسعّروا بمستقرّهم ، عرفوا من هو الله ، القادر على كل شيء ، ورأوا في نار جهنم من العذاب ما لم يكونوا به مقتنعين ، فكان لأثر المكان بصمة في ذُلهم لله .
- تعدُّد صياغة الجُمل التي تصف أمنيات الخروج من النار في هذا الشاهد وفي شواهد كثيرة ، فهم يَعِدون بالعمل الصالح إن تحققت لهم الأمنية وعادوا ، لكن هيهات واللهُ الذي خلقهم أعلم أنهم لو عادوا لدنياهم لعادوا لشقاوتهم ، لكنّ تلك النار بحرارة الوصف الذي جاء فيها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ لا أذاقنا الله حرها ـ جعلت منهم بترجّيهم وإلحاحهم واعترافهم مغلوبين ، يجددون الطلب والنداء ، مرة ينادون ربهم ، ومرة ينادون (مالكًا) خازن النار ليشفع لهم عنده سبحانه ، لعلّ هذا العذاب أن يزحزح عنهم ، وهيهات!

أثر الحروف في العلاقة بين المكان والاعتراف في الآية :

- تكرار الحرف (في) الذي يبيّن قولهم النابع من أعماق جهنم ، في قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ** ﴾ (المؤمنون:١٠٣،١٠٤)، وتكراره في كل شواهد الاعتراف الواردة في نار جهنم مثل قوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الشعراء:٩٦،٩٧)، وقوله تعالى : ﴿ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا** ﴾ (فاطر:٣٧) ، فالتأكيد على وقع الحدث في تلك البقعة العسيرة من مراحل الآخرة لها دورها في الاعتراف ، وإفادة الظرفية الحقيقية والمقدرة[1] لها عمق بلاغي ليس بالهين ، فهم (في) داخل هذه النار ، و(في)

---

(١) ينظر : شرح الكافية ، الرضّي : ٢/٣٠٤ .

عمق أذاها وحرّها ، و(في) شدة العسر والكرب النفسي والجسمي ، فحينها يكون ذكر الجار والمجرور في سياق الآية دالٌّ على عمق المحنة[1] ، وشدة ما يلاقون حتى يتمنّوا أن يموتوا ليتخلّصوا من هذا الهول ، والعياذ بالله ، فذكر الجار والمجرور (فيها) يزيد من تصوير عمق ذلك القاع الذي فيه يتلظّون ، ويذوقون من ألوان العذاب الأليم .

ذكر الحرف (من) في الاعتراف المحكي عنهم ، فتأمّل في هذه الأجواء ضعف قوتهم وحيلتهم أمام شهواتهم وشقوتهم ؛ فلم يعبّر عن قولهم بـ : ربنا أخرجنا فإن عدنا ، دون الحرف (من) ، بل كان لذكر (منها) بيان لشدة هذا المكان المؤلم ، الحار ، المتسعّر عليهم فآثروا ذكره ، والتخلص منه .

* * *

من نتائج هذا المبحث ما يأتي :

- ظهور أثر الزمان في الاعتراف بالزلل في الآيات من الجوانب الزمنية التالية :

١- موقع الاعتراف المندرج في القصص القرآني ، من حيث أسماء الشخصيات ، وملابسات حدث الاعتراف .

٢- الزمن الفاصل بين الأحداث في القصة ، وتمثله حروف العطف متجليًا في أسلوب الفصل والوصل .

٣- وقت الاعتراف ، مثل الاعتراف في لحظة الاحتضار .

وكان التطبيق في هذا الأثر على نموذجين ، فكان نتائج آثار الزمن في الاعترافات مايأتي :

١- من الدنيا ، قصة امرأة العزيز :

اشتركت عدة ظروف في الزمن الذي وقعت فيه قصة امرأة العزيز وأثّرت فيها وفي اعترافها :

---

(١) ينظر : ص ٢٩٧ .

- تناقل شهرتها بلقبها ؛ فهنا يظهر أثر الزمن على لقبها ، وأن الناس يلقون بالاً للأخبار التي تتصل بأصحاب المكانة والشهرة ما لا يفعلون مع غيرهم ، ولو كانت تلك المرأة مغمورة لما وصل أمرها إلى ما وصل إليه ، وتبعًا لذلك لما اضطرت إلى هذا الاعتراف .
- انصياع زوجها لها ، واستجابته لما تُمليه عليه ، وذلك من ضعف شخصيته مقابل قوة شخصيتها ، وهذا مستغربٌ في الرجال ، لكنه أكسب زمنها ذاك خصوصية ، فالنساء في مصر كُنّ بهذه الأنـَفَة ؛ فكان لهذا دورٌ في اعترافها صراحةً للنسوة مع إصرارها على المراودة بعد ذلك .
- أثرُ حروف العطف في تتابع الأحداث التي اعترفت فيها امرأة العزيز ، وفي اعترافها من حيث المدة الفاصلة بين مقاصدها وتصرفاتها(١) .

٢– من الآخرة ، غمرات الموت :

أثر الزمن في الإسناد المجازي الذي جاءت فيه السياقات التي تحكي عن لحظة اقتراب لحظة الموت من الإنسان ، فكلّها دالٌّ على الحركة والسّير ، مما يدل على السرعة في مجيئه قبل تصوّر المرء .

- التعبير بـ(الوفاة) يلفت النظر إلى الزمن الذي استوفاه الإنسان في دنياه ، وأن لحظة الاعتراف تلك لم تأتِ إلا بعد مدة من عمر الإنسان وإقامة الحجة عليه ، ومعرفته بالحق والباطل ، واختياره لطريقه ، وسيره في تحصيل ما ينفعه أو ما يضرّه .
- صدمة حضور الموت في مقابل طول أمل الإنسان مع مغبّة الإشراك بالله عز وجل ، وخذلان الشركاء يجعل أثر هذه اللحظة على الاعتـراف التعبيـر بـ﴿ **ضَلُّواْ عَنَّا** ﴾ (الأعراف:٣٧) .

---

(١) ينظر : ص ٥٤٥ .

وأمّا **المكان** فتبيّنت نتائج أثره في الاعترافات كما سيأتي :

١- الأماكن الدنيوية :

- **العراء ، في قصة قابيل** : الأرض التي ليس فيها سوى مكوناتها الأولية ، بما فيها من حركة الطيور واهتداء الغراب لما عجز عنه قابيل من دفن أخيه ، كان مؤثّرًا في اعترافه حيث إنه تسبّب في بسط الاعتراف مع النفس ، وتأنيبها ، فكان صِدْقًا أن يصف نفسه بالعجز فلا شيء يستحقّ تعقيدًا في التفكير ، هو مجرّد هداية من الله للفعل الصائب حُرمه لأجل ما قَرَف من ذنب قتل أخيه .
- **المحفل ، في قصة إبراهيم عليه السلام** : أثر تواجد حشد الناس في يوم عيدهم ، مكوّنين محفلاً مهيبًا ، هو عدم تمكنهم من الإقرار بما أيقنت به أنفسهم عند قولهم : ﴿ **فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ (الأنبياء:٦٤) ، وإنما ظهر اعترافهم بطريقة لوم واستغراب من سؤال إبراهيم عليه السلام لهم إذ قالوا : ﴿ **ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ** ﴾ (الأنبياء:٦٥) ، مع اعتراف مظهرهم بما أقرّت بواطنهم بنكس الرؤوس .
- **القصر ، في قصة امرأة العزيز** : لا شك أن شخصية المرأة اختلفت في الاعترافين الواردين عنها غير أن للمكان سمة عامة ، فتميّز الاعتراف في القصر باكتساب طبيعة المكان من هيبة وسلطة ووجاهة ، وقد كان في هذا المكان اعتراف امرأة العزيز للنسوة في قصرها ، واعترافها أمام الملك في قصره ، غير أن الأول اتّسم بالجرأة إذ القصر مُلكها ، تعرف مداخله ومخارجه ، ولا تخفى عليها أسراره ، أما الأخير فامتاز بسمت العدالة المتواجدة في قصر الملك عادة ، والخشية من النطق بغير الحقيقة ، ووزن الكلمات قبل صدورها ، لاسيما بما يحف المكان من ظروف عادة كالحرس وأدوات الحراسة ، والحاشية .

- **بطن الحوت ، في قصة يونس عليه السلام** : ظهر أثر المكان في الآية بوضوح ، ابتداءً من نسبة نبي الله يونس عليه السلام إلى الحوت (ذا النون) لمكثه داخل بطنه فترة من الزمن ، ومناسبة أسلوب النداء لربه عز وجل ؛ لما في المكان من خصائص البعد والعمق في البحر ، ودلالة (الظلمات) التي أظهرت صفة المكان مع أثر ذلك في الاعتراف بوحدانية الله تعالى ، وتنزيـهه وبيان قدرته على أن يبتلع الحوت إنسانًا ويمكث فيه دون أن يموت ، والجناس بين (الظلمات / الظالمين) الذي يحمل أثرًا لهذا المكان في صيغة الاعتراف التي حكت ما تحمله نفس يونس عليه السلام بكل دقة ، فسبحان الله العظيم .
- **المحراب ، في قصة داود عليه السلام** : الاعتراف في مكان العبادة اتّخذ سمت العبادة ، فعندما عرف نبي الله أنه فُتن توجه إلى الله بالاستغفار وسقط ساجِدًا لمولاه توبةً وإنابة إليه .
- **الصرح ، في قصة سليمان عليه السلام** : عندما رأت بلقيس هذا الصرح البديع في هيئته ووصفه ، انبهرت به وتيقّنت أن عرشها الذي فيه مشابهٌ لعرشها ، وكشفت ساقيها لظنها أنها تلج الماء فإذا به من زجاجٍ شفاف كأنه الماء من ملاسته فهنا أثّر هذا المكان في اعترافها ، فأعلنت ظلمها لنفسها ، ونطقت بالإسلام ، بمعية من أمر ببناء هذا الصرح غير المعتاد عليها وهو سليمان عليه السلام .

٢- الأماكن الأخروية :

- **الجنة :** أكرم بها الله آدم وزوجه عليهما السلام ، ففعلا ما نهاهما عنه ربهما من الأكل من الشجرة في المكان الذي أكرمها فيه ، فكانت الحسرة والندم شديدة ، وتجلّى أثر المكان في استعمال أوراقه خصفًا لستر سوءاتهما ، وتقديم المغفرة التي احتاجاها لستر الذنب على الرحمة التي اعتاداها في الجنة قبل .

- **أرض المحشر :** ظهر أثر بروز الناس بين يدي الله في تلك الأرض المكشوفة التي لا يستر فيها أحد في بلاغة التعبير بتمني المعترفين بشكليْهم الموصوفين في الآية : ﴿ **ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ** ﴾ و ﴿ **لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ** ﴾ لستر ذنوبهم ، ولكن هذا الأمر بات عزيزًا ، فكان التوجّه للوم كل طرف للآخر ، ثم ظهرت البلاغة المفارقات التي ظهرت بالطباق في الآية بين الألفاظ : (الضعف ، الاستكبار)، (الجزع ، الصبر)، (البروز ، المحيص) ، وكأنّ البروز أمام الله جعل كل المعاني تبرز ، وكما سيظهر في ذلك المكان الأضداد من البشر ، المؤمن والكافر ، الصادق والكاذب ، كانت أيضًا المعاني محل ظهور وبسط .
- **النار :** ظهر أثر هذه النار بما تحمله من إحراق في أسلوب التكرار للحرف (في) ، ولنداء لفظ الربوبية ، وهذا التكرار دليل إلحاح على طلب الخروج من نار جهنم ، من حَرِّ ما يلقون ، مع اشتراك الجسد في التعبير عن هذا الاعتراف حيث أن تغيّر لون البشرة وتغيّر الملامح تبيّن هذا الأثر .

*   *   *

المبحث الثالث

المخاطَب

لا ينفكّ الكلام العربي البليغ عن إدارة وتنظيم ، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه ، فتجده يراعي من يجهل بأساليب ، ومن ينكر بمؤكدات ، ومن لا يتنبّه بإضافة أدوات التنبيه في الكلام ، وهكذا حتى يكون البليغ متّسق الكلام ، مرهف الذوق ، منضبط النفس ، مبدع الوصف ، يستمع إليه الناس على اختلاف ثقافاتهم وفصاحتهم فيفهمون قوله وإشاراته وتعبيراته .

وبعد الحديث عن أثر الموضوع والزمان والمكان في أساليب الاعتراف ، يطِلُّ علينا هنا أثر المخاطَب في الاعتراف ، وكيف صار سببًا في التعبير بأسلوب دون آخر عند المعترِف ، « فللمخاطَب قيمة عظيمة ، إذ يوجه الكلام وفق مقتضيات أحواله ، حتى قيل لبعضهم : ما البلاغة؟ فقال : إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع[1] ، ولا يخفى ما في هذا القول من دلالةٍ على مكانة المخاطب في البلاغة »[2] .

قال أبو هلال العسكري : « أوّل ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك ، مكاتبة كلّ فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوّتهم فى المنطق »[3]، وعلى هذا الأساس يفترق البلغاء عن غيرهم في إنعام النظر قبل توجيه الكلام بحسب مخاطَبهم .

---

(١) ينظر : العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيرواني : ١/٣٨٧ .

(٢) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم ، دكتورة زينب كردي : ص ٥٨٩ .

(٣) كتاب الصناعتين : ص ١٥٤ .

وعندما يتكلم المتكلم فإنما يريد إفهام مخاطَبه أمرًا ، «وإذا كان موضع الكلام على الإفهام ؛ فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس ، فيخاطب السوقي بكلام السوقة ، والبدوي بكلام البدو ، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام ، وتعدم منفعة الخطاب»[1] ، وهذا جزءٌ من المفهوم العام للبلاغة وأنها : (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) ، فمراعاة حال المخاطب جزءٌ من ذلك .

فلا تكاد الجملة تميل إلى فنٍّ من فنون البلاغة إلا كان للمخاطبِ فيها متّكأً ، فأضرب الخبر لصيقةٌ بحال المخاطب ، والإيجاز والمساواة والإطناب ، فنون في القول يعتمد استعمال كلٍّ منها على مدى ثقافة المخاطب ، وكذا الحاجة إلى التشبيه ، والكناية ، والاستعارة ، تعتمد على درجة تفكير المخاطب واستيعابه للصورة ، والتقاطه للخيال التصويري ، وتذوقه له ، وقد أفاض عبد القاهر في بيان كيف يكون موقع التمثيل وبلاغة الصورة من السامعين بناءً على ذلك[2] ، وأسلوب التوكيد ، والاستفهام ، والعدول ، كلّها أساليب تراعي المخاطب ، ومن بديع العدول في مراعاة المخاطب مثلاً : العدول من صيغة المفرد إلى صيغة الجمع ، فتجد من أغراضه اللطيفة في القرآن على سبيل المثال : «عدم مواجهة المخاطب بما يكره من الأوصاف ، إذ إن إدخاله في جملة موصوفين مع تقرر الوصف وتحقيقه أهون عليه من إفراده بوصف يكرهه ، ولذا اطرد هذا الأسلوب في خطاب الله لأنبيائه ، عند تحذيرهم مما لا يليق الاتصاف به ، فيترك القرآن التصريح إلى الكناية إعراضًا عن تخصيصهم بوصف يكرهونه على طريقة أدب الخطاب ، من ذلك ما خاطب الله تعالى به نبيه محمداً ﷺ محذّرًا إياه من أساليب أهل الكتاب ،

---

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ : ١/١٠٠ .

(٢) ينظر : أسرار البلاغة : ص ١٢٩ .

وخبث طويتهم : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:١٤٥) ، فلم يقل : إنك إذًا لظالم ، جريًا على أدب الخطاب في عدم مواجهة المحب حبيبه بما يكره»[1] ، وكثيرٌ من فنون البديع معتمدة اعتمادًا كليًّا على مدى فهم المخاطب وعلمه ، مثل : القول بالموجب ، وسوق المعلوم مساق غيره ، والأسلوب الحكيم ، وغيرها .

وإن من دقة اللغة العربية الكريمة التي تفيض في الحرف لحاجة المتكلم بحسب مخاطَبه ، أن الحرف قد يزيد حسب حال المخاطب ، فعلى سبيل المثال : كلمة (أرأيت) ، تُفهِم معنًى لا تختلف عنه كلمة (أرأيتك) وهو : أخبرني إلا من جهةٍ واحدةٍ تحتاج إلى تذوّق ونظر ، إذ «زيدت الكاف عليها لتوكيد المخاطب ، والكاف هنا حرف يتصرف على حسب المخاطب»[2] ، فيكون ـ للمخاطب ـ بها «تأكيد باستحكام غفلته ، كما تحرك النائم باليد ، وتنبّه المفرط الغفلة باليد واللسان»[3] .

وسبحان الرحمن الرحيم الذي أبدع نظم كلامه ، فأُنزل علينا في أكمل بلاغة وأعذبها ، فقد نبّه ووجّه القرآن في آيات كثيرة إلى ضرورة الاهتمام بالمخاطب ، وطريقة التعامل معه بحسب حاله ، بل بحسب إيمانه ، فقال عز وجلّ لرسوله الكريم : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٥) ، بل إن من ادعى أنه الإله من دونه سبحانه ، أمر عز وجل بإلانة القول له ، والإحسان فيه ، فقال مخاطِبًا موسى عليه السلام وأخاه هارون حين أُرسل إلى فرعون : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ، دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن ، دكتور محمد الأمين الخضري : ص ١١٨ .

(٢) معاني النحو ، السامرائي : ١٤/٢ ، وينظر : لسان العرب ، ابن منظور : ٦/١٩ ، مادة (رأى) .

(٣) البرهان ، الزركشي : ١٥١/٤ ، ١٥٢ .

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه:٤٢-٤٤) ، فأمر سبحانه نبيّه بحسن الاستعداد للقاء هذا المخاطب الطاغية المنكر المتجبّر ، «وذلك أن كل من يريد دعاء إنسان إلى أمر يكرهه فإنما الوجه أن يحرر في عبارته بالمعنى الذي يريد حتى لا يخل به ولا يحزّ منه ، ثم يجتهد بعد ذلك في أن تكون عبارته لطيفة ، ومقابلته لينة ، وذلك أجلب للمراد ، فأمر الله تعالى موسى وهارون أن يسلكا مع فرعون إكمال الدعوة في لين من القول»[١] .

ومن مميزات أسلوب القرآن الكريم مراعاته في الخطاب العامة والخاصة ، «وهاتان غايتان متباعدتان عند الناس ، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم ، فلا غنى لك إن أردت أن تعطي كلا الطائفتين حقها كاملاً من بيانك أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى ، . . .فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم ، . . .فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسّرٌ لكل من أراد : **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾** (القمر:١٧)»[٢] .

وإنّ من مراعاة المخاطب في تعاملات النبي ﷺ ما يدل على سموّ خلقه ، وكريم تربيته من ربه ، وله صلوات الله وسلامه مع الأعراب قصص كثيرة ، بل إنه ﷺ كان يحترم غير المسلمين من الملوك حين دعاهم للإسلام قُبَيْل فتح

(١) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٤/٤٥ .

(٢) النبأ العظيم ، دكتور محمد دراز : ١٠٢ .

مكة ؛ فكتب إلى الملوك بألقابهم التي اشتهروا بها ليوقّرهم الناس ، كقوله لملك الروم : عظيم الروم[1] ؛ ليكون أدعى في قبوله للدعوة ، كذلك توجيه الخطاب منه ﷺ إلى أفراد صحابته كان يفرّق بين قوي الإيمان وحديث العهد به ، وفي تعامله وقسمته بين المهاجرين والأنصار كذلك ظهرت حكمته في التعامل مع المخاطبين بحسبهم ، وقد اختار الدكتور يوسف العليوي[2] هذا الموضوع في رسالته الدكتوراه المقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، فكانت بعنوان : رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين : دراسة بلاغية تحليلية .

مقامات المخاطبين في شواهد الاعتراف بالزلل :

بعد حصر الآيات جمعْتُ المخاطبين الذين توجّهت لهم الاعترافات ، ثم صنّفتهم حسب قصص الأنبياء الذين ذُكروا في الشواهد ، وما كان خارجًا عن قصص الأنبياء ويحمل مقامًا منفردًا كان في تصنيف منفصل ، فكان عددها إحدى عشرة شخصية وأما المخاطبون الذين لم أدرس تحليل الخطاب المتوجّه لهم فهم : أهل النار بعضهم لبعض ؛ وذلك لعدم ورود تخصيص للشخصية باسم أو صفة أو غيرها جامِعةً كل آيات تخاصم أهل النار مما جعل الحديث عن تلك الشخصية ورصد الخطاب المخصَّص لسماتها غير ممكن .

---

(١) السيرة النبوية ، ابن كثير : ٤١/٢، والحديث في هذا أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري ، كتاب : بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، (رقم الحديث : ٧)، ورواه مسلم ، كتاب : الجهاد والسير ، باب : كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام ، (رقم الحديث : ١٧٧٣) .

(٢) أستاذ مشارك في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وكانت مقامات المخاطبين على النحو التالي :

مقام خطاب الله تبارك وتعالى[(١)] .

١- المخاطبون في قصص الأنبياء :

أ- قصة إبراهيم عليه السلام ، وكان هو المخاطب فيها بالاعتراف من قومه .

ب ـ قصة يوسف عليه السلام ، وكان المخاطبون فيها : يعقوب عليه السلام ، ويوسف عليه السلام ، ونسوة المدينة ، والملك .

ت ـ قصة موسى عليه السلام ، وكان المخاطبون فيها : موسى عليه السلام ، والخضر ، وفرعون .

ث ـ قصة سليمان عليه السلام ، وكان هو المخاطب فيها بالاعتراف من قومه .

٢- النفس .

الله جل في علاه :

رب العزة « الله » جل جلاله ، لا يخفى على صاحب فطرة سويّة ما ينبغي في حقه والحديث إليه من الاحترام له والتوقير ، وقد وجه نبينا الكريم ﷺ إلى هذا في دعاء الله تبارك وتعالى ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فكنّا إذا أشرفنا على وادٍ هلّلنا وكبّرنا ، فارتفعت أصواتنا ، فقال رسول الله ﷺ : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا ، إنّه معكم إنه سميع قريب ، تبارك اسمه وتعالى جدّه »[(٢)] .

---

(١) ولم يكن في ترقيم المخاطبين لجلاله ورفعته جل في علاه من أن يُدرج تحت قائمةٍ من البشر ، فالأولى هو أن يكون متميّزًا .

(٢) أخرجه الشيخان ، فرواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : الجهاد والسِّيَر ، باب : ما يكره من رفع الصوت في التكبير ، (رقم الحديث : ٢٩٩٢) ، ومسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب خفض الصوت بالذكر ، (رقم الحديث : ٢٧٠٤) .

والتأدّب مع الله بتخيّر الألفاظ في الشواهد بارز ، منها ما كان من الملائكة والأنبياء عليهم السلام ، ومنها ما كان من أهل النار حين عاينوا العذاب .

وأمّا السمات العامة في خطاب الله تبارك وتعالى من عباده فهي :

١- التوقير لمقامه وجلاله ، فلا يخلو خطاب لله جل وعلا من نداء الربوبية ، لعلم العباد أنه القريب الرحيم المجيب سبحانه .

٢- خُلُوُّ نداءات الاعتراف من ياء النداء كما سبقت الإشارة(١) ووجهها البلاغيون لهذا السبب ، فالعبد عندما يكون مكروبًا مهموماً يلجأ إلى مولاه مباشرة لا يناديه بياء البعد .

ومن سمات خطاب الله جل جلاله عند الملائكة والأنبياء عليهم السلام :

١- التنزيه لله قبل الاعتراف ، ورد في خطاب الملائكة لربهم في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ (البقرة:٣٢) ،كما ظهر في اعتراف يونس عليه السلام في قاع البحر لمّا نادى : ﴿ **فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٨٧) ، فلفظ تنزيه الله عز وجل في موضع اعتراف العبد بتقصيره لربه فيه تأدب معه جل وعلا ، وتنزيهه عن أن ينسب إليه نقص أو عيب ، بل إن ذاك كله مما لا يخلو منه مخلوق ، فهو يستشعر ضعفه لمولاه ، وفي الوقت ذاته يقف أمام هيبة الكريم المعطي الغفور سبحانه ، فيتضاعف أمام عيني العبد ضعفه وفقره ، فيذعن ويستسلم .

٢- نداء الله تعالى عند الاعتراف وفيه التلطّف والخضوع للباري سبحانه ، كما جاء في قصة آدم عليه السلام وزوجه بعد ندمهما قال الله عنهما : ﴿ **قَالَا**

(١) ينظر : ص ٧٣، ٧٤ .

رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣) ، وموسى عليه السلام : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾ (القصص:١٦،١٧) ، ونداء المؤمن لربه في لحظة تقصيره يعني الحاجة إلى معية الله جل وعلا في هذا الوقت بالذات الذي يكون فيه المرء مكروبًا وأحوج ما يكون إلى إجابة لندائه ، وهو يعلم أن الكريم لن يرد يديه صفراً ، ففيه حسن ظن بالله عز وجل ، وهذا ما يرضاه الله لعباده .

٣- الاستغفار بين يدي الاعتراف لله تعالى ، كما في قصة نبي الله داود عليه السلام ، فقال الله تعالى عنه : ﴿ **وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩** ﴾ (ص:٢٤) ، وسار سليمان عليه السلام على نهج أبيه في الاستغفار اعترافًا بذنبه مع نداء ربه : ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ** ﴾ (ص:٣٥)، والاستغفار حبيبٌ لنفس المؤمن وقربةٌ لله جل في علاه ، وكما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « إنّ عبدًا أصاب ذنبًا فقال : رب أذنبت فاغفر لي ، فقال ربه : أَعَلِمَ عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به؟ ، غفرتُ لعبدي ، . . . . » الحديث[1] .

٤- الاعتراف من الملائكة والأنبياء لربهم اتّسم بالتقصير والرغبة في رضا الله عز وجل ، هذا هو كل طمعهم ورجائهم ، لا يكون من وراء الاعتراف

(١) أخرجه الشيخان ، رواه البخاري بلفظه في صحيحه ، كتاب : التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ** ﴾ (الفتح:١٥) ، (رقم الحديث : ٧٥٠٧) ، ورواه مسلم بنحوه في صحيحه ، كتاب : التوبة ، باب : قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ، (رقم الحديث : ٢٧٥٨) .

رغبة في تحصيل منفعة ، وفي هذا إخلاص لله تعالى فإن من رضي الله عنه أعطاه من خيري الدنيا والآخرة وإن لم يطلب .

أما في اعترافات أهل النار عند الوقوف عليها ، فقد اتّسمت في خطابهم لربهم بالآتي :

١- التلطّف لله في الخطاب بالنداء ، وفي قلوبهم إشفاقٌ ورجاءٌ في رحمة الرحيم سبحانه ، وعفوه عنهم ، لكن مع هذا فهدفهم أن ينجلي عنهم العذاب ، أو يخفف عنهم ، أو أن يخرجوا من هذا الجحيم ، لهذا فخطابهم لربهم خطاب نفعي وهذا خطاب من اعتاد أن يتعامل بالمصلحة في دنياه ، لم يكن خطابًا خالصًا لله ومنه قوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ** ﴾ (المؤمنون:١٠٦،١٠٧)، أو يكون توجههم لله وندائه ليشيروا إلى من كانوا سبب هلاكهم لعل هذا يكون شافِعًا لهم ، وقد صُرح بذلك في آيات كثيرة ، وهيهات أن يكون لهم ما أرادوا ، منها قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ** ﴾ (النحل:٨٦)، بينما تجد الأنبياء والمؤمنين هدفهم رضا الله عز وجل ، وهذا كفيل بسعادتهم ، فلا يطلبون من مولاهم سوى ذلك .

٢- تخصيص النداء بـ(ربنا) لمن غفل عن ربه طوال مدة العمل والمُهلة ، واستعمالها هنا في الحياة الأبدية ؛ يُشعر بمكانة المخاطب عندهم التي لم يكونوا يقدرونها قبلُ ، مع كل الآيات التي تُنذر ببطشِ الله وهول القيامة المنتَظر ، وما جاءت به رُسلهم من النُّذُر ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ** ﴾ (الزمر:٦٧) ، فلمّا وفدوا إلى الله قدروه ولم ينفعهم إذ كذبوا به في دنياهم .

٣- النداء بضمير الجمع (نا) وليس بضمير المفرد ؛ فيه استسلام جماعي وذل موحّد من أهل النار ، وعلامة على عدم تخلّف ضعيفهم عن قويّهم في الإيمان حينئذ أن من يخاطبونه هو رب العالمين .

المخاطبون في قصص الأنبياء :

سيكون ترتيب الأنبياء حسب تاريخ إرسالهم للأمم ، ثم يكون المخاطبون في قصصهم حسب مقاماتهم شرَفًا ورفعة .

أ- قصة إبراهيم عليه السلام :

١- إبراهيم عليه السلام :

عندما اعترف قومه أمامه بخطأ تفكيرهم ، وبأنهم هم الظالمون وليس هو كما أطلقوا عليه بتحطيمه لأصنامهم ، قال الله عز وجل حكاية عنهم : ﴿ **فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ** ﴾ (الأنبياء:٦٤،٦٥) ، حُكِي عنهم اعترافهم بظلم أنفسهم بين بعضهم بعضًا ، « فقالوا : أنتم الظالمون بهذا السؤال ، أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ، ولا ينفع ، لا من ظلمتموه بقولكم »[(١)] ، وأما الذي كان أمام إبراهيم عليه السلام فاعترافٌ بأن الأصنام لا تنطق ، فهم بين أنفسهم جاؤوا بالفكرة الصالحة ، لكنهم سرعان ما أنكروها أمامه ليكونوا في موقف القوة[(٢)] فمن يخاطبونه كسّر أصنامهم! غير أنهم لم يملكوا أن يخفوا ما كان باديًا على جوارحهم من الاعتراف بظلم أنفسهم ومن خيبة الأمل بأصنامهم .

فقوم إبراهيم عليه السلام يخاطبونه الآن بصفته متّهمًا بتحطيم أصنامهم ، فيوجهون له لوْمًا وهو في ذاته اعترافٌ بضعف معبوداتهم وخطئهم في تلك

---

(١) أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٤/٥٥ .

(٢) ينظر : الكشاف ، الزمخشري : ٣/١٢٤ .

العبادة ، لكن الظروف تهيّأت لعقوبته أمام جماهير الناس ، كما في الآية : ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴾ (الأنبياء:٦١) ، فلا يسعهم التراجع عن رأيهم ، وكل هؤلاء ينتظرون ما يحل بإبراهيم عليه السلام ، فكان أثر المكان والجمْع الغفير واضح كما سبق في المبحث الثاني من الفصل نفسه[١] ، على الرغم من مجادلته معهم لإيضاح أنها لا تنفع ولا تضر فكيف يتوجهون لها بالعبادة ، لم يزيدوا على أن تمسّكوا بالعناد والاستكبار بما وجدوا عليه آباءهم ، ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٦٨) ، فكانت سمات خطابهم لإبراهيم عليه السلام كالتالي :

- محاولة لمقابلة محاجّته العقلية لهم بالجواب الذي يناسب عقل نبي الله وعلمه فقالوا : ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ ﴾ (الأنبياء:٦٥) فهم يعلمون ويسلّمون أن له من العلم ما جعلهم يبهتون من أسئلته لهم ، فهم لا يملكون مزيد إجابة تناسب عقله وإيمانه سوى الاعتراف بأنه أعلم منهم بأنها لا تنطق ، فالتعبير بصيغة الماضي مع حرف التحقيق ، لبيان سابق علمه ، وتحقق وقوع تلك الصفة عند إبراهيم عليه السلام .
- تعجّبهم من توجيه إبراهيم عليه السلام لهم هذا السؤال ، ولسان حالهم : ما بالك تسألنا وأنت تعلم أنهم لا ينطقون! [٢] ولو كان غير إبراهيم عليه السلام لمَا وسِعَهم أن ينكسوا رؤوسهم ويعترفوا له!
- لم ينصرفوا لنفي النطق عن كبيرهم فقط الذي نسب إبراهيم عليه السلام الفعل له ، إنما نفوا عن كل الأصنام هذه الصفة ، وذلك سبقٌ منهم لتساؤل قد يظنونه منه على بقية معبوداتهم إن أجابوا جوابًا محددًا بعدم نطق كبيرهم! ، وهنا يتّضح علمهم بغلبته العقلية عليهم ، فلا مجال لإطالة الجدال

(١) ينظر : ص ٦٦١ .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٤/٨٨ .

مع من هو أقوى حجة ، وفيه استحكام الغي والضلال حتى صار يقينهم بعدم نطقها لا يسوّغ ترك عبادتها ، نسأل الله البصيرة .

* * *

ب ـ قصة يوسف عليه السلام :

١- يعقوب عليه السلام :

قال له أبناؤه عندما ظهرت أمارات كذبهم الأول بتغييب يوسف عن وجه أبيهم عليهما السلام ، واكتشفوا أن يوسف عليه السلام صار إلى ما صار إليه قالوا : ﴿ **يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ** ﴾ (يوسف:٩٧) .

لم يكن خفِيًّا على نبي الله يعقوب عليه السلام أن ابنه في حفظ الله ، ولكن كيدًا من إخوته حيك فأبعد الابن الحبيب عن أبيه فحزن لبعده ، وعندما جاؤوا بقميص يوسف عليه السلام ورُدّ ليعقوب عليه السلام بصره ، وتيقّن أن ابنه صار منه قريبًا ، وكُشفت الحقيقة ، ما كان من إخوة يوسف عليه السلام إلا أن اعترفوا لأبيهم ، وطلبوا منه أن يغفر لهم .

فاتّسم الاعتراف لأبيهم بالآتي :

ابتدأ بنداء الأب بيا النداء ، والتي تفيد البعد ، رفعةً لمكانته واستعطافًا لهذا الوالد بعد عهد طويل من كيدهم ليوسف عليه السلام ، وهذا المد الذي حمله النداء ﴿ **يَٰٓأَبَانَا** ﴾ ، يحمل صوت الأبناء المنكسرين في ساعة تبيُّن التقصير ، بل في ساعةٍ رُد فيها لوالدهم البصر ، فهم لا يخاطبون كما سبق والدهم الأعمى ، بل يخاطبون والدهم المبصر ، وزوال العمى عن بصره عليه السلام ترافق معه زوال الباطل وتجلّي الحق ، وزوال الغشاوة عن قلوب هؤلاء الأبناء ، فخطاب من له حق وقدر وهو ينظر إليك ، ليس مثل خطابه وهو لا ينظر إليك!

فهم الآن يطلبون من والدهم أن يغفر لهم ، وأن يستغفر لهم ربهم على قبيح فعلهم السالف الذي لم يخفه الزمن عن قلب الوالد المكلوم ، كيف لا يفعلون!

وقد لاموه قبل زمنٍ يسير من إلقاء القميص على وجهه ؛ لأنه اشتم رائحة يوسف عليه السلام بإفراطه في حبه القديم له ، ورجائه للقاء يوسف المستمر(١)، فنادوه بعنوان الأبوة تحريكًا للعطف والشفقة(٢) .

- تعليل طلب الاستغفار بصدور الخطأ منهم ، وتصريح المخطِئ بخطئِه أمام مخاطَبه قد تجعل المخاطب يرحمه ويتجاوز عنه ، فهو خيرٌ له من المكابرة التي قد تجعل المخاطب يوقع العقوبة ليقينه بوقوع ما يوجبها رغم إنكار الفاعل وهذا هو الموقف الذي آثروه رغم ماضي مكرهم وحسدهم .
- الاقتصار على طلب الاستغفار ؛ فمن أمنيات المعترف بذنبه أن يُصفح عنه ، ويستغفر له ، وهكذا الابن يكون على ثقة عادة بعفو أبيه ؛ وقيل إنهم أرادوا : ومن حق شفقتك علينا أن تستغفر لنا ، فإنه لولا ذلك لكنا هالكين لتعمّد الإثم ، فمن ذا يرحمنا إذا لم ترحمنا (٣) .
- طلب الأبناء من والدهم صاحب القدر الصابر على كيدهم أن يستغفر لهم فيه هضم للنفس ، وإظهار الصَّغار الذي حلّ بهم جرّاء فعلهم ، وهذا يناسب مقام الأب قبل أن يكون نبيّاً .
- الاعتراف بـ(إن) المؤكدة ، ﴿ **إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ** ﴾ ليس لأن والدهم المخاطب منكِرٌ لخطئهم! ، لكن لأنهم أيقنوا اللحظة وأذعنوا حقًّا بعظيم الذي جنوه في حق والدهم ويوسف عليهما السلام ، والتأكيد ليظهروا لوالدهم أسفهم من خطئهم ، يؤيده أن لم يقولوا : مخطئين ، بل قالوا : ﴿ **خَـٰطِـِٔينَ** ﴾ ؛ فالخاطئ في الدين لا يكون إلا عاصيًا إذ هو زلّ بقصد ، أما المخطئ فزلّ عن غير عمدٍ أو اجتهد فلم يصب(٤) .

---

(١) ينظر : البحر المحيط ، أبو حيان : ٣٢٤/٦ .
(٢، ٣) ينظر : روح المعاني ، الآلوسي : ٥٣/٧ .
(٤) ينظر : الفروق اللغوية ، العسكري : ٢٢٠/١ ، وينظر : ص ١١٤، ١١٥ .

ولأن المخاطب والدٌ ونبي ؛ فلم يسعه ألا يستجيب لطلب أبنائه ، فحكى القرآن عن رده على طلبهم الاستغفار : ﴿ **قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (يوسف:٩٨) ، ولكنه أضاف فعله للمستقبل ، وفي تأخيره جملة أقوال : «أنه أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر ؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء ، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار ، وقيل : أخّره إلى أن يستحل لهم من يوسف عليه السلام ، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم»[١] ، وقال ابن عاشور : «وإنما وعدهم بالاستغفار في المستقبل ؛ للدلالة على أنه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل ، ويُعلم منه أنه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى ، ولكنه أراد أن ينبههم إلى عظم الذنب ، وعظمة الله تعالى ، وأنه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلة»[٢] ، فكان للمقصّرين ما أرادوا من مخاطَبِهم .

* * *

٢- يوسف عليه السلام :

بعد قصة العير كان إخوة يوسف عليه السلام يظنون أنهم يخاطبون العزيز حتى يشفع لهم في قصة سرقة أخيهم لصواع الملك ، فجاؤوا منكسرين : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ** ﴾ (يوسف:٨٨) ، فكان خطابهم أول الأمر خطابًا ضعيفًا منكسرًا للعزيز حتى يفرّج عنه كربته ، ثم عندما سألهم عن نفسه وعن أخيهم «أدركوا أنه لا يستفهم ملك لم ينشأ عندهم ، ولا تتبع أحوالهم ، وليس منهم فيما يظهر إلا وعنده علم بحالهم ، فيقال إنه كان يكلمهم من وراء حجاب ، فرفعه . . .فتوسّموا أنه يوسف عليه السلام»[٣] ،

---

(١) فتح القدير ، الشوكاني : ٣/٦٥ .
(٢) التحرير والتنوير : ١٣/٥٤ .
(٣) البحر المحيط ، أبو حيان : ٦/٣١٩ .

إذ جمال ملامح الخِلْقةِ التي يعرفونها من أخيهم لاشك أنها باقية يُعرف بها ، فلما صرّح أنه يوسف اعترف له إخوته بأنّ الله أكرم مثواه ، وأحوجهم للضعف والذّلة بقولهم : ﴿ **قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ** ﴾ (يوسف:٩١) ، فرأوا فضل الله على أخيهم وقد صار في مقام العزة والاستغناء والاستعلاء ، بعدما أنزلوه البئر صغيراً ، وغيّبوه عن حنان الأب ، وحرموه كنفه ورعايته ، فعوّضه الله بعزيز اتخذه ولداً ، فهاهنا لم يتمالكوا أنفسهم حتى نطقوا باعترافهم ، فكان من سماته :

- تأثير الحياة التي عركوها على أنفسهم ، وأثر موقف الضعف الذي في اعترافهم ، فجاء القسم ابتداءً قبل شروعهم في مشاعرهم الكسيرة زيادة في الإثبات للموقف العجيب الذي رأوه من انقلاب حالهم وحاله ، ولعلّ القسم في حين هو استعمال من يكذب حتى يكون لكلامه قوة ويُصَدّق! لاسيما وقد أثبت المقام الآن لمن الغَلَبة ، فأرادوا أن يبرهنوا ليوسف عليه السلام أنه أعلى منهم في كل شيء .
- رفعهم لقدره ، وامتداحهم لما صار إليه ، وكأنهم يعوضونه بعد إنزاله البئر في صغره ، « لقد فضّلك الله علينا بالتقوى والصبر ، وسيرة المحسنين ، وإن شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين ، متعمدين للإثم ، لم نتق ، ولم نصبر ، لا جرم أن الله أعزّك بالملك ، وأذلّنا بالتمسكن بين يديك »[١] ، ثم وقفة مع اختيار المفردة : ﴿ **ءَاثَرَكَ** ﴾ [٢] ، وأعجِب بها وبحسنها الزائد على (فضّلك)! ليس فقط من حيث الصوت الموحي بالآهات والحسرة في المد الطويل بعد الهمزة ، ثم الفتح على حرف لَثَويٍّ خفيف ، مقارنة بصعوبة الوقوف والتشديد على الضاد في (فضّلك) وهو من حروف الإطباق[٣] ، بل بتتبع

---

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٥٠٢/٢ .

(٢) ينظر : ص ١٣٣ .

(٣) ينظر : الإتقان ، السيوطي : ٢٧٠/٢ .



مواضع التفضيل والإيثار في القرآن ، لتكشف عن أسرار هذا التفرّد ، فالتفضيل يكون نتيجة عمل ، ولم يكن له سابق تصميم وإرادة ، كقوله تعالى : ﴿ **فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً** ﴾ (النساء:٩٥) ، أما الإيثار فيكون عن اختيار ولا يسبق بعمل ، ولا يكون نتيجةً له ، ودلالة الإيثار في القرآن الكريم أقرب إلى المعنويات منها إلى المحسوسات[(١)] ، فكان تخيّرها في خطاب يوسف عليه السلام بالغ الأثر .

- توجيه الاعتراف ليوسف عليه السلام وليس لأبيهم فقط ؛ واستعمال المؤكدات التي جاءت في كلامهم[(٢)] التي أبانت ذِلتهم ، وانكسار شوكتهم ، استنزال لإحسانه عليهم واستعطاف عفوه مع استشعارهم لقدرته عليهم ، « وإن كنا لخاطئين » فيما صنعناه بك عمداً فلم نتق الله فيك ، ولم نصبر على ما رأيناه من اصطفاء أبينا لك دوننا حال صغرنا ولهذا فإن الله أعزّك وأجلّك وسلّطك علينا ، فسبحان من قدّر سلطانك هذا على فعلنا فيك[(٣)] .

* * *

٣- نسوة المدينة :

كادت نسوة المدينة لامرأة العزيز بإشاعة خبرها ، فردّت الكيد مضاعفًا بما أعدت لهن من متّكأ ، حتى إذا رأوا جمال يوسف عليه السلام ، وفقدن شعورهنّ وقطّعن أيديهن ، اعترفت لهن : ﴿ **قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ** ﴾ (يوسف:٣٢) ، بعيداً عن خبر المراودة الذي أثبتته لهنّ وأكّدته ، وسبق أن وقفت معه مراراً[(٤)] ، إلا أنها راعت من هم في ضيافتها ، ومن

---

(١) ينظر : جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف : ٧١ .

(٢) ينظر : ص ١٣٤ .

(٣) ينظر : بيان المعاني ، عبد القادر آل غازي : ٢٥٢/٣ .

(٤) ينظر : ص ٨٩، ٤٤٠ .

ستخاطبهن أبلغ مراعاة! واتّضح ذلك بالآتي :

- ابتداءً من الدعوة إليهن ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ (يوسف:٣١) ، فقد قامت امرأة العزيز من حنكتها بتهيئة واستقبال لمن تكلّم في عرضها ، ليس فقط لتريهنّ يوسف عليه السلام ، بل لتخجلهنّ بضيافتها ، وكريم صنيعها معهنّ مقابل كلامهنّ الذي سمعته ، ثم تعرض عليهن فتاها عليه السلام الذي حاكت حوله كيدها! قبل أن تفعل معهن .
- الإجمال في صفة التهيئة في قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ ، بينما جاء تفصيل الكيد الذي أرادته امرأة العزيز من جمعهنّ ، وهو أن تعطيهن درسًا ، فيُبْكَتْنَ بالحجة ، وهذا الدرس سيتّضح بإعطاء السكاكين حيث ستكون قصة تقطيع الأيدي مرارًا دون شعور عند رؤية يوسف عليه السلام[1] ، فيتذكّرن أمرها كلما رأت إحداهن يديها ، وكأن تلك الصورة كانت متخيّلة عندها ، وسعت لتوفير أدواتها لهن ، وهنا يتّضح كيف أن المخاطَبات من ثقافة معيّنة ، فلم تغفل الوصول لقلوبهن ، وإعطاءهن درسًا قاسيًا على فئة نساء القصور المترفات الغارقات في الغفلة ـ غالبًا ـ اللاتي لا يعدو اهتمامهن دائرة جمالهن ، وأصداء الحديث عنهن بالخيلاء والتبرج تملأ الأرجاء ، فهن الآن سيدخلن في دوامة لا شعورية إثر رؤية يوسف عليه السلام تنتجُ أيديًا مقطّعة ، وحدث ما أرادت عندما أعطت كل واحدة سكّينًا .
- التعبير بما يؤكد تخصيص سكين لكل واحدة في قوله تعالى : ﴿ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ ﴾ ، فلم يعبّر بسكين واحدة لهنّ جميعًا إن أردن الأكل ، وإنما حرصت على أن تكون مع كل واحدة منهن سكين خاصة بها ، ودبّرت الأمر على أن تكون السكاكين متوفّرة قبل خروج يوسف عليه السلام ، فلم تأمره مثلاً بأن

(١) ينظر : أنوار التنزيل ، البيضاوي : ٣/١٦٢ .

يخرج عليهن بصفته فتاها ، ويوزّع السكاكين ليقطعن بها ما وضعته للضيافة ، لكن هذا التدبير النابع من كيد مدروس عندها يُشعر بخصوصية الهدف الذي أرادت أن توصله لهن خاصة .

- قولها بعد أن تمّ لها ما أرادت : ﴿ **فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ** ﴾ وكأنها بهذا تقول : أما زال لومكنّ لي على أن بلغتُ بحبي له ما بلغت! فسّرته (في) دون (على) في قولها : ﴿ **لُمۡتُنَّنِى فِيهِ** ﴾ يبيّن حرف الوعاء الذي حُكي على لسانها ، ذلك العمق والتمكين في اللوم الذي وقع منهن في حبها له ، فكأنها تسوّغ موقفها معهنّ وما أرادت إيصاله لهنّ ، إنما كان نتيجة لعدم مقاومتها لجماله كما صار معهن ، فاتبعت داعي الهوى ، ولا زالت على إصرارها ، لاسيما وقد شاهدت من انفعالاتهن تجاه يوسف عليه السلام ، وعدم تصديقهن أن من أمامهن بشر ، وباحت أعينهن كذلك برغبتهن فيه كما رغبت ، فأعطاها هذا الموقف دافعًا أكبر ـ لطبيعة تنافس بيئة القصور ـ أن تكون هي من تحظى به ، وأعلنت رغبتها صريحة مهدّدة : ﴿ **وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ** ﴾ ، وجمّلته في أعينهن أكثر حينما نسبت إليه العصمة ، ثم جاء الذكر الحكيم بما يدل على كمال استعصامه ، ومبالغته فيه بقولها : ﴿ **فَٱسۡتَعۡصَمَ** ﴾ (1) .

- ذُكرت ألفاظ في السياق تبيّن اهتمام امرأة العزيز بأمرهن أيّما اهتمام! وبدونها يستقيم المعنى لكنها بلاغة ربّانية معجزة لحكمةٍ، ومن هذه الألفاظ: ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ** ﴾ فلم يأتِ التعبير بالمصدر في (المكر) وإنما بنسبته إلى النسوة ، ثم الإرسال أتى بالتخصيص (إليهن) ، وإعداد المتّكأ كذلك جاءت كلمة (لهنّ) تؤكّد الاهتمام بهن ، وبعدها إيتاء

(1) ينظر : ص ٨٩ .

السكاكين لم يعبّر في الآية بإعطاء كل واحدة فحسب إنما جاء الجار والمجرور (منهن) ليتأكّد أن الملأ هو أولئك النسوة دون غيرهن ، ثم أمرها ليوسف عليه السلام بالخروج جاء معه تخصيص (عليهنّ)، ثم قولها ختامًا : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ فورود اسم الإشارة (فذلكن) في السياق مع ضميريْ : الكاف ونون النسوة ، دون التعبير بما يرادف مثـل : (فذلك) أو (فهذا) يحمل تنبيهًا لهنّ ، وتشفّيًا منها بعد مقالتهن فيها ، فهنّ المستهدفات في كل هذه الخطة ، وجاء النظم في أبدع صورة تؤكد ذلك .

- تكرار نون النسوة ثماني مرات في الآية التي فيها الاستعداد للقاء هؤلاء المخاطبات في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾ (يوسف:٣١-٣٢)، فيها ملاءمة ومراعاة لحالهن ، ومزيد من الرعاية لأمرهن .

* * *

٤- الملك :

طلب ملك مصر من الرسول المجيء بيوسف عليه السلام ليستخلصه لنفسه ، قال الله تعالى فيه : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (يوسف:٥٠،٥١) ، ولكن يوسف عليه السلام طلب تبرئة ساحته قبل خروجه من السجن ، ونفي التهمة عن نفسه كي لا يتّخذها الحاسدون وسيلة إلى تقبيح أمره[١] ، فاستجاب الملك نزولاً

(١) ينظر : الكشاف ، الزمخشري : ٢/٤٧٧ .



عند طلب يوسف عليه السلام حين قال للرسول : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ، فسأل الملك النسوة : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، وكان حينئذ لشخصية الملك حضور ، وظهرت من كلماته أبعاد شخصيته وأسلوبها المعبّر ، وما حُكي عنه في الآيات يُعبّر عن شخصيته ، مثل قوله في المرة الأولى : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ ، ثم في المرة الثانية : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ (يوسف:٥٤) ، ثم قوله ليوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (يوسف:٥٤)، ثم في سؤاله النسوة : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، ففي أمره شدة لا تخفى في خطاب الملوك[1] ، فكان في الاعتراف في قوله تعالى : ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (يوسف:٥١) ، فكان أثر هذه الشخصية في اعتراف امرأة العزيز والنسوة ، ما يُبيّن مراعاتهن له ، ومن ذلك :

- صياغة السؤال التي حُكيت على لسان الملك تجعل الاتهام موجّهًا مباشرة للحاضرات لا حكمة في تعتيم الحق فيه أو الهروب منه : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، وهذا السؤال هو الذي حكم على صياغة الإجابة بعده ، فأمْر المراودة بات واضِحًا وصار المنتظر فقط هو تفصيل ما يتعلّق بالمتّهمات منهنّ ، وموقف يوسف عليه السلام حيال ذلك .
- سرعة الاستجابة للسؤال ، وعدم المماطلة ، على الرغم من فداحة الخطب ، ومرارة الاعتراف ، يظهرها الفصل بين الجمل الثلاث دون حرف عطف : سؤال الملك ، اعتراف النسوة ، اعتراف امرأة العزيز ، في قوله تعالى : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ ، فهذا التوالي أظهر حالة الرهبة والهيبة من سؤال الملك فانطلقت الإجابة مباشرة دون فاصل زمني ، والله أعلم .

---

(١) ينظر : المدخل إلى علوم القرآن الكريم ، محمد النبهان : ٢٧٦/١ .

- احتمالية الإبراء في اعتراف النسوة ليوسف عليه السلام ، فهنّ خشين الملك فبرّأن أنفسهنّ جملةً وأعطين يوسف عليه السلام بعض البراءة ، ولو كان القول المحكي عنهنّ : (ما علمنا عليه إلا خيْرًا) لاتّضح مقصدهنّ في توجيه البراءة إليه [1] ، فمن الواضح أن رهبة الملك كانت مسيطرة على الموقف ، فاتّجهن إلى حماية أنفسهنّ للهروب من أي تبعة .
- الفرصة التي رأتها امرأة العزيز في إبراء يوسف عليه السلام في ملأ خير وأكرم من ملئها الذي أدخلت به يوسف عليه السلام السجن ، فلأنَّ المخاطب هو الملك تلك اللحظة أفاضت امرأة العزيز في بسط التبرئة ليوسف عليه السلام بما يقطع الشك باليقين ، وألبست نفسها التهمة كاملة .
- الصياغة الواردة في اعتراف امرأة العزيز وسبق الحديث عنها[2] ، تحمل ألفاظًا تدل على خصوصية هذا الاعتراف أمام الملك بما يظهر براءة يوسف عليه السلام ، فالتعبير بكلمة ﴿ **ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ** ﴾ تظهر أن تلك اللحظة بحضور شخصية الملك التي جعلت من فرار الباطل أمرًا محتّمًا ، إذ سأل هذا السؤال الذي كان به انبلاج الحقيقة ، ونفض التراب عن تلك القضية التي دُفنت بدخول يوسف عليه السلام للسجن .
- طريقة الاعتراف التي وردت على لسان امرأة العزيز تحمل الذُّل والحَرج من حكاية الذنب ، مع ضرورة الاعتراف به فجاء اعترافًا صريحًا خاليًا من أي إيهام ، أو تبرير : ﴿ **أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ** ﴾ ، إضافة لابتدائه بالضمير المنفصل : (أنا) ، فهي تريح الملك وتنقل له الواقع بإجابة مفصّلة فيها إقرار بالذنب ﴿ **أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ وليس ذلك فحسب بل بتأكيد صدق المسجون ظلمًا يوسف عليه السلام .

* * *

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٢٥٣/٣ ، ينظر : ص ٥٦٧ .

(٢) ينظر : ص ٩٢ .

ت ـ قصة موسى عليه السلام :

مع تتبّع الشواهد في زمن موسى عليه السلام كان المخاطبون بالاعتراف فيه ثلاثة سأبدأ بأشرف من يُبدأ بهم في دراسة أثر المخاطَب :

موسى عليه السلام ، ثم الخضر ، ثم فرعون .

وأمّا الاعتراف الموجّه إلى موسى عليه السلام فمن ثلاثة مصادر :

من فتاه ، ومن قومه ، ومن السامري .

١- موسى عليه السلام :

اعتُرف لموسى عليه السلام بالخطأ من مصادر ثلاثة :

فتاه : في رحلته للقاء الخضر ، عندما نسي الغداء .

قومه : عند عودته من لقاء ربه .

السامري : الذي أضل قومه في غيبته .

. . . .

١- أمّا **الاعتراف الأول** : أثناء رحلته للقاء الخضر فقد كان اعتراف الخادم لسيّده ، فجاء فيه : ﴿ **قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا** ﴾ (الكهف:٦٣) ، وظهر أثر المخاطب على الاعتراف في الآتي :

- جاء اعتراف الخادم لسيّده بأسلوب الاستفهام : ﴿ **أَرَءَيْتَ** ﴾[1]، وهذا الأسلوب يحمل تشويقًا للسامع فأخذ يقص عليه ما حدث دون إجابة مباشرة مراعاةً لمشاعر من يخاطب ، فهو سيّده ومتعب من عناء السفر ، وجائع ينتظر غداءه ، فالأمر ليس يسيرًا .

---

(١) ينظر : ص ١١٩ .

- التذكير بأن أحداث قصّة مرت بهما جميعًا ، فاستعمال نون الجمع ﴿ أَوَيۡنَآ ﴾ فيها مشاركة للحدث تلفت نظر المخاطب إلى روح الصحبة فيركّز على الأحداث دون الخطأ فيتجاوز(1) .

- الاعتذار عن النسيان بشغل الشيطان له حتى تسبّب في هذا النسيان ، فلعلّ هذا يكون شافِعًا له ، وكأنه يذكّره أن الشيطان يتسلّط على كل بني آدم فيُرحَم بذلك ، ولا يُلتَفت لزلَلِه .

ثم تجد نبي الله موسى عليه السلام تفاعل مع هذا الحدث فأجابه : ﴿ **قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا** ﴾ (الكهف:٦٤) ، فتحقق عند المخاطب الانشغال بالحدث الأهم إذ كان نسيان الحوت أمارة المطلوب ، فحينها يكون لقاء الخضر ، وهو المقصود من الرحلة ، فاهتم موسى عليه السلام بتتابع المشاهد العجيبة ، وأمر الحوت الأعجب عن الملامة لأمر النسيان رغم تعبه ، إذ لم يطلب الغداء إلا من النصب الذي عاينه من السفر ﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا** ﴾ (الكهف:٦٢).

٢- وأما **الاعتراف الثاني** لموسى عليه السلام فمن قومه ، عندما عاد غضبان أسِفًا على ما حلّ بهم من عبادة العجل في غيبته ، قالوا له : ﴿ **قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ** ﴾ (طه:٨٧) ، فيظهر من اعترافهم الآتي :

- المسارعة ابتداءً إلى نفي إخلاف الموعد ، لتهدئة موسى عليه السلام فقد وصفته الآيات ، بـ﴿ **غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا** ﴾ (طه:٨٦)، صفة مركبة لا تغني كلمة منها عن الأخرى ، وحال بادية على نبيهم عليه السلام ، إذ كان شديد الغضب ، مغتاظًا حزينًا(2) ، فكيف لمن أخطأ أمامه أن يعترف بفعلته؟ ، ثم

---

(١) ينظر : ص ١٢٢ .

(٢) ينظر : معاني القرآن ، النحاس : ٨٢/٣ .

كيف له أن يعتذر في تلك الأثناء ثم يُقبل عذره ، الأمر إذن بحاجة إلى مراعاة نفسية المخاطب ، وهم كانوا قومه ، صحبوه زمنًا ، فعرفوا نبيهم ، فتدبّروا إيصال أمر خطئهم .

- ثم الاستدراك أن الإخلاف تم ولكنه لم يكن بوسعهم وطاقتهم[1] ، وإنما كان شيئًا لم يقدروا على ردّه ، لعلّ هذا العذر يكون مقبولاً عند موسى عليه السلام فيتقبّل قومه بصدر رحب ، ويسامحهم ويستغفر لهم .

٣- وأما **الاعتراف الثالث** لموسى عليه السلام فكان ممن أضل قومه ، وسوّل لهم عبادة العجل ، وهو السامري ، ثم ما لبث أن اعترف لموسى عليه السلام بخطئه حين سأله فقال : ﴿ **فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى** ﴾ (طه:٩٥،٩٦)، فبدا أثر موسى عليه السلام في اعتراف السامري كالتالي :

- الاسترسال في الجواب دون محيص ، وهذا يناسب مقام السائِل ، إذ لا ينبغي التنصّل ممن إن شاء الله علّمه ما يخفى عن غيره من الغيب .

- بَدء السامري في حكاية القصة لموسى عليه السلام قبل أي اعتراف أو إبداء اعتذار ونحوه ، ولعلّ أهمية هذا الشرح كذلك تأتي من مراعاة المخاطب ، فبدأ السامري بشرح الذي حدث بعد رحيل موسى عليه السلام ، لعلّ شافِعًا يظهر في طيات القصة .

- عندما انتهى السامري من حكاية قصته أتت كلمة : ﴿ **فَنَبَذْتُهَا** ﴾ لتخفي كثيرًا من التفاصيل ، كيف نبذها؟ لماذا نبذها؟ ثم كيف صار العجل من هذا النبذ؟ قال ابن عطية : « فنبذت الحلي فكان منها ما تراه ، وهذا محذوف من

---

(١) ينظر : ص ٢٢٩ .

اللفظ تقتضيه الحال والمخاطَبة»[1] ، فهو يخاطب نبي الله الذي إن شاء أوحى إليه ربه بأمر السامري ، والاختصار في الحكاية مع أصحاب القدر واجبٌ لعدم إزعاجهم بكثرة التفاصيل التي لا تخفى على من اختاره الله للوحي .

ثم ما كان من السامري إلا إعلانه بأن القصة مهما تكن فقد حدث ما حدث معترِفًا لموسى عليه السلام بأن الخطأ من نفسه فقال : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي** ﴾ (طه:٩٦) ليظهر تمام خطئه ، وأنها نفسه التي حسّنت الأمر له ، تواضعًا لموسى الموحى من عند ربه ، والذي عصمه الله من الخطأ في الشرائع كسائر الأنبياء ، بينما يُخطِئ السامري ؛ لأن نفسه ليست معصومة ، فيكون بهذا قد نسب الخطأ إلى بشرية الإنسان ونفسه الأمارة بالسوء لعله أن يرحمه ، فلسان حاله : «قد قويت لي نفسي ، فجعلَتْه لي سَوْلاً وإرْبًا حتى فعلتُه ، وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إسرائيل إلا في حد ، أو وحي ، فعاقبة باجتهاد نفسه ، بأن أبعده ، ونحّاه عن الناس ، وأمر بني إسرائيل باجتنابه ، . . . وعلّمه مع ذلك ، وجعل له أن يقول مدة حياته : لا مماسّة ولا أذيّة»[2] ، فكان تصرّف موسى عليه السلام معه بالعقوبة مباشرة ، ليس بمحاجة كالتي دارت بينه وبين قومه .

* * *

٢- الخضر :

عندما خاطب نبي الله موسى عليه السلام الخضر بعد أن أنكر عليه للمرة الثانية أفعاله التي بدت لنبي الله لا مسوّغَ لها ، جاء بخطاب رقيق لين ، «وعدل إلى المبادرة إلى ما تطمئن إليه نفس صاحبه ، فقد جعل له أن لا يصاحبه

(١، ٢) المحرر الوجيز : ٤/٦١ .

بعده»[١] ، فقال : ﴿ **قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا** ﴾ (الكهف:٧٦) ، كان اختيار اللفظ القرآني معبّرًا أشد التعبير عن أسف موسى عليه السلام للخضر واعترافه له واعتذاره بين يديه [٢] ، فألفاظ الاعتراف كلها دالةٌ على الترفّق والأدب : ﴿ **إِن سَأَلْتُكَ** ﴾ ، ﴿ **عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا** ﴾، ﴿ **فَلَا تُصَاحِبْنِي** ﴾ ، ﴿ **قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا** ﴾ .

- ﴿ **إِن سَأَلْتُكَ** ﴾ فالسؤال والاستفسار يكون في الغالب من الأقل علمًا تجاه الأكثر علمًا ، وهذا تواضع من موسى عليه السلام وهو النبي للخضر ليأخذ مما علمه الله .
- ﴿ **عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا** ﴾ : لمّا أراد موسى عليه السلام استمرار الصحبة ومغفرة هذه المرة من النسيان ، أكّد قوله بذكر هذه الكلمة لتغتفر له هذه المرة[٣] .
- ﴿ **فَلَا تُصَاحِبْنِي** ﴾ لم يقل : ففارقني ، لأن فيه أمرًا ، والمفارقة ليس بمرغوبة من موسى عليه السلام ، وليس من أدب الطالب أن يستعملها مع من علّمه ، فوجه إلى معنى المصاحبة لطول العهد الذي كان بينه وبين الخضر ، والملازمة في الرحلات .
- ﴿ **قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا** ﴾ : «أشار إلى أن ما وقع منه من الإخلال بالشرط من أعظم الخوارق التي اضطر إليها ، فقال ﴿ **مِن لَّدُنِّي عُذْرًا** ﴾ باعتراضي مرتين واحتمالك لي فيهما ، وقد أخبرني الله بحسن حالك في غزارة علمك»[٤] .

و أما كلمة (لدن) واختيارها تحديدًا في سياق الاعتراف للمخاطب الذي هو بمثابة المعلم ففيها مزيد تأمّل! إذ «وردت كلمة (لدن) الظرفية في القرآن

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١٦/٥ .

(٢) ينظر : ص ٢٢٥ .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٥/٢٣٦ .

(٤) نظم الدرر ، البقاعي : ١٢/١١٣ .

الكريم سبع عشرة مرة ، كلها في الرحمة والحنان والخير واللين ونحوه ، وهو استعمال قريب لمعنى الليونة ، وأحيانًا لمعنى التلبُّث وهو استعمال طريف ، أعني إكساء معنى (لدن) الظرفية معنى اللدونة . . . ، وقد قال موسى للرجل الصالح ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ (الكهف:٧٦) ولم يأت بعند وهي هنا كما تفيد الظرفية ، تفيد معنى التمكث والتلبث ، وليس في (عند) هذا المعنى فكأنه قال : قد بلغت العذر في تمكثك وصبرك علي ، وتلبثك على إلحاحي في السؤال ، وهو استعمال رفيع . . .فهي أبلغ من (عند) ؛ لأنها استعملت في القرآن الكريم في خصوصيات الألطاف ، والتعليم ، والرحمة ، والإلهية »[(١)].

فما أجمل أن يتحلّى كل مخاطِبٍ لمن يعلّمه بهذا الأدب الجم الذي نستوحيه من قصة موسى عليه السلام .

٣- فرعون :

اعترف السحرة في حضرته بخطئهم ، وسجدوا لله إذعانًا ببدء عهد جديد ، وكان اعترافهم يُظهر نقطة تحوّل في تلك الشخصيات التي تهتم بالأجر والمكانة والحظوة عند الملك ، وتستميت لإرضائه ، وبين أولئك الذين صاروا عبيدًا لله لا يهمهم من سخط إذا رضي سبحانه وتعالى عنهم .

فقد كان خطابهم الأول لفرعون قبل بدء التحدي بينهم وبين موسى عليه السلام ، ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾ (الأعراف:١١٣) ، وبعدما خرّوا لله سجّداً قالوا له : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٥،١٢٦) ، ولم يهتمّوا بالتهديدات بالصلب والقتل التي جاءتهم ممن حرصوا على إرضائه بسحرهم وطلبوا منه أجْرًا على فعلهم ، تحوّلوا بعد لحظة الاعتراف إلى سماء الروح

---

(١) الخصائص : ٢٧٢/٣ ، معاني النحو ، السامرائي : ١٥/٢ .

المحلّقة التي لا تأبه بمن في الأرض ورغباته المضنية ، فحُكي عنهم في سورة طه : ﴿ **قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ** ﴾ (طه:٧٢،٧٣) ، وفي سورة الشعراء : ﴿ **قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الشعراء: ٥٠،٥١) .

فوثّقوا لحظة الإيمان بلحظة الانتقال التام ممن كان محور اهتمامهم ، فما عادوا يرونه شيئًا! ، فمن مراعاة لمكانة المخاطب وتوقيره التي كانوا عليها في سحرهم انتقلوا إلى مراعاة إذلال المخاطب ، وأن تصل إليه رسالة مهمة أرادوا إيصالها : أنك لست بشيء يا فرعون ، أن ما قمنا به من السحر أنت أكرهتنا عليه ، والآن قد وصلنا الحق فلن تكون حائلاً بيننا وبينه ، وحُكي ما في أنفسهم في أبلغ صورة تبيّن ذلك ، منها :

- نفي المرجعية له وطلب الرضا منه بقولهم : ﴿ **إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ** ﴾ ، وزيادة : ﴿ **لَا ضَيْرَ** ﴾ في سورة الشعراء ، تظهر استخفافهم بفرعون وأفعاله ، فعندما دخل الإيمان بصدق إلى قلوبهم ، صارت تهديدات فرعون لذيذة ممتزجة بنكهة الصبر على الأذى الذي لم يجربوه ، ففي قمة غيظ فرعون ممن كانوا تحت يديه وجندًا له وهو يراهم يتبعون عدوه ، وحَرِّ ما يلقى ممن جاء بهم ليبرهنوا كذب موسى عليه السلام فإذ هم صاروا معه ، تراهم في برد اليقين بما عند الله ووعده ، ففرعون يشتعل غيظًا وهم يزيدونه ، و« أرادوا أنه لا ضرر علينا في ذلك ، بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله ، من تكفير الخطايا والثواب العظيم ، مع الأعواض الكثيرة ، أو لا ضير علينا في قتلك ، إذ إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ، ويرجو رحمته ، لما رزقنا من السبق إلى الإيمان »...

فقد كانوا أول جماعة مؤمنة من أهل زمانهم ، أو من رعية فرعون ، أو من أهل المشهد»[1] ، يؤيد هذا تتمة الآيات من سورة الشعراء : ﴿ **إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

- التعبير بـ(الانقلاب) دون غيره يقفنا على حالهم نحو فرعون ، « فنستشف مع هذه الكلمة أقصى غايات التغيّر ، فالتعبير بالانقلاب يدل على سرعة حركة تجسّم تغيّر رأي السحرة بفرعون ، والتماسهم حبل ربهم»[2] ، وهذا التغير تجاهه الذي هو وليد لحظة ، كان باديًا في اعترافهم جملةً وتفصيلاً ، فقد انقلبت قلوبهم من الكفر إلى الإيمان فانقلب معه احترامهم لفرعون فأرادوا أن يثبتوا له أن ليست نهاية أمرهم بين يديه ، فالرجوع والأمر لله مهما أرعد وأزبد ، وفي هذا تحقيرٌ لشأنه ، وإذلالٌ له ، ليعرف قيمة نفسه .
- توجيه الإهانة لمن كان سيّدهم بقولهم : ﴿ **لَن نُّؤْثِرَكَ** ﴾ ، وكيف يحتملها من كان لهم آمرًا ناهيًا ، صار لهم كصنمٍ يتحدّث ويهدد ويتوعّد دون أن يحرّك هذا من مشاعرهم شيئًا ، وهنا ارتفعت شخصياتهم المؤمنة السامية منذ لحظة إعلان الإيمان عن إرضاء ذلك المخاطب الذي حرصوا قبل بدئهم أن يكونوا بغلبتهم مقربين له ، بل ابتدؤوا إلقاءهم باسمه تبرّكًا إذ قالوا : ﴿ **فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ** ﴾ (الشعراء:٤٤) ، أصبح القرب الذي يرجون هو قربهم من الله جل جلاله ، وهذا لا شك يغيظ من يخاطبون وهو من يدعي أنه الرب الأعلى ، لكن خطابهم له أصبح كخطاب أدنى وأوضع وضيع ، لا خطاب تشريف كما كانوا يفعلون قبل إيمانهم .

---

(١) الكشاف ، الزمخشري : ٣/٣١٣ .

(٢) جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف : ١٥١ .

- كشف السحرة أمام فرعون ظنهم به ، مع وصف وضعهم الشعوري والانفعالي : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٦) ، فتأمّل « جمال ﴿ أَفْرِغْ ﴾ حيث يكمن في تشبيه نفوسهم بالأوعية الفارغة الظامئة إلى الصبر الذي يسكب بروية ليس فيها قوة الصب ، وكذلك تجسّم كلمة (منقلبون) في قوة حركتها سرعة الانقلاب ، واتجاه السحرة إلى الخالق اتجاها كاملاً يعبر عنه الانقلاب ، وليس فيه ذبذبة »[(١)] ، وهذا الشعور عندما يُنقل أمام فرعون يزداد به غيظًا فهو يشعر بمدى استقبالهم في لهفة لدينهم الحق وأن ما كان معه كان ماضيًا من الضياع والضلال .
- القسم بالله وحده[(٢)] في طيات اعترافهم أمام من يدعي الربوبية فيُعلنون التخلي عنه ، وعن التبعة إليه ، وعميق الإيمان بمن فطرهم فيقولون : ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ ، فجعلوا فرعون حقيراً لا يستحق أن يؤثَر فيُختار الميل لرضاه والسلامة من تهديده ، والانحياز لحزبه مقابل المعجزة التي أيقنوا صحتها[(٣)] .
- قدّموا عدم إيثارهم له في قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ على قوله : ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ ولعل في هذا التقديم مراعاة لإذلال مخاطبهم المتجبر المستعلي ؛ ليعلم أنه لا يستحق وليس له من العلو شيئًا ، « ولأن ما في ضمنه آية عقلية نظرية ، وما شاهدوه آية حسية ظاهرة ، وإيراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم ؛ للإشعار بعلة الحكم ، فإن خلقه تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم إيثارهم له »[(٤)] .

---

(١) جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف : ١٠٣ .
(٢) ينظر : فتح القدير ، الشوكاني : ٤٤٤/٣ ، وينظر : معاني القرآن ، الفراء :١٨٧/٢ .
(٣) ينظر : البحر المحيط ، أبو حيان : ٣٥٩/٧ .
(٤) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٢٩/٦ .



- التعبير بـ ﴿ فَطَرَنَا ﴾ دون غيرها استشعارٌ من السحرة بضعفهم أمام الله واستسلامهم ، وإبطال السحر الذي يظنون أنهم به قادرون على إنشاء أو إخراج شيء من العدم كما يفعل السحرة ، فلفتوا أنظار الناس في ذلك المشهد إلى أن من آمنا به هو المستحق للعبادة والخضوع ، وهو مُنشِؤنا من العدم ، وهو من سنذِل وننكسر ونطلب رضاه لا أنت يافرعون .
- عدم الاكتراث بفعله وتهديده ، فتتعاضد الكلمات لتؤكد ذلك : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ ، فقد حرصوا على إيصال هذا المعنى له ، وإسقاط قدره بوجوه ، منها :
- ﴿ فَٱقْضِ ﴾ ، توجيه الخطاب بفعل الأمر لفرعون بعد بسط حديثهم عن قوة اليقين بالله التي وصلوا إليها ؛ إشعارٌ بضعف فرعون وضعف قراراته ، مع إظهار التحدّي له بهذه الصيغة ، ولسان حالهم : افعل ما شئت .
- ﴿ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ يلحظ في هذه الجملة لا مبالاتهم بقضائه أيًّا يكون ، فالحرف (ما) فيه استهانة بما سيخلص إليه أمر قضاء فرعون واستهانة به هو ، فالاستهانة بفعل شخص استهانة به .
- ذكر الضمير ﴿ أَنتَ ﴾ فيه إعادة توجيه الحديث إليه ولفت انتباهه مجدّدًا ، وإن كان السياق جليّاً أن الخطاب موجّهٌ إليه ، ليكون ذلك تنبيهًا له ولسان حالهم : نعم أنت من نخاطب ، بعد فورة الغضب التي سيطرت عليه ربما أصابه شيء من الذهول أو عدم التركيز من الصدمة عندما شعر أنه يفقد سحرته ؛ فأعادوا له الخطاب ليعلم أنهم على وعي بمن يخاطبون .
- إيثار التعبير بالمصدر ﴿ قَاضٍ ﴾ على الفعل ، مع أن القضاء لم يحدث بعد ؛ دلالة جبروت فرعون وأنه إذا هدّد فقد وقع تهديده ؛ لأن تحت يديه من ينفذ بسرعة لمجرد أمره ، وهذا من جهة اعترافهم يزيد في قوّتهم ، إذ هم على علم بكيده وتجبّره ومع ذلك لم يردّهم هذا العلم عن قرارهم باختيار الإيمان على اتباعه .



- الضمير ﴿ أَنتَ ﴾ يوحي بحطّهم من شأنه ، وتقليلهم من قدره ، فما هكذا يخاطب الملوك أو أصحاب المكانة ، وإنما كان خطابهم بـ(فرعون) قبل إيمانهم لرفعة قدره ، فهي تعني باللغة المصرية القديمة (البيت الكبير) أو (البيت العظيم) توقيرًا واحترامًا[1] ، فتغيّر الآن في نظرهم وصار مخاطبًا مجهولاً ، وكأنه ما عاد يُعرف .
- زيادة السحرة من صدمة مخاطَبهم ، بأن السّحر الذي مارسوا منه ألوانًا وحرصوا على إتقانه ، لم يكن عن قناعة ورغبة ، وقد كان جزءًا من تسلّطه عليهم ، «وكان فرعون قديمًا يأخذ ولدان الناس بتعليم السحر ، ويجبرهم على ذلك ، فأشار السحرة لهذا»[2]، فقالوا : ﴿ وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ (طه:٧٣) ، وقد خصّوا إكراههم على فعل السحر من قِبله برغم دخوله في عموم خطاياهم ؛ «إظهارًا لغاية نفرتهم عنه»[3] ، فتخيّل قدر خيبة الأمل التي امتلأ بها فرعون من اعتراف السحرة ! والمعنى الذي أرادوا إيصاله له فازداد به غيظًا!
- التذييل البديع للاعتراف يكشف عن ختام التوجه الكامل لله عز وجل ، وترك فرعون مع غضبه وأعوانه رهينًا ، إذ قالوا : ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ ، كما جاء التنكير في ﴿ خَيۡرٞ ﴾ ليزيد من غضب فرعون ، فما نعبده ونسجد له خيرٌ منك في ذاته[4] ، وخير منك ثواباً ، وعذابه أبقى من عذابك فهو في الدنيا والآخرة ، بخلاف أمرك الذي لا يتعدى هواك في الدنيا[5] ، «وكأن هذا الكلام من السحرة جواب منهم على قوله : ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴾ (طه:٧١)»[6] .

---

(١) فرعون : هو تعريب لـ(برعا) التي كانت تطلق زمن موسى عليه السلام على ملوك مصر ، ينظر : من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن ، محمود أبو سعدة : ٤١/٢ .
(٢) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٥٣/٤ .
(٣، ٤) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود : ٢٩/٦ ، ينظر : ص ٥١٢ .
(٥) ينظر : فتح القدير ، الشوكاني : ٤٤٥/٣ .
(٦) تيسير الكريم الرحمن ، السعدي : ٥٠٨ .

ث ـ قصة سليمان عليه السلام :

سليمان عليه السلام :

في قصة سليمان عليه السلام كان اعتراف بلقيس منكسِرًا تخاطب به ربها ، عندما قالت في الصرح : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤)، لكن لابد أن لا نغفل وجود سليمان عليه السلام في مكان اعترافها ، لذلك أفردْتُ اعترافها في قصة سليمان عليه السلام وليس في مخاطبةِ الله عزّ وجل ، فعندما دخلتْ الصرح ورأتْ المشابهة بين عرشها وما هو بين عينيها ، فقيل لها : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ (النمل:٤٢) ، قالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ (النمل:٤٢) ، «شبّهوا عليها فشبّهت عليهم ، ولو قالوا : هذا عرشك ، لقالت : نعم»[1] ، فقد حصل تنكير لعرشها كما ورد في حكاية القصة في القرآن الكريم فتغيّر وضعه وستر بعضه[2] ، ثم لما اعترفت بظلمها لنفسها آخر الأمر عندما تبيّن لها الحق ، عَطفَتْ اعترافها لله تعالى ـ بظلمها لنفسها ـ مع اختيارها لطريقها الجديد باتباع دين سليمان عليه السلام ، وفي هذا الانقياد والإعلان ما يهم سليمان عليه السلام ، فهو عندما أرسل إليها كتابه أوّلاً أمرها أن تأتي وقومها إليه مسلمين ، قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل:٢٩-٣١) ، فبدت مراعاتها لخطاب سليمان عليه السلام بالآتي :

- إعلانها انقيادها لحظة وجودها في الصرح أمام سليمان عليه السلام وملئِه ، إظهارًا منها للاستجابة لخطابه ، وتوقيراً لأمر النبي الكريم الذي ينبغي أن يوَقّر ، وليس فقط اختيارها الإسلام دينًا ، وهو نبي الله المرسل من عند ربه ، فما كانت طاعته لتكون تخييراً ، وطاعة النبي هي مطلب للوصول للوحي المنزل إليه والاستجابة التامة .

(١،٢) المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٤/٢٦١ .

- اعترافٌ منها أن تنكير العرش الذي قام به جند النبي ﷺ بأمره كان له بالغ الأثر في نفسها واعتقادها ، تقديرًا لصنيع النبي عليه السلام ، ودليل ذلك أنها عندما علمت جهلها وأن هذا الصرح صنع من قوارير لا كما ظنته لجّة فوْرًا أسلمت ، قال تعالى : ﴿ **قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ** ﴾ (النمل:٤٤) .
- ربط إسلامها بذكر اسم سليمان عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (النمل:٤٤) لا يوحي فقط باستجابتها له ، وانقيادها لأمره الأول ، إنما على النهج الذي أوحاه الله لنبيّه سليمان عليه السلام ، وأن يكون إسلامها صحيحًا كإسلامه ، وهنا يتضح أمر مراعاة مخاطبتها لسليمان عليه السلام حال الاعتراف ، مع ما يعكس اسمه من معنًى في استسلامها للدين الحق ، « فالقرآن في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ يجيء عقب (سليمان) بالمرادف القريب الذي يجلّي لك المعنى المخصوص الذي يُفهمه القرآن من هذا الاسم العلم من بين مختلف معاني الجذر (سَلِم) ، فيقول : ﴿ **إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ** ﴾ (النمل:٣٠،٣١) ، يعني جيئوني سلمًا سالمين »[1] .

* * *

٢- النفس :

جاء الاعتراف لها في ستة مواضع في الشواهد ، الموضع الأول حسب ترتيبها في المصحف كان في الدنيا :

١- في قول الله تبارك وتعالى حكايةً عن قابيل لمّا قتل أخاه : ﴿ **يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي** ﴾ (المائدة: ٣١).

---

(١) من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن ، محمود أبو سعدة :٢/١٩١ .

والمواضع المتبقّية في الآخرة :

٢- قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴾ (الفرقان:٢٧-٢٩) .

٣- وقوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر:٥٦-٥٨) .

٤- وقوله تعالى : ﴿ . . . . وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ (النبأ: ٤٠) .

٥- وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ (الحاقة:٢٥-٢٩) .

٦- وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ (الفجر:٢٤) .

عندما يخاطب الإنسان نفسه ، يكون صريحًا صادقًا ، لا يخشى ظنًّا من أحد ، ولا يبحث عن شفاعة ، أو نصرة ، بل يبحث عن مسوّغٍ لفعله ، ويعترف لِيُصلِح زلَله ، سواءً كان الإصلاح ممكِنًا أم لا فمجرّد الاعتراف صدقٌ مع النفس وتخلّص من ألم الكتمان ، فهو يصدُق ليكون إلى الأفضل خُلُقًا وعقْلاً ، فاعتراف قابيل بقتل أخيه فيه يتّضح هذا المعنى ، حيث وقف مكتوف اليدين كيف يواري سوءة أخيه حتى بعث الله الغراب فأراه بطريقة عمليّة كيفيّة مواراة السوءة فما كان منه إلا أن نقل حسراته وآهاته لِذَاتِه ، وانكشف أمام نفسه : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ ، وكذا الظالم لنفسه عندما يرى هول القيامة وصُحُفًا لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها .

ارتبطت الاعترافات بدلائل مراعاة المخاطب ، ومنها :

- التعبير بـ(الويل) في آيتين ، قوله تعالى : ﴿ **يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلاً** ﴾ ، الدعاء على نفسه بالويل يناسب تلك النفس التي تكبّرت وتجرّأت على حرمات الله تعالى فهو في أشد حالات الندم فهو يهينها ويقسو عليها كما قست عليه وجعلت منه الآن إنسانًا ذليلاً .

- النداء مع التصريح بـ(يا) ورفع الصوت الذي توحي به الألف المقصورة المنطلقة من نفس كسيرة ، نفس مقصّرة ، في آخر الكلمتين : ﴿ **يَٰوَيۡلَتَىٰ** ﴾ ، ﴿ **يَٰلَيۡتَنِي** ﴾ [(١)] نفس تسترجع التقصير فلا تهدأ ، وهكذا حينما يكون الإنسان شفّافًا مع ذاته ، ينطلق بما ينفّس عن خاطره ، ويخرج نفثاته حرّى فتكون بادية على انفعالاته ، فمخاطبة النفس التي هي جزءٌ من شخصيته ، مخاطبةٌ لصامت ، فهي لن تتحدّث فتنقذه من موقف ، ولن تعبّر عن أسفٍ أو ندمٍ ، إنما هي حسرات متراكمة لمخاطبٍ لا ينطق! فناسب أن يأتي النداء بهذه الصورة من فرط القهر ، فيعود على الإنسان بمواجع مضاعفة لا يخففها شيء ، ولا يجد أمام اعترافاته حينها إلا رجع الصدى .

- التمني بـ(ليت) فهي لحظة وضوح ناسبها التمني الصريح الواضح المتكرر ، الذي ورد ست مرات في مجموع الآيات ، فغلبة التمني في موقف الإنسان فيه أحوج ما يكون للتعلّق بواقع ينجيه دلالة على انعدام كل ما يمكن أن يكون سببًا للنجاة ، نسأل الله السلامة .

- تهميش الإنسان ـ لحظة الاعتراف ـ لنفسه تمامًا ، فلا يكاد يرى لها أي قدر تستحق به أن تكون شيئًا ، فتأمّل الألفاظ التي وردت في الآيات : العجز في : ﴿ **أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ** ﴾ (المائدة:٣١) ، الحسرة

---

(١) ينظر : ص ١٧٤، ١٩١ .



والتفريط في قوله تعالى : ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٥٦) ، العض على كلتي اليدين في قوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ ﴾ (الفرقان:٢٧) ، تمني أن تكون نفسه ترابًا في قوله تعالى : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ (النبأ:٤٠) ، تمني أن موتته كانت القاضية عليه في قوله تعالى : ﴿ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ (الحاقة:٢٧) ، تسمية العمل للآخرة بـ(التقديم للحياة) في قوله تعالى : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر:٢٤).

- تعلّق ضمير المفرد بخطاب الإنسان لنفسه ، فكل آيات الاعتراف للنفس لم تكن بضمير الجمع ، وهذا يهب الخطاب صرامةً وتحديدًا دقيقًا في توجيه الخطاب المتحسّر مما يجعل قارئ القرآن المتدبّر في أجواء هذه الملامة عندما يقرأ وهذا أدعى للتأثير في نفس كلّ مقصّر ، فهو يقرأ : ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ وغيرها من الآيات فيخاطب بها نفسه تلك اللحظة قبل ورودها ذاك المورد لعلها تتعظ قبل الوصول إليه فيُؤمنّها رب العزة جل جلاله .
- الإفراد في الآيات لافِتٌ ودقيق ، ﴿ ٱلظَّالِمُ ﴾ ، ﴿ ٱلۡكَافِرُ ﴾ ، ﴿ نَفۡسٌ ﴾ ، ﴿ مَنۡ أُوتِيَ ﴾ ، فالخطاب يوجهه كل فرد من هؤلاء مع نفسه ، وليست كل الأنفس إنما هي قلة منها «للإشارة إلى أن الشأن أن تستجيب الأنفس ولا يتوقف إلا الأقل المعبّر عنه بالإفراد» [1] .

ومن نتائج هذا المبحث ما يأتي :

ظهور أثر المخاطَب في اختيار كلمات الاعتراف عند المعترِف من ثلاثة جوانب ، شكّلت أغراضًا للاعتراف :

١- توقير المخاطب وإجلاله ، وكان هذا المخاطب رفيع القدر ، صاحب المكانة ، مثل اعترافات الأنبياء لربهم ، واعتراف فتى لموسى عليه السلام ،

---

(١) (الزمر ـ محمد) وعلاقتهما بآل حم ، دكتور محمد أبو موسى : ٣٦٠ .

واعتراف امرأة العزيز والنسوة للملك وغيرها من الاعترافات ، وهو الكثير الغالب ، وامتاز بالآتي :

- امتاز بالصراحة والوضوح في الإتيان بالزلل .
- المباشَرة في الاعتراف عند الندم دون تأخير .
- الحرص على عدم تعتيم الحقيقة .

وأبرز مثال فيه قصة امرأة العزيز واعترافها للملك قال تعالى : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

(يوسف: ٥١).

٢- إذلال المخاطب والانتقاص من قدره ، وهو اعتراف سحرة فرعون لفرعون ، وامتاز بالآتي :

- دقة العبارة التي تقصد إلى قهر المخاطب وغيظه وإهانته .
- عدم الاكتراث بشخصه ثم عدم الاهتمام بتهديده .
- بسط الحديث في إظهار مكانة عدو هذا المخاطب .

وذلك في قول الله جل وعلا : ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه: ٧٢،٧٣) .

٣- الشكوى للمخاطب ، والتنفيس عن الخاطر مع المعاتبة ، وقد جاء في مقام الاعتراف للنفس ، ومنه اعتراف قابيل في الدنيا ، واعترافات المفرطين في حق الله يوم القيامة ، وامتاز هذا المقام بالآتي :

- نداء الحسرة والويل .
- تمنّي ورود أسباب النجاة بعد حصول الهلكة .

- إيقاع الألم بعبارات قويّة من حيث معناها ، وعمق أثرها في النفس .

ومن ذلك قول الله تعالى عن قابيل : ﴿ **قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ** ﴾ (المائدة: ٣١).

وعند التأمل في خصوصية مقامات الخطاب وتأثيرها في الاعتراف ، يظهر الآتي :

- قوة أثر المخاطب في تفرد الكلمة القرآنية في الصياغة مراعاةً له ، ومن ذلك قول الملائكة لربهم جل وعلا : ﴿ **قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ (البقرة:٣٢) ، فالتعبير بـ ﴿ **سُبۡحَٰنَكَ** ﴾ لله سبحانه وتعالى وهو من ينبغي التسبيح له ، وتنزيهه عن أخطاء البشر ، فيها توقير لله تبارك وتعالى ، وعندما يوقن المؤمن بقدر ربه يكون ذلك أدعى في تحقيق مطلوبه .

- توجيه الاعتراف لكل مخاطب بالطريقة التي تناسب شخصيته ومقامه ، وتوصل المعترِف للهدف من اعترافه ، ومن ذلك اعتراف فتى موسى عليه السلام إليه : ﴿ **قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا** ﴾ (الكهف:٦٣)، فهذا الأسلوب من الاستفهام وحكاية القصة العجيبة لموسى عليه السلام ومشاركته للحدث وهو صاحب المقام ؛ فيه امتصاص لغضبه ومراعاة لتعبه ، وقد حصل للفتى ما أراده ؛ فما كان من موسى عليه السلام إلا أن قال : ﴿ **ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ** ﴾ (الكهف:٦٤) .

* * *

الخاتمة

بسعدٍ وحزنٍ أطرق باب الختام لأيام معايشة مع آيات فتّقت في العقل الكثير ، ولن تنتهي بإذن الله مدارسةٌ لكتاب الله ، لكنها نهاية الإبحار ، وإيذانُ الوصول ، ومن وُفّق لدراسةٍ قرآنيةٍ حريٌّ به أن يحمد الله كثيرًا على هذا الفضل والشرف العظيم بصحبة خير كلام ، فالحمد لله ، الحمد لله ، ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ** ﴾ (الأعراف:٤٣).

أما بعد ، فقد كانت هذه الأوراق مجتمعةً لتحقيق كتابٍ معنْونٍ بـ (بلاغة القرآن في مقامات الاعتراف بالزلل) ، وهي معالمُ يسيرة في مجَال بلاغة القرآن ، إذ الإبحار في كلام الحق جل وعلا رحلةٌ بلا ساحل سَعةً وجمالاً وفضلاً ، ورجائي أن أكون قد وُفِّقتُ بها إلى ما يرضي الله ، وإلى تحقيق الهدف من الدراسة ، فينفع الله بها القاصي والداني .

وهنا جاء وقت التقاط نتائج البحث التي تبدّت بعد هذه الرحلة الماتعة ، والدراسة الجادة إن شاء الله ، فكانت كالتالي :

- سمو الاعتراف بالزلل بوصفه موضوعًا ، وقيمة حياتيّة تُربّى عليها الأجيال ، ودراسة بلاغية لأساليبه وأسراره .
- جاء الاعتراف في القرآن بصيغ متعددة كشفت بلاغة النظم الحكيم وتفرّد كلماته .
- غلبة أسلوب التصريح في الآيات ليُنبه على إيصال المعنى الواضح دون تعتيمٍ للمخاطب .
- لجوء المعترف للتلميح يكون لسبب خاصٍ به ، وقد يكون أبلغ من التصريح في ظروف معيّنة .

- أظهرت الدراسة أن الإشارة قد تكون أبلغ في أحيان كثيرة من العبارة ، لاسيما والموقف يستدعي اختيار طريقة دون أخرى ليكون الحدث بليغًا بحق .
- تبيّنت شمولية أسلوب الاعتراف بالزلل معبّرًا عن ضعف الإنسان عندما يشترك القول والإشارة في التعبير .
- تميز تعبير المقصرين بالقول والإشارة معاً في المواقف بقوة دلالته على الاعتراف بالزلل ، وكان لكل حركة تناسقها مع القول والمقام بتصوير معجز بديع .
- اتخاذ لغة الجسد والإشارات المنطلقة منها أشكالاً متعددة للتعبير ، وباستعمال أكثر من عضو ، كحركة الرأس والفم ، واليد ، والجسد كله ، وهذا يدل على اتساع دائرة التواصل بين البشر بشتى الأساليب مما يجعل ارتباط حركة معينة بالاعتراف غير دقيق ، وإنما يساهم مع سلسلة من القرائن في الدلالة عليه .
- استقلال حركات الجسد في التعبير في الآيات القرآنية ، واشتراكها حينًا ، ولكل من الحالتين بلاغته في الموقف المحكي .
- تميّزت الألفاظ في سياقات الآخرة ، وفي سياقات الدنيا بخصوصية لكل مقام .
- ظهرت الفروق في المحاسبة والمعاتبة في سياقات الدنيا ، ومن ثَمّ تتبعها صيغ الاعتراف متضافرة لتجلّي حقيقة النفس عندما تكون في الموقفين ببلاغة متناهية .
- تحققّت البلاغة في الدراسة بصورة تكاملية جمعت بين عناصر لها تأثيرها الذي لا يخفى على الصيغة ، ليشكّل (مقامات) هذا الاعتراف ، فشكّلت مؤثرات داخلية هي عناصر أساسية من داخل الاعتراف ، وهي : شخصية

المعترف ، وباعثه ، ونتيجة اعترافه ، ومؤثرات خارجية هي خصائص لأساليب الاعتراف ، وهي : الموضوع المعترف به ، والزمان والمكان ، والمخاطب المراد الاعتراف له .

- ظهرت العلاقة بين الشخصية واعترافها من حيث الإيمان والكفر ، ومن حيث رجاحة العقل والفطنة ، والاتزان والهدوء وغيرها من الأوصاف المختصة بالشخصية ، فإن لها ارتباط وثيق مع أسلوب الاعتراف .
- كشف البحث الترابط في التحليل البلاغي بين كتب علوم القرآن والبلاغة وعلم النفس ودراسة الحركات والسكنات التي تصدر من الأشخاص مع دلالاتها في الاعتراف .
- تبيّنت أواصر العلاقة بين الآيات وموضوع الزلل المحكي فيها وبين طريقة اعتراف الشخصيات .
- تجلّت الرابطة بين الاعترافات وبين الأزمنة والأمكنة التي تقال فيها ، فقد تكون الظروف المحيطة في المكان أو الزمان مما يُلزم الإنسان بالاعتراف وإن لم تخترْ نفسه ذلك .
- ربطت الدراسة بين تعريف البلاغة : (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) وبين واقع الاعتراف ومطابقة الحال في مقامات عدة : منها السياق ، والزمان والمكان ، والموضوع ، والمخاطب ، فكل واحدة من هذه المقامات كانت أحوالاً روعيَت عند الاعتراف .
- تجلّى في هذه الدراسة وقع المخاطب على المعترف وأثره في تخيّر أسلوب الاعتراف ، مع التفاوت بين تقدير المعترِف للمخاطب أو إهانته وتعمّد ذلك .
- برزت الظواهر البلاغية التي أخذت طابِعًا خاصًّا بكل موضوع من موضوعات الاعتراف ، لتكون أشبه بقواعد يُمكن لكل نادم يودّ الاعتراف بالزلل أن يعود إليها .



- أكّدت الدراسة على اشتراك الجوارح في التعبير عن عِظم الذنب ، مع شعور المعترف بذلك أو عدمه ، فالإحساس بالذنب ولحظة الاعتراف تجعل كل شيء في الجسد ينطق بلغته .
- ظهر الاعتراف في أساليب الحوار وقصص الأنبياء عليهم السلام بشمولية وتفصيل أغنى البحث من جوانب موضوعية وبلاغية .
- تعرّت بعض الشخصيات من مظاهر الندم عند الاعتراف بالذنب وإنما ارتدت لباس المعترف المستكبر لا الذي يكسوه الحياء من فعلته ، وهذا نوع من الاعتراف بالزلل كشفت عنه الدراسة .
- دراسة الشخصية لتحليل السلوك الصادر من الإنسان قولاً أو فعلاً يبرز كثيرًا من مبرّرات هذا السلوك ، ويكشف عن بواعثه ، وأهدافه ، ونتائجه .
- وبعد عرض أهم وأبرز النتائج من البحث أشارك الباحثين والمهتمّين في مقترحاتٍ وتوصياتٍ أختم بها هذه الخاتمة :

١- ربط علم النفس مع علم البلاغة فيما يتعلّق بتعابير الإنسان اللفظية والصامتة على حد سواء ، وأبعاد الشخصية مع أساليب الكلام ؛ فقد كنتُ بحاجة إلى مزيد من الكتب التي تتحدّث عن هذه الرابطة فلم أجد ما يشبِع بحثي إلا القليل بلغات أجنبية مع صعوبة الانسجام بين دقة الترجمة وأسلمة المعلومات ، مع الحفاظ على الوقت المخصص للبحث .

٢- إعادة تأمل قصص الأنبياء وما تحمله من جوانب بلاغية أو موضوعية مشتركة لاستخراج موضوعات تميّز الأبحاث على كافة التخصصات .

٣- اشتراك أكثر من علم في رسالة بحثية واحدة بما يعزز سعة الاطلاع ، وينوّر آفاق للباحث لم تكن في الحسبان ، لاسيما بعض العلوم التي لا تنفصل كاللغة العربية وعلوم القرآن وعلوم الحديث والسنة .

٤- تأصيل المفردات اللغوية من كتب اللغة مع حصر ورودها في القرآن ودراسة خصائصها وسياقات آياتها ، لتشكّل موضوعات لامعة متميّزة لرسائل بلاغية .



٥- اهتمام المختصين في مجال التربية بفرائد مثل هذه الموضوعات ومخرجاتها سيكوّن جيلاً إسلاميًّا مع حصيلة قرآنية من دراسات نابعة من منبعنا الأصيل وهو القرآن العظيم بما يحقق الهدف الأسمى من إنـزالـه : ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (ص:٢٩).

٦- ترجمة الدراسات البلاغية التي تتحدّث عن أدب الخطاب وطرق التعبير إلى لغات أجنبية من قبل المختصين سيساهم في نشر قيم الدين الحنيف للعالم ، ثم دخول أفواج منهم إلى دين الله بتوفيقه وعونه .

٧- الدراسة الاستقرائية لموضوعات البلاغة في القرآن ستجعل المعلومات والنتائج المستنبطة منها في غاية الدقة والوضوح ، بعكس الدراسة الانتقائية مهما كانت صعوبة الأمر ، فالله عز وجل يقول : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ (القمر:١٧) .

٨- النظر للبلاغة بتذوّق وشمولية ويسر خارج دائرة المصطلح البلاغي بما يتفق مع عمقها وحلاوتها ، ولا يخِل بالمصطلحات وإنما يعطي البلاغة جـوانـب متميّزة ربـمـا غابت في كثير من الدراسات البلاغية القرآنية ، كي لا تكون الآيات أمثلة لفنون البلاغة المحفوظة وحسب .

هذا وقد تمّ بحمد الله هذا الجهد فما كان من إحسـان وتيسير وتوفيـق فمـن الله وحده ، وما كان من خطأ فمن نفسي ، وأستغفر الله العظـيم مـن كـل ذنـب وتقصـير ، والحمـد لله رب العـالمين حمـدًا يليـق بجلالـه وعـلائـه ، وتفضّـله ونعمائه ، حمدًا كثيراً حتى يرضى والصلاة والسلام على خاتم النبيين .

للتواصل :

Kordi١٤٠٨@gmail .com



ثبت المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانيًا : كتب التفسير وعلوم القرآن ومصادر أخرى .

- أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه ، عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة الحسين التجارية ـ القاهرة .
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، أحمد بن محمد الدمياطي ، شهاب الدين الشهير بالبنّاء ، تحقيق أنس مهرة ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ .
- الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث ، سامية جابر ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ٢٠١٣م .
- الإتقان في علوم القرآن ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ .
- الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم ، الدكتور محمود موسى حمدان ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي ، أبو حاتم الدارمي ، تحقيق وتخريج وتعليق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .
- أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي ، تحقيق سمير حلبي ، دار الصحابة للتراث ـ طنطا ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- الأدب المفرد ، محمد بن إسماعيل البخاري ، أبو عبد الله ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ .

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني ، المطبعة الكبرى الأميرية ـ مصر ، الطبعة السابعة ١٣٢٣هـ .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي محمد ابن محمد ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
- الأزمنة والأمكنة ، أبو علي أحمد بن محمد الأصفهاني ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .
- أساس البلاغة ، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .
- أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم ، الدكتور الحسين جرنو محمود جلو ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .
- أسرار البلاغة ، أبوبكر عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ـ القاهرة .
- الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية ، الأستاذ الدكتور عبد الله سرحان ، دار الحضارة ـ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ .
- أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط (إن وإذا ولو) ومواقعه في القرآن الكريم ، الدكتور محمود موسى حمدان ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.
- أسلوب الحوار في القرآن الكريم ، إدريس أوهنا ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المملكة المغربية ، دار أبي رقراق ، الطبعة الاولى ١٤٢٦هـ .
- أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجًا ، الدكتور عبد الغني محمد بركة ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .
- أصول الإيمان بالغيب وآثاره ، الدكتورة فوز عبد اللطيف كردي ، دار القاسم ـ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ .
- أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة ، الدكتور حمد العثمان ، مكتبة ابن القيم ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

- أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم ، محمد قوجيل ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ .
- أصول علم النفس ، أحمد عزت راجح ، دار الكاتب العربي ـ القاهرة ، الطبعة السابعة ١٩٦٨م .
- الأصول في النحو ، أبوبكر محمد بن السري النحوي المعروف بابن السراج ، تحقيق عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، دار الفكر ، بيروت ١٤١٥هـ .
- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ، دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن ، الدكتور محمد الأمين الخضري ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية بيانية ، دكتورة عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ .
- إعجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٣٨١هـ .
- إعجاز القرآن ، أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ـ مصر ، الطبعة الخامسة ١٩٩٧م .
- إعراب القرآن وبيانه ، محيي الدين بن أحمد درويش ، دار الإرشاد للشئون الجامعية ـ سورية ، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ .
- إعراب القرآن ، أبو جعفر النحاس ، أحمد بن محمد بن إسماعيل ، تعليق وحاشية عبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .
- إعلام الموقعين عن رب العالمين ، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- آل حم الشورى ـ الزخرف ـ الدخان دراسة في أسرار البيان ، الدكتور محمد محمد أبوموسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ .

● أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبوسعيد عبد الله بن عمر البيضاوي ، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .
● الأوراق قسم أخبار الشعراء ، محمد الصولي ، شركة الأمل ـ القاهرة ١٤٢٥هـ .
● الإيضاح في علوم البلاغة ، محمد بن عبد الرحمن ، أبو المعالي جلال الدين القزويني ، المعروف بخطيب دمشق ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ـ بيروت ، الطبعة الثالثة .
● البحر الزخار ، أبوبكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي المعروف بالبزار ، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله ، عادل بن سعد ، صبري عبد الخالق الشافعي ، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م .
● بحر العلوم ، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .
● البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي ، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر ـ بيروت ١٤٢٠هـ .
● البداية والنهاية ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ، تحقيق علي شيري ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .
● بدائع الفوائد ، محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن القيم الجوزية ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .
● البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، أبو القاسم محمد ابن حمزة الكرماني ، تحقيق دكتور السيد الجميلي ، دار الكتاب للنشر ـ القاهرة .
● البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ .
● بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مجد الدين أبوطاهر الفيروزآبادي ، تحقيق محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة .

- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، عبد الرحمن بن حسن بن حبنَّكة الميداني ، دار القلم ـ دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ .
- بلاغة العطف في القرآن الكريم دراسة أسلوبية ، الدكتورة عفت الشرقاوي ، دار النهضة العربية ـ بيروت ، ١٩٨١م .
- بلاغة القرآن الكريم دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل ، دكتور ظافر بن غرمان العمري ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ .
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، دكتور فاضل صالح السامرائي ، دار عمار ـ عمان ، الطبعة السابعة ١٤٣٢هـ .
- بيان إعجاز القرآن ، أبو سليمان حمد بن محمد بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى ٣٨٨هـ) ، تحقيق محمد خلف الله ، دكتور محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م .
- البيان القرآني ، دكتور محمد رجب البيومي ، الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ، الطبعة الأولى١٤٢١هـ .
- بيان المعاني ، عبد القادر بن ملا آل غازي العاني ، مطبعة الترقي ـ دمشق ، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ .
- البيان والتبيين ، عمرو بن بحر الكناني المشهور بالجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ، الطبعة السابعة ١٤١٨هـ .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض،الملقب بمرتضى الزبيدي،تحقيق مجموعة من المحققين،دار الهداية.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ـ بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م .
- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ـ تونس ١٩٨٤م .
- التصوير البياني في آيات الأمن والخوف ، دكتورة زينب عبد اللطيف كردي ، غراس للنشر والتوزيع ـ الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ .

- التعبير القرآني ، دكتور فاضل صالح السامرائي ، دار عمار ـ عمان ، الطبعة السابعة ١٤٣٥هـ .
- التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوانات ، تشارلز داروين ، ترجمة دكتور محمد عبد الستار الشيخلي ، المنظمة العربية للترجمة ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م .
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، دكتور عبد العظيم المطعني ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٢٠هـ .
- تفسير الراغب الأصفهاني (المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة) ، أبو القاسم الحسين ابن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة دكتور محمد عبد العزيز بسيوني ، كلية الآداب ـ جامعة طنطا ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ .
- تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، تحقيق سامي بن محمد بن سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ .
- التفسير القيم ، ابن القيم ، جمع محمد أويس الندوي ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .
- التفسير الوسيط ، دكتور محمد سيد طنطاوي ، نهضة مصر ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م .
- تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد ابن عبد الوهاب) ، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي ، تحقيق دكتور محمد بلتاجي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض .
- تكنولوجيا السلوك الإنساني ، ب ـ ف ـ سكينر ، ترجمة دكتور عبد القادر يوسف ، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ١٤٠٠هـ .
- التمهيد في علم التجويد ، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري ، محمد بن محمد ابن يوسف ، تحقيق دكتور علي حسين البواب ، مكتبة المعارف ـ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

- التنوير شرح الجامع الصغير ، محمد بن إسماعيل بن صلاح الحسني الكحلاني ثم الصنعاني ، المعروف كأسلافه بالأمير ، تحقيق دكتور محمد إسحاق محمد إبراهيم ، مكتبة دار السلام ـ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ .
- تهذيب اللغة ، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي ، أبو منصور ، تحقيق محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
- التوجيه والإرشاد النفسي ، حامد عبد السلام زهران ، عالم الكتب ، الطبعة الثالثة .
- التوضيح لشرح الجامع الصحيح ، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر ابن علي المصري ، تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث ، دار النوادر ـ دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ .
- التوقيف على مهمات التعاريف ، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف ابن تاج العارفين ، المناوي ، عالم الكتب ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ .
- جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ .
- جامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم ، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، إبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ .
- جامع المسائل ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن تيمية ، تحقيق محمد عزيز شمس ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق محمد زهير الناصر ، دار طوق النجاة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
- الجامع لأحكام القرآن ، أبوعبد الله محمد بن أحمد ، شمس الدين القرطبي ، تحقيق أحمد البردوني ، إبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ـ القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ .

- الجدول في إعراب القرآن القرآن الكريم ، محمود بن عبد الرحيم صافي ، دار الرشيد ـ دمشق ، مؤسسة الإيمان ـ بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ .
- الجنى الداني في حروف المعاني ، ابن أم قاسم المرادي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
- جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف ، دار الكتبي ـ دمشق ، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ .
- جمهرة اللغة ، أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، تحقيق رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٧هـ .
- جوهر الإنسان ، إريك فروم ، ترجمة سلام خير بك ، دار الحوار للنشر ، ١٩٨٩م .
- حاشية السندي على سنن النسائي ، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ .
- حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي ، عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
- حجة القراءات ، عبد الرحمن بن محمد ، أبو زرعة ابن زنجلة ، تحقيق سعيد الأفغاني ، دار الرسالة .
- حروف المعاني والصفات ، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي الزجاجي ، أبو القاسم ، تحقيق علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م .
- حوار أم جدل؟ دراسة مصطلحية لمفهومي الحوار والجدل ، دكتور عادل نور الدين ، مكتبة الرشد ـ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ .
- خريدة القصر وجريدة العصر ، عماد الدين الكاتب الأصبهاني ، محمد بن محمد صفي الدين ، أبوعبد الله ، تحقيق وضبط وشرح : محمد بهجة الأثري ، مطبعة المجمع العلمي ، العراقي ١٣٧٥هـ .
- الخصائص الكبرى ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

- الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الرابعة .
- خواطر الإنسان بين منظاريْ علم النفس والقرآن ، وليد عبد الله زريق ، دار الكتاب العربي ١٩٩٦م .
- الخواطر ، محمد متولي الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ، دار الفكر ـ بيروت .
- دراسات بلاغية ، الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود ، مؤسسة المختار ـ القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ .
- دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، دكتور عبد العظيم المطعني ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٤٣٥هـ .
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، دكتور محمد عبد الخالق عضيمة ، دار الحديث ـ القاهرة .
- درة التنزيل وغرة التأويل ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني ، المعروف بالخطيب الإسكافي ، دراسة وتعليق وتحقيق محمد مصطفى آيدين ، جامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
- دستور الأخلاق في القرآن ، دكتور محمد عبد الله دراز ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة العاشرة ١٤١٨هـ .
- دعوة الرسل عليهم السلام ، أحمد أحمد غلوش ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ .
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي ، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ .
- دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، دكتور محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٤٢٩هـ .
- دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة تحليلية ، دكتور منير محمود المسيري ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ .

- دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم ، عبد الوهاب رشيد الحارثي ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- دلائل الإعجاز ، أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الفارسي الأصل ، الجرجاني الدار ، تحقيق محمود محمد شاكر ـ أبوفهر ، مطبعة المدني بالقاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ .
- ديوان بشار بن برد ، جمع وشرح وتعليق الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٧م .
- ديوان أبو الطيب المتنبي ، جمعه عبد الوهاب عزام ، دار بيروت للطباعة والنشر ـ لبنان ١٤٠٣هـ .
- رحلة عبر الغيب بين آيات القرآن وصفحات الأكوان ، عبد الكريم عثمان ، دار السلام ، القاهرة ١٩٨٥م .
- الرسالة ، أبو عبد الله محمد بن إدريس ، الشافعي ، تحقيق أحمد شاكر ، مكتبة الحلبي ـ مصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ .
- روافد من نهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، دكتور بسيوني عبد الفتاح فيود ، مؤسسة المختار ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود الألوسي ، تحقيق علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .
- الزمر ـ محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان ، دكتور محمد محمد أبوموسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ .
- زهر الآداب وثمر الألباب ، إبراهيم بن علي الأنصاري ، أبو إسحاق القيرواني ، دار الجيل ـ بيروت .
- سبل السلام ، محمد بن إسماعيل بن صلاح الصنعاني ، دار الحديث .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، أبو محمد ناصر الدين ابن الحاج نوح الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ١٤٢٢هـ .



- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ـ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .
- سنن ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، فيصل الحلبي .
- سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سوْرة بن موسى الترمذي ، تحقيق وتعليق أحمد محمد شاكر ، محمد فؤاد عبد الباقي ، إبراهيم عطوة عوض ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ .
- السنن الكبرى ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق حسن شلبي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .
- السنن الكبرى ، أحمد بن الحسين بن علي أبوبكر البيهقي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ .
- السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي (المتوفى ٧٧٤هـ)، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة ـ لبنان ١٣٩٥هـ .
- شخصية المرأة في القصص القرآني دراسة أدبية تحليلة ، دكتورة نورة بنت محمد الرشيد ،دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ .
- شذور الأمالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ .
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث ـ القاهرة ، الطبعة العشرون ١٤٠٠هـ .
- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ، محمد بن الحسن الإستراباذي الرضّي ، تحقيق حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي ، يحيى بشير مصطفى ، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .
- شرح العقيدة الواسطية ، محمد بن صالح العثيمين ، تحقيق سعد فواز الصميل ، دار ابن الجوزي ـ الرياض ،الطبعة الخامسة ١٤١٩هـ .

- شرح ديوان الحماسة ، أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ، تحقيق غريد الشيخ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ .
- شرح صحيح البخاري لابن بطال ، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف ، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد ـ الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ .
- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ، عبد الله بن محمد الغنيمان ، مكتبة الدار ـ المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .
- شرح مشكل الآثار ، أبو جعفر أحمد بن محمد الأزدي الحجري المعروف بالطحاوي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- شعب الإيمان ، أحمد بن الحسين بن علي الخراساني ، أبوبكر البيهقي ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، مكتبة الرشد ـ الرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ .
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، أحمد ابن فارس بن زكريا القزويني ، أبو الحسين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، أحمد بن علي الفزاري القلقشندي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .
- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، دار الصديق ، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ .
- صحيح الجامع الصغير وزياداته ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي .
- طرح التثريب في شرح التقريب ، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، أكمله ابنه أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين ، أبو زرعة ولي الدين ، ابن العراقي ، المطبعة المصرية القديمة .
- العلاج السلوكي وتعديل السلوك ، دكتور لويس كامل مليكة ، دار القلم ـ الكويت ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

- العلاقات الإنسانية ، الدكتور سيد عبد الحميد مرسي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .
- العلاقات والقرائن في التعبير القرآني ، دكتور محمود موسى حمدان ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ .
- علم الأخلاق الإسلامية ، مقداد يالجن محمد علي ، دار عالم الكتب ، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ .
- علم النفس أصوله وتطبيقاته التربوية ، مصطفى فهمي ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ، ١٣٩٥هـ .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، أبو محمد محمود بن أحمد العيني ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
- العمدة في صناعة الشعر ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين الحلبي ، مطبعة السعادة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ .
- عناية القاضي وكفاية الراضي ، شهاب الدين أحمد الخفاجي ، دار صادر ـ بيروت .
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري ، تحقيق الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ .
- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب ، محمد بن عزير السجستاني ، تحقيق محمد أديب عبد الواحد جمران ، دار قتيبة ـ سوريا ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر ، أبو الفضل العسقلاني ، دار المعرفة ـ بيروت ١٣٧٩هـ .
- فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني ، دار الكلم الطيب ـ دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .
- الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، تحقيق محمد إبراهيم سليم ، دار العلم للنشر والتوزيع ـ مصر .

- فقه اللغة وسر العربية ، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، تحقيق ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م .
- الفلسفة التربوية في القرآن ، دكتور محمد فاضل الجمالي ، دار الكتاب الجديد ، الطبعة الأولى ١٩٦٦م .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، شوقى ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة عشر .
- في تاريخ الأدب الجاهلي ، علي الجندي ، مكتبة دار التراث ، ١٤١٢هـ .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة الطبعة السابعة عشر ـ ١٤١٢هـ .
- في علم النفس التربوي ، دكتور محمد مصطفى زيدان ، عالم الكتب ـ القاهرة ، ١٩٧٤م .
- القاموس المحيط ، مجد الدين أبوطاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، الطبعة الثامنة ١٤٢٦هـ .
- القرآن أصل التربية وعلم النفس ، أحمد جهان الفورتيه ، دار الملتقى للطباعة والنشر ـ قبرص ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م .
- القرآن والصحة النفسية تأملات في الآيات القرآنية المتعلقة بالصحة النفسية ، جمال ماضي أبو العزائم ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .
- القرآن وعلم النفس ، دكتور محمد عثمان نجاتي ، دار الشروق ـ القاهرة ، الطبعة السابعة ١٤٢١هـ .
- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه دراسة تطبيقية على قصتي آدم ويوسف عليهما السلام ، عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة ـ بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ .
- القواعد الحسان في أسرار الطاعة ، رضا أحمد صمدي ، مكتبة الفهيد بجدة ، الطبعة الثالثة١٤٢٠هـ .
- القول الفصل في قضية الهم بين يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، محمد حامد إبراهيم ، دار الحكمة للنشر والتوزيع .

- القيامة الكبرى ، الدكتور عمر بن سليمان الأشقر العتيبي ، دار النفائس ـ الأردن ، الطبعة السادسة ١٤١٥هـ .
- التعريفات ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني ، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .
- كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، أبو هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ـ بيروت ، ١٤١٩هـ .
- العين ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري ، تحقيق دكتور مهدي المخزومي ـ دكتور إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال .
- الكتاب ، عمرو بن عثمان بن قنبر ، أبو بشر ، الملقب سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .
- كشف المشكل من حديث الصحيحين ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي الجوزي ، تحقيق علي حسين البواب ، دار الوطن ـ الرياض .
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، أبو البقاء الحنفي ، تحقيق عدنان درويش ، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
- لسان العرب ، محمد بن مكرم أبو الفضل ابن منظور ، دار صادر ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ .
- لمسات بيانية في نصوص التنزيل ، دكتور فاضل بن صالح السامرائي ، دار عمار ـ عمان ، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ .
- مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، الطبعة الرابعة والعشرون ٢٠٠٠م .
- مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ .

- متشابه الفواصل القرآنية ، الدكتورة سارة البديع ، عالم الكتب الحديث ـ إربد ، ١٤٣٤هـ .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير ، تحقيق أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، نهضة مصر ـ القاهرة .
- المجتبى في مشكل إعراب القرآن ، أبو بلال الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الخراط ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ المدينة المنورة ، ١٤٢٦هـ .
- مجموع الفتاوى ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ المدينة المنورة ، ١٤١٦هـ .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عبد الرحمن ابن عطية ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
- المحكم والمحيط الأعظم ، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي ، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .
- المحيط في اللغة ، إسماعيل بن عباد بن العباس ، أبو القاسم الطالقاني ، المشهور بالصاحب بن عباد ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م .
- مختار الصحاح ، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي ، تحقيق يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ .
- مختصر المعاني ، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ، دار الفكر ـ قم ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ .
- المخصص ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ، تحقيق خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .
- المدخل إلى علوم القرآن الكريم ، محمد فاروق النبهان ، دار عالم القرآن ـ حلب ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ .

- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي بن سلطان محمد أبو الحسن الملا الهروي ، دار الفكر ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
- المزهر في علوم اللغة وآدابها ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد الضبي ، المعروف بابن البيع ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ .
- مسند أبي داود الطيالسي ، أبو داود سليمان بن داود الطيالسي ، تحقيق دكتور محمد التركي ، دار هـجر ـ مصر ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عادل المرشد وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ، مسلم ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، أحمد بن محمد الفيومي ، أبو العباس الفيومي ، المكتبة العلمية ـ بيروت .
- معاني القرآن ، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس ، تحقيق محمد علي الصابوني ، جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء ، تحقيق أحمد يوسف النجاتي ، محمد علي النجار ، عبد الفتاح إسماعيل شلبى ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ مصر ، الطبعة الأولى .
- معاني النحو ، دكتور فاضل صالح السامرائي ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ .
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار) .

- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي ، أبو الحسين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ١٣٩٩هـ .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن هشام ، تحقيق دكتور مازن المبارك ، محمد علي حمد الله ، دار الفكر ـ دمشق ، الطبعة السادسة ١٩٨٥م .
- مفاتيح الغيب ، أبوعبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ .
- مفتاح العلوم ، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي ، أبو يعقوب ، تعليق وضبط نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ .
- المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني ، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .
- المفصل في صنعة الإعراب ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله ، تحقيق دكتور علي بوملحم ، مكتبة الهلال ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م .
- مقال في الإنسان دراسة قرآنية ، دكتورة عائشة بنت عبد الرحمن ، دار المعارف ـ القاهرة ، الطبعة الثانية .
- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ، أبو حامد محمد الغزالي ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، نشر الجفان والجابي ـ قبرص ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .
- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، دكتور محمد الأمين الخضري ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن ، دكتور محمود رؤوف أبو سعدة ، دار الميمان ـ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ .
- من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي ، نهضة مصر ، الطبعة الثالثة .

- من بلاغة النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية لمسائل المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم ، دكتور بسيوني عبد الفتاح فيود ، مؤسسة المختار ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ .
- من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل ، محمد سعيد البوطي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٠هـ .
- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري ، حمزة محمد قاسم ، مكتبة دار البيان ـ دمشق ، مكتبة المؤيد ـ الطائف ، ١٤١٠هـ .
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ .
- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، محمد سعيد البوطي ، دار الفكر المعاصر ، الطبعة الحادية عشرة ٢٠١١م .
- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، ابن يعقوب المغربي ، تحقيق خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى .
- الموسوعة القرآنية (خصائص السور) ، جعفر شرف الدين ، تحقيق عبد العزيز بن عثمان التويجري ، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ .
- الموطأ ، مالك بن أنس بن مالك الأصبحي ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية ـ أبوظبي ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ .
- موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، عبد الرحمن بن صالح المحمود ، مكتبة الرشد ـ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن ، دكتور محمد عبد الله دراز ، دار الثقافة ـ قطر ١٤٢٨هـ .
- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، أبو الحسن الندوي ، الدار السعودية للنشر ، الطبعة الثالثة ١٣٨٧هـ .
- النحو الوافي ، عباس حسن ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة عشرة .

- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، عدد من المختصين بإشراف الشيخ صالح بن حميد ، دار الوسيلة ، الطبعة الرابعة .
- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، راجح عبد الحميد الكردي ، مكتبة المؤيد ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، إبراهيم بن عمر البقاعي ، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة .
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم ، إبراهيم محمد سيق ، مطبوعات تهامة ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ .
- النقد الأدبي الحديث ، دكتور محمد غنيمي هـلال ، نهضة مصر القاهرة ١٩٩٦م.
- النكت والعيون ، أبو الحسن علي بن محمد البغدادي ، المشهور بالماوردي ، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، مجد الدين أبو السادات المبارك بن محمد ، المعروف بابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية ـ بيروت ١٣٩٩هـ .
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ، تحقيق : الدكتور عبد الحميد هـنداوي ، المكتبة التوفيقية ـ القاهرة .
- الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، سامي العجلان ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ .
- الوصف المشتق في القرآن الكريم دراسة صرفية ، دكتور عبد الله بن حمد الدايل ، مكتبة التوبة ـ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .
- وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .
- وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، عبد السلام أحمد الراغب ، فصّلت للدراسات والترجمة والنشر ـ حلب ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

ثالثًا : الكتب المنشورة إلكترونيًّا والرسائل الجامعية والبحوث والمقالات :

- الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ، دكتور عودة عبد الله ، بحث منشور في مجلة المسلم المعاصر ـ مصر ، العدد ١١٢ ، سنة ٢٠٠٤م .
- الاتصال غير الكلامي ، دكتورة أنمار حامد مطاوع ، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية .
- أسرار البيان في التعبير القرآني ، الدكتور فاضل السامرائي ، كتاب إلكتروني منشور على الشبكة العنكبوتية .
- أسلوب الاحتراس في القرآن الكريم صوره وبلاغته ، جواهر الرشود ، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية ، علي محمد الحارثي ، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد ـ كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى .
- أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ، دكتور محمد سالم صالح ، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية ، وعلى المكتبة الشاملة .
- التحفة الوفية بمعاني حروف العربية ، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم السفاقسي ، كتاب إلكتروني على المكتبة الشاملة .
- تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري ، الشيخ عبد الرحمن البراك ، كتاب إلكتروني على الشبكة العنكبوتية والمكتبة الشاملة .
- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد ، صهيب عبد الجبار ، كتاب إلكتروني منشور على الشبكة العنكبوتية والمكتبة الشاملة .
- حقوق المرأة في ضوء السنة النبوية ، دكتور نوال بنت عبد العزيز العيد ، بحث مقدم لجائزة الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة لعام ١٤٢٧هـ ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ، منشور على الموقع : http ://nawalaleid .com/cnt/lib/١٥٤ .

- الخلاصة في علوم البلاغة ، علي نايف الشحوذ ، كتاب إلكتروني منشور على الشبكة العنكبوتية والمكتبة الشاملة .
- شرح لمعة الاعتقاد ، خالد بن عبد الله المصلح ، دروس صوتية مفرّغة من موقع الشبكة الإسلامية .
- الكنز الثمين في سؤالات ابن سنيد لابن عثيمين ، محمد بن صالح بن عثيمين ، إعداد : فهد بن عبد الله السنيد ، الكتاب نسخة الإلكترونية أحدث من النسخة المطبوعة (وبها ٨٢٩ سؤالا) وهي مطابقة في أرقام صفحاتها للمطبوعة التي تحوي ٧٧٩ سؤالاً ، والملف صادر عن المؤلف الشيخ : فهد السنيد ولم يطبع .
- الدلالات السياقية للقصص القرآني قصة النبي موسى عليه السلام أنموذجاً ، بوزيد رحمون ، رسالة ماجستير ، قسم اللغة والأدب العربي بكلية الآداب واللغات ، جامعة فرحات عباس في الجزائر ، ٢٠١٠م .
- السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير ، عبد الرحمن المطيري ، رسالة ماجستير ١٤٢٩هـ ، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين .
- لغة الجسد في القرآن الكريم ، عمر عتيق ، بحث منشور في الشبكة العنكبوتية .
- مقال (تأثير البيئة والمكان على السلوك الإنساني) ، دكتور محفوظ ولد خيري : موقع الإسلام ويب :

http ://articles .islamweb .net/media/index .php?page=article&lang=A&id=١٩٧٣٧٧

- موقع تسهيل : www.taseel.com .
- وجوه الخطاب في سورة الإسراء دراسة بلاغية تحليلية ، سارة البديع رحمها الله ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الإمام .

فهرس الموضوعات

الباب الأول

صيغ الاعتراف

(٤٩-٣٣١)

الفصل الأول

التعبير بالقول

(٥٣-٢٥١)

المبحث الأول

التعبير بالتصريح

(٥٩-١٩٨)

المبحث الثاني

التعبير بالتلميح

(١٩٩-٢٥١)



الفصل الثاني

التعبير بالإشارة (الحركة)

(٢٥٣-٢٨١)

المبحث الأول

التفكير

(٢٥٩-٢٦٤)

المبحث الثاني

الصوت

(٢٦٥-٢٧٢)

المبحث الثالث

البصر

(٢٧٣-٢٨١)

الفصل الثالث

التعبير بالقول والإشارة معًا

(٢٨٣-٣٣١)

المبحث الأول

الرأس

(٢٨٤-٢٩٠)

المبحث الثاني

العين

(٢٩١-٢٩٤)

المبحث الثالث

الفم

(٢٩٥-٣٠١)



المبحث الرابع

الصوت

(٣٠٦-٣٠٣)

المبحث الخامس

اليد

(٣١٥-٣٠٧)

المبحث السادس

كامل الجسد

(٣٣١-٣١٧)

الباب الثاني

مؤثرات الاعتراف





الفصل الأول

سياقات الاعتراف

(٣٩٣-٣٣٧)

المبحث الأول

سياقات الاعتراف في الدنيا

(٣٦٩-٣٤٧)

المبحث الثاني

سياقات الاعتراف في الآخرة

(٣٧١-٣٩٢)

الفصل الثاني

عناصر أساليب الاعتراف

(٣٩٤-٤٨٥)

المبحث الأول

الشخصية

(٣٩٩-٤٦٠)



المبحث الثاني

الباعث

(٤٦١-٤٧٥)

المبحث الثالث

النتيجة

(٤٧٤-٤٨٥)

الفصل الثالث

خصائص أساليب الاعتراف

(٤٨٧-٦٣١)

المبحث الأول

الموضوع

(٤٩١-٥٢٩)

المبحث الثاني

الزمان والمكان

(٥٣١-٥٩١)

المبحث الثالث
المخاطب
(٥٩٣-٦٣١)

